

تاريخ  
الأدب العربي  
٧

عصر  
الدول والإمارات  
مصر

تأليف  
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الثانية



دار المعارف



عصر  
الدول والإمارات  
مصر



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي خاص بمصر في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث، وكان المؤرخون للأدب العربي - كما ذكرنا في مقدمة الجزء الخامس من هذه السلسلة - يُدخلون منه أكثر من ثلاثة قرون في العصر العباسي الثاني تنتهي سنة ٦٥٦ حين أغارت قطعان المغول على بغداد، وقوّضت ما كان بها من مبنية وحضارة، وهو خطأ محض لأن سلطان الخلافة العباسية كان قد تداعت أركانها منذ دخول البويهيين بغداد سنة ٣٣٤ إذ لم يعد لها سلطان حقيقي إلا على بغداد وأعمالها، بل إن سلطانها في بغداد كان سلطاناً منقوصاً، إذ كان السلطان الحقيقي فيها بيد البويهيين ومن خلفهم من السلاجقة. وصحب ذلك توزع العالم العربي إلى دول وإمارات حتى العصر الحديث. وأيضاً كان هؤلاء المؤرخون للأدب العربي يسمّون القرون الثلاثة التالية لغزو المغول بغداد باسم العصر المغولي، بينما كان سلطان المغول لا يتجاوز العراق وإيران، ومن الخطأ الواضح أن نقول إن ديار مصر كانت تعيش في العصر المغولي، بينما لم يكن لسلطان المغول في تلك الديار أى ظل، والصحيح أن عصر الدول والإمارات كان يظلمها، وامتد جناحاه زمنياً حتى شمل ما سباه المؤرخون باسم العصر العثماني.

وينبغي أن نعرف أن الطول الزمني لعصر الدول والإمارات لا يعني أن تاريخ الأدب العربي ظل في كل دولة من دوله أو إمارة من إماراته متساياً بسات أدبية واحدة في أزمته المتغيرة عبر قرونه المتطاولة، مهما مرّ بالدولة أو الإمارة من أحداث ومهما ألمّ بها من خطوب فإن ذلك يخالف طبائع الشعوب المتطورة دائماً من زمن إلى زمن. وهو ما جعلني أقسم تاريخ الأدب في كل بلد تقسماً زمنياً يحيط بأطواره الأدبية المتعاقبة وصورة مجتمعه وحياته العلمية. ودعاني ذلك إلى أن أرجع في كل قطر إلى الحقب السالفة لعصر الدول والإمارات منذ الفتح العربي لها لا سياسياً فحسب، بل أيضاً اجتماعياً وأدبياً وعلمياً، حتى تتضح شخصية القطر بكل ما يتميز به في حياته السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية منذ فجر تاريخه العربي إلى العصر الحديث.

وقد يُظنُّ أن طول هذا العصر دفع إلى شيء من التقاطع الأدبي أو العلمي بين دوله وإماراته، وهو ظنٌ مخطئٌ، فقد كان بين شعوبها جميعاً تواصل لا ينقطع أشبه بتواصل ذوى الأرحام: تواصل في العادات والتقاليد والمعيشة والدين والأدب والعلم، واستشعر ذلك أسلافنا إلى أقصى حد، فكانوا إذا ألفوا كتاباً عن الشعراء مثلاً ساقوا فيه شعراء العالم العربي جميعاً كما في اليتيمة للثعالبي والخريدة للعباد الأصبهاني، وبالمثل إذا ألفوا كتاباً عن القراء أو المفسرين أو المحدثين أو عن صنف من الفقهاء كالشافعية أو عن النحاة. ودأبوا منذ القرن الثامن الهجري يجمعون في القرن علماء العالم العربي وأدبائه جميعاً في كتبٍ مرتبين فيها ترتيبها أبجدياً بحيث نستطيع أن نؤرخ في كل قرنٍ للحركتين الأدبية والعلمية في أى قطرٍ عربي، ومعنى ذلك أنه ظلت تربط بين الأقطار العربية طوال عصر الدول والإمارات والأزمات قبله وحدة أدبية وجدانية، وعلمية عقلية.

وقد بدأت في هذا الجزء بعرض تاريخ مصر السياسى، وأقدم الأزمنة التى خطها التاريخ بها زمنُ الخلفاء الراشدين وماتلاه سريعاً من زمن الأمويين، وفيها أخذ الدين الحنيف ينتشر في مصر ويعتقه كثيرون من سكانها القبط. ويحكمها ولاة من قبل العباسيين ويدخلها مع جنودهم كثير من العناصر الفارسية. وتستشعر مصر استقلالها السياسى منذ أواسط القرن الثالث الهجرى في عهد الطولونيين، وبالمثل في عهد الإخشيديين. وتستولى عليها الدولة الفاطمية وتنشئ فيها خلافة شيعية مستقلة عن خلافة العباسيين ببغداد، وتبوء جميع محاولاتها بنشر عقيدتها الإسماعيلية الشيعية بين المصريين بإخفاق ذريع. ويمتد حكمها أكثر من مائتى عام، وتأخذ في الضعف بعد نحو قرن وينزل حملة الصليب الشام في أواخر القرن الخامس الهجرى ويستولون على بيت المقدس. ويغطّ خلفاؤها في نوم عميق إلى أن قيّض الله لمصر صلاح الدين الأيوبي، فأسس بها الدولة الأيوبية، وأخذ يسحق ضلوع حملة الصليب في حطين وغير حطين، وتبعه خلفاؤه الأيوبيون ينزلون بهم ضربات قاصمة. ويخلفهم المماليك، وينزلون المغول في عين جالوت ويمزقون جموعهم، وتفترق فلولهم على وجوهها إلى الشمال، ويظهرون الشام من تلك الفلول ومن بقايا حملة الصليب ورجسهم. ويدور الزمن دورات، وينزل العثمانيون مصر، وتتحول من دولة ذات سلطان عظيم إلى ولاية عثمانية.

ويُحبل النَّيلُ مصر من قديم إلى جنات وزروع وغروس شتى، وأهلها ذلك لرشاء

واسع - على مرّ الزمن - لمن يسعون في مناكبها. ودائمًا كان بها - في العهود الإسلامية - ثلاث طبقات: عليا، ووسطى، ودنيا، وفي الطبقة العليا الوالى وصاحب الخراج، والقاضى، وقواد الجند، وكبار الإقطاعيين، وكبار التجار ومعهم الأشراف من البيتين العباسى والعلوى. وفي الطبقة الوسطى العلماء والجند وأوساط الزراعة والصناع والتجار، وفي الطبقة الدنيا أهل الريف وعامة الصناع والتجار والرقيق من أواسط إفريقيا ومن أرمينية وشعوب البحر المتوسط. وترك الحكام للكنيسة وكبار الإقطاعيين من القبط ما لهم من الأرض وحقوقها نظير الخراج، وأدى المقتدرون من القبط الجزية، وهى فى حقيقتها ضريبة دفاع، إذ لم يكونوا يشتركون فى الحرب وحماية وطنهم. وكانت الزراعة تدرّ كثيراً من طيبات الرزق، وكانت الصناعة رائجة: صناعة الورق والنسيج واستخراج بعض المعادن كالنظرون. وتلقى مصر بكنوزها فى حجر أحمد بن طولون فيبنى قصره العظيم، وجامعه الكبير وبيارسطاناً ضخماً، ويفرق ابنه خمارويه فى ترف بالغ. وتنعّم الدولة الإخشيدية بثناء مصر، ويتضخم فى عهد الفاطميين، ويكثر من القصور والبذخ والترف وأدواته، ويتسعون فى الاحتفال بالأعياد الإسلامية، وأعياد القبط والفرس. وأصبحت مصر فى عهد صلاح الدين وخلفائه الأيوبيين نكتة حربية تُعدُّ لضرب حملة الصليب الضربات القاضية، ومع ذلك اتسعت مصر فى العمران وبناء المدارس الكثيرة والخانقاهات. ويخلفهم المماليك، وتعيش مصر طوال زمنهم فى رغد من العيش، وتزدهر بها الحياة والعمران ازدهاراً واسعاً وكانت قد أصبحت ملاذاً لعلماء العالم العربى النازحين من وجه النورمان والإسبان غرباً ومن وجه المغول شرقاً. وتدور بها الدوائر فيحتلها العثمانيون، ويزايلها غير قليل من الرخاء ومن منزلتها الكبرى فى العالم العربى.

وتحدثت عقب ذلك عن الدعوة الفاطمية الإسماعيلية الشيعية المتطرفة ومبادئها وتمسك المصريين بعقيدتهم السننية وكأنما كانت تلك الدعوة بمصر صيحات ذهب أدرج الرياح وبالمثل تحدثت عن الزهد وكيف أن مصر عرفت الضربين من التصوف الفلسفى والتصوف السننى مع بيان أهم طرقه وأعلامه وخانقاهاته.

ومعروف ما لمصر من دور عظيم فى نشأة الحضارة الإنسانية ونشأة العلم بمعناه العالمى وظلت ترعاه طويلاً. وكانت قد خدمت جذوته قبيل نزول الإسلام بها، وعاد إليها الانتقاد تدريجاً بحيث لا نصل إلى أواسط القرن الثانى الهجرى حتى يصبح لعلمائها حظ واضح من المساهمة فى الدراسات الدينية ونشرها فى العالم العربى، فهى

تنشر قراءة وَرْش، ومذهب مالك في بلاد المغرب والأندلس، وتنتشر مذهب الشافعي في الشام وبغداد وخراسان. وسرعان ما تكتب تاريخ الفتوح لإفريقيا والأندلس لأول مرة، وتكتب روايةً للسيرة النبوية الزكية، تصبح إماماً لكتب السيرة الشريفة، ويضع أحد أبنائها وهو ذو النون أسس التصوف الإسلامي. وتزداد حركتها العلمية نشاطاً في عهد الفاطميين ويؤسسون بها جامعة سموها دار العلم، ألحقوا بها مكتبة ضخمة. وتأخذ الحركة العلمية بمصر في ازدهار واسع لعهد الأيوبيين وما أسسوا بها من عشرات المدارس، ويزداد عددها في عهد المماليك ازدياداً مفرطاً حتى ليقول ابن بطوطة حين زار مصر لأيامهم إن أحداً لا يستطيع أن يحيط بها لكثرتها. ولم تكن المدارس وحدها دور العلم فقد كانت تشاركها في ذلك المساجد والجوامع مثل الجامع الأزهر. ومع خمود تلك الحركة العلمية في عهد العثمانيين ظلت مصر حامية للتراث العربي، وموتلاً لعلماء المغرب والمشرق، وظلت تضيء في جامعة الأزهر مصابيح العلم والعرفان.

وعرضت نهضة العلوم المختلفة بمصر عرضاً تفصيلياً تاريخياً على مر الأزمنة، وبدأت بعلوم الأوتل، وألمت بما كان لمصر فيها من نشاط قبل الفتح العربي سواء في الهندسة أو الرياضة أو الفلك أو الطب أو الكيمياء أو الفلسفة. وانتفعت مصر الإسلامية بما كان فيها من هذا التراث، وضمت إليه ما نقل ببغداد من الفلسفة وعلوم الأوتل عن اليونانية وغير اليونانية. وقد تحدثت عن النشاط العلمي والفلسفي لمصر منذ أيام الفاطميين وأعلامه على مر الحقب، وتحدثت عن جغرافيتها منذ ابن سليم مكتشف المجرى الأعلى للنيل في أواسط القرن الرابع الهجري. وبالمثل تحدثت عن النشاط في علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد وأعلام مصر فيها جميعاً على مر التاريخ ومع كل علمٍ مصنفاً القيمة. وأيضاً عرضت علوم القراءات والتفسير والحديث النبوي والمذاهب الفقهية وعلم الكلام والتاريخ وعلماءها جميعاً على تعاقب الحقب، وما لهم من مصنفاً باللغة القيمة، وذكرت في كل علمٍ من العلوم الدينية واللغوية وعلوم الأوتل من نبغوا فيه أيام العثمانيين. وبذلك أصبح التاريخ العلمي لمصر وعلمائها الأفاضل في كل علم وفن مرسومًا رسمياً بيننا دقيقاً منذ القرن الثاني الهجري حتى العصر الحديث.

وقد أخذت مصر - بعد الفتح العربي - تتعرب سريعاً لاعتناق كثير من سكانها القبط الإسلام لما استقر في نفوسهم من أن من يسلم منهم يصبح له جميع حقوق

العربي الفاتح، ويدلُّ بوضوح على كثرة من أسلم منهم أن الجزية التي كانت تؤخذ من القبط في عهد عمر بن الخطاب هبطت إلى أقل من النصف في عهد معاوية. وعملت على السرعة في تعرب مصر هجرات كثير من القبائل إليها حين سمعوا بزروعها وثارها وطيبات الرزق فيها، وامتزجوا بسكانها عن طريق المعيشة والمصاهرة، مما أعدَّ لتعرب من لم يدخل من القبط في الدين الحنيف، حتى إذا كنا في القرن الثالث الهجري تمَّ تعرب القبط برهبانهم وبطاركتهم وإن ظلت القبطية حية في بعض الأديرة.

وكان نشاط الشعر العربي بمصر محدوداً زمن الأمويين لأن كثرة الجيش العربي الفاتح كانت من اليمينية، والشعر إنما يكثر على لسان القبائل المضرية والقيسية، وربما نظمت بها أشعار لم يسجلها الرواة، حتى إذا كنا في زمن ولاتها العباسيين رأينا الشعر يأخذ في النشاط بها، ونزلها أبو نواس وأبو تمام، وازداد نشاطه فيها لعهد الدولتين الطولونية والإخشيدية ونزلها المتنبي وأحدث نزوله بها حركة أدبية خصبة.

وتتحول مقاليد الحكم فيها إلى الدولة الفاطمية. ويترجم الثعالبي في كتابه «اليتيمة» لكثيرين من شعراء مصر، ويفرد لها العباد الأصبهاني مجلدين في كتابه «الخريدة» ترجم فيها لمائة وأربعين شاعراً، ويطرد هذا الازدهار للشعر في مصر طوال زمن الأيوبيين والمماليك، وتظل منه بقية أيام العثمانيين.

ويكثر في مصر الشعر الدوري منذ ابن وكيع التنيسي في القرن الرابع الهجري، وتكثر الرباعيات حتى إذا ازدهرت الموشحات في الأندلس درسها ابن سناء الملك شاعر صلاح الدين الأيوبي ووضع لها عروضها ورسومها كما وضع الخليل بن أحمد في القرن الثاني الهجري عروض الشعر العربي ورسومه. ولابن سناء الملك فيها موشحات تشيع فيها حلاوة الجرس والسلاسة والعدوية، وبذلك كتب لها الذيوع الواسع بعده في مصر على السنة الشعراء مثل العزّازي، وأكثر المتصوفة في زمن المماليك من النظم فيها وتلحينها في أذكّارهم. ويستظهر الشعراء - منذ القاضي الفاضل - ألوان البديع ومحسناته، ويصبح التفنن فيها مقياس إبداعهم.

وأخذت - بعد ذلك - أترجم لأعلام الشعر في مصر طوال عصر الدول والإمارات محلاً لشخصياتهم الأدبية وموزعاً لهم على أغراض الشعر وموضوعاته الأساسية، فللمديح أعلام مبدعون من مثل ابن سناء الملك واضع عروض الموشحات، وللرثاء والشكوى أعلامها النابهن مثل علي بن النضر بملكته الشعرية

الخصبة، وللدعوة الإسماعيلية أعلام مختلفون مثل ابن هانيء الشاعر الفاطمي، وللغزل أعلام وجدانيون مرهفون مثل البهاء زهير، وللفخر والهجاء أعلام مبرزون مثل تميم بن المعز وابن الذرؤى المقذع في هجائه، وللطبيعة ومجالس اللهو أعلامها مثل الشريف العقيلي وله في الطبيعة المصرية ديوان كبير بديع، وللزهد والتصوف والمدائح النبوية أعلام يتغنون بالحب الإلهي مثل ابن الفارض وبالحب النبوي مثل البوصيري، وللفكاهة أعلام توج أشعارهم بالتندير والدعابات والتوريات والهزل مثل ابن دانيال وله مسرحيات هزلية بديعة. وعرضت شعراء الشعر الشعبي العامي وطرائف مما نظم أعلامه من فنونه في الأزجال والتوريات والفكاهات المستملحة. وبلغ عدد من ترجمت لهم من شعراء مصر الأفاذ في عصر الدول والإمارات اثنين وأربعين شاعرًا، ومع كل شاعر تصوير شخصيته الأدبية وخصائصه الفنية وروائع شعره. وقد ذكرت مع كل غرض من أغراض الشعر شاعرًا ناهبا من الشعراء أيام العثمانيين. ولم أترجم لعشرات من شعراء مصر تكتظ بهم كتب الطبقات والتراجم لأنه لم يكن لأحدهم دور بارز في تطور الشعر بمصر، وأنا لا أكتب دائرة معارف لشعرائها على مر الأزمنة، وإنما أكتب تاريخها الأدبي في الشعر، ومن كان لهم دور في التطور به أتاح لهم مجداً أدبياً كثيراً أو قليلاً.

ومضيت أعرض النثر وكتابه بمصر بادئاً بالرسائل الديوانية منذ أنشأ أحمد بن طولون ديوان الإنشاء واتخذ له كتاباً مجيدين. ويعنى الفاطميون بهذا الديوان ويشتهر فيه غير كاتب بحسن بيانه، وخاصة في الحقبة الأخيرة من أيامهم. وتبلغ الرسائل الديوانية الذروة الأدبية على يد القاضي الفاضل وزير صلاح الدين، ويتألق نجمه وتصيح له مدرسة كبيرة، ويتكاثر تلاميذها في بقية أيام الدولة الأيوبية ودولة المماليك، وترجمت لأربعة من أعلام الكتابة الديوانية. وأخذت الرسائل الشخصية تزدهر بدورها منذ زمن الفاطميين، واتسع ازدهارها بعدهم، وترجمت لثلاثة من أعلامها الناهبين. ويعنى بعضُ الكتاب - منذ أيام الفاطميين - بكتابة المقامات، وقلما تقوم على الشحاذة الأدبية مثل مقامات الحريري، إنما تقوم على بعض مسائل علمية، أو على وصف الطبيعة، أو على قصصٍ فكاهية، أو على وعظ، أو على مفاخرات بين الأزهار، أو بين السيف والقلم، وما إلى ذلك من موضوعات أدبية، وترجمت لأربعة من كتابها البارعين. وتكثر المواعظ والابتهالات والمناجيات الربانية على نحو ما صوّرت ذلك عند ثلاثة من أعلامها المهمين. وعرضت - بعد ذلك - أربعة من كتب النوادر

هي: كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف، وهو حكايات قصيرة لطيفة تحض على عمل الخير، وكتاب أخبار سيبويه في نقد الحكام والناس ممزوجاً بالتبأله، وكتاب الفاشوش في حكم قراقوش وكان صلاح الدين ينيبه عنه أحياناً في حكم القاهرة، وصورة ابن عماتي في طائفة من الأحكام الطائشة تحكى غفلته وحمقه وبلهه، وكتاب هز القحوف ويكتظ بنوادير لاذعة على لسان أهل الريف المصرى تصور بؤسهم أيام العثمانيين. وتلا ذلك أربع سير شعبية: سيرة عنتره، والسيرة الهلالية، وسيرة الظاهر بيبرس، وسيرة سيف بن ذى يزن، وجميعها تصور البطولة العربية وفضائلها الرفيعة. وعرضت أخيراً كتاب ألف ليلة وليلة وتاريخ نقله إلى العربية وما أضيف إلى قصصه الهندية من قصص بغدادية وقصص مصرية مع بيان ما يتميز به كل نوع من أنواع هذه القصص. وقد صاغت مصر الكتاب بلغتها العامية وانتشر بها في العالم العربى منذ عصر المماليك. وبنفس العامية انتشر في البلاد العربية من قديم ما ألّفته مصر من كتب السير الشعبية المذكورة آنفاً: سيرة عنتره وأخواتها. وكان لذلك أثره الكبير في تعرف تلك البلاد على العامية المصرية قبل العصر الحديث بمئات السنين.

وهذه الدراسة المتشعبة لتاريخ الأدب العربى في مصر أثناء حقب طويلة تمتد من فجر تاريخها العربى إلى العصر الحديث جعلتني أرجع إلى كل ما استطعت من المصادر والمراجع المتصلة بتاريخ مصر ودولها المتعاقبة، وبمجتمعها وطبقاته وشئونه المعيشية والعقيدية، وبالحركة العلمية فيها ونموها وازدهارها، مع العرض التاريخى لعلمائها الأفاضل في علوم الأوائل والعلوم اللغوية والدينية والكتابة التاريخية. ورجعت أيضاً إلى كل ما استطعت الاطلاع عليه من الشعر ودواوينه، وما اتصل به من الرباعيات والموشحات، كما رجعت إلى الكتابات النثرية المتنوعة من مثل الرسائل والمقامات والمواظع والسير والقصص الشعبية، مع رسم الشخصيات الأدبية للشعراء والكتاب النابهين وعرض خصائصهم الفنية عرضاً نقدياً تحليلياً. ولا أزمع أنى صورت تاريخ الأدب العربى في مصر قبل العصر الحديث تصويراً كاملاً، إنما حاولت، وأرجو ألا أكون قصرت. والله أسأل أن يلهمنى السداد فى الفكر، والإخلاص فى القول والعمل. وهو حسبى ونعم الوكيل.

القاهرة فى ٢٠ من مارس سنة ١٩٩٠ م.

شوقى ضيف



# الفصل الأول

## السياسة والمجتمع

١

فتح العرب لمصر والحقب الأولى<sup>(١)</sup>

(١) فتح العرب لمصر

معروف أن مصر نهضت بأقدم دور في تاريخ الحضارة الإنسانية ، فعنها تلتقت الأمم القديمة هندسة البناء كما تشهد بذلك أهراماتها الشاخنة . كما تلتقت عنها فكرة الكتابة ونقش الحروف ، وبذلك كان لها فضل كبير في بث المعرفة ، وأعدّها التّيل لتكون أستاذة الأمم في العناية بالزراعة وتنظيم الترع والجسور . وهى أول من حاول تأليف أمم الشرق الأوسط في وحدة امتدت من الفرات إلى النيل ومن آسيا الصغرى إلى بلاد البنت والثّوبة . ودار بها الزمن دورات ، فدخلها الرّعاة الهكسوس والأشوريون ، وسرعان مازايلوها ، وغزاها الفرس في عهد قبيز عام ٥٢٥ ق . م ونزلها الإسكندر المقدوني عام ٣٣٣ ق . م وأسس بها مدينة الإسكندرية ، وأقام بها قائده بطليموس هو وأبناؤه دولة البطلمة الإغريقية متخذين الإسكندرية عاصمة لهم . وفي عام ٣١ للميلاد استولى عليها الرومان ، وثارت عليهم مصر مراراً ، ودخلها الفرس وقاومتهم مصر والرومان ، ففارقوها سريعاً ، وتسوّء أحوالها سوءاً شديداً ، فإن هرقل إمبراطور بيزنطة كلن يضطهد من لا يمتنعون مذهبه الملكاني المسيحي ، وكان المصريون يعاقبة ، يقولون بأن الله والمسيح

للمسعودى وحسن المحاضرة السيوطى ( طبعة عيسى الباب  
الجلوى ) ١٠٦ / ١ وفتح العرب لمصر لبتلز ( الترجمة العربية )  
طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر وتاريخ الشعوب  
الإسلامية لهوكلمان ( الترجمة العربية ) طبع بيروت ١ / ٩٩ .

( ١ ) انظر في فتح مصر فتوح مصر لابن عبد الحكم وفتوح  
البلدان للبلاذرى وتاريخ الطبرى وابن الأثير والمغرب لابن  
سعيد قسم القسطنطينية ( طبع جامعة القاهرة ) وخطط  
المقريزى ( طبعة دار التحرير ) ١ / ٥٥١ والنجوم الزاهرة  
لابن تغرى بردى : فواتح الجزء الأول ومروج الذهب

اتحاداً في طبيعة واحدة بينما كان الملكانية يرون أن للمسيح طبيعتين طبيعة لاهوتية روحية وطبيعة ناسوتية جسدية ، وعارض المصريون المذهب الملكاني البيزنطي معارضة شديدة ، ويعين هرقل قبرس ( المقوقس ) بطريقاً للإسكندرية جامعاً إلى سلطته الدينية السلطة الزمنية ، ويأخذ في حمل المصريين على مذهبه الملكاني فيقاومونه مقاومة حادة ، ويعنف بهم وبرهبانهم ويثقل عليهم في الضرائب . وبذلك يضيف إلى العُلل الدينية غللاً اقتصادياً .

وتقاوم مصر بكل ما استطاعت ، إذ كانت تعدُّ الدين مظهر استقلالها وحريةها وشخصيتها ولذلك اشتد سخطها على بيزنطة ، وبينما هي في هذا السخط الحاد إذا العرب بقيادة عمرو بن العاص يقبلون من الشرق عام ١٩هـ / ٦٤٠ م ويستمرون في زحفهم حتى حصن بابلون ( بالقرب من ممفيس القديمة ) ويطول حصارهم له ، فيغزو عمرو إقليم الفيوم ويشدد الحصار على حصن بابلون ، ويضطر قبرس ( المقوقس ) إلى التسليم . ويتجه عمرو إلى الشمال الغربي ويستولى على الإسكندرية . ولم يكن يقاومه في حصن بابلون والإسكندرية جميعاً سوى الروم . وكان المصريين وجدوا فيه وفي العرب مخلصاً لهم ، إذ سرعان ما عرفوا أن الإسلام يكفل لهم حريةهم الدينية ولايمس كنائسهم ومعابدهم ، ولذلك لم يقاوموا هؤلاء الفاتحين إذ وجدوهم يردون لهم استقلالهم الديني .

ودالماً الدين في مصر يوضع فوق السياسة والحكم وفوق كل شيء . وما كان ليعقل أن يحمل المصريون السلاح ويدافعوا عن الروم الذين يعتدون على مذهبهم الديني وحريةهم الدينية ، حتى لقد فرَّ البطريق القبطي بنيامين وظل محتبئاً حتى دخل العرب مصر وكفلوا للقبط معتقداتهم الدينية ، ورفعوا عن كواهلهم ما أبهظها من ضرائب الروم الفادحة . فكان طبيعياً أن يتعاون قبط مصر مع العرب وأن ينفضوا أيديهم من الروم ، ولذلك حين عاد أسطولهم إلى الإسكندرية واستولوا عليها لم يلقوا تأييداً منهم ، وهزمهم العرب بقيادة عمرو بن العاص هزيمة ساحقة عام ٦٤٦ م / ٢٥هـ ومن بقي منهم ولَّى في البحر المتوسط إلى غير مآب . وبدأت من حينئذ مصر دورتها العربية الجديدة .

(ب) زمن الولاية<sup>(١)</sup>

أصبحت مصر ولاية تتبع الخلافة ، وكان أول ولايتها عمرو بن العاص الفاتح لها ، ولا يزال باقيا من آثاره في القاهرة مسجده الذي يحمل اسمه والذي بناه في القسطنطينية : موضع معسكره في حصاره لحصن بابليون وتسمى منطقته الآن باسم مصر القديمة . وحين تم له طرد الروم من الإسكندرية بنى بها مسجد الرحمة . وكان ذلك إبدانا باستيلاء الإسلام عليها كما استولى على مصر من جميع أطرافها . وولى مصر في عهد عثمان عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وكان عمرو بن العاص قد تغلغل في إفريقيا الشمالية فتبعه يتغلغل فيها ، وفي سنة ٣٤ حاول الروم غزو الإسكندرية ، فغزاهم في البحر ودمر سفنهم ، وتسمى الغزوة « ذات الصواري » لكثرة ما اجتمع فيها من السفن . ثم كانت الفتنة أيام عثمان رضوان الله عليه ، واختلف عليها ولاية لعللى رضى الله عنه ، وولياها عمرو بن العاص لمعاوية حتى توفى سنة ٤٣ وفي أيامه أرسل عقبة بن نافع فتغلغل في إفريقية ، وكانت له فيها أيام ولاية عمرو بن العاص الأولى جولات بعيدة ، وستصبح له فيما بعد حين يوليه معاوية قيادة الفتوح في المغرب جولات أكثر عمقا ، يخطط فيها مدينة القيروان بالقرب من تونس الحالية .

وتولى مصر بعد عمرو بن العاص ابنه عبد الله أشهرا ، ثم عزله معاوية وولى عليها عقبة بن عامر الجهني ، وأخذ الولاية في أيام بنى أمية يتعاقبون عليها حتى بلغوا في نحو تسعين عاما ثمانية وعشرين واليا ، إذ أتبع الأمويون في ولاية مصر ستة تغيير الولاية ، وهى سنة سيئة ، إذ كان الولى يقدّم وهو يعلم أنه معزول عما قليل ، فكانت لاتهمه شئون مصر بمقدار ماتهمه شئون نفسه والعمل على اكتناز الثروة الضخمة قبل أن يتسلم كتاب العزل . وربما كان خير وال أموى تولى مصر حينئذ عبد العزيز بن مروان ، وقد امتدت ولايته من سنة ٦٥ حتى سنة ٨٦ واشتهر بما بنى في حلوان من قصور وغرس من جنات وزروع وكان جوادا ممدحا ، وإليه شد الشعراء الرحال من الحجاز ونجد والعراق ، ويقال إنه كان له ألف جفنة (قدر) تُنصب كل يوم حول داره لإطعام

خلدون وخطط المقرئى ٥٦١/١ وما بعدها وحسن المحاضرة  
٥٧٨/١ ما بعدها .

(١) انظر في ولاية مصر زمن الأمويين والعباسيين كتاب  
الولاية والقضاء للكندى (طبعة جيست) والجزء الأول  
والثانى من النجوم الزاهرة وتاريخ الطبرى وابن الأثير وابن

الناس ، وكان له بجانبها مائة جنة يطاف بها على القبائل . ولأريب في أن هذا الجود الفياض إنما كان على حساب الشعب ، وما يؤدى من ضرائب باهظة . وكان للولاة الأمويين في فرض الضرائب الاستثنائية أفانين كثيرة ، وكانت الرعية تضجّ منها في كل أقاليم الدولة .

ويظل هذا الظلم يزداد عسفا إلى أن يتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة سنة ٩٩ فيأمر برفع الظلم عن رعيته وإلغاء كل لون من ألوان الضرائب الاستثنائية . وقد وجد الولاة يلزمون كل من أسلم من القبط وغيرهم من الموالى بالجزية ، كأنهم لا يزالون على دينهم القديم ولم يدخلوا في الإسلام ، معطلين بذلك أحكام الدين الحنيف ، فوقف كل هذا الظلم وما يجترأ إليه من فساد ومن تعطيل أوامر الدين ، من ذلك ما كتب به إلى حَيَّان بن شُرَيْح صاحب ديوان الجند والخراج في مصر : « ضَع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فإن الله تبارك وتعالى يقول : ( فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ) ويقول ( قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يُعْطُوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ) . ويبدو أن حيان بن شريح تلكأ في تنفيذ أمر عمر بن عبد العزيز ، فكتب إليه غاضبا : « قد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عمن أسلم ، فَبِحَ الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمدا ﷺ هاديا ولم يبعثه جانيا » (١) .

واضطر حيان بن شريح أن يصدع لأمر عمر ، غير أن مدة خلافته كانت قصيرة ، إذ سرعان ما توفى لأول سنة في المائة الثانية ، فعاد ولاة بني أمية إلى سيرتهم الأولى في مصر وغير مصر ، ومضوا يعصرون القبط ، سواء منهم من أسلم ومن ظل على دينه . وبذلك نفهم انتقاص القبط على الولاة سنة ١٠٧ وكذلك بأخرة من أيام الأمويين ، فإن الولاة لم يكونوا يرعون فيهم ما فرضه الإسلام من العدل وحرمة من الظلم والعسف . وظلت القسطنطينية حاضرة الولاة الأموي منذ اختط عمرو بن العاص للناس منازلهم فيها ، ولا تزال آثارها باقية إلى اليوم . ويقول المؤرخون إن الدور فيها كانت تتألف أحيانا من ست طبقات أوسع . ولما قدم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين إلى مصر منهزما وتبعه الجيش العباسى إلى الصحراء أمام مدينة القسطنطينية أذن القواد للعسكر بالبناء حيث نزلوا ، فقامت ضاحية أو مدينة العسكر بجوار القسطنطينية ، وكان يتزها ولاة بني العباس ، وتلقانا بعض انتقاصات للقبط حتى سنة ١٥٠ ثم لانمود نسجع عنها ، إنما تلقانا انتقاصات

(١) انظر في هذه الرسالة وسابقتها خطط المقرئى ١٤٢/١

للعرب . وفي رأينا أن في ذلك إشارة واضحة إلى ماتم فعلا من امتزاج بين الأقباط والعرب ، فإن كثيرين من القبط دخلوا في الإسلام وكثيرين من العرب سكنوا القرى وزرعوا الأرض وامتزجوا بالقبط وأصبحوا يؤلفون أمة واحدة . وأول انتقاص يلقانا - للعرب - انتقاص دحية حفيد عبد العزيز بن مروان بالصعيد لسنة ١٦٥ وكان قد تولى موسى بن مصعب الموصلى فشدد في استخراج أموال الخراج وضاعف ما يُطلب من كل فدان وجعل خراجا على الأسواق والدواب وارتشى في الأحكام فثارت عليه قيس واليمانية ، وانتهى أمره بقتله . وقضى سريعا على ثورة دحية سنة ١٦٩ . ونظلم نسمع عن انتقاضات في الحوف الشرق ، ويستغل الفرصة الجروى في تئيس وبنو السرى الذين استولوا حيناً على مقاليد الأمور ، مما اضطر المأمون أن يسند إليهم الولاية على مصر من حين إلى حين . وتحدث في هذه الأثناء ثورة الفقهاء في قرطبة على الحكم الرضى الأمير الأموى ويأمرهم بمغادرة البلاد ، فيتزلون الإسكندرية ويستولون عليها . ويرسل المأمون قائده عبد الله بن طاهر ، فيعيد الأمن إلى مصر لسنة ٢١٠ ويُخرج منها الأندلسيين إلى جزيرة كريت ويستولون عليها . ويعود ابن طاهر في سنة ٢١٢ ويتنقض أهل الحوف مراراً ، ويثور القبط ، ويضطر المأمون إلى القدوم بعسكره إلى مصر سنة ٢١٧ فيقضى على ما بها من فتن . ويأمر واليه على مصر في سنة ٢١٨ أن يأخذ الناس بمحنة خلق القرآن المشهورة . ويتولى بعد المأمون أخوه المعتصم في نفس السنة المذكورة ويأمر بإسقاط العرب من الدواوين بمصر وغير مصر ، ومنذ هذا التاريخ يندمجون نهائياً في أهل مصر من القبط ومن أسلم منهم . ويغزو الروم دمياط سنة ٢٣٨ وسرعان ما يرحلون عنها إلى غير رجعة .

وربما كان أهم ما خلفه زمنُ الولاة أيام الدولة العباسية كثرة العناصر الفارسية التي دخلت مصر ، فقد كان الجيش الذي تعقب مروان بن محمد ، وبني له « العسكر » ، أكثره إن لم يكن كله من الفرس ، وظلت الجنود التي ترسل مع بعض الولاة أو للقضاء على بعض الانتقاضات والفتن فارسية في جملتها ، وكان كثير ممن يسند إليهم الولاية بمصر قرناً ، وبالمثل من كان يُسند إليهم القضاء . وكل ذلك معناه أن العناصر الفارسية تكاثرت بمصر في زمن العباسيين ، وكان لهم أسلاف قداماء جاءوا مع اليمانيين في فتح مصر ، إذ كانت اليمن في الجاهلية تابعة حيناً للفرس فكان بها عناصر فارسية ، وقد دخلت في الإسلام وشاركت اليمانيين في رحلتهم للفتوح . وبذلك كله نستطيع أن نفسر وجود نفر غير قليل يرجعون إلى أصول فارسية بين علماء مصر وفقهائها مثل الليث ابن سعد الفقيه المشهور وكذلك بين كتابها في الدواوين .

(ج) الطولونيون<sup>(١)</sup>

هم أول أسرة حكمت مصر حكماً مستقلاً ، وحقاً كانت تتبع الخلافة العباسية ، غير أن تبعيتها لها كانت اسمية ، وزعيم هذه الأسرة ومؤسس دولتها أحمد بن طولون ، وهو تركي الأصل ، كان أبوه طولون من موالى المأمون والمقربين منه ، ورزق بابنه أحمد سنة ٢٢٠ هـ فغنى بتربيته ، وبدأ بحفظ القرآن الكريم حتى أتقنه ، وأكب على حلقات العلماء وخاصة فقهاء الأحناف يتزود منها . ومازال أبوه يخدم الخلفاء حتى توفي في عهد المتوكل ، فقوض لأحمد ما كان لأبيه من الأعمال ، وولى بعض الشغور ، وكان شديد الإزراء على الترك في معاملتهم السيئة للخلفاء ، ونال الحظوة عند الخليفة المستعين ، وحاول الأتراك أن يدفعوه إلى المشاركة معهم في مقتله فأبى ذلك . ولم تلبث مصر أن أقطعت لزواج أمه بايكباك ، فأنابه عنه في حكمها سنة ٢٥٤ هـ وسرعان ما أخذ يعمل على الاستقلال بها . وبدأ ذلك بأن جمع في يده شئونها المالية بجانب شئونها الإدارية ، واتخذ جيشاً ضخماً بلغ عداده مائة ألف ، وفي أثناء ذلك ضُمَّت إلى حكمه الإسكندرية وبرقة ، ولانصل إلى سنة ٢٦٤ هـ حتى تضم إليه الشام . وبلغ خراج مصر في زمنه أربعة ملايين وثلاثمائة ألف دينار ، مما جعله يتسع في إقامة المباني والمؤسسات . وكان قد سكن العسكر في أول أمره شأن الولاة من قبله ، ثم أخذ في بناء مدينته القطائع ، بادئاً بقصره الكبير ثم بقطائع لجنده من الترك والنوبة والروم ولجواشيه من القواد وكبار الموظفين . وعنى ببناء مسجده الكبير ، وبُنيت مساجد كثيرة وطواحين وحمامات وأفران وحوانيت . وجعل أمام قصره ميداناً كبيراً يُلقَّب فيه بالكرة ، ولما عظم أمره كان يطعم الفقراء والمساكين كل يوم ، ويقال إن صدقاته كانت تبلغ في السنة أكثر من مليوني دينار ، وبني مارستاناً ضخماً ، واتخذ لنفسه ديواناً كبيراً على شاكلة دواوين الخلافة . وحدثت خصومة بينه وبين الموفق ولى عهد الخليفة المعتمد وقائده ، مما أدى إلى اشتباك جيوشهما . وعنى في دولته بأن ينقل إليها الأنظمة الفارسية التي كانت متبعة في بغداد وسامراء . وأخذ البيعة من بعده لابنه حمارويه . ولم يلبث ابن طولون أن توفي سنة ٢٧٠ هـ .

المقريزي ١/ ٥٨٩ وسيرة أحمد بن طولون للبلوي (طبعة محمد كرد علي) وراجع أحمد بن طولون وحمارويه والطولونيين في دائرة المعارف الإسلامية وتاريخ الشعوب الإسلامية لبوكلمان ص ٢٢٠ .

(١) انظر في الطولونيين تاريخ الطبري واليعقوبي وابن الأثير وابن خلدون والجزء الثالث من النجوم الزاهرة والمغرب لابن سعيد (طبع جامعة القاهرة) ص ٧٣ وما بعدها والولاة للكندى (طبعة صادر) ص ٢٣٩ وما بعدها ونحطط

وتبلغ دولة الطولونيين في عهد خمارويه كل ما كان يؤمل لها من ازدهار . وتحدث في أوائل حكمه مناوشات بين جيشه وعسكر الموفق ، وسرعان ما ينقذ بينها صلح وثيق . ويقال إن رواتب الجيش المصرى بلغت في أيامه تسعمائة ألف دينار ، مما يدل على ضخم الجيش ومدى عنايته به . وفرغ بعد صلحه مع الموفق للعناية بشئون دولته ، وزاد في قصر أبيه وحول الميدان الذى كان أمامه بجوار مسجد أبيه إلى بستان رائع حمل إليه كل صنف من الشجر وأنواع الورود والرياحين والزعفران ، غير ما اتخذ فيه من الفساقى والنافورات ، وسنعرض لذلك في غير هذا الموضع ، ووسع لإصطبلاته لكثرة دوابه وحيواناته الأليفة والوحشية . ويقول المؤرخون : كان من عجائب الدنيا في زمنه عرض الخيل بمصر . وبلغ من مجده وعظم شأنه أن طلب الخليفة المعتضد منه في سنة ٢٧٩ أن يزوجه ابنته قطر الندى ، وبنوه المؤرخون بجهازها وما كان فيه من تحف وهدايا نفيسة ، ويقولون إن خمارويه بنى لها على رأس كل منزلة بين القطائع وبغداد قصرًا قرش أروع قرش . ومع كل ما انتهى إليه من ملك مصر والشام ومع ما اشتهر به من الشجاعة والبأس قُدِّر له أن يقتل بأيدى غلمانه في دمشق سنة ٢٨٢ . وأقام قواده بعده ابنين صغيرين له بادئين بأكبرهما « أبى الجيش » ولا يدور العام حتى يخلعوه ، ويولوا أخاه هرون وكان ضعيفًا ، فلم يستطع لاهو ولا جيشه الصمود أمام القرامطة وشعب جيوشهم في الشام ، مما جعل الدمشقيين يلتمسون من الخليفة المكتفى أن يعينهم بجنده ويلبى استغاثتهم . ويُقتال هرون سنة ٢٩٢ ويتولى بعده عمه شيان الحكم اثني عشر يومًا إذ سرعان ما يقدم إلى مصر جيش الخلافة بقيادة محمد بن سليمان ، فيزيل حكم الطولونيين ، ويبكيهم الشراء طويلا . وتعود مصر ثانية ولاية عباسية ، ويتعاقب عليها ولاية مختلفون من بغداد ، وتكثر في عهدهم غارات الفاطميين من عاصمتهم المهديّة بجوار القيروان على حدود مصر السفلى والعليا ، ويُذخرون مرارًا ، ويحجزهم إلى حين الإخشيديّ وأبناؤه .

#### (د) الإخشيديون<sup>(١)</sup>

الإخشيدي هو محمد بن طُمُج بن جُفّ القرغاني التركي خدم أبوه وجده الخلفاء العباسيين ، كما خدمهم بدوره ، ويقال إنه وُلد سنة ٢٦٨ وما زال يعمل في خدمة الخلفاء وقوادهم حتى وُلّوه

تراجم الإخشيدي وكافور وخطط المقرئى ١/٦١٧ ومروج الذهب للمسعودى ومصر في عصر الإخشيديين للدكتور سيدة كاشف ، وراجع مادة إخشيدي في دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في الإخشيديين تاريخ ابن الأثير وابن خلدون والولاية للكندى ص ٣٠٤ وما بعدها والجزءين الثالث والرابع من النجوم الزاهرة والمغرب (قسم القسطنطية) ص ١٤٨ وما بعدها وابن خلكان (طبعة دار صادر) في

الثغور ، ويلمع اسمه حين تولى مدينة الرملة بفلسطين سنة ٣١٦ ولم يلبث أن تولى دمشق سنة ٣١٨ وجاءته الكتب في سنة ٣٢١ بولاية مصر غير أنه لم يدخلها ، وظل على دمشق حتى ولاة الخليفة الراضى مصر سنة ٣٢٣ وضم إليه البلاد الشامية والجزرية والحرمين . وفى سنة ٣٢٧ خلع عليه الراضى لقب الإخشيد ، وهو لقب ملوك فرغانة موطن أجداده ، وغلب اللقب على اسمه . وولى ابن رائق أمر دمشق ، فجمع جنده لحرب الإخشيد ، وتنشب الحرب ، وينعقد بينهما الصلح على أن يترك ابن رائق مدينة الرملة للإخشيد وتظل معه بقية الشام ، وسرعان ما يتوفى وتعود ديار الشام جميعها إلى الإخشيد . وتقع وحشة بينه وبين سيف الدولة الحمداني صاحب حلب ويصطلحان على أن تكون لسيف الدولة حلب وأنطاكية وحمص ، أما باقى بلاد الشام فتكون للإخشيد . ويأخذ البيعة من بعده لابنه أنوجور ويتوفى لآخر سنة ٣٣٤ . وكان حازما يقظا فى حروبه وتديبر شئون دولته مكرما لجنوده . ويقال إن جيشه كان يبلغ أربعائة ألف ، وكان له ثمانية آلاف مملوك وكان يحرسه منهم فى كل ليلة ألفان . وكان أنوجور ابنه فى الرابعة عشرة من عمره حين ولى مصر وكانت ولايته اسمية ، أما الولاية الحقيقية فكانت لكافور كبير حاشية أبيه الذى اختاره وصيا عليه ، وكان عبداً أسود خصياً ، واختلف - فيما يبدو - إلى حلقات العلماء ، واشتره الإخشيد وأعجب به فأعتقه ومازال يرقى به فى المناصب حتى أصبح من قواده . ولما توفى سيده نهض بشئون ابنه أنوجور على خير وجه ، وساس مملكته خير سياسة ، وكان الحاكم الحقيقى صاحب الأمر والنهى فى إقليمى الدولة الكبيرين : مصر والشام . وكان يبنى الشعراء ويكثر من عطايمهم ، وزار مصر حينئذ المتنبى ، وله فيه مدائح وأهاج مشهورة .

ومازال كافور يدبر أمور الدولة لأنوجور حتى توفى سنة ٣٤٩ وأخذ البيعة من بعده لأخيه على وقام على دولته خير قيام حتى توفى سنة ٣٥٥ فاستقل بالأمر من هذا التاريخ واتخذ جعفر بن الفضل ابن الفرات وزيراً له . وكان يُدعى له على المنابر فى مصر والشام ومكة والحجاز . وكانت تُقرأ عنده ليلا السير وأخبار الدولتين الأموية والعباسية ، وكان سيوسا ماهراً ، من ذلك أنه كان يدعى بالطاعة للعباسيين وفى الوقت نفسه يهادى المزعزعات الفاطمية صاحب المهديّة والمغرب ويظهر ميله إليه خداعاً . وكان على علم بالعربية ، وكان كريماً معطاء . وكانت أيامه أيام هناة ورخاء ، ولم يلبث أن توفى سنة ٣٥٧ فعقد أولياء الدولة الولاية لأحمد بن على بن الإخشيد ، وكان صيباً فى الحادية عشرة من عمره ، واضطربت الأحوال فى الشام اضطراباً شديداً لغارات القرامطة هناك ، وعيّنهم

في الأرض فساداً ، ولم تلبث جيوش المعز الفاطمي أن زحفت من الغرب بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ واستولت على البلاد وانقرضت الدولة الإخشيدية .

## ٢

## الفاطميون - الأيوبيون

(١) الفاطميون<sup>(١)</sup>

تنتسب هذه الأسرة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وقد تكونت حوله فرقة الإسماعيلية بينما تكونت حول أخيه موسى الكاظم الفرقة الاثنا عشرية ، وكانت الفرقتان تعيشان على التقية والدعوة سرّاً لأئمتها العلويين من سلالة موسى وإسماعيل . وأتيح للإسماعيلية داع خطير هو عبد الله بن ميمون القداح ، وهو فارسي من الأهواز ، وكان ملماً بالفلسفة والملل والأديان ، فنظّم الدعوة الإسماعيلية ووضع مبادئها الشيعية الغالية . وبارح موطنه إلى البصرة ثم إلى سلّمية بالقرب من اللاذقية في الشام ، ومن هناك اتخذ دعاة للنحلة الإسماعيلية في العراق وغير العراق ، مما هياً لظهور القرامطة في البحرين وجنوب العراق ، كما هياً لظهور داع إسماعيلي من جنوبي الجزيرة يسمى أبا عبد الله ، وتصادف أن التقى في أثناء الحج بنفر من قبيلة كتامة المغربية ، فارتضوا دعوته الإسماعيلية وأمره عليهم وسار معهم إلى موطنهم ، فجمع حوله منهم جيشاً قضى به على الأغلبية حكام تونس سنة ٢٩٦ ويمضى إليه من سلّمية عبيد الله الفاطمي ويسلمه مقاليد الأمر ، وتدين له البلاد ، فيتلقب بالمهدى ويعلن نفسه خليفة شرعياً ، ويبنى عاصمة جديدة له بجوار القيروان يسميها المهديّة نسبة إليه .

وكان القداح قد جعل أئمة الدعوة الإسماعيلية قسمين : أئمة حقيقيين مستورين أو مستقرّين ، وأئمة بجانهم مستودعين هم رموس الدعاة المسمون بالحجج ، وبذلك كان هو نفسه إماماً

الزاهرة لابن تفرّى برّدى وابن خلكان في تراجم الخلفاء وجوهر الصقل والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي والنكت المصرية لعارة اليمنى وصبح الأعشى في مواضع متفرقة والفاطميون في مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لأدم ميتر .

(١) انظر في الفاطميين المنتظم لابن الجوزي وتاريخ مصر لابن ميسر وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والمغرب لابن سعيد ( قسم القاهرة ) طبع دارالكب واتعاظ الحنفا بأخبار الخلفاء للمقرئزي وكتابه المخطوط ٢١/٢ ومابعدها وكتاب حسن المحاضرة والأجزاء: الثالث والرابع والخامس من النجوم

مستودعا ، ومن هنا جاء الشك في نسب عبيد الله وأبنائه الفاطميين إلى السيدة فاطمة الزهراء ، فقيل إنه فاطمي حقيقة وأنه ابن أئمة مستورين هم على الترتيب التقي والوفى والرضى بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وإنما استتروا خوفا على أنفسهم من العباسيين ، وأسماء الأولين على الترتيب الحسين وأحمد وعبيد الله ، وقيل بل هو غير فاطمي من أبناء القداح الإمام المستودع أو أحفاده . ومما شكك في هذا النسب المحض الذى كتبه الخليفة القادر العباسى سنة ٤٠٢ به شهادة القضاة والأشراف العلويين بالظعن في نسب الفاطميين . وقد رفض ابن خلدون في تاريخه هذا الظعن ومايطوى فيه من شك في نسب عبيد الله وأسرته الفاطمية وجزم بصحة نسبه إلى على رضوان الله عليه والسيدة فاطمة الزهراء .

ويتسع سلطان عبيد الله في المغرب ، ويضم إلى سلطانه ليبيا والجزائر ، وتشنُّ عساكره غارات على مصر ، ويتوفى سنة ٣٢٢ فيخلفه ابنه القائم وتستولى جنوده على المغرب ، ويثور عليه الخوارج في جبل أوراس ثورة عنيفة ، ويتوفى سنة ٣٣٤ ويخلفه ابنه المنصور فيقضى نهائيا على ثورة الخوارج ، ويتوفى سنة ٣٤١ فيعتلى ابنه المعز عرش الخلافة الفاطمية ، وتدين له المغرب بالولاء ماعدا سجلماسة وفاس ويفتتحهما قائده جوهر الصقلى ويمهد له البلدان المغربية حتى المحيط الأطلسى ماعدا مدينة سبتة ، فإنها ظلت لبني أمية أصحاب الأندلس .

وكانت عين المعز على مصر ، فلما وصله الخبر بموت كاهن وشعر كأنما انهار السد الذى كان يحول بينه وبين الاستيلاء عليها أمر قائده جوهر بالاستعداد لفتحها ، وجهزه بأكثر من مائة ألف فارس وبكل مايلزمه من المال والسلاح . ولم يكده يشرف على الإسكندرية حتى لقيته جماعة من المصريين برسالة من الوزير جعفر بن القرات بطلب الصلح والأمان . وتقدم جوهر حتى وصل بعسكره إلى الجزيرة ودخل القسطنطينية والبر الشرقى بجيشه دون مقاومة تذكر من الإخشيدية والكافورية . ونزل بالقرب من الجامع الأزهر ، وأخذ تَوًّا يخط مدينة القاهرة . وكتب جوهر إلى المعز يشره بالفتح ، وقطع الخطبة لبني العباس ولبس السواد شعارهم ، وأمر أن يلبس الخطباء البياض وأن يقال في الخطبة : « اللهم صلِّ على محمد المصطفى وعلى على المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سيئطى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا وصلِّ على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله » . وأخذ جوهر في بناء الجامع الأزهر واستغرق ذلك ثلاث سنين . وخط قصر الخلافة ، وحفر أساسه في أول ليلة نزل فيها بالقاهرة ، واختطت

كل قبيلة - خِطَّة عُرِفَتْ بها وبنيت حاراتها من يومئذ ، من مثل حارة الروم والحسينية والحراشفت . ولم يلبث أن ضم الشام إلى مصر سنة ٣٥٩ وخطب للمعز فيها وفي الحرمين . وفي نفس السنة = ٣٥٩ أمر المؤذنون أن يؤذّنوا بحَيٍّ على خير العمل . وظل جوهر مستقلا بتدبير مصر والشام أربع سنين وعشرين يوما إلى أن وصل المعز سنة ٣٦٢ وكان عاقلا حازما أدبيا ، وتروى له بعض أشعار ، وهو يُعدّ المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية ، ولم تبق بلد من الشام إلى فاس والمحيط الأطلسي إلا أُقيمت فيه دعوته وخطب له في جمعته وجماعته إلا «سبّته» فإنها كانت مع الأمويين أصحاب قرطبة كما ذكرنا . ولما استقرت له الأمور بمصر استخلف على إفريقية يوسف بُلْكَيْن بن زيري الصّنهاجى . واستمر جوهر في علو منزله إلى سنة ٣٦٤ إذ رأى المعز أن يعزله عن دواوين مصر وجباية أموالها ، ورد إليه العزيز مكانته حتى وفاته سنة ٣٨١ .

وتوفى المعز سنة ٣٦٥ بعد أن وطّد الملك العظيم لأبنائه وأحفاده يتوارثونه نحو مائتى عام ، وخلفه ابنه العزيز نزار ، وكان كريما شجاعا ، يعفو عند المقدرة محبا للصيد وخاصة صيد السباع ، وكان ينظم الشعر لكن لا يبلغ فيه مبلغ أخيه تميم . واتسعت مملكته بالقياس إلى مملكة أبيه ففتحت له بقية بلاد الشام : حمص وحمّاة وشيْز وحلب ، وخطب له بالموصل وباليمن . وعهد إلى غير وزير بتدبير مملكته ، منهم يعقوب بن كِلْس وكان يهوديا وأسلم . وبنى قصر البحر ، ولم يكن له مثل شرقا ولا غربا ، وقصر الذهب . وقال ابن الجوزى إنه ولى عيسى بن نسطوروس النصرانى ومنشا اليهودى فكثبت إليه سيدة مصرية بالذى أعزّ اليهود بمنشا والنصارى بابن نسطوروس وأذلّ المسلمين بك إلا نظرت في أمرى ، فقبض عليهما وأخذ من ابن نسطوروس ثلاثمائة ألف دينار . ويروى أنه كان يقول : « أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عندى » .

وما زال العزيز رفيقا برعيته حتى توفى سنة ٣٨٦ وخلفه ابنه الحاكم ، وكان في الحادية عشرة من عمره ولم يكن سوى العقل ولا النفس ، فاضطرب سلوكه واضطرب حكمه بين جبن وشجاعة وبخل وسخاء ، وتارة يجلس في الشمع ليلا ونهارا ، وتارة يجلس في الظلام الدامس ، وحينما يحب العلماء والصلحاء ، وحينما يفتك بهم في غير رحمة ، وقتل كثيرين من قادة دولته وأصحاب مناصبها الرفيعة . وتارة يأمر بأن يُكْتَب على المساجد والجوامع سبّ أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص وتارة ينهى عن ذلك . وتارة يمنع من صلاة التراويح

وتارة يبيحها ، وكان ينهى عن بعض المأكولات مثل الملوخيا والترمس والجرجير والسّمك لاقشر له والزيب . وحُرّم الخمر وشدّد في تحريمها ، ورأى لذلك منع بيع العنب وقطع كرومها ، وأراق في النيل خمسة آلاف جرّة عسل خشية أن تصير نبيذا . وفي سنة ٤٠٤ منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلا ونهارا ، ومنع لذلك الأساكفة من صنع الأحذية والخفاف لهن وظل ذلك حتى نهاية حكمه . وحُرّم - فيما حُرّم - الغناء ولعب الشطرنج والترّهة على ضفاف النيل ، إلى غير ذلك مما يصور خبله وشدوذه وفساد عقله . وكان دعاة عقيدته الإسماعيلية لا يزالون يُشيعون - مستضيين بنظرية الفيض الأفلاطونية - أن للإمام الفاطمي نسبتين نسبة إلى عالم القدس ونسبة إلى عالم الطبيعة ، مما أدى بالحاكم إلى أن يظن أنه تجسد للذات الإلهية وأغراه بذلك دعائه ، وفي مقدمتهم داع دُرُزى من جبال لبنان ، ويقال بل هو أعجمي دَعَا في تلك الجبال بربوبيته وتبعه الناس هناك . وانسابت من هذه العقيدة عقيدة التجسد للذات الإلهية شعبة إلى التّصَيُّرية في سوريا ، إذ يؤمنون بربوبية علي بن أبي طالب . ولما لم يعد في قوس الصبر مترع حيكت مؤامرة لقتله وتخليص البلاد من شره وخبله ، فقتل في شوال من سنة ٤١١ ويقال إن أخته ست الملك هي التي دبّرت قتله .

وولى الخلافة الفاطمية بعد الحاكم ابنه الظاهر ، وله ست عشرة سنة ، وقامت عمته ست الملك بتدبير دولته أحسن قيام وبذلت الأموال الكثيرة في الجند وساست الناس سياسة حسنة ، واستقام الأمر للظاهر ، وعدل في الرعية ، وأعلن البراءة من عقيدة التّصَيُّرية والدُرُزِيَّة جميعا . وحوالى سنة ٤٢٠ خرج عليه صالح بن مرداس الكلابي واستولى على حلب ، كما خرج حسان بن الفرج البدوى إلى مدينة الرّملة وتغلب على أكثر الشام ، وجمع هو وصالح بن مرداس الجموع لحرب الظاهر ولقيتها جيوشه عند غزة ، فانهزم حسان وقتل صالح ، وعادت الشام إلى الطاعة . وبنى الظاهر قصر اللؤلؤة وكان جوادا سمحا حلّما محببا للرعية .

وتوفى الظاهر سنة ٤٢٧ وخلفه ابنه المستنصر وهو في السابعة من عمره ، وظل في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر ، واستوزر كثيرين كان من بينهم صدقة بن يوسف الفلاحى استوزره سنة ٤٣٦ ، وكان يدبّر له الدولة أبو سعد التستري اليهودى ، وقتلا في سنة ٤٣٩ . ويؤسس محمد بن على الصليحي دولته الصليحية في اليمن ويعلم ولاءه للمستنصر ، ويدعوله على المنابر هناك ، وتتقدم حتى سنة ٤٤٣ وإذا المعز بن باديس يعلن العصيان في المغرب ، ويقطع الخطبة للمستنصر ويخطب لى العباس ، وبذلك تخرج المغرب من طاعة الفاطميين . وما توافى سنة ٤٥٠ حتى يعظم شأن

أرسلان البساسيري في بغداد فيقطع خطبة الخليفة العباسي في عاصمته ويخطب للمستنصر ويدعو له على المنابر نحو عام إلى أن قَصِيَ عليه وعلى فتنه أو دعوته السلطان طُغْرُبُكُ السلجوقي . ويحدث في أيام المستنصر غلاء عظيم تظل مصر تعانیه سبع سنوات كسنى يوسف المهلكة ، بدأت في سنة ٤٥٧ وظلت حتى سنة ٤٦٤ وفيها اشد القحط بالبلاد واستولى عليها الخراب والوباء وكان الناس إذا مشوا تساقطوا في الطرقات من الجوع ، ويقال إن الرغيف بيع بخمسين دينارا وإن البيضة بيعت بدينار وتوجهت أم المستنصر وبناتها في سنة ٤٦٢ إلى بغداد من فرط الجوع . وزاد طين هذا الغلاء بَلَّةً نشوب حرب في الجيش بين الترك والسودان ، وكادت لاتبقي في قصر الخليفة تحفة نفيسة إلا بيعت بأرخص الأثمان . وبدا من الصعب إنقاذ مصر من كل هذا البلاء لولا أن استنجد المستنصر في سنة ٤٦٨ ببدر الجمالي ، وكان قد تولى الشام والسواحل للمستنصر ، فاستدعاه وقَوَّض الأمور إليه ، فاستقامت بحسن تدبيره وهدأت الفتن وأصبح الحكم والأمر كله له وليس للمستنصر إلا الاسم ومات قبله بأشهر ، فعهد إلى ابنه الأفضل بالقيام مكانه ، ويتلقب شاهنشاه أو ملك الملوك ولا يلبث المستنصر أن يتوفى سنة ٤٨٧. ويقال إنه قد عهد من بعده إلى ابنه الأكبر نزار ، غير أن الأفضل الجمالي كان يكرهه ، فلما اجتمع الأمراء والخوارج بعد وفاة المستنصر حُببهم في أن يخلفه ابنه أحمد ، فبايعوه بالخلافة وجعلوا أو جعل الأفضل لقبه المستعلي . وأحدث ذلك انقسامًا بين إسماعيلية مصر وإسماعيلية إيران فبينما كان الأولون يعترفون بإمامة المستعلي كان الآخرون لا يعترفون بإمامته إنما يعترفون بإمامة نزار ويرون أن سلالة هم الأئمة الحقيقيون ، وحاول نزار أن يسترد الخلافة فنار بالإسكندرية وقضى الأفضل على ثورته . ولا يزال هذا الخلاف قائما بين الإسماعيلية في الهند إلى اليوم ، فالْبُهْرَة مستعلية وشيعة أغاخان نزارية . ولم يكن للمستعلي مع الأفضل حكم ، كما كان حال أبيه المستنصر مع بدر الجمالي ، وظل ذلك حال الخلفاء مع الوزراء إلى نهاية دولتهم الفاطمية ، فقد أصبح الخلفاء الفاطميون وراء الحجاب ولا أمر لهم ولأنه إلا أن يخرجوا في مواكب أول العام الهجري ولصلاة الجمعة في رمضان وصلاة العيدين .

ولعل الحكم الوراثي لم يتضح شره ولا عواقبه الوحشية كما اتضح في عهد الفاطميين بمصر ، فقد كان الخليفة الثالث وهو الحاكم - مجنونًا أو مجنولًا ، وتولى المستنصر وهو في السابعة من عمره كما مرُّبنا ، وكأنما جيء بالخلافة أرجوحة للصبى ، وتوفى المستعلي سريعا سنة ٤٩٥ فأقام الأفضل ابنه الأمر مقامه وهو في الخامسة من عمره ، والبلاد في أشد الحاجة إلى حاكم حازم ، فالسلاجقة

يستولون على كثير من مدن الشام وماتلبت طائفة الصليبيين أن تجثم على ديار الشام والموصل ، وتتاقب الكوارث والخطوب منذ سنة ٤٩٠ إذ تقدم جموعهم من آسيا الصغرى ، ويتسلل بلدوين إلى الرها بالموصل ويستولى عليها ويكون بها أولى إماراتهم واستولت جموع أخرى على أنطاكية وكونوا بها إمارتهم الصليبية الثانية . يأخذون المعرة في سنة ٤٩٢ ويستولى جودفرى في نفس السنة على بيت المقدس وتكون بها إمارتهم الصليبية الثالثة ويستولى ريموند على طرابلس سنة ٥٠٢ وتكون بها إمارتهم الصليبية الرابعة ، ويستولون على مدن لبنان وكثير من مدن فلسطين مثل الرملة وعكا ، ولا يبقى لمصر في الشام سوى عسقلان . وكل ذلك يحدث والأفضل سادر في غفلته والجيش المصرى غائب عن حياه إلا بعض تجريدات برية وبحرية لاتغنى شيئا . ويُقتل الأفضل سنة ٥١٥ ويُقتل الخليفة الأمر سنة ٥٢٤ ويتولى عرش الخلافة الحافظ ، ويستوزر أحمد بن الأفضل الجالى وكان هو وأبوه وجده سنين ، فيأمر خطباء المساجد أن لا يدعوا في خطبهم للحافظ كما يأمر المؤذنين أن يسقطوا من أذانهم « حَىَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ » أحد شعارات الفاطميين ، وكأنه أراد أن يزيل الخلافة الفاطمية من مصر ، غير أن أنصارها من حواشيا وشيعتها أسرعوا فقتلوه . ويتولى الخلافة بعد الحافظ ابنه الظافر سنة ٥٤٤ ولا يلبث أن يتوفى فيخلفه ابنه القاتر وهو فى الخامسة من عمره سنة ٥٤٩ ويتوفى سنة ٥٥٥ فيخلفه العاضد آخر خلفائهم وهو فى الحادية عشرة من عمره . وكان الخلافة أصبحت أرجوحة حقيقية للصيبة والغلبان ، ونظلم نرى مع كل خليفة وزراء ، وغالبا يسقطون مقتولين . ولم يكن لكل منهم من شاغل سوى أن يجمع أكثر ما يمكن من الأموال لنفسه ، مُثْقَلًا فى أثناء ذلك على المصريين بالضرائب الفادحة ، بينما يعيش هو ومن وراءه من الخلفاء للهو والقصف .

وتفسد فى أثناء ذلك التدهور والانهلال أداة الحكم فى مصر فسادا شديدا . ومع ذلك لاتزال ترسل إلى الشام بعض تجريدات ذرًا للرماد فى العيون ، وحتى عسقلان يحتلها الصليبيون ويطمحون إلى احتلال وادى النيل . وبأخرة من أيام هذه الدولة يقتل ضرغام وشاور على الوزارة ويفزع شاور إلى البطل المغوار نور الدين صاحب حلب مستنجداً به ويهجم حينئذ أميرك الصليبي صاحب بيت المقدس على مصر ويتقدم حتى بلبس ، ويقطع المصريون عليه الجسور والسدود فيضطر إلى العودة . ويقدم سنة ٥٥٩ شاور ومعه عساكر نور الدين بقيادة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، ويمكثان لشاور فى الوزارة ، وسرعان مايقبض ظهر الجن لشيركوه وجنوده ،

ويدفعه شيطانه إلى الاستعانة ضده بأملريك والصليبيين ، ومحاصرون شيركوه في بليس يضطرون إلى رفع الحصار عائدين إلى بيت المقدس . ويخرج شيركوه من مصر ، فيعظم بغى شاور وطغيانه ، فيستنجد العاضد بنور الدين سنة ٥٦٢ ، ويرسل ثانية شيركوه وصلاح الدين ، فيستنجد شاور بأملريك ، ويليّه ، وتدور عليه الدوائر ، ويخرج على وجهه هو وجنوده من القاهرة ، ويخرج أيضا شيركوه وصلاح الدين إلى الشام . ولا يلبث الصليبيون أن يعودوا لامتلاك مصر ويقدم أسطول صليبي إلى تّيس ويعظم الخطب . ويستصرخ العاضد وشاور نور الدين ، فيرسل إليهما عسكريًا بقيادة شيركوه وصلاح الدين سنة ٥٦٤ ويستنقدان مصر من الصليبيين وشاور جميعا . ويتولى شيركوه الوزارة للعاضد شهورا ، ويتوفى فيخلفه صلاح الدين ، ويكتب إليه نور الدين مرارًا يأمره بتحويل الخلافة في مصر من الفاطميين إلى العباسيين . وتصادف أن مرض العاضد مرض الوفاة ، وفي أثناء ذلك صدع صلاح الدين بمشيئة نور الدين ، فأقام الخطبة لبني العباس في أول المحرم سنة ٥٦٧ ولم تمض إلا أيام حتى توفى العاضد في يوم عاشوراء . وبذلك انتهى أمر الفاطميين وحكمهم للديار المصرية .

### (ب) الأيوبيون<sup>(١)</sup> (صلاح الدين)

اتفق المؤرخون على أن الأيوبيين أسرة كردية أصلها من بلدة دُون في آخر إقليم أذربيجان وبها ولد شاذى جد صلاح الدين وأبوه أيوب وعمه شيركوه ، وقد هاجروا منها إلى بغداد ، ولم يلبث أيوب أن أصبح حافظا لقلعة تكريت ، والتحق شيركوه بعماد الدين زنكى ، وتحول أيوب إلى العمل مع حاكم دمشق ، بينما ظل شيركوه عند زنكى ولما توفى عمل مع ابنه نور الدين وحدث أن حاصر عسكر نور الدين دمشق بقيادة شيركوه بينما كان أخوه أيوب على رأس حاميتها ، واتفق الأخوان على تسليمها لنور الدين ، فعين أيوب حاكما عليها ، وأقطع شيركوه حمصا ، وقربه منه . فلما استنجد شاور والعاضد بنور الدين أرسل إليهما عسكريًا بقيادة شيركوه

الدين لابن شداد والفيح القسى في الفتح القلمى والبرق الشامى للهاد الأصهبى وابن خلكان في تراجم صلاح الدين وسلاطين الدولة وتاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ص ٣٥٠ عدا ما كتب عن صلاح الدين والحروب الصليبية حديثا في العربية واللغات الأجنبية .

(١) انظر في الأيوبيين وصلاح الدين تاريخ ابن الأثير وابن خلدون ومفرج الكروب لابن واصل والروضتين وذيل الروضتين لأبى شامة وخطط المقرئى والسلوك الجزء الأول ومرتة الزمان لسبط ابن الجوزى والجزءين السادس والسابع من النجوم الزاهرة وبدائع الزهور لابن إياس وسيرة صلاح

وابن أخيه صلاح الدين بن أيوب ، وتطورت الظروف كما مررنا ، ففضى صلاح الدين نهائياً على الدولة الفاطمية ، وردَّ مصر إلى الخلافة العباسية ، واستولى على قصر الفاطميين وما كان به من أموال وكنوز . وجدَّ في إصلاح أحوال مصر ، فحطَّ عن كواهل المصريين أثقال الضرائب الباهظة التي كان يتنافس وزراء الفاطميين في فرضها ، وبذَّل الأموال ، وملك قلوب الرجال ، وطمحت نفسه إلى أن يصبح والياً للخلافة العباسية بمصر ، إذ نراه يلمِّح في الرسالة التي كتب بها إلى وزير بغداد ، يبينه فيها بإزالة الدعوة الفاطمية وإقامة الدعوة العباسية ، إلى ما يدور بخلده قائلاً عن نفسه : « إنه مفتقر إلى أن . . يقلد ما فتح ، ويبلغ ما اقترح ، ويقدم حقه ولا يطرح ، ويقرب مكانه وإن نزع ، وتأتبه التشريفات الشريفة » . ويأخذ في إعداد جيش قوى للقاء الصليبيين وينحى منه العناصر الزنجية والأرمنية التي كانت تعمل في جيش الفاطميين .

ويطمح إلى الاستيلاء على فلسطين باب مصر الشرقى ، ويحاصر الشوبك في سنة ٥٦٧ ويرفع الحصار عنها حين علم أن نور الدين يجهز الجيوش لحرب الصليبيين وكأنه خشي لقاءه ، ومع ذلك كان يعدُّ نفسه تابعا له ، وكان الخطباء في مصر يدعون في آخر خطبهم لنور الدين . وعاد صلاح الدين في السنة التالية إلى حصار الشوبك والكرك ، ثم رفع الحصار ، وإن كان قد استولى على أيلة ( العقبة ) . وفي سنة ٥٦٩ يستأذن نور الدين في إنفاذ أخيه توران شاه على رأس جيش إلى اليمن للقضاء على خارجي هناك استفحل شأنه وكذلك على بقية الدعاة للفاطميين ، ويذهب إليها ويستولى عليها . وفي هذه السنة قبض على جماعة من شيعة الفاطميين كانوا يدبرون مؤامرة لقتله وكان من بينهم داعي دعاة الفاطميين وعارة اليمنى الشاعر ، وقتل داعي الدعاة وصلب عارة .

وفي هذه السنة توفي نور الدين ، وخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل ، وكان في الحادية عشرة من عمره ، وبدا في وضوح أنه لا يصلح للنهوض بأعباء الحكم وجهاد الصليبيين . واعترف صلاح الدين بسلطانه ، وأمر بالدعاء له في خطبة الجمعة وسك النقود باسمه . ولم يبادر بالتجهيز إلى الشام لانشغاله بأسطول تورماندي صقلية هاجم الإسكندرية وحاقت بالأسطول الهزيمة ، وأيضا لانشغاله بثورة في جنوبي بلاد الصعيد أشعلها موالو الفاطميين يسمى الكتر ودارت عليه الدوائر . ومرَّ بنا آنفاً أنه أرسل أخاه توران شاه للاستيلاء على اليمن ومفاتيح البحر الأحمر ، ونراه يسيِّر عسكرياً بعد عسكر إلى بلاد المغرب الأفريقي ودانت له بالطاعة برقة وقسطيلية وقفصة وتوزر مما يدل على أنه فكر مبكراً في وحدة البلاد العربية التي أرادها نور الدين . وها هو مبكراً قد أصبح

يضم سلطانه جزءاً من الشمال الإفريقي المغربى والحجاز واليمن . وجاءته الأخبار بأن نواب الملك الصالح إسماعيل يستقلون بالحكم ويتنازعون تنازعا مريراً مستعينين بالصليبيين ، فاستقر في نفسه أنه لا بد أن يفرض سلطانه على ديار الشام والموصل قبل أن يسدد للصليبيين ضرباته . وخرج من مصر في سنة ٥٧٠ بجيش كثيف ، وقصد دمشق واستولى عليها ، كما استولى على كثير من المدن الشامية . وتقاومه جنود الملك الصالح إسماعيل وابن عمه سيف الدين غازى صاحب الموصل ويُكْتَبُ له النصر ، ويعقد صلحاً مع الملك الصالح يُبْقِي له فيها حلب وحدها ، بينما تدخل الديار الشامية جميعها في سلطانه . ويعود إلى مصر سنة ٥٧٢ ويأمر قراقوش ببناء سور ضخم حول القاهرة والفسطاط حماية لها ، ويُنْظِلُّ المكوس التي كانت تؤخذ من الحجاج بحجَّةٍ ويعوِّض صاحب مكة عنها آلاف الأرباب قحاً تفرَّق في أهل الحرمين ، ويأخذ في إنشاء المدارس والرباطات بالقاهرة منذ هذا التاريخ . ويعود إلى الشام في سنة ٥٧٣ ويواقع الصليبيين في غير معركة وترجح كفته رجحاناً واضحاً ، ويمضى إلى الشمال وديار الموصل ويستولى على كثير منها : ويعود إلى مصر ويضبط الأمور فيها ويأمر ببناء قلعة الجبل . ويأتيه الخبر بموت الملك الصالح إسماعيل ، فيخرج في أول سنة ٥٧٨ ويتم له الاستيلاء على حلب وبعض بلدان الجزيرة والموصل . وتسوّل لرايچنالد نفسه أن يهاجم مكة والمدينة من حصنه الكرك واستولى على أيلة وشحن سفناً بالرجال وآلات الحرب ، وعاثوا في البحر الأحمر وموانيه الحجازية والمصرية ، وتعقَّبهُ العادل - نائب أخيه صلاح الدين في مصر بأسطول مصرى فتك بسفنه ورجاله .

ونصل إلى سنة ٥٨٣ فبعد صلاح الدين جيشاً ضخماً لمنازلة الصليبيين الجنوبيين وينفخ في نفير الحرب فيأتيه المجاهدون من كل حادَّب ، ويتجه نحو طبرية ، وتلتقى إحدى سراياه في شرق حيفا بجماعة من الداوية والإسبتارية الطائفتين اللتين نذرتا أنفسهما لحرب المسلمين ، وتسحقهما السرية ويُقْتَلُ قائد الطائفة الثانية . ويتجمع الصليبيون من كل مكان بقيادة جاي لوزيچنان صاحب بيت المقدس ، وتنشب بينهم وبين صلاح الدين موقعة حطين المشهورة في غربي طبرية ، ويُحَقِّقُ جيشهم محققاً ، ويولى هارباً ريموند صاحب طرابلس ورينالد صاحب صيدا ، ويأخذ المسلمون الصليب الأعظم صليب الصلבות ، ويقع في الأسر قادتهم وزعماءهم جاي لوزيچنان صاحب بيت المقدس وهو صاحب جبيل شمالي بيروت وهمفري صاحب تبين إلى الجنوب الشرقى من صور وجيرار مقدم الداوية ورايچنالد صاحب الكرك ، وبلغ من كثرة القتلى والأسرى أن قال

أبو شامة في كتابه الروضتين : « من شاهد القتل قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل » . واستعرض صلاح الدين كبار الأسرى ، ولم يكن همه إلا رايخنالده صاحب الكرك لما مر من محاولته غزو مكة والمدينة ، ولما مثل بين يديه قال له : ها أنا أنتصر منك محمد ﷺ ، وعرض عليه الإسلام ، فلم يسلم ، فسلّ خنجره وضره ضربة قاتلة ورُميت جثته على باب الحيمة . وطمان بقية زعمائهم ، غير أنه أمر بقتل من أسروا من الداوية والإمبارية لحبسهم أنفسهم على قتال المسلمين . وغصّت حينئذ أسواق دمشق بأمرى الصليبيين المسترقين ، وبلغ من كثرتهم أن كان يباع الأسير منهم بثلاثة دنانير .

وعلى أثر هذه الموقعة العظيمة فتحت القلاع والمدن في فلسطين وجنوبي لبنان أبوابها لصلاح الدين الأيوبي ، فاستولى على عكا وحيفا ونابلس وبيت جبريل ( بترسيع ) وغزة والرملة وبيروت وصيدا . ولم يبق في الجنوب سوى الكرك والشوك ، وبقيت صور التي لجأت إليها فلول الصليبيين . وعزم صلاح الدين على فتح بيت المقدس ، فحاصرها وضايقها بالزحف والقتال والمنجنقات ، حتى أسلمها من كان بها من الصليبيين راغمين خاسئين في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ ونكّس الصليب الضخم الذي كانوا قد أقاموه على قمة الصخرة ، وأزيلت كل آثار الصليبيين من المسجد الأقصى وأقيمت به صلاة الجمعة بين التهليل والتكبير والضجيج بالدعاء ، وأمر صلاح الدين أن يزئ المسجد بالفُسَيْفَسَاء والرخام ، ونقل إليه منبرا فخما من حلب لا يزال به إلى اليوم . وظن أنه لم يعد في حاجة إلى جيوش ضخمة بعد انزواء الصليبيين في صور وطرابلس وأنطاكية ، فتخفف من جيوشه وعاد كثير من عساكره إلى بلادهم ، وظلت البلاد المتبقية من فلسطين تدخل في حوزته ، مثل صفد والكرك والشوك وحصن كوكب . واستولت عساكره على بعض الحصون في لبنان وشمال أنطاكية ، كما استولت على اللاذقية .

وأشعل سقوط القدس الحرب الصليبية من جديد ، إذ أخذ البابا يصرخ في الملوك ، وحمل الصليب حرب المسلمين في فلسطين سنة ٥٨٧ فردريك الأول إمبراطور ألمانيا وفيليب ملك فرنسا وريتشارد « قلب الأسد » ملك إنجلترا ، ومُنيت حملة فردريك في أثناء اجتيازها آسيا الصغرى بخسائر لا تكاد تحصى في الأرواح ، ولم يبق منها إلا فلول ، أما حملتا فيليب وريتشارد فقدمتا من البحر ، وحاصرتا عكا وسقطت في أيدي الصليبيين بعد دفاع مستميت من حاميتها ، وعاد فيليب إلى فرنسا ، وظل ريتشارد حتى سنة ٥٨٨ يقود الجيوش الصليبية وينازل صلاح الدين . واستولى على

بعض البلاد الساحلية ، واضطُرَّ إلى الصلح مع صلاح الدين على أن تظل للصليبيين المدن الساحلية من صور إلى يافا ، وسمح صلاح الدين للنصارى أن يزوروا القدس حُجَّاجًا عَزَلًا من السلاح . وسار صلاح الدين إلى دمشق ولم يلبث أن لَبَّى بها نداء ربه في صفر سنة ٥٨٩ فبكاه الناس وذرفوا عليه الدموع الغزار . وستقف في غير هذا الموضع عند عنايته بالعمارة والبيمارستات والمدارس ، وقد أشاع الرخاء في مصر بما أسقط عن كواهل الناس من المكوس والضرائب الباهظة . وكان محبا للعدل ، وكانت سماحته في معاملة الصليبيين مضرب الأمثال بينهم ، ولا يزال مؤلفو الغرب ينوّهون بها إلى اليوم ، وكان رفيقا برعيته عطوفا على أهل العبادة والصلاح . وكان قد قسم في سنة ٥٨٢ البلاد بين أبنائه وأهله ، فأعطى ابنه العزيز عثمان مصر وجعل أخاه العادل أتابكاً له (مدبِّراً لدولته) وأعطى ابنه الأفضل دمشق وأعطى ابنه الظاهر حلب ، وأعطى ابن أخيه تقي الدين عمر بلدانا في شمالي الشام وميفارقين بديار بكر ، وعاد صلاح الدين قبل وفاته فجعل للعادل الموصل وديار بكر والكرك والشوبك . وتوفى فخلفه على مصر العزيز عثمان سنة ٥٨٩ وكان باراً بالرعية عادلا منصفا ، بينما كان أخوه الأفضل في دمشق يسير في الناس هو ووزيره ضياء الدين بن الأثير سيرة سيئة ، فرأى أن يأخذها منه ، وجهد لذلك جيشا ساربه إلى دمشق ، غير أن أخاه الأفضل استنجد بعمه العادل فأصلح بين الأخوين ، وانصرف العزيز عثمان إلى مصر ، وظل الأفضل ووزيره سادرين في غيِّها ، مما جعل العادل يكتب إلى العزيز بوجوب أخذ دمشق ، والتقىا بها سنة ٥٩٢ وأرغما الأفضل على تركها إلى صرَّخذ سنة ٥٩٤ واستخلف العزيز عثمان على دمشق المعظم عيسى ابن عمه العادل . وعاد إلى مصر يحكمها حكما رشيداً حتى توفى سنة ٥٩٥ . وخلفه ابنه المنصور وكان صبيّاً في العاشرة من عمره ، فاستقدم الجند الأفضل ليدبر له الحكم ، وما إن وضع قدمه في مصر حتى كاتب أخاه الظاهر في حلب ، مزينا له الهجوم معه على دمشق وأخذها من ابن عمهما المعظم عيسى ، والتقى جيشاهما هناك ، ولكن العادل عرف كيف يوقع بينهما ، وعاد الأفضل بمنوده إلى مصر ، فقبه عمه العادل ، وعرض عليه أن يترك القاهرة ويأخذ ميفارقين وديار بكر ، ولم يجد بداً من القبول ، وسرعان ما أخذ العادل فتوى من الفقهاء بأنه لا تجوز ولاية الصغير على الكبير ، وعند ذلك قطع في سنة ٥٩٦ الدعاء في خطبة الجمعة للمنصور ، وأمر بالدعاء له ولابنه الكامل من بعده .

وأصبح العادل منذ هذا التاريخ حتى سنة ٦١٥ سلطانا لمصر ، مع ما كان بيده من فلسطين ودمشق والجزيرة وديار بكر والموصل . ولما استقامت له الأمور في كل تلك الدولة قسمها بين

أولاده ، فأعطى ابنه الكامل محمداً الديار المصرية . وأعطى ابنه موسى البلاد الشرقية وراء الشام وشركه فيها إلى وفاته أخوه الأوحده . وأعطى ابنه المعظم عيسى دمشق . وسير السلطان الكامل من مصر ابنه المسعود إلى اليمن سنة ٦١٢ فلحها . وبذلك دخلت في حوزة العادل الحجاز واليمن وكل البلاد التي أظلمها لواء صلاح الدين ، وكان محمداً محسناً لتدبير الحكم وسياسة الملك ، وكان فارساً مجاهداً أبلى بلاء حسناً مع أخيه صلاح الدين في الحروب الصليبية ، وكان تقياً وقد طهر ولاياته من الخمر وكل ما يجر إلى الفسق والإثم . وسار سيرة أخيه في رفع المكوس والمظالم ، وله صنف فخر الدين الرازي كتابه « تأسيس التقديس » وسيره إليه من خراسان . وتضاءلت في أيامه الحروب الصليبية ، وفي سنة ٦٠٩ يغزو الصليبيون دمياط ويُردون على أعقابهم . ويعيدون الكرة في سنة ٦١٥ ويتفق أن يتوفى العادل ويخلفه الكامل في مصر نهائياً ويشغل من بعض الوجوه بتدبير الحكم ، ويظل الصليبيون بدمياط نحو ثلاث سنوات يعيشون فساداً ، وتسول لهم شياطينهم أن يتقدموا في البلاد مع فرع دمياط نحو المنصورة ، وكان النيل في قمة فيضانه ، فسلبت المصريين مياهه عليهم ، وأيقنوا الهلاك فراسلوا السلطان الكامل طالبين منه الأمان حتى يرحلوا عن دمياط مدحورين ، وتسلم منهم دمياط في رجب سنة ٦١٨ وكان يوماً مشهوداً ، نعتى به الشعراء طويلاً . ودانت للكامل دمشق سنة ٦٢٦ وكذلك البلاد الشامية والشرقية وكان ابنه المسعود قد استولى على الحجاز واليمن . ويروى بعض من حضروا الحج بمكة سنة ٦٢٠ أن الخطيب هناك دعا للملك الكامل ، فقال : « صاحب مكة وعبيدها واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها والجزيرة ووليدها » . وما زال نجمه متألقاً حتى توفي سنة ٦٣٥ .

وكان الكامل قد جعل ابنه الأكبر نجم الدين أيوب على الشرق وإقليم ديار بكر ، وجعل ابنه الأصغر العادل على مصر والديار الشامية ، وكان في الثامنة عشرة من عمره ، فلم ير الأمراء بدأ من توليته حسب رغبة أبيه ، وعظم ذلك على نجم الدين أيوب ، فزحف بجيشه إلى دمشق واستولى عليها ، ثم سار متوجهاً إلى الديار المصرية ، وحفلت رحلته بأحداث كثيرة ، حتى إذا وصل إلى مصر قبض على أخيه العادل وأعلن نفسه سلطاناً على مصر سنة ٦٣٧ . وكان قد أكثر من شراء الممالك . وبنى لهم قلعة الروضة في سنة ٦٣٨ وأنشأ فيها دوراً وقصوراً كثيرة وعمل لها ستين برجاً وبنى بها مسجداً واتخذها دار ملكه وسكنها بأهله وأسكن معه فيها ممالئكة البحرية . وكان أبناء عمومته وإخوته قد خرجوا عليه في الشام واستولى عمه الصالح إسماعيل على دمشق واستعان بالصليبيين وسلم إليهم القدس وطبرية وعسقلان . فزحف السلطان نجم الدين أيوب بجيش كثيف

إلى الشام في سنة ٦٤٢ واستولى على بيت المقدس من الصليبيين وأفناهم قتلاً وأسراً ، واسترد دمشق ، وعادت له مملكة جده العادل بكاملها حتى حلب والموصل والجزيرة . وبينما كان في دمشق سنة ٦٤٧ مرض في أولها ، وبينما هو مريض علم بغزو الصليبيين لدمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا الملقب بالقدّيس ، وأنهم أحاطوا بدمياط من جميع جوانبها وسقطت في أيديهم وأنهم خرجوا منها في اتجاه مدينة المنصورة ، فصمم على لقائهم والمرض ينقل عليه وحُمِل إلى مصر في محفّة ، وزحف بجيشه مسرعاً إلى تلك المدينة ولم يمهل المرض بها ، فمات ميتة الشهداء مجاهدًا في سبيل الله . وأخذت زوجته شجرة الدر وفاته حتى يحضر ابنه الملك المعظم توران شاه من الجزيرة شرق الشام ، وأخذت له البيعة بالسلطنة وهو غائب ، وقدم إلى المنصورة وأدار بمجرد قدومه في أول المحرم لسنة ٦٤٨ معركة حاسمة مع الصليبيين مرقهم فيها شرمزق ، وكانوا بوسط الطريق بين دمياط والمنصورة ، فقتل منهم بضعة آلاف وأسر أكثر من عشرين ألفاً بينهم لويس التاسع ، وحملته إلى المنصورة مركب في النيل تضرب فيها الصنوج والطبول بينما الأسرى يُجرّون بالحبال على ضفتي النهر والمصريون يهللون ويكبرون من حولهم . ويسجن لويس في المنصورة بدار ابن لقمان كاتب الإنشاء . ومن عجب أن يكافأ توران شاه على هذه الموقعة الباسلة التي قضى فيها قضاءً مبرماً على أكبر حملة صليبية وُجّهت إلى مصر باغتيال ممالك أبيه له ، وكان لويس لا يزال في الاعتقال فاقدى نفسه وقلوب حملته بأموال وفيرة ، وعاد إلى بلاده خاسئاً ذليلاً .

واجتمع رأى الممالك على تولية شجرة الدر المُلْكَ بعد توران شاه ، وكانت جارية تركية اشتراها السلطان نجم الدين أيوب وأعتقها وتزوجها ، وكانت راجحة العقل حسنة السيرة جيدة التدبير ، فاتفق الممالك على أن تلى شؤون السلطنة ، وتم أمرها ، غير أن الأيوبيين في الشام سرعان ما خرجوا عليها ، فانتقضت الوحدة التي انعقدت بين الشام ومصر منذ انقراض الحكم الفاطمي ولم يمض على سلطنتها نحو ثمانين يوماً ، وأحسّت بمرحج الموقف ، فرأت التزوج من عز الدين أيبك أتابك العسكر وأن تتحول مقاليد السلطنة إليه . وحاول - خداعاً للأيوبيين في الشام - أن يشرك معه في الحكم صيياً أويبياً هو الملك الأشرف موسى ، وكان في السادسة من عمره ، ولكنه عاد فتخلص منه . وعلى هذا النحو تحول ملك الديار المصرية في سنة ٦٤٨ من الأيوبيين إلى الممالك وقائدهم أيبك ، ولا ريب في أن عهد الأيوبيين كان من أعظم العهود بمصر ، فقد نهضوا بها نهضة عظيمة واستطاعوا بمجنودها أن يقهروا الصليبيين ويزحومهم عن صدر الشام ، ويردوهم عن تراثها وحماها إلى البحر المتوسط وما وراءه .

## المالِك - العثمانيون

### (١) المالِك<sup>(١)</sup>

أخذ خلفاء صلاح الدين يستكثرون من شراء المالِك الترك وجلبهم من أواسط آسيا وتكوين فرق عسكرية منهم في جيوشهم ، وأكثر منهم خاصة السلطان نجم الدين أيوب ، وكان الأيوبيين لم يتعطلوا بما كان من هؤلاء الترك في العصر العباسي الثاني واستيلائهم على مقاليد الحكم في بعض الولايات الكبرى كما حدث في مصر نفسها لعهد أحمد بن طولون والإخشيدي التركيين . وما إن توفي السلطان نجم الدين أيوب وخلفه ابنه توران شاه حتى استولى المالِك على صولجان السلطان باسم شجرة الدر التركية ، وسرعان ما أسلمت الحكم والسلطان - كما مرَّ بنا آنفاً - إلى عز الدين أيك قاندهم . وظل المالِك من هذا التاريخ وهو سنة ٦٤٨ يحكمون مصر إلى الفتح العثماني سنة ٩٢٢ في مجموعتين كبيرتين تسمى أولاهما المالِك البحرية نسبة إلى نهر النيل الذي كان يحيط بجزيرة الروضة مسكنهم الذي أنزلهم فيه السلطان نجم الدين أيوب . وكانوا يستكثرون من شراء المالِك وينزلونهم في أبراج القلعة حيث يربون تربية عسكرية جيدة ، ويسمون نسبة إلى مسكنهم المالِك البرجية ، وهم المجموعة الثانية التي خلفت المالِك البحرية في حكم مصر منذ سنة ٧٨٤ . تولى عز الدين أيك شئون مصر سنة ٦٤٨ ورأى كما أسلفنا أن يشرك معه في الحكم الملك الأشرف موسى محاولة لكسب رضا الأيوبيين في الشام ولكنهم ظلوا مغاضبين له ، وأخذوا في حربه ، حينئذ رأى أن يتخلص من الأشرف موسى . وحدثت حروب ومناوشات بينه وبين الأيوبيين ، وارتضوا أخيراً أن تكون له مصر وفلسطين حتى نهر الأردن ، غير أن شجرة الدر زوجته

القاهرة) وتاريخ الدول والملوك لابن الفرات (طبع بيروت) وغزوات قبرص وروض للسيوطي (طبع فينا) والدرز الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر والضوء الملاع للسخاوي ودولة الظاهر ودولة بني قلاوون لحسام الدين سرور والعصر المالِكي لسعيد عبد الفتاح عاشور وبروكلمان ص ٣٦٥ وما بعدها .

(١) انظر في المالِك السلوك والمخطوط للمقرئزي والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا والبداية والنهاية لابن كثير وتاريخ ابن خلدون والنجوم الزاهرة الجزء السابع وما بعده من أجزاء وبدائع الزهور لابن إياس والتبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوي ومجالس السلطان الغوري وآخرة المالِك لابن زنبيل وتشريف الأيام والمصور في سيرة الملك المنصور (طبع

شكّت في إخلاصه لها ، فدبرت مؤامرة ضده سنة ٦٥٥ فمات مقتولا ولم تلبث أن لقيت نفس المصير ، وتولى زمام الحكم السلطان المنصور على بن أيك حتى سنة ٦٥٧ وكان قُطر أتابكاً له فقبض عليه واستولى على مقاليد الحكم . وكان التتار قد استولوا في العام السابق على بغداد ونكلوا بها تنكيلا فظيعا ومضت زحوفهم بل سيولهم تتقدم إلى الشام وأخذت تهبط إلى الجنوب فعمد قُطر إلى مملوك عظيم من مماليك السلطان نجم الدين أيوب هو بيبرس في قيادة طليعة الجيش حتى إذا انتهى إلى عين جالوت بين نيسان و نابلس سنة ٦٥٨ أصدر أمره إلى بيبرس أن يتابع سيره تجاه التتار وأخفى بقية الجيش بين الأعراس والأشجار المحيطة بعين جالوت . والتحم بيبرس بالتتار وأظهر بسالة نادرة في حربهم ، وتبعه الجيش يستبسل بقيادة قُطر ، منزلا بالتتار ضربات قاصمة حتى اضطروا إلى الفرار هوليين وجوههم إلى الشمال لا يلوون ، تاركين وراءهم ما لا يكاد يحصى من الغنائم والأسرى . وتعدّ هذه المعركة من المعارك الفاصلة في التاريخ ، إذ صدّت التتار نهائيا عن مصر والشام ، وقد ثبتت أقدام المماليك لافي حكم مصر وحدها ، بل لقد انصوت الشام جميعها تحت لوائهم ، ويقتسم شرفها بحق قُطر وبيبرس . وليبرس فيها الشرف الأكبر ، إذ كان على طليعة الجيش ، واستطاع أن يقتحم بطليعته صفوف التتار ، ويزلزل أقدامهم ويحدث الفوضى في عساكرهم . حتى إذا تم هذا النصر المبين ظن أن قُطر سيكافئه عليه مكافأة كبيرة ولم يلبث أن طلب منه نيابة حلب ، ولكن قُطر لقصر نظره بخل عليه بها ، فكان طبيعيا أن يدبر مؤامرة ضده في أثناء قوله إلى مصر ، وواتته الفرصة فقتله ، وانتخبه أمراء المماليك وقوادهم سلطانا على الديار المصرية والشامية ، وتلقب باسم الملك الظاهر .

وكان بيبرس سلطانا حازما على الهمة شديد البأس بعيد النظر يحسن تدبير الملك وسياسته ، فرأى أن انتصار عين جالوت وحده لا يكفي في تثبيت سلطانه ، وانتهاز ظهور أمير عباسي بدمشق قرّ من التتار فاستدعاه إلى القاهرة ، حتى إذا تأكد نسبه إلى بني العباس بايحه هو والناس بالخلافة في حفاوة بالغة ، ولم يلبث هذا الخليفة العباسي أن قلّده سلطنة مصر والبلاد الشامية وغيرها مما يظله سلطانه . وبذلك ثبت عرشه ووطد سلطانه ضد أي محاولة قد يحاولها أحد الأيوبيين لاستعادة ملك آبائه . وظلت الخلافة العباسية قائمة بمصر طوال حكم المماليك إلى أن أخذ السلطان سليم الأول العثماني آخر خلفائها معه إلى القسطنطينية ، وأخذ سلاطين آل عثمان يتقلدون الخلافة على المسلمين إلى أن أزالها مصطفى كمال أتاتورك كما هو معروف . وأتاح وجود هذه الخلافة العباسية الاسمية بالقاهرة للظاهر بيبرس ومن خلفه من المماليك أن يعدّوا أنفسهم حاة الخلافة والإسلام ، وأفادوا

من ذلك سيطرتهم على الحجاز والحرمين ، ووضع بيبرس تقليدًا أن يسافر محملاً إلى مكة سنويًا يحمل الكسوة الشريفة ، وهو تقليد لا يزال قائماً إلى اليوم . وعُنى بوضع نظام دقيق للإدارة في مصر والشام كما عني بالبريد ، فكان الخبر يصل من دمشق إلى القاهرة في ثلاثة أيام . وظل طوال حكمه يُعدُّ جيوشه ويزحف بها لحرب الصليبيين والتتار وغزو أرمينية والسلاجقة بآسيا الصغرى وغزو النوبة في الجنوب . أما الصليبيون فاستولوا على كثير من قلاعهم وحصونهم ومدنهم مثل قيسارية وأرسوف وصفد وتبين والرملة ويافا وحصن الأكراد والقرين القريبة من عكا وصافيتا وصفا والشقيف . ولم يلبث أن استولى على أنطاكية سنة ٦٦٧ فانهارت المملكة الشمالية التي كان قد أقامها الصليبيون ، ومعروف أن زنكي استولى من قديم على مملكتهم القديمة الرُّها واستولى بعده صلاح الدين على مملكتهم في بيت المقدس . وما زال الظاهر بيبرس ذاهباً آتياً من الفرات لحرب التتار وسحقهم ، وغزا السلاجقة في آسية الصغرى ، وفتح أرمينية الصغرى مرتين واستقصى فتح حصون الإسماعيلية بالقرب من اللاذقية ، وفتح دنقلة كرسي بلاد النوبة ، ودانت له بالطاعة . ومن أهم أعماله أنه أقام في سنة ٦٦٣ لكل مذهب من المذاهب السنية الأربعة : المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي قاضياً ، وظل العمل بذلك جارياً في عصر الماليك ، وفي أيامه سنة ٦٧٥ طافوا بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة ، وكان يوماً مشهوداً ، وهو أول من فعل ذلك بالديار المصرية . وشيد مسجداً كبيراً بالقاهرة لاترال أطلاله قائمة إلى اليوم . وهو يُعدُّ من أبطال مصر والعرب العظام أمثال صلاح الدين ، ويعد عصره من العصور الإسلامية الذهبية ، وظلت بطولته في حروب التتار والصليبيين عالقة بالأذهان أزمنة طويلة ، وألّفت حولها قصة مشهورة ، وما زالت الأجيال تريد فيها إيماناً بفروسيته الخارقة . وقد توفى سنة ٦٧٦ بدمشق ودُفن بها ، وتولى بعده ابنه الملك السعيد ، ولم يكد يدور به في الحكم عامان حتى ثار عليه أمراء الماليك وخلعوه وولوا أخاه بدر الدين سلامش وكانت سنة لا تتجاوز السابعة . وجعلوا قلاوون أتابعاً له .

وسرعان ما استغل قلاوون الفرصة ، فاستخلص الملك لنفسه ، وتلقب باسم السلطان المنصور ، وهو من أعظم سلاطين الماليك حزماً وعزماً وتديباً وبأساً ، وقد اتبع سياسة الظاهر بيبرس في الإيقاع بالتتار والصليبيين أما التتار فنازلهم مراراً وأنزل بهم خسائر فادحة حتى رضخوا وطلبوا منه الصلح مدحورين ، وأما الصليبيون فقد صمم على إزالة مملكتهم الرابعة والأخيرة في طرابلس ، ونازلها سنة ٦٨٨ وفتحها قهراً بالسيف ، وملك ما جاورها من القلاع والبلدان مثل

جيل وبيروت . وكان قد حدث شغب في بلاد النوبة ، فذهب إليها بعض قواده ورماً ما بها من شغب . وتوفي سنة ٦٨٩ وظل الملك في أبنائه وأحفاده نحو مائة عام ، وخلفه ابنه الأشرف خليل ، وكان شجاعاً وبطلاً مغواراً ، فصمم على طرد الصليبيين من الشام ، فجمع عساكره وتوجه إلى عكا فوصلها في يوم واحد ويسّر الله له فتحها في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠ وكان الصليبيون استولوا عليها بأخرة من أيام صلاح الدين في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ وقتلوا المسلمين بها ، فثار لهم السلطان خليل وقتل من كان بها من الصليبيين حين فتحها . وأخلت عزائم الفرنج بعد عكا وأخذ السلطان خليل صور وصيداء وحيفا واستسلمت قلاع الصليبيين الأخرى ، وتطهرت البلاد من رجسهم وإثمهم ، فلم تبق لهم في الشام بلد ولا قلعة ولا قرية ولا جزيرة .

والعجب أن يكافئ المالك السلطان خليلاً على هذا العمل الباسل العظيم جزاء السلطان المعظم توران شاه بعد واقعة المنصورة ، فيتمأروا على قتله ، وتنجح مؤامرتهم سنة ٦٩٣ ويخلفه أخوه الناصر محمد ، وهو لا يجاوز التاسعة من عمره ، ويعين كاتباً نائباً له ، وما يكاد يدور العام حتى يستولى على السلطنة ، ويعتصبها منه بعد عامين لاجين ، وتعود بعد عامين آخرين إلى الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٨ . وتنشب حروب بينه وبين تار العراق ، وترجح كفتهم ويستولون على دمشق وغيرها من مدن الشام ويعيشون فيها فساداً . ولا يلبث الناصر محمد أن يجمع لهم جيشاً كثيفاً سنة ٧٠١ وينازلهم في مرج الصفر بالقرب من دمشق ويسحق جموعهم سحقاً ، وتولّى فلولهم الأدبار نحو العراق وبغداد لا تلوى على شيء . ويأخذ كبار المالك في التنافس حول السلطنة ويحشى الناصر محمد أن يفتكوا به فيذهب إلى الحج ويعتزلهم في الكرك جنوبي الأردن ، ويرسل إليهم بكتاب يعلن فيه تنازله عن الحكم ، ويتفق المالك على تولية ركن الدين بيبرس سنة ٧٠٨ ولا يدور العام حتى يعود الناصر محمد إلى سلطته ويتولى الحكم في مصر والشام للمرة الثالثة سنة ٧٠٩ . وكان المصريون يحبونه حباً شديداً ، وكان عهده عهد رخاء عظيم ويتضح في كثرة المنشآت التي أسسها من مدارس ومساجد وخانقاهات . وبلغت الدولة في عهده أوج مجدها ، فقد قضى أبوه وأخوه ، كما قلنا ، على الصليبيين نهائياً ، ولم تبق منهم باقية ، وانتصر هو على التتار في ولايته الثانية على مصر انتصاراً حاسماً . وعقدوا معه صلحاً سنة ٧١٩ ولم يعودوا يفكرون في الغارة على الشام .

ويظل الناصر في الحكم حتى سنة ٧٤١ ويخلفه أبناؤه وأحفاده حتى سنة ٧٨٤ وتعود مصر

أويعود الحكم في مصر ثانية إلى ما حدث في الدولة الفاطمية من عواقب وخيمة لأن يصبح الحكم وراثيا . ويكفي أن نعرف أن ثمانية من أبناء الناصر تولوا الحكم إحدى وعشرين سنة مما يعنى عدم الاستقرار ، وكان منهم من يعيش للهوسمماع المغنيات مثل السلطان الصالح إسماعيل والسلطان شعبان ، ومثل السلطان زين الدين ، وكان في الحادية عشرة من عمره ، وفي نفس السن تولى أخوه السلطان حسن وفي عهده انتشر وباء الطاعون بالقاهرة . وتخلفه فترة يحكم فيها أحفاد الناصر لمدة عشرين عاما ، وكثير منهم كان صبيًا ، كما ذكرنا ، فكان طبيعياً أن يفسد الحكم في عهدهم فساداً شديداً . وفي سنة ٧٦٦ سؤلت لحاكم قبرص بطرس لوزيخان شياطينه أن يغير على الإسكندرية ، فأغار عليها لمدة ثلاثة أيام ، ثم ولى بمن معه هارباً حين علم باقتراب الجيش المملوكى .

وطبيعى وقد فسد حكم آل قلاوون فساداً لاصلاح له بعده ، أن يحاول المالك التخلص من هذا الحكم ، وكانت مجموعة المالك البرجية قد أخذت تظهر على مسرح الحوادث ، وأخذوا يسيطرون على أداة الحكم منذ وفاة الناصر محمد بن قلاوون ، وأخذ نجم برقوق من بينهم يعلو في سماء مصر ، ومازال يدبر للأمر هو وأعوانه حتى أطاخوا بأحفاد قلاوون وتسلم مقاليد الحكم سنة ٧٨٤ وظل في أيدي المالك البرجية إلى نهاية الدولة المملوكية ، وكان أديباً يهتم بمجالس الأدب والعلم ، وخلفته طائفة من المالك البرجية مثل شيخ وبرزساي وجقمق وقايتباى والغورى . وظل برقوق على رأس الدولة حتى توفى سنة ٨٠١ إلا ما كان من سنة واحدة أبعدها عن الحكم وهي سنة ٧٩١ وسرعان ما عاد إليه . وتكثر في زمن هذه الدولة البرجية المناфسات بين الأمراء ، كما يكثر فرض الضرائب على الشعب . وهبُّ بأخرة من حكم برقوق إعصار تارى جديد ، يقوده تيمورلنك ، وينزل الإعصار بالعراق والموصل ويستصرخ الحكام هناك برقوق ، ويشغل تيمورلنك بغزو الهند حيناً ، فيعلن أحمد بن أويس حاكم بغداد تبعيته لبرقوق رجاء أن يحميه من الطاغية المغولى ، ويكتب له برقوق تقليداً أوامرسوما بنيابته عنه في بغداد ويزوده بالمال والعتاد والرجال ، ويعود تيمور سريعا ويستولى على بغداد . وفي هذه الأثناء يتوفى برقوق بينا يتجه تيمور بجيشه إلى الشمال يريد الاستيلاء على الشام ، ويستولى على حماة وحمص وبعليك ، وكان ممالك برقوق قد ولوا عليهم ابنه فرجا ، فخرج على رأس جيش للقاءه ولكنه هزم بالقرب من دمشق سنة ٨٠٢ ودخل تيمور دمشق وظل جنوده فيها مدة ينهون ويسلبون ويأتون من الفطائع ما صوره ابن عربشاه في كتابه عجائب المقدور في نواب تيمور ، مما اضطر السلطان فرجا إلى قبول الصلح

معه ، وبارح تيمور الشام سريعاً إلى آسيا الصغرى وأنزل بالسلطان بايزيد العثماني ضربة قاصمة ، وعاد إلى بلاده . وسرعان ماتوفى وتمزقت دولته بين ورثته ، وكفى الله المالك وديار مصر والشام شره وخطره .

ويحتدم التنافس بين أمراء المالك البرجية ويستخلص الحكم لنفسه المؤيد شيخ سنة ٨١٥ وله عمائر كثيرة أشهرها جامع المؤيدى ، ويقال إنه لم يُبْنَى في الإسلام أكثر زخرفة منه بعد الجامع الأموى بدمشق ، وتوفى سنة ٨٢٤ . وبويح ابنه المظفر أحمد وله سنة واحدة وثمانية أشهر ، فكان طبعياً أن يستولى على الحكم بعض الأمراء ، ويتولى سلطانان ، ويخلفهما السلطان برسباى سنة ٨٢٥ ومُرَّبنا غزو خاكم قبرص بطرس لوزيخان للإسكندرية سنة ٧٦٦ وكان القبارصة كثيراً ما يتعرضون في البحر المتوسط للسفن المصرية والشامية ، فصمم برسباى على أخذ قبرص وأرسل لها ثلاث حملات ، استطاعت ثالثها أن تستولى عليها من جميع أنحاءها ، وعادت الحملة بغنائم وأسرى كثيرين وبحاكم قبرص مقيداً في الأغلال ، وقبِل الأرض بين يدي برسباى ، وتعهَّد أن تظل جزيرته موالية لمصر وأن يكون نائباً فيها للسلطان ، وعاد إلى جزيرته عقب ذلك سنة ٨٣٠ بعد أن دفع دية كبيرة وبعد أن التزم بأن يؤدى لمصر سنويا عشرين ألف دينار جزية . وخلف برسباى ابنه العزيز سنة ٨٤١ لمدة عام ، ولم يلبث الأمير جضمق أن عزله ، وتولى الحكم سنة ٨٤١ وحاول أن يكتسب مجدداً حربيّاً كمجد برسباى ، فوجه ثلاث حملات إلى جزيرة رودس ، ولكنها لم توفق جميعاً إلى الاستيلاء عليها ، ويتوفى سنة ٨٥٧ . وتكثر المنازعات بين أمراء المالك البرجية . ويستخلص الحكم لنفسه قايتباى سنة ٨٧٢ وكان شديد الرأى شجاعاً ساهراً على دولته المترامية الأطراف ، منتقلاً فيها من القاهرة إلى مدن الفرات إلى مكة والمدينة ، ويبدو أنه كان يعنف في جمع الأموال والضرائب ، وكان يهتم ببناء المدارس والمساجد وترميم المنشآت . وظل حاكماً للدولة تسعة وعشرين عاماً إذ توفى سنة ٩٠١ . وخلفه أربعة سلاطين حكموا مدداً قصيرة ، واختار أمراء المالك بعدهم قانصوه الغورى سنة ٩٠٦ ، وهو من خيرة سلاطين المالك البرجية ، وكان شاعراً واشتهر بمجالسه الأدبية . وكان طاعناً في السن ، بينما كان يتراءى في الأفق شبح عدوين كبيرين يهددان مصر والمالك بالخطر الجسيم ، أولهما خطر البرتغال واكتشاف فاسكودى جاما طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند منذ سنة ٩٠٣ مما آذن بتحول زمام تجارة نوابل الهند من أيدي المصريين إلى أيدي البرتغاليين ، وضياح ماكانت تأخذه مصر من ضرائب ورسوم على هذه التجارة في طريقها إلى أوروبا وتغور البحر المتوسط . وأخذ البرتغاليون يناوشون

العرب في جنوى الجزيرة العربية ، أو قل إن العرب هم الذين بدعوا بهذه المناوشات ، ووقف الغورى معهم وانتصروا في موقعة بحرية عليهم . غير أن البرتغاليين مضوا يعيدون الكرة ، وهاجموا مدينة عدن ونزلوا في بعض الجزر الواقعة بالقرب من باب المندب وأصبحوا يهددون مدينة عدن واليمن جميعها ، فأرسل إليهم سريعا قانصوه الغورى نجدة طردت البرتغاليين من هذه الأنحاء ، واستدارت تحتل اليمن حتى تظل مصر حارسة لها .

وتهدد مصر خطراً أكثر جسامة ، فإن العثمانيين كانوا قد استولوا على القسطنطينية وأخذ نجمهم في الصعود ، وسمعوا بما أنزله لإسماعيل الصفوى بأهل السنة في بغداد من سفك لدمائهم وقسوة متناهية فأعلنه سليم الأول بالحرب وانتصر عليه في سنة ٩١٤ واستولى منه على الجزيرة والموصل وديار بكر وأعاد سليم الكرة فهزم لإسماعيل الصفوى سنة ٩٢٠ . وعرف أن قانصوه الغورى كان قد عقد معه حلفا ، فصمم على منازلته ولم يكن ذلك غالباً عن قانصوه فوجد جيشا كثيفا ومضى به إلى شمال سوريا لرد العدوان ، إن حدث ، في حينه ، وأرسل إلى سليم يطلب إليه عقد معاهدة صلح بينهما فرد رسله ردا سيئا ، ولم تلبث أن نشبت بينها معركة مرج دابق شمال حلب سنة ٩٢٢ ودارت الدوائر على قانصوه وجيشه ، وقُتل وهو يلوذ بالفرار . ولم تكن تنقص جيش المالك الشجاعة ، إنما كان يقصه سلاح مهم استخدمه العثمانيون في المعركة هو سلاح المدفعية ، فكان طبيعياً أن تكون لهم الغلبة ، وفتحت مدن الشام أبوابها لسليم ، ودخل دمشق . ويبدو أنه كان يريد أن يدع للمالك مصر ويكتفى بممتلكاتهم في آسيا ، فكاتب خليفة قانصوه في مصر طومان باى يعرض عليه أن يترك مصر له وللمالك على أن يعترفوا له بالسيادة ، فيخطب له ، وتضرب السكة باسمه . ولكن طومان باى أبى ذلك وأخذ يستعد لحربه ، وأحس بتخاذل المالك من حوله ، بينما كان سليم يتقدم نحو مصر ودخل حدودها واتجه إلى القاهرة ، والتقى بجيش طومان باى بالقرب من العباسية على أبواب القاهرة وأنزلت مدفيته به هزيمة ساحقة ، وفر طومان باى . وحل سليم القاهرة في اليوم التالى وكان أول يوم جمعة في شهر المحرم لسنة ٩٢٣ فدعى له في الخطبة ، وسلم قصر طومان باى بعد قتال عنيف أما هو ففر إلى الصعيد ثم إلى الدلتا واشتبك مع العثمانيين في بعض مناوشات خاسرة ، ولم يلبث أن سلم غدرا إليهم ، فأمر السلطان بشنقه على باب زويلة . بذلك انتهى حكم المالك لمصر وتقوضت دولتهم .

(ب) العثمانيون<sup>(١)</sup>

مكث السلطان سليم في مصر بعد فتحه لها نحو ثمانية أشهر ، ذاق فيها المصربون ألوانا كثيرة من الظلم والمحن ومصادرة الأموال وأيضاً مصادرة العلماء ورجال المهن والفنون والصناعات ونقلهم في السفن إلى القسطنطينية ، وقد نُقل كثير من التحف والآثار الرائعة من المساجد ومن قصور المالك حتى الرخام كانوا ينزعونه . وكأنما وضع سليم خطة أن يحرم مصر من كل ما كان بها من تراث فني غير ما حمله من كتب لاتزال تزخر بها مكتبات القسطنطينية إلى اليوم . وهكذا جردت مصر من علمائها وفنانيها وتراثها الفكري والفني ، وعاشت حقبةً سوداء امتدت إلى نحو مائتين وتسعين عاما ، وحتى الخلافة الإسلامية التي كانت تتيح لها زعامة أو شيئا من الزعامة في العالم الإسلامي سلبها منها سليم ، إذ دفع المتوكل على الله آخر خلفاء بني العباس في مصر إلى أن يتنازل له عن الخلافة ، ويقال إنه تقلدها في مصر ، ويقال بل بعد ذهابه معه إلى القسطنطينية .

وجعل سليم على مصر نائبا له أو واليا ، كان يلقب بالباشا ، ويتخذ القلعة مقراً له طوال حكم العثمانيين لمصر ، ولم ينفرد بالحكم ، فقد أشرك معه سليم - وظل ذلك ساريا بعده - قادة الجند العثمانيين الذين تركهم بعده في مصر ، وأيضاً أشرك معه حكام مديريات القطر أو أقاليمه ، وقد اختارهم سليم جميعاً من المالك ، وكأنه رأى أن يشركهم في الحكم ، للإشراف على شئون الأقاليم . ولم يلبث أن توفي سليم ، وخلفه أخوه سليمان سنة ٩٢٦ وفي أيامه استقر نظام حكم العثمانيين السياسي لمصر بحيث كان بها وال له الإشراف العام على شئونها المختلفة ، ومعه ديوانان : ديوان كبير مؤلف من السردار ورئيس الفرق العسكرية والدفتردار ( مدير الخزانة ) والروزنامجي ( حافظ السجلات ) وأمير الحج وقاضي القضاة ورئيسهم و نقيب الأشراف ورؤساء المذاهب الأربعة وبعض رؤساء المالك أو كبيرهم . ويجانب هذا الديوان ديوان صغير كان يتألف من الكتبخدا ( نائب الوالي ) والدفتردار والروزنامجي و مندوب عن كل فرقة من الفرق العسكرية .

القومية في مصر وظهور محمد علي لعبد الرحمن الرافعي  
ومقدمة تاريخ العرب الحديث لعبد الكريم غرايبة والخطوط  
التوفيقية لعل مبارك ( طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب )  
١٤٦/١ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان  
ص ٤٤٨ .

(١) انظر في العثمانيين آخره المالك لابن زنبيل وبدائع  
الزهور لابن إياس وأخبار الأول فيمن تصرف في مصر من  
الدول للإسحافى وتاريخ الجبرق والبلاد العربية والدولة  
العثمانية لساطع المصري والحملة الفرنسية وظهور محمد  
علي لمحمد فؤاد شكرى والجيزة الأول من تاريخ الحركة

وكان الديوان الصغير ينعقد كل يوم ويبلغ قراراته إلى الوالى ، وبالمثل كانت قرارات الديوان الكبير تبلى إلى الوالى ويعمل على تنفيذها جميعاً .

وظل المالك - منذ سليم - يمثلون في البلاد سلطة نائلة بجانب سلطى الجند والوالى ، إذ جعلوا حكاما للأقاليم ، وكان كل منهم يسمى سنجقا : اسما تركيا . كان فى الأصل يعنى البيرق ، إذ كان السنجق عادة يتسلم ببرقا فسمى باسمه وسميت مديريته باسم السنجقية ، وأعطوا أيضا لقب بك ، فكان هناك الوالى الباشا والسناجقة المالك البكوات ، وكانوا يشرفون على مديرياتهم من الناحيتين الإدارية والمالية ، وكان لهم نواب يسمون الكشاف جمع كاشف . وكان يتبع الكشاف المتزومون وهم من التزموا بدفع ضرائب معينة عن قرية أو قرى ، وكانت للمتزمين سلطة واسعة على الفلاحين فهم يعتصرونهم اعتصاراً دون شفقة أو رحمة ، والفلاحون يتصببون عرقا لكى ينعم المتزوم والكاشف والسنجق ، وما يزالون يثقلون عليهم بالضرائب والإتاوات ويزهقونهم من أمرهم عسرا ، حتى أصبحوا يعانون ما لا يطاق من البؤس والفاقة . وبذلك كسدت الزراعة ، كما كسدت التجارة منذ استولى العثمانيون على مصر وكشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت تجارة أوروبا والهند إليه . وزاد الأمور سوءا أن العثمانيين اتبعوا سياسة مستمرة أن لا يظل الوالى فى مصر إلا مدة قليلة قد تكون عاما وقد تكون أقل من عام ، فلم يشعر الولاة بشيء من الاستقرار ، وكأنهم كانوا يجهنون ليدخروا لأنفسهم شيئا من مال، وكانوا يذهبون دون أن يفكروا فى أى إصلاح ، ويكفى أن تعرف أنه حكم مصر حتى مجيء نابليون مائة وخمسون واليا عثمانيا .

وكانت الدولة العثمانية قد أخذت تضعف منذ القرن الثانى عشر الهجرى أو السابع عشر الميلادى ضعفاً شديداً فأخذ سلطان السناجق المالك يقوى ، وخاصة أنه كانت بيدهم أزمة الشؤون الإدارية والمالية فى البلاد ، وأيضاً فإن العثمانيين كانوا يتخذون منهم فى القاهرة زعما لهم يسمونه شيخ البلد ، فأخذت مشيخته أو سلطته تقوى ، حتى غدا مناظراً أو مائلا للوالى العثمانى . وبلغ من سلطان شيخ البلد وماليكه أن كانوا أحيانا يعزلون الولاة ، وربما جاءهم وال لا يرضونه ، فكانوا يمتنعون عن تهنئته ، ولا يحضرون قراءة المرسوم بتوليته ، حينئذ لا يجد بدأ من حمل حقائبه والعودة إلى القسطنطينية فكان طبيعياً أن يفكر بعض شيوخ البلد من زعماء المالك فى الاستقلال بمصر ، وتولى على بك الكبير مشيخة البلد ، وصمم على الاستقلال ، ولم يلبث أن خلع الوالى التركى سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م وأعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية وضرب السكة

باسمه ، وفتحت جيوشه معظم جزيرة العرب ونادى به شريف مكة : سلطان مصر وخاقان البحرين . وأرسل قائداً من قواده وهو محمد بك أبو الذهب لفتح سوريا ، وفتحت له دمشق وغيرها من مدن الشام أبوها . غير أن الباب العالى العثماني لم يلبث أن استغواه بما وعده به من الولاية على مصر فانقلب على سلطانه على بك الكبير ، ونشبت بينهما الحرب وسقط في ميدانها على بك سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م . وبذلك أضاع محمد بك أبو الذهب على مصر فرصة ذهبية : أن يُرد لها استقلالها وحريتها ، وظل شيخاً للبلد ، يوئى عليها من العثمانيين من يختاره إلى أن توفى بعد سنتين في عام ١١٨٩ هـ . وخلفه على مشيخة البلد إبراهيم بك ومراد بك شريكين فيها ، وخرجت المشيخة من أيديهما فترة إلى إسماعيل بك ، وتوفى فعادت إليهما لإبراهيم الرياسة ، وأصبح شيخاً للبلد إلى أن جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م . وتنزل الحملة مصر وتظل تجاهدها جهاداً عنيفاً مريراً ثلاث سنوات ، ولم ينفذ نابليون قائدها ما أنشأه من مجالس شورى ألفها من بعض شيوخ الأزهر ومن كبار التجار والأعيان ، وجعل لها النظر في الضرائب وشتون الحكم .

لم يعر هذا الخداع المصريين فقد عرفوا أنها مجالس صورية لتنفيذ مظامه الاستعمارية ، وما زالوا يقاومون الحملة مقاومة باسلة ، حتى اضطروها إلى مبارحة البلاد سريعاً . وأولى أن تدرس هذه الحملة وآثارها بمصر مع عصرها الحديث ، إذ أذكت في المصريين الشعور القومى . فلما خرجت إلى البحر المتوسط وما وراءه وعاد المصريون إلى الحكم العثماني رأوا أن من واجبه التخلص من نيره الظالم البغيض وأن يختاروا حاكمهم واختاروا محمد على سنة ١٢١٩ هـ / ١٨٠٥ م وبدءوا بقوة نهضتهم الحديثة .

المجتمع<sup>(١)</sup>

مصر - كما وصفها الذكر الحكيم - جنات وعيون وزروع ومقام كريم. وفي جنات هذه الزروع وجناتها عاش سكانها من القبط ومن نزل بها من العرب ، ومع الزمن يزداد اختلاط العرب بسكانها وخاصة منذ أسقطهم الخليفة العباسي المعتصم من دواوين الجيش في نهاية الربع الأول من القرن الثالث الهجري ، فقد مضوا يخالطون سكانها لا في مدنهم فحسب ، بل أيضا في قراهم وزروعهم مؤلفين جميعا شعبها المصري . وكانت تتوزعه - كغيره من الشعوب العربية - ثلاث طبقات عليا ووسطى ودنيا . وتشمل الطبقة الأولى الوالي وصاحب الخراج والقاضي وكبار أصحاب المناصب وقواد الجند ومعهم الأشراف من بيتي العباسيين والعلويين وكبار التجار والإقطاعيين من المماليك . والطبقة الوسطى تشمل العلماء والجند وأوساط الزراع أصحاب الملكيات الصغيرة والقائمين على الصناعات . أما الطبقة الدنيا فتشمل الفلاحين والصناع وصغار التجار . وبحوار هذه الطبقات كان هناك رقيق يجلب من أواسط إفريقيا ومن بيزنطة وأرمينية وثغور البحر المتوسط ، وكان كثير منه يجرّ ويصل إلى أرفع المناصب على نحو ما هو معروف عن فاتك الرومي وكافور الحبشي القائدين في زمن الإخشيد . وكان هناك أهل الذمة من الأقباط . ويمد النيل مصر من قديم برحاء لا مقطوع ولا ممنوع ، ومعروف أن أرضها قبيل الفتح العربي كانت موزعة بين الدولة والكنيسة وكبار الإقطاعيين ، وقد ترك العرب الفاتحون للكنيسة وللإقطاعيين ما لهم من الأراضي على أن يؤدوا عنها الخراج أو كما نقول الآن الضرائب ، وبالمثل كان يؤدونها أصحاب الملكيات الصغيرة من الأرض وكل فالح لها أو زارع . وتُرك للقبط الإشراف

شداد ورحلة ابن جبير ومعبد النم ومعبد النقم للسبكي  
والدخل لابن الحاج ونظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين  
لعطية مصطفي مشرفة والمجتمع المصري في عصر السلاطين  
الماليك لسعيد عبد الفتاح عاشور والحضارة الإسلامية في  
القرن الرابع الهجري لأدم ميتز وقصة القاهرة وتاريخ مصر في  
العصور الوسطى لستانلي لين بول وتاريخ الشعوب الإسلامية  
لبروكلمان .

(١) انظر في المجتمع الولاية والقضاة للكندي والمغرب لابن  
سعيد بقسميه عن الفسطاط والقاهرة ومروج الذهب  
للسعدي ومصر عند المقدسي وابن حوقل وناصر خسرو  
والإشارة إلى من نال الوزارة لابن ميسر وترجمة يعقوب  
ابن كلس والأفضل بن بدر الجمالي في ابن حلكان والمخطط  
للمقرئزي والخزرجين الثالث والرابع من صبح الأعشى  
والنجوم الزاهرة لابن تغري بردى وبدائع الزهور لابن إياس  
وكتاب قوانين الدواوين لابن عماد وسيرة صلاح الدين لابن

المالى على شئون الخراج أو ضرائب الأرض ، وظل لهم ذلك وحدهم طوال الأزمنة الإسلامية حتى الثلاثينيات من القرن الحاضر . وكان أهل الذمة من القبط وغيرهم يؤدون الجزية ، وهى تتراوح بين دينار ودينارين سنويا ، يؤديها القادر بمقدار قدرته ، ولم يكن يؤديها راهب ولا شيخ ولا امرأة ولا صبي ، وهى فى واقعها ضريبة دفاع لأنهم لم يكونوا يشتركون فى الحرب . وكانت تؤخذ بجانب ذلك مكوس على الصناعات ، ومن أهمها صناعة القراطيس من ورق البردى ، وكانت هذه الصناعة رائجة جدا حتى أواخر القرن الثانى الهجرى حين نقلت فى عهد الرشيد من الصين صناعة الورق وأنشئ لها مصنع ببغداد . وأهم من هذه الصناعة صناعة النسيج والثياب ، وقد ظلت مزدهرة طوال الحقب ، وكان النساء والغلمان فى الوجه البحرى يشتركون فيها ، واشتهرت بها المدن الشمالية : دمياط وشطا وتينس ودييق والإسكندرية ، وكان من نسيج الأخيرة ما يباع بما يعادل وزنه من الدراهم ، وكان ثمن الثوب الديقى مائة دينار وقد يبلغ مائتين ، واشتهرت تينس بثوب كانت تصنعه للخليفة منسوجا بالذهب وليس فيه من الغزل سوى أوقيتين ، وكان يقدر بألف دينار . وكانت السجاجيد والأبسطة والستور تصنع بالفيوم والصعيد ، وكانت تصنع الحصر فى أمكنة كثيرة ، كما كانت تصنع بعض أنواع الجلود . وعلى كل هذه الصناعات كانت تؤخذ المكوس كما كانت تؤخذ على استخراج بعض المعادن وخاصة الشب والنترون ، وأيضا على بناء السفن . وكانت التجارة رائجة ، وكان يتجر فيها كثير من الفرس والروم واليهود . وما يدل بوضوح على رخاء مصر فى عصر الولاة ومدى ما كان يتمتع به القبط من حسن المعاملة خبر رواه المقرئى وقع فى أثناء زيارة المأمون لمصر سنة ٢١٧ إذ مر بقرية يقال لها « طاء النمل » وكانت إقطاعية لقبطية عجوز تسمى مارية ، فعرضت له تسأله أن ينزل فى ضيافتها مع حاشيته ومن يرافقه من جنده ، وعجب لكثرة ما قلمت من أطعمة ، فلما أصبح جاءته ومعها عشر وصائف ، مع كل وصيفة طبق ، فظن أنها ستقدم له بعض هدايا الريف المصرى ، فلما وضعت الوصائف الأطباق بين يديه إذا فى كل طبق كيس من ذهب ، فشكرها وأمرها برده ، فأبت إباء شديدا ، وتأمل الذهب أو الدنانير فإذا بها من ضرب عام واحد ، مما يدل على أنه ربحها من عام ، فقال : هذا والله أعجب . وتوسلت إليه أن يقبلها ، فتمنع وقال لها : رُدِّى مالك بارك الله لك فيه ، فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين هذا الذهب من هذه الطينة التى تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندى من هذا الذهب شىء كثير . فأخذه المأمون ليبت المال وأقطعها عدة ضياع وأعطاهها من قريبها مائتى فدان بغير خراج . ومارية إنما هى

إقطاعية واحدة وكان وراءها إقطاعيون كثيرون من القبط والعرب ، فإن النولة كانت قد دأبت على أن تمنح بعض الموظفين الكبار بمصر وبعض الشخصيات العربية إقطاعيات مختلفة في القرى المصرية . ومما يدل على الرخاء حينئذ ارتفاع رواتب الولاة وأصحاب الخراج وكبار الموظفين وحتى القاضى موضع الزهد والتقصف إذ يذكر الكندى في كتابه «الولاة والقضاة» أن عبد الله بن طاهر والى مصر للمأمون فى سنة ٢١١ رسم لقاضى الفسطاط سبعة دنانير كل يوم . وحقاً كان يحدث أحياناً قحط أو أوبئة أو تدمرات من كثرة الضرائب الاستثنائية التى يفرضها بعض عمال الخراج ، حتى ليأخذ ذلك فى الحين الطويل بعد الحين شكل ثورة ، ولكن هذا كله سرعان ما يزول ، كأنه سحابة صيف سرعان ما تنقشع ، ويعود إلى مصر الأمن والرخاء ، فبينما مصر - كما يقول عمرو بن العاص فى رسالته المشهورة إلى عمر بن الخطاب - لؤلؤة بيضاء إذا هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضراء ، فإذا هى ديباجة رقشاء .

وكانت أسواق الفسطاط تعكس صور الرخاء فى مصر ، فهى تفرح بالأطعمة والحلوى والفواكه وبالطيب والمسك والعنبر وماء الورد ومختلف الأقاويه . ويبدو أن المساكن بها والغرف والحوانيت كانت توجر ، ويؤجر معها الأثاث . وعرفت مصر حينئذ ضروب الملاهى من الصيد وأدواته ومن سباق الحمام وسباق الخيل ، ويروى الكندى أن الولى عليها يزيد بن عبد الله منع من حلبات السباق سنة ٢٤٢ وسرعان ما عادت سنة ٢٤٩ . وكان الناس يحارثون أحياناً بين الكباش والكلاب . ويبدو أنه كانت هناك بعض دور للخمر ، ولا بد أنها كانت قليلة ، ويذكر ابن سعيد - إن صح ما يذكره - أن محمد بن أبى الليث الخوارزمى قاضى المعتصم بمصر كان يشرب النبيذ وله عليه ندماء . وكان الناس يهتمون بالغناء وما يصحبه من آلات الموسيقى والطرب ، ويذكر ابن سعيد أيضاً أنه لم يكن بمصر مغنية إلا ركب إليها القاضى لعهد الرشيد المسمى بالعمرى كى يسمع غناها ، وربما قوم لها ما انكسر من غنائها وما دخل عليه من تحريف فى لحنه . وكان الناس يخرجون للترهة فى جزيرة الروضة أمام الفسطاط وعلى شاطئ النيل . وكانوا يحتفلون احتفالات كبيرة بفتح الخليج ( وفاء النيل ) وبالأعياد الإسلامية وأيضاً بالأعياد القبطية وبعيد النيروز الفارسى لأول الربيع .

ويتولى مصر - كما مر بنا - أحمد بن طولون مكوّناً بها الدولة الطولونية ، وتلقى مصر فى حجره وحجر ابنه خمارويه بكنوزها ، وكان حازماً بعيد النظر رعوفاً بالربة ، فالتقى عن كواهلها كثيراً من الضرائب التى كان قد فرضها عليها ابن المدير عامل الخراج ، وكان قد زاد عليها الضرائب ،

وفرض ضريبة على النظرون وعلى المراعى وعلى المصايد فأسقط ابن طولون ذلك كله . واستقلَّ بمصر ، وفتحت له كنوزها ، وأغدقت عليه من طبياتها ، فكَوَّن جيشه الضخم ، وأخذ فى بناء قصره خارج القسطنطينية وقطائع لعساكره من الترك والسودان والروم وغيرهم وأيضاً لقواده ، وعمرت مدينته القطنان وتفردت فيها الحارات والشوارع والأزقة والحوانيت والسكك وبُنيت المساجد والطواحين والحمامات والأفران . وبنى جامع الكبير وأنفق عليه مائة وعشرين ألفاً من الدنانير ، وبنى يبارستانا وأنفق عليه ستين ألف دينار ، وجعل أمام قصره ميداناً كبيراً للعب كرة الصولجان ، أنفق عليه خمسين ألف دينار . وكان ينفق على مطبخه فى كل يوم ألف دينار ، وكان يُعمَلُ سَمَاطٌ عَظِيمٌ ، وينادى : من أحب أن يحضر سَمَاطُ الأَمِيرِ فليحضر ، وكان الناس يأكلون ويحملون ما يشاءون . وكان ما يدخل إلى خزائنه فى كل سنة بعد نفقاته مليون دينار ، وخلف فى خزائنه من الذهب حين موته عشرة ملايين من الدنانير .

واستقر السلطان بعده لابنه خنارويه وعظم دخل الدولة ، وأخذ خنارويه يفرق إلى أذنيه فى النعيم ، فزاد فى عمارة قصر أبيه ، وجعل الميدان الذى أمامه بستاناً وزرع فيه أنواع الرياحين والورود وأصناف الشجر وكسا النخل نخاساً تخرج من عيون المياه وتنحدر إلى فسائى يفيض الماء منها إلى مجار تَسْقَى سائر البستان ، وسرَّح فيه طيوراً حسنة الصوت وطواويس مختلفة . وجعل لنفسه مجلساً سماه دار الذهب طلاً حيطانه بالذهب واللآزود وجعل فيه تماثيل أوصوراً بارزة لحظاياها ومعنياتها وعلى رءوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة . وجعلت فى هذا البستان بين يدي القصر فسقية من الزيتق طولها خمسون ذراعاً وكذلك عرضها ، كان يرى لها فى الليالى القمرية منظر عجيب حين يتألف نور القمر بنور الزيتق . واتخذ خنارويه بيوتاً للسباع وغيرها من الوحوش سوى الإصطبلات الواسعة للخيل . وكانت حلبات السباق فى أيامه تقوم مقام الأعياد ، ويقال إن عرض الخيل حينئذ كان من عجائب دار الإسلام . ومما يدل على ما وصلت إليه الدولة من ثراء جهاز ابنته قَطْرُ الثدى حين زوجها الخليفة العباسى المعتضد ، وكان من جملته دكة تألف من أربع قطع من الذهب عليها قبة من الذهب مشبكة بها أقراط فى كل قرط حبة من جواهر لا يعرف لها قيمة ، وكان فى الجهاز مائة هاون من الذهب ، وبنى خنارويه - كما مرَّ بنا - قصر فى كل منزل تنزل به ابنته من مصر إلى بغداد .

ومما يدل على ثراء مصر لعهد الطولونيين ثراء واسعاً أن أبابكر محمد بن المازرانى عامل الخراج ووزير خنارويه تملك من الضياع ما بلغ دخله أربعائة ألف دينار فى كل سنة سوى ما كان يؤدِّيه من

الضرائب ، ويقال إنه حج إحدى وعشرين حجة وكان ينفق في كل حجة مائة ألف دينار . وكانت مصر تحتفل بالأعياد احتفالات كبيرة : الإسلامية منها والقبطية ، بل لكأنما كانت أيامها كلها في عهد الطولونيين أعيادا . ولذلك بكت دولتهم بدموع غزار . وتخلّفهم فترة تعود فيها مصر إلى عهد الولاة ، وسرعان ما يتولاها الإخشيد ، فيعيد إليها بهجتها ورخاءها ، وبفضل ثرائها استطاع أن يعدّ لنفسه جيشا ضخما مكونا من ٤٠٠ ألف مقاتل سوى ثمانية آلاف من مماليكه الأرقاء ، ومازال سعده بحكم مصر يعلو إلى أن صار له حكم الشام والثغور وخطب له بالحجاز واليمن . وأصبحت مصر بعده لأبنائه ووصيهم كافور الإخشيدى . وكانت مصر تنعم بثرائها ، ويبدو أنه تكونت فيها طبقة من كبار الإقطاعيين من العمال والصناع والتجار والزراع لفتت بقوة الإخشيد ، فإذا هو يكثر من مصادرة عماله وكتابه ، ويقول ابن سعيد في قسم الفسطاط من كتاب المغرب إنه « كان إذا توفى قائد من قواده أو كاتب تعرّض لورثته وأخذ منهم وصادرهم وكذلك كان يفعل مع التجار المياسير » ويقول ابن سعيد أيضا إنه لما توفى التاجر عفان بن سليمان أخذ من ميراثه مائة ألف دينار . وكان سباق الخيل في أيامه - كما كان في أيام خوارويه - يقوم مقام الأعياد . وكانت لوزيره ومدبر الدولة زمن أولاده جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنّابة دار للأفاعى والحيات والعقارب لها قيم وحاو من الحواة ومعه مستخدمون .

وظلت مصر طوال زمن الإخشيديين تعنى ببعض اللهو والغناء ، وفي ترجمة الإخشيد بكتاب المغرب أن أبا بكر الماذرائى دعاه إلى طعام وجمع له المغنين من الرجال والنساء . وكان يحاكي ابن طولون في احتفاله بعرض الجيش ليلة عيد الفطر وفيما كان يتخذ عقب العرض من نصب السباط للناس . وكان المصريون يحتفلون بعيد الفطر وغيره من الأعياد الإسلامية احتفالات كبيرة ، وبالمثل كانوا يحتفلون بالأعياد القبطية . وشهد المسعودى لعهد الإخشيد سنة ٣٣٠ أحد هذه الأعياد وهو عيد الغطاس المسيحى ، ويكون عادة ليلا ، ويقول إن الإخشيد كان بقصره في جزيرة الروضة ، وأمر فأسرج من شاطئى الفسطاط وشاطئى الجزيرة ألف مشعل غير ما أسرجه أهل مصر من المشاعل والشمع . ومئات الآلاف من الناس على الشواطئ وفي الزوارق وقد أحضروا المآكل والمشارب وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف . ونجد بعض الشعراء يذكرون الأديرة وما فيها من خمر ، كما نجدهم يذكرون الطرد والصيد ويقول ابن سعيد إنه كانت بالفسطاط بعض دور للقهار .

وتلقى مصر بكنوزها للفاطميين ، ويؤسسون بها أو يقيمون الدولة الفاطمية ويمتد سلطانها من

شواطئ إفريقيا الشمالية إلى بلاد الموصل ، وتدخّل في حوزتهم اليمن والحجاز في أغلب أيامهم .  
وينعم الفاطميون بالخراج الذي أخذ يتزايد من نحو مليون ومائتي ألف دينار حين نزل جوهر الصقلي  
القاهرة إلى خمسة ملايين ونصف من الدنانير لعهد الخليفة المستعلي . وكانت المكوس تُفرض على  
كل شيء حتى قال المقرئزي إنه لم يسلم منها حينئذ إلا الهواء . ويذكر المقدسي أنه كان يُجبى من  
تنيس يومياً ألف دينار على ما تنسج من الثياب ، ويقول المقرئزي إنه بلغ المتأخر على تنيس في  
ثلاث سنوات مليون دينار ومليون درهم ، وبالمثل كانت تجبى مكوس كثيرة على ما ينسج من  
الثياب في شطا ودمياط وديق والإسكندرية ، ويقال إنه جُبى من تنيس ودمياط والأشمونين في  
يوم واحد ٢٢٠ ألف دينار . ومما كانت تجبى عليه المكوس الشبُّ والنطرون . وكانت تُفرض  
مكوس على الحمامات ، وكانت تُعدُّ بالمئات في الفسطاط والقاهرة ، وعلى الحوانيت ، ويذكر  
ناصر خسرو أنها كانت تبلغ فيها نحو عشرين ألفاً ، وكان إيجار الحانوت يتراوح بين دينارين  
وعشرة دنانير شهرياً . وبجانب هذه المكوس كانت هناك الجوالى التي يدفعها أهل الذمة .  
وكانت - كما يقول ابن مئان في كتابه قوانين الدواوين - تُفرض مكوس على المتاجر الصادرة  
والواردة تبلغ نحو عشرين في المائة من العروض أو البضائع . وكانت هناك حبوس كثيرة أو بعبارة  
أخرى أوقاف محبوسة على وجوه البر ، أخذت تتزايد منذ نهض الليث بن سعد فقيه الفسطاط في  
القرن الثاني - لأول مرة - بهذا الصنيع . وكل ذلك كان يصبُّ في خزائن الدولة الفاطمية ، حتى  
لتصبح مصر وكأنها فردوس العالم العربي ، وفيها يقول المقدسي : « هي الإقليم الذي افتخر به  
فرعون على الورى .. أحد جناحي الدنيا ، ومفاخره لا تحصى ، مصره ( يريد الفسطاط ) قبة  
الإسلام ونهره أجل الأنهار ، وبخيراتُه تُعمرُّ الحجاز ، وبأهله يهبج موسم الحاج ، وبِرّه يعمّ الشرق  
والغرب . قد وضعه الله بين البحرين ( الأحمر والمتوسط ) وأعلى ذكره في الخافقين ، حسبك أن  
الشام - على جلالها - رُستاقه ( قرأه ) والحجاز - مع أهلها - عياله » .

وطبيعي أن تتضخم - مع هذا الثراء الهائل في مصر - الطبقة العليا : طبقة الأسرة الفاطمية  
وزرائها وقوادها وكبار موظفيها وأشراف العلويين وكبار إقطاعيها وتجارها . وقد أكثر الفاطميون  
من الإقطاع للوزراء والقواد ، وكان عندهم نظامان للإقطاع : إقطاع تمليك يورث وإقطاع  
استغلال يُمنح حق الانتفاع لشخص بعينه ولا يورث . ويروى أن يعقوب بن كلس أول وزراءهم  
بمصر كان راتبه في العام مائة ألف دينار ، وقالوا إنه لما توفي ترك من الجواهر ما قيمته أربعمائة ألف  
دينار ومن المصوغات ما قيمته نصف مليون دينار . وذكر ابن خلكان أن وزيرهم في أوائل القرن

السادس الهجري الأفضل بن بدر الجمالي ترك ستائة مليون دينار ومائتين وخمسين إردبا دراهم وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج وثلاثين راحلة حقاق ذهب ، ودواة ذهب محلاة بجوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة محابس في كل محبس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهّب بلّونٍ من الألوان وخمسمائة صندوق كسوة لخاصته من نسج تنيس ودمياط ، وخلف من الرقيق والخيل والبغال والجمال والجواميس والبقر ما لا يعلم قدره إلا الله . وكأنما حوّل كل أموال مصر في عهده إلى خزائنه ، وأى خزائن إن أكبر مليونير أمريكي في عصرنا لا يبلغ من الثراء مبلغه . وحتما كانت تحدث بمصر أحيانا مجاعات بسبب نقص التّيل والقمح ، كما مر بنا في عهد المستنصر ، وقد تحدث أوبئة ، ولكن مصر كانت تنفّض عنها ذلك دائما وتعود سريعا إلى رخائها الذي أتاح للوزيرين السالفين كل هذا الثراء

وإذا كان هذا حال وزيرين فما بالنا بأحوال الخلفاء وما كانوا يغرقون فيه من ثراء وترّف ، ويكفي لبيان ذلك أن نعرف أنه بعد أن تقوّضت الدولة واستولى صلاح الدين على مقاليد الحكم كُشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر الفاطمي ، فإذا به من الكنوز ما لا يكاد يخطر ببال ، حتى ليقول المقرئزي : « خرج من القصر ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح ما لا يبي به ملك الأكاسرة ولا تتصوره الخواطر الحاضرة ولا يشتمل على مثله الممالك العامرة ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حسابات الخلق في الآخرة » .

ولعل في كل ذلك ما يدل على الثراء والترّف والبذخ في أيام الدولة الفاطمية ، وبزخر حديث المقرئزي وغيره بملابس الخلفاء وعائمتهم المرصعة بالجواهر وما كانوا يتخذون من زينة في أثابهم وأواني طعامهم وفي قصورهم وبساتينها وأروقها وأفنيتها وأعمدتها وأرضها المفروشة بالرخام المتعدد الألوان ، مما بهر ناصر خسرو في القرن الخامس ، كما بهر غليوم رئيس أساقفة صور في نهاية أيام الفاطميين سنة ٥٦٢ على نحو ما يلقاننا في كتاب كنوز الفاطميين . ويقول ناصر خسرو إن أهل القاهرة كانوا يعنون بزراعة الأزهار في سطوح منازلهم حتى لثرى كأنها حدائق ، وبما يدل على سعة الرخاء لعهد ما ذكره عن سيدة بمصر كانت تملك خمسة آلاف قَدِير ، تؤجّر كل قدر منها بدرهم . ولعل فيما ذكرنا من هذا الرخاء والترّف ما يدل على أن الصناعة كانت مزدهرة بمصر ، وكان العائد منها على الصناع عظيما وبالمثل كانت التجارة وأيضا الزراعة . وكل شيء يؤكد أن الفلاحين كانوا يتعاملون مع الملاك بنظام المزارعة الموجود حتى الآن ، فللمالك نصف المحصول وللزارع أو الفلاح النصف الآخر ، وتلقانا في النصوص كلمات الخولى والسائس والحراث والجنائبي

والأجبر والأعوان وعاصر النبيذ .

ويبدو أن مصر أخذت تعنى عناية واسعة بالغناء منذ هذا العصر ، حتى لتجد ابن الطحان يؤلف في الغناء والمغنين كتابا . وشاع النبيذ والشراب بأكثر مما كانا يشيعان في الأزمنة السابقة لكثرة الوافدين على مصر من الشرق للدعوة الفاطمية ، وكأنما حملوا إلى مصر شغف بيئاتهم - وخاصة إيران - به .

واتسع الفاطميون بالأعياد الإسلامية ، وهي - كما يقول المقرئ - موسم رأس السنة ، ويوم عاشوراء ، ومولد الرسول ﷺ ، ومولد علي ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد فاطمة الزهراء ، ومولد الخليفة الحاضر ، وليلة أول رجب وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه ، وموسم ليلة رمضان أو غرة رمضان ، وسماط رمضان من اليوم الرابع حتى اليوم السادس والعشرين ، وليلة الختم ، وموسم عيد القطر ، وموسم عيد الأضحى ، وعيد الغدير ( الذي يؤمن الشيعة بأن الرسول عهد فيه بالخلافة إلى علي بن أبي طالب ) وكسوة الشتاء ، وكسوة الصيف ، وموسم فتح الخليج ( وفاء النيل ) وعيد النيروز ( أول الربيع ) وهو عيد فارسي كان الناس يوقدون فيه النار ويرشون الماء . ومن أعياد النصارى عيد الغطاس وعيد ميلاد المسيح وخميس العدس قبل عيد الفصح بثلاثة أيام وفيه يأكل القبط العدس ، وعيد الزيتون وهو يوم أحد الشعانين ، وكانت الكنائس تزين فيه بأغصان الزيتون وقلوب النخل . وبعض هذه الأعياد كانت تتحول كرنفالات كبيرة ، إذ يقول المقرئ : « كان الناس بمصر يخرجون في بعض الأعياد ويطوفون الشوارع بالخيال والتماثيل والسماجات » والخيال هو لعبة خيال الظل المضحكة التي تحولت مع الزمن إلى لعبة الأراجوز المعروفة ، ولعل التماثيل هي نفس أشباح الأراجوز ، أما السماجات فأشخاص يتراءون في صور منكرة مضحكة ، وقد يحاكي نفر منهم شعوبا أجنبية وكأن ظاهرة ضحك المصريين من أصحاب الرطانات في العربية وغيرها قديمة . وكانوا يتسلون بنطاح الكباش ومهارشة الكلاب والديكة . وبينما كان الفاطميون وأهل القاهرة مقبلين على هذه الملاهي كان الصليبيون - كما مر بنا - قد نزلوا بالشام واحتلوا بيت المقدس وأنطاكية وأكثر ثغورها ، وكان لا بد من منقذ ينقذ مصر والبلاد الشامية مما أصابها من فساد شديد في أداة الحكم .

وانتقل الحكم والسلطان إلى صلاح الدين وأسرتة الأيوبية ، وفي عهده وعهد الأسرة جميعا تحولت مصر إلى ثكنة عسكرية ضخمة ، وسرعان ما أخذت تبشير النصر على الصليبيين تلوح ، بل سرعان ما تهاوت قلاعهم تحت أقدام المصريين ، وتهاوى معها بيت المقدس ، ورُدَّت الديار

إلى أصحابها إلا قليلا . وكان المفروض أن يتقل صلاح الدين كواهل المصريين بالضرائب الباهظة من أجل السلاح والإنفاق على جيوشه ، غير أن الذى حدث كان عكس ذلك تماما ، فقد خففت الضرائب عن المصريين ورفع عنهم أكثر المكوس إن لم يكن كلها ، حتى ليقول المقرئى إنه أسقط منها ما يزيد عن مليونى دينار ومليونى أردب وبالمثل أسقط عن أهل الذمة ضرائب كثيرة حتى قالوا إن كل ما كانوا يدفعونه للدولة لم يكن يزيد عن مائة وثلاثين ألف دينار . ولعل مما يدل أكبر الدلالة على أنه لم يكن يمتص شيئا من أموال الناس وأن كل ما كان يؤول إليه من الجوالى والضرائب يُنفقُ في الحرب دون أن يختزن منه أى شىء لنفسه ما ذكره ابن تغرى بردى وغيره من المؤرخين مثل ابن شداد فى سيرته من أنه حين لَبَّى نداء ربه لم يوجد فى خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصريا ودينارا واحدا ذهبا صوريا ، ولم يخلّف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا ضيعة ولا مزرعة . ويروى ابن تغرى بردى أن ابنه العزيز كان يسير سيرته فى الرعية ، ويقول إنه وهب لصياد ديارين ، وتعذّر عليه أن يدفع له هذا المبلغ اليسير . وبالمثل كانت سيرة خلفائه سيرة عادلة ، وكانوا دائما كأنهم مرابطون لحرب الصليبيين ، وقد مات السلطان نجم الدين أيوب وهو يجاهد لويس التاسع وخطفه ابنه توران شاه - كما مر بنا فى غير هذا الموضع - فأنزل به هزيمة ساحقة ، وهو آخر سلاطين هذه الدولة بمصر الذين ظلوا يجاهدون الصليبيين حتى الأنفاس الأنصيرة من حياتهم .

وعنى صلاح الدين ببناء القلعة وبناء كثير من المدارس والرباطات ، وظل خلفاؤه يُعنون بالعمران ، مما أنعش الصناعات فى القاهرة ، وكانت صناعة الثياب مزدهرة بتينس وغيرها . وقد عُنى الأيوبيون بالتجارة ، وعقدوا - كما يقول بروكلمان - سلسلة من الاتفاقات التجارية مع الدول الأوروبية مما عاد بفوائد كثيرة على التجار المصريين ، وكانوا يعنون بالزراعة ونظم الرى عناية فائقة . ويصف ابن جبير فى رحلته لعهد صلاح الدين ريف مصر وقراه التى لا تحصى كثرة ، ويقول إن العمارة فيها متصلة ، وفيها الأسواق وجميع المرافق . ولحقته صلاة الجمعة بإحدى هذه القرى فصلّى بها الإمام فى مجمع حفيّل وخطب خطبة بليغة جامعة . ويشيد بالمارستان الذى بناه صلاح الدين بالقاهرة وما فيه من عناية بالمرضى ، ويذكر موضعا فيه مقتطعا للنساء ومقاصير عليها نوافذ من حديد أتخذت محابس للمجانين ، كما يذكر مارستانا آخر بالفسطاط على ذلك الرسم بعينه . ويذكر جزيرة الروضة ومبانيها المشرفة الحسان ويقول إنها مجتمع اللهو والزينة ، فأهل الفسطاط والقاهرة لم ينسوا حتى فى عهد صلاح الدين وحروبه وجهاده لهوهم ومرحهم ، وحقا لم يُغن

الأيوبيون بالأعياد الكثيرة التي كان يعنى بها الفاطميون والتي بلغت في تقدير المقرئ نحو ثلاثين عيداً ، ولكن على كل حال بقيت منها بقية إسلامية كانت تُمدد فيها الأسمطة للشعب وكذلك بقيت بقية من الأعياد النصرانية . وطبيعي أن يُشغَلَ الأيوبيون عن الأعياد المصرية بحروبهم مع الصليبيين وما كانت تَسْتَفِيدُ منهم من أموال ضخمة . ويدو أن فنون اللهو وما يتبعها من القمار والخمر مما عُرِفَ في عهد الفاطميين ظلت في أيام الأيوبيين وإن خفت حدتها ، ويقول ابن تغرى بردى عن السلطان العادل الأيوبي إنه طَهَّرَ جميع ولاياته - في مصر وغير مصر - من الخمر والحواطي والقمار . وطبيعي أن لا تفارق البسمة شفاة المصريين في أيام انتصارات سلاطين الأيوبيين على الصليبيين وأن لا يفارق المرح نفوسهم ، ومن خير ما يصور ذلك كتاب الفاشوش في حكم قراقوش لابن ممانى صاحب ديوان الجيش والمال لعهد صلاح الدين ، وكان قد عَيَّنَ قراقوش محافظاً للقاهرة وأمره ببناء القلعة ، والكتاب مجموعة من النوادر المضحكة على قراقوش وأحكامه الحمقاء . وسرعان ما أصبح قراقوش شخصية خيالية لكل حاكم مخبول فيه بله وغفلة وحمق ، وسُمِّيَ في تركيا قراقوز ، وعاد إلينا باسم أراجوز وبعرضه المضحكة .

ويتحول صَوْلجان الحكم وأزمته إلى أيدي سلاطين المالك ، ويكسبون لمصر مجد الانتصار على التتار ، وتنحسر موجتهم إلى العراق وماوراءه ، ويَطْرُدون نهائياً الصليبيين من ديار الشام . ويعود التتار مع تيمورلنك إلى الشام وتنسحب جموعه إلى آسيا الصغرى ، ويتوفى قتمزق دولته . وتُعدَّ أيام المالك من أزهى أيام مصر الإسلامية إن لم تكن أزهاها ، فقد ورثت عن بغداد الخلافة العباسية ، كما مر بنا ، وتوافد عليها العلماء والأدباء من العراق وما وراءه فأرَّين من وجوه التتار ، وكانت الأندلس تمر بأيامها الأخيرة فوفد عليها أربابها وعلمائها ، كما وفد من قبل علماء صقلية وأربابها حين احتلها النورمان . وبذلك كله كانت مصر منذ عصر الأيوبيين موثلاً العروبة والإسلام . وظلت بها ثلاث طبقات متقابلة طوال زمن المالك : طبقة الحكام ، وطبقة وسطى من كبار التجار ، وطبقة دنيا من الفلاحين والعامه . وكانت الطبقة العليا الأولى تعيش منفصلة عن الشعب : في جزيرة الروضة أولاً ثم في الجبل ، على نحو ما هو معروف عن المالك البحرية والبُرجية ، وقد ظلوا محافظين على طبقتهم فهم لا يختلطون بالشعب ، ودائماً كانوا يعملون على تنمية أنفسهم بعناصر جديدة منهم ، كان يستوردها لهم النحاسون من أحداث الرقيق المجلوب غالباً من القوقاز وجنوبي روسيا وبيزنطة ، وكانوا يدربونهم في القلعة على الفروسية ، ويُعِدُّون لهم أساتذة يعلمونهم الكتابة والحساب وشيئا من القرآن الكريم والحديث النبوى ، حتى إذا شَبَّوا

توزعهم أمراء المماليك ، مكوّنين منهم فرقا عسكرية . وما يلبث جنود هذه الفرق أن يقتنوا الإقطاعات ، وكانت أحيانا إقطاعات تملك كما مر بنا في العصر الفاطمي فهي تورث ، وأحيانا كانت إقطاعات استغلال . وبمرور الزمن تكاثرت هذه الإقطاعات في أيام المماليك تكاثرا شديدا ، حتى اضطرت بعض السلاطين إلى فكها ولكن سرعان ما كانت تعود .

وبذلك كان من أهم ما يميز عصر المماليك أنه عصر إقطاع ، وكان الفلاح لا يزال إقطاعه وكأنه - حياته - قن كما يقول المقرئ . ويعجب السبكي في كتابه معيد النعم من هذا الرق للفلاح ، ويقول : من حق الفلاح أن يكون حرا لا يلد لآدمي عليه . وكأنما حُرّم أصحاب الأرض الحقيقيون من تملك الأرض ، وتملكها المماليك الأرقاء ، وكانوا كثيرا ما يفرضون عليهم - كما يقول ابن إياس - ضرائب استثنائية غير الضرائب العادية . ومع ذلك ففي النصوص أن نظام المزارعة المعروف كان - كما أسلفنا - مستمرا في هذه الحقب ، وهو النظام الذي يجعل للفلاح نصف المحصول وللمالك نصفه الآخر ، ويبدو أن أصحاب الإقطاعات كثيرا ما كانوا يظلمون الفلاحين . على أن تسلط المماليك على الأرض والزراعة جعلهم يعنون بالجسور ونظام الري وبالثروة الزراعية عامة وكذلك بالثروة الحيوانية . وكانت الدولة تشتري كثيرا من المحاصيل وتعيد توزيعها على تجار التجزئة ، حتى تمنع المضاربات التجارية .

وكانت الصناعة مزدهرة ، فقد كانت أيام المماليك أيام ترف في بناء القصور الباذخة وفي كل شئون الزينة ، وكانت للدولة مصانع خاصة للخلع السنية التي يجمعها السلاطين على الأمراء وكبار رجال الدولة . وكانت تزدهر صناعة الملابس والفرش والأثاث والجلود والحلى والمعادن والزجاج الملون . وكانت الدولة تهتم بصناعة الأسلحة وسفن الأساطيل . وكل ذلك عمل على ازدهار الصناعات ، ومما يدل على هذا الازدهار بوضوح أن نجد لكل فئة من الصناع نقابة خاصة تنظر في شئونهم فيما بينهم وبين أنفسهم كذلك فيما بينهم وبين الشعب من جهة والحكومة من جهة ثانية . وكانت التجارة بالمثل مزدهرة ، بل كانت أكثر ازدهارا ونشاطا ، فإن مصر حينئذ كانت تمسك بالشرط الأكبر من أزمة التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وبعبارة أخرى بين الهند وشرق آسيا وبين أوروبا ، مما جعلها تعقد شبكة من المعاهدات بينها وبين جمهوريات إيطاليا التجارية مثل جنوا والبندقية فضلا عن بنية ثغور البحر المتوسط وجزره . وكانت الدولة تحصل على دخل ضخم من مكوس التجارة ، حتى إذا سقطت أهمية طريق مصر إلى الشرق باكتشاف فاسكودي جاما طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٣ كان ذلك إيذانا بانتهاء دولة المماليك في مصر واستيلاء العثمانيين عليها .

ولعل في هذا كله ما يدل على مبلغ الثراء ، الذى كانت تحياه هذه الدولة ، عن طرق مختلفة من التجارة والصناعة وخراج الأرض والجوالى ، وأيضاً فإن الجبوس لأراضى الأوقاف التى أشرنا إليها فى غير هذا الموضوع مضت تزايد زيادات كبيرة ، بحيث كانت مصدراً أساسياً من مصادر دخل الدولة ، وكانت تُصمَّم إليها ضريبة أخرى من مصادرة أموال التجار أحياناً وفاء بما قد تتطلبه الحروب ، وكانت مصادرة الإقطاعات مستمرة بمجرد أن يموت أصحابها . وكل هذا معناه أن دولة المماليك كانت ثرية ثراء طائلاً ، وهو ثراء أعدها التنهض نهضة كبيرة بالحركة العلمية وبفن العمارة ، وتكتظ القاهرة بمساجد سلاطينها وقبابها الشاهقة الرائعة .

وعادت إلى مصر فى أيام هذه الدولة أعيادها الكثيرة فى العصر الفاطمى : الإسلامية والقبطية عدا الأعياد الشيعية . وأضاف المماليك عيد محملى الحج . وعادت الكرنفالات والاحتفالات الكبيرة فى هذه الأعياد ومن يتنكرون بها من أصحاب المساهر والسماجات . واتسعت فنون اللهو والتسلية ، وكان الناس يخرجون للزهة فى أمكنة كثيرة على شاطئ النيل مثل الأزبكية وكان يمر بها قديماً ، ومثل بولاق وجزيرة الروضة . وكانوا يستأجرون القوارب والسفن الشراعية للتره بها فى النيل ومعهم بعض المغنين والمغنيات ، واشتهر بينهم كثيرون ، ويذكر ابن حجر منهم فى كتابه « الدرر الكامنة » عبد العزيز الحفنى أعجوبة زمانه فى فن الغناء و«خوى» أعجوبة أيامها فى الضرب على العود ومحمد بن على الدهان وكان يتقن الغناء على القانون . ويذكر السخاوى منهم فى كتابه « الضوء اللامع » خديجة الرحابية . وكان هناك من يتعاطون الخمر أحياناً وكذلك الحشيش ، وقد يكثر من يتورطون فى تعاطيها فيضطر السلطان إلى الأمر بإحراق الحشيش وإراقة دنان الخمر فى كل مكان كما صنع الظاهر بيبرس . ومن ملاحيمهم حيثذ الترد والشطرنج وتطير الحمام وتهارش الديكة والصيد ورمى الطير بالبندق . وارتقى حيثذاك خيال الظل وأصبح مسرحاً شعبياً تاماً ، ويؤلف له ابن دانيال ثلاث مسرحيات ألفها فى عهد الظاهر بيبرس ، وجميعها تصور مواقف ومشاهد فكاهية تثير الضحك فى المتفرجين . ويقول السخاوى إنه كان من ملاحيمهم سماع سيرة عنترة وذات الهمة وأبى زيد الهلالى والظاهر بيبرس . وكانما كُتب على الشعب المصرى أن يؤدى ثمنًا باهظاً لمرحه وهو فى زمن المماليك ، فإذا العثمانيون يجتاحون دياره . وثُغَم سماء مصر فقد كستها سحبهم المظلمة نحو ثلاثة قرون إلا قليلاً ، إذ تحولت من إمبراطورية ذات سلطان وصولجان إلى ولاية عثمانية ، وليس ذلك فحسب ، فقد جردتها فأتحها سليم من علمائها ورجال الفنون بها ومهرة صناعاتها . وتراثها الفنى وكل ما كان بها من تحف نفيسة ، ويقال إنه أبطل بمصر خمسين

صناعة . وبذلك كان فتح العثمانيين لمصر كارثة من كل وجه ، لم تكن كارثة سياسية فحسب ، بل كانت أيضا كارثة علمية وفنية وصناعية ، وحتى مسرح خيال الظل شاهده سليم فأنعم على صاحبه بطائفة من الدنانير ، كما يقول ابن إياس ، وخلع عليه قفطانا مذهبا ، واصطحبه معه إلى القسطنطينية . وعلى هذا النحو انتكست مصر انتكاسة لم تستطع أن تفيق منها إلا بعد فترة طويلة . وقد ضاعت منها حيثئذ مواردها التجارية وما كان لها من مكانة في التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وضاعت مواردها الصناعية ، فقد غادرها مهرة الصناع إلى القسطنطينية ، ولم يبق لها إلا الزراعة ، والعثمانيون والمالكيك يعترضون خيراتها وطيباتها من الورد ، حتى لا يبقى للفلاح سوى البؤس والفسك وشظف الحياة . وربما كان خيرا ما يصور تعاسة الفلاحين المصريين في هذه الفترة كتاب « هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف » ، ليوسف الشريفي وهي قصيدة عامية هزلية ومثلها شرحها ، وهما يحملان سخرية لاذعة بالحكم العثماني للمصريين وما أرقق به العثمانيون والمالكيك الفلاح المصري من عسف وظلم لا يداينيه ظلم ، ظلم جبر أفظع ما يمكن من الجهل والبؤس ، حتى ليصبح أفخر طعام الفلاح خبز الشعير والحب القريش (الحللى من الدهن) والبصل والعدهس والبيسار ومن ورائه سياط السخرة . وهو يسوق ذلك في أسلوب فكاهة يحمل كثيرا من السوم .

## ٥

### التشيع : الدعوة<sup>(١)</sup> الفاطمية الإسماعيلية

مر بنا - في غير هذا الموضوع - أن مصر دخلت في بيعة علي بن أبي طالب بالخلافة وأنه اختلف عليها ولاية من قبله ، غير أن ذلك لا يعنى أنها اتخذت التشيع عقيدة ، وحقا كان يحدث فيها أحيانا تحركات لبعض العلويين وبعض شيعتهم وأنصارهم ، غير أنها لم تكن تحركات مذهبية ، إذ لم تكن تعدو أن تكون نصرة لعلوى بعينه . وتمضى مصر معتقدة لمذهب أهل السنة بعيدة عن العقيدة الشيعية ، وينزلها دعاة الدولة الفاطمية حين تأسست بالمغرب ، ولم يفلح أحد منهم

(١) انظر في هذه الدعوة رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد (طبع بيروت) وكذلك دعائم الإسلام له (طبع دار المعارف) وراحة العقل للكرمانى (طبع القاهرة) والمجالس للتصيرية (طبع دار الفكر العربى) وكذلك الهدية في آداب اتباع الأئمة . وانظر كتاب العقيدة والشريعة في

الإسلام لجولدتسيهر (الطبعة العربية) ص ٢١١ وما به من مراجع وكتاب أصول الإسماعيلية لبرنارد لويس (من منشورات مكتبة المنفى) وكتاب في أدب مصر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين وما به من مراجع وخاصة للمستشرق إيفانوف .

في حملها على الثورة ضد العباسيين، وكان دعوتهم لم تكن تلبث أن تترد معهم إلى المغرب. وما نصل إلى سنة ٣٥٨ حتى يفتحها جوهر الصقلي وينشئ بها القاهرة ويتخذها الفاطميون حاضرة لهم، ويقمون بها دولة شيعية إسماعيلية وتظل مصر متمسكة بعقيدتها السنية. ومرُّ بنا أن فرقة الشيعة الإمامية انقسمت في زمن مبكر إلى اثني عشرية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق سادس الأئمة إلى ابنه موسى الكاظم وتوالت بعده في خمسة من الأئمة آخرهم محمد المهدي المنتظر المختفى منذ سنة ٢٦٠ للهجرة. وإلى إسماعيلية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل المتوفى في حياته لأن الإمامة عندهم تنتقل إلى الابن الأكبر حتى لو مات في عهد أبيه. ومرُّ بنا كيف أن عبداً لله بن ميمون القداح نظم الدعوة الإسماعيلية، وأن أحد دعايتها هياً لعبداً لله الفاطمي حكم تونس فنزلها وأعلن دعوته سنة ٢٩٧، وخلفه القائم فالمنصور فالعز الذي اتسع بالدولة ومدَّ حدودها شرقاً إلى الشام.

ويؤمن شيعة الفاطميين الإسماعيلية بمجموعة من المبادئ أولها فكرة أن إمامة المسلمين الشرعية إنما هي لعل وأبنائه من أئمتهم المنحدرين من السيدة فاطمة الزهراء، وكل إمام منهم وصي لسلفه طبقاً للترتيب الإلهي في خلافة أو ولايته الربانية على أمور الأمة. وقد بدأ الرسول ﷺ - في اعتقادهم - فأوصى بخلافة على وإمامته من بعده، ورووا في ذلك أحاديث حملوها هذا المعنى مثل: «على مني بمنزلة هرون من موسى» كما رووا أحاديث خاصة بهم تشير إلى تابع الإمامة في آل البيت، ووجهوا بعض الآيات القرآنية نفس الوجهة مثل قوله تعالى: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا).

ومبدأ ثانٍ قرره هو طاعة الإمام سواء دعا لنفسه سراً أو علانية وجهاً، فطاعته جزء لا يتجزأ من إيمان الإسماعيلية، فهم كما يؤمنون بالله ورسوله يؤمنون بإمام العصر ويقضون أمورهم إليه ويبدلون أنفسهم من دونه. فريضة مقدسة، ينضوون تحت لوائه ويبرهون من أعدائه ويوالونه أصدق الولاء.

ومبدأ ثالث هو عصمة أئمتهم، إذ يرفعونهم فوق المستوى الإنساني بفضائل فطرية فيهم تجعلهم مبرئين من الذنوب مطهرين من الآثام، لا يتورطون في معصية، ولا يقعون في أي خطيئة مها كانت صغيرة، لما يتقل في أصلاهم - حسب اعتقادهم - من نور إلهي ينقى أرواحهم

ويُخلِّبها من دواعي الشر وآثامه ، وهو نور ظل ينحدر من آدم وأبنائه الطاهرين حتى انتهى إلى عبد المطلب وحفيده الرسول عليه السلام ، وكأنما أصاب عليا حفيده الآخر منه شعاع ما يزال ينتقل في الأئمة جيلا بعد جيل .

ومبدأ رابع هو الاتساع بالتأويل في القرآن الكريم وآياته ، مستدلين بمثل قوله تعالى : ( وكذلك يَجْتَنِيكَ رَبُّكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ) زاعمين أن للقرآن ظاهرا ووراء ظاهره باطنا لا يعلمه إلا أئمتهم ، خصّوا به دون غيرهم من البشر . واشتق الدكتور محمد كامل حسين من هذا المبدأ عندهم نظرية المثل والمثول ، فظاهر القرآن مثل وباطنه في رأيهم ممثول ، وجسم الإنسان مثل ونفسه ممثول . وعلى الإسماعيلي أن ينحى عن بصره الظاهر المتبادر الذى يحول بينه وبين رؤية الشريعة على حقيقتها وفي باطنها . وهم بذلك يقترّبون من نظرية الأفلاطونية الحديثة التى تدعو إلى نبذ الأستار والحجب المادية حتى يفضى الإنسان إلى وطنه السماوى . وقد أوغلوا في التأويلات الباطنة ، لآى الذكر الحكيم ناسبين ذلك إلى أئمتهم ، مما لا يحتمله ظاهر القرآن أى احتمال ، ولذلك يسميهم أهل السنة الباطنية .

ونصل إلى المبدأ الخامس الذى يفصل العقيدة الإسماعيلية عن النظرية العامة لأهل السنة والشريعة الإسلامية فضلا تاما . وهو مبدأ تتداخل فيه نظرية الفيض الأفلاطونية ، إذ يزعمون أن الأئمة منذ آدم يتوالون في أدوار كل دور يتكون من سبعة ، والسابع هو الإمام الناطق الممثل للعقل الكلى الفعال الذى انتقلت إليه قدرة الله ، وعنه تصدر النفوس الكلية التى يمثلها الأئمة الستة في الدور كما تصدر جميع المخلوقات . ويأخذ تاريخ البشرية منذ آدم هذا النظام الدورى السبعى الكوفى ، وكل دور يدعّم عمل الناطق السابق له ويمهد لناطق الدور الجديد . ويتجلى النور الإلهي في كل دور من هذه الأدوار ويبلغ كماله في الإمام الناطق الحامل لرسالة نورانية باهرة . وهم يزعمون أن الرسول كان عقلا فعالا وأن عليا وصيه - فى اعتقادهم - كان نفسا كلية ، فلما رفع الرسول إلى الرفيق الأعلى أصبح عليّ عقلا فعالا . وما زعموه أن نفوس الأئمة الستة قبل العقل الناطق تعود بعد الوفاة إلى عالم العقول وتصبح مثله عقولا كلية مدبرة للكون .

ومبدأ سادس هو إطلاقهم كل صفات الذات العلية على أئمتهم ، وهم يبدعون فيقولون ان لكل إمام نسبتين : نسبة إلى عالم الطبيعة ونسبة إلى عالم القدس ، بالضبط كما يعتقد النصارى المسيح . وزعموا أن الله - جلّ جلاله - ينبئ أن يتّزه عن كل الصفات والأسماء ، وقالوا - بزعمهم - إن أسماءه الحسنى إنما هى أسماء العقل الأول الفعال أو العقل الكلى وأن الله أعلى من أن

يسمى باسم أويوصف بصفة . ومضوا فأضفوا صفاته وأسماءه على أئمتهم ، وبذلك رفعوهم إلى مرتبة التأليه ، بل لقد حسبوهم تجسداً للذات العلية ، حتى ليقول الداعي شهاب الدين أبو فراس في كتابه « مطالع الشمس في معرفة النفوس » : « اعلم أن الإمام الموجود للأنام لا يخلو منه زمان ولا يحوزه مكان ، لأنه إلهي الذات ، سرمدى الحياة ، ولو لم يُتأسس إلى معرفته بالحدود والصفات لما كان للمخلوق إلى معرفته وصول . » وكان أبو فراس لا يصف الإمام الفاطمي وإنما يصف الله سرمدى الوجود الذي لا يحده الزمان ولا يحصره المكان والذي لا يُعرف إلا بأسمائه وصفاته . ولا ريب في أن الدعاة من أمثاله هم الذين سؤلوا للحاكم بأمر الله أن يظن أو يتوهم أنه التجسد الإلهي للذات العلية ، فدعا له بعض دعاة إلى عبادته . ولما طفع الكيل قُتل في ضواحي القاهرة ، وأشاع أنصاره أنه اختفى وسيرجع يوماً إلى الدنيا وعالمها المحسوس .

ومبدأ سابع وهو مبدأ سلبي ، إذ كانوا يُلقنون الاجتهاد والأخذ بالقياس في الشريعة على نحو ما هو معروف عند أهل السنة ، إذ جعلوا المرجع إلى الإمام ، وهو معصوم من الخطأ ، والحكمُ إذن حكمه والفتوى فتواه دون منازع . وبذلك ألغوا حرية الفكر والرأى وما يتبعها من الاجتهاد العقلي في أمور الأمة والجماعة . وثبت عندهم ذلك واستقرت بسببه طاعتهم للإمام ووجوب الخضوع لأحكامه ، إذ هو الوارث لعلوم أهل البيت .

وهذه هي أهم المبادئ في العقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ولهم في الفقه بعض آراء خالفوا فيها الجماعة مثل المناذرة في الأذان بحمى على خير العمل ومثل ميراث البنت لكل مال أياها إذا لم يكن لها أخ ، ومثل مسح القدمين في الوضوء بالماء لا غسلها . ولعل دولة عربية لم تُعَنَّ بالدعاية كما عُني الفاطميون ، فقد كان لهم في كل بلد دعاة ، وكانوا يقسمون العالم العربي والإسلامي إلى أقسام سموها جزائر وعينوا لكل جزيرة دعاة ، وللدعاة جميعاً رئيس أعلى يسمى داعي الدعاة وباب الأبواب ، ويليه الحجة وهو كبير الدعاة في الإقليم ، وصاحب التأويل الذي يعقد مجالس الحكمة ويتلو على الناس علوم أهل البيت ويأتى وراء ذلك الدعاة والتقاء من كل صنف .

ومن يحاول التعرف على دعاة هذه الدولة سيلاحظ توا أنهم كانوا غير مصريين وأنه كان بينهم المغربي والشامي والإيراني ، وكان مصر لم تقبل على الدعوة الفاطمية ، بل ظلت سنية ومبتعدة عنها ، وكأنها دخلتها من باب وخرجت من باب آخر ، كريح مرت ولم تترك وراءها أثراً . ومعنى ذلك أن مصر لم تعتق المذهب الإسماعيلي الفاطمي ، ربما اعتنقه بعض أفراد ، أما مصر الأمة والشعب فقد ظلت منصرفه عنه في إصرار لسبب طبيعي وهو أن مصر بلد معتدل

المزاج لا يتطرف يمينا ولا يساراً، بل إن التطرف يخالف طبيعته ويباينها أشد المباينة. وحاول بعض الباحثين أن يجد شيئاً من أثر التشيع الفاطمي، فعثر على أساءة أفراد كانوا يتشيعون أو ينسب لهم التشيع هنا وهناك، ونجزم بأنهم لم يكونوا إسماعيليين يؤمنون بالمبادئ السابقة، إنما كانوا سُنيِّين محبين لأهل البيت، وكانت مصر قبل الفاطميين وإلى اليوم تحبهم، ولكن دون أن تعتق مذهباً من مذاهب الشيعة، فضلا عن المذهب الإسماعيلي وما في مبادئه من غلو مفرط.

## ٦

الزهد<sup>(١)</sup> والتصوف

مصر - من قديم - بلد دين ، تعيش به وتعيش له ، وما أهراماتها إلا رموز ضخمة لدينها الوثني في عصر الفراعنة ، حتى إذا اعتنقت المسيحية توغلت فيها وفيما تحمله من زهد في حطام الدنيا ومتاعها الفاني ، نافذة خلال ذلك إلى الرهبة التي أشاعتها في هذا الدين ، حتى غدت من خصائصه ، فإذا أناس من معتقيه يعتزلون العالم وكل ما فيه من شهوات وآرب إلى الأديرة يتفقون فيها حياتهم ناسكين متعبدين . وتدخل مصر في الإسلام وسرعان ما تقبل على تعاليمه الزاهدة التي تحض على التقوى والنسك ، ترفدها في ذلك نوازعها الدينية الموروثة ، وهي نوازع ظلت تبص بقوة في المجتمع المصري الإسلامي . وحقا قد نجد أحيانا أفرادا من الشعب أو من الأمراء الحكام يمجنون ، وقد نجد أسراباً من المجنون في بعض الأزمنة المتأخرة ، ولكن ذلك لم يكن يعلو زَيْدًا أو قشورا تبدو أحيانا فوق السطح ، أما الأعماق فترفض المتاع الدنيوي المادي وتعلق بما عند الله من المتاع الأخروي الروحي .

وابن خلكان وابن شاطر في تراجم بعض المتصوفة والزهاد وابن تفرى بردى وبلاتع الزهور لابن إلياس وتاريخ الجبرقي وكتاب في التصوف الإسلامي لنيكلسون والحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والملوكي للدكتور عبد اللطيف حمزة، وإبراهيم السنوسي وأحمد البعوي في دائرة المعارف الإسلامية، والتصوف في مصر إبان العصر العثماني والشعراني للدكتور توفيق الطويل .

(١) انظر في الزهد والتصوف الولاية والقضاة للكندي ، والمغرب ، وحسن المحاضرة للسيوطي ، وطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ، والطبقات الكبرى للشعراني . وكذلك كتاب لواقع الأتوار ، والخطط للمقرئزي في الحقايات والرياضات والزوايا . والرسالة القشيرية ، وكشف المحجوب للهجويزي ترجمة الدكتور إسعاد عبد الحادي قنديل وأخبار الحكماء للقفطي وتهذيب ابن عساکر

ومنذ الفتح الإسلامي تنشأ في مصر وتنمو جماعات من النساك العباد تتجرد عن متاع الدنيا وتنبذ طياتها ، وقرأ في تراجم القصاص الوعاظ والفقهاء والمحدثين والقراء والقضاة ، فستجد عشرات من هذه الفئات يزهدون في متاع الدنيا ، بل يفرطون في الزهد متحملين في ذلك مشقات عنيقة من الجوع وغير الجوع . نذكر منهم سليمان التجيبي ، وهو أول من قصَّ ووعظ الناس بمصر في زمن معاوية فإن السيوطي يذكر عنه في كتابه حسن المحاضرة أنه كان يسمى الناسك لشدة عبادته ، وكان يحتم القرآن في كل ليلة زلفى وتعبداً لربه . ومنهم المُرزى صاحب الشافعي وأكثر تلاميذه تصنيفاً في مذهبه ، وفيه يقول ابن خلكان في ترجمته : « كان في غاية الورع ، وبلغ من احتياظه أنه كان يشرب في جميع فصول السنة من كوز نحاس ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : بلغني أنهم يستعملون السُّرجين ( روث البهائم ) في الكيزان والنار لا تطهرها . وذكر أنه كان إذا فاتته الصلاة في جماعة صلى منفرداً خمسا وعشرين مرة أو صلاة استدراكاً لفضيلة الجماعة ، مستنداً في ذلك إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين درجة » . وكان من الزهد على طريقة صعبة شديدة . ومنهم بكار بن قتيبة القاضي في عصر ابن طولون ، وفيه يقول ابن سعيد في كتابه المغرب : قسم الفسطاط : « كان أحد البكائين والتالين لكتاب الله ، وكان إذا فرغ من الحكم خلا بنفسه وعرض عليها قضايا جميع من تقلعوا إليه وما حكم به ويكى خشية خطئه ، وكان يكثر الوعظ للخصوم » . ويورد السيوطي ثبوتاً طويلاً بمن كان بمصر من الصلحاء والزهاد والصفوة في كتابه حسن المحاضرة ، ويذكر بينهم سيدات عابدات ناسكات في مقدمتهن السيدة نفيسة حفيدة الحسن بن علي بن أبي طالب المتوفاة سنة ٢٠٨ ، وكانت مقيمة في موضع مسجدنا اليوم بالقاهرة ، وكان الناس يجتمعون إليها لسماع الحديث ، ولما دخل الإمام الشافعي القاهرة حضر إليها وسمع الحديث عنها . ومن هؤلاء المتعبدات الناسكات فاطمة بنت عبد الرحمن بن أبي صالح المتوفاة سنة ٣١٢ وقد عاشت طويلاً ، ويقال إنها ظلت ستين سنة لا تنام إلا وهي في مُصلأها بغير فراش .

وطبيعي ومصر دار كبيرة من دور الزهد والعبادة والنسك أن ينشأ فيها سريعا التصوف ، ويذكر الكندي أنه ظهرت في ولاية السُّرى بن الحكم سنة ٢٠٠ للهجرة بالإسكندرية طائفة يسمون الصوفية يأمرون بالمعروف ويعارضون السلطان في امره ترأس عليهم رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفي . ويمكن أن تتخذ هذه السنة تاريخاً تقريبياً لظهور التصوف في مصر . ويروي الكندي أنه كان في القاهرة جماعة مماثلة لمعهد المامون كانت تحيط بقاضيهِ عيسى بن المنكدر

تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وكان التصوف عُرف في مصر بقوة منذ أوائل القرن الثالث الهجرى . وقد أورد القشيري في رسالته آراء مختلفة في اشتقاق كلمة صوفى ، وهل هى من الصفاء أو من الصوف لأن الصوفية كانوا يلبسونه ويتخذونه شعاراً لتقشفهم ، أو هى من الصُفَّة وأهلها الذين كانوا يتقطعون للعبادة في المسجد زمن الرسول ﷺ ، ولا يرجع القشيري رأياً على آخر ، وذهب البيهقي إلى أن كلمة التصوف مشتقة أو مأخوذة من كلمة صوفياً بمعنى الحكمة عند اليونان ، ونظن طئاً أنها مشتقة من الصوف لأن لبسه شاع مبكراً بين المتصوفة .

وما نغضى طويلاً في القرن الثالث الهجرى حتى نسمع بأبى حاتم العطار المصرى أستاذ أبى تراب النخشبى المتوفى سنة ٢٤٥ وأهم منه ذوالنون المصرى المتوفى مع أبى تراب في نفس السنة ، واسمه ثوبان بن إبراهيم ، وقيل الفيض بن أحمد الإخيمى . كان أوحد وقته زهداً وورعاً وعبادة ونسكا ، طلب الفقه في أول حياته فتلمذ لثب بن سعد فقيه الفسطاط ، ثم رحل إلى الإمام مالك في المدينة المتوفى سنة ١٧٩ فروى عنه الموطأ ، ثم نزع إلى التصوف والنسك فتلمذ لشُقران العابد . ويذهب نيكلسون إلى أنه المؤسس الحقيقى للتصوف الإسلامى مستنداً في ذلك إلى قول ابن تغرى بردى « إنه أول من تكلم ببلده في ترتيب الأحوال والمقامات » وبذلك يجعله نيكلسون أستاذ المتصوفة جميعاً - غير منازع - في العالم الإسلامى . وينقل عن تذكرة الأولياء للجامى أنه أول من وضع تعريفات للوجد والسماع ، وأنه ذكر كأس المحبة الذى يسقى به الله المحبين وأنه كان يقسم المعرفة ثلاثة أقسام : قسماً عاماً للمسلمين جميعاً وقسماً خاصاً بالفلاسفة والعلماء وقسماً خاصاً بالصوفية الذين يرون الله بقلوبهم . وبذلك ميّز المعرفة الصوفية من المعرفة العلمية والفلسفية ، فالأولى قلبية تعتمد على البصيرة والحُدس ، والثانية عقلية تعتمد على التفكير والمنطق ، ومعنى ذلك أن التصوف ليس فلسفة ولا علماً ولا فكراً وإنما هو أحوال ومقامات وهو - بذلك - إن صح أن يسمى علماً ، علم باطن مقصور على الخواص . ودائماً كان يفرق بين الخواص وهم المتصوفة وبين العوام أو عامة المسلمين بمثل قوله : « توبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من الغفلة » وكان يقول : « ليس من احتجب عن الخلق بالخلوّة كمن احتجب عن الله بالغفلة » . وكان يقول أيضاً : « الصوفى من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق » . وكان يكثر من الحديث عن مبدأ التوكل الصوفى على الله قائلاً : علامة التوكل انقطاع المطامع . وكان يقول : « من علامات المحب لله متابعة حبيب الله ( أى رسوله ) في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسنته » . وفى هذا القول ما يدل

بوضوح على أن التصوف عنده لم يحدث بينه وبين الشريعة أى انفصام وأن ما ذكره المهجورى فى كشف المحجوب من أنه كان من الملامتية الذين يتظاهرون بالاستخفاف بأمر الشريعة عار عن الصحة ، فالتصوف عنده لا يقوم بدون الشريعة ، والحياة الصوفية لا تتحقق بدون الفرائض والسنة الشرعية . واستحضره الخليفة المتوكل من مصر ، فلما دخل عليه وعظه ، فبكى المتوكل وردّه مكرّماً ، وكان المتوكل إذا ذكر أهل الورع يبكى ويقول : حَيَّ هَلَا بَدَى النون . ويقال إنه كان على معرفة بعلم الكيمياء .

ويذكر القشيري فى رسالته والهجوبرى فى كتابه كشف المحجوب وغيرهما طائفة من تلاميذه الصوفية من أعلام القرن الثالث ، منهم ابن الجلاء شيخ مشايخ الشام ويوسف بن الحسين الرازى شيخ مشايخ إيران والجيند شيخ مشايخ بغداد وزميله الخراز وهو أول صوفى تكلم فى الفناء وسهل بن عبد الله التُّستري شيخ الحلاج الصوفى المشهور . وفى ذلك ما يشهد بأن أثر ذى النون ومصر فى التصوف وتاريخه كان أثراً بعيداً وعميقاً إلى أقصى حد . ويشتهر بعده غير صوفى بمصر ، ويفد عليهم كثيرون من متصوفة البلدان الأخرى طوال القرن الثالث ، ونذكر من متصوفها حينئذ أبا بكر الدقاق المتوفى سنة ٢٩٠ واشتهر أحد صوفيّتها وهو بنان الحمّال المتوفى سنة ٣١٦ بكثرة كراماته ، ومن صوفيّتها أبو على الروذبارى المتوفى سنة ٣٢٢ . ويقول ابن سعيد فى المغرب قسم الفسطاط : كان الإخشيد يحب الصالحين ويركب إليهم ويطلب دعاءهم ، وأنه ركب إلى رجل صالح بالقرافة يسمى ابن المسيّب وسأله الدعاء ، وأنه كثيراً ما كان يلم بأبى سهل بن يونس ويطلب منه الدعاء فى خشوع متبركاً به .

وتدخل مصر فى أيام الفاطميين ، ويبدو أنهم لم يكونوا يهتمون بالصوفية لسبب مهم وهو أن كلامهم كان يزعم لنفسه علم الباطن ، وكان الصوفية يقولون بحق إن علمهم ينبع من القلب ومن التأمل الباطنى ، وزعم الفاطميون لأئمتهم أنهم أصحاب علم لا يشركهم أحد فيه ، فأدى ذلك إلى شىء من التعارض بين الطرفين ، وبذلك انصرف الفاطميون عن الاهتمام بالتصوف وأهله . وفى هذه الأثناء حدث صدع كبير بين الفقهاء والمتصوفة وخاصة فى المشرق : فى العراق وإيران إذ رفع المتصوفة أنفسهم فوق الفقهاء درجات ، وقالوا إن الأهم فى الحياة الدينية عمل القلب لا عمل الجوارح والنهوض بالفرائض الدينية ، بل إن منهم من أهمل هذه الفرائض ، مما جعل الفقهاء يحملون عليهم حملات عنيفة . وتنبه القشيري والغزالي إلى خطورة هذا الصدع فى بيان الحياة الدينية وحياة الأمة ، فعملاً بقوة على رأيه . بحيث لا يكون المتصوف متصوفاً حقاً إلا إذا

أدَّى الفرائض والسنن الدينية ، ولابد للفقهاء في هذه السنن والفرائض من الإخلاص وصفاء القلب وصدق الشعور الباطني .

وبذلك عادت إلى صفوف المتصوفة والفقهاء - بل إلى صفوف الأمة - الوحدة ، ودعمها ووثقها حدث خطير هو اجتياح حملة الصليب لديار الإسلام في الشام والموصل منذ أواخر القرن الخامس الهجري ، فوقفت الأمة جميعها بنيانا مرصوصا ضد أعداء الإسلام ، حتى يذيقوهم وبال عدوانهم ويسحقوا جموعهم سحقا . وحمل المتصوفة والفقهاء السلاح وتقدموا صفوف المجاهدين ، وبذلك نفهم عناية صلاح الدين بهم جميعا ، فقد أخذ يقيم المدارس للفقهاء ، كما أخذ يُعنى بإقامة الزوايا للمتصوفة ، واتخذ لهم في القاهرة دارا كبيرة من دور الفاطميين كانت تسمى دار سعيد السعداء ، جعلها لهم «خانقاه» ومعناها بالفارسية دارعبادة ، يعبدون فيها الله وينسكون . وفتح أبوابها للصوفية الواردين على القاهرة من العالم الإسلامي منذ أنشأها في سنة ٥٦٩ وهى أول خانقاه أقيمت للصوفية بمصر ، ووقف عليها بستانا وعقارات تكفل نفقاتها عن سعة ، وجعل لها شيخا سُمي شيخ الشيوخ ، ورتب للصوفية فيها كل يوم طعاما ولحما وخبزا ، وبني لهم حماما وأجرى عليهم الجرايات ، ورسم لهم رسما : أن من ترك منهم عشرين دينارا فما دونها كانت لتصوفها وأن من أراد منهم السفر يُعطى ما يكفل له سفره . وكانوا يخرجون منها كل يوم جمعة للصلاة في الجامع الحاكمي في مشهد مهيب ، فشيخهم يتقدمهم وبين يديه خدام المصحف الشريف ، وقد حُمل المصحف على رأس أكبرهم والصوفية وراءه ماشون بسكون وخفر ، حتى إذا صلوا الجمعة عادوا إلى الخانقاه بنفس المشهد الرائع .

وأخذ التصوف من حيث يزدهر في مصر ، واتضح فيه اتجاهان : اتجاه فردي فلسفي ، واتجاه جماعي سني ، ويمثل الاتجاه الأول ابن الفارض سلطان العاشقين للذات الإلهية ، وهو يصور في شعره وجدّه وهيامه بربه وأحواله فيه ومقاماته ومدى مانع به في شهوده ، مع مدحه للرسول الكريم ، وقدر فحقيقته المحمدية لواء يتجمع حوله المسلمون ليسددوا للصليبيين الضربة القاضية . وكان يقابل هذا المتزعم الصوفي الفلسفي الفردي المتزعم الصوفي الجمعي ، وقد هيأت له خانقاه صلاح الدين السالفة الذكر ، وكان كثيرون منهم قد أقبلوا من العراق والشرق يحملون مبادئ طريقتين من طرق التصوف السني ، هما الطريقة القادرية للشيخ عبد القادر الجيلاني البغدادي المتوفى سنة ٥٦١ والطريقة الرفاعية لمواطنه ومعاصره الشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ ، وأخذت الطريقتان تشيعان بين المتصوفة المصريين ، وما نمضى في القرن السابع طويلا حتى يتزل

بالإسكندرية من شاذلة في الجزائر الشيخ أبو الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ ويؤسس بها الطريقة الشاذلية ، ويتبعه خلق كثير في الإسكندرية والقاهرة ، ونراه هو وأتباعه ومريديه في مقدمة الصفوف التي كُفرت في موقعة المنصورة سنة ٦٤٧ حملة لويس التاسع ، بفضل ما أذكوه في المجاهدين لأعداء الله من حاسة ملتية .

وتدول دولة الأيوبيين بمصر وتخلفهم دولة المماليك ، وتعظم رعايتها للمتصوفة ، فتبنى لهم كثيراً من الخواص والرباطات والزوايا ، ويُعدُّ المقرئ من الخواص اثنين وعشرين كان من أهمها الخانقاه البيبرسية ، ويقول المقرئ : بناها ركن الدين بيبرس سنة ٧٠٧ وهي أجمل خانقاه بالقاهرة بنيانا ، وكان بها أربعمائة صوفي ، وكانت فيها دروس منظمة للحديث النبوي وقراءة الذكر الحكيم . ثم خانقاه سرياقوس بناها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٣ وكان بها مائة خلوة لمائة صوفي وبنى لها مسجدا وحاما ومطبخا ، وأيضا كان ملحقا بها حمام للنساء مما يدل على أنه كان لبعض المتصوفات فيها خلوات خاصة . وخانقاه شيخون بناها سنة ٧٥٧ وترتب فيها دروسا لفقهاء المذاهب الأربعة ودرسا للقراءات ودرسا للحديث ومشيخة لسماع صحيح البخاري وصحيح مسلم . وبجانب الخانقاهات بنى أمراء المماليك للمتصوفة اثني عشر رباطا ، وكانت ترتب لها الجرايات ومجالس الوعظ . وأصل الرباط الثغر في دار الحرب ، ولعل في إطلاقه على زوايا المتصوفة حيثما ما يدل على صلته المستمرة بالجهاد . ومن الطريف أن أحد الرباطات كان مخصصا للمتصوفات والأرامل ممن لا يجدن من يعولن ، وكانت شيختهن صوفية وعادة تكون واعظة . وبنى المماليك ستا وعشرين زاوية للعباد والنسك وكانت ترتب لكل هذه الزوايا والرباطات والخانقاهات الأطعمة والحلوى والكسوة والزيت والصابون ، ومن أجل ذلك حُبست عليها أوقاف كثيرة .

وكان طبيعياً أن تكثر الطرق الصوفية في زمن هذه الدولة التي اتسعت في رعاية المتصوفة وولتقى في أوائلها بأبي الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية - كما قدمنا - وقد تعددت فروعها حتى بلغت أحد عشر فرعا أهمها الطريقتان : الوفاية والخلوتية . وقد تفرعت الأخيرة بدورها إلى أربعة فروع . وولتقى بإبراهيم الدسوقي المتوفى سنة ٦٧٢ مؤسس الطريقة البرهامية ، وبأحمد البدوي المتوفى بطنطا سنة ٦٩٥ مؤسس الطريقة الأحمدية وقد تعددت فروعها حتى بلغت ستة عشر فرعا .

ودخلت مصر في أوائل أيام الأيوبيين - كما قدمنا - الطريقتان القادرية الجيلانية والرفاعية ،

ودخلتها فروع من المولوية أتباع جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٣ ، ومن القلندرية وهم أتباع قلندر يوسف ، وكانوا يخلقون لحاهم وحواجبهم، وقلت أعالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض وكانوا لا يتقشفون ولا يتنسكون ، وكان لهم زاوية خارج باب النصر بالقاهرة بالقرب من القرافة ، ويقول المقریزی إن أول ظهورهم كان بدمشق سنة ٦١٩ للهجرة . وعُرفت بمصر بأخرة من أيام المالك الطريقة النقشبندية أتباع محمد النقشبندی المتوفى سنة ٧٩١ وكذلك الطريقة البكتاشية . وشاعت أيام العثمانيين الطريقة الخلوتية المتفرعة - كما أسلفنا - من الطريقة الشاذلية ، وفي مقدمة أعلامها بمصر مصطفى كمال الدين البكري المتوفى سنة ١١٦٢ للهجرة ، والشيخ الحففي ، وعنه أخذ الطريقة الشيخ أحمد الدردير ، وسنعرض له في غير هذا الموضع .

وتتميز هذه الطرق بعضها عن بعض بالأوراد ، فلكل منها ورد خاص وهو مجموعة من المناجيات لله والأدعية والابتهالات ، وتتميز أيضا بالأزياء ، فعائم الدسوقية وبيارقهم وأعلامهم خضراء ، وعائم القادرية بيضاء ، وهي عند الأحمدية حمراء ، وعند الرفاعية سوداء . وكانت هذه الطرق تنظّمات دقيقة منتهى الدقة ، فتابع الشيخ يلزمه مدة تقصر أو تطول حتى يتلقن عنه طريقته ، وحتى يُثبت إخلاصه الشديد له ، فليحقه بمرديه أو تلاميذه ويلبسه خرقة التصوف : شعار الطريقة ، ويصبح ظلًّا له ، إذ تلاشى إرادته في شيخه تلاشيا تاما وفي ذلك يقول الشعراي في كتابه : « لواقع الأنوار » نقلا عن الشيخ إبراهيم اللسوقي : « المرید مع شیخه علی صورة المیت ، لا حركة ولا كلام ، ولا يقدر أن يتحدث بين يديه إلا بإذنه ، ولا يعمل شيئا إلا بإذنه من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة الزاوية أو غير ذلك » . وتمضى الأيام ويصبح المرید شيخا ، وكانوا يرسلون بالمریدین إلى البلدان والقرى ، وبذلك يصبح للشيخ صاحب الطريقة أتباع كثيرون في وطنه وفي الوطن الإسلامي الكبير ، وإذا هو صاحب طريقة كبرى ، ولكل طريقة شيوخها الكبار .

وكان مما أتاح لهذه الطرق مكانة كبيرة في نفوس العامة أنهم كانوا يعتمدون على أوقاف محبوسة على زواياهم ورباطاتهم وخداماتهم ، فلم يكونوا يأخذون من الدولة رواتب مثل الفقهاء المدرسين والقضاة والمحدثين والقراء ، ممن كانوا يعتمدون في معاشاتهم على الهيئات الحاكمة ، أما هم فلم يكونوا يعتمدون عليها . وبذلك كان لهم استقلال روحي واضح ، جعلهم يقفون أحيانا في وجوه الحكام ، ويقاومونهم حين يتطلب الشعب هذه المقاومة بسبب ظلم أو طغيان أو زيادة في الضرائب أو غير ذلك . وهو ما جعل العامة في كافة البلاد الإسلامية تتعلق بهم تعلقا

شديداً ، كما جعل الحكام من الماليك وغيرهم يَحْشُونَهُمْ وَيَحْسَبُونَ حَسَابَهُمْ . ولعلنا لم ننس ما مر بنا في نشأة جماعة من المتصوفة بالإسكندرية والفسطاط وأنهم كانوا يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر ويعارضون الحكام أحيانا . ونرى المتصوفة يستظهرون هذا كله في أيام الماليك ، فإذا ثارت العامة لفساد أو طغيان أو انحلال في الأخلاق كان المتصوفة من وراء ثورتها ، وكان سلاطين الماليك يرهبونهم وينفّذون لهم ما يريدون . ومما يدل على مكانتهم لزمانهم أن نجد طومان باي بأخرة من سلاطين الماليك لا يقبل السلطنة إلا بعد أن يأخذ له الشيخ أبو السعود الجارحي العهد على الأمراء جميعا ، فقد لجأ إلى صوفي ولم يلجأ إلى شيخ الإسلام والفقهاء والقضاة في عصره . وقد أفضنا في الحديث عن التصوف السني وطرقه في أيام الماليك ، ولم نعرض للتصوف الفلسفي إلا عند ابن الفارض ، وكأن مصر انصرفت عنه إلا ما قد يفد عليها مع بعض أصحابه مثل الششتري الأندلسي ، وعفيف الدين التلمساني نزيب دمشق وساكنها المتوفى سنة ٦٩٠ . وربما كان المصري الوحيد الذي اعتنق التصوف الفلسفي ومذهب ابن عربي فيه عبد العزيز بن عبد الغني الحسني من الأسرة الحسينية بينيع ، نزل أبوه مصر ، وسكن هو الصعيد وشغف بالتصوف . وينقل ابن حجر في ترجمة له بكتابه الدرر الكامنة أنه من أتباع ابن عربي ، وربما لقيه حين زار مصر ، أو لعله رحل إليه في دمشق ، إذ عاش نحو مائة سنة وتوفى سنة ٧٠٣ وكان مذهب ابن عربي في الحلول والاتحاد بالذات الإلهية وجد له عن طريقه مسرِّبًا إلى مصر .

على أنه ينبغي أن نذكر أن التصوف بأخرة من أيام الماليك وفي أيام العثمانيين أخذ ينحرف عن طريقه السوي القديم ، بسبب تحول خاتقاته ورباطاته وزواياه إلى تكايا وسميت كثيرين من الدجالين والمشعوذين ومن سموها بالماذيب وال دراويش . وكان منهم من يخلق رأسه ولحيته وشعر حاجبيه ورموش عينيه ، ومن يدعى الكرامات وأنه من أولياء الله ، والله براء منه ، لانحرافه عن جادة الدين . على أنه ينبغي ان لا يبالغ الباحثون في الحملة على المتصوفة في الأزمنة المتأخرة ، إذ مما لا شك فيه أنهم هم وأسلافهم السابقين استطاعوا دراويش وغير دراويش أن يحافظوا للإسلام طوال الأزمنة الماضية على وحدته السنية حتى في زمن العثمانيين : أكثر الأزمنة تدهورا وتأخرا . ولعل أكبر صوفي مصري ظهر في زمنهم هو الشعراني المتوفى سنة ٩٧٣ وكان واسع المعرفة عميقها بالعلوم الإسلامية وكذلك بالتصوف واتجاهه الفلسفي والسني ، إذ قرأ ابن العربي وابن الفارض كما قرأ الغزالي والقشيري وغيرهما من أصحاب الطرق الصوفية ، وآثر التصوف السني وانتظم في سلك الطريقة الشاذلية ، وحاول أن يكون لنفسه طريقة متفرعة منها سماها الطريقة

الشعرانية . وله مصنفات كثيرة تُعدُّ بالعشرات ، أكثرها في التصوف ، أشاع فيها إيمانه بالكرامات والخوارق لا لغيره من المتصوفة فحسب ، بل أيضا لنفسه وما حدث له مع الجن والملائكة . وكان مثل كبار المتصوفة قبل زمنه يعتر بكرامته إزاء الحكام إلى أقصى حد ، فهو لا يقبل منهم مالا ولا هدية . وسأله أحد الحكام العثمانيين وهو راحل إلى الآستانة ألك حاجة عند السلطان ، فأجابه تَوًّا : ألك أنت حاجة عند الله ؟ فوجم الحاكم ولم ينبس بينت شفة . ويقول الجبرتي في الجزء الأول من تاريخه : « كان الإمام العلامة الحفنى قطب رضى الديار المصرية ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه ويأذنه » . ومعنى ذلك أن الصوفية ظلوا في أيام العثمانيين الحالكة - كما كانوا في الأيام السالفة - يستشعرون استقلالهم الروحي والمادى إزاء الحكام ، كما ظلوا يستشعرون إرادة الشعب وماله من قوة وسلطان .

## الفصل الثاني

### الثقافة

١

#### الحركة العلمية

تميزت مصر بتأثيرها الواسع في الحضارة الإنسانية من قديم ، وهو تأثير لا يتوقف عند الرق بفن الزراعة وشتق الثرع وتديير القنوات ، إذ يمتد إلى فن المعمار وبناء الأهرامات وفن الملاحة وبناء السفن وصناعات المعادن والخزف والنسيج وورق البردى . وليس هذا فحسب فإنها نسجت لأول مرة حلل الحروف الهيروغليفية التي اشتقت منها الحروف الفينيقية ، وأيضا ليس هذا فحسب ، فإنها أسهمت بقوة في نشأة العلم بمعناه العالمى ، سواء العلم الهندسى أو الرياضى أو الطبى . وعلى الرغم من اقتحام الجيوش المغيرة لأسوارها وحصونها في الحين بعد الحين ظلت فيها الروح العلمية كالجدوة المتقدة لا تخمد مها تراكم عليها من التراب . ونستطيع أن نتبين شررا كثيرا من هذه الجدوة في عهد البطالمة الذين اتخذوا الإسكندرية عاصمة لهم ، فقد بنوا فيها متحفا ضخما ضم بين جناحيه جامعة كبرى كان بها مدرسة للطب ، وثانية للرياضيات والفلك ، وثالثة للقانون والفلسفة ، وضم أيضا مكتبة كبيرة يقال إنه كان بها أربعمئة ألف كتاب أو أكثر . وطبيعى أن تكون اليونانية لغة الدولة هي نفسها لغة العلم في تلك الدورة من تاريخ مصر ، ويغزو الإسكندرية يوليوس قيصر وتُحرقُ المكتبة في أثناء غزوه . وتتطور الظروف سريعا وتصبح مصر ولاية رومانية ، وينشئ المصريون مكتبة صغرى بمعبد السرايوم على قلعة الأكروبوليس . ولا نصل إلى سنة ٣٩١ للميلاد حتى يثور القبط بالإسكندرية على ورتنة الوثنية الإغريقية ومعبدهم السرايوم ويهدموه ويدمرؤا معه المكتبة . ولا يُعنى الرومان بالحركة العلمية في مصر أى عناية ، فقد عدّوها مخزنا يمددهم بالقمح ، ومع ذلك ظلت فيها بقايا كثيرة من حركتها العلمية لعهد البطالمة . وظلت الإغريقية سائدة في لغة

العلم ، وشاركها القبطية وخاصة في الطقوس الدينية والكتابات التاريخية ، وأخذت تشاركها قبيل الفتح العربي اللغة السريانية التي كانت منتشرة في الأديرة وخاصة في مجال الطب ، وفي ذلك يقول بتلر : « قد كان ثمة اتصال خاص بين لغة السريان ودراسة الطب وأنه لا يبعد أن أعظم كتب الطب في القرنين السادس والسابع (للميلاد) كانت باللغة السريانية ، ولا شك أن تلك اللغة كانت ذائعة بين الناس وأن آدابها كانت دائماً تدرس في الإسكندرية »<sup>(١)</sup> .

ومر بنا في الفصل الماضي أن الحكم الروماني في مصر قبيل الفتح العربي كان لا يطاق لاضطهاد القبط دينياً ولإرهاقهم بالضرائب الباهظة ، ولذلك عدَّ القبط العرب مخلصين لهم من نير هذا الحكم الجائر الظالم . وكل شيء يؤكد أن مصر استبقت حينئذ كل ما كانت قد حصلت عليه من علوم ومعارف ، ولا سيما في الطب . وليس بصحيح ما قيل من أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية حين افتتاحها ، فقد دحضَ هذا القول بتلر وأثبت بالدليل القاطع بطلانه لما مر من أن مكتبة الإسكندرية الكبرى إنما أُحرقَت تاريخياً في عهد يوليوس قيصر قبل دخول العرب مصر بنحو ستة قرون ، بينما أُحرقَت مكتبتها الصغرى قبل أن تحقق رايات العرب في ربوع مصر بنحو قرنين ونصف<sup>(٢)</sup> ، وإذن فالقول بأن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية افتراء ليس له أي أساس تاريخي .

ومعروف أن الإسلام دفع أمته في كل مكان إلى العلم والتعلم ، وليس بين أيدينا ما يكشف كشفاً تاماً الحركة العلمية بمصر في عصر الولاة ولكن هناك دلائل كثيرة تدل على أنه انبعثت فيها حركة علمية إسلامية عربية قوية ، فبمجرد أن فُتحت مصر أخذ بعض الصحابة يتجرّدون لإقراء المسلمين القرآن وعرض بعض الأحاديث النبوية عليهم ليفقوا على تعاليم دينهم ، وكانوا يفتونهم في بعض المسائل حتى يميزوا الحلال من الحرام ، ويعظونهم مذكرين لهم باليوم الآخر وما عند الله من الثواب الآجل . ونهض بهذا الجهد العلمي طبقات من الصحابة الفاتحين لمصر ومن التابعين ومن جاءوا في إثرهم . وفي كتاب حسن المحاضرة للسيوطي أثبات طويلة بأسماء القراء والمحدثين والفقهاء

العلمى حتى الفتح العربى .

(٢) بتلر ص ٣٤٨ وما بعدها وقارن بصفحة ٨٣ وما كتبه في الفصل الثامن ومقال ماكس مايرهوف في التراث اليونانى .

(١) انظر في هذا النص وما تقدمه من حديث كتاب فتح العرب لمصر تأليف بتلر (الترجمة العربية) ص ٨٣ وما بعدها وراجع مقال ماكس مايرهوف عن مدرسة الإسكندرية وانتقالها إلى بغداد في كتاب التراث اليونانى لعبد الرحمن بلوى ، وقد فصل القول في نشاط هذه المدرسة .

والوعاظ ممن اضطلعوا في الحقب الإسلامية الأولى بمختلف الدراسات الدينية . وكانت هذه الحركة العلمية تحظى - منذ أول الأمر - برعاية الدولة وولاتها ، فقد كانت ترسل إلى مصر من يفقه الناس في أمور دينهم ، وبدأ ذلك منذ زمن عمر<sup>(١)</sup> بن الخطاب . وكان هناك دائماً القضاة للحكم بين الناس في خصوماتهم وللفتنوى فيما يجدهم من الشئون ، وكانوا عادة من الفقهاء وكثيرون منهم كانوا محدثين ، وكان يُسند إليهم الوعظ . ودائماً تلقانا نصوص هنا وهناك تدل على أن الدولة كانت تعنى بإرسال بعض المحدثين والفقهاء إلى مصر لتعليم الناس ، من ذلك أن الخليفة عمر بن عبدالعزيز (٩٩-١٠١) أرسل إلى مصر نافعاً<sup>(٢)</sup> مولى ابن عمر يعلم الناس السنن ، كما أرسل ثلاثة من الفقهاء للفتيا كان من بينهم يزيد<sup>(٣)</sup> بن أبي حبيب وقد أقام بها حتى توفى وكون بها مدرسة فقهية كان لها أثرها البعيد بعده . ولم تكن مصر تكتفى بمن يرسلهم إليها الخلفاء الأمويون ، فقد أخذت تتكون فيها أجيال من القراء والفقهاء المحدثين نجد أسماءهم مرتبة حسب وفياتهم في حسن المحاضرة . وكلما خطونا خطوة في العصر العباسي الأول أحسنا بازدياد هذا النشاط ، ومن المؤكد أنه كان مما يُدركه الأعطيات والرواتب التي كانت تفرضها الدولة وولاتها للعلماء ، كما كان الشأن في بغداد والبصرة والكوفة .

وظاهرة مهمة تلاحظ على القضاة والعلماء في مصر ، فإن منهم من كان ذاسعة في الثراء ويبدو أن القضاة كانوا يتقاضون أعلى الرواتب ، فقد كان عبد العزيز بن مروان وإلى أخيه عبد الملك على مصر يفرض لعبد الرحمن بن حجيرة الخولاني القاضي ألف<sup>(٤)</sup> دينار كل عام ، ومربنا في الفصل الماضي أن عبد الله بن طاهر حين ولي مصر لعهد المأمون فرض لقاضي القسطنطين سبعة دنانير كل يوم . وكان الليث بن سعد الفقيه ثرياً ثراء طائلاً ، ويقال إن هرون الرشيد أقطعه إقطاعات كثيرة كانت تدرّ عليه آلاف الدنانير ، وكان يرسل إلى مالك إمام أهل المدينة سنويًا مائة دينار . وكان ينثر أمواله نثرًا على تلاميذه ومن يهاجر إلى مصر من المحدثين والفقهاء<sup>(٥)</sup> . وكان عبد الله بن عبد الحكم الفقيه المالكي المتوفى سنة ٢١٤ من ذوى الأموال والرباع ويقال إنه أهدى إلى الشافعي حين نزل مصر ألف دينار وأخذ له من ابن عسامة التاجر ألفًا ثانية ومن رجلين آخرين ألفًا ثالثة<sup>(٦)</sup> . وفي ذلك ما يدل على أن كبار التجار والأثرياء في مصر كانوا يرفدون العلماء

(٤) حسن المحاضرة / ١ / ١٣٧ .

(٥) ابن خلكان / ٤ / ١٣٠ .

(٦) ابن خلكان / ٣ / ٣٤ .

(١) حسن المحاضرة / ١ / ١٩٠ .

(٢) حسن المحاضرة / ١ / ٢٩٧ .

(٣) حسن المحاضرة / ١ / ٢٩٩ .

بأموالهم . ويقال إنه كان ليونس بن عبد الأعلى أحباس<sup>(١)</sup> (أوقاف) . وكان طيِّبات مصر وخيراتها صبَّت في حجور العلماء . فكان منهم كثيرون في يسار ونعمة ، وكانوا يصلون زملاءهم وتصلهم الدولة وكبار التجار والموسرين ، مما هبَّ للعلماء أن يخلصوا للعلم وينبغوا فيه . وظاهرة ثانية تلاحظ بجانب الظاهرة السابقة وهي أننا لا نكاد نتقدم إلى أواسط القرن الثاني للهجرة حتى يصبح لعلماء مصر حظ واضح من المساهمة في الفكر الإسلامي العربي . وقد ظلت أكثر من قرن تتلقى آثار هذا الفكر وتحاول أن ترعاها وأن تضيف إليها من شخصيتها ما ينميها ، وغلب عليها حينئذ التلقي والتلمذة ، فهي تتلقى قراءات الذكر الحكيم والحديث النبويِّ والفقهِ واللغة والأخبار والتاريخ العربي الإسلامي ، وتُسيغ ذلك كله وتمثله حتى إذا توسطت القرن الثاني للهجرة أخذت تسهم بحظ قوى فيما تلقاه . ولعل من الطريف حقا أنها أخذت تزعم بقوة المغرب والأندلس جميعا ، فإذا هي تعدُّهما لقراءة ورشٍ ولاستقبال مذهب مالك إمام المدينة والحجاز . وليس ذلك فحسب ، فإنها هي التي كتبت لأول مرة تاريخ الفتح لإفريقيا والأندلس ، وأذاعت رواية للسيرة النبوية ، ستحدث عنها فيما بعد ، كانت إماما لكتب السيرة العطرة ، ونفذ أحد أبنائها وهو ذو النون المصري إلى وضع أسس التصوف ، كما مرَّ بنا في الفصل الماضي . ومعروف أنها استقبلت على رأس المائتين الإمام الشافعي وحملت عنه مذهبه ونشرته في بلدان العالم الإسلامي ، بحيث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة ذيوِّعا وانتشارا .

وعلى هذا النحو أصبحت مصر في زمن الولاية مركزا مهما من مراكز العلم وقصدها الطلاب من أطراف المغرب والأندلس لحمل العلم عن علماءها المختلفين . ونمضى إلى زمن الدولة الطولونية فنرى الحركة العلمية نامية ناشطة على نحو ما تصور ذلك أسماء العلماء المصريين والوافدين المدبَّون حسب تاريخ الوفيات والتخصصات العلمية في كتاب حسن المحاضرة . ويُنسب أحمد بن طولون جامعهُ المشهور ويرتَّب لإملاء الحديث النبوي في الربيع بن سليمان المرادي وحمل إليه صناديق المصاحف وينقل إليه القراء والفقهاء<sup>(٢)</sup> . وليس بين أيدينا نصوص توضح إعطياته للعلماء ، ويبدو أنها كانت كثيرة إذ يُروى أنه كان يعطى القاضي بكَّار بن قتيبة كل سنة ألف دينار خارجا عن المقرر له وأنه ظل على ذلك أعواما كثيرة<sup>(٣)</sup> . ولا بد أن غطايا مقاربة كانت تُعطى للقراء والفقهاء والمحدثين والقائمين على دراسة التاريخ واللغة والأدب . وأخذت مصر منذ زمن ابن طولون ( ٢٥٤ -

(٣) ابن خلكان ١ / ٢٧٩

(١) ابن خلكان ٣ / ٢٥٠

(٢) خطط المقرئ ٣ / ١٤٦ وما بعدها

٢٧٠ هـ) بل قبل زمنه بعشرات السنين تصبح مقصدا للعلماء وطلاب العلم لا من المغرب والأندلس فحسب ، بل أيضا من الشام والعراق وإيران وخراسان . وقد نزلها خمسة من أصحاب الصحاح يكتبون الحديث النبوي عن علمائها ، وهم البخارى وأبوداود ومسلم وابن ماجه والنسائي<sup>(١)</sup> وأقام فيها الأخير واتخذها مسكنا ودارًا له ، وكان ينزل في زقاق القناديل ، وأملى بها سنته ، وأخذها عنه الناس من المصريين وغيرهم .

وكان ابن طولون وغيره من ولاية مصر وحكامها يترّون من ينزل بها من العلماء وطلاب العلم ، يدلُّ على ذلك من بعض الوجوه ما يُروى من أن ابن - ير الطبرى المؤرخ والمفسر المشهور المتوفى سنة ٣١٠ نزلها وهو فى نحو الثلاثين من عمره سنة ٢٥٣ وتركها قليلا إلى الشام ثم عاد إليها سنة ٢٥٦ ليتزود مما لدى علمائها من الحديث والفقه . وكان شافعيًا ، وجمعت الرحلة بينه وبين أبى بكر محمد بن إسحق بن خزيمة النيسابورى المتوفى سنة ٣١١ حامل قراءة ورش عن يونس بن عبد الأعلى وفقه الشافعى عن تلميذه : المزنى والربيع بن سليمان المرادى إلى موطنه : نيسابور بخراسان ، وأيضًا محمد بن نصر المروزى المتوفى سنة ٢٩٤ حامل فقه الشافعى إلى سمرقند عن المزنى وغيره من تلاميذه ، وكذلك محمد بن هرون الرويانى المحدث وله مسند . جاءوا جميعًا إلى القسطنطينية يدرسون على شيوخه ، ويقال إنهم اجتمعوا يوما ولم يبق عندهم ما يموتهم ، وكان والى مصر قد علم بأمرهم - وأكبر الظن أنه ابن طولون - فأرسل إلى كل منهم مائة دينار ، ويقال إنه أرسل إليهم ألف دينار<sup>(٢)</sup> . وإذا كان طلاب العلم تُغلق عليهم الأموال بمصر فما بالنا بما كان يُغلق على علمائها .

وما نصل إلى أواخر القرن الثالث حتى تكون مصر قد نشرت مذهب الشافعى فى خراسان عن طريق أبى بكر بن إسحق النيسابورى ومحمد بن نصر وأيضًا عن طريق عبدان المروزى الذى تفقه على المزنى والربيع بن سليمان ، ويقول السيوطى إنه هو الذى أظهر مذهب الشافعى فى خراسان<sup>(٣)</sup> ، وظلت مصر منذ هذا التاريخ من أهم بيئاته . ومن أهم تلاميذ أصحاب الشافعى المصريين أبو القاسم الأنماطى عثمان بن سعيد المتوفى سنة ٢٨٨ وفيه يقول السبكي : هو الذى اشتهرت به كتب الشافعى ببغداد ، وعليه تفقه شيخ المذهب هناك وحامل لوائه فى بغداد والعراق

(٢) معجم الأدياء ٤٦/١٨ وحسن المحاضرة

٣١٠/١ .

(٣) حسن المحاضرة ١/٣٤٩ .

(١) حسن المحاضرة ١/٣٠٦ ، ٣٠٩ وطبقات الشافعية

للسبكي (طبعة عيسى البابى الحلبي بالقاهرة) ٧/٢ ،

١٧١ ، ١٥/٣ .

أبو العباس بن سُرَيْج<sup>(١)</sup> . أما الشام فحمل إليها المذهب عن تلاميذ الشافعي أبو زرعة محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٠٢ إذ أدخله إلى دمشق وولى قضاءها ، ولم يتوله بعده لأن في الشام ولا مصر إلا شافعي المذهب حتى عصر الظاهر بيبرس<sup>(٢)</sup> . وأما الحجاز فيقول السبكي عنها إنها لم تخرج منذ ظهور مذهب الشافعي وإلى يومنا هذا في أيدي الشافعية : القضاء والخطابة والإمامة بمكة والمدينة<sup>(٣)</sup> . ويمضي السبكي قائلاً إن أهل اليمن شافعية إلا أن يكونوا زيديين ، ويذكر أن مذهب الشافعي شاع في فارس ، وأما أذربيجان فلا تعرف سواه . وكل ذلك بفضل تلاميذ الشافعي المصريين الذين قاموا على مذهبه خير قيام واستطاعوا نشره في القرن الثالث عن طريق تلاميذهم حتى أقصى المشرق .

وتمضى مصر في العناية بالدراسات الدينية لعهد الإخشيديين في القرن الرابع ويصور ذلك من بعض الوجوه ما رواه ابن سعيد من أنه كان في جامع عمرو للمالكيين خمس عشرة حلقة وللشافعيين مثلها ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقات<sup>(٤)</sup> . ومعروف أن مصر كانت مالكية حتى قدوم الشافعي ، فاقسم مصر مذهبه والمذهب المالكي ، ولم يكن للمذهب الحنفي أتباع إلا بعض من كان يتولى القضاء بها لعهد بني العباس ، ولا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة . أما جمهور القضاة فكان من المالكية ، حتى إذا كنا في أواخر القرن الثالث الهجري انتقل القضاء من أيديهم نهائياً إلى الشافعية كما مر بنا آنفاً في حديث السبكي . وأتيح للمذهب الحنفي إمام مصرى كبير من أمته هو أبو جعفر الطحاوى المتوفى سنة ٣٢١ فهياً له بمصر حياة لم تكن له من قبل ، وهى التى أتاحت لقيام الحلقات الثلاث التى يُدرّس فيها الفقه الحنفي كما ذكر ابن سعيد . وتأخذ الدراسات اللغوية والنحوية فى النمو بمصر منذ عهد الدولة الطولونية ويومها الأخصف الصغير تلميذ المبرد ، ويظل هذا النمو مطرداً فى زمن الدولة الإخشيدية ، ويقصدها الطلاب المغاربة والأندلسيون ويحملون عنها المعاجم وكتاب سيبويه وغير ذلك من كتب اللغة والنحو .

وعملت الدولة الإخشيدية على إنماء الحركة العلمية وساعدها على ذلك أنه كان يضطلع بالوزارة لها مدة متطاولة جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف باسم ابن حنّابة وكان يُغلق على العلماء ويحزل صلاتهم ، فقصده الأفاضل - كما يقول ابن خلكان - من البلدان الشاسعة ، وكان من حفاظ الحديث النبوى وكان له مجلس فى المسجد يملكه فيه على الناس ، وعنى بتأليف مسند

(٣) السبكي ١/٣٢٢ .

(١) السبكي ٢/٣٠١ وانظر ٣/٢١ .

(٤) المغرب لابن سعيد (قسم القسطنطين) ص ١٧٣ .

(٢) السبكي ٣/١٩٧ وحسن المحاضرة ١/٣٩٩ .

خاص به ، وإليه رحل الدَّارَقُطِيُّ على بن عمر أكبر محدثي العراق في عصره ، وأعانه في تأليف مسنده مع من كان يُعِينُهُ فِيهِ مِنَ الْمَصْرِيِّينَ وَأَقَامَ لَدَيْهِ مَدَّةً ، وَبَالَغَ ابْنُ حِزْبَابَةَ فِي إِكْرَامِهِ ، وَأَنْفَقَ عَلَيْهِ نَفَقَةً وَاسِعَةً وَأَعْطَاهُ شَيْئًا كَثِيرًا وَحَصَلَ لَهُ بِسَبَبِهِ مَالٌ وَفِيرٌ <sup>(١)</sup> .

وظل ابن حِزْبَابَةَ يَقُودُ الْحَرَكَةَ الْعِلْمِيَّةَ بِمَصْرٍ طَوَالَ وَزَارَتِهِ وَقَدْ اِمْتَدَّتْ نَحْوَ عَشْرِينَ عَامًا مِنْ أَيَّامِ كَافُورٍ إِلَى قَرَبِ انْتِهَاءِ الدَّوْلَةِ الْإِسْخِيدِيَّةِ ، وَطَبِيعِيٌّ وَمِثْلُهُ يَقُومُ عَلَى ذَلِكَ أَنْ تَمُضِيَ فِي النُّشُورِ وَالنَّشَاطِ . وَمَنْ نَزَلَ مِصْرَ حِينَئِذٍ الْمَسْعُودِيُّ عَلَى بْنِ الْحُسَيْنِ الْمُؤَرِّخِ الْمَشْهُورِ . وَمِنْهَا ذَاعَتْ كُتُبُهُ التَّارِيخِيَّةُ وَفِي مَقْدَمِهَا كِتَابُهُ مَرْوَجُ الذَّهَبِ ، وَظَلَّ مَقِيمًا بِهَا حَتَّى لَبَّى نَدَاءَ رَبِّهِ سَنَةَ ٣٤٥ وَقِيلَ بِلِ سَنَةِ ٣٤٦ .

وتزداد الحركة العلمية نموًا ونشاطًا في زمن الدولة الفاطمية ، إذ عمل الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم على دَفْعِ هَذِهِ الْحَرَكَةِ دَفْعًا قَوِيًّا ، وَمَا تَكَادَ تَمُضِي سِنَوَاتٌ فِي عَهْدِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ حَتَّى نَجِدَ الْخَلِيفَةَ الْعَزِيزَ (٣٦٦ - ٣٨٦ هـ) يَرْسِمُ رَاتِبًا لِسَبْعَةِ وَثَلَاثِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَيُنِيئُ لَهُمْ دَارًا بِجُورِ الْجَامِعِ الْأَزْهَرِ <sup>(٢)</sup> الَّذِي كَانُوا يَتَّخِذُونَهُ مَقْرَأً لِدَعْوَتِهِمُ الْإِسْمَاعِيلِيَّةَ . وَلَا نَعْرِفُ هَلْ كَانَ الْفُقَهَاءُ جَمِيعًا إِسْمَاعِيلِيَّةً أَوْ كَانَ بَيْنَهُمْ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ ، عَلَى أَنَا نَجِدُ ابْنَ الْحَاكِمِ يَسْتَدُ إِلَى فُقَيْهَيْنِ مَالِكِيِّينَ التَّدْرِيسَ فِي هَذَا الْجَامِعِ <sup>(٣)</sup> ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَحْوَلُ سَرِيعًا إِلَى جَامِعَةٍ كَبْرَى لِلدِّرَاسَاتِ الدِّينِيَّةِ وَاللُّغَوِيَّةِ . وَفِي أَخْبَارِ وَزِيرِ الْعَزِيزِ ابْنِ كَلَّسٍ أَنَّهُ كَانَ يُجْرَى بِأَمْرِهِ أَلْفُ دِينَارٍ شَهْرِيًّا عَلَى جَامِعَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالرُّوَاقِينَ وَالْمُجَلِّدِينَ <sup>(٤)</sup> ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ نَشَأَتْ حَرَكَةٌ عِلْمِيَّةٌ كَبْرَى لِالِدِّرَاسَاتِ الْعِلْمِيَّةِ فَحَسَبَ ، بَلْ أَيْضًا لِنَسْخِ الْمَخْطُوطَاتِ فِي مَخْتَلَفِ الْعُلُومِ وَالْآدَابِ . وَأَكْثَرُ دَلَالَةٍ عَلَى ذَلِكَ مَا يُرَوَى مِنْ أَنَّ الْعَزِيزَ عُنِيَ بِإِنْشَاءِ مَكْتَبَةٍ فِي الْقَصْرِ ، كَانَ بِهَا مَا يَزِيدُ عَلَى مِائَةِ أَلْفِ مَجْلَدٍ ، وَفِي رِوَايَةٍ عَلَى مَائَتِي أَلْفِ <sup>(٥)</sup> ، وَكَانَ أَمِينَهُ الْقَائِمَ عَلَيْهَا الشَّابِثِي <sup>(٦)</sup> عَلَى بْنِ مُحَمَّدٍ صَاحِبِ كِتَابِ الدِّيَارَاتِ ، وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ بِهَا أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثِينَ نَسْخَةً مِنْ مَعْجَمِ الْعَيْنِ الْمُنْسُوبِ إِلَى الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ ، وَأَكْثَرُ مِنْ عَشْرِينَ نَسْخَةً مِنْ تَارِيخِ الطَّبْرِيِّ ، وَمِائَةِ نَسْخَةٍ مِنْ مَعْجَمِ الْجُمْهُورَةِ لِابْنِ دَرِيدٍ . وَمَا زَالَ الْعَزِيزُ يُعْنِي بِهَذِهِ الْمَكْتَبَةِ هُوَ وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنَ الْخَلَفَاءِ الْفَاطِمِيِّينَ ، حَتَّى قَبْلَ

(٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم ميتز

١/ ٢٥٠ نقلًا عن يحيى بن سعيد الأنطاكي .

(٥) النجوم الزاهرة ٤/ ١٠١ والخطط ٢/ ١٢٨ .

(٦) ابن خلكان ٣/ ٣١٩ .

(١) ابن خلكان ١/ ٣٤٧ ، ٣/ ٢٩٨ .

(٢) صبح الأعشى ٣/ ٣٦٣ والخطط ٣/ ١٥٧ ،

٢٧٥ .

(٣) النجوم الزاهرة ٤/ ١٧٨ .

إنها أصبحت أربعين خزانة مملأى بنفائس المجلدات في الحديث النبوى والفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والتاريخ وعلوم الأوائل ، ويقال إنه لم يكن في العالم دار كتب تماثلها وأنها كانت من عجائب الدنيا . وعلى الرغم من بيع بعض مصاحفها وكتبها في أيام المجاعة الهائلة لزمن المستنصر فإنها ظلت زاخرة بالكتب ، حتى يقال إن صلاح الدين أهدى وزيره القاضى الفاضل منها مائة ألف مجلد أودعها مدرسته الفاضلية ، وظل ابن صورة دلالً الكتب يبيع منها للناس مدة من السنين<sup>(١)</sup> . وكانت هذه المكتبة الضخمة تعد أما لمكتبات القاهرة والفسطاط جميعا ، فقد كانت تُلحَقُ بكل جامع خزانة للكتب ، وكان الفاطميون يمدونها من حين إلى حين بما يلزمها من المصنقات ، يدل على ذلك - من بعض الوجوه - ما يروى عن الحاكم من أنه أنزل من القصر إلى الجامع العتيق : جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ١٢٩٨ مصحفا وإلى جامع ابن طولون ٨٠٠ مصحف كان منها ما هو مكتوب بالذهب<sup>(٢)</sup> . وإنما نُصِّوا على إنزال المصاحف لجلاها ، ولا بد أنهم أنزلوا معها كثيرا من الكتب . ونفس مكتبة القصر كان يختلف إلى خزائنها الخارجية العلماء والطلاب للقراءة والنسخ منها والاطلاع .

وَيُؤَسَّسُ في سنة ٣٩٥ جامعة كبرى تسمى دار العلم ، حُمِلَ إليها من خزائن القصر كتب كثيرة تحتوى على سائر العلوم الإسلامية والآداب والفلسفات وعلوم الأوائل ، يقول المقرئى « حضرها الناس على اختلاف طبقاتهم ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم ، وجُعِلَ فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والورق والأقلام والمحابر . وكانت بها دروس للمحدثين والقراء والفقهاء وأصحاب النحو واللغة والمنجمين والأطباء والمتفلسفة ، وكل هؤلاء كانت تجرى عليهم وعلى الطلاب الرواتب . وما تدخل سنة ٤٠٠ حتى يكتب الحاكم وَفْقِيَّةً كبيرة للإنفاق منها على دار العلم وعلى الجوامع الكبرى ، وخصَّ الفراشين والحُصْر والحبر والورق والأقلام في دار العلم بمائتين وسبعين دينارا سنويا . ومن المؤكد أن الحاكم كان يتفنى بهذه الجامعة أن تكون مركزاً للدعوة للعقيدة الإسماعيلية بدليل أنه جعل رئيسا لها أحد دعواتها من بيت النعمان وهو عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، ويبدو أنه وجد في ذلك ما يهدد بثورة أهل السنة المصريين ، فأضاف إلى علمائها الإسماعيليين من أصحاب نحلته طائفة من فقهاء أهل السنة ومحدثيها وعلى رأسهم عبد الغنى بن سعيد الفقيه الشافعى المشهور وأكبر حُفَّاز

(١) انظر في هذه المكتبة وكل ما ذكرت عنها الخطط (٢) الخطط ٣/١٤٦ ، ١٦٣ .

الحديث المصريين في زمنه . وما زالت هذه الجامعة ناهضة بالحركة العلمية في القاهرة حتى عهد الأفضل بن بدر الجبال إذ رأى إغلاقها ، لنشوب جدل عنيف بها فيما صنع من جعل المستعلي بالله الخليفة الفاطمي بعد أبيه المستنصر دون أخيه نزار الذي كان يكبره ، وخشى من ذلك حدوث ثورة ، غير أن النزارية لم يلبثوا أن قتلوه ، وقيل بل قتله الأمرين المستعلي . غير أن الجامعة أودار العلم لم تلبث أن أعيدت سنة ٥١٧ بعد نقلها إلى دار جديدة ظلت فيها حتى نهاية الدولة الفاطمية<sup>(١)</sup> .

وإذا كان فقهاء الدعوة الإسماعيلية استغلّوا الجامع الأزهر ودار العلم في أول تأسيسها لنشر الدعوة الإسماعيلية فإن الجامع العتيق جامع عمرو بن العاص في القسطنطينية ظل مركزاً لدراسات أهل السنة . ولا بد أن نلاحظ أن القاهرة حين أُسست إنما كانت مسكناً للخلفاء الفاطميين وحواشيها من رجال الدولة وجنود الجيش القادم معها من المغرب ، بينما كانت القسطنطينية مسكن المصريين ، كما كان شأنها قبل دخول الفاطميين ، وكان مسجد جامعها جامعة كبرى للدراسات السنية . ويذكر المقدسي الذي زارها سنة ٣٧٥ أنه رأى في جامع عمرو بن العاص بين العشاءين مائة مجلس وعشرة<sup>(٢)</sup> للقراء والدراسات السنية . ومع ذلك كان فقهاء الدعوة الإسماعيلية يتراءون فيه ويفتون الناس أحياناً<sup>(٣)</sup> ، كما أخذ أهل السنة بدورهم يحاولون الإملاء وإلقاء المحاضرات في الجامع الأزهر ، ولم يجد الحاكم بدءاً - كما مر بنا - من أن يعين في الأزهر وفي دار العلم بعض أهل السنة من المحدثين والفقهاء .

ولعل في ذلك ما يخفف حدة القول بأن الفاطميين كانوا يضطهدون فقهاء أهل السنة ومحاربونهم ، ويذكرون في هذا الصدد الاعتداء في سنة ٣٨١ لأبي لعهد العزيز على رجل وُجد عنده موطأ الإمام مالك<sup>(٤)</sup> ، وقد يكون السبب أن الرجل تعرض للدعوة الإسماعيلية بالسبب والطلب . ويذكرون أن الحاكم أراق دماء نفر من فقهاء أهل السنة ، وكان فيه سفه وخيل ، فلم يرق دماءهم وحدهم ، بل أراق أيضاً دماء كثيرين من الدعاة الإسماعيليين ورجال الدولة . وكان بيت النعمان أهم البيوت المغربية في نصرتهم والتأليف في عقيدتهم الفاسدة ، ومع ذلك قتل الحسين بن علي بن النعمان كبير قضاته ، وولّى بعده ابن عمه عبد العزيز الذي أقامه رئيساً لدار العلم ،

(١) انظر في دار العلم القديمة والجديدة المخطوط

ص ٢٠٥

(٢) ابن خلكان ٣٠/٧ وانظر المخطوط ٣١/٣ .

٢١٨ ، ١٩٤/٢ .

(٣) المخطوط ٣/٢٧٥ .

(٤) أحسن التماسيم في معرفة الأقاليم (طبع ليدن)

كما مر بنا ، ولم يلبث أن قتله سنة ٤٠١ وولى بعده مالك بن سعيد الفارقي ، ولم يلبث أن سفك دمه <sup>(١)</sup> . وإذن فقتل الحاكم لجاعة من أهل السنة ليس دليلا كافيا على اضطهاد الفاطميين لهم إذ كان لا يُبقي ولا يذر من كبار دعائه وقضاته ورجال دولته الإسماعيليين .

ومما يذكر من اضطهاد الفاطميين لفقهاء أهل السنة أن الخليفة الظاهر (٤١١-٤٢٧هـ) أمر بطرد <sup>(٢)</sup> الفقهاء المالكية من مصر أى الفسطاط سنة ٤١٦ . وينقص هذا الخبر كتاب رواه عنه صاحب النجوم الزاهرة حمل فيه حملة شعواء على من يؤلّهون عليا وأباه الحاكم ، وفيه يقول : « قالوا في آباءنا وأجدادنا منكرًا من القول وزورا ، ونسبونا بغلوهم الأشنع ، وجهلهم المستفطع إلى ما لا يملئنا بنا ذكره ، وإنما لنبرأ إلى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة الضلال » <sup>(٣)</sup> . ومثله لا يضطهد المالكية ولا ينهيه من البلاد . وكان لا يزال بمصر في عهده عبد الوهاب بن علي البغدادي المالكي أحد الأئمة المالكية المجتهدين في المذهب ، نزل مصر لضيق حاله ببغداد وتوفى بها سنة ٤٢٢ يقول السيوطي : « أكرم بمصر وتمول وسعد جدًا ، ومرض فكان يقول في مرضه : لا إله إلا الله عندما عشنا متنا <sup>(٤)</sup> » . فصر في عهد الخليفة الظاهر وقبله وبعده كانت لاتزال مركزا كبيرا للإشعاع العلمي والدراسات الدينية ، ينزلها العلماء ليشاركوا في نهضتها العلمية ، وينزلها طلاب العلم ليتزودوا منها خير زاد . ونضرب مثلا بمكي بن أبي طالب القيسي القيرواني المتبحر في القراءات المتوفى سنة ٤٣٧ والمولود سنة ٣٥٤ فقد جاءها يطلب العلم فيها سنة ٣٦٧ ثم عاد إليها سنة ٣٧٤ ورجع إلى بلده ثم عاد سنة ٣٧٧ لأخذ القراءات عن شيوخها ورجع إلى القيروان سنة ٣٨٠ ثم عاد سنة ٣٨٢ لاستكمال القراءات ، ومضى بعد سنوات إلى جامع قرطبة بالأندلس يقرئ فيه الناس <sup>(٥)</sup> . ومثله أبو عمر والداني الأندلسي نزل مصر سنة ٣٩٧ وحمل القراءات عن أساتذتها وهو في الخامسة والعشرين من عمره <sup>(٦)</sup> . فهذان عالمان سنيان جليلان نزلا مصر لعهد العزيز والحاكم على الترتيب ووجدنا فيها ما يكفل لها الإقامة بها والعيش فيها .

ومن نزل مصر من كبار المحدثين النقاش الحافظ المتوفى سنة ٣٦٩ وأبو سعيد الماليني المتوفى سنة ٤١٢ وأبو نصر السجزي المتوفى سنة ٤٤٤ ونزلها في العقد الثاني من القرن السادس أكبر حفاظ

(٥) ابن خلكان ٥/٢٧٤ .

(١) المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٦٦ .

(٦) معجم الأديب ١٢/١٢٦ وكان أستاذ الداني في

(٢) الخطط ٣/٣١ .

القراءات هو نفسه أستاذ مكي : عبد النعم بن غلبون الحلبي

(٣) النجوم الزاهرة ٤/٢٤٩ .

نزول مصر .

(٤) حسن المحاضرة ١/٣١٤ .

الحديث في عصره. الإمام السُّلُفي . ونزلها من كبار فقهاء الشافعية أبو العباس الذَّيْبلي المتوفى سنة ٣٧٣ وأبو الحسن الحلبي المتوفى سنة ٣٩٦ وأبو الفضل البغدادي المتوفى سنة ٤٤١ وأبو القاسم العراقي المتوفى سنة ٤٧٧ وأبو الفتح المقدسي المتوفى سنة ٥١٨ ، ونزلها من فقهاء المالكية الأبهري الصغير وعبد الله بن الوليد الأندلسي المتوفى سنة ٤٤٨ وعبد الجليل بن مخلوف الصقلي المتوفى سنة ٤٥٩ وأبو بكر الطرطوشي الأندلسي المتوفى سنة ٥٢٥ وأبو العباس الفاسي<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٥٦٠ .

وإذا كان هؤلاء العلماء والطلاب الوافدون وجدوا في مصر مستقرا لهم ومقاما فأولى أن يجد ذلك أبنائها ، وأيضاً فإن وراءهم كثيرين من محدثي مصر وفقهائها الشافعيين والمالكيين والقراء يُعدُّون بالعشرات على طول السنوات في عهد الدولة الفاطمية ، مما يؤكد أن الفاطميين لم يعلنوا معارضة هذه الدراسات ، بل لعلهم كانوا يشجعون كثيرين من أهلها ومن الوافدين عليهم ، حتى ليقول نزيلها الإمام عبد الوهاب المالكي قولته السالفة : « عندما عشنا متنا . » ولعلنا لسنا في حاجة إلى كل هذه الأدلة لنبرهن على أن الفاطميين لم يقفوا حجر عثرة ضد نشاط أهل السنة ومذهبي الفقه الشافعيين حينئذ في مصر : المذهب الشافعي والمذهب المالكي فإن القلقشندى يشهد لهم بذلك شهادة بيِّنة إذ يقول عنهم : « كانوا يتألفون أهل السنة والجماعة ويمكنونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ، ولا يمنعون من إقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد على خلاف معتقدهم .. ومذاهب مالك والشافعي وأحمد (بن حنبل) ظاهرة الشعار في مملكتهم بخلاف مذهب أبي حنيفة ، ويراعون مذهب مالك ومن سألهم الحكم به أجابوه<sup>(٢)</sup> . » وهو محق في مذهب أبي حنيفة إذ لم يكن له نشاط بمصر في عهد الفاطميين ، أما مذهب ابن حنبل فغير محق في إثبات نشاط له حينئذ إذ كان نشاطه مثل نشاط مذهب أبي حنيفة يكاد يكون معدوماً .

على كل حال هذه شهادة صريحة للفاطميين بأنهم كانوا يترضون أهل السنة ، وحقاً حين دخلوا مصر أسندوا وظيفة قاضي القضاة إلى النعمان قبيهم وتوارثها بعده بعض أبنائه وأحفاده ، ثم ولوها بعض شيعتهم . ويبدو أنهم أخذوا في عصر المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) يتركون هذه السياسة ، إذ عيَّنوا على رأس القضاة قضاة شافعيًا هو أبو عبد الله محمد<sup>(٣)</sup> بن سلامة القضاعي أحد أئمة زمنه المتوفى سنة ٤٥٤ . ويبدو أن كثيرين من القضاة الفرعيين في الإسكندرية وغيرها كانوا

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٦٧ وانظر حديث السيوطي في كتابه حسن المحاضرة عن فقهاء الشافعية في زمن الفاطميين ٤٠٤/١ وما بعدها .

(١) راجع في هؤلاء الفقهاء والمحدثين حسن المحاضرة للسيوطي وما به من إثبات خاصة بهم في جزئه الأول .  
(٢) صبح الأعشى للقلقشندى ٥٢٠/٣ .

شافعيين أو مالكيين. ويتولى الوزارة بدر الجمالي (٤٦٨ - ٤٨٧ هـ) ثم ابنه الأفضل (٤٨٧ - ٥١٥) ويصبحان ولي الأمر ومحجران على الخلفاء وكانا لا يعارضان أهل<sup>(١)</sup> السنة ولا يتعصبان ضدهم. وحين يتولى أحمد الأفضل حفيد بدر الوزارة يعين أربعة قضاة: شيعيا إسماعيليا وشيعيا إماميا ومالكيًا وشافعيًا<sup>(٢)</sup>. ويظهر أن هذا أصبح تقليدا منذ صنع أحمد الأفضل هذا الصنيع سنة ٥٢٥.

ويتزل في الإسكندرية السُلُقى أكبر حفاظ الحديث في العصر ويأخذ في إملائه، ويتوافد عليه الطلاب من مصر وغير مصر، ويتولى الإسكندرية العادل بن السلار في عهد الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣ هـ) وكان شافعي المذهب مثل السلقي فاحتفل به وزاد في إكرامه وبنى له مدرسة فُوِّضَ تدريسيها إليه، يقول ابن خلكان: وهي معروفة باسمه إلى الآن أي في زمنه<sup>(٣)</sup>. وفي صبح الأعشى سجلٌ بإسناد هذه المدرسة إلى الفقيه السلقي والقيام على نفقة من فيها من القراءة والفقهاء والمرابطين والصلحاء وطلبة العلم من أهل الإسكندرية ومن الواردين إليها والطارئين عليها سواء كانت النفقة نقدا أو غلة، مع بيان أنه أعد لهم جميعا فيها المثوى والمسكن. وبذلك يكون ما ذكره المقرئ وغيره من أن المدارس لم تعرف في مصر إلا في عهد صلاح الدين غير صحيح<sup>(٤)</sup>، فقد كانت بها مدرسة السلقي المذكورة، وكانت مدرسة سنية شافعية. ونفس دار العلم يمكن أن نعدها مدرسة بالمعنى الكبير الذي كان لنظامية بغداد، إذ كانت مؤسسة علمية كبرى.

وكانت الدولة الفاطمية قد انتهت إلى انحلال وفساد شديد وأخذ الظلام يعم ديارها في مصر والشام. وفي غفلة من الزمن يستولى حملة الصليب على بيت المقدس وساحل الشام على نحو ما مر بنا في الفصل الماضي، ويستغيث الفاطميون بنور الدين صاحب حلب، ويرسل إليهم بجنود على رأسها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، وتتطور الظروف سريعا، وينهى صلاح الدين حكم الفاطميين ويقبض على صولجان الحكم، ويكاد يقضى على الصليبيين في الشام إلا قليلا ويستولى على بيت المقدس وتتكاثر فتوحاته، ويحقق للعرب والمصريين الزعيم المنتظر لتخليص البلاد من حملة الصليب. وعلى نحو ما قاد هذه الفتوح قاد نهضة علمية رائعة، إذ كان محبا للدراسات الإسلامية شغوقا بها وخاصة بالحديث النبوي مما جعله يتزل الإسكندرية ليلتقاها على

(١) المغرب ص ٢١٦.

(٢) ابن خلكان ١/١٠٥.

(٣) أخبار مصر لابن ميسر ص ٧٥.

(٤) الخطط ٣/٣١٥ وانظر حسن المحاضرة ٢/٢٥٦.

السلفى أكبر حفاظه في عصره . وكان يستمع إلى الفقهاء ويُروى أنه تلقى على بعض الشيوخ موطأ مالك برواية فقيه الإسكندرية الطرطوشى المالكى<sup>(١)</sup> ، بينما كان السلفى شافعيًا ، وكان صلاح الدين نفسه شافعي المذهب . ولعل في ذلك ما يفسر اهتمامه بفقهاء المذاهب ، بل لقد ضم إليهم أيضا فقهاء المذهب الحنفي ، فإذا هويتشي خمس مدارس بالقاهرة والفسطاط ، أنشأ اثنتين منها في أثناء وزارته للعاقد آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٦٦ : مدرسة لفقهاء الشافعية بجوار جامع عمرو سميت مدرسة ابن زين التجار باسم الشيخ الذى قوّض إليه تدريس الفقه الشافعي بها ثم عُرفت باسم المدرسة الشريفة ، ومدرسة لفقهاء المالكية بالقرب منها سميت المدرسة القمحية للقمح الذى كان يأتيها من ضيعة بالقيوم وقضا عليها صلاح الدين ، حتى إذا استولى على مقاليد الحكم بمصر أنشأ ثلاث مدارس اثنتين للشافعية إحداهما بجوار مسجد الشافعي والثانية بجوار مشهد الحسين ، أما الثالثة فجعلها للحنفية وسميت السيوفية<sup>(٢)</sup> . والمهم أنه رتب لكل هذه المدارس الأساتذة والمدرسين والمعيدنين ، فقد كان نظام الاعادة معروفاً حينئذ ، ورتب لها أيضا الأئمة والمؤذنين والقومة والطلاب ، وجعل لكل مدرسة أوقافها الخاصة للإنفاق المستمر عليها في حياته وبعد وفاته ، وألحق بكل مدرسة مساكن للمعلمين والطلبة . وكان كل مدرسة كانت تشبه كلية من كليات الجامعات في عصرنا ، فع كل مدرسة مساكنها وميزانيتها للإنفاق اليومي والشهري عليها .

وبذلك تبدأ مصر دورة علمية كبيرة في عهد الدولة الأيوبية لا في عهد صلاح الدين وحده ، بل أيضا في عهد من خلفوه من الأيوبيين ، إذ كانوا في جملتهم علماء ، وكذلك كان وزراؤهم وأمرائهم منذ عهد صلاح الدين نفسه ، ولكثيرين منهم مدارس أنشأوها في الفسطاط والقاهرة عددها المقرزى - والطريف أنه اشترك معهم في إنشائها بعض التجار - وقد بلغ بها خمسا وعشرين مدرسة<sup>(٣)</sup> . ويبدو أن إحصائيته غير كاملة ، فإنه لم يقف عند مشهد الحسين وقفة توضح أنه كان مدرسة كبقية المدارس . ونستطيع أن نميز بين هذه المدارس ثلاث مدارس للفقهاء الشافعي وراء المدارس التى أنشأها صلاح الدين ، إحداهما أنشأها ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه وسميت مدرسة منازل العزوه واسم المنازل التى أقيمت فيها ، وكان مما وقفه عليها

(٢) ابن خلكان ٧/٢٠٦ وقارن بحديث المقرزى عن المدارس في الجزء الثالث من المخطوط .

(٣) انظر حديث المقرزى في ذلك بالمخطوط ٣/٣١٣ وما بعدها .

(١) انظر في ذلك ابن واصل في كتاب مفرج الكرب في تاريخ بنى أيوب ١/١٩٥ وما بعدها وكان يرسل بولديه :

العزير والأفضل سلطانى مصر ودمشق بعده للسباع من السلفى وفقهاء الإسكندرية . انظر حسن المحاضرة ٢/١٩ .

جزيرة الروضة المعروفة الآن بالقاهرة والثانية المدرسة الشريفة بناها أحد أمراء الدولة الأيوبية سنة ٦١٢ . والثالثة المدرسة الفاترية بناها الوزير الفاتري سنة ٦٣٦ . وبالمثل نستطيع أن نميز للفقه المالكى بجانب المدرسة القمحية التى أنشأها له صلاح الدين المدرسة الصاحبية التى بناها له الصاحب ابن شكر وزير السلطان العادل . وأيضا نستطيع أن نميز للفقه الحنفي بجانب المدرسة السيوفية التى أنشأها صلاح الدين مدرستين إحداهما سميت الأزكشية بناها أحد الأمراء ، والثانية سميت العاشورية أنشأتها إحدى كريمات الأمراء . وهناك مدارس بنيت لأصحاب الفقه الشافعى والمالكى مثل مدرسة القاضى الفاضل ، وأخرى بنيت للفقه الشافعى والحنفى مثل المدرسة القطبية التى أنشأتها السيدة مؤنسة ابنة السلطان العادل . وبنى السلطان نجم الدين أيوب بأخرة من زمن هذه الدولة سنة ٦٤١ مدرسة كبرى للمذاهب الأربعة : مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل ، وهى أول مرة أو أول مدرسة تُعنى فيها مصر بدراسة الفقه الحنبلى . وبنى السلطان الكامل سنة ٦٢٢ أول مدرسة تُعنى بالحديث النبوى تسمى دار الحديث الكاملة نسبة إليه . ويلاحظ ابن خلكان ومن بعده ابن تبرى بردى أن جميع المدارس التى أنشأها صلاح الدين لم تُسمَّ منها مدرسة باسمه ، مع ما رُتب لها من الأوقاف العظيمة ، ومع ما كان له من الفتوحات الكبيرة<sup>(١)</sup> .

وهذه المدارس جميعا كانت تُعنى بالدراسات الإسلامية من الحديث والتفسير والقراءات ، وبالدراسات اللغوية من النحو وغير النحو وكذلك الدراسات البلاغية ، لأن الفقيه فى أى مذهب لا يتم تكونه إلا مع إتقانه هذه الدراسات . وأهمل صلاح الدين وخلفاؤه الجامع الأزهر لأنه كان مركز الدعوة الإسماعيلية ، غير أن الجوامع الأخرى والمساجد الكبرى ظل بها بعض النشاط العلمى ، وكان صلاح الدين ينفق عليها وعلى علمائها وطلابها كما كان ينفق على مدارسه السالفة ، وفى ذلك يقول ابن جبير الذى زار القاهرة والفسطاط لعهد سنة ٥٧٨ : « ما من جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا محرم من المحارم ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان ( صلاح الدين ) يعمُّ جميع من يأوى إليها ويلزم السكنى فيها ، تهون عليه فى ذلك نفقات بيوت الأموال<sup>(٢)</sup> . »

وكانت الإسكندرية فى عهد الفاطميين مثل الفسطاط مركزاً لدراسات أهل السنة ، وقد بنى فيها ابن السلار - كما أسلفنا - مدرسة فوض الإشراف عليها للحافظ السُّلُقى الشافعى ، ويبدو أن

(٢) رحلة ابن جبير (طبع ليدن) ص ٥٢ .

(١) ابن خلكان ٢٠٧/٧ والنجوم الزاهرة ٥٥/٦ .

صلاح الدين أنشأ في الإسكندرية مدارس جديدة كما يفهم من كلام ابن جبير إذ يقول : « ومن مناقب هذا البلد (الإسكندرية) ومفاخرة العائدة في الحقيقة إلى سلطانه (صلاح الدين) المدارس والمخارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوى إليه ومدرساً يعلمه الفن الذى يريد تعلمه وإجراء يقوم به في جميع أحواله<sup>(١)</sup> . وأخذت المدارس تعمُ مدن مصر الكبرى بينها ولاية صلاح الدين عليها ومن جاءوا بعده ، وأيضاً أمراء بيته ، من ذلك أن تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أخيه بنى في الفيوم مدرستين إحداهما للشافعية والثانية للمالكية<sup>(٢)</sup> ، وتأسست بأسوان مدرسة مبكرة<sup>(٣)</sup> ، وأنشأ ابن هبة الله حاكم قوص سنة ٦٠٧ المدرسة النجيبية<sup>(٤)</sup> بها . ويبدو أنه لم تكد تخلو بلدة كبيرة في مصر لعهد الأيوبيين من مدرسة . وكانت بها جميعا الجوامع والمساجد ، واشتهرت الإسكندرية منذ العصر الفاطمى بجامع العطارين الذى بناه بدر الجمالى ، وظل به نشاط علمى وافر زمن الأيوبيين ، وبالمثل كانت الجوامع الكبرى في دمياط والمحلة وطظا والمنيا وأسيوط وقوص وإسنا ، إذ نقرأ في كتب التراجم من حين لآخر عن علماء كانوا يعنون في هذه البلدان بدراسات الفقه والحديث والقراءات .

وتنشأ - بجانب المدارس السالفة - مدارس كثيرة في عهد المماليك ، ويعددها المقرئى ويذكر تاريخ إنشائها والأوقاف التى رُصدت لها ، وتبلغ عنده نحو خمس وأربعين مدرسة ، بناها سلاطين المماليك وأمراؤهم وأحياناً بعض نسائهم وأمهاتهم ، وقد عدت للشافعية منها أربعة : المدرسة<sup>(٥)</sup> الطيرسية والحسامية والسابقية والمجدية الخليلية ، وللحنفية ثلاثاً : الغزنوية والجمالية والمهندارية . ومدارس مختلفة بنيت لمذهبين مثل المدرسة الأقباقوية والجاى ومدرسة أم السلطان وكذلك المدرسة الظاهرية وجميعها للشافعية والحنفية ومثل المدرسة الحجازية والمسلمية وهما للشافعية والمالكية ، ومثل المنكوتمرية للمالكية والحنفية . وبنيت للمذاهب الأربعة مدارس مختلفة مثل المدرسة المنصورية للمنصور قلاوون والناصرية لابنه محمد الناصر .

ويقول ابن بطوطة الذى زار القاهرة والفسطاط سنة ٧٢٦ لعهد محمد الناصر بن قلاوون :

(١) ابن جبير ص ٤١ وما بعدها .  
 (٢) ابن خلكان ٤٥٦/٣ .  
 (٣) الطالع السعيد للإدغوى (طبع مطبعة الجمالية)  
 (٤) الطالع السعيد ص ٢٢٠ .  
 (٥) انظر فيما يلى من حديث عن هذه المدارس خطط المقرئى ٣/٣٤٠ وما بعدها .

« أما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها ». وظلت المدارس تتكاثر بعد زيارته لمدة نحو قرنين من الزمان طوال عصر المماليك . ولن نستطيع الوقوف عند جميع هذه المدارس لمعرفة نشاطها العلمي ونكتفي منها بثلاث هي المدرسة الظاهرية للظاهر بيبرس والمنصورية للمنصور قلاوون والناصرية لابنه الناصر . أما الظاهرية <sup>(١)</sup> فتم إنشاؤها لأوائل عهد المماليك سنة ٦٦٢ وقد جعلها الظاهر لتدريس الفقه الشافعي والحنفي وتدريس القراءات والحديث النبوي ، وأجرى الرواتب على أساتذتها وطلابها وألحق بها مساكن لهم كما ألحق بها مكتبة تشتمل على أمهات الكتب في سائر العلوم وبنى بجانبها مكتبا لتحفيظ أيتام المسلمين كتاب الله وأجرى لمن به من الأطفال الجرايات والكسوة ، وأوقف عليها الرنح أو الحلى المعروف اليوم باسم تحت الربع ، وكان ربعا كبيرا مملوءا بالدور والحوانيت . أما المدرسة المنصورية <sup>(٢)</sup> فأنشأها السلطان المنصور قلاوون لأصحاب المذاهب الفقهية الأربعة سنة ٦٨٤ وجعل لكل مذهب مدرسا وثلاثة من المعيدين ومقرنا للذكر الحكيم وخمسين طالبا ، وأجرى عليهم جميعا وعلى قومتها وفراشها الرواتب ، وبنى بجوارها مكتبا لتحفيظ ستين من أيتام المسلمين القرآن الكريم ، وأسند لفقيهين القيام على ذلك مع إجراء الجرايات على الأيتام والكسوة في الشتاء والصيف . وبنى تجاه المدرسة قبة عظيمة جعل فيها خمسين مقرنا ودرسا للحديث ودرسا للتفسير ومع المدرسين الطلاب وكذلك مع المقرئين . وجعل فيها مكتبة كبيرة تشتمل على شتى أنواع العلوم والآداب ، وجعل لها أمينا ومساعدين له وفراشين وبوابين . وحاكى الناصر أباه قلاوون فبنى مدرسة للمذاهب <sup>(٣)</sup> الأربعة سنة ٧٠٣ وجعل بها مكتبة جليلة ورصد لها أوقافا كثيرة . وبالمثل كان كل من بنى مدرسة يقف عليها ما يحفظ لعلماها وطلابها نفقاتهم وكثيرا ما كانوا يلحقون بها مساكن لهم

ولم تكن المدارس وحدها ساحات العلم لعهد المماليك ، فقد كان يَشْرِكُهَا الجوامع والمساجد . وفي مقدمتها الجامع الأزهر ، وكانت قد تعطلت فيه الدراسة طوال عهد الأيوبيين كما تعطلت فيه أحيانا صلاة الجمعة إلى أن أعادها عز الدين الحلي نائب الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ فصلى فيه الجمعة ورتب فيه مدرسا للفقه الشافعي ومحدثا لإملاء الحديث النبوي وسبعة لقراءة الذكر الحكيم ورصد لذلك أوقافا وافرة <sup>(٤)</sup> . وسرعان ما أخذ الأزهر دوره التاريخي العظيم ، فقدا أكبر جامعة

وما بعدها .

(١) انظر في هذه المدرسة المخطوط ٣/٣٤٠ .

(٢) المخطوط ٣/٣٤٦ .

(٣) انظر في هذه المدرسة المخطوط ٣/٣٤٢ والسلوك

(٤) المخطوط ٣/١٦٠ والسلوك ١/٥٥٦ وما بعدها

للمقريزي (طبعة القاهرة) ١/٧١٦ وما بعدها و١٠٠٠

للدراستات الإسلامية واللغوية . ويشيد المقرئى المتوفى سنة ٨٤٥ بالدراسات فى هذا الجامع أو الجامعة قائلا : « لا يزال جامع الأزهر عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم : الفقه (على المذاهب الأربعة) والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وخلق الذكر ، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأوس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجد فى غيره <sup>(١)</sup> . » واهتم به السلاطين والأمراء وأرباب الأموال ، فرُصدت له أوقاف كثيرة على مر السنين . وزخر جامع ابن طولون بنشاط علمى جم منذ عهد السلطان المنصور لاجين <sup>(٢)</sup> سنة ٦٩٤ فقد رتب فيه دروسا لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة ودرسا للتفسير ودرسا للحديث النبوى ، وألحق به مكتبا لتحفيظ القرآن الكريم . وبالمثل عُنى ببيرس الجاشنكير بعمارة جامع الحاكم سنة ٧٠٣ ورتب <sup>(٣)</sup> فيه دروسا لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة والحديث النبوى والقراءات ، وألحق به خزانة كتب نفيسة .

وهذا النشاط العلمى فى مساجد القاهرة والفسطاط ومدارسها كان يلتقى به نشاط مماثل فى الإسكندرية ومدن مصر الكبرى . وهو نشاط كان يشرك علماء مصر فيه كثير من علماء البلاد العربية الأخرى التى أخذت تفسح لهم فى مدارسها ، بل أخذت تضمهم إلى صدرها ، إذ شعرت بقوة أنها حاملة لواء العلم والفكر العربيين وأنه ينبغى أن تعمل بقوة لتحميها إزاء غارات أعداء الإسلام على صقلية والأندلس وغارات حملة الصليب على الشام وأخيرا غارات التتار على إيران والعراق وديار الشام ، بحيث أصبحت مصر منذ عهد صلاح الدين ملاذ الحضارة العربية وموئل علومها وفكرها وآدابها ، وكأنما انتدبت نفسها لهذه المهمة الخطيرة ، فهى تعنى عناية واسعة بإنشاء المدارس ، وهى تستقبل علماء الأقطار العربية المذكورة وتسد إليهم كثيرا من المناصب العلمية ، وأحيانا المناصب الوزارية ، فقد كان على سبيل المثال لصلاح الدين وزيران : القاضى الفاضل والعماد الأصبهانى ، والأول شامى والثانى عراقى الثقافة أصبهانى المولد . وأيضا فقد تزها كثير من علماء المغرب بسبب اختلال الحكم وضعف الحكومات . ومن يرجع إلى كتاب مثل حسن المحاضرة للسيوطى وما يذكر فيه - على الترتيب الزمنى - من أسماء الأئمة المجتهدين وحفاظ الحديث النبوى وفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة وأئمة القراء وعلماء النحو واللغة والتاريخ والصوفية والوعاظ وأصحاب علوم الأوائل من الطب وغيره يجئ إليه أنه لم تبق بلدة فى العالم

(٣) المخطوط ١٦٥/٣ ويقول المقرئى إنه رصد له أوقافا

(١) المخطوط ١٦٣/٣ .

كثيرة فى الجزيرة والصعيد والإسكندرية .

(٢) المخطوط ١٤٨/٣ وحسن المحاضرة ٢/٢٤٩ .

الإسلامى العربى إلا بعثت إلى القاهرة والإسكندرية بشيوخها وبطلاب العلم فى هذه الحقب التى امتدت من الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧ إلى نهاية عصر المماليك سنة ٩٢٢ ، بل ظلت من ذلك بقية فى أيام العثمانيين .

ونَهضت مصر بدور مهم فى حماية العلوم ، فقد رأت من واجبها أن تعنى بتدوين كل ما خلفه السلف خوفاً من ضياعه ، وخاصة أمهات التراث العربى وأصوله ، وانتهجت لذلك نهجا سديداً فى توثيق روايتها وأخذها عن حررروا صياغتها وضبطوها أدق ضبط ، فهى لا تؤخذ من الصحف المكتوبة مباشرة بل تؤخذ سماعاً عن الشيوخ الثقات ويروها جيل عن جيل بمتهمى الدقة ولا يروها إلا من شهد له شيخ بأنه جديرٌ بروايتها ، على نحو ما هو معروف فى نظام الإجازات . ووضعت مصر لطلاب كل علم متونا ، ووضعت عليها شروحا ، وشرحت الشروح أحيانا ، ونحن لا نقرأها الآن حتى يروعا أن علماءها كانوا فى هذه الشروح لا يتركوا لعالم سالف منذ القرن الثانى للهجرة حتى زمنهم رأيا إلا دُونوه ، وبذلك تستحيل بعض الشروح وحواشياها إلى ما يشبه دوائر معارف فى العلم الذى تناوله ، إذ تُعرض فيها آراء العلماء على اختلاف الأزمنة واختلاف البلدان العربية . وامتازت الحركة العلمية لعهد المماليك بكتابة دوائر معارف كبرى تجمع مواد فنون كثيرة ، من ذلك كتاب نهاية الأرب للنويرى المتوفى سنة ٧٣٣ وهو يتناول علوم الفلك والجغرافية والتاريخ الطبيعى والحيوانات والزواحف والطيور والصيد والنباتات والثمار والأزهار والإنسان وعاداته وطرق الحكم ووظائف الدولة وشؤون السياسة وتاريخ الدولة العربية من أقدم الأزمنة حتى زمن النويرى . ويُشبه هذه الدائرة كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ وهو فى جغرافية العالم العربى والعلوم الطبيعية والحيوانية والنباتية وتاريخ الدولة العربية وأعلامها فى الشعر والنثر على مر السنين . ومن كتب دوائر المعارف الأدبية كتاب « المستطرف فى كل فن مستظرف » لمحمد بن أحمد الأبيشى<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٨٩٨ والكتاب موزع على ٤٨ بابا فى القرآن وفضله والعقل والعلم والأدب والحكم والأمثال والبيان والبلاغة وسياسة الملك والعدل والشرف والجدود والبخل والشجاعة والعمل والكسب والحيوانات والحشرات والبحار والأنهار والجبال وعجائب المخلوقات وغير ذلك .

ولعل فى ذلك ما يصور خطأ الأحكام الجائرة التى صُبت على مصر وخاصة أيام المماليك . إذ نعت المؤرخون للأدب العربى هذه الحقب المتطاولة بأنها كانت زمن انحطاط وركود فى جميع

(١) انظر فى الأبيشى الضم اللامع ١٠٩/٧ .

جوانب الحياة العقلية ، وهو ما تنقضه الحقائق السابقة نقضا ، وسيوضح هذا النقض بصورة أدق حين نعرض في الفصول التالية لوجوه النشاط العلمى ، فسرى أن مصر لم تشهد حقبا علمية مزدهرة بمقدار ما شهدت في زمن المماليك . وكان كثير منهم مثقفين مثل الأيوبيين ، وعملوا على إذكاء النهضة العلمية بما أنشأوا من المدارس وما أحقوا بها وبالمساجد من المكتبات وما رصدوا لها من أوقاف كثيرة تكفل للعلماء والطلاب حياة علمية خصبة .

ويكتب لهذه الحركة العلمية العظيمة أن تتوقف ويصيبها غير قليل من الخمود إذ احتلت جحافل العثمانيين مصر ، وجردوا السلطان العثماني الفاتح سليم من كثير من علمائها وقضاتها وحشدتهم في السفن إلى عاصمته إستانبول . وجرى بعض المدارس من أعمدها ورخامها الملون وكتبها النفيسة ، وما توفى سنة ٩٢٨ حتى تلغى وظائف قضاة المذاهب الأربعة التي كانت قائمة بالقاهرة منذ عهد الظاهر بيبرس ومحل معلم قاضى العسكر . وكل ذلك عمل على انتكاس الحركة العلمية بمصر ، ومع ذلك ظلت جذوات منها تنقد في الجامع الأزهر وفي بعض المدارس ، إذ نسمع في ترجمة هذا العالم أو ذاك أنه كان يدرس في المدرسة السيوفية الحنفية التي أنشأها صلاح الدين أوفى المدرسة الصالحية التي أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب أوفى المدرسة الأقباقوية التي أنشئت في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، ويذكر الجبرتي مدارس لم يذكرها المقرئى في خططه مثل المدرسة الغورية التي أنشأها السلطان الغورى ، ومثل المدرسة السنانية <sup>(١)</sup> ، ويردد ذكر القطبانية والجنبلطية والأشرفية <sup>(٢)</sup> ، وأكبر الظن أنها كانت مدارس ناشطة هي الأخرى .

ومع ما أصاب مصر وحركتها العلمية من الفتح العثماني الذي جثم على صدر البلاد وكان عاملا مهما في خمود الدراسات العلمية بها ، فإن مصر ظلت ملاذا للعلماء من جميع الأقطار العربية من الخليج إلى المحيط ، وظلت القاهرة موئلهم جميعا يفدون عليها للتعلم في الجامع الأزهر والاختلاف أحيانا إلى بعض المدارس ، حتى إذا نضج أحدهم علميا أصبح شيخا يتحلق حوله التلاميذ في الجامع الأزهر أوفى أحد جوامع القاهرة ومدارسها ، وقد يرجع إلى بلده يعلم فيها ما تلقن على شيوخه في الأزهر ، وكان قد أصبح منذ عصر المماليك أكبر جامعة إسلامية . ونذكر من مشهورهم ابن طولون الدمشقي المؤرخ وعبد القادر البغدادي صاحب الموسوعة الأدبية المعروفة

(١) تاريخ الجبرتي (طبعة بولاق) ١٦٢/١ و ٢٢٠ . (٢) الجبرتي ١/٧٥ ، ٨٦ ، ٢٢٠ .

باسم خزانة الأدب والمقرى التلمساني أكبر مؤرخي الأندلس ، وبهاء الدين العاملى صاحب الكشكول . وعرّبت مصر بعض الولاة العثمانيين وأحاله مؤلفا أديبا مثل راغب باشا واليا سنة ١١٦٠ وموسوعة « سفينة الراغب » مشهورة . وقد ألف بالقاهرة الزبيدي اليمنى تاج العروس : شرحه على القاموس المحيط للفيروزابادى . وبذلك ظلت مصر فى العهد العثماني المظلم حامية للتراث العربى المتبقى بها ورعاية لعلماء العالم العربى ، بفضل مصاييح العلم التى كانت تضىء بها خاصة فى الجامع الأزهر . وما زالت شهرته تدوى فى العالم الإسلامى إلى اليوم ، وجعل العثمانيون له رئيسا من كبار علمائه كانوا يسمونه شيخ الأزهر ، ويعدّد الجبرتي شيوخه منذ سنة ١١٠٠ للهجرة إلى أن ينتهى إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى معاصر الحملة الفرنسية .

## ٢

## علوم الأوائل - علم الجغرافيا

## (١) علوم الأوائل

مر بنا فى أول هذا الفصل أن مصر أسهمت فى نشأة العلم بمعناه العالمى سواء العلم الهندسى أو الرياضى أو الطبى ، وتشهد لها الأهرامات بما كان فيها من علم هندسى ، وتشهد لعلمها الرياضى<sup>(١)</sup> برديات رياضية فرعونية مختلفة ، وبالمثل تشهد للعلم الطبى برديات فرعونية تدل على أن الطب والتشريح بمعناهما العلمى العالمى نشأ فى ديارها ورقيا رقيقا بعيدا<sup>(٢)</sup> . وكان من الممكن أن تستمر مصر فى حركتها العلمية لولا ما دهمها من الغزو الأجنبي ، واستطاعت أن تمصر البطالمة وأن تستعيد - كما أسلفنا - حركتها العلمية وإن اتخذت اليونانية لسانا لها ، فهضمت بالإسكندرية عاصمتها حينئذ دراسات الهندسة والرياضة والفلك والطب ، أما الهندسة فشاد صرحها إقليدس فى القرن الثالث قبل الميلاد ، مكونا بالإسكندرية مدرسة هندسية كان لها شأن عظيم ، وقد ظلت تُدرّسُ كتبه فى العربية وفى أوروبا حتى القرن الماضى<sup>(٣)</sup> ، وأما الطب فشهدت الإسكندرية فيه نهضة كبيرة على يد هيروفيلوس وأضرابه ، وقد اشتهر بتشريحه

(٢) الدوميل ص ٣٤ وما بعدها .

(٣) الدوميل ص ٤٣ وقصة الحضارة لوردبيرانت

(نشر جامعة الدول العربية) ١٣٧/٨ .

(١) انظر العلم عند العرب للدوميل (ترجمة الدكتور

عبد الحليم النجار - نشر الجامعة العربية - دار القلم

ص ٢٣ وما بعدها .

العين ووصفه للشبكية وأعصاب النظر وتشريح المخ وتحديد وظيفة الشرايين وغير ذلك من مباحث طبية<sup>(١)</sup>. وغزا مصر الرومان، كما أسلفنا، وظلت حركتها العلمية والفلسفية في النمو، كما ظلت الإسكندرية زعيمة العالم الهيليني في العلوم. ومن أكبر علمائها حينئذ بطليموس المولود بالصعيد، غير أنه بارح مسقط رأسه مبكراً إلى الإسكندرية، حيث ظل يرصد الأجرام السماوية حتى منتصف القرن الثاني الميلادي، ولم يلبث أن سجل معلوماته الفلكية والرياضية والجغرافية في كتابه «النظام الرياضي للنجوم» وقد سماه العرب «المجسطى» أي الأعظم بنفس اللقب الذي وضعه له اليونان. وله كتب أخرى منها موجز جغرافي، وكان لبحوث المجسطى وغيره تأثير عظيم في علم الهيئة والفلك والرياضيات عند العرب<sup>(٢)</sup>. ويلقانا هيرون، وهو أرشميدس صغير كما يقال، وله رسائل في الرياضة والطبيعة والميكانيكا ترجمت إلى العربية، وتاريخه غير معروف فن الطماء المعاصرين من يرجع به إلى القرن الثاني قبل الميلاد، ومنهم من يجعله في القرن الثالث بعد الميلاد<sup>(٣)</sup>. ونفذت مصر في هذا القرن عند أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ للميلاد إلى مذهب ظني كان تجديدًا لفلسفة أفلاطون، ولذلك يسمى الأفلاطونية الجديدة. وظل نشاط مصر في الطب عظيمًا، وقد نزلها جالينوس (١٣١ - ٢٠١ م) ولم يكتف بمقامه فيها بالإسكندرية. فقد جاس خلال ديارها حتى وصل جنوبيها والنوبة وبواديها<sup>(٤)</sup>. ومما لا ريب فيه أنه انتفع أكبر انتفاع بنهضة علم الطب والتشريح في مصر، وترك في الإسكندرية بعده مدرسة عنيت بدراسة كتبه وتلخيصها، وقد عقد ابن أبي أصيبعة لأعلامها فصلاً مستقلاً<sup>(٥)</sup>. وظلت الإسكندرية كما كانت طوال عهد البطالمة نحو ستة قرون يُهرع إليها جميع طلاب الطب من ولايات الإمبراطورية الرومانية، وكان حسب الطبيب للدلالة على براعته أن يقال إنه تعلم الطب في الإسكندرية<sup>(٦)</sup> ومن تعلم الطب بها في القرن السادس سرجيوس من «رأس عين» بالموصل وإيتيوس من آمد بالموصل أيضاً، ومن أطبائها في أوائل القرن السابع أهرن القس السرياني الذي أمر

(٤) تاريخ الحكماء (مختصر الزوزني) للقفطي (طبع

لندن) ص ١٣٢.

(٥) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (نشر دار مكتبة

الحياة ببيروت) ص ١٥١ والقفطي ص ٧١.

(٦) ماكس مايرهوف ص ٤٥ ومابعدها وقصة الحضارة

١١٠/١١

(١) قصة الحضارة ١٥٦/٨ وماكس مايرهوف في

كتاب التراث اليوناني للدكتور عبد الرحمن بدوي ص ٤٥

(٢) قصة الحضارة ١٠٦/١١ والأدمييل ص ٤٥

ومابعدها.

(٣) للأدمييل ص ٤٥، ٤٧٠ وقصة الحضارة

١٠٨/١١

عمر بن عبدالعزيز بنقل كتابه من السريانية إلى العربية . وظل بالإسكندرية نشاط فلسفي بعد أفلوطين يمثل في القرن السادس للميلاد يجي النحوي شارح أرسطو والفيلسوف المسيحي يوحنا الأباي<sup>(١)</sup> . ومما لا شك فيه أن القبطية شَرِكَت اليونانية لزمان الرومان في الدراسات العلمية والفلسفية ، وانفردت بمباحث فقهية في الدراسات الدينية . ومُرَّ بنا أن السريانية - وكانت منتشرة قبل الفتح العربي بأديرة مصر - دخلتها مع بعض القساوسة والرهبان في القرنين السادس والسابع للميلاد .

ويُظَلُّ مصر وكل ما كان بها من تراث علمي وفلسفي لواء الإسلام ، ومعروف أن الإسلام لم يحارب في أى بلد فتحه ما به من علم وفلسفة ، ومُرَّ بنا كذب الأسطورة القائلة بأن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية ، فقد أحرقها الرومان قبل نزوله مصر بنحو ستة قرون ، وإنما أطلنا في بيان هذا التراث لندل على أنه ظل طويلا ، أما ما يقال من أن عمر بن عبد العزيز ( ٩٩ - ١٠١ هـ ) نقل نشاط علماء الإسكندرية إلى أنطاكية وحران<sup>(٢)</sup> فلعله من باب المبالغة ، وكل ما يمكن أن نتصوره أنه ربما انتقل بعض أطباؤها وعلمائها من الإسكندرية إلى أنطاكية ليقتربوا من بيزنطة كما يقول ما يرهوف . أما ما ذكره ابن أبي أصيبعة من انتقال التراث اليوناني ومعلميه إلى أنطاكية وحران فيعتوره الشك لسبب بسيط وهو أن المفروض أن ينقل عمر بن عبد العزيز أصحاب التراث اليوناني من الإسكندرية إلى عاصمته دمشق لا إلى أنطاكية . ولعل ابن أبي أصيبعة بالغ في هذا الرأي . ويشهد لما نقوله ما يذكره ابن التديم من أن خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٩٢ هـ اهتم بعلم الكيمياء ، أو كما يسميه الصنعة فأحضر إلى دمشق جماعة من فلاسفة اليونان ممن كانوا يتزلون بمصر وتقصحوا بالعربية وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة ( الكيمياء ) من اللسان اليوناني والقبطي إلى اللسان العربي<sup>(٣)</sup> . فكان الطبعي أن يصنع عمر بن عبد العزيز صنيعه فينقل علماء الإسكندرية إلى عاصمته لا إلى أنطاكية وخاصة أنه اهتم فعلا بنقل كتاب أهرون القس الإسكندري في الطب . وكلف بذلك ما سرجويه البصرى كما هو معروف ، ولو أنه نقل حقا علماء الإسكندرية إلى أنطاكية كما يقول ابن أبي أصيبعة لكلف أحدهم بنقله . وربما كان أكثر من هذا التصور منطلقا أن يقال إن كثيرين من علماء

ص ١٧١ .

(٣) الفهرست ص ٣٥٢ .

(١) انظر مقالة مايرهوف في كتاب التراث اليوناني

ص ٣٧ وما بعدها .

(٢) راجع مقالة مايرهوف السالفة وابن أبي أصيبعة

الإسكندرية اليونانيين بارحوها مع اقتحام عمرو بن العاص لها ، ويغلب أن يكونوا قد حملوا معهم كتباً كثيرة من التراث اليوناني خاصة . ومع ذلك فقد بقي منه ومن علمائه ما أتاح للحركة الإسكندرية العلمية أن تظل مستمرة ، وإن فقدت كثيراً من نشاطها . يدل على ذلك العلماء الإسكندريون المستعربون المذكورون آنفاً والذين استدعاهم خالد بن يزيد بن معاوية لترجمة كتب الصنعة ، كما يدل على ذلك ابن أبي طيب عمر بن عبد العزيز الذي كان يتولى التدريس بالإسكندرية واستدعاه ولزمه في خلافته ، ويبدو أنه تعرف عليه حين كان أبوه والياً على مصر (٦٥ - ٨٦هـ) ويقال إنه أسلم على يده (١) .

ومن المؤكد أن أديرة مصر ظلت منذ العهد الروماني تحتفظ بكثير من التراث اليوناني وخاصة في الطب والكيمياء ، كما ظلت الإسكندرية تحتفظ بشهرتها بالطب أجيالاً .. يدل على ذلك أن نجد هرون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ) يستدعى منها طبيباً مشهوراً لعلاج إحدى جواريه هو بليطيان (٢) بطريك الإسكندرية . وبالمثل ظلت مصر تحتفظ بشهرتها في علم الكيمياء ، ويذكر ألدومبيلي كتابين في الكيمياء ألفهما بمصر في أوائل القرن الثالث الهجري عالم أو علماء - كما يقول - من القبط (٣) . ومن أشهر بمعرفة الكيمياء من المصريين ذو النون المتوفى سنة ٢٤٥ واضع أسس التصوف كما مر بنا في الفصل الماضي .

وتبدأ مصر في زمن الخليفة المتوكل (١٣٢ - ١٤٧هـ) باتخاذ المارستانات (٤) ، ومعروف أنها كانت مستشفيات من جهة ومدارس لتعليم الطب من جهة ثانية . وسرعان ما يتولى مصر أحمد بن طولون ، وينشئ مازستاناً جديداً أنفق عليه ستين ألف دينار ، وكان به قسم للمجانين وحمامان : حمام للرجال وحمام للنساء ، وكان يركب لزيارته في كل يوم جمعة وتفقد أطبائه وخزائن الدواء فيه (٥) . ويذكر ابن أبي أصيبعة من الأطباء لزمه إبراهيم بن عيسى والحسن بن زبيرك وسعيد بن توفيل النصراني وطبيب العيون خلف (٦) الطولوني ، وله كتاب النهاية والكفاية في تركيب العينين وخلقتهما وعلاجهما وأدويتها ظل يؤلفه في نحو أربعين عاماً من سنة

(٤) خطط المقرئ : مارستان المنافر ٣/ ٣٨٦ .

(٥) الخنط ٣/ ٣٨٦ .

(٦) انظر في خلف ومن قبله ابن أبي أصيبعة ص ٥٤١ وما بعدها .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ١٧١ وقد خلط بين ابن أبي الإسكندري وابن أبي آخر . انظر مقالة مايرهوف ص ٦٤ وما بعدها .

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٠ .

(٣) ألدومبيلي ص ٢٦٩ .

٢٦٤ إلى سنة ٣٠٢ . وتظل مصر تعنى بالطب بعد الطولونيين ، وترعاه الدولة الإخشيدية ويلمع اسم الطبيب سعيد بن البطريق بطريق الإسكندرية المتوفى سنة ٣٢٨ وله فيه مؤلفات <sup>(١)</sup> مختلفة . ومن الأطباء لعهد الإخشيد نسطاس <sup>(٢)</sup> بن جريج ، وينشئ كافور الإخشيدى مارستانا يرعاه غير طبيب ، ومن الأطباء لعهد عيسى بن البطريق أخو سعيد ، والبالسى وكان طبيبا متميزا فى معرفة الأدوية المفردة ، وله فيها كتاب ألفه لكافور <sup>(٣)</sup>

وفى ذلك كله ما يدل على أن دراسة الطب ظلت ناشطة فى مصر ، وبالمثل ظلت الكيمياء كما أسلفنا ، وأيضا ظلت الرياضيات ، ولعل خير من يصور ذلك أبو كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصرى ، عالم زمنه الرياضى ، والمظنون أنه كان يعيش فى أواخر القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع ، واشتهر بأنه نفع علم الجبر الذى اكتشفه الخوارزمى ويذكر ألدوميللى أن له رسالة فى المضلع ذوى الزوايا الخمس ترجمت إلى الإيطالية والألمانية وكتاب الطرائف فى الحساب وقد ترجم بلوره إلى الألمانية ، ويذكر أيضا أن لكاريننسكى كتابا عن علم الجبر باسم الجبر عند أبى كامل <sup>(٤)</sup> ويقول القفطى إنه صاحب مدرسة وإن له تلاميذ تخرجوا فى علمه ، لعل منهم على بن أحمد العمرانى الموصلى العالم بالحساب والهندسة الذى توفى سنة ٣٤٤ إذ يقول القفطى عنه إنه شرح كتاب الجبر والمقابلة لأبى كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصرى ، وله عدة كتب فى التنجيم . على كل حال تدل تصانيف أبى كامل شجاع أنه كان عالما سخاذا فى الرياضيات والهندسة . وكان مصر ظلت طوال القرون الثلاثة الأولى للهجرة تهتم بهذا الجانب من تراثها العلمى حتى أنتجت فيه أبا كامل شجاعا .

وحقا نهضت بغداد كما مر بنا فى كتابى العصر العباسى الأول والثانى بترجمة التراث اليونانى فى العلوم والفلسفة وأضافت إليه التراث الفارسى والهندي فنقلتها إلى العربية ، وكل ذلك تحوّل سريعا إلى تراث عربى عام للأمم فى بغداد والقاهرة وغيرهما من بلدان العالم العربى الكبيرة ، وقد بلغ من تمثل بغداد للرياضيات أن ابتكر الخوارزمى علم الجبر ، وبلغ من تمثل القاهرة لما كان بها من مصنفات تتصل بالرياضيات أن تجرد أبو كامل شجاع بن أسلم الرياضى المصرى لتتقيح جبر الخوارزمى . واهتمت البيئات العربية بتتقيحه ، فإذا على بن أحمد العمرانى الموصلى يعنى بشرحه

(٤) انظر فى شجاع بن أسلم ألدوميللى ٧١١ ، ٢١٦

وبروكلمان ٤ / ١٩٣ والقفطى ٧١١ ، ٢٣٣ .

(١) ابن أبى أصيعة ص ٥٤٥ .

(٢) ابن أبى أصيعة ص ٥٤٤ .

(٣) ابن أبى أصيعة ص ٥٤٥ .

وتفسيره لهذا التقيح في كتاب مستقل نُوّه به وأصله القدماء .

وظل النشاط محتدماً في الرياضيات وعلوم الفلك والتنجيم طوال زمن الفاطميين ، ومن المنجمين لعهد المعز وابنه العزيز محمد<sup>(١)</sup> بن عبد الله العتقى وأبي<sup>(٢)</sup> عبد الله بن القلانسي ، ومن أعظم الفلكيين بمصر وعند العرب قاطبة أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصديقي المصري ، وقد بدأ بعمل زيج كبير أو بعبارة أخرى بعمل لوحات فلكية مفصلة لعهد العزيز وأخذ في تقيح زيجه لعهد الحاكم ابنه وقد أقام له مرصداً ضخماً كان قسماً من دار العلم ويقال إنه أتم زيجه سنة ٣٩٧ وإنه كان يشغل أربع مجلدات ضخماً ، ويقول ابن خلكان إنه لم ير في الأزياج على كثرتها أطول<sup>(٣)</sup> منه ، وقد سماه الزيج الحاكمي الكبير ولم يلبث أن توفي سنة ٣٩٩ .

ونزل مصر لعهد الحاكم أكبر علماء الرياضة والطبيعة العراقيين لزمه أبو علي الحسن بن الهيثم البصري<sup>(٤)</sup> ، وفرح الحاكم يقدمه وخرج للقائه على باب القاهرة . ولما وقف على خجل الحاكم سكن قبة على باب الجامع الأزهر ، ويقال إنه كان يكتب المحسّطى في الفلك والهيئة لبطليموس ومصنفات إقليدس في الهندسة وبيعهما جميعاً بمائة وخمسين ديناراً ويبدو أن نبوغه الفلسفي والرياضي والفيزيقي إنما تحقق في مصر التي اتخذها سكناً له ومقاماً لأكثر من ثلاثين عاماً ، وبها ألف كتابه « المناظير » في العدسات وانعكاسات الضوء ، وقد تُرجم قديماً إلى اللاتينية ، وله تأثير علمي عالمي بعيد . وعليه تتلمذ كثير من المصريين وأخذوا منه كل ما عنده في الطبيعيات والرياضيات والفلك والطب والفلسفة . والمظنون أن دار العلم كانت تعنى فيما تعنى بدروس الرياضيات والطبيعيات والفلك والفلسفة ، إذ كان الخلفاء الفاطميون يعنون بالعلماء في كل هذه الجوانب . وظلت هذه العناية متصلة في عهد الظاهر بن الحاكم وعهد ابنه المستنصر . وبما يدل على النشاط في الدراسات الفلكية والهندسية والفلسفية ما يرويه ابن السّنبدي من أنه رأى<sup>(٥)</sup> في خزانة القصر الفاطمي سنة ٤٣٥ لعهد المستنصر من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ستة

(١) القفطي ص ٢٨٥ .

٢٨١ .

(٢) القفطي ص ٤١٠ .

(٤) تقدمت مصادر ابن الهيثم في الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي ، وراجع ابن أبي أصيبعة ص ٥٥٠ وألنوميل ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٣) انظر في علي بن عبد الرحمن المصنف ألنوميل

٢١٣ ، ٢١٩ وروكلان ٢٢٤ / ٤ وابن خلكان ٤٢٩ / ٣

والقفطي ٢٣٠ وتاريخ الفلك عند العرب لنينو ١٨٦ ،

(٥) القفطي ص ٤٤٠ .

آلاف وخمسمائة حزة وكرة نحاس من عمل بطليموس الجغرافي وكرة أخرى من فضة من عمل أبي الحسين الصوفي لعهد الدولة البويهية .

ويشتهر من تلاميذ ابن الهيثم رياضي متفلسف هو مبشر<sup>(١)</sup> بن فاتك ، ويقول القفطي قرأ عليه فضلاء زمانه . ويتكاثر الفلكيون والمنجمون والرياضيون بأخرة من القرن الخامس الهجري لعهد الوزير الأفضل بن بدر الجمالي (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) يقول المقرئزي : « وكان منجمو الحضرة سنة ٥٠٠ سهلون وابن الحلبي وابن الهيثمي وغيرهم يُطلقُ لهم الجارى في كل شهر والرسوم والكسوة لعمل التقويم في كل سنة<sup>(٢)</sup> » ثم يذكر أنه فكر في عمل مرصد ضخم فنشط في إقامته ، ويذكر المقرئزي أنه كان يعمل به من المهندسين أبو جعفر بن حسداى والقاضى ابن أبي العيش والخطيب أبو الحسن على بن سليمان بن أيوب والشيخ أبو النجاء بن سند الساعاتى الإسكندراني المهندس وأبو محمد عبد الكرم الصقلى المهندس إلى غيرهم من الحسّاب الرياضيين والمنجمين ويعدّد من ذكرناهم أولا ويضيف إليهم ابن دياب والقلعي وأبانصر تلميذ سهلون . ويتزل مصر لعهد الأفضل أمية بن أبي الصلت المتفلسف والأديب الأندلسي ، ويكتب عن مصر وأدبائها وعلمائها رسالة مشهورة باسم الرسالة المصرية ، ومن يذكرهم من الفلكيين المصريين رزق الله النحاس المصري وعلى بن النصر ، وقد ترجم لها القفطي<sup>(٣)</sup> ، وذكر من المهندسين المصريين أبا على المهندس ، وله أيضا ترجمة في القفطي<sup>(٤)</sup> .

وتموج القاهرة بالأطباء منذ عصر المعز أول الخلفاء الفاطميين بمصر ، ومن أطبائه موسى<sup>(٥)</sup> بن العازار الجراح اليهودي ، ومن أطبائه وأطباء ابنه العزيز أبو عبد الله التميمي المقدسي<sup>(٦)</sup> وأحمد<sup>(٧)</sup> بن محمد البلدي وأبوسهل كيسان<sup>(٨)</sup> بن عثمان وأعين<sup>(٩)</sup> بن أعين ومتصور<sup>(١٠)</sup> بن مقشّر . ويخلف العزيز ابنه الحاكم ويتكاثر الأطباء في عهده من مثل إسحق<sup>(١١)</sup> بن إبراهيم بن نسطاس وما سويه<sup>(١٢)</sup> وكان طبيبا وصيدلانيا وطبيب العيون أبي القاسم

ويروكلمان . ٢٩٠/٤

(١) القفطي ص ٢٦٩ وابن أبي أصيبعة ص ٥٦٠ .

(٧) ابن أبي أصيبعة ص ٣٣٢ ويروكلمان ٢٩١/٤ .

(٢) خطط المقرئزي في ذكر الرصد ٢٣٣/١ وما بعدها .

(٨) القفطي ص ٢٦٧ وانظر ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٨ .

(٣) القفطي ص ١٨٦ و٢٣٧ على الترتيب .

(٩) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٦ .

(٤) القفطي ص ٤١٠ .

(١٠) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٩ .

(٥) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٥ .

(١١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٤ .

(١٢) ألدوميل ص ٢٤٠ .

(٦) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٦ والقفطي ص ١٠٥

عمار<sup>(١)</sup> بن علي وله المنتخب في علاج أمراض العين . ومن أهم الأطباء حيثثذ ابن<sup>(٢)</sup> رضوان المتوفى سنة ٤٥٣ هـ ، وجعله الحاكم رئيسا على جميع الأطباء ، وظل في هذه الوظيفة نحو خمسين عاما ، ودوّت شهرته في العالم العربي مما جعل علماءه ي كاتبونه ويرحل بعضهم إليه لمناظرته في مسائل الطب ، ومن رحل إليه من بغداد طبيبا ابن بطلان كما مر بنا في حديثنا عنه في الجزء الخامس من هذه السلسلة ، ويقول ابن أبي أصيبعة موازنا بينهما : « كان ابن بطلان أعذب لفظا وأكثر ظرفا وأميز في الأدب وما يتعلق به ، وكان ابن رضوان أطبّ وأعلم بالعلوم الحكيمية وما يتعلق بها » . وقد تُرجم شرحه لكتاب جالينوس في الطب إلى اللاتينية ، ونشر مرارا شرحه للمقالات الأربع لبطليموس في علم الهيئة والفلك .

وتنشط صناعة الطب في مصر بفضل ابن رضوان وتلاميذه ، وأيضا بفضل دار العلم ، فقد كان الطب يدرس فيها ، إذ يذكر المقرئ في حديثه عنها أن الحاكم أحضر منها في سنة ٤٠٣ جماعة من الأطباء وكذلك من أهل المنطق للمناظرة بين يديه<sup>(٣)</sup> . وقد يكون في ذلك ما يدل على أن المنطق كان يدرس بها هو وما يتصل به من الفلسفة . ومن الأطباء الذين عاصروا ابن رضوان على<sup>(٤)</sup> بن سليمان ، وكان في أيام العزيز والحاكم والظاهر ، وكان متقنا للطب والفلسفة والعلوم الرياضية ، وله في الفلسفة والطب كتب مختلفة . ومن خلفوا ابن رضوان تلميذه إفرائيم<sup>(٥)</sup> بن الحسن اليهودي ، وقد حصل من المستنصر وأبناؤه على أموال كثيرة ، وكان شغوقا بالكتب الطبية والفلسفية وغيرها ، وكانت لديه منها خزانة كبيرة ، واشتهر بأنه كان عنده دائما نُسُخ يكتبون له ما يريد من الكتب ، ويذكر ابن أبي أصيبعة أن تاجرا عراقيا من تجار الكتب اشترى منه عشرة آلاف مجلد ، وهمّ بحملها إلى العراق ، وبلغ ذلك الأفضل بن بدر الجمالي في أيام وزارته ، فبعث إليه بالمال الذي اتفق مع العراقي عليه حتى لا تخرج هذه الكتب من مصر . ويقولون إنه حوّلها إلى مكتبته الخاصة وكانت تشتمل على خمسمائة ألف مجلد . ومن تلاميذ إفرائيم سلامة<sup>(٦)</sup> بن رجمون الطيب ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه نصب نفسه لتدريس كتب المنطق والفلسفة الطبيعية والهيئة . ونظّل نسمع عن أطباء في العهد الفاطمي لا في القاهرة

(٣) خطط المقرئ ٢ / ٢١٨ .

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٥٠ .

(٥) ابن أبي أصيبعة ص ٥٦٧ .

(٦) ابن أبي أصيبعة ص ٥٦٨ والتفطى ص ٢٠٩ .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٩ وألدوميل ص ٥٤٨

وبروكلان ٤ / ٣٠٣ .

(٢) القفطى ٤٤٣ وابن أبي أصيبعة ٥٦١ وألدوميل

ص ٢٤١ و ٢٥١ وما بعدها .

فحسب ، بل أيضا في المدن مثل الحسين<sup>(١)</sup> بن منصور طيب إسنا بالصعيد المتوفى في أوائل المائة السادسة . ومن أهم الأطباء بالقاهرة ابن<sup>(٢)</sup> العين زري وله كتاب الكافي في الطب بدأ في تأليفه سنة ٥١٠ وانتهى منه سنة ٥٤٧ قبل وفاته بعام واحد ، ويقول ابن أبي أصيبعة : « كان له تلاميذ عدة يشتغلون عليه » وترجم منهم لطيب يسمى بلمظفر<sup>(٣)</sup> بن المعروف . ولحققت طائفة من تلاميذه العصر الأيوبي .

ولعل فيما قدمنا ما يوضح نشاط الأطباء وأصحاب الرياضيات والطبيعات والفلك بمصر طوال زمن الفاطميين ، ولم نحاول أن نحيل في بيان صلة المصريين حينئذ بالفلسفة على الدعوة الإسماعيلية ، كما يصنع بعض الباحثين المعاصرين ، لأن المصريين لم يعتقدوا هذه الدعوة ، وكان دعواتها يلقنون تلاميذهم الفلسفة في مراحل الدعوة حتى إذا وصلوا بهم إلى المرحلة التاسعة أحالوهم - كما يقول المقرئ - على ما يقرّر في كتب الفلاسفة من علم الطبيعات وما بعد الطبيعة والعلم الإلهي وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية . ومن المؤكد أن المصريين لم يقبلوا على هذه الدعوة بدليل أن دعواتها كانوا دائما من المغرب أو من الشام أو من إيران . ويبدو أنه كان للمصريين نشاطهم المستقل في دراستهم للفلسفة عن طريق دراساتهم للطب والرياضيات والطبيعات ، ومن يرجع إلى تراجع من عرضنا لهم في ابن أبي أصيبعة والقفطى سيجد لهم مصنفات فلسفية متنوعة كثيرة .

وإذا تقدمنا إلى العصر الأيوبي وجدنا مصر تحمل بقوة مسئوليتها في طرد الصليبيين من ديار الشام ، ومع ذلك تظل الحركة العلمية نامية بها بفضل ما أنشأ فيها صلاح الدين وخلفاؤه الأيوبيون من المدارس . وتظل العناية متصلة بعلوم الأوائل ، يدل على ذلك أنه يلقانا بعض البارعين في الدراسات الفلسفية مثل السيف الأمدى المتوفى سنة ٦٣١ وأفضل<sup>(٤)</sup> الدين الحونجي المتفلسف المتوفى سنة ٦٤٢ وكان يتقن العلوم الفلسفية والدراسات الإسلامية وله تصانيف في المنطق والطبيعات ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه قرأ عليه بعض الكليات من كتاب القانون في الطب لابن سينا ، وقد ولاه السلطان الصالح نجم الدين أيوب قضاء مصر سنة ٦٣٨ بعد عزل شيخ الإسلام وإمام الأئمة شرقا وغربا - كما يقول السيوطي - عز الدين بن عبد السلام . ولعل

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٥٧١ .

(١) حسن المحاضرة ١/٥٤٠ والطالع السعيد للإدري

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٦ وحسن المحاضرة ١/٥٤١ .

١٢٠ .

وطبقات الشافعية للسبكي ١٠٥/٨ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٥٧٠ .

في ذلك ما ينقض كل ما قيل عن الأيوبيين من أنهم وقفوا الدراسات في علوم الأوائل ولم يشجعوا عليها . فقد قدم السلطان الصالح نجم الدين أيوب أحد علمائها المتعمقين في مباحثها على جميع فقهاء زمنه الشافعية . ويرجع في عهد الأيوبيين مهندس رياضى كبير هو قيصر<sup>(١)</sup> بن أبى القاسم المتوفى سنة ٦٤٩ وهو من أصفون بالصعيد ، كان فقيها حنفياً عالماً بالقراءات وتعلق بالرياضيات والموسيقى وأنواع الحكمة ، وهو الذى أقام لأمير حجة نواعير نهر العاصى البديعة التى لاتزال تنحدر المياه فيها من علوشاهق إلى اليوم ، مؤلفة بذلك منظرًا بالغ الروعة . وكان فلكياً مبدعاً . فأنشأ كرة سماوية عظيمة لاتزال محفوظة إلى الآن في المتحف الوطنى لمدينة نابولى بإيطاليا .

وكان الأيوبيون يهتمون بالطب والأطباء منذ صلاح الدين ، وقد بدأ هذا الاهتمام بتأخذه مارستاناً ضخماً في القاهرة وفيه يقول ابن جبير : « مما شاهدناه بالقاهرة من مفاخر السلطان صلاح الدين المارستان وهو قصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً<sup>(٢)</sup> » ويذكر أنه عين له قيماً وضع لديه خزائن العقاقير . ويقول إنه وضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسوة ، وبين يدي القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشياً ويقدمون لهم ما يلزمهم من الأغذية والأدوية ، ويذكر أن بالمارستان قسماً خاصاً بالمرضى من النساء ومعهن من الخدم من يتكفل بحاجاتهم ، وقسماً خاصاً بالمجانين على مقاصيره شبابيك الحديد . ويقول ابن جبير إن بالفسطاط مارستاناً آخر على مثال ذلك الرسم بعينه . وطبيعى أن يحتاج المارستانان إلى كثير من الأطباء . ولا بد أن نلاحظ أن المارستان في القاهرة وبغداد جميعاً كان دائماً مدرسة للطب كما كان مستشفى . بالضبط شأن القصر العيني بالقاهرة حديثاً كما أسلفنا . وأول من يلقانا منهم الشيخ السديد<sup>(٣)</sup> أبو المنصور عبد الله الذى خدم الخلفاء الفاطميين ثم صلاح الدين وطالت حياته حتى سنة ٥٩٢ وكان رئيساً على سائر المتطببين بمصر حتى وفاته . وعاصرته طائفة من الأطباء اليهود مثل ابن<sup>(٤)</sup> جميع وكان له مجلس لمن يشتغلون عليه بصناعة الطب ، ومثل الموفق بن شوعة المتوفى سنة ٥٧٩ وأبى البيان بن المدور المتوفى سنة ٥٨٠ وأبى الناقد الكحل طبيب العيون المتوفى سنة ٥٨٤ وموسى بن ميمون المتوفى سنة ٦٠١ . وتكاثر الأطباء المصريون في عهد صلاح الدين وبعده

(١) انظر في قيصر حسن المخاضرة ٥٤٢/١ والطالع

السعيد ص ٢٥٩ وألدوميل ص ٣٠٥ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٥١ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٥٧٢ وحسن المخاضرة

٥٤٠/١ .

(٤) انظر في ابن جميع ومن تلاه من أطباء اليهود ابن أبى

أصيبعة ص ٥٧٦ وما بعدها وألدوميل ص ٣٢٠ وما بعدها

وص ٥٦٦ .

مثل أبي (١) البركات بن القضاعى المتوفى سنة ٥٩٨ هـ وجمال (٢) الدين ابن أبي الخوافر القيسى وقد ولاه السلطان عثمان بن صلاح الدين رياسة الأطباء بعد الشيخ السديد وظل في هذه الوظيفة حتى عهد الكامل . وكان ابنه فتح (٣) الدين أحمد ماهرا في الرمد وطب العيون . ويقول الدومبيلي إنه ألف كتابا يحتوي على ١٥ فصلا في علم الرمد . وتكلم في أحد الفصول عن عملية الكتاراكت . وعاش إلى عصر السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، وولى أحيانا رياسة الأطباء . ومن رؤساء الأطباء لعهد الكامل نفيس (٤) الدين بن الزبير المتوفى سنة ٦٣٦ ويقول ابن أبي أصيبعة إن أولاده مقيمون في القاهرة ومشهورون بصناعة الكحل وتميزون في علمها وعملها .

ويستمر ابن أبي أصيبعة في ذكر الأطباء المصريين لعهد الأيوبيين . ويختم تراجمهم بترجمة لابن (٥) البيطار المالقي الأندلسي المولد المتوفى سنة ٦٤٦ وقد بارح موطنه في العشرين من عمره وجاب بلاد المغرب دارسا لما فيها من نباتات . وألقى عصاه بمصر فجعله السلطان الكامل رئيسا على جميع العشابين ، وهو بحق إمام النباتين لزمنه ، وقد سافر إلى بلاد الروم والإغريق والشام دارسا لأنواع النبات ، وقرأ ما كتبه ديسقوريدس وغيره من النباتيين . وهو بحق يعد أعظم الصيدلانين قاطبة قبل العصر الحديث ، وله كتابان : كتاب الجامع في الأدوية المفردة وبه أكثر من ١٤٠٠ دواء منها ثلاثمائة لم يتناولها صيدلى قبله ، وله في نفس الموضوع كتاب ثان هو المعنى في الأدوية المفردة ، وقد قدم الكتابين للسلطان الصالح نجم الدين أيوب . وإذا كانت مصر أتاحت لابن البيطار المالقي الأندلسي مجوها العلمى الحصب أن يؤلف فيها كتابيه السالفين في الأدوية فلإنها أتاحت لأحمد بن يوسف النيفاشي المغربي المتوفى سنة ٦٥١ أن ينزل بها في أواخر القرن السادس الهجرى ، وهو لا يزال يافعا صغير السن ويتكوّن فيها علميا . ويعود إلى بلده ، ولا يلبث أن يعود إلى مصر ويتولى بها القضاء ، وقد بدأ مبكرا بدراسة التاريخ الطبيعى واختار علم المعادن مع عنايته بالصيدلة والطب ، ويؤلف كتابه «أزهار الأفكار في جواهر الأحجار» وفيه يتناول خمسة وعشرين حجرا في خمسة وعشرين فصلا (٦) ، ويسوق في كل حجر كالماس والياقوت

(٥) انظر فيه ابن أبي أصيبعة ص ٦٠١ وحسن المحاضرة

٥٤٢/١ والدومبيلي ص ٤١٤ وما بعدها

(٦) نشر كتابه «أزهار الأفكار» في القاهرة الدكتوران

محمد يوسف ومحمود بسيوى خضاجى بالهيئة المصرية العامة

للكتاب ، وراجع فيه مقدمتها وما بها من مراجع .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٨٤ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٥ والدومبيلي ص ٣٢٢ ،

٣٢٦ .

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٦ .

مثلا ما ذكره جالينوس أو غيره من فلاسفة الإغريق ، ويتحدث عن معدنه وتكوينه وخواصه ومنافعه ، مما قد يدخل في المعارف الطبية ، ويتصل بهذه المعارف كتابه « المنقذ من التهلكة في دفع مضار السمائم المهلكة » . ويلقانا في عهد السلطان الكامل المنصور<sup>(١)</sup> بن بكرة الذهبى الكاملى وكتابه « كشف الأسرار العملية لضرب النقود المصرية » وفيه يتحدث عن إعداد المعادن وتصفيها وطرق استعمالها في سك النقود ، ويتناول دار سك النقود وواجبات من بها من الموظفين .

وتظل لمصر قيادتها العلمية في زمن المماليك ، ويظل ينزها العلماء من الشرق والغرب ، وتظل تعنى بالفلسفة<sup>(٢)</sup> ، ويذكر السيوطى حشدا<sup>(٣)</sup> من متفلسفها وعلماء المعقولات بها مثل شمس الدين محمد بن حمود الأصبهانى المتوفى سنة ٦٨٨ وتلميذه تاج الدين البارنبارى المتوفى سنة ٧١١ وشمس الدين أبى الثناء محمود بن عبد الرحمن الأصبهانى المتوفى سنة ٧٤٩ وعلاء الدين على بن أحمد المدرس بمدرسة بقوق المتوفى سنة ٧٩٠ وابن جماعة عز الدين محمد بن شرف المتوفى سنة ٨١٩ والكافيجى محيى الدين محمد بن سليمان المتوفى سنة ٨٧٩ .

وظل كثير من المصريين يشتغلون بالطبيعات والرياضيات ، ومن أهم بالتاريخ الطبيعى بيلك القبجقى الذى صنف حوالى سنة ٦٨٠ كتابه « كتر التجار فى معرفة الأحجار » ويقول ألدومبيلى : « لهذا الكتاب أهمية خاصة إذ نجد فيه توضيحا لاستعمال البوصلة عند الملاحين وطرق استعمالها<sup>(٤)</sup> » . ويظن أن معرفة المصريين والعرب بها ترجع إلى تاريخ أقدم من ذلك ، ربما إلى القرن السادس الهجرى المقابل للثانى عشر الميلادى ، بل ربما إلى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى المقابل للقرن الخامس الهجرى . والمهم أن مصر هى التى سجلت اكتشافها عند عالمها بيلك . وأكبر الظن أنها هى التى أعدت لصنعها ، وصنعتها بفضل اشتغالها بالملاحة فى البحرين المتوسط والأحمر من قديم . وكان ملاحوها فى عصر المماليك يغدون ويروحون فى البحرين للتجارة والغزو أحيانا على نحو ما هو معروف عن تجارتهم مع موانئ إيطاليا وغزوهم لقبرص وطردهم للبرتغاليين من شواطئ اليمن بأخرة من أيام المماليك . على كل حال يرمز اكتشاف

(٣) انظر حسن المحاضرة للسيوطى ١ / ٥٣٩ وما بعدها .

(٤) اللومبيلى ص ٣١٤ وما بعدها .

(١) انظر فيه ألدومبيلى ص ٣٠٨ ، ٣١٠ .

(٢) راجع البحر المحيط لأبى حيان ٥ / ١٤٨ - ١٥٠ فى

تفسير سورة يونس آية ٢٧ .

مصر للبوصله إلى نشاط المعارف العلمية فيها طبيعية ورياضية . ويلقانا بها محمد<sup>(١)</sup> بن موسى الديمري المتوفى سنة ٨٠٨ وموسوعته في علم الحيوان التي سماها « حياة الحيوان الكبرى » معجم للحيوان مرتب أبجديا حسب أسمائه وأنواعه ، ومع كل حيوان خصائصه العلمية والطبية وطُرف من الحديث النبوي والأمثال والأشعار وتراجم لبعض العلماء والفلاسفة والأدباء والشعراء ، وهو مطبوع في مجلدين ومترجم إلى الإنجليزية .

وارتقى حينئذ فنّ المعمار وما يتبعه من الهندسة رقيا بعيدا ، لكثرة الأبنية التي شادها سلاطين الممالك منذ الظاهريين ، وفي مبانیه يقول ابن تَغْرِي بردى : « بُني في أيامه بالديار المصرية ما لم يُبني في أيام الخلفاء المصريين ( الفاطميين ) ولا ملوك بني أيوب من الأبنية والرّباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات<sup>(٢)</sup> » . وتوالى السلاطين بعده وخاصة قلاوون يكثر من الأبنية الرائعة ، وكل ذلك كان يقوم عليه مهندسون مصريون بارعون مما لانزال نرى آثاره في مساجدهم الباقية . ويؤه السخاوي بمهندس مصرى بارع لعهد السلطان برفوق ( ٧٨٤ - ٨٠١ هـ ) هو شمس الدين الطولوني ، ويقول : « كان المَعول عليه وعلى أبيه في العائر السلطانية<sup>(٣)</sup> » . وظل العلماء المصريون يعنون بالرياضيات والفلك ، ويشهر منهم رياضى كبير هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن الهائم<sup>(٤)</sup> الفرضى من علماء القرن التاسع الهجرى ، وله كتب كثيرة في الحساب والجبر ذكر مخطوطاتها بروكلمان ، منها في الحساب مرشد الطالب إلى أسى الطالب ، كان واسع الانتشار . وفي دار الكتب المصرية بعض شروح له وبعض مخطوطات مختلفة من كتب ابن الهائم الرياضية .

وظل لمصر نشاطها زمن المالك في دراسة الطب والتأليف فيه ، وكان مارستان القاهرة الذى أنشأه صلاح الدين يُعدّ أكبر معهد لتدريس الطب ، وقد تَخَرَّج فيه كثيرون مثل ابن أبى أصيبعة<sup>(٥)</sup> المتوفى سنة ٦٦٨ صاحب كتاب طبقات الأطباء ، وهو كتاب نفيس إذ يشتمل

(٤) انظر ابن الهائم في الشنرات ١٠٩/٧ والضوء اللامع ٢ رقم ٤٤٩ وألدمويل ٥٠٦ ، ٥١٣ وبروكلمان (الطبعة الألمانية) ١٢٥/٢ .

(٥) راجع ابن أبى أصيبعة في النجوم الزاهرة ٧/٢٢٩ والشنرات ٥/٣٢٧ وأيضاً ألدوميل (انظر الفهرس) ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) راجع في الديمري حسن المحاضرة ١/٤٣٩ ، والضوء اللامع .. رقم ٢٠٤ وشنرات الذهب ٧/٧٩ والبر الطالع ٢/٢٧٢ وألدوميل ص ٥٠٧ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) النجوم الزاهرة ٧/١٩٦ .

(٣) الضوء اللامع ١/٢٢١ .

على ترجمة نحو أربعمائة طبيب عربي ، ويمكن أن نضم إليه الأطباء الذين كانوا مُتَقِنِينَ بالظاهر بيبرس مثل شهاب<sup>(١)</sup> الدين بن فتح الدين القيسي ورشيد<sup>(٢)</sup> الدين أبي حليقة النصراني . وما يلبث أن يلي السلطنة بعد بيبرس المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) فينشئ بمارستانا ضخما يقول فيه ابن تغرى بردى : « وهذا البمارستان وأوقافه وما شرطه قلاوون فيه لم يسبقه إلى ذلك أحد قديما ولا حديثا شرقا ولا غربا<sup>(٣)</sup> » وقد جعله أقساما كبيرة : قسما للمرضى بالحميات ، وقسما للرمد ومرضاه ، وقسما للجرحى ، وقسما لمن به إسهال ، وجعل فيه قسما للنساء ، وأمكنة للأدوية وتركيبها ، وأمكنة لإعداد الطعام وأخرى للمحاصيل ، وجعل فيه فراشين لخدمة الرجال وفراشات لخدمة النساء ونصب فيه الأسرة للمرضى وأمدها بكل ما تحتاج إليه من فرش . وأهم من ذلك كله أنه جعل فيه قاعة لرئيس أطبائه ، كى يلقى فيها دروسه على طلاب الطب<sup>(٤)</sup> . وبذلك كان المارستان مستشفى وكلية طب معا ، وقد شاهده ابن بطوطة بعد وفاة قلاوون بنحو أربعين عاما سنة ٧٢٧ للهجرة فقال : « أما المارستان عند قبر قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أُعِدَّ فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر » . ويُذكَرُ أن مَجْبَاه (نفقاته) كان ألف دينار كل يوم<sup>(٥)</sup> . وتلقانا في عهد قلاوون بجانب كلية الطب التي كانت ملحقة بمارستانه كما ذكرنا مدرسة للطب سميت المدرسة<sup>(٦)</sup> المهديّة نسبة إلى منشئها الطبيب مهذب الدين محمد بن أبي حليقة المار ذكره في عهد بيبرس ، وكان قد خدمه مع أبيه وأسلم في أيامه وسمى محمدا ، ويقول ابن أبي أصيبعة : مولده سنة ٦٢٠ وإنه قرأ على أبيه الصناعة الطيبة وصور أقسامها الكلية والجزئية وحصل معانيها العلمية والعملية<sup>(٧)</sup> .. وبلغ من ازدهار دراسة الطب حيثئذ أنه كان يدرس في المساجد الجامعة ، إذ نجد السلطان لاجين (٦٩٦ - ٦٩٧ هـ) يعمر جامع ابن طولون ، ويرتب فيه دروسا - كما مر بنا - للفقهاء على المذاهب الأربعة ودرسا للحديث النبوي ، وبجانب ذلك يرتب فيه درسا للطب<sup>(٨)</sup> ، ومن درسوا فيه بعد زمنه في القرن الثامن الطبيب شمس<sup>(٩)</sup> الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصرى المتوفى سنة ٧٧٦ .

٢٠/١

(٦) خطط المقرئى ٣/٣٧١ .

(٧) ابن أبي أصيبعة ص ٥٩٨ .

(٨) خطط المقرئى ٣/١٤٨ .

(٩) حسن المحاضرة ١/٥٤٦ .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٥ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٥٩٠ .

(٣) التاجم الزاهرة ٧/٣٢٧ .

(٤) راجع في هذا المارستان خطط المقرئى ٣/٣٨٦ .

وما بعدنا .

(٥) رحلة ابن بطوطة (طبع المطبعة الأزهرية)

ويكفي لبيان ازدهار دراسة الطب حينئذ أن تنتج مصر شيخ الأطباء لزمانه علاء الدين .  
على بن أبي الخزم المعروف باسم ابن النفيس<sup>(١)</sup> العلامة في فنه الذي لم يكن في زمانه من يضاهيه  
في الطب والعلاج والعلم ، كما يقول ابن تغرى بردى ، ويكفيه فخراً ما ذكره ألدومبيلي وغيره من  
الغربيين من أنه اكتشف لأول مرة الدورة الدموية الثانية ، مسجلاً بذلك كشفاً طبيًا خطيرًا لم  
يستطع الأطباء منذ جالينوس إلى زمانه اكتشافه . ومن كتبه « الشامل في الطب » و« المهذب في  
الكحل » وشرح القانون في الطب لابن سينا . وقد توفي سنة ٦٨٧ بعد أن أوقف داره وأملاكه  
وجميع ما يتعلق به على مارستان قلاوون الذي كان يعمل به رئيساً لأطبائه . وولى رئاسة الأطباء  
بعده مهذب الدين بن أبي حليقة المار ذكره ، ويسرد السيوطي في حسن<sup>(٢)</sup> المحاضرة أسماء طائفة  
من الأطباء في القرن الثامن الهجري . ومن الأطباء الذين لم يذكرهم محمد<sup>(٣)</sup> بن الأكفاني المتوفى  
سنة ٧٤٨ ويبدو أن تخصصه الأكبر كان في طب العيون ، ومن مصنفاته في الرمد « كشف العين  
في أحوال العين » وله كتاب في الطب المنزلي سماه « غنية اللبيب » وكتاب في الفصد سماه « نهاية  
القصد » وكتاب في الأحجار النفيسة سماه « نخب الذخائر » ومن كتبه : « إرشاد القاصد إلى  
أقصى المقاصد » وهو مختصر جامع لفنون شتى تبلغ ستين فناً نشره شبرنجرف في المكتبة الهندية . واشتهر  
بعده في طب العيون صدقة<sup>(٤)</sup> بن إبراهيم الشاذلي ، ويغلب أن يكون تلميذه إذ هو من أطباء  
النصف الثاني من القرن الثامن الهجري المقابل للقرن الرابع عشر الميلادي . وما يدل على شهرة  
مصر لأيام المالك في الطب والأطباء ما يذكره ابن إياس في كتابه بدائع الزهور من أن السلطان  
بايزيد العثماني أرسل في سنة ٧٩٥ رسولا إلى السلطان برقوق يسأله أن يبعث إليه بطبيب مختص  
بأمراض المفاصل فأرسل إليه رئيس الأطباء ابن صغير ومعه أدوية كثيرة لعلاج<sup>(٥)</sup> . ويظل هذا  
النشاط الطبي في مصر حتى نهاية زمن المالك إذ نلتقى في زمن قانصوه الغوري  
(٩٠٦ - ٩٢١ هـ) بالطبيب محمد القوصي ، وإليه قدّم كتابه « كمال الفرحة في دفع السموم  
وحفظ الصحة » ومنه مخطوطة بدار الكتب المصرية .

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٥٤٣ وما بعدها .

(٣) البدر الطالع للشوكاني ٢/ ٧٩ . وانظر ألدومبيلي  
ص ٥٠٥ ، ٥١٠ .

(٤) ألدومبيلي ص ٥١٠ .

(٥) راجع بدائع الزهور في السنة المذكورة .

(١) انظر في ابن النفيس النجوم الزاهرة ٧/ ٣٧٧

والسبكي ٨/ ٣٠٥ وحسن المحاضرة ١/ ٥٤٢ والشذرات

٥/ ٤٠١ وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٣٤ وروضات الجنات

٤٩٤ والدارس في أخبار المدارس ٢/ ١٣١ وألدومبيلي

ص ٣٢٣ ، ٣٢٦ وكتاب بول غليونجي عنه .

ومعروف أن عناية العرب بالبيطرة ومداواة الخيل قديمة ، وكان طبيعيا والطب ينشط في مصر النشاط السالف في أيام المماليك أن يُعنى بعض أطبائها بالطب البيطرى ، ومن خير ما ألف فيه كتاب لطبيب بيطرى كان المشرف على خيَل السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، هو أبو بكر<sup>(١)</sup> بن المنذر بن بدر المتوفى سنة ٧٤١ واسم الكتاب «كامل الصناعتين: الزردقة والبيطرة» والزردقة دراسة الخيل والبيطرة : علم أمراض الخيل وأدويتها وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية الدكتور بيرون ، وترجمه إلى الألمانية حديثاً فرونر . ولأيدمر<sup>(٢)</sup> الجلدكى المتوفى سنة ٧٤٣ (وقيل بل سنة ٧٦٣) كتب في المعادن منها ، المصباح في علم المفتاح وهو مطبوع في بومباي ، وكتاب نتائج الفكر في أحوال الحجر وهو مطبوع في القاهرة .

وتكاد تتوقف هذه الحركة العلمية الدائبة في زمن العثمانيين . ولكن تظل منها بقايا غير قليلة في الجامع الأزهر وفي بعض المدارس . وتظل مصر ترعى العلوم الإسلامية واللغوية وبعض ما تبقى فيها من علوم الأوائل ، ومن يرجع إلى كتاب الكواكب السائرة في علماء المائة العاشرة لنجم الدين الغزى المتوفى سنة ١٠١٦ وكتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر للمحجى المتوفى سنة ١١١١ سيجد فيها كثيرين يعنون بالرياضيات والفلك مثل عبد القادر المنوفى الفلكى بالمدرسة الغورية المتوفى سنة ٩٨٠ ومصطفى بن شمس الدين الدمياطى المتوفى سنة ١٠٣٨ وعبد الله المقدسى الأزهرى المتوفى سنة ١٠٧٠ . ويسوق الجبرقى في تاريخه تفاصيل كثيرة عن الرياضيين والفلكيين في القرن الثانى عشر الهجرى ويذكر في طليعتهم رضوان<sup>(٣)</sup> الفلكى المتوفى سنة ١١٢٢ صاحب الزيج الرضوانى ، ويقول الجبرقى إنه حرره على أصول الرصد السمرقندى وزيجه المشهور الذى صنعه أوليغ بك سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٧ م . ويؤه الجبرقى بأن أباه كان يملك نسخة من هذا الزيج النفيس ، وكذلك كان يملك نسخة منه حسن<sup>(٤)</sup> أفندى قطة ، فكان بالقاهرة منه نسختان غير النسخة التى كان يملكها - فيما نظن - رضوان الفلكى . ويشيد الجبرقى بأبيه في الرياضيات والفلك ، وبتلميذ من تلاميذ رضوان هو جمال الدين يوسف<sup>(٥)</sup> الكلارجى المتوفى سنة ١١٥٣ ويقول إنه اخترع ما لم يسبق به ، ويذكر أنه ألف كتابا في الظلال ورسم المنحرفات والبسائط والمزاويل والأسطحة ، وأن له في منازل القمر كتابا أسماه «كثر الدرر في أحوال منازل القمر» .

(٤) الجبرقى ٧٠/٢ .

(٥) الجبرقى ١٦٤/١ .

(١) ألدوميل ص ٥٠٥ .

(٢) ألدوميل ص ٥٠٦ ، ٥١٣ .

(٣) تاريخ الجبرقى (طبعة بولاق) ٧٤/١ .

وينوه طويلا بحسين<sup>(١)</sup> المحلى المتوفى سنة ١١٧٠ هـ ومعارفه في الجبر والمقابلة والحساب ومصنفاته ، كما ينوه بتلميذه محمد<sup>(٢)</sup> بن موسى الجناجى المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ/١٧٨٦ م ومؤلفاته في الرياضيات . ويذكر الجبري في القرن المذكور أسماء رياضيين آخرين مما يدل على أن مصر ظلت تعنى بالرياضيات والهيئة والفلك طوال أيام العثمانيين . ويبدو أن الجبري وغيره ممن ترجموا لعلماء القرنين السابقين لتاريخه العاشر والحادى عشر لم يعنوا بالترجمة للأطباء . إلا ما قد يذكره عنه عضوامثل شهاب الدين بن سلامة<sup>(٣)</sup> القليوبى المتوفى سنة ١٠٥٩ هـ وله عدة كتب طبية كانت رائجة في زمنه ، وأهم من هذه الكتب وكان أكثر منها رواجاً كتاب التذكرة الطبية للأنطاكي<sup>(٤)</sup> داود بن عمر المتوفى سنة ١٠٠٨ . ومن يقرأ الجبري وتراجمه في القرن الثانى عشر الهجرى يراه يذكر طبيبا يسمى قاسم<sup>(٥)</sup> بن محمد المتوفى سنة ١١٩٣ وكان عناية مصر بالطب ظلت إلى أواخر العهد العثمانى ، وليس ذلك فحسب ، فإن الجبري يذكر أنه عُهد إليه تدريس الطب بالمارستان المنصورى ، ومعنى ذلك أن مازستان المنصور قلاوون الذى مر بنا ذكره وإشادة ابن بطوطة وغيره به ظل قائما طوال أيام العثمانيين ، وظل قائما معه تدريس الطب لطلابه فيه ، بالضبط كما كان الشأن أيام المنصور قلاوون ومن تلاه من المالك .

### (ب) علم الجغرافيا

ولم نتحدث حتى الآن عن علم الجغرافيا ونشاط مصر فيه والمصريين . ولعل أول ما يلقانا من ذلك ما نقرؤه في القسم الثالث من كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ للهجرة وفيه يتحدث عن خطط الفسطاط والحيزة والإسكندرية . ولعاصره محمد بن يوسف الكندى المتوفى سنة ٢٥٠ كتاب بعنوان الخطط<sup>(٦)</sup> سقط من يد الزمن . ونزل مصر واستقر بها في سنة ٣٣٤ المسعودى على بن الحسين المتوفى سنة ٣٤٥ ويشتهر بكتاباتة التاريخية وحشده فيها كثيرا من المعارف الجغرافية عن الأرض وجبالها وأغوارها وبحارها وأنهارها وسكانها وأحوالهم

(٥) الجبري ٢/٥٤ .

(٦) تاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى ترجمة

صلاح الدين عثمان هاشم (نشر لجنة التأليف والترجمة

والنشر) ١/١٦٨ .

(١) الجبري ١/٢١٩ .

(٢) الجبري ٢/١٢٥ .

(٣) خلاصة الأثر ١/١٧٥ .

(٤) انظر مصادر ترجمة داود الأنطاكي في قسم الشام

الاجتماعية . وفي مصر أو بعبارة أدق في القسطنطينية كتابه « مروج الذهب » سنة ٣٣٦ وهو في التاريخ العام للأمم والدول وبه معلومات جغرافية كثيرة . وفي القسطنطينية ألف كتابه « التنبيه والإشراف » وهو مليء بالمعارف الجغرافية الفلكية والطبيعية والوصفية ، وبه معلومات قيمة عن مصر وما بها من محصولات وتجارات وصناعات . وتدخل مصر في العهد الفاطمي وسرعان ما ترسل الدولة الفاطمية بابين سليم<sup>(١)</sup> الأسواني في سنة ٣٦٥ إلى النوبة في مهمة دبلوماسية ويتغلغل في السودان ويؤلف كتابه « أخبار النوبة والمقررة وعلوة والبجة والنيل » يصف فيه تلك البلاد وسكانها ، وينقل عنه المقريري وابن إياس مرارا : وهو أول كتاب يصور المجرى الأعلى للنيل . ويكتب عن السودان بعده بفترة قليلة رحالة مصرى هو الحسن المهلبى في كتابه « المسالك والممالك » الذى أهداه إلى العزيز الفاطمي سنة ٣٧٥ ولذلك قد يسمى بالعزيزى وهو - كما يقول آدم ميتز - يصف بلاد السودان وصفا دقيقا . وهو أكبر مصدر اعتمد عليه ياقوت في كلامه عن السودان<sup>(٢)</sup> .

وتعود مصر في القرن التالى إلى الكتابة عن الخطط أو تخطيط المدن ويؤلف القضاعي<sup>(٣)</sup> كتابه خطط مصر . ويخلفه في القرن السادس الهجرى جغرافى مصرى كبير هو أبو الفتح نصر<sup>(٤)</sup> بن عبد الرحمن الإسكندراني المتوفى سنة ٥٦١ ويشيد ياقوت في مقدمته لمعجم البلدان بكتاب جغرافى له سماه « ما اتلف واختلف من أسماء البقاع » وله كتاب ثان أهم منه ألفه توضيحا له سماه « كتاب الأمكنة والمياه والجبال والآثار المذكورة في الأخبار والأشعار » ومنه نسخة محفوظة في مكتبة المتحف البريطانى تضم ٢٩٣٨ سما ولاحظ وستفند ناشر معجم البلدان أن ياقوت ضمن معجمه مادة هذا الكتاب<sup>(٥)</sup> . وينزل مصر في أواخر القرن السادس الهجرى عبد<sup>(٦)</sup> اللطيف البغدادى ويغنى بتأليف كتيب عنها يسميه : « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر » . والكتيب موزع على مقالتين تحدث مؤلفه في أولهما عن طبيعة مصر وسكانها ونباتها وحيوانها وآثارها وعمرانها ، وفي الثانية تحدث عن النيل وعمّا أصاب مصر في مقامه بها من قحط ووباء مرّوعين .

- (١) كراتشكوفسكى ١٩٢/١ وروكلان ٢٥٣/٤ .  
 (٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز ترجمة د. فتي ريدة ٧/٢ - ٨ .  
 (٣) كراتشكوفسكى ١٦٩/١ وابن خلكان ٢١٢/٤ .  
 (٤) انظر مقدمة كتاب معجم البلدان وغريدة القصر  
 (٥) ابن أبى أصيبعة ٦٨٣ وكراتشكوفسكى ٣٤٥/١  
 (٦) للمعاد الأصبهاني (قسم مصر) ٢٢٥/٢ وفيه الوعاة للسيوطى ص ٤٠٣ وكراتشكوفسكى ٣٢٢/١ .  
 (٥) انظر كراتشكوفسكى ٣٢٣/١ ومقدمة وستفند للجزء الخامس من معجم البلدان .  
 (٦) ابن أبى أصيبعة ٦٨٣ وكراتشكوفسكى ٣٤٥/١

ولا يلقانا بمصر جغرافيون مهمون في القرن السابع الهجرى ويتكاثرون في القرن الثامن ، وفيه نلتقى بابن<sup>(١)</sup> المتوج محمد بن عبد الوهاب الزبيرى المتوفى سنة ٧٣٠ وكتاب له عن خطط مصر إلى أعوام بضع وعشرين وسبعائة . وكان في زمنه التويرى<sup>(٢)</sup> شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٧٣٣ صاحب الموسوعة الكبرى : « نهاية الأرب » التى مر ذكرها في الحركة العلمية والتي أهداها إلى السلطان محمد الناصر بن قلاوون ، وهى مقسمة إلى خمسة فنون ، والفن الأول عن السماء والأرض ، وهو مكتظ بالمعلومات الجغرافية عن الأرض وتكوينها الطبيعي وبلدانها وسكانها . وكان يعاصره ابن فضل<sup>(٣)</sup> الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ رئيس ديوان الإنشاء للسلطان الناصر وله أيضا موسوعة كبرى مر ذكرها في الحركة العلمية سماها « مسالك الأبصار » وفيها عرض جغرافى عام للبلدان والأمم الإسلامية والأجنبية في الغرب والشرق . وتتم الدولة في هذا القرن الثامن بعمل روكلات أو بعبارة أخرى بعمل سجلات لمسح الأراضى المصرية ، ومن أهمها الروك<sup>(٤)</sup> الناصرى سنة ٧١٥ في عهد السلطان الناصر بن قلاوون . ويظل النشاط الجغرافى بمصر في القرن التاسع الهجرى ، وملتقى في أوائله بابن دقاق<sup>(٥)</sup> والى دمياط وبعض بلدان الشام المتوفى سنة ٨٠٩ وهو يعنى بخطط مصر في كتابه « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » وتحفظ دار الكتب المصرية منه بالجزءين الرابع والخامس وفيها يصور خطط القاهرة والإسكندرية . ويعنى معاصره القلقشندى<sup>(٦)</sup> شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على الكاتب بديوان الإنشاء المتوفى عام ٨٢١ بوصف جغرافى متفرق لمصر والبلاد العربية وبلاد التتار والهند والسودان والحبشة وبعض البلدان الأوربية الغربية والشرقية .

ولا نلبث أن نلتقى بالمقرئى<sup>(٧)</sup> تقى الدين بن علاء الدين المتوفى سنة ٨٤٥ وكتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » المشهور باسم الخطط موسوعة كبرى لمصر وجغرافيتها وخططها

(٥) الشلوات ٨٠/٧ وكراتشكوفسكى ٤٧١/٢ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٦) انظر مراجع القلقشندى في ترجمته بالفصل الخامس .

(٧) الفوه اللامع للسخاوى ج ٢ رقم ٦٦ والنهل الصافى لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية)

٣٩٤/١ والسيوطى ٥٥٧/١ والشوكافى ٧٩/١ والمؤرخون في مصر لزيادة ص ٣ .

(١) الدرر الكامنة لابن حجر (نشر دار الكتب

الحديثة) ١٥٥/٤ وحسن المحاضرة للسيوطى ٥٥٥/١ وكراتشكوفسكى ٣٨٥/١ .

(٢) ابن حجر ٢٠٩/١ والسيوطى ٥٥٦/١ والخطط الجديدة لعل مبارك ١٥/١٧ وكراتشكوفسكى ٤٠٨/١ .

(٣) انظر مراجع ابن فضل الله في ترجمته بالفصل الخامس .

(٤) كراتشكوفسكى ٣٨٥/١ .

وتاريخها وحضارتها وآثارها ومساجدها وكنائسها وأديرتها ومنشآتها وأعيادها وأحوالها الاجتماعية .  
 ويعنى خليل<sup>(١)</sup> بن شاهين الظاهري المتوفى سنة ٨٧٢ في كتابه « زبدة الممالك في كشف الطرق  
 والمسالك » برسم الجغرافية الإدارية لأراضى دولة المماليك في مصر والشام . ويختم القرن التاسع  
 الهجرى بابن الجيعان<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٩٠٢ وله « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » ووصف  
 لرحلة السلطان قايتباى فى سنة ٨٨٣ إلى بلاد الشام سماه « القول المستطرف فى سفر ممولانا  
 الأشرف » . وينتهى الجغرافيون فى العهد المملوكى بابن<sup>(٣)</sup> إياس محمد بن أحمد المتوفى سنة ٩٣٠  
 وله كتاب « نشق الأزهار فى عجائب الأقطار » ولا يزال غير مطبوع ، وفيه يتحدث عن الجغرافية  
 الفلكية والطبيعية لمصر والعالم ، ومن أهم ما يشتمل عليه ثبت بمقاييس النيل وفيضانه على مر  
 السنين .

ويكاد يتوقف هذا النشاط الجغرافى بمصر فى عهد العثمانيين ، إذ تحولت ولاية تابعة لهم ، ولم  
 يعد أبناؤها يشعرون بمكانتهم التى كانت لهم زمن المماليك ، إذ كان يدين جزء كبير لهم من البلاد  
 العربية بالطاعة وفى مقدمته الشام والحجاز . ومع ذلك لا ينعدم هذا النشاط ، بل تظل منه بقايا  
 إذ نجد ابن<sup>(٤)</sup> زنبيل المتوفى سنة ٩٦٠ يصنف فى الجغرافيا كتابا أسماه « تحفة الملوك والرغائب لما فى  
 البر والبحر من العجائب » ولا يزال مخطوطا لم ينشر . وتلتقى فى القرن الحادى عشر بالسهنورى<sup>(٥)</sup>  
 محمد بن أحمد وله كتاب فى منازل البريد بين القاهرة ومكة . وكان يعاصره شهاب الدين القليوبى  
 المار ذكره بين أطباء الحقبة العثمانية وله كتاب جغرافى فى مناسك الحج ومنازله ورسالة فى معرفة  
 أسماء البلاد : أطوالها وانحرافاتا ، وتبدو الرسالة كأنها زيج صغير ، وهى بذلك تدخل فى الجغرافية  
 الفلكية ، كما يدخل النشاط فى الفلك والهيئة الذى عرضنا له مع الرياضيات عند الفلكى والرياضى  
 الكبير رضوان وأمثاله من الفلكيين . وبذلك ظلت الجغرافية الفلكية ناشطة وخاصة فيما يتصل  
 بالزيجات ، ونشطت معها كتب الرحلات ، ومن أهمها رحلة لمصطفى<sup>(٦)</sup> أسعد القيسى الدمياطى  
 المتوفى سنة ١١٧٣ جعل عنوانها : « موانع الأنس برحلتى لوادى القدس » وقد استغرقت الرحلة

- 
- (١) الضوء اللامع ج ٣ رقم ٧٤٨ وزيادة ص ٢٣ .  
 وكراتشكوفسكى ٤٧٢/٢ .  
 (٢) الكواكب السائرة ١٢٠/١ وكراتشكوفسكى  
 ٤٧٥/٢ .  
 (٣) زيادة ص ٤٦ وكراتشكوفسكى ٤٩٠/٢ ودائرة  
 المعارف الإسلامية .  
 (٤) زيادة ص ٧٥ وتاريخ الأدب الجغرافى العربى  
 لكراتشكوفسكى ٦٨٣/٢ .  
 (٥) كراتشكوفسكى ٦٩٢/٢ .  
 (٦) انظر فيه تاريخ الجينزى ١/٢٢١ - ٢٤٢ وراجع  
 كراتشكوفسكى ٧٥٥/٢ .

سنة أشهر في سنة ١١٤٩ بدأها من موطنه دمياط إلى القدس ، وعُني باختصار كتاب الأنس الجليل في زيارة بيت المقدس والخليل لأبي اليمن مجير الدين الحنبل ، وسمى مختصره « لطائف أنس الخليل في تحاييف القدس والخليل » . وواضح أن الجغرافيين المصريين أخذوا يعنون في العصر العثماني جغرافية الأراضي المقدسة في فلسطين والحجاز .

## ٣

## علوم اللغة والنحو والبلاغة والتقد

أخذت مصر تُعنى بدراسات اللغة والنحو مع عناية مدرستي البصرة والكوفة بهما . مما دفع فيها إلى نشوء طبقة من المؤدبين ، وأخذت هذه الطبقة تتكاثر منذ القرن الثاني للهجرة ، فكانت تلقن الشباب في القسطنطينية والإسكندرية مبادئ العربية ، وانضم إليهم في هذا التلقين بعض العلماء الذين هاجروا إلى الديار المصرية مثل عبد<sup>(١)</sup> الرحمن بن هُرْمَز الأعرج تلميذ أبي الأسود الدؤلي . نزول الإسكندرية المتوفى بها سنة ١١٧ للهجرة . وطبيعي أن يظل نشاط هؤلاء المؤدبين مطردًا طوال القرن الثاني للهجرة ، لسبب واضح هو عناية المصريين بقرآيات القرآن الكريم وضبط ألفاظه لغويا ونحويا . ولمدارستهم لتفسير القرآن الكريم وللفقه ، وسرى فيما بعد نشاطهم الجُم في هذه الميادين . ولم تُعن كتب التراجم بأسماء هؤلاء المؤدبين وإحصائهم ، ولكن لا شك في أنهم كانوا كثيرين . وقد ترجم السيوطي في كتابه البغية لواحد منهم هو سرج الغول الذي لحق زمن الإمام الشافعي حين نزل القسطنطين سنة ١٩٩ وكان عالما باللغة ولم يكن أحدًا بالقسطنطين يظهر شعره إلا بعد عرضه عليه ورضاه عنه ، ويقال إنه كان يذاكر الشافعي في اللغة والشعر ، وإنه كان يعجب بمعارفه ، وروى أنه كان يقول عنه حين يقوم من مجلسه : نحتاج إلى أن نستأنف طلب العلم ، وحسبه تلك الشهادة الرفيعة من الإمام الشافعي . ومن كان يجتمع به الشافعي في القسطنطين من اللغويين عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية المشهورة ، ويقول السيوطي عنه إنه كان إماما في اللغة والنحو والعربية ويذكر أنه كان يتناشد هو والشافعي كثيرا من أشعار العرب<sup>(٢)</sup>

(٢) له كتاب سماه « ما وقع في أشعار السير من الغريب » وانظر مصادر ترجمته في ص ١٥١ .

(١) راجع ابن هرّز في أخبار النحويين البصريين للبرقي ص ٢١ وتذكرة الحفاظ ٩١/١ وطبقات القراء لابن الجزري ٢٨١/٤ وإنباء الرواة ١٧٢/٢ وما به من مراجع .

ويزور محمد بن يحيى اليزيدى مصر في العقد الثاني من القرن الثالث في صحبة المعتصم سنة ٢١٤ ويتخذها دار مقام له حتى وفاته<sup>(١)</sup> ويُحدث بها ضرباً من الثراء في حياتها اللغوية إذ كان لغويًا كبيراً مثل أبيه وأخيه إبراهيم ، وله كتاب المقصور والممدود ، وأغلب الظن أنه روى للمصريين كتاب أبيه : « التوارد في اللغة » وأيضاً كتاب أخيه إبراهيم في اللغة الذي سماه « ما اتفق لفظه وافترق معناه » جمع فيه كل الألفاظ المشتركة في الاسم - كما يقول ابن خلكان - المفترقة أو المختلفة في المعنى ، وهو من الكتب اللغوية الجيدة . ويزور مصر ابن جرير الطبري في العقد السادس من القرن الثالث ، وكان يحفظ ديوان الطرماح فطلب إليه المصريون أن يأخذوه عنه ، فرواه لهم مفسراً غريبه<sup>(٢)</sup> .

ونلتقى في الفسطاط لأواسط القرن الثالث بعالم مصرى لغوى ونحوى كبير هو ولاد<sup>(٣)</sup> التميمى المتوفى سنة ٢٦٣ لعهد الدولة الطولونية ، وكان قد رحل إلى العراق وسمع بها العلماء وأخذ ما عندهم ، ويقال إنه لم يكن بمصر شىء كبير من كتب اللغة والنحو قبله ، ويذكر حفيده أحمد أنه توارث هو وأبوه عنه ديوان رؤبة . مما يدل على عنايته برواية دواوين الشعر القديم ، وخاصة الدواوين التي تكثف بالغريب مثل ديوان رؤبة . ونلتقى بعده بلغوى مصرى معجمى أو من أصحاب المعاجم هو أبو الحسن على<sup>(٤)</sup> بن الحسن الهنأى الأزدي المعروف باسم كراع النمل لقصره ودمامته ، وهو وإن كان دميماً قصيراً فقد كان عالماً لغوياً لا يُشَقُّ غباره ، ألف أربعة معاجم ، ويقول القفطى في ترجمته بإنباه الرواة إنه يملكها جميعاً ، وهى المنصّد في اللغة ، وهو معجم كبير رتبته على الحروف الهجائية ، ومعجم مختصر له سماه الجرّد ، جرده من الشواهد ، ومعجم ثالث لأمثلة المغرب على أوزان الأفعال سماه الأوزان . والمعجم الثلاثة مفقودة . أما المعجم الرابع فسماه المنجّد، قصره على ما اتفق لفظه واختلف معناه أو بعبارة أخرى على المشترك اللفظى ، وهو معجم نفيس ، وقد نشر في القاهرة . والألفاظ المشتركة فيه مرتبة حسب الحروف الهجائية لا حسب مخارج الحروف كما في معجم العين للخليل . ولم تُردّ في ترتيبها إلى أصولها الثلاثية والرباعية كما هو معروف في المعاجم العربية ، بل ترتب حسب صورها اللفظية . وكأنه أراد بذلك اليسر والسهولة ، وتابعه أصحاب المعاجم - باستثناء الأزهرى في معجمه تهذيب اللغة - في

(١) انظر ترجمته في الرواة ٢٣٦/٣ وتاريخ بغداد ٤١٢/٣ .

(٢) معجم الأديب لياقوت ٥٣/١٨ .

(٣) انظر ترجمة ولاد في إنباه الرواة ٣٥٤/٣ .

(٤) راجع ترجمة الهنأى في إنباه الرواة ٢٤٠/٢ .

ومعجم الأديب ١٢/١٣ .

ترتيب الألفاظ حسب الحروف الهجائية مثل الجوهري في الصحاح والزمخشري في أساس البلاغة ، غير أن الجوهري رأى أن يكون الترتيب الهجائي للألفاظ بحسب أواخرها ورأى الزمخشري أن يكون الترتيب بحسب أوائلها مثل كُرَاع النمل .

وتلتحم مباحث اللغة بمباحث النحو أو بعبارة أدق تظل ملتحمة في القرن الرابع على نحو ما يتضح عند أبي العباس أحمد<sup>(١)</sup> بن محمد بن ولاد المتوفى سنة ٣٣٢ وأبي جعفر أحمد<sup>(٢)</sup> بن محمد النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ . أما ابن ولاد فقد خرَّجه أبوه محمد نحويًا ولغويًا ماهرًا ، ولم يكف بما أخذه عن أبيه وبعض العراقيين النازلين بمصر فرحل إلى بغداد ودرس على كبار اللغويين والنحاة بها ، وتسامع به وبزميله أبي جعفر النحاس أهل المغرب والأندلس فرحلوا إليهما يأخذون عنهما ويدرسون . وكان ابن ولاد يضيف إلى دراسته لكتاب سيبويه عرضه دواوين الشعراء القدماء وكان يقول لطلابه : ديوان رؤبة رواية لى عن أبي عن جدي . ونشر مجمع اللغة العربية بدمشق ديوان ذى الرمة ، وسرى عما قليل أن ابن ولاد كان الطريق إلى إحدى روايته ، وبذلك كان يدرس لطلابه في القسطاط أصعب ديوانين عربيين لغويًا ، واشتهر في زمنه بروايته لمعجم العين المنسوب إلى الخليل ، وعنه حملة منذر بن سعيد قاضي الجماعة بالأندلس المشهور . ومن مصنفاته اللغوية كتاب المقصور والمدود ، وهو معجم لها مرتب على الحروف الهجائية مثل كتاب المنجد لكُرَاع النمل ، وكأنه تابعه في ترتيب معجمه تيسيرًا للانتفاع به . أما أبو جعفر النحاس فكان واسع العلم في اللغة والنحو والدراسات القرآنية ، وقد رحل إلى العراق مثل ابن ولاد وحمل عن علمائها علماء كثيرًا ، وكان يعنى في دروسه بشرح الشعر القديم ، إذ فسّر عشرة دواوين منه كان يملئها على طلابه . ومن أهم مصنفاته اللغوية « شرح القصائد التسع المشهورات وتشتمل على المعلقات السبع ، وهي منشورة ببغداد ، ونُشر له كتاب « شرح أبيات سيبويه » وهي أبيات كتابه المشهور . وعلى هذا النحو أخذت مصر تنشط في الدراسات اللغوية ، ونشر بهذا النشاط واضحا حين نزلها المتنبي ، فقد انعقدت له حلقة كبيرة لسماع شعره ، وسرعان ما تكوّنت له بطانة من علماء مصر اللغويين وأدبائها تروى شعره . مثل عبيد الله بن محمد بن أبي الجوع وفيه يقول الثعالبي : « أحد رواة المتنبي الأديباء وأصحابه العلماء ومن تمهر في لغات العرب<sup>(٣)</sup> » ومثل صالح بن

١٠١/١ ومعجم الأديباء ٢٢٤/٤ وابن خلكان ١/٩٩ .

(٣) البيهقي ١/٣٩٥ .

(١) انظر في ترجمة ابن ولاد معجم الأديباء ٤/٢٠١

وإنباه الرواة ١/٩٩ وما به من مراجع .

(٢) راجع في ترجمة أبي جعفر النحاس إنباه الرواة

رُشدين ، وفيه يقول الثعالبي أيضا : « أحد أئمة الكتاب المهرة في سائر الآداب ، صحب المتنبي وروى شعره <sup>(١)</sup> » . وكانت تدور المناقشات أحيانا بين المتنبي وبعض اللغويين ، ولعل ذلك ما جعله يعقد حلقة علمية لقراءة كتاب المقصور والمدود لابن ولاد سنة ٣٤٧ وقد مضى بعلق عليه موضحا ما فيه من الغلط ، وكتب ذلك عنه أبو الحسين علي <sup>(٢)</sup> بن أحمد المهلبى اللغوى المتوفى سنة ٣٨٥ وأضاف إلى ذلك زيادات ونسب الجميع إليه ، على نحو ما يصور ذلك على بن حمزة البصرى فى كتابه « الرد على ما فى المقصور والمدود لابن ولاد »

ويقول ياقوت فى ترجمة المهلبى إنه كان إماما فى النحو واللغة ورواية الأخبار وتفسير الأشعار كما يقول إنه تلميذ إبراهيم التَّجِيمِي كاتب كافور المتوفى سنة ٣٥٥ وكان راوية كبيرا للدواوين والأشعار ، وحملها عنه أبو الحسن المهلبى المذكور آنفاً ، وتلميذ ثان له يسمى جُنَادَة <sup>(٣)</sup> اللغوى ، وسنرى عما قليل أنه كان الطريق إلى إحدى روايات ديوان ذى الرمة ، ولعل فى ذلك ما يدل على أنه شارك بقوة فى رواية الدواوين القديمة ، وبالمثل تلميذه أبو الحسين المهلبى ، وفى المهلبى يقول القفطى : أحد علماء الأدب واللغة والشعر ، روى عنه المصريون وأكثروا .. والرواية عنه إلى زماننا هذا ( أى فى القرن السابع الهجرى ) ووصل للمصريين رواية كتب كثيرة من كتب الأدب . وحوالى منتصف القرن الخامس الهجرى نزل بمصر التبريزى <sup>(٤)</sup> تلميذ أبى العلاء وأقام بها مدة ولعله روى فيها أشعار المعرى كما روى كثيرا من معارفه اللغوية وشروحه على الدواوين والأشعار ، مثل شرحه على المعلىقات والمفضليات وديوان الحماسة وديوان أبى تمام ، وقد مرّ بنا فى الجزء الخامس من هذه السلسلة نشاطه اللغوى الجَمِّ . ومن نزلاء القاهرة المغاربة اللغويين القزاز القيروانى المتوفى سنة ٤١٢ خدم المعز الفاطمى وابنه العزيز وصنف لها كتابا ، وعاد بعد خلافتها إلى بلده ، ومن تصانيفه كتاب الجامع فى اللغة رتبه على حروف المعجم وهو - كما يقول ياقوت - كان يقارب معجم التهذيب للأزهري ، وله كتاب الضاد والظاء وكتاب معان فى شعر المتنبي وكتاب فى المآخذ عليه .

تلميذا للأزهري صاحب معجم التهذيب زوى عن أبى أحمد العسكري كنية ، ونزل مصر وأقام بها حتى توفى سنة ٣٩٩ .  
(٤) انظر فى نزول التبريزى مصر ابن خلكان ٦ / ١٩٣ .

(١) اليتيمة ١ / ٣٩٩ وأخبار مصر فى سنة ٤١٤ ، ٤١٥ ، للمسيحى ( نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ) ص ٩٦ .  
(٢) انظر فى أبى الحسين المهلبى معجم الأوباء ١٢ / ٢٢٤ وانباء الرواة ٢ / ٢٣٢ .  
(٣) انظر ترجمة جُنَادَة فى معجم الأوباء ٧ / ٢٠٩ وكان

وأكبر لغوى بالقاهرة في أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس يوسف<sup>(١)</sup> النجيمى المتوفى سنة ٤٢٣ وهو تلميذ أبى الحسين المهلبى وقد حمل عنه كل ما كان يرويه من كتب الأدب واللغة ودواوين الشعر ، وروى عنه المصريون عامة ما كان يرويه محتفين به لما كان يمتاز به من الدقة فى الضبط اللغوى غاية الضبط إلى أقصى حد ممكن ، وفى ذلك يقول ابن خلكان : « أكثر ما تُروى الكتب القديمة فى اللغة والأشعار العربية وأيام العرب فى الديار المصرية من طريقه » . وكان ما يزال يراجع الروايات المختلفة للكتاب أو للديوان ويقابل بينها حتى يخرجها فى أوثق صورة ممكنة . ومن خير ما يصور هذا العمل المعقد الشاق ديوان ذى الرمة الذى نشره الدكتور عبد القدوس أبو صالح فى مجمع اللغة العربية بدمشق نشرة علمية محققة اعتمد فيها على صغته فيه ، إذ أخرجه فى صورة محكمة على أساس روايتين علميتين ، ولكل رواية طريقان . أما الرواية الأولى فمن ثعلب عالم الكوفة المشهور وطريقها الأول أبو الحسين على بن أحمد المهلبى أستاذه عن ابن ولاد ، وطريقها الثانى جعفر<sup>(٢)</sup> بن شاذان اللغوى البصرى نزىل القاهرة عن أبى عمر الزاهد غلام ثعلب . والرواية الثانية عن إبراهيم بن المنذر المتوفى سنة ٢٣٦ عن أسود بن صَبَّحان عن ذى الرمة ، وطريقها الأول أبو الحسين على بن أحمد المهلبى عن إبراهيم النجيمى . وطريقها الثانى أبو عمران بن رباح أستاذ أبى يعقوب النجيمى عن إبراهيم النجيمى . ولعل فى ذلك ما يوضح مدى عناية أبى يعقوب يوسف النجيمى بإخراج الدواوين للمصريين وإحكام صنعها إحكاماً لا يكاد يفوقه إحكام ، وكان يعمم هذا الإحكام فى كل مارواه من الدواوين وكتب اللغة .

ويحمل أصحاب يوسف النجيمى عنه كتب اللغة ودواوين الشعراء . ويخلفهم عليها تلاميذهم فى القرن الخامس ومن تعهدوهم من علماء القرن السادس ، ويتردد هذا النشاط اللغوى بمصر . ويزورها غير عالم لغوى من البلاد العربية ويستقرون بها ، وفى مقدمتهم على<sup>(٣)</sup> بن جعفر السعدى الصقلى المعروف باسم ابن القطاع ، نشأ بصقلية وقرأ الأدب واللغة على علمائها وخاصة ابن البرِّ اللغوى ، ورحل عن صقلية لما أشرف النورمان على تملكها فى حدود سنة ٥٠٠ ونزل القاهرة

٢٦٥/١ .

(٣) انظر فى ابن القطاع معجم الأدباء ١٧/ ٢٧٩ وابن

خلكان ٣٢٢/٣ وإنباه الرواة ٢/ ٢٣٦ وما به من مراجع .

(١) راجع فى ترجمة يوسف النجيمى ابن خلكان

٧٥/٧ وبغية الوعاة والأنساب للسعدي فى النجيمى

والشعرات ٣/ ٧٥ وغير النهى ٢/ ٣٥٨ .

(٢) انظر فى ترجمة جعفر بن شاذان إنباه الرواة

واتخذها دار مقام له وتصدر فيها للإفادة حتى توفي سنة ٥١٥ وأكرمه المصريون غاية الإكرام واتخذه الأفضل بن بدر الجمالي وزير الخليفة الأمر الفاطمي معلما لولده ، ومن طريقه اشتهرت في الآفاق رواية معجم الصحاح للجوهري ، كان قد أخذها عن أستاذه ابن البرّ في صقلية ، وله عدة تصانيف لغوية ، منها كتاب الأسماء في اللغة ، وكتاب الأفعال عُني بنشره مجمع اللغة العربية في القاهرة .

ويتكاثر اللغويون بمصر من علمائها والعلماء النازلين بها بعد ابن القطاع ، وأشهرهم غير مدافع ابن برّي<sup>(١)</sup> عبد الله المصري المولد والمنشأ المولود سنة ٤٩٩ وفيه يقول ابن خلكان : « الإمام المشهور في علم النحو واللغة والرواية والدراية كان علامة عصره وحافظ وقته ونادرة دهره » . ويذكر ابن خلكان أنه رأى له « حواشي على درة الغواص في أوهام الخواص » للحريري ، وأن له كتابا لطيفا في أغاليط الفقهاء . وقد كتب ردّا على أبي محمد بن الخشاب ، ردّ فيه على كتابه الذي عدّد فيه غلط الحريري في المقامات ، وطُبع هذا الرد ملحقا بمقامات الحريري مع نقد ابن الخشاب بالمطبعة الحسينية بالقاهرة . ومن أهم مصنّفاته حواشٍ على معجم الصحاح للجوهري سماها « التنبيه والإفصاح عما وقع في كتاب الصحاح » يقول ابن خلكان : « وهي حواشٍ فائقة أتى فيها بالغرائب ، واستدرك عليه فيها مواضع كثيرة ، وهي دالة على سعة علمه وغزارة مادته وعظم اطلاعه » وهي من الكتب الخمسة التي ذكر ابن منظور في مقدمة لسان العرب أنه اعتمد عليها في تأليف معجمه اللسان . وتوجد منه مخطوطات تعين على نشره حتى مادة وقش ، وقد نُشر هذا القسم منه في جزءين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ويمكن استخراج بقيته من لسان العرب . ولا ابن برّي أيضا حواشٍ على كتاب المعرب من الكلام الأعجمي للجواليقي ، ومن آرائه الطريقة أنه ينبغي المحافظة على نطق الكلمات الأعجمية حين تعريبها وإدخالها في العربية بجميع حروفها وحركاتها الخاصة . وقد عاش حقبة طويلة في زمن الدولة الأيوبية إذ توفي سنة ٥٨٢ . ومن أهم تلاميذه اللغويين سليمان<sup>(٢)</sup> بن بنين الدقيق المتوفى سنة ٦١٤ وله مصنّفات لغوية مختلفة ، منها كتاب الوضاح في شرح أبيات الإيضاح لأبي علي الفارسي وكتاب إغراب العمل في شرح أبيات كتاب الجمل للزجاجي ، وأهم من هذين الكتابين كتابه : « اتفاق المباني واقتراق المعاني في اللغة »

(٢) انظر ابن بنين في معجم الأدباء ١١/٢٤٤ وفي بقية الوعاة ٢٦١ .

(١) راجع في ابن برّي معجم الأدباء ٥٦/١٢ وابن خلكان ١٠٨/٣ وإنباه الرواة ١١٠/٢ وشدرات الذهب

ومنه مخطوطتان بدار الكتب المصرية . وله كتب عدة في العروض ، منها كتاب الروض الأريض في أوزان القريض . والكتاب الوافي في علم القوافي .

وظل هذا النشاط اللغوي ينمو بمصر ويتسع نموه طوال القرن السابع الهجري وزمن الأيوبيين والمماليك إلى أن تُوِّج بكتاب لسان العرب لابن<sup>(١)</sup> منظور المتوفى سنة ٧١١ وهو مطبوع في عشرين مجلداً . وهو أكبر معجم لغوي عربي ظهر في الأزمنة الماضية ، وقد أتم مؤلفه تصنيفه سنة ٦٨٩ للهجرة . وذكر في مقدمته أنه جمع فيه بين معجم التهذيب للأزهري ومعجم الصحاح للجوهري والمعجم المعروف باسم المحكم لابن سيده وحواشي الصحاح لابن بري والنهاية في غريب الحديث النبوي لابن الأثير . وهو معجم تنوء به الجماعة أولو القوة ، ولابن منظور بجانبه مصنفات كثيرة من أهمها مختصر الأغاني .

ويظل لمصر نشاط لغوي غزير بعد ابن منظور ، وتظل لها مشاركة في وضع المعاجم لا العاجم اللغوية فقد كفاها ابن منظور المثونة في ذلك فحسبها معجمه ، بل في وضع المعاجم المتخصصة مثل المصباح المنير في غريب الشرح الفقهى الكبير للرافعي صنفه أحمد<sup>(٢)</sup> بن محمد الفيومي المتوفى سنة ٧٧٠ وهو ليس في ألفاظ الإمام الرافعي الشافعي فحسب ، بل هو يتضمنها ويتضمن بصفة مختصرة ألفاظ العربية في عرض حسن ، وألحق به خاتمة كثيرة الفوائد اللغوية .

وما يزال النشاط اللغوي الخالص في مصر يزداد حتى يبلغ ذروة رفيعة عند جلال الدين عبد الرحمن<sup>(٣)</sup> السيوطي المتوفى سنة ٩١١ للهجرة وهو أغزر العلماء المصريين زمن المماليك بعامة تأليفاً وتصنيفاً في جميع الميادين الإسلامية واللغوية ، ومن خير مصنفاته اللغوية بل من خير المصنفات اللغوية في جميع الحقب بمصر وغير مصر كتابه « المزهر في علوم اللغة وأنواعها » وهو مطبوع مراراً بالقاهرة ، وفيه يعرض كل ما اتصل باللغة من علوم وضعت لمعرفة الصحيح وغير الصحيح والعرب والمولد والاشتقاق والمشارك والأضداد والمترادف والقلب والنحت والإتباع والإبدال وغير ذلك من علوم اللغة ومسائلها الدقيقة . وأهم من ذلك كله أنه حاول محاولة خصبة

الكتب الحديثة) ١/ ٣٣٤ .

(٣) انظر مصادر ترجمة السيوطي مع الحديث عنه ص

(١) راجع ابن منظور في نكت الهميان ص ٢٧٥ والدرر

الكاملة ٥/ ٣١ وحسن المحاضرة ١/ ٥٣٤ والبقية ص ١٠٦

وفرات الوفيات ٢/ ٥٢٤ والوافي ٥٤/ ٥ والشذرات ٢٦/ ٦ .

(٢) انظر الفيومي في الدرر الكاملة لابن حجر (نشر دار

أن يطبق علم مصطلح الحديث وما وضع فيه لروايته من أصول على اللغة وروايتها ، ويفيض في ذلك إفاضة واسعة ، ففي ألفاظ اللغة - كالحديث النبوي - متواتر وآحاد ومرسل ومنقطع وضعيف ومنكر ومتروك ومطرود وشاذ . ويتحدث عن تَقْبُلِ روايته ومن تُرُدُّ ، وعن معرفة طرق أخذ اللغة وتحملها وعن المنتحل المصنوع في اللغة وأشهر من نحل الشعر وأفسده . والكتاب فريد في بابيه ومباحثه . ونمضى بعد السيوطي في زمن العثمانيين ، ويظل لعلماء اللغة في مصر نشاطهم . ومن خير من يمثلهم شهاب<sup>(١)</sup> الدين الحفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ ومن مؤلفاته الرائعة كتابه « شفاء الغليل بما في كلام العرب من الدخيل » وقد صدره بمقدمة تحدث فيها عن التعريب وشروطه ، وله شرح على درة الغواص في أوام الخواص للحريزي . وتظل مصر مع ما أصابها زمن الاحتلال العثماني حاملة مشاعل الثقافة العربية في اللغة وغير اللغة ، وينزلها كثيرون من علماء الديار العربية ، ومن نزلها - كما مر بنا في الجزء الخامس من هذه السلسلة - السيد مرتضى الزبيدي اليمنى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م إذ اتخذها دار مقام له سنة ١١٦٧ . حتى لبى نداء ربه ، وأكرمه المصريون وعلماءها ، وعكف منذ نزوله على شرح القاموس المحيط للفيروز آبادي . وما زال عاكفا على عمله حتى أتمه سنة ١١٨١ وهو مطبوع في عشر مجلدات ، وقد سماه باسم « تاج العروس » . وهو يتلو لسان العرب في كبر حجمه ، وفي الجبرق تقاريط كثيرة للمصريين فيه . وكأنه أتيح لمصر أن تضع أكبر معجمين للعربية : اللسان في زمن الماليك وتاج العروس في زمن العثمانيين ، كما أتيح لها أن تضع أكبر دائرة معارف في المباحث اللغوية ونقصد كتاب المزهرة للسيوطي .

ومررنا في صدر هذا الحديث أنه كانت بمصر طبقة من المؤدبين أخذت تتكاثر في القرنين الثاني والثالث ، وكانت تعلم الناشئة اللغة والنحو ، ومنذ أواسط القرن الثالث يصحح لمصر نحاتها من أبنائها ونزلاتها في مقدمتهم ولاد التميمي الذي مر ذكره في اللغويين ، وكان نحويا كبيرا كما كان لغويا كبيرا ، وكان يعاصره أحمد<sup>(٢)</sup> بن جعفر الدينوري نزير القسطنطيني المتوفى سنة ٢٨٩ هـ وقد درس على المازني بالبصرة كتاب سيبويه ولما استوطن مصر واستقر بها صنف لطلابه كتابا في النحو سماه المهذب ، وعنه حملة المصريون . ويلقانا في زمنه محمد<sup>(٣)</sup> بن ولاد آف الذكر المتوفى سنة ٢٩٨ هـ

(٣) راجع محمد بن ولاد في تاريخ بغداد ٣/ ٣٣٢

ومعجم الأدباء ١٩/ ١٠٥ وإنباه الرواة ٣/ ٢٢٤ وما به من مراجع .

(١) انظر مصادر ترجمة الحفاجي ص ٤٥٩ .

(٢) انظر الدينوري في معجم الأوباء ٢/ ٢٣٩ وإنباه

الرواة ١/ ٣٣ وما به من مراجع .

وقد أخذ كل ما عند أبيه وعند أبي جعفر الدينوري ، ورحل إلى بغداد وقرأ على المبرد كتاب سيبويه وعاد إلى القسطنطينية يدرس النحو ، وصنف لطلابه كتاباً سماه المنقح . ونزل القسطنطينية في سنة ٢٨٧ الأبخش<sup>(١)</sup> الصغير على بن سليمان ، وظل بها حتى سنة ٣٠٠ للهجرة ، يعلم الطلاب النحو واللغة ، وله شرح على كتاب سيبويه ، لعله أملاه بمصر . ونمضى في القرن الرابع الهجري فيلقانا أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد المار ذكره ، وكان نحويًا كبيرًا كما كان لغويًا كبيرًا وإليه صارت نسخة أبيه من كتاب سيبويه التي قرأها على المبرد ، وله كتاب « الانتصار لسيبويه من المبرد » وفيه يرد على المبرد ما نقد به سيبويه في كتابه الذي سماه « مسائل الغلط » . وله آراء<sup>(٢)</sup> نحوية طريفة . وكان يعاصره كما مر بنا أبو جعفر النحاس اللغوي والنحوي الكبير . وكان يمزج في كتبه النحوية بين آراء البصريين والكوفيين وأحيانًا ينفذ إلى آراء اجتهادية جديدة مما يجعله بحق طليعة<sup>(٣)</sup> المدرسة البغدادية في مصر كما يتضح من كتابه الصغير « التفاحة في النحو » وكتابه الكبير الرائع النفيس : « إعراب القرآن » . ويبدو أن اسمه واسم معاصره ابن ولاد طار إلى المغرب والأندلس فرحل إليها كثيرون من الطلاب يأخذون عنها ، ومر بنا أن منذرين سعيد قاضي الجماعة بالأندلس حمل عن ابن ولاد كتاب العين للخليل بن أحمد ، فصره في الأندلس والمغرب . وحمل محمد بن يحيى الرباحي عن أبي جعفر النحاس كتاب سيبويه رواية ودراسة ودرسه<sup>(٤)</sup> لطلابه بقرطبة ، وشاعت رواية هذه النسخة بحيث أصبحت أم الدراسات النحوية في الأندلس وما رافقها هناك من نهضة في النحو ومباحثه .

وأول نحوي كبير يلقانا في زمن الفاطميين الحوفي<sup>(٥)</sup> على بن إبراهيم المتوفى سنة ٤٣٠ تصدّر لإقراء النحو وصنف فيه كتاباً كبيراً استوفى فيه - كما قال من ترجموا له - العلل والأصول . وله مصنفات أصغر منه في النحو اشتغل بها المصريون ، وله في إعراب القرآن كتاب في عشرة مجلدات ، ويبدو مما نقله عنه ابن هشام من آراء نحوية أنه كان بغدادياً<sup>(٦)</sup> الترعنة يختار بعض آراء البصريين والكوفيين ويحاول التفوذ إلى بعض آراء جديدة . وكان يعاصره التاكر<sup>(٧)</sup> النحوي

(٥) انظر الحوفي في الأصبهان للسعدي الورقة ١٨١  
ومعجم الأقباء ١٢ / ٢٢١ وابن خلكان ٣ / ٣٠٠ وإنباه  
الرواة ٢ / ٢١٩ والشفرات ٣ / ٢٤٧ .  
(٦) المدارس النحوية ص ٣٣٤ .  
(٧) إنباه الرواة ٢ / ٨ .

(١) انظر الأبخش الصغير في تاريخ بغداد ٤٣٣ / ١٢  
وابن خلكان ٣ / ٣٠١ ومعجم الأقباء ١٣ / ٤٦١ وإنباه  
الرواة ٢ / ٢٧٦ .  
(٢) انظر كتابها للمدارس النحوية ص ٣٣٠  
(٣) المدارس النحوية ص ٣٣٢ .  
(٤) إنباه الرواة ٣ / ٢٣٠ .

المصرى تلميذ ابن جنى المتوفى سنة ٤٤٠ وكان يتصدّر لإقراء العربية ، وأغلب الظن أنه حمل إلى المصريين كتب أستاذه ابن جنى فأخذوا يدرسونها مبكرين . وأنجبت مصر حينئذ نحويا كبيرا هو ابن بابشاذ<sup>(١)</sup> طاهر بن أحمد المتوفى سنة ٤٦٩ وكان قد رحل إلى بغداد وأخذ عن علماءها ونحاتها وعاد فتصدر للإقراء بجمع عمرو بن العاص في القسطنطينية وكان يُسند إليه الإشراف على تحرير الكتب الصادرة عن ديوان الإنشاء الفاطمي إلى الأطراف ، وله في النحو كتب سارت - كما يقول القفطي - مسير الشمس ، منها المقدمة في النحو وشرحها ، وهو منشور بالكويت نشرة جيدة . ومن مصنفات ابن بابشاذ شرح كتاب الجمل للزجاجي أحد أئمة النحو البغدادى ، وله كتاب سماه المحتسب في النحو وشرح على كتاب الأصول لابن السراج ، وكانت له تعليقة كبيرة في النحو في خمسة عشر مجلدا . وكان يتزعج البغداديين<sup>(٢)</sup> في الانتخاب من آراء الكوفيين والبصريين ومحاولة الإدلاء بآراء جديدة . وخلفه على التصدّر لإقراء النحو تلميذه محمد<sup>(٣)</sup> بن بركات المتوفى سنة ٥٢٠ وكانت له في النحو تصانيف مختلفة كما كان إليه التصفح في ديوان الإنشاء الفاطمي وأكبر نحاة مصر في أوائل زمن الفاطميين وأوائل زمن الأيوبيين ابن برى<sup>(٤)</sup> الذي أسلفنا الحديث عنه بين اللغويين ، وكان يتصدر لإقراء النحو واللغة بجامع عمرو ، وطارت شهرته في الأقطار ، فقصدته الطلاب من كل بلد وفي مقدمتهم عيسى الجزولي نحوى المغرب والأندلس ، وقد تون عنه في أثناء شرحه لكتاب الجمل للزجاجي مقدمته المعروفة بالجزولية ، وكان يقول إنها من نتائج خواطر ابن برى وتلاميذه ، واهتم بها النحاة وشرحوها مرارا ، وهو بغدادى<sup>(٥)</sup> الترعقة في النحو مثل أستاذه ابن برى وغيره من نحاة المصريين لزمه . وخلف ابن برى في إقراء النحو تلميذه سليمان بن بنين ، ومرّ بنا بين اللغويين ، وله في النحو شرح على سيبويه سماه « لباب الأكياب في شرح الكتاب » . ونزل مصريجي<sup>(٥)</sup> بن مُعطى المغربي الدمشقي المتوفى سنة ٦٢٨ واستقر بها وتصدر بجامع عمرو لإقراء الطلاب النحو ، وله مصنفات مختلفة في النحو منها ألفية كالفية ابن مالك وكتاب العقود والقوانين في النحو ، وكتاب الفصول ، وحواش على أصول ابن السراج ، وشرح

وإنباء الرواة ٧٨/٣ والشنرات ٦٢/٤ ورمّة الختان

٣/٢٢٥ والبنية ص ٢٤ .

(٤) المدارس النحوية ص ٣٠١ ، ٣٣٨ .

(٥) انظر ابن سبّاطي في معجم الأدباء ٣٥/٢٠

والبنية ٤١٦ والشنرات ٢٩/٥ وتاج التراجم ٨٣ .

(١) انظر ابن بابشاذ في معجم الأدباء ١٧/١٢ وإنباء

الرواة ٩٥/٧ وابن خلكان ٥١٥/٢ والشنرات ٣/٣٣٣

ورمّة الختان ٩٨/٣ والبنية ص ٢٤ .

(٢) للمدارس النحوية ص ٣٣٦ .

(٣) راجع محمد بن بركات في معجم الأدباء ١٨/٣٩

على الجمل . وكان يعاصره ابن الرماح على <sup>(١)</sup> بن عبد الصمد المتوفى سنة ٦٣٣ تصدّر لإقراء النحو وله فيه مجموع يتردد ذكره في كتاب الأشباه والنظائر للسيوطي . وولتقى بعلي <sup>(٢)</sup> بن محمد السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣ وله شرحان على كتاب المفصل للزمخشري ، واسمه يتكرر في كتاب الأشباه والنظائر . وأهم النحاة المصريين حينئذ بلا منازع ابن الحاجب <sup>(٣)</sup> عثمان بن عمر المتوفى سنة ٦٤٦ كان أبوه حاجبا لبعض الأمراء فغلبت عليه النسبة إلى وظيفته . وله كتب كثيرة في الفقه المالكي والأصول والعروض ، وله في النحو كتاب الأمل ، وكتابه الكافية في النحو والثافية في الصرف طارت شهرتها في العالم الإسلامي ، وتعلق العلماء بدرسها للطلاب في كل مكان ، وكثرت عليها الحواشي والشرح كثرة مفرطة ، ومن أهم شروحها شرح الرضي الإسترابادي . وينزع ابن الحاجب في كتاباته النحوية منزع المدرسة البغدادية <sup>(٤)</sup> ، فهو ينتخب من آراء المدرستين البصرية والكوفية ويضيف إليهما آراء اجتهادية تدل على حسن بصره وبالغ دقته وحدة ذكائه .

وتزدهر الدراسات النحوية في زمن الماليك ، وولتقى في أوائله بأمين الدين المحلي <sup>(٥)</sup> محمد بن علي المتوفى سنة ٦٧٣ تصدّر لإقراء النحو وانتفع به الناس ، وله تصانيف مختلفة في النحو والعروض . وكان يعاصره بهاء الدين <sup>(٦)</sup> بن النحاس الحلبي الأصل المتوفى سنة ٦٩٨ ، نزل مصر وأخذ عن شيوخها ولم يلبث أن تصدّر لإقراء العربية ، وعليه تتلمذ أبو حيان الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥ حين نزوله مصر سنة ٦٧٩ وله مصنفات مختلفة ، من أهمها شرح على المقرب لابن عصفور . وأبو حيان <sup>(٧)</sup> هو أهم تلاميذه ، فقد لزمه وأخذ عنه كتبه ، وتصدّر لتدريس النحو في جامع الحاكم بالقاهرة وله شروح كثيرة على أمهات الكتب النحوية مثل الكتاب لسبويه والمقرب والممتع لابن عصفور والتسهيل لابن مالك وأيضا له شرح على ألفيته ، ويحانب ذلك له مصنفات نحوية مستقلة أهمها ارتشاف الضرب أي غسل النحو ، ويغلب عليه متابعة البصريين <sup>(٨)</sup> ويتصدى

- (١) راجع ابن الرماح في البقية ص ٣٤١ .  
 (٢) انظر العلم السخاوي في معجم الأدياء ٦٥/١٥  
 وابن خلكان ٣٤٠/٣ وإنباه الرواة ٣١١/٢ والبقية  
 ص ٣٤٩ وطبقات القراء ٥٦٨/١ والسبكي ٢٩٧/٨ وحسن  
 المحاضرة ٤١٢/١ .  
 (٣) راجع ترجمة ابن الحاجب في ابن خلكان  
 ٢٤٨/٣ وطبقات القراء ٥٠٨/١ وطبقات الذهبي ٢٠١/٢  
 والديباج لابن فرحون ص ٣٧٢ والشذرات ٢٣٤/٥ والبقية  
 ص ٣٢٣ وبر وكلان ٣٠٨/٥ .  
 (٤) المدارس النحوية ص ٣٤٣ وما بعدها .  
 (٥) حسن المحاضرة ٥٣٣/١ .  
 (٦) بقية الوعاة ص ٦ .  
 (٧) انظر أبا حيان في الدرر الكامنة لابن حجر  
 ٣٠٢/٤ والبقية ص ١٢٦ ونكت الهيماني ص ٢٨٠  
 وطبقات الشافعية للسبكي ٢٧٦/٩ وطبقات القراء ٢/٢٨٥  
 وفوات الوفيات ٥٥٥/٢ والشذرات ١٤٥/٦ ونفح الطيب  
 (طبعة دوزي) ٨٢٣/١ .  
 (٨) المدارس النحوية ص ٣٢١ وما بعدها .

كثيرا في مؤلفاته لابن مالك وآرائه ، وقد تخرج به جيل من النحاة المصريين لزمه . ومن أهم تلاميذه ابن أم قاسم<sup>(١)</sup> الحسن بن قاسم المتوفى سنة ٧٤٩ وأم قاسم جدته لأبيه نُسب إليها . وله شروح على مفصل الزمخشري وتسهيل ابن مالك وألفيته . وخرجت مصر حيثُذ أكبر نحاتها ابن هشام<sup>(٢)</sup> جمال الدين عبد الله بن يوسف المتوفى سنة ٧٦١ وقد طارت شهرته في العربية وقصده الطلاب من كل فجّ ، وبلغ من إعجاب معاصريه به أن قالوا إنه أنحى من سيويه ، وله مصنفات نحوية كثيرة من أهمها «مغنى اللبيب عن كتب الأعراب» وهو في جزءين : جزء خاص بالحروف والأدوات وجزء خاص بالجمل ، بثّ فيه كثيرا من القواعد الكلية والملاحظات الدقيقة . وله كتاب «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» وكتاب «شدور الذهب» وكتاب «قطر الندى» وكل هذه الكتب مطبوعة مرارا وتكرارا . وهو يتهج في النحو منهج المدرسة البغدادية . وكان يعاصره ابن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٦٩ ومن أهم مصنفاته شرحه على الألفية . وهو مشهور . وولتقى في القرن التاسع الهجري بالدمايني<sup>(٤)</sup> الإسكندري المتوفى بالهند سنة ٨٣٧ تصدّر لإقراء النحو بالإسكندرية ثم بالجامع الأزهر ، وله حاشية على المغنى لابن هشام . وفيها يتحامل عليه تحاملا شديدا مما جعل الشُّمْنَى الإسكندري المتوفى سنة ٨٧٢ يتعقبه في حاشية له على المغنى ، والحاشيتان مطبوعتان معا . وولتقى بعدهما<sup>(٥)</sup> بالكافيجي محمد بن سليمان الرومي المتوفى سنة ٨٧٩ وله مختصرات نحوية مختلفة . ومن أهم النحاة حيثُذ الشيخ خالد<sup>(٦)</sup> الأزهرى المتوفى سنة ٩٠٥ تصدر لإقراء الطلاب في الأزهر فُنسب إليه ، وله مصنفات نحوية مختلفة منها «المقدمة الأزهرية في علم العربية» وشرح عليها ، وهما مطبوعان ، وله شروح على مصنفات نحوية متعددة أهمها شرحه : «التصريح على التوضيح» لابن هشام . وكان يعاصره السيوطي وكان نحويا كبيرا كما كان لغويا كبيرا ، وله في كلييات النحو كتاب «الأشباه والنظائر» في أربعة مجلدات . وفيه طبق

والشذرات ١٨١/٧ والبغية ص ٢٧ والدر الطالع

١٥٠/٢

(٥) انظر الكافيجي في الضوء اللامع ج ٧ رقم ٦٥٥

والبغية ص ٤٨ وشذرات الذهب ٣٢٦/٧

(٦) راجع الشيخ خالد في الضوء اللامع ج ٢ رقم

٦٦١ وشذرات الذهب ٢٦/٨ والكواكب السائرة

١٨٨/١ والمخطوط الجديدة لعل مبارك ٥٣/١٠

(١) البغية ص ٢٢٦

(٢) انظر ابن هشام في الدرر الكامنة ٣٠٨/٧

والشذرات ١٩١/٦ والبغية ص ٢٩٣ والدر الطالع ٤٠١/١

وكتابتنا «المدرس النحوية» ص ٣٤٦

(٣) راجع ابن عقيل في الدرر الكامنة ٣٧٢/٢

والبغية ص ٢٨٤ والشذرات ٢٠٤/٦ والدر الطالع ٣٨٦/١

وكتابتنا «المدارس النحوية» ص ٣٥٥

(٤) انظر الدمايني في الضوء اللامع ج ٧ رقم ٤٤٥

على قواعد النحو الكلية منهج الفقهاء في كتاباتهم عن الأشباه والنظائر في الفقه ، وهو كتاب نفيس ، وقد طبع بجيدر آباد . وله كتاب الاقتراح وهو مختصر لطيف في أصول النحو ألفه على هدى كتاب الخصائص لابن جنى كما يقول في مقدمته . وله في النحو والتصريف كتاب همع الهوامع في مجلدين ضخمين ضمَّ فيه خلاقات النحاة وآراءهم . وهو دائرة معارف نحوية وصرفية بديعة .

ويلقانا في أوائل زمن العثمانيين الأشموني<sup>(١)</sup> على بن محمد المتوفى سنة ٩٢٩ للهجرة ومن أهم مصنفاته النحوية شرحه على ألفية ابن مالك . وهو يعرض فيه بدقة آراء النحاة المختلفين ، وهو مثل شرح ابن عقيل على الألفية من أشهر كتب النحو المتداولة . ويستمر نشاط علماء النحو طوال أيام العثمانيين . ومن أشهرهم في القرن الحادى عشر الشنوانى المتوفى سنة ١٠١٩ والدنوشرى المتوفى سنة ١٠٢٥ ، وينزل القاهرة عبدالقادر<sup>(٢)</sup> البغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ ومن مؤلفاته : « خزنة الأدب » وهى شرح لشواهد شرح الكافية فى أربعة مجلدات ، وعادة يذكر مع الشواهد شعراءها ويترجم لهم ، وبذلك أحال خزانته إلى دائرة معارف لشعراء العربية فى الجاهلية وصدرا الإسلام ، ونمضى إلى القرن الثانى عشر فيلقانا الحفى المتوفى سنة ١١٨١ ومحمد الأمير المتوفى سنة ١١٨٨ وله حاشية على المعنى . وهى مطبوعة . ولا نلبث أن نلتقى بالشيخ حسن الكفراوى<sup>(٣)</sup> المتوفى سنة ١٢٠٢ صاحب شرح الأجرومية المشهور . وملتقى بالصبان<sup>(٤)</sup> محمد بن على المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م صاحب حاشيته المشهورة على شرح الأشموني ، وهى أشبه بدائرة معارف نحوية ، وترمز بقوة إلى استمرار النشاط النحوى بمصر حتى نهاية أيام العثمانيين .

وإذا تركنا علمى النحو واللغة إلى علوم البلاغة والنقد . رأينا مصر تتأخر فى أفراد العلوم البلاغية بمصنفات خاصة بها . وأول كتاب بحده يعنى بمباحث البلاغة كتاب لابن وكيع التنيسى المتوفى سنة ٣٩٣ سماه المنصف<sup>(٥)</sup> فى بيان سرقات المتن . وهو بذلك أدخل فى مباحث النقد .

(٣) تاريخ الجبرق ١٦٥/٢ .

(٤) تاريخ الجبرق ٢٢٧/٢ والمخطط التوفيقية ٣٠٦/٣ .

(٥) انظر فى هذا الكتاب تاريخ النقد الأدبى عند

العرب لإحسان عباس ص ٢٩٤ . وقد نشره بدمشق

الدكتور محمد رضوان الداية .

(١) انظر الأشموني فى الضوء اللامع ٥/٦

وشفرات الذهب ١٦٥/٨ والبدر الطالع ٤٩١/١ وفيه

أنه توفى سنة ٩١٨ .

(٢) انظر فى عبدالقادر البغدادى خلاصة الأثر

٤٥١/٢ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

غير أنه جعل بين يديه مبحثين : مبحثاً في السرقات الشعرية عامة ، ومبحثاً في فنون البديع ، وهو فيه يذكر أولاً مصطلحاته التي دونها ابن المعتز في كتاب البديع ثم يذكر ما أضافه قدامة في نقد الشعر ، ويستمد من كتاب ثالث لا يسمى صاحبه ، وربما كان كتاب حلية المحاضرة للحاتمي . والكعب الثلاثة فعلاً أهم كتب ألفت في البديع قبله . وكأن مصر إن كانت قد تأخرت في وضع المباحث البلاغية فإنها لم تقصر في الاطلاع على ما وضعت العراق منها حتى زمن ابن وكيع ، وظلت تُعنى بعده بالاطلاع على مباحث العراقيين وغير العراقيين حتى نهاية زمن الفاطميين . تدل على ذلك كتابات علي بن منجب الصيرفي المتوفى سنة ٥٤٢ هـ وإذ نراه في كتابه : قانون ديوان الرسائل يتحدث عن البلاغة حديثاً سريعاً وعرض في بعض رسائله لفنى الجناس والتورية من فنون البديع .

ولعل أول كتاب بلاغى ألف في مصر بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة كتاب غرائب التشبيهات على عجائب التشبيهات لعل<sup>(١)</sup> بن ظافر الأزدي المصري المتوفى سنة ٦٢٣ . وسبقته في نفس الموضوع كتب أخرى من أهمها كتاب التشبيهات لابن أبي عون وقد عرضنا له في الجزء السابق من هذه السلسلة ، وقد توفى سنة ٣٢٣ . ويذكر ابن ظافر في مقدمة كتابه أنه قدمه للملك الأفضل على بن صلاح الدين سنة ٥٨٧ في حياة أبيه ، وهو منشور بالقاهرة . وجعله ابن ظافر في ستة أبواب : أولها في تشبيه الأجرام العلوية والثاني في تشبيه المياه والأنهار والثالث في تشبيه الأنوار والأثمار والنبات والرابع في التشبيه الواقع في الخمريات والخامس في التشبيه الواقع في الغزل والسادس في تشبيهات مختلفة . والكتاب يجمع طرف التشبيه في هذه الموضوعات المتنوعة ، وخاصة تلك التي دارت على ألسنة المحدثين من شعراء مصر والشام والعراق والمغرب والأندلس ، واستعان في ذلك بكتب الأدب العامة مثل البيهية للثعالبي والخريدة للعماد الأصبهاني . ونعجب إذ نرى شعراء العالم العربي معروضين في الكتاب مع فرائدهم في التشبيه ، غير أن العجب يزول إذا عرفنا ما أكدناه مراراً من أن العالم العربي كانت تسوده وحدة جعلت آثاره الأدبية والعلمية وكأنها آثار كل بلد من بلدانه ، مما جعل دواوين الشعراء تُداول في أوسع نطاق ، بحيث لم يكن يظهر شاعر في بلدة وينال شيئاً من الشهرة حتى تتناقل ديوانه وأشعاره البلدان العربية المختلفة . ويلقانا

(١) انظر على بن ظافر في معجم الأدباء ١٣ / ٢٦٤

وفرات الوفيات ١٠٦ / ٢ .

بعد ابن ظافر عبد الرحيم<sup>(١)</sup> بن شيث المتوفى سنة ٦٢٥ ونراه في كتابه « معالم الكتابة ومقام الإصابة » يعقد فصلا للبلاغة يعرض فيه للإيجاز والمساواة واختيار الألفاظ والسجع وبعض فنون البديع . ويتلوه العزيز عبد السلام الإمام الشافعي المشهور نزيل القاهرة سنة ٦٤٠ وقد ظل فيها علما كبيرا في الفقه الشافعي وغيره ، وله كتاب منشور سماه الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، وهو بذلك كتاب في علم البيان ، وقد قصره على إحصاء دقيق لأمثلة أنجاز في الذكر الحكيم . عُني فيه بالأمثلة أكثر مما عني بالقواعد وتفاريحها الكثيرة المعروفة في علم البيان . وأهم من العزيز عبد السلام في ميدان التأليف بمصر في البلاغة وفنون البديع معاصران له هما أحمد بن يوسف التيفاشي المغربي الجزائري نزيل مصر المتوفى سنة ٦٥١ وابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤ . أما التيفاشي فذكرنا عنه في غير هذا الموضع أنه نزل مصر في باكورة شبابه وأنها تعهدته حتى أصبح عالما لا يُشَقُّ غباره في التاريخ الطبيعي والجيولوجيا وكان أديبا وعُني بالتأليف في البديع وألّف فيه كتابا أحصى فيه سبعين محسنا من المحسنات البديعية ، وسقط الكتاب من أيدي الزمن . أما ابن أبي الإصبع فبعد أكبر بلاغي ظفرت به مصر في القرن السابع الهجري ، وله كتابان : تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، وكتاب بديع القرآن . والكتابان جميعا في دراسة البديع وألوانه في الشعر والنثر وآي القرآن الكريم ، وواضح من عنوان ثانيهما أنه خاص ببديع الذكر الحكيم ، والكتابان منشوران بالقاهرة . ويذكر ابن أبي الإصبع في تقديمه للكتابين مصادره ومنها تبيين أنه لم يكد يترك كتابا ألف في البلاغة وفنون البديع وإعجاز القرآن الكريم إلا رجع إليه ، من ذلك نظم القرآن للجاحظ وبديع ابن المعتز ونقد الشعر لقدامة وحلية المحاضرة للحاتمي والمنصف لابن وكيع المصري والصناعتين لأبي هلال العسكري والنكت في إعجاز القرآن للرماني وإعجاز القرآن للباقلاني والمجاز للشريف الرضي والموازنة للآمدى والوساطة لعلي بن عبد العزيز الجرجاني والعمدة لابن رشيق وسرّ الفصاحة لابن سنان الحفاجي ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني والكشاف للزمخشري ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي والمثل السائر لابن الأثير وبديع شرف الدين التيفاشي إلى غير ذلك من مصنفات كثيرة . وإنما ذكرنا الأمهات لندل على أن كتب البلاغة والبديع كانت تدرس في مصر ، وكان المصريون يعكفون على قراءتها فهمها وقهها ودراسة واستنباطا . ويعرض ابن أبي الإصبع في كتابه

وكتابه : « معالم الكتابة » طبع ببيروت سنة ١٩١٣ .

(١) انظر ترجمة ابن شيث في فوات الوفيات ١ / ٥٦٠ .

وشذرات الذهب ٥ / ١١٧ والطالع السعيد للإدقوى ١٦٠

تحرير التحبير الألوان البديعية التي اختص بها ابن المعتز ، ثم يعرض الألوان العشرة التي انفرد بها قدامة وقد بلغت جميعا ثلاثين لونا ، ويسمى هذه الألوان الأصول ، حتى إذا انتهى من عرضها أتبعها بالفروع التي ذكرها المؤلفون حتى زمنه وقد بلغت ستين محسنا ، ويتلوها بثلاثة محسنات نقلها عن بديع الإجداني ، وبذلك تبلغ الألوان البديعية ثلاثة وتسعين لونا ، ويتلوها بثلاثين لونا من عمله واكتشافه ، سلم له البلاغيون منها نحو عشرين محسنا ، وقالوا إن الباقي إما مسبوق إليه أو مدخول عليه <sup>(١)</sup> . وصنف بعد هذا الكتاب كتابه الثاني « بديع القرآن » ذكر فيه أولا - كما قلنا آنفا - أصول المحسنات البديعية عند ابن المعتز وقدامة ، ثم مضى في ذكر المحسنات الفرعية حتى بلغ بها مائة محسن وتسعة . ويلاحظ أنه أدخل في تلك المحسنات الصور البيانية وطائفة من أبواب علم المعاني كالتكرار والتفصيل والإيضاح والبسط أو الإطناب والإيجاز وبذلك وسع مدلول المحسنات البديعية وظل ذلك عند أصحاب البديع من بعده .

وتشغل مصر طويلا بكتابي ابن أبي الإصبع ، حتى إذا كنا في منتصف القرن الثامن الهجري وجدناها تسهم في العناية بمباحث المشاركة في البلاغة وعلومها الثلاثة : المعاني والبيان والبديع . وكان الخطيب القزويني قد لخص القسم الثالث من مفتاح العلوم للسكاكي . وهو القسم الخاص بعلوم البلاغة ، وأحسن في هذا التلخيص إلى حد بعيد . مما جعل الشراح يعنون بتفسيره والتعليق عليه ، ويُعنى بذلك شارح مصرى هو أحمد <sup>(٢)</sup> بن على بن عبد الكافي السبكي المتوفى سنة ٧٧٣ . ويسمى شرحه « عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح » ونراه في فوائحه يشيد بالمصريين وما طُبعوا عليه من الذوق السليم الذى أغناهم عن التعمق في مباحث السكاكي البلاغية وشراحه الإيرانيين لاهتمامهم جميعا بالعلوم العقلية والفلسفية ، ويصور عمله في شرحه قائلا : « اعلم أنى مزجت قواعد هذا العلم ( علم البلاغة ) بقواعد الأصول والعربية .. وضمنته شيئا من القواعد المنطقية والمعاهد الكلامية والحكمة الرياضية أو الطبيعية » . وكأنما أعدته في شرحه طريقة المشركين أو المشاركة ، فعاد يصل في شرحه بين البلاغة وعلوم المنطق والكلام والفلسفة الطبيعية والرياضية ، مما أصاب البلاغة ومباحثها بالجفاف في مصر كغيرها من بلدان المشرق . وكانت قد أخذت تظهر بديعيات مختلفة وهى مدائح نبوية تشتمل المدحة منها على محسنات البديع ، بحيث

الشافية ١٠/١٣٩ وراجع في الدرر الكامنة ١/٢١٠  
وشنرات الذهب ٦/٢٢٦ والنجوم الزاهرة ١١/١٢١  
وإبناء القمر بأبناء العمر لابن حجر ١/٢١ .

(١) نفحات الأزهار على نسبات الاسمار ( طبع دمشق ) ص ٣ .  
(٢) انظر في ترجمة السبكي ترجمة أبيه في طبقات

يضم كل بيت محسنا من تلك المحسنات . وصُنعت لتلك البديعيات شروح تفسرها وتعرض أمثلتها . ولم تسارع مصر إلى المشاركة في هذه البديعيات التي أخذت تظهر منذ القرن السابع الهجري ، حتى إذا كنا بأخرة من زمن المالك وجدنا السيوطي ينظم بديعية يسميها « نظم البديع في مدح خير شفيح » وله عليها شرح . وتليها بديعية لعائشة الباعونية المتوفاة سنة ٩٣٠ . وتعنى مصر زمن العثمانيين بتلخيص الخطيب القزويني وشروحه وخاصة شرح السبكي والسعد الفتاوازي .

وإذا كانت المباحث البلاغية تأخرت في مصر لهذا العصر فإن المباحث النقدية شاركتها في هذا التأخر ، ويلقانا في أوائل العصر - كما مرّنا آنفاً - كتاب المنصف لابن وكيع في بيان سرقات المتنبي ومشكل شعره ، وقد ذكرنا أنه احتوى على مقدمة في فنون البديع ، وذهب بلاشير إلى أنه ألفه انتصاراً لابن حنّابة وزير كافور إذ ترفع المتنبي عن مدحه فأغرى ابن وكيع بنقده <sup>(١)</sup> . وهو يذكر في تقديمه لكتابه أن جماعة بالغوا في مديح المتنبي حتى فضلوه على جميع الشعراء بنتائج فكره وبدائع معانيه ، فأراد أن يكشف عن مدى تقليده ومحاماته لمن تقدموه ، ويقدم لكلامه بمبحث عن السرقات يصنفها فيه عشرين صنفاً . وتحدث حديثاً مجملاً - عرضاً له - عن فنون البديع ، ثم أخذ يفيض في سرقات المتنبي متعقباً لها في قصائده مع ترتيبها ترتيباً تاريخياً . وهو بحث قيم بالقياس إلى غيره من بحوث معاصريه ومن جاء بعدهم ممن عنوانوا ببيان سرقات المتنبي ، إذ يدل على كثرة محفوظه وفطنته ودقته في الفهم . وقد بما قلنا إن نقادنا القدماء كان ينبغي ألا يتوسعوا في بحث سرقات الشعر هذا التوسع كما كان ينبغي أن ينحوا عنه كلمة السرقة ويسموه التحوير الفنى ، ويحاولوا أن يبينوا مدى قدرة الشاعر على هذا التحوير . ونعجب أن يحاول ابن وكيع بيان الإسفاف عند المتنبي وضعفه اللغوي لبيت وقع عليه عفووا هنا أو هناك ، والشاعر لا يقاس ببعض عثرات له نَدَّتْ عنه ، وإنما يقاس بروائع أبياته وفرائدها البديعة . وهذا وأشباهه عند ابن وكيع جعل ابن جنى يُولف كتاباً في النقص على ابن وكيع في شعر المتنبي ونخطته <sup>(٢)</sup> كما جعل ابن رشيق يقول عنه : « ما أبعد الإنصاف منه » <sup>(٣)</sup> . وربما جرّ ابن وكيع إلى ذلك كله أنه كان شاعراً من مصر ذوق غير ذوق المتنبي فأسرف في التحامل عليه . ولم يؤدِّ كتاب المنصف غايته من الهبوط في مصر بمترلة المتنبي فقد مضى كثيرون يبالغون في تشيعهم له ، مما جعل العميدى <sup>(٤)</sup> محمد بن أحمد كاتب

(٣) الصلدة لابن رشيق ٢١٦/٢ .

(٤) انظر العميدى في معجم الأدياء ٢١٢/١٧ وإنباه

الرواة ٢٤٦/٣ وبغية الرواة للسيوطي ١٩ .

(١) انظر أبو الطيب المتنبي لبلاشير ترجمة الدكتور إبراهيم

الكيلاني (طبع دمشق) ص ٤٨٧ .

(٢) معجم الأدياء ١٢/١٣٣

الإنشاء في دواوين الفاطميين المتوفى سنة ٤٣٣ يكتب بحثا ثانيا في سرقاته باسم «الإبانة عن سرقات المتنبي» وهو يطيل في عرض هذه السرقات - كما تراءى له - مع كثير من الغمز واللمز والتجريح للشاعر الكبير، ويعرض - كما عرض ابن وكيع - لبعض عيوبه اللغوية.

وماتزال مصر معنية بالبحث في السرقات ويقف عندها مرارا ابن منجب الصيرفي في رسائله، و ماتزال معنية بالمتنبي، بل إنها تمد عنايتها إلى جميع شعراء العالم العربي. ونرى أضواء من ذلك كثيرة في كتاب فصوص الفصول<sup>(١)</sup> لابن سناء الملك شاعر صلاح الدين، إذ نراه يجمع فيه بعض الرسائل المتبادلة بينه وبين القاضي الفاضل، وفيها يعرضان كثيرا لشعراء العالم العربي. ومن طريف ما ذكره ابن سناء الملك فيها أنه سأل القاضي الفاضل لماذا يدور شعر المتنبي على كل لسان، فقال لأنه يشتمل على ما يدور بخواطر الناس من أفكار، يقصد حكمه البديعة. وسأله القاضي الفاضل أن ينتخب مختارات من شعر ابن الرومي فاعتذر عن ذلك بأنه «ليس من أهل اختياره»، ولا من الغواصين الذين يستخرجون الدر من بحاره، لأن بحاره زخّارة، وأسوده زّارة، ومعدن تيره مردوم بالحجارة، وعلى كل عقيلة ألف نقاب بل ألف ستارة، يطمع ويونس، ويوحش ويونس، وينير ويظلم، ويصبح ويعتم، شذرة وبدره، ودره وآجره، وقبلة بجانبها لسعة»، وابن سناء الملك بذلك عبر في وضوح عن مدى التفاوت بين أشعار ابن الرومي، وهو نقد دقيق، وسأله القاضي الفاضل مرة أخرى صنّع منتخب لشعر ابن رشيقي، فصنعه، وذكر له في إحدى رسائله ذلك كما ذكر له أن شعره مسروق من شعر ابن المعتز والمتنبي، يقول: «ولولم يخلق الله ابن المعتز والمتنبي لما كان ابن رشيقي يعرف الشعر فضلا عن أن ينظمه أو يعلمه، وهو يهيب أشعار هذين الرجلين منها قبيحا ولا سيما ابن المعتز». ويؤنّه ابن سناء الملك مرارا في الرسائل بآب ابن المعتز والبحترى. وقد حملت فيما حملت نظرات نقدية للقاضي الفاضل أحيانا في بعض أبيات لابن سناء الملك، وأورد القلقشندي في صبحه نموذجاً<sup>(٢)</sup> من هذه الرسائل المتبادلة بين الأديبين الكبيرين، إذ أورد رسالة نقد فيها القاضي الفاضل يبت ابن سناء الملك:

صليفي وهلمنا الحسنُ باقيَ فرما يُعزّل يَتُّ الحسنُ منه ويُكنَسُ

لذكره فيه كلمة «يكنس» المتبدلة، وردّ عليه ابن سناء الملك بأنه إنما تابع في ذلك ابن المعتز

في قوله:

(٢) انظر صبح الأعي ٢/ ٢٤٩ - ٢٥٢.

(١) من مطبوعة بدار الكتب المصرية.

وقَوَّامِي مِثْلُ الْقَنَاءِ مِنَ الْخَطِّ وَخَدَّيْ مِنْ لِحْيَتِي مَكْنُوسُ

وكانه يريد أن يقول للفاضل إن الكلمة استعملها ابن المعتز من قبله وأصبحت بذلك كلمة شعرية ولا بأس على شاعر من استعمالها .

وابن سناء الملك أكبر رمز مصري في العصر لاتصال شعراء مصر ونقادها بالأدب الأندلسي ، فقد درس موشحات الأندلسيين ، ولم يكونوا قد وضعوا عروضها فوضعه لها ، وكأنه يحلّ من عروض الموشحات الأندلسية محلّ الخليل بن أحمد من عروض الشعر العربي ، وستحدث بشيء من التفصيل عن ذلك في الفصل التالي .

وقد شغل ابن سناء الملك النقاد في زمنه وبعد زمنه . لا بما وضعه من عروض الموشحات فحسب ، بل أيضا بشعره ، فقد كان أنه شاعر أنجبته مصر حتى أيامه ، فشغل النقاد طويلا بأشعاره ، وفيه وضع ابن جُبَّارة<sup>(١)</sup> على بن إسماعيل مواطنه المتوفى سنة ٦٣٢ كتابه « نظم الدر في نقد الشعر » وهو في نقد أشعار ابن سناء الملك ، والكتاب مفقود ، غير أن الصفدي في كتابه « الغيث المسجّم » الذي وضعه في شرح لامية المعجم نقل عنه أطرافا من نقده لبعض أبيات ابن سناء الملك ، ونراه فيها متحاملا عليه تحاملا شديدا أو كما قال الصفدي في نكت الهميان « متعتنا نعتنا زائدا » . من ذلك قول ابن سناء الملك :

بِشَوْكِ الْقَنَا يَحْمُونَ شَهْدَ رُضَائِبِهَا وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ

يصف في البيت منعة صاحبه وأن أحدا لا يستطيع أن يقترب من حياها لباس قومها وخشية من رماحهم أن تسفك دمه . وتوقّف ابن جبارة بإزاء البيت<sup>(٢)</sup> وقال إنه أراد أن يمدح قوم صاحبه فهجاهم بالمثل المضمن آخر بيته الذي جعله كفن مئته لأنه جعل طعن رماحهم كإبر النحل ، يقول ابن جبارة : وإبرة النحل لا أثر لها ولا ألم يحصل منها . ويرد عليه الصفدي قائلا : أما كونه يدعى أنه لا ألم في إبر النحل ولا ضرر في الزنابير فهذا مما لم يسمع ، وهو تحامل أليس في إبر النحل والزنابير سُمٌّ يمنع القرب منه والدنوإليه ، وغالب الناس يهاب ذلك ولا يقدم عليه ، وربما لسع الزنبور بعض الناس فتورّم منه ومات . ورد عليه أيضا ما قاله من أنه شبه طعن رماح القوم بإبر النحل فهو لم يعقد في البيت تشبيها ، وإنما جاء بمثل ليدل على أن حلاوة ريق صاحبه

(١) انظر في ابن جبارة نكت الهميان ص ٢٠٨ وبغية  
الرعاة ص ٣٢٩ .  
(٢) الغيث المسجّم شرح لامية المعجم ( طبع مطبعة  
بولاق ) ١ / ٢٢٤ .

لا تُنال إلا بعد مشقة . وأنكر ابن جبارة في البيت أيضا كلمة « بشوك القنا » وقال الصفدى ردا عليه إنها استعارة حسنة ، وأنشد بيتين للأرجاني وابن خفاجة شهما فيهما القبا بالشوك . وتوقف ابن جبارة بلزاء<sup>(١)</sup> بيت نظم ابن سناء الملك قصيدته في مديح القاضي الفاضل ، إذ يقول :

يَقْرِى الضيُوفَ شعاعَ يَثِرُ أحمرِ فشعاعُ ذاك التَّبرِ نيرانُ القِرَى

وحاول في أول نقده أن يثبت سرقة ابن سناء الملك للبيت من بيت لابن عمار وآخر للمتنبي . وقال الصفدى : إن هذا تعنت زائد إذ ليس للبيت علاقة بما قاله الشاعران . ويسترسل ابن جبارة في نقده للبيت فيقول : قوله : « يقرى الضيوف شعاع تبر أحمر » . التبر لا يكون إلا كذاك ( أى أحمر ) وإنما قصد المبالغة وشبه ذلك بشعاع النار التي توقد على اليفاع لهتدى بها الحيران . وتهدى إلى مواضعها الضيفان ، وقد جعله يدفع إلى الضيوف صلة الإنعام ويمنعهم من الطعام . يقول الصفدى : وهذا تعنت لأن التبر منه ما يكون أصفر أو أخضر ومنه ما يكون أحمر وهو المضروب وإنما سماه ابن سناء الملك تبرا مجازا ، ولولا ان هذا لازم لما قيل في بعض المواطن الذهب الأحمر كما يقال الثلج الأبيض . وعلى هذا النحو لا يزال الصفدى يرد على ابن جبارة بعض تعنته وتحامله على ابن سناء الملك . ويفهم من كلام الصفدى أن ابن جبارة كان يستعرض بعض قصائد الشاعر . وما يزال يعلق على طائفة من أبياتها بتحامل شديد .

ولا شك في أن النقد الأدبي المصرى في هذا العصر خسر كثيرا بسقوط هذا الكتاب النقدي من يد الزمن . ومن المؤكد أننا لا نستطيع الحكم عليه بدقة من خلال ما نقله عنه الصفدى . وهو فعلا لم يتوسع في نقله . ولعلنا لانبعد إذا قلنا إن أهم كتاب ظهر بعد كتاب ابن جبارة هو كتاب خبز الشعير لابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ وهو أهم شعراء مصر في زمن المماليك ، وكانت قد حدثت جفوة بينه وبين تلميذه الصفدى بسبب بحث كتبه عن سرقاته من الشعراء السابقين فألف هذا الكتاب موضحا فيه سرقات الصفدى لأشعاره ومعارضته لبعض قصائده . وفي مقدمته<sup>(٢)</sup> يقول : إنه ليس للصفدى من جيد الأشعار لمعة إلا ومن لفظه مشكاتها . ومضى يذكر الأصل<sup>(٣)</sup> من أبياته أو الأصول ، ثم الفرع أو الفروع من أبيات الصفدى . وفي صبح الأعشى دراسة<sup>(٤)</sup> نقدية

(١) الغيث المسجم ١/ ٧٦٤ وانظر ١/ ١٢٨ ، ٢٤٣ .  
 (٢) الكتاب مفقود غير أن ابن حجة الحموى احتفظ في خزانته ( طبعة المطبعة الخيرية بالقاهرة ) بمقدمة الكتاب  
 (٣) في الحزاة جملة كبيرة من هذا الكتاب انظر الصفحات ٢٨٥ - ٢٨٩ .  
 (٤) انظر صبح الأعشى ٢/ ١٩٢ - ٣٣٨ .

طريقة للمعاني والألفاظ وقبحها وما بداخلها من الغرابة والابتذال والإيجاز والإطناب ، وقد امتدت عنده إلى نحو مائة وأربعين صحيفة . وتلتقى في أيام العثمانيين بشهاب الدين الخفاجي وكتابه « ربحانة الألبا » الذى ترجم فيه لشعراء زمنه في الشام والمغرب والحجاز واليمن ومصر ، وقد بثَّ فيه ملاحظات نقدية كثيرة .

## ٤

### علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذ المصريون يعنون بقراءات الذكر الحكيم منذ أخذ الصحابة الذين تزلوها يعلمونه لهم . وأسهم معهم في هذا الصنيع التابعون من مثل عبد<sup>(١)</sup> الرحمن بن هرمز تلميذ أبي الأسود الدؤلى نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ١١٧ للهجرة . ورحل كثير من المصريين إلى المدينة في القرن الثانى لحمل قراءة إمامها نافع الذى طبقت شهرته في القراءات العالم الإسلامى حتى وفاته سنة ١٦٩ . وأشهر تلاميذه بمصر من حملة قراءته ورش<sup>(٢)</sup> عثمان بن سعيد المتوفى سنة ١٩٧ وكان ماهرا في العربية . وإليه انتهت رياسة الإقراء بالديار المصرية ، وحمل عنه قراءته أهل المغرب كما مرَّ بنا في غير هذا الموضوع ، ولا يزالون يقرءون بها إلى اليوم . ومن أهم تلاميذه المصريين عبد<sup>(٣)</sup> الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم أبو الأزهر المتوفى سنة ٢٣١ ويقول السيوطى : وعنه انتشرت قراءة ورش في الأندلس فقد حملها إليه تلاميذه . ويبدو أن مصر مضت طوال القرن الثالث الهجرى تعنى بالقراءات وحملها عن كبار القراء . كما تعنى بما يؤلَّف فيها من مصنفات ، يدل على ذلك أقوى الدلالة أنه بمجرد أن صنف أبو بكرين مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤ كتابه السبعة في القراءات الذى جمع فيه قراءات نافع إمام أهل المدينة وابن كثير إمام أهل مكة وأبى عمرو بن العلاء إمام أهل البصرة وعاصم وحمزة والكسائى أئمة أهل الكوفة وابن عامر إمام أهل الشام نجد عالما مصرىا معاصرا له من علماء القراءات هو أبو غانم المتوفى سنة ٣٣٣ يؤلف كتابا في اختلاف السبعة<sup>(٤)</sup>

وطبقات القراء ١ / ٣٨٩ .

(٤) حسن المحاضرة ١ / ٤٨٨ وانظر طبقات القراء

٣٠١ / ٢ حيث يذكر تلميذته لأحد تلاميذ ابن مجاهد .

(١) سبقت مصادر ترجمته ص ١٠٨ .

(٢) انظر في ورش . حسن المحاضرة ١ / ٤٨٥ وطبقات

القراء ١ / ٥٠٢ .

(٣) انظر في عبد الصمد حسن المحاضرة ١ / ٤٨٦

المذكورين ، وقد أحصى السيوطي ١٣٥ قارئاً ممن تصدروا للقراءات بمصر حتى زمنه . ولا ريب في أنه كان وراءهم كثيرون لم يبلغوا مبلغهم في الشهرة ، ولن نستطيع أن نقف عندهم جميعاً إنما نكتفي منهم بمن تركوا في القراءات مصنفات طارت شهرتها في العالم الإسلامي . وأول من نقف عنده عبد<sup>(١)</sup> المنعم بن غلبون المتوفى سنة ٣٨٩ صاحب كتاب الإرشاد ثم ابنه طاهر<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٣٩٩ صاحب كتاب التذكرة في القراءات الثمان ، وعليه تخرج أبو عمرو الداني أكبر قراء الأندلس في زمنه صاحب كتاب التيسير وغيره كما تخرج عليه وعلى أبيه مكى بن أبي طالب القيرواني نزيل قرطبة صاحب كتاب التبصرة وغيره . ونخصي في القرن الخامس فلتقي بعد<sup>(٣)</sup> الجبار الطرسوسي المتوفى سنة ٤٢٠ صاحب كتاب المجتبى ، كما نلتقي بالحسن<sup>(٤)</sup> بن محمد البغدادي المالكي نزيل مصر المتوفى سنة ٤٣٨ صاحب كتاب الروضة ، وملتقي بإسماعيل<sup>(٥)</sup> بن خلف المتوفى سنة ٤٥٥ وكتابه «العنوان» . وملتقي بعده بموسى بن الحسين المعروف باسم المعدل المصري وكتابه الروضة في اختلاف الأئمة القراء الخمسة عشر<sup>(٦)</sup> ، وملتقي في القرن السادس بابن الفحاح<sup>(٧)</sup> شيخ الإسكندرية المتوفى سنة ٥١٠ وكتابه التجريد ، كما نلتقي بابن<sup>(٨)</sup> بليمة القيرواني نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ٥١٤ وكتابه تلخيص العبارات .

ويلقانا أيام الأيوبيين علم كبير من أعلام القراءات هو الإمام الشاطبي<sup>(٩)</sup> الضرير المتوفى بالإسكندرية سنة ٥٩٠ وقصيدته «جرز الأمانى» المعروفة باسم الشاطبية نسبة إليه ، وقد عني بشرحها كثيرون من أئمة القراء وفي مقدمتهم تلميذه العلم<sup>(١٠)</sup> السخاوى المتوفى - كما مر بنا - سنة

(٦) انظر في المعدل المصري طبقات القراء ٣١٨/٢ والنشر في القراءات العشر ٦٦/١ .  
 (٧) راجع في ابن الفحاح حسن المحاضرة ٤٩٥/١ وطبقات القراء ٣٧٤/١ والنشر ٧٥/١ .  
 (٨) انظر في ابن بليمة حسن المحاضرة ٤٩٤/١ وطبقات القراء ٢١١/١ والنشر ٧٢/١ .  
 (٩) راجع في الشاطبي حسن المحاضرة ٤٩٦/١ وطبقات القراء ٢٠/٢ وطبقات الشافعية ٢٧٠/٧ ونكت الهميان ص ٢٢٨ ومعجم الأدباء ٢٩٤/١٦ والنشر ٦١/١ .  
 (١٠) راجع مصادر ترجمته في ص ١١٨

(١) راجع في عبد المنعم بن غلبون حسن المحاضرة ٤٩٠/١ وطبقات القراء ٤٧٠/١ والنشر في القراءات العشر ٧٩/١ .  
 (٢) انظر في طاهر حسن المحاضرة ٤٩١/١ وطبقات القراء ٣٥٦/١ والنشر في القراءات العشر ٧٣/١ .  
 (٣) انظر في الطرسوسي حسن المحاضرة ٤٩٢/١ وطبقات القراء ٣٥٧/١ والنشر ٧١/١ .  
 (٤) راجع في الحسن بن محمد حسن المحاضرة ٤٩٣/١ وطبقات القراء ١٣٠/١ والنشر ٧٤/١ .  
 (٥) انظر في ابن خلف حسن المحاضرة ٤٩٤/١ وطبقات القراء ١٦٤/١ والنشر ٦٤/١ .

٦٤٣ وله في القراءات كتاب جلال القراء وكمال الإقراء . وكان يعاصره عبد الرحمن<sup>(١)</sup> بن إسماعيل الصفراوى الإسكندرى المتوفى سنة ٦٣٦ صاحب كتاب الإعلان . ويتوالى التأليف فى القراءات ونلتقى بابن الجندى المتوفى سنة ٧٦٠ وكتابه البستان ، وبشرح للسيوطى على الشاطبية . ويحتم الإمام شهاب<sup>(٢)</sup> الدين القسطلانى المتوفى سنة ٩٢٣ زمن الماليك بكتابه الرائع : « لطائف الإشارات لفنون القراءات » وفيه يجمع طرق القراءات الأربع عشرة ، بإضافة قراءات أبى جعفر يزيد بن القعقاع المدنى ويعقوب بن إسحق البصرى وخلف بن هشام الكوفى المكملين للعشرة ، وإضافة قراءات ابن محيصن المكى واليزيدى البصرى والحسن البصرى والأعمش الكوفى إلى ما ذكرناه آنفاً من قراءات السبعة الذين صنف فيهم ابن مجاهد كتابه . ويظل التأليف فى القراءات لزمن العثمانيين ناشطاً ومن أهم ما ألف فى زمنهم كتاب إتخاف البشر وهو يُعنى بعرض القراءات الأربع عشرة ألقه البناء أحمد بن محمد الدمياطى المتوفى سنة ١١١٧ .

ومعروف أنه تكوّنت علوم كثيرة حول القرآن الكريم ، ونجد مصر تشاطر فيها مشاطرة واضحة منذ القرن الثالث الهجرى ، ولا يلبث أبو جعفر النحاس الذى مر ذكره أن يؤلف فى جوانب منها ، فقد ألف كتاباً فى النسخ والنسوخ وكتاباً فى الوقف والابتداء وألف كتاباً - كما مر بنا - فى إعراب القرآن وهو أحد الأصول المهمة فى هذا الموضوع . وظلت مصر تُعنى بعلوم القرآن من بعده وتصنّف فيها مصنفات مختلفة تتصل بتجويده وبناسخه ومنسوخه ولغاته وغيره وأسباب نزوله وما فيه من الوقف والابتداء والصور البلاغية إلى غير ذلك من علومه المتنوعة . ويطول الحديث لو أننا تتبعنا ما كتبه مصر بهذا العصر من تلك العلوم ، ولكن نكتفى بالإشارة إلى كتابين هما البرهان فى علوم القرآن لبدر<sup>(٣)</sup> الدين الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، وهما يعرضان مادة هذه العلوم وما أُلّف فيها حتى نهاية القرن التاسع إذ توفى السيوطى كما مر بنا سنة ٩١١ .

ومن أهم هذه العلوم علم التفسير . وطبيعى أن تُعنى به مصر منذ دخلت فى الإسلام حتى تفهم

(٣) انظر فى الزركشى الدرر الكامنة ١٧/٤ وشنترات الذهب ٣٣٥/٦ وحسن المحاضرة ١/٤٣٧ وإنباء الغمر بآباء العمر ١/٤٤٦ .

(١) انظر فى الصفراوى حسن المحاضرة ١/٤٥٦ وشنترات الذهب ١٨/٥ .

(٢) راجع فى القسطلانى الضوء اللامع ج ٢ رقم ٣١٣ وشنترات ١٢١/٨ والبدر الطالع ١/١٠٢ .

آى الذكر الحكيم ، وكان حَقَّظها يروون خلفاً عن سلف ما قيل في معانى آى الذكر الحكيم ، واشتهر بها فى القرن الثانى طريق وثيق عن ابن عباس المشهور بتفسير القرآن الكرم ، هو طريق على بن أبى طلحة الهاشمى وفيه يقول أحمد بن حنبل : « إن بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة الهاشمى لورحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا » . ويذكر السيوطى أن البخارى اعتمد على هذه الرواية كثيرا فى صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس <sup>(١)</sup> . وكأنها بعض ما حملة البخارى عن مصر فى رحلته إليها لتدوين الحديث عن جَلَّة رواته فيها . وتظل مصر معيَّنة بالقرآن وتفسيره وأحكامه ، ويؤلف أبو جعفر الطحاوى الفقيه الحنفى المتوفى سنة ٣٢١ كتابا فى أحكام القرآن . ويعنى أبو جعفر النحاس بعلوم القرآن ، ولا يلبث أحد تلاميذه ، وهو أبو بكر الإدْفوى <sup>(٢)</sup> محمد بن على المصرى المقرئ المتوفى سنة ٣٨٨ أن يؤلف فى التفسير كتابا ضخما يقول المترجمون له إنه كان فى مائة وعشرين مجلدا ، وسماه كتاب الاستغناء فى علوم القرآن ، وأهم تلاميذه الحوفى المار ذكره بين النحاة ، وله كتاب البرهان فى تفسير القرآن فى ثلاثين مجلدا ويقول القفطى : صنَّف كتابا كبيرا فى إعراب القرآن فى عشرة مجلدات . وهو وأستاذه أهم المفسرين فى زمن الفاطميين ، ومن تلقى به فى زمن الأيوبيين المرسى <sup>(٣)</sup> السلمى محمد بن عبد الله نزل مصر واستقر بها سنة ٦٢٤ وتوفى سنة ٦٥٥ وله تفسير كبير فى أكثر من عشرين جزءا سماه « رى الظمان فى تفسير القرآن » . وكان يعاصره العزيز عبد السلام الفقيه الشافعى المشهور وله تفسير ، منه مخطوطة بدار الكتب المصرية ، بناه على الوجه البانية والبلاغية فى آى الذكر الحكيم .

ونمضى فى زمن الماليك وُلِّتقى بالقرطبى <sup>(٤)</sup> محمد بن أحمد نزيل مصر والمستقر بمدينة المنيا ( منية الخصب فى الصعيد ) المتوفى سنة ٦٧١ وله التفسير المشهور المسمى « جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن » . ويلقانا بعده ابن <sup>(٥)</sup> المنير أحمد بن محمد الإسكندرى المتوفى سنة ٦٨٣ وله تفسير سماه « البحر الكبير فى نُحَبِّ التفسير » وكتاب ثان تتبع فيه

(١) فاس) ص ٢٧٩ وطبقات المفسرين للسيوطى ص ٢٨  
وشنرات الذهب ٥ / ٣٣٥ .  
(٥) راجع ابن المنير فى الديناج المذهب ص ٧٨  
وشنرات الذهب ٥ / ٣٨١ والنجوم الزاهرة ٧ / ٣٦١  
وفوات الوفيات ١ / ١٣٢ .

(١) الإقنان فى علوم القرآن للسيوطى ٦ / ٢٢٣ .  
(٢) انظر الإدْفوى فى طبقات المفسرين للسيوطى وحسن  
المخاضرة ١ / ٤٩٠ وطبقات القراء ٢ / ١٩٨ .  
(٣) راجع فى المرسى السلمى طبقات المفسرين ص ٣٥  
ومعجم الأدباء ١٨ / ٢٠٩ وشنرات الذهب ٥ / ٢٦٩ .  
(٤) انظر القرطبى فى الديناج المذهب لابن فرحون ( طبع )

آراء الزمخشري الاعتزالية التي بُنِّها في تفسيره وحاول نقضها بما يتفق وآراء أهل السنة ، سماه الانتصاف من الكشاف وهو مطبوع على هوامشه . ويتلوه ابن <sup>(١)</sup> النقيب محمد بن سليمان المتوفى سنة ٦٩٨ وله تفسير كبير الحجم سماه « التحرير والتحجير لأقوال أئمة التفسير » وجعل له مقدمة كبيرة تحدث فيها عن الوجوه البلاغية فيه . وقد سقط الكتاب من يد الزمن ، ربما لضخامة حجمه . وكان يعاصره عبد <sup>(٢)</sup> العزيز الديريني المتصوف المتوفى سنة ٦٩٤ وله المصباح المنير في علم التفسير ، وأيضا كان يعاصره العلم <sup>(٣)</sup> العراقى المصرى المتوفى سنة ٧٠٤ وسمى العراقى نسبة إلى جده لأمه ، وكان هذا الجد مصريا غير أنه دخل العراق فلقب بهذا الاسم الذى انتقل إلى حفيده ، وله كتاب فى الانتصار للزمخشري من ابن المنير وله مختصر فى التفسير .

وأكبر المفسرين فى القرن الثامن أبو حيان الأندلسى وتفسيره البحر المحيظ مشهور ، وكان قد اتخذ القاهرة دار مقام له غير أن عداده فى الأندلسيين . وأهم المفسرين بعده جلال الدين السيوطى وله تفسير كبير يسمى « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » مطبوع فى ستة مجلدات . وكان جلال الدين المحلى محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٤ فسَّر نحو نصف القرآن من أول سورة الكهف إلى آخره فأكمل تفسيره جلال الدين السيوطى من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الإسراء ، وتفسيرهما مطبوع فى جزءين باسم تفسير الجلالين . ويدخل زمن العثمانيين ، وأهم المفسرين فيه شمس الدين الخطيب <sup>(٤)</sup> الشربيني المتوفى سنة ٩٧٧ وله تفسير مطبوع يسمى السراج المنير .

وتموج بمصر بحفاظ الحديث النبوى منذ نزها الصحابة وفى مقدمتهم أبو ذر الذى سكنها مدة وعقبة بن عامر الجهنى وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وظل ينزلها كثير من حفاظ التابعين وفى مقدمتهم نافع مولى ا.ع. الله بن عمر بن الخطاب والأعرج عبد الرحمن بن هرم صاحب أبى هريرة ويزيد بن أبى حبيب . وكثر حفاظ الحديث ورواه فى القرن الثانى الهجرى ، ومن أهمهم أبو زرعة

(٣) انظر فى العلم العراقى حسن المحاضرة ٤٢١/١

ونكت المبيان ص ١٩٥ والدرر الكامنة ١٣/٣ .

(٤) راجع فى الخطيب الشربيني شذرات النعب

. ٣٨٤/٨

(١) انظر ابن النقب فى طبقات المفسرين ص ٣٢

وشذرات الذهب ٤٤٢/٥ وفوات الوفيات ٤٣٠/٢ .

(٢) راجع الديريني فى حسن المحاضرة ٤٢١/١

المتوفى سنة ١٥٨ وابن هبيعة المتوفى سنة ١٧٤ والليث بن سعد الفقيه المشهور ، وعبدالله<sup>(١)</sup> بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم تلميذا مالك والإمام الشافعي وتلاميذه : البويطي وحرملة والمزني والربيع . ومن كبار الحفاظ حينئذ أسد السنة المتوفى سنة ٢١٢ وأحمد بن صالح المتوفى سنة ٢٤٨ والحارث بن مسكين المتوفى سنة ٢٥٠ ويونس بن عبد الأعلى المتوفى سنة ٢٦٤ ومحمد بن عبدالله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ . ولاشهار مصر بحفاظ الحديث نزلها في طلبه من أصحاب الصحاح الستة البخارى ومسلم وأبو داود وابن ماجه والنسائي وقد اتخذها دار مقام له حتى توفى سنة ٣٠٣ ومن مصنفاته : السنن الكبرى والصغرى وهى إحدى الصحاح الستة ، وله مسند على ومسند مالك . ويلقانا الطحاوى الفقيه الحنفى وله في الحديث كتاب السنن ومعانى الآثار ومشكل الآثار ، وابن جزابة وزير كافور المتوفى سنة ٣٩١ وكان له مجلس لإملاء الحديث في وزارته ، وسمع الدارقطني حافظ العراق في زمنه وصاحب كتاب السنن الكبرى وغيره المتوفى سنة ٣٨٥ أنه يؤلف مسندا فاجاء مصر ليعينه ، تمول ، وكان فيها يروى الحديث ويمليه ، ويأخذه عن حفاظه المصريين ويأخذه المصريون عنه . ومن أهم تلاميذه بمصر عبد<sup>(٢)</sup> الغنى بن سعيد الحافظ المتقن المتوفى سنة ٤٠٩ وله في الحديث المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال وكتاب مشتببه النسبة . وأشهر المحدثين بمصر في القرن الخامس تلميذه الحبال<sup>(٣)</sup> الإمام الحافظ المتوفى سنة ٤٨٢ وله مصنفات مختلفة ، وجمع عوالى سفيان بن عيينة .

ويتزل الإسكندرية سنة ٥٢١ السلفي<sup>(٤)</sup> أكبر الحفاظ في القرن السادس الهجرى ، وقد قصده طلاب الحديث النبوى من كل فج . على نحو ما يصور ذلك معجمه . وهو مطبوع ، وبنى له العادل بن السلار وزير الظاهر الفاطمى مدرسة سنة ٥٤٦ . كما مر بنا . وقروض أمرها إليه ، وسمع عليه الحديث صلاح الدين الأيوبي حين صارت مصر إليه وبعض أبنائه وأهل بيته ، وظلت إليه

١٨٨ / ٣ .

(٣) راجع في الحبال حسن المحاضرة ١ / ٣٥٣ .

(٤) انظر في السلفى طبقات المفسرين للسيوطى ص ٥٦ وطبقات الحفاظ له ٣٩ / ٢ وابن خلكان ١ / ١٠٥ وتذكرة الحفاظ وأزهار الرياض ٣ / ١٦٧ - ٢٨٣ وتهذيب ابن عساكر ١ / ٤٤٩ والسيكى ٦ / ٣٢ والأنساب ٣٠٢ وشذرات الذهب ٤ / ٢٥٥ وطبقات القراء ١ / ١٠٢ وميزان الاعتدال ١ / ١٥٥ .

(١) هو من أوائل من جمعوا الحديث بمصر ، وقد عثر على كتابه أخيراً في ورق بردى بمدينة إدفو في جنوبى مصر واسمه الجامع في الحديث ، وهو مكتوب في القرن الثالث الهجرى ، وقد نشر هذا الكتاب في المعهد الفرنسى بالقاهرة . وانظر في ابن وهب حسن المحاضرة ١ / ٣٠٢ ، ٣٤٦ والديباج المذهب ١٨٧ وتهذيب التهذيب ١٠ / ٣٧٢ وميزان الاعتدال للذهبي ٢ / ٨٦ وبروكلمان ٣ / ١٥٥ .

(٢) انظر في عبد الغنى المنتظم ٧ / ٢٩٠ وابن خلكان ٣ / ٢٢٣ وتذكرة الحفاظ ٣ / ٢٥٠ وشذرات الذهب

الرحلة في الحديث حتى توفي سنة ٥٧٦ . ومن أهم تلاميذه أبو الحسن علي <sup>(١)</sup> بن المفضل المالكي المقدسي ثم السكندري المتوفى سنة ٦١١ تولى القضاء بالإسكندرية ودرّس بمدرسة ابن شكر في القاهرة ، وله كتاب الأربعين ، وهو أربعون حديثاً عن أربعين شيخاً .

ونزل مصر الحافظ ابن دحية الأندلسي واستوطنها وتولى بها دار الحديث <sup>(٢)</sup> الكاملة حتى توفي في سنة ٦٣٣ . وولى مشيخة هذه الدار بعده زكي الدين المنذرى الحافظ الكبير الإمام شيخ الإسلام عبد <sup>(٣)</sup> العظيم بن عبد القوى المصرى الشافعى المتوفى سنة ٦٥٦ . يقول السيوطى إنه انقطع لمشيخة المدرسة الكاملة عشرين سنة ، وكان عديم النظر في معرفة علم الحديث على اختلاف فنونه متبحراً في معرفة أحكامه ومعانيه ومشكله قِيماً بمعرفة غريبه ، إماماً حجة بارعاً في الفقه والعربية والقراءات . وله كتاب الترغيب والترهيب وهو أحاديث مرتبة حسب الموضوعات للترغيب في الخير والحق والترهيب من الشر والباطل ، طُبِعَ مراراً . وله في الفقه شرح على كتاب التنبيه . وأهم تلاميذه الدمياطى <sup>(٤)</sup> شرف الدين عبد المؤمن بن خلف المتوفى سنة ٧٠٥ لازم الحافظ المنذرى واتخذه معيداً له ، وقد ولى مشيخة الظاهرية ودرّس الحديث في المدرسة المنصورية : مدرسة المنصور قلاوون ، وتحتفظ دار الكتب المصرية بكثير من مصنفاته في الحديث .

ومن كبار المحدثين في القرن الثامن عز الدين بن <sup>(٥)</sup> جماعة الشافعى المتوفى سنة ٧٦٧ ولى القضاء ، واشتهر بكثرة من سماع الحديث ودرس في المدرسة الحشاشية ، صنّف تخرّيج أحاديث الإمام الرافعى الشافعى وغير ذلك . ويعنى بشرح البخارى غير حافظ في هذا القرن ويكثر التأليف في الحديث ومصطلحه على نحو ما يلقانا عند مُغلطى <sup>(٦)</sup> المتوفى سنة ٧٦٢ يقول السيوطى له أكثر

وطبقات الحفاظ ٦٥/٢ والسبكي ١٠٢/١٠ وطبقات

القراء ٤٧٢/١ وتذكرة الحفاظ ٢٦٨/٤ والدرر الكامنة

٣٠/٣ وفوات الوفيات ٣٧/٢ والبداية والنهاية

٤٠/١٤ والبدر الطالع ٤٠٣/١ .

(٥) انظر في ابن جماعة حسن المحاضرة ٣٥٩/١

وشذرات الذهب ٢٠٨/٦ والسبكي ٧٩/١٠ والدرر الكامنة

٤٨٩/٢ .

(٦) راجع في مغلطى حسن المحاضرة ٣٥٩/١ والدرر

الكامنة ١٢٢/٥ .

(١) راجع في ابن المفضل حسن المحاضرة ٣٥٤/١ وشذرات الذهب ٤٧/٥ .

(٢) ذكر السيوطى في حسن المحاضرة ٢٦٢/٢ ثبناً بمن تولوا هذه الدار من كبار المحدثين .

(٣) انظر في عبد العظيم طبقات الحفاظ للسيوطى

٥٩/٢ والسبكي ٣٥٩/٨ وحسن المحاضرة ٣٥٥/١

وشذرات الذهب ٢٧٧/٥ وتذكرة الحفاظ للذهبي

٢٢٨/٤ وفوات الوفيات ٦١٠/١ .

(٤) راجع في الحافظ الدمياطى حسن المحاضرة ٣٥٧/١

من مائة تصنيف كشرح البخارى وشرح ابن ماجه ، وولى مشيخة الظاهرية للمحدثين . ويلقانا بعده الحافظ <sup>(١)</sup> العراقى المولود بالقاهرة والمتوفى بها سنة ٨٠٦ وله فى الحديث مصنفات مختلفة ، منها منظومة فى ألف بيت اشتهرت مع شرحها فى الآفاق ، ومنها تخريج احاديث كتاب الاحياء للغزالي . وأهم تلاميذه ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ يقول السيوطى عنه : « انتهت إليه الرحلة والرياسة فى الحديث فى الدنيا بأسرها . فلم يكن فى عصره حافظ سواه ، وألّف كتباً كثيرة » مثل فتح البارى فى شرح صحيح البخارى « وهو مطبوع ، وله غير كتاب فى تراجم المحدثين . وأهم الحفاظ بعده السيوطى ، وله شروح على الموطأ لمالك وصحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وابن ماجه إلى شروح أخرى كثيرة وإلى كتب فى الحديث ومصطلحه وتخرجاته تعد بالعشرات <sup>(٢)</sup> . من أهمها جمع الجوامع وهو دائرة معارف كبرى فى الحديث مع رواياته وأسانيده . ومرينا فى القراء ذكر معاصره شهاب الدين القسطلانى وله إرشاد السارى إلى صحيح البخارى ، وهو مطبوع . وولتقى فى أيام العثمانيين بعد الزهوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ وله « كنوز الحقائق فى حديث خير الخلائق » وهو معجم يشتمل على عشرة آلاف حديث اختارها من أربعة وأربعين كتاباً ، وهو مطبوع مراراً . ويموج كتاب تاريخ الجبرتي بأسماء حفاظ الحديث وتلاميذهم وما كانوا يحملون من كتبه ، ونكتفى بذكر أحد أعلامهم ، وهو الحفنى محمد بن سالم المتوفى سنة ١١٨١ فقد ذكر الجبرتي أنه كان من جلة شيوخه الشيخ محمد البديرى الدمياطى ، يقول : « أخذ عنه التفسير والحديث والمسندات والمسلسلات والاحياء للإمام الغزالي وصحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وسنن النسائى وسنن ابن ماجه وكتاب الموطأ لمالك ومسند الشافعى والمعجم الكبير للطبرانى والمعجم الأوسط والصغير له أيضاً وصحيح ابن حبان والمستدرك للنيسابورى وحلية الأولياء للحافظ أبى نعيم وغير ذلك <sup>(٣)</sup> » . ولعل فى هذا ما يدل بوضوح على نشاط مصر فى دراسة الحديث النبوى وروايته حتى نهاية هذا العصر ، فقد ظلّ حفاظه التاجيون يُعدّون بالعشرات .

وكان لمصر نشاط خصب فى الفقه ، ومعروف أن أقدم المذاهب فى النشأة المذهب الحنفى ، وتبعه المذهب المالكي فالمذهب الشافعى فالمذهب الحنبلى ، وتأخرت مصر فى التعرف على مذهب

المحاضرة ١ / ٣٤٠ .  
(٣) تاريخ الجبرتي ١ / ٢٨٩ .

(١) انظر فى العراقى الضوء اللامع للسخاوى ٤ رقم ٤٥٢  
وحسن المحاضرة ١ / ٣٦٠ والشذرات ٧ / ٥٥ .

(٢) انظر فى مؤلفات السيوطى فى الحديث كتابه حسن

أبي حنيفة ، إلى أن نزلها بعض قضاة بغداد الأحناف عملاً بقرار أبي يوسف تلميذ أبي حنيفة ، وكان مقرراً لهارون الرشيد : أن يكون القضاة في الدولة العباسية أحنافاً . وأهم هؤلاء القضاة الأحناف بكار<sup>(١)</sup> بن قتيبة الذي تولى قضاء مصر لعهد المتوكل سنة ٢٤٦ وظل بها حتى وفاته سنة ٢٧٠ وله تصانيف فقهية مختلفة . ولم تلبث مصر أن أنجبت إماماً حنفياً كبيراً هو الطحاوي<sup>(٢)</sup> أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة المتوفى سنة ٣٢١ وإليه انتهت رئاسة الحنفية بمصر ، وكتبه تُعدّ مراجع أساسية في المذهب الحنفي ، ومن أهمها الجامع الكبير في الشروط وكتاب اختلاف الفقهاء والمختصر في الفقه وله شروح كثيرة ورسالة في أصول الدين أو عقيدة أهل السنة والجماعة . وذكرنا آنفاً أن له في الحديث كتاب السنن ومعاني الآثار ومشكل الآثار . ومن أهم تلاميذه إسحق<sup>(٣)</sup> بن إبراهيم الشاشي السمرقندي المتوفى سنة ٣٢٥ وقد استوطن مصر ، وتولى القضاء بها . ويذكر السيوطي من فقهاء المذهب زمن الفاطميين عبد المعطى<sup>(٤)</sup> بن مسافر الذي فقه المذهب بموطنه في الإسكندرية على يد أبي بكر محمد بن إبراهيم الرازي ، وكان ابن مسافر من حملة الحديث النبوي ، ومنه سمع السلفي حين نزل الإسكندرية .

ويأخذ المذهب في النشاط بمصر منذ أنشأ فيها صلاح الدين المدرسة السيوفية لتدريسه . وقد عين بها عبد<sup>(٥)</sup> الله الجريري وظل بها حتى توفي سنة ٥٨٤ . وخلفه فيها - على ما يبدو - عبد<sup>(٦)</sup> الوهاب بن النحاس الحنفي المعروف بالبدر بن الحنن ، وقد ظل يدرس بالسيوفية حتى توفي سنة ٥٩٩ . ومن درسوا المذهب الحنفي بها أبو الحسن<sup>(٧)</sup> الغزنوي المتوفى سنة ٦٣٢ . ومن كبار فقهاء الأحناف في العهد الأيوبي يحيى بن معطى المغربي المتوفى سنة ٦٢٨ وأبو<sup>(٨)</sup> القاسم القوصي المتوفى سنة ٦٤٣ . وينشط المذهب الحنفي بمصر منذ زمن الماليك إذ جعل الظاهر يبيرس القضاء شركة بين أصحاب المذاهب الأربعة : الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، فكان لكل مذهب

- (١) انظر في بكار حسن المحاضرة ٤٦٣/١ وابن خلكان ٢٧٩/١ والجواهر المصنفة في طبقات الحنفية ١٦٨/١ وتاج التراجم في طبقات الحنفية لابن قطلوبغا ص ١٩ .  
 (٢) راجع في الطحاوي تهذيب ابن عساكر ٥٤/٢ والمنتظم ٢٥٠/٦ وحسن المحاضرة ٣٥٠/١ وابن خلكان ٧١/١ وطبقات القراء ١١٦/١ والجواهر المصنفة ١٠٢/١ وتاج التراجم ص ٨ والشفرات ٢/٢٨٨ .  
 (٣) انظر في إسحق الجواهر المصنفة ١٣٦/١ والفوائد البية ٢٢ .  
 (٤) راجع في ابن مسافر حسن المحاضرة ٤٦٤/١ والجواهر المصنفة ٣٣٠/١ .  
 (٥) انظر في الجريري حسن المحاضرة ٤٦٤/١ .  
 (٦) راجع في ابن النحاس حسن المحاضرة ٤٦٤/١ وشذرات الذهب ٣٤١/٤ .  
 (٧) انظر في الغزنوي حسن المحاضرة ٤٦٥/١ والجواهر المصنفة ٣٥٢/١ .  
 (٨) انظر القوصي في حسن المحاضرة ٤٦٥/١ والجواهر المصنفة ٣٠٤/١ .

قاضييه ، وأيضا فإنه جعل للحنفية نصيبا في مدرسته الظاهرية وأول حنفي دَرَسَ المذهب بها لأيامه عبد الرحمن بن عمر بن العديم المتوفى سنة ٦٧٧ . ومن درس المذهب بالسلفية لؤلؤ<sup>(١)</sup> بن أحمد وأبو بكر<sup>(٢)</sup> بن محمد الإسوي . ومن قضاتهم النعمان<sup>(٣)</sup> بن الحسن المتوفى سنة ٦٩٢ وعلى بن نصر المتوفى سنة ٦٩٥ وله كتاب زوائد الهداية على القدوري . ويُحْتَمُّ القرن السابع بآين النقيب الذي مر ذكره بين المفسرين . ومن فقهاء القرن الثامن الناهين أحمد<sup>(٤)</sup> بن إبراهيم السروجي المدرس بالسلفية المتوفى سنة ٧١٠ وقد ولي القضاء ، وله شرح في كتاب الهداية للمرغيناني . وابن<sup>(٥)</sup> يلبان المتوفى سنة ٧٣١ وله شرح على الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني ورتب صحيح ابن حبان على الأبواب وكذلك معجم الطبراني . وكان يعاصره ابن<sup>(٦)</sup> التركماني المتوفى سنة ٧٣١ وكان يدرس المذهب بمدرسة المنصور قلاوون ، وألقى بها شرحا له على الجامع الكبير أملاه دروسا على الطلاب . وأنجب قفيين : أحمد<sup>(٧)</sup> المتوفى سنة ٧٤٤ ومن تصانيفه شرح الهداية وشرح الجامع الكبير . وعلى<sup>(٨)</sup> المتوفى سنة ٧٤٥ وله مختصر الهداية ومختصر علوم الحديث لابن الصلاح ، وتولى قضاء الديار المصرية . وكان يعاصرها فخر الدين الزيلعي<sup>(٩)</sup> المتوفى سنة ٧٤٣ وله شرح على كتاب كتر الدقائق في الفروع للحافظ النسفي سماه تبين الحقائق على كتر الدقائق طبع بمصر في ستة أجزاء . ويلقانا السراج<sup>(١٠)</sup> الهندي قاضي القضاة بالديار المصرية المتوفى سنة ٧٧٣ وله شرح الهداية والشامل في الفروع وشرح البديع ، وكان يعاصره ابن<sup>(١١)</sup> أبي الوفا عبد القادر بن محمد المتوفى سنة ٧٧٥ وهو صاحب كتاب الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية

(٧) راجع أحمد في حسن المحاضرة ٤٦٩/١ والجواهر المضيئة ٧٧/١ .

(٨) انظر في علي حسن المحاضرة ٤٦٩/١ والجواهر المضيئة ٣٦٦/١ .

(٩) راجع في الزيلعي حسن المحاضرة ٤٧٠/١ والجواهر المضيئة ٣٤٥/١ والدرر الكامنة ٦١/٣ .

(١٠) انظر في السراج حسن المحاضرة ٤٧٠/١ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٣٠/٣ والفوائد البية ١٤٩ وإنباء الغمر ٢٧/١ .

(١١) راجع في ابن أبي الوفا حسن المحاضرة ٤٧١/١ والدرر الكامنة ٦/٣ والفوائد البية ٩٩ وإنباء الغمر ٦٦/١ .

(١) انظر في لؤلؤ حسن المحاضرة ٤٦٦/١ والجواهر المضيئة ٤١٦/١ .

(٢) انظر في أبي بكر حسن المحاضرة ٤٦٧/١ .

(٣) راجع في النعمان حسن المحاضرة ٤٦٧/١ والجواهر المضيئة ٢٠١/٢ .

(٤) انظر في السروجي حسن المحاضرة ٤٦٨/١ والجواهر المضيئة ٥٣/١ وتاج التراجم ص ١١ .

(٥) راجع في ابن يلبان حسن المحاضرة ٤٦٨/١ والجواهر المضيئة ٣٥٤/١ وتاج التراجم ص ٤٣ ،

(٦) انظر في ابن التركماني حسن المحاضرة ٤٦٩/١ والجواهر المضيئة ٣٤٥/١ وتاج التراجم ص ٤٠ والدرر

الكامنة ٤٩/٣ .

المثبت في الهوامش . وملتقى بأكمل<sup>(١)</sup> الدين الباريقي المتوفى سنة ٧٨٦ وله شروح كثيرة علي أمهات كتب الفقه الحنفي منها شرح الهداية وشرح البزدوى .

وما يزال السيوطي في حسن المحاضرة يعدد فقهاء الحنفية وقضاةهم بالديار المصرية ، حتى نصل ، إلى<sup>(٢)</sup> ابن الهمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٨٦١ وله مصنفات مختلفة في مذهبه أهمها فتح القدير ، وهو شرح على كتاب الهداية للمرغيناني ، طبع بمصر في ثمانية أجزاء . وملتقى بالقاسم<sup>(٣)</sup> بن قطلوبغا المتوفى سنة ٨٧٩ وهو صاحب كتاب تاج التراجم في طبقات الحنفية المذكور في الهوامش وله مصنفات فقهية مختلفة . ونمضى إلى زمن العثمانيين . وينشط منذ هذا التاريخ بمصر الفقه الحنفي وأصحابه ، إذ كان القضاء في الدولة العثمانية للأحناف وحدهم . ومن كبار فقهاء الأحناف في أيامهم زين العابدين<sup>(٤)</sup> بن نجم المصري المتوفى سنة ٩٧٠ وله كتاب الأشباه والنظائر في الفقه الحنفي ، وهو مطبوع ، وكتاب البحر الرائق على كثر الدقائق وهو مطبوع أيضا في عدة أجزاء . ومنهم شمس الدين التمر تاشي الغزي المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٠٤ وله في الفقه الحنفي تنوير الأبصار وجامع البحار . ومنهم أبو الإخلاص الشرنبلأوى المتوفى سنة ١٠٦٩ وهو من علماء الأزهر ، وله مصنفات مختلفة في فقه الأحناف لاتزال مخطوطة ومحفوظة بدار الكتب المصرية . ومنهم السيد أحمد الحموي وله تصانيف عدة ، منها شرح الكثر وحاشية الدرر والغرر ، توفي سنة ١١٤٢ . ويخصى الجبرتي في تاريخه أسماء كثيرين منهم إلى نهاية الأيام العثمانية .

وكان انتشار المذهب المالكي في مصر مبكراً ، وكان بعاصر مالكا فقيه مصري كبير هو الليث<sup>(٥)</sup> بن سعد المتوفى سنة ١٧٥ وفيه يقول الشافعي : « الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به » يريد أن أصحابه وتلاميذه المصريين لم يحملوا عنه مذهبه . ولو أنهم حملوه

(٤) انظر في ابن نجم خلاصة الأثر للحمبي ودفرة المعارف الإسلامية .

(٥) راجع في الليث تاريخ بغداد ١٣ / ٣ وابن خلكان ٤ / ١٢٧ والنجوم الزاهرة ٢ / ٨٢ وصفة الصفوة ٤ / ٢٨١ وتذكرة الحفاظ ٢٢٥ وميزان الاعتدال ٣ / ٤٢٣ وتهذيب التهذيب ٨ / ٤٥٩ وعبر النهي ١ / ٢٦٦ .

(١) انظر في الباريقي حسن المحاضرة ١ / ٤٧١ والفوائد البية ١٩٥ ونبأه الغمر ١ / ٢٩٨ .

(٢) انظر في ابن الهمام الضوء اللامع ٨ رقم ٣٠١ والشنرات ٧ / ٢٩٨ والبدر الطالع ٢ / ٢٠١ وحسن المحاضرة ١ / ٤٧٤ .

(٣) راجع في ابن قطلوبغا الضوء اللامع ٦ / ٦٣٥ والشنرات ٨ / ٣٢٦ والبدر الطالع ٢ / ٤٥ .

لأصبح مذهبا مستقلاً بجانب المذاهب الأربعة ، غير أنهم آثروا عليه مذهب مالك إمام المدينة ( دار الهجرة ) . وكان من أهم تلاميذ مالك الذين حملوا مذهبه عنه عبد الله بن وهب ، جامع أول كتاب بمصر في الحديث كما مر بنا آنفاً ، وعبد<sup>(١)</sup> الرحمن بن القاسم المتوفى سنة ١٩١ وقد فرغ على أصول مذهبه فروعا كثيرة سجلها في مؤلفه المشهور باسم المدونة ، وعنه حملها سحنون القيرواني إلى تونس موطنه ، ونشر المذهب المالكي هناك ولا يزال غالبا على بلاد المغرب إلى اليوم . ومن تلمذ عليه وعلى عبد الله بن وهب يحيى بن يحيى الليثي ناشر مذهب مالك في الأندلس ، وكان قد حضر دروس مالك في كتابه الموطأ وتفقه بهذين المصريين<sup>(٢)</sup> ثم عاد إلى موطنه ينشر المذهب حتى غلب على أهل الأندلس كما غلب على أهل المغرب . ومن كبار تلاميذ مالك المصريين أيضا عبد<sup>(٣)</sup> الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤ وإليه أفضت رئاسة المالكية في مصر بعد ابن القاسم وابن وهب ، وخلفه على رياسته ابنه محمد<sup>(٤)</sup> المتوفى سنة ٢٦٨ . وكان يعاصره الحارث<sup>(٥)</sup> بن مسكين ، وقد حمله المأمون إلى بغداد في أيام محنة خلق القرآن ، وسجنه لأنه لم يجب إلى القول بخلقهم ، ورد إليه حريته المتوكل وولاه قضاء مصر سنة سبع وثلاثين ومائتين ، وظل يتولى قضاءها ثمانى سنوات ، وتوفى سنة ٢٥٠ . ويعد السيوطي في حسن المحاضرة من تلامذة ابن وهب وابن القاسم وعبد الله بن عبد الحكم خمسة عشر فقيها مالكيًا اشتهروا بمصر . ومن نلتقى به في أوائل القرن الرابع أحمد<sup>(٦)</sup> بن الحارث بن مسكين ، جلس مجلس أبيه بعده بجامعة عمرو ويدرس للناس الفقه المالكي حتى توفى سنة ٣١١ . وكثير من الفقهاء حينئذ يُنسبون إلى الإسكندرية والصعيد ، إذ كان المذهب منتشرًا بهما . ومن فقهاء الإسكندرية أبو الحسن<sup>(٧)</sup> المعافري قاضيها

المذهب ٢٣١ والسبكي ٦٧/٢ والواق بالوفيات ٣٣٨/٣ والشترات ١٥٤/٢ وميزان الاعتدال ٦١١/٣ .  
(٥) انظر في الحارث رفع الإصر عن قضاء مصر ١٦٧/١ والسبكي ١١٣/٢ وتذكرة الحفاظ ٥١٤ وتاريخ بغداد ٢١٦/٨ وابن خلكان ٥٦/٢ .  
(٦) راجع أحمد في حسن المحاضرة ٤٤٩/١ والديباج المذهب ٣٧ .  
(٧) انظر في المعافري حسن المحاضرة ٤٤٩/١ والغفر ٢٥٠/٢ .

(١) انظر في ابن القاسم الديباج المذهب ١٤٦ وابن خلكان ١٢٩/٣ وتذكرة الحفاظ ٣٥٦ والتهديب لابن حجر ٢٥٢/٦ والشترات ٣٢٩/١ وحسن المحاضرة ٣٠٣/١ .  
(٢) المغرب لابن سعيد (نشر دار المعارف) ١٦٣/١ .  
(٣) انظر في عبد الله بن عبد الحكم حسن المحاضرة ٣٠٥/١ والديباج المذهب ٩٨ وعبر الذهبي ٣٦٦/١ وابن خلكان ٣٤/٣ وتهديب التهديب ٢٨٩/٥ والشترات ٣٤/٢ .  
(٤) راجع في محمد حسن المحاضرة ٣٠٩/١ والديباج

المتوفى سنة ٣٣٩ وكان يعاصره أبو الذكر<sup>(١)</sup> الأسواني قاضى مصر المتوفى سنة ٣٤٠. ونمضى إلى زمن الفاطميين ، وقد عدَّ السيوطى من الفقهاء المالكيين لعهدهم ستة عشر فقيها ، منهم أبو<sup>(٢)</sup> بكر النعالى إمام المالكية بمصر فى وقته . وإليه كانت الرحلة والإمامة بمصر ، وكانت حلقة فى الجامع تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها . توفى سنة ٣٨٠ . ومنهم أبو القاسم<sup>(٣)</sup> الجوهري المتوفى سنة ٣٨١ مصنف مسند الموطأ لإمام المذهب مالك . ونزل بالقاهرة القاضى عبد<sup>(٤)</sup> الوهاب فقيه بغداد المالكى وكان شاعراً بارعاً ، ويقال إنه يوم فصل عن بلده شيعه من أكابرها وأصحاب محابرها جملة وافرة وأنه قال لهم : لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ما عدلت بيلدكم بلوغ أمانة ، واجتاز بمجرة النعان بلدة أبى العلاء فأضافه ، وله فى الإشادة بفقهاء وبشعره :

إذا تفقه أحيا مالكا جدلا ويُنشرُ الملك الضِّلِيل إن شعرا

والملك الضليل : امرؤ القيس . وتوجه إلى مصر فحمل لواء المالكية بها وانتالت فى يديه الرغائب . ولم يلبث أن أم به مرض الموت سنة ٤٢٢ فكان يقول - كما مر بنا - لا إله إلا الله عندما عشنا متنا . ومن كبار فقهاء المالكية حينئذ أبو<sup>(٥)</sup> بكر الطرطوشى نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ٥٢٥ . واشتهر بكتابين له فى السياسة ألفها أو ألف أحدهما لوزير الفاطميين المأمون البطائحي هما سراج الملوك وسراج الهدى . ومن تلاميذه سند<sup>(٦)</sup> بن عنان الأزدي المتوفى سنة ٥٤١ خلفه فى حلقة وانتفع به الناس وله شرح المدونة . وكان يعاصره أبو القاسم<sup>(٧)</sup> بن مخلوف الإسكندري أحد الأئمة الكبار من المالكية ، تفقه به أهل الثغر زمانا .

ونمضى إلى زمن الدولة الأيوبية ، ويلقانا صدر الإسلام أبو الطاهر<sup>(٨)</sup> إسماعيل بن مكى تلميذ

- الطرطوشى المتوفى سنة ٥٨١ وقد طارت شهرته فى المذهب ، وقصده صلاح الدين الأيوبي وسمع
- (١) راجع فى أبى الذكر حسن المحاضرة ٤٤٩/١  
والطالع السعيد للإدغوى ٣٦٤ .
- (٢) انظر فى النعالى حسن المحاضرة ٤٥٠/١ والديباج المذهب ٢٥٨ .
- (٣) راجع فى الجوهري حسن المحاضرة ٤٥١/١ والعبر ١٧/٣ .
- (٤) انظر فى عبد الوهاب حسن المحاضرة ٣١٤/١ والعبر ١٤٩/٣ وابن خلكان ٢١٩/٣ والديباج المذهب وفوات الوفيات ٤٤/٢ والثغرات ٢٢٣/٣ .
- (٥) راجع فى الطرطوشى حسن المحاضرة ٤٥٢/١ والصلة لابن بشكوال : ٥٤٥ والمغرب ٢٤٢/٢ وابن خلكان ٢٦٢/٤ والعبر ٤٨/٤ وأزهار الرياض ١٦٢/٣ .
- (٦) انظر فى سند حسن المحاضرة ٤٥٢/١ والديباج المذهب ١٢٦ .
- (٧) راجع فى ابن مخلوف حسن المحاضرة ٤٥٣/١ .
- (٨) انظر فى أبى الطاهر حسن المحاضرة ٤٥٢/١ والديباج المذهب ٩٥ .

منه الموطأ ، وله مصنفات ، قال فيه ابن فرحون : كان إمام عصره في المذهب وعليه مدار الفتوى . ومربنا أن صلاح الدين أنشأ مدرسة للمالكية هي المدرسة القمحية ، وتبعه ابن شكر وزير أخيه العادل ، فأنشأ لهم مدرسة ثانية هي المدرسة الصاحبية ، وأنشأ لهم وللشافعية القاضي الفاضل مدرسة مشتركة هي المدرسة الفاضلية ، وجعل الصالح أيوب مدرسته للمذاهب الأربعة . وأتاح ذلك كله للفقه المالكي بمصر نشاطا واسعا منذ زمن الأيوبيين ، ومن كبار فقهاءه حيثثد ابن شاس<sup>(١)</sup> عبد الله بن محمد شيخ المالكية وصاحب كتاب الجواهر الثمينة في المذهب ، درس بالمدرسة القمحية ، استشهد مجاهداً الفرنج بدمياط حين حاصروها سنة ٦١٦ - ٦١٨ . ومن مدرسى هذه المدرسة الحسين<sup>(٢)</sup> بن عتيق ابن رشيق شيخ المالكية وصاحب الفتيا في وقته ، توفي سنة ٦٣٢ . واشتهر بالإسكندرية من فقهاء المالكية ابن الصفراوى الذى مر ذكره بين القراء . ومن كبار فقهاء المذهب ابن الحاجب الذى مر ذكره بين النحاة ، وله مختصر الفروع في الفقه المالكي اعتمد فيه على جواهر الفقيه ابن شاس وأضاف إليه زيادات من كتب مختلفة ، وله شروح لا تزال مخطوطة ومحفوظة بنور الكتب . وكان يعاصره رفيقه عبد الكرم<sup>(٣)</sup> بن عطاء الله الإسكندراني ، كان إماما في الفقه والأصول والعربية ، ومن تصانيفه شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر الفصل . ومن تصانيفه شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر الفصل .

ونمضى في زمن المماليك ، وولتقى بابي حفص عمر<sup>(٤)</sup> بن عبد الله السبكي المتوفى سنة ٦٦٩ وهو أول من ولى قضاء المالكية حين جعل الظاهر بيبرس من كل مذهب قاضيا . وولى قضاء المالكية بعده نفيس<sup>(٥)</sup> الدين محمد بن هبة الله بن شكر المتوفى سنة ٦٨٠ . وكان يعاصره القرافي<sup>(٦)</sup> شهاب الدين أحمد بن إدريس المتوفى سنة ٦٨٢ ولى التدريس في مدرسة الصالح نجم الدين أيوب المعروفة بالصاحبية وقد صنف في الفقه المالكي وفي الأصول الكتب المفيدة مثل الذخيرة في مذهب مالك وكتاب الفروق في الفقه المالكي وهو مطبوع . وكان يعاصره هو ونفيس الدين ابن

(٤) راجع في عمر السبكي حسن المحاضرة ١/٤٥٧ واللبياح المنهب ١٥٩ .

(٥) انظر في نفيس الدين حسن المحاضرة ١/٤٥٨ .

(٦) راجع في القرافي حسن المحاضرة ١/٣١٦ واللبياح

للذهب ٦٢ والمنهل الصافي لابن تغرى بردى (طبع

دار الكتب) ١/٢١٥ .

(١) انظر في ابن شاس البداية والنهاية ١٣/٨٦ وحسن المحاضرة ١/٤٥٤ .

(٢) راجع في ابن عتيق حسن المحاضرة ١/٤٥٥ واللبياح للذهب ١٠٥ .

(٣) انظر في عبد الكرم حسن المحاضرة

١/٤٥٦ واللبياح للذهب ١٦٧ .

المتبر أحمد بن محمد قاضي الإسكندرية الذي مر ذكره بين المفسرين ، وكان إماماً فاضلاً متبحراً ، وله في الفقه مختصر التهذيب .

ويلقانا في القرن الثامن تاج<sup>(١)</sup> الدين بن عطاء الله الإسكندري المتصوف المشهور المتوفى سنة ٧٠٩ وله في الفقه تهذيب المدونة غير كتب كثيرة في التصوف . وكان يعاصره قاضي القضاة علي<sup>(٢)</sup> بن مخلوف النويري المتوفى سنة ٧١٣ ولي قضاء الديار المصرية ثلاثاً وثلاثين سنة . ومن كبار فقهاء المالكية ابن<sup>(٣)</sup> الحاج محمد بن محمد العبدري المتوفى سنة ٧٣٧ وله كتاب المدخل وهو كتاب نفيس في أربعة أجزاء يصف فيه أحوال البلاد الحلقية والاجتماعية وما يتصل بذلك من العادات عند العامة وغيرها ، مع نقد نزيه ومع بيان للعلاج الشرعي للملأمة . وكان يعاصره الزواوي<sup>(٤)</sup> عيسى بن مسعود المتوفى سنة ٧٤٣ وإليه انتهت رياسة المالكية ، وله مصنفات مختلفة ، منها شرح صحيح مسلم وشرح مختصر ابن الحاجب في الفقه وشرح المدونة ، وتاريخ ومناقب مالك . وأكثر فقهاء المالكية في القرن الثامن شهرة خليل<sup>(٥)</sup> بن إسحق المتوفى سنة ٧٦٧ وله كتاب المختصر في الفقه المالكي ، ويعنى بتدريسه المالكية منذ ظهوره وخاصة في المغرب ويعرف هناك باسم مختصر سيدي خليل . وأهم تلاميذه<sup>(٦)</sup> جبرام بن عبد الله المتوفى سنة ٨٠٥ وله الشامل في الفقه وشرح مختصر أستاذه خليل . ونزل مصر في زمنه عبد الرحمن بن خلدون وعداده في فقهاء المغرب . وولتقى بالبساطي<sup>(٧)</sup> محمد بن أحمد شيخ الإسلام المتوفى سنة ٨٤٢ ولي القضاء ، وكانت إليه الفتيا .

ويظل لفقهاء المالكية نشاطهم في بقية زمن الممالك وفي أيام العثمانيين . ومن أعلامهم في القرن الحادى عشر أبو الإمداد برهان الدين اللقاني المتوفى سنة ١٠٤١ وله مصنفات في علمي الكلام والفقه ، وكان يعاصره نور الدين الأجهوري ، وهو من شيوخ الأزهر المالكية

- (١) انظر في ابن عطاء الله حسن المحاضرة ٤٢٤/١ وطبقات الشمراني ١٩/٢ والسبكي ٢٣/٩ والخطط الجديدة لملى مبارك ٧٠/٧ والبدر الطالع ١٠٧/١ والديباج المنهب ٧٠ وشذرات الذهب ١٩/٦ والدرر الكامنة .
- (٢) راجع في ابن مخلوف النويري حسن المحاضرة ٤٥٨/١ والدرر الكامنة .
- (٣) انظر في ابن الحاج حسن المحاضرة ٤٥٩/١ والديباج المنهب ٣٢٧ والدرر الكامنة ٣٥٥/٤ .
- (٤) راجع في ابن عطاء الله حسن المحاضرة ٤٢٤/١ والدرر الكامنة .
- (٥) انظر في خليل حسن المحاضرة ٤٦٠/١ والديباج المنهب ١١٧ ونيل الأبتهاج ص ٩٥ والدرر الكامنة ١٧٥/٢ ونفع الطيب (طبع بولاق) ١٢٠/٢ .
- (٦) راجع في جبرام حسن المحاضرة ٤٦١/١ والضوء اللامع ٢٠/٣ .
- (٧) انظر في البساطي حسن المحاضرة ٤٦٢/١ والضوء اللامع ٥/٧ .

وله مصنفات مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية . وولتقى بكثيرين من فقهاء المالكية في تاريخ الجبرتي ومن أهمهم الزرقاني <sup>(١)</sup> أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي المتوفى سنة ١١٢٢ خاتمة المحدثين . وشرحه على موطأ مالك مشهور ، وأيضا من أهمهم على <sup>(٢)</sup> بن أحمد بن مكرم العدوي الصعدي إمام المحققين وعمدة المدققين المتوفى سنة ١١٨٩ يقول الجبرتي عنه : « قبل ظهوره لم تكن المالكية تعرف الحواشي على شروح كتبهم الفقهية ، فهو أول من خدم تلك الكتب بها » ويعدّد حواشيه ومن أهمها حاشية له على شرح الزرقاني على موطأ مالك .

وعلى شاكلة ازدهار مذهب مالك الفقهى بمصر كذلك كان مذهب الشافعى <sup>(٣)</sup> مزدهراً ، بل ربما كان أكثر ازدهاراً ، إذ نزل الإمام الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ مصر ، واكمل له فيها مذهبه الفقهى . وحمله عنه تلاميذه من أبنائها ونشروه في العالم الإسلامى ، كما مر بنا في غير هذا الموضوع ، بحيث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة أتباعا . ويتميز مذهبه بإحكامه التوفيق بين المذهب الحنفى مذهب أهل الرأى ، والمذهب المالكى مذهب أهل الحديث ، وهو الذى أسس علم أصول الفقه بمبحثه الرائع الذى سماه الرسالة وفيها يبحث أدلة الأحكام الدينية وما يتصل بها من طرق الاستنباط والاجتهاد . وله في الفقه مصنفه المشهور : الأم ، وهو مطبوع في القاهرة مثل الرسالة ، وعُنى به فقهاء الشافعية طوال هذا العصر فاخصروه وشرحوه مرارا ، ومثلها كتاب السنن المأثورة والمسند . وطبع له على هامش الأم كتاب اختلاف الحديث . وأهم تلاميذه بمصر البويطى والمزنى ، أما البويطى فهو يوسف <sup>(٤)</sup> بن يحيى القرشى الإمام الجليل المتوفى سنة ٢٣١ يقول السيوطى عنه : أحد أئمة الإسلام وأركانها ، كان خليفة الشافعى في حلقة بعده ، وله في الفقه المختصر المشهور الذى اختصره من كلام الشافعى ، وحُمل إلى بغداد في حنة القول بخلق القرآن ، فأصرَّ على رأيه هناك وظل سجينا حتى توفى . والمزنى <sup>(٥)</sup> هو إسماعيل بن يحيى المتوفى سنة ٢٦٤ وقد

(٤) راجع الزرقاني في تاريخ الجبرتي ١/٦٩ .

(٥) راجع ابن مكرم في تاريخ الجبرتي ١/٤١٤ .

(٦) انظر الإمام الشافعى في الجزء الأول من طبقات الشافعية للسبكي وتاريخ بغداد ٢/٥٦ ومعجم الأدياء ١٧/٢٨١ وابن خلكان ٤/١٦٣ وتذكرة الحفاظ ٣٦١

(٧) تهذيب التهذيب ٩/٢٥ وصفة الصفوة ٢/١٤٠ وحلية الأولياء ٩/٦٣ وألف كثيرون في سيرته ومذهبه قدما

(٨) وحديثا .

(٩) راجع في المزيق السبكي ٢/٩٣ والعبر ٢/٢٨

(١٠) واللباب ٣/١٣٣ وابن خلكان ١/٢١٧ والنجوم الزاهرة ٣/٣٩ والسيوطى ١/٣٠٧ وشفرات الذهب ٢/١٤٨ .

أخذ عنه خلائق من علماء خراسان والعراق والشام ، ومضوا فشرخوا المذهب في بلدانهم ، وله في الفقه الشافعي : الجامع الكبير والجامع الصغير والمختصر والمثبور والمسائل المعتمدة وكتاب الوائيق وكتاب العقارب ، سمي بذلك لصعوبته وفي كتاب طبقات الشافعية للسبكي غرائب منه . ومن كبار فقهاء الشافعية بمصر في القرن الثالث أبو زرعة <sup>(١)</sup> محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٠٢ ولى قضاء مصر سنة ٢٨٤ ثمانى سنين ، ثم ولى قضاء دمشق ، فأدخل فيها مذهب الشافعي وحكم به القضاة هناك ، ولم يزل القضاء بعده للشافعية بمصر والشام إلى أن ضم الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ القضاة الثلاثة من مذاهب أبي حنيفة ومالك وابن حنبل إلى الشافعية . وكان يعاصره النسائي وقد مر ذكره بين أهل الحديث ومنصور <sup>(٢)</sup> بن إسماعيل الفقيه المتوفى سنة ٣٠٦ وله مصنفات عدة في المذهب من أهمها كتاب الهداية والواجب والمستعمل والمسافر .

ويلقانا في القرن الرابع أبو إسحق <sup>(٣)</sup> المروزي إبراهيم بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٠ نزيل القسطنطينية وكانت قد انتهت إليه رئاسة المذهب في بغداد وانتشر عنه في البلاد ، وشرح مختصر المزني ، وانتقل إلى القسطنطينية وجلس في مجلس الشافعي واجتمع الناس عليه وضرىوا إليه أكباد الإبل . وكان يعاصره أبو بكر <sup>(٤)</sup> بن الحداد محمد بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٤ قاضي القسطنطينية ، وله كتاب الباهر في الفقه يقال إنه كان في مائة جزء ، وله أيضا كتاب جامع الفقه وكتاب الفروع المولدات الذي شرحه كثيرون . ونمضى إلى زمن الفاطميين ، وقد أحصى السيوطي عشرة من الفقهاء في المائة سنة الأولى من أيامهم ، أهمهم القضاعي <sup>(٥)</sup> أبو عبد الله محمد بن سلامة المتوفى سنة ٤٥٤ مصنف كتاب الشهاب ، ولى قضاء الديار المصرية وأرسل به الخليفة المستنصر إلى الروم رسولا . وأحصى السيوطي في المائة الثانية من أيام الفاطميين تسعة من فقهاء الشافعية أهمهم الخليلي <sup>(٦)</sup> علي بن الحسين المتوفى سنة ٤٩٢ وله في الفقه كتاب المعنى بين البسط والاختصار .

١/ ٣١٣ وتذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٨ والعبر ٢/ ٢٦٤ وابن خلكان ٤/ ١٩٧ والوائق ٢/ ٦٩ والشنرات ٢/ ٣١٧ .  
 (٥) راجع في القضاعي السبكي ٤/ ١٥٠ وابن خلكان ٤/ ٢١٢ والوائق ٣/ ١١٦ والسيوطي ١/ ٤٠٣ والشنرات ٣/ ٢٩٣ .  
 (٦) أنظر في الخليلي السبكي ٥/ ٢٥٣ والعبر ٣/ ٣٣٤ والسيوطي ١/ ٤٠٤ والشنرات ٣/ ٣٩٨ وابن خلكان ٣/ ٣١٧ .

(١) راجع في أبي زرعة السبكي ٣/ ١٩٦ والسيوطي ١/ ٣٩٩ والعبر ٢/ ١٢٣ والشنرات ٢/ ٢٣٩ .  
 (٢) انظر في منصور السبكي ٣/ ٤٧٨ والسيوطي ١/ ٤٠٠ والمغرب في حل المغرب (قسم القسطنطينية) ص ٢٦٢ وابن خلكان ٥/ ٢٨٩ ونكت الهميان ٢٩٧ ومعجم الأديب ١٩/ ١٨٥ والمنظوم ٦/ ١٥٢ .  
 (٣) راجع في المروزي تاريخ بغداد ١١/ ٦ وابن خلكان ١/ ٢٦ والسيوطي ١/ ٣١٢ .  
 (٤) انظر في ابن الحداد السبكي ٣/ ٧٩ والسيوطي

وربما كان أهم منه مجلى<sup>(١)</sup> بن جميع قاضى القضاة المتوفى سنة ٥٥٠ كان من أئمة الفقهاء وكبارهم وله فى الفقه مصنفات أهمها كتابه الذخائر . وكان يعاصره الفقيه الشافعى ابن رفاعة المتوفى سنة ٥٦١ . وبمجرد أن يظل مصر لواء صلاح الدين الأيوبى يؤسس مدرسة للشافعية وثانية للمالكية وثالثة للحنفية كما أسلفنا . وفوض القضاء بمصر للشافعية ، فاتسع نشاطهم ، وقد أسند صلاح الدين مدرستهم للخجوشانى<sup>(٢)</sup> محمد بن الموفق المتوفى سنة ٥٨٧ وله فى الفقه كتاب تحقيق المحيط . ومن كبار فقهاء الشافعية فى عهد الأيوبيين إبراهيم بن منصور العراقى المصرى المتوفى سنة ٥٩٦ رحل إلى العراق وأقام به مدة ثم عاد إلى موطنه فعرف باسم العراقى ، وله شرح على كتاب المهذب لأبى إسحق الشيرازى أول مدرس للمدرسة النظامية ببغداد وكان شرحا كبيرا فى عشرة مجلدات . وكان يعاصره عبد<sup>(٣)</sup> الملك بن عيسى بن درباس المتوفى سنة ٦٠٥ قاضى قضاة الشافعية فى عهد صلاح الدين ، وأتاب عنه أخاه عثمان<sup>(٤)</sup> فى قضاء القاهرة وله شرح على المهذب سماه الاستقصاء ، وشرح ثان على كتاب اللمع لأبى إسحق الشيرازى ، توفى سنة ٦٢٢ . ويلقانا محمد<sup>(٥)</sup> بن عين الدولة المتوفى سنة ٦٣٩ قاضى القضاة بالقاهرة والوجه البحرى ، واشتهر لزمه بأنه رد شهادة السلطان الكامل ، وقال له : أنت تحكم ولا تشهد . وأهم الفقهاء بعده فى زمن الأيوبيين العز<sup>(٦)</sup> بن عبد السلام وقد مررنا فى الفصل السابق حديث عنه مع الماليك ، ولى خطابة جامع عمرو بن العاص بالقسطاط والقضاء بها وبالوجه القبلى . ولما بنى السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدرسته الصالحية فوض تدريس الشافعية بها إليه ، وطالت أيامه إلى زمن الماليك إذ توفى سنة ٦٦٠ وله فى الفقه كتاب القواعد الكبرى ومصنفات مختلفة ومر بنا أن له تفسيرا وكتابا فى مجاز القرآن .

وقد أحصى السيوطى من فقهاء الشافعية زمن الماليك أكثر من مائة فقيه ، لأكثرهم مصنفات

(٤) انظر فى عثمان السبكى ٣٣٧/٨ والسيوطى ٤٠٨/١ والشذرات ٧/٥ وابن خلكان ٢٤٢/٢ .  
 (٥) راجع فى ابن عين الدولة السبكى ٦٣/٨ والسيوطى ٤١٢/١ والعبر ٩٦٢/٥ والشذرات ٢٠٥/٥ .  
 (٦) انظر فى العز السبكى ٢٠٩/٨ والسيوطى ٣١٤/١ والشذرات ٣٠١/٥ والعبر ٢٦٠/٥ ومرآة الجنان ١٥٣/٤ وفوات الوفيات ٥٩٤/١ والنجوم الزاهرة ٢٠٨/٧ .

(١) راجع فى مجلى السبكى ٢٧٧/٧ والسيوطى ٤٠٥/١ والعبر ١٤١/٤ والشذرات ١٥٧/٤ وابن خلكان ١٥٤/٤ .  
 (٢) انظر فى الخجوشانى السبكى ١٤/٧ والسيوطى ٢٦٢/١ وابن خلكان ٢٣٩/٤ والعبر ٢٦٢/٤ والشذرات ٢٨٨/٤ والنجوم الزاهرة ١١٥/٦ .  
 (٣) راجع فى ابن درباس السيوطى ٤٠٨/١ ورفع الإصر : ٣٦٧ .

وشروح على أمهات كتب الفقه الشافعي ، ومن أهمهم ابن <sup>(١)</sup> دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ وهو تلميذ العزيز عبد السلام وله مصنفات كثيرة في الفقه والحديث ومصطلحه . وكان يعاصره ابن الرفعة أحمد <sup>(٢)</sup> بن محمد المتوفى سنة ٧١٠ وهو ثالث الشيخين : الرافعي القزويني والنووي الدمشقي في الاعتماد عليه في ترجيح الآراء الفقهية في مذهب الشافعي ، درّس بالمدرسة المعزية وتولى الحسبة ، وصنف تصنيفين عظيمين هما الكفاية في عشرين مجلدا والمطلب في ستين مجلدا ومن كبار الفقهاء الشافعية القمولى <sup>(٣)</sup> أحمد بن محمد المتوفى سنة ٧٢٧ صاحب البحر المحيط في شرح الوسيط للغزالي وكتاب جوامع البحر جمع فيه فأوعى . وكان يعاصره بدر <sup>(٤)</sup> الدين بن جماعة قاضي القضاة بالديار المصرية المتوفى سنة ٧٣٣ وله تصنيفات في فنون كثيرة . وتلقى بالزركنبولوى <sup>(٥)</sup> أبي بكر بن إسماعيل المتوفى سنة ٧٤٠ وله شرح على التنبيه لأبي إسحق الشيرازي عم النفع به وشرح ثان على المنهاج للنووي . وكان يعاصره سليمان <sup>(٦)</sup> بن جعفر الإسنى المتوفى سنة ٧٥٦ صنف طبقات الشافعية وهو مطبوع وتلقى بتقى <sup>(٧)</sup> الدين السبكي على بن عبد الكافي المتوفى في نفس السنة المذكورة تلميذ ابن الرفعة وله مصنفات كثيرة في الفقه وشروح كتبه الكبرى . ومن تلاميذه ابنه بهاء الدين السبكي الذي مرّ ذكره بين البلاغيين ، وله في الفقه شرح على كتاب الحاوى للشيخ نجم الدين القزويني المتوفى سنة ٦٦٥ . وكان يعاصره عبد <sup>(٨)</sup> الرحيم بن الحسن الإسنى المتوفى سنة ٧٧٧ صاحب التصانيف السائرة ، منها المهات والجواهر وشرح المنهاج والفروع وإليه انتهت رئاسة الشافعية في زمانه .

- ١/ ٤٢٥ والدرر الكامنة ٣/ ٣٦٧ وفوات الوفيات  
 ٢/ ٣٥٣ ونكت الحميان ٢٣٥ ومرآة الجنان ٤/ ٢٨٧  
 والنجوم الزاهرة ٩/ ٢٩٨ .  
 (٥) انظر في الزركنبولوى السيوطى ١/ ٤٢٦ والشفرات  
 ١٢٥/٦ .  
 (٦) راجع في سليمان السيوطى ١/ ٤٢٩ .  
 (٧) السبكي ترجم له ابنه بهاء الدين في طبقات الشافعية  
 ١٠/ ١٣٩ وانظر في ترجمته السيوطى ١/ ٣٢١ والدرر  
 الكامنة ٣/ ١٣٤ .  
 (٨) انظر في الإسنى السيوطى ١/ ٤٢٩ والدرر الكامنة  
 ٢/ ٤٦٣ .

- (١) راجع في ابن دقيق العيد السبكي ٩/ ٢٠٧  
 والسيوطى ١/ ٣١٧ والشفرات ٦/ ٥ والبدر الطالع  
 ٢/ ٢٢٩ ومرآة الجنان ٤/ ٢٣٦ والرافى ٤/ ١٩٣ والطالع  
 السعيد للإدغوى ٣١٧ وفوات الوفيات ٢/ ٤٨٤ والدرر  
 الكامنة ٤/ ٣١٠ وتذكرة الحفاظ ١٤٨١ .  
 (٢) انظر في ابن الرفعة السبكي ٩/ ٢٤ والسيوطى  
 ١/ ٣٢٠ والشفرات ٦/ ٢٢ ومرآة الجنان ٤/ ٢٤٩ والبدر  
 الطالع ١/ ١١٥ والدرر الكامنة ١/ ٣٠٣ .  
 (٣) راجع في القمولى السبكي ٩/ ٣٠ والسيوطى  
 ١/ ٤٢٤ والدرر الكامنة ١/ ٣٢٤ والشفرات ٦/ ٧٥  
 والطالع السعيد ١٢٥ والنجوم الزاهرة ٨/ ٢٧٩ .  
 (٤) راجع في ابن جماعة السبكي ٩/ ١٣٩ والسيوطى

ويلقانا ابن<sup>(١)</sup> الملقن المتوفى سنة ٨٠٤ وهو أكثر أهل زمنه تصنيفاً ، ومن تصانيفه شرح التنبيه وشرح الحاوى وشرح المنهاج وشرح كتاب العمدة وما به من أحاديث موزعة على أبواب الفقه . وتوفى بعده بعام شيخ الإسلام البلقيني<sup>(٢)</sup> عمر بن رسلان وله في الفقه والحديث والتفسير تصانيف مختلفة ، وحمل عنه فقهه وعلمه ابنه علم الدين صالح المتوفى سنة ٨٦٨ وهو شيخ السيوطي . وكان يعاصره فقيهان هما المحلى والمناوى وبهما ختم السيوطي حديثه عن فقهاء الشافعية . وبعد السيوطي نفسه خاتمهم الحقيقى إذ توفى سنة ٩١١ كما مر بنا في الحديث عن اللغويين وله في الفقه مصنفات كثيرة منها مختصر الروضة للنووى وحاشية عليها ومختصر لكتاب التنبيه وشرح عليه وكتاب الأشباه والنظائر ، واللوامع والبوارق في الجوامع والفوارق ، غير رسائل كثيرة أحصاها في ترجمته لنفسه بحسن المحاضرة . وملتقى بالشيخ زكريا<sup>(٣)</sup> الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٦ وله في الفقه مختصر مشهور هو المنهج وله شروح مختلفة .

ونخصى إلى زمن العثمانيين ويظل التصنيف في الفقه الشافعى ناشطاً . ومن كبار الفقهاء في القرن العاشر ابن حجر<sup>(٤)</sup> الهيثمى المتوفى سنة ٩٧٣ وله الفتاوى الهيثمية طبعت بمصر في أربعة مجلدات . وكان يعاصره شمس الدين الشربيني الخطيب الذى مر ذكره بين المفسرين ، وله في الفقه شرح منهاج النووى ، وهو مطبوع ، وله شرح على متن أبى شجاع ، ولسليمان البجيرمى حاشية عليه . ويكتظ كتاب تاريخ الجبرتي بأسماء فقهاء الشافعية وأشهر أئمتهم حينئذ الرملى<sup>(٥)</sup> المتوفى سنة ٩٥٧ وفتاويه تكتظ بها كتب الفقه الشافعى بعده .

وظلت مصر لا تعرف المذهب الحنبلى طويلاً ، ويعلل السيوطى ذلك بأن المذهب لم يبرز خارج العراق إلا في القرن الرابع ، وكان الفاطميون بمصر وكانوا لا يهتمون بغير عقيدتهم الشيعية الغالية ، ويقال إنهم اضطهدوا في أول أمرهم المذاهب الثلاثة التى كانت قائمة بمصر ، وهى مذاهب الشافعية والملكية والحنفية ، فتأخر ظهور المذهب الحنبلى ، وأول إمام لهم نزل مصر الحافظ عبد الغنى<sup>(٦)</sup> الجماعى المقدسى المتوفى سنة ٦٠٠ صاحب كتاب عمدة الأحكام فى معالم

(٤) راجع فى ابن حجر الهيثمى مقدمة فتاويه والشذرات  
اللامع ١٠٠/٦ وشذرات الذهب ٤٤/٧ .  
٣٧٠/٨ والنور السافر ص ٢٨٧ والبدر الطالع ١/١٠٩ .

(٥) انظر فى الرمل الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة  
للغزى ١١٩/٢ والحفظ التوفيقية (طبعة بولاق) ٤/١١٩ .

(٦) انظر مصادر ترجمة عبد الغنى المقدسى فى قسم الشام  
ص ٥٨٤ .

(١) راجع فى ابن الملقن السيوطى ٤٣٨/١ والضوء  
اللامع ١٠٠/٦ وشذرات الذهب ٤٤/٧ .

(٢) انظر فى البلقينى السيوطى ٣٢٩/١ والضوء اللامع  
رقم ٢٨٦ والشذرات ٥١/٧ .

(٣) انظر فى الشيخ زكريا الضوء اللامع ج ٣ رقم ٨٩٢  
والكواكب السائرة ١/١٩٦ والبدر الطالع ١/٢٥٢ والنور

السافر ص ١٢٥ .

الحلال والحرام عن خير الأنام ، وله شروح كثيرة . ولمؤلف العمدة كتاب الكمال في معرفة أسماء الرجال ، وصنع له تهذيبا المزي جمال الدين يوسف بن الزكي وأكمل التهذيب مُعطى الذى مر ذكره . وأخذ المذهب الحنبلى يشيع في مصر منذ أنشأ السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدرسته الصالحة سنة ٦٤١ إذ جعل للمذهب الحنبلى ودرسته فيها إيوانا بجانب أوابين المذاهب الثلاثة السابقة ، ودعم ذلك الظاهريبيرس بضم قضاة للحنابلة والمالكية والحنفية بجانب قاضى الشافعية . وتوالى اهتمام الماليك ، في تأسيس مدارسهم ، بالفقه الحنبلى وفقهائه بجانب فقهاء المذاهب الثلاثة الأخرى على نحو ما مر بنا في صدر هذا الفصل . ويترجم السيوطى في حسن المحاضرة لعشرين من فقهاء المذهب وقضاته في مصر مثل نجم<sup>(١)</sup> الدين أحمد بن حمدان الحرانى المتوفى سنة ٦٩٥ مؤلف الرعاية الكبيرة وعمر<sup>(٢)</sup> بن عبد الله المقدسى قاضى الديار المصرية المتوفى سنة ٦٩٦ وموفق<sup>(٣)</sup> الدين عبد الله بن عبد الملك المقدسى قاضى الديار المصرية لنحو ثلاثين سنة توفى سنة ٧٦٩ ، وناصر<sup>(٤)</sup> الدين نصر الله بن أحمد الكنانى المتوفى سنة ٧٩٥ ناب عن موفق الدين في قضاء الحنابلة ثم استقل به ستا وعشرين سنة ، وعاد<sup>(٥)</sup> الدين الحنبلى أبو بكر بن أبى المجد المتوفى سنة ٨٥٤ صنّف تجريد الأولمر والنواهى من كتب الصحاح الستة ، واختصر تهذيب الكمال للمزنى . ويختم السيوطى فقهاء الحنابلة زمن الماليك بأستاذه أحمد<sup>(٦)</sup> بن إبراهيم الكنانى العسقلانى الأصل المصرى المولد ، وفيه يقول : ولى قضاء الحنابلة بالديار المصرية ، ودرّس للحنابلة بغالب مدارس القاهرة ، وله تعاليق وتصانيف ومسودات كثيرة في الفقه وأصوله والحديث والعربية ، ومنها مختصر كتاب المحرر للرافعى توفى سنة ٨٧٦ . ويظل الفقه الحنبلى ناشطا بمصر زمن العثمانيين ، وفي كتاب تاريخ الجبرتي أسماء كثيرين من فقهاء الحنابلة ومن أكبر أئمتهم مرعى<sup>(٧)</sup> بن يوسف المتوفى سنة ١٠٣٣ وله مؤلفات كثيرة في المذهب ، منها غاية المنتهى . ويبدو أن المذهب الظاهرى ظل معروفا بمصر وظل علماء يعنون به ويتدارسونه ، ونلتقى في كتب التراجم من حين إلى آخر

٦/٣٤٣ والدرر الكامنة ٥/١٦٣ وإنباء الغمر ١/٤٦٦ .

(٥) راجع في عاد الدين السيوطى ١/٤٨٢ والضوء

اللامع ١١/٦٦ والشذرات ٧/٤٢ .

(٦) انظر في الكنانى السيوطى ١/٤٨٤ والضوء اللامع

١/٢٠٥ والشذرات ٧/٣٢١ .

(٧) خلاصة الأثر ٤/٣٥٨ .

(١) انظر في نجم الدين السيوطى ٢/٤٨٠ والشذرات

٥/٤٢٨ والمنهل الصافى ١/٢٧٢ .

(٢) انظر في عمر المقدسى السيوطى ١/٤٨٠ والشذرات

٥/٤٣٦ والنجوم الزاهرة ٨/١١١ .

(٣) راجع في موفق الدين السيوطى ١/٤٨١ والشذرات

٦/٢١٥ .

(٤) انظر في ناصر الدين السيوطى ١/٤٨١ والشذرات

بأسماء من كانوا يعتقدون هذا المذهب مثل بدر الدين محمد بن إبراهيم المعروف بالبشتكى المتوفى سنة ٨٣١ .

ومعروف أنه حين حكم الفاطميون مصر كانوا يولون على القضاء فقهاء من عقيدتهم ، ومربنا في الفصل الأول بيان لمبادئ عقيدتهم الأساسية وإشارة إلى بعض آرائهم الفقهية التي خالفوا فيها الجماعة ، وأول قضاتهم بمصر النعمان<sup>(١)</sup> بن منصور التميمي الملقب بأبي حنيفة الشيعة ، كان في أول أمره مالكيا ، ثم تحول إلى مذهب الإمامية الشيعي ، ثم انتقل إلى عقيدة الإسماعيلية في خدمة المعز لدين الله بإفريقية ، وقدم معه إلى مصر فأسند إليه القضاء ، ولم يلبث أن توفي سنة ٣٦٣ . وله مصنفات فقهية شيعية مختلفة أهمها كتابه « دعائم الإسلام في الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله » وهو المصدر الأساسي في الفقه وعلم الكلام عند الشيعة الإسماعيلية . ونشر له المرحوم الدكتور محمد كامل حسين كتاب الهمة في آداب اتباع الأئمة ، وذكر في مقدمته له كثيرا من الكتب الفقهية الإسماعيلية .

وظل القضاء الفاطمي بعده في بيته إلى نهاية القرن الرابع الهجري . وينزل مصر سنة ٤٠٧ كبير دعاة الفاطميين وفقهائهم في الشرق حميد<sup>(٢)</sup> الدين الكرمانى ولا يلبث أن يتوفى سنة ٤٠٨ ومن أهم مصنفاته كتاب «راحة العقل» الذى حققه ونشره المرحومان : الدكتور محمد مصطفى حلمى والدكتور محمد كامل حسين ، وهو يزخر بمسائل فلسفية وعقيدية متشابكة . وينزل مصر بعده المؤيد<sup>(٣)</sup> فى الدين هبة الله الشيرازى أكبر دعاة الفاطميين وفقهائهم فى القرن الخامس ، وقد ظل بها نحو ٣٠ عاما حتى توفي سنة ٤٧٠ وأهم مصنفاته المجالس المؤيدية ، وهى ثمانمائة مجلس فى العقيدة الفاطمية وتشتمل على كثير من المسائل العقيدية والفقهية ، ونشر الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر فى القاهرة ملخصا لهذه المجالس من صنعة حاتم بن إبراهيم . ونعيد هنا ما قلناه فى الفصل الأول من أن هذه العقيدة وكل ما اتصل بها من فقه وغير فقه ، ظلت غريبة فى مصر ، وظل المصريون مبتعدين عنها حتى انتهت تلك الدولة الشيعية المتطرفة .

كتابه راحة العقل .

(٣) راجع فى المؤيد فى الدين السيرة المؤيدية بتحقيق

د. محمد كامل حسين وكتابه فى آداب مصر الفاطمية

ص ٥٩ ، ١١٦ .

(١) راجع فى النعمان ابن خلكان ٤١٥/٥ ولسان الميزان

١٦٧/٦ والشلوات ٤٧/٣ ومرواة الجنان ٣٧٩/٢

والنجوم الزاهرة ١٠٦/٤ ومقدمة كتاب الهمة فى آداب

اتباع الأئمة وكتاب دعائم الإسلام .

(٢) انظر فى حميد الدين بر وكلمان ٣٥٥/٣ ومقدمة

ومرّ بنا أن الشافعي هو الذي أسس علم أصول الفقه ورفع أركانه وشاد بنيانه ، فكان طبيعياً أن تظل مصر بعده عاكفة على هذا العلم وأن يلقانا كثيرون من فقهاء الشافعية منكبين عليه ، وسرى ذلك منهم إلى فقهاء الحنفية ، بل أيضاً إلى فقهاء المالكية والحنابلة . ولن نستطيع أن نلم بما كتب في هذا الميدان لكثرة ، ولذلك سنكتفي بذكر بعض كتبه المهمة ، من ذلك كتاب الإحكام في أصول الأحكام لسيف<sup>(١)</sup> الدين الآمدي نزيل مصر سنة ٥٩٢ المتوفى سنة ٦٣١ وهو من أجمع وأروع ما وضع في هذا العلم . ولابن الحاجب الذي مر ذكره بين النحاة مختصر له شُرح مرارا وتكرارا ، ولشمس<sup>(٢)</sup> الدين الأصفهاني بعده المتوفى سنة ٦٨٨ شرح كبير لكتاب المحصول في علم الأصول لفخر الدين الرازي . ولهباء الدين السبكي المذكور في فقهاء الشافعية كتاب بديع في الأصول سماه جمع الجوامع .

ولم ينشأ في مصر مذهب مستقل في علم الكلام ، فقد كانت تعتمد دائماً على ما يأتيها من الخارج ، غير أنه يلاحظ أنه منذ عهد صلاح الدين غلب مذهب الأشعري الذي يقف بين المعتزلة وأهل السنة ، يقول المقرئ في الحديث عن مذاهب أهل مصر : « وأما العقائد فإن السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري .. وشرط ذلك في أوقافه التي بديار مصر كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الإمام الشافعي من القرافة والمدرسة التي عُرفت بالشريفية بجوار جامع عمرو بن العاص والمدرسة المعروفة بالقمحية وخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ، فاستمر الحال على عقيدة الأشعري بديار مصر وبلاد الشام وأرض الحجاز واليمن وبلاد المغرب أيضاً لإدخال ابن تومرت رأياً الأشعري إليها<sup>(٣)</sup> . ولعل أكبر كتاب أشعري ألف في مصر كتاب أبحار الأفكار لسيف الدين الآمدي المذكور آنفاً وفيه مباحث كبرى عن العلم والنظر وأقسام المعلوم والنبوت والمعاد . ويظل التأليف في علم الكلام على مذهب الأشعري ناشطاً حتى نهاية زمن العثمانيين .

١٠٠/٨ والسيوطي ٥٤٢/١ والعبر ٣٥٩/٥ والشنترت

٤٠٦/٥ وفوات الوفيات ٥٢٣/٢ ومرآة الجنان

٢٠٨/٤

(٣) خطط المقرئ ٢٧٩/٣ .

(١) أنظر في الآمدي ابن خلكان ٢٩٣/٣ والسبكي

٣٠٦/٨ والسيوطي ٥٤١/١ والعبر ١٢٤/٥ والشنترت

١٤٤/٥ ولسان الميزان ١٣٤/٣ وميزان الاعتدال

٢٥٩/٢ والنجوم الزاهرة ٢٨٥/٦ .

(٢) راجع في شمس الدين الأصفهاني السبكي

## التاريخ

نشطت مصر في كتابة التاريخ منذ مطلع القرن الثالث للهجرة ، وقد كتبت في جميع ألوانه : في التاريخ العام أو تاريخ الدول العربية ، وفي التاريخ الخاص بتاريخ دولها وحكامها المختلفين . وفي تاريخ المدن وخاصة القاهرة والإسكندرية ، وتاريخ الرجال وتاريخ العلماء من كل صنف وتاريخ الشعراء والأدباء . وبجانب ذلك عُنيت بكتابة السيرة . ولها في كل ذلك نشاط واسع ، ولعل من الخير أن نتعقبه على مر القرون .

وأول ما يلقانا من ذلك في القرن الثالث للهجرة ، السيرة النبوية لعبد<sup>(١)</sup> الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ وقد طبقت شهرتها العالم الإسلامي ، ولمصر فضل إهدائها إلى هذا العالم وتداولها فيه إلى اليوم ، وإنما لتعد أوثق مصدر يرجع إليه مؤرخو السيرة المحمدية . ويلقانا بعدها كتاب فتوح مصر والمغرب لعبد<sup>(٢)</sup> الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ . ويكتب محمد بن عبد الله بن الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ سيرة لعمر بن عبد العزيز ، وهي مطبوعة بالقاهرة .

ويلقانا من المؤرخين المصريين في القرن الرابع الهجري مؤرخ قبلي هو سعيد<sup>(٣)</sup> بن البطريق الذي تقلد منصب بطريك الإسكندرية سنة ٣٢١ وظل يشغله حتى توفي سنة ٣٢٨ وله تاريخ سماه نظم الجوهر ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه ثلاث مقالات أو ثلاثة أبواب : باب عن التصارى وصومهم وإفطارهم وتاريخهم وأعيادهم ، وباب أو مقالة عن تواريخ الخلفاء والملوك المتقدمين ، ومقالة أو باب عن تاريخ البطارقة وأحوالهم وما جرى في ولاياتهم . وكتاب سعيد

للذهبي ٨٦/٣ .

(٣) انظر ابن البطريق في ابن أبي أصيبعة ص ٤٥٥ ودائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان (الطبعة العربية) ٧٧/٣ وما هما من مراجع وقد طبع كتاب ابن البطريق في أكسفورد ونشره اليسوعيون في بيروت ونشر ذيله روزن في لينتجراد في القرن الماضي .

(١) انظر عبد الملك بن هشام في ابن خلكان ١٧٧/٣ وشرح سيرته للسهيلى المسى الروض الأصف : مقدمته ، وعبر الذهبي ٣٧٤/١ والسيوطي ٥٣١/١ وإنباه الرواة ٢١١/٢ .

(٢) راجع عبد الرحمن في ابن خلكان ٣٥/٣ والسيوطي ٤٤٦/١ ، ٥٥٣ ، والديباج لابن فرحون والميزان

إشارة قوية إلى تعرب القبط حينئذ واستيعابهم العربية . وذُيِّل على هذا الكتاب يحيى بن سعيد الأنطاكي بتكلمة أرخ فيها من سنة ٣٢٦ حتى سنة ٤٢٥ وكان قد نزل أنطاكية سنة ٤٠٣ ووجد بها من الوثائق عن الدولة البيزنطية وبطاركة أنطاكية والقسطنطينية في تلك الحقبة ما ضمه إلى أخبار بطاركة الإسكندرية وأخبار الدولتين العباسية والفاطمية . وكان يعاصر سعيد بن البطريق أحمد<sup>(١)</sup> بن يوسف بن الداية المتوفى سنة ٣٤٠ وله كتاب سيرة أحمد بن طولون ، وضمن ابن سعيد في كتابه المغرب - القسم الخاص بالفسطاط - أكثر هذه السيرة ، وعليه اعتمد البلوى فيما كتبه عن ابن طولون وآله . ولابن الداية أيضا كتاب في أخبار الأطباء مفقود ، وكتاب في السياسة نشر في بيروت ، وسنعرض في حديثنا عن النثر لكتابه « المكافأة » . وكان يعاصره عبد الرحمن<sup>(٢)</sup> بن أحمد بن يونس الصدفي المتوفى سنة ٣٤٧ وقد وضع في التراجم كتابين : كتابا عن علماء مصر وكتابا عن الغرباء الواردين على مصر ، وهما مفقودان مثل كتاب ثالث له ذكره صاحب كشف الظنون ، وهو في تاريخ الصعيد . وملتقى بمحمد<sup>(٣)</sup> بن يوسف الكندي المتوفى سنة ٣٥٠ وله كتابان : ولاية مصر أو أمراؤها حتى سنة ٣٣٥ وكذلك قضاتها ، نشرهما جيست ، وهما كتابان نفيسان . وملتقى في أوائل زمن الفاطميين بابن<sup>(٤)</sup> زولاق الحسن بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٨٧ وله كتاب سيرة محمد بن طفج الإخشيد ، احتفظ بأكثره ابن سعيد في كتاب المغرب : قسم الفسطاط ، وكانت له أيضا - وفقدت - سيرة جوهر وسيرة المعز وسيرة العزيز وتاريخ السنين ، وتكلمة لكتاب الولاية وكتاب القضاة للكندي وطبع له كتاب أخبار سيديوه المصري . ويلقانا بعده الطحان أبو القاسم يحيى<sup>(٥)</sup> بن علي الحضرمي المتوفى سنة ٤١٦ وله ذيل على تاريخ ابن يونس الصدفي ، كما يلقانا الروذباري أحمد<sup>(٦)</sup> بن الحسين معاصره وله كتاب في تاريخ خلفاء مصر حتى زمن الحاكم سماء « بلشكر الأدباء » وينقل ابن سعيد عنه في قسم القاهرة من كتابه المغرب مرارا ،

(٤) انظر ابن زولاق في السيوطي ١/ ٥٥٣ وابن خلكان ٩١/٢ ولسان الميزان ٢/ ١٩١ .  
 (٥) انظر الطحان في ابن خلكان ٣/ ٢٢٣ وانظر بروكلمان ٦/ ٨٤ .  
 (٦) راجع الروذباري في المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٦٣ .

(١) انظر مصاحف ابن الداية في كتابه المكافأة في الفصل الخامس من هذا الكتاب .  
 (٢) راجع ابن يونس في السيوطي ١/ ٣٥١ ، ٥٥٣ وابن خلكان ٣/ ١٣٧ وفوات الوفيات ١/ ٥٢٦ والشذرات ٢/ ٣٧٥ وعبر النهي ٢/ ٢٧٦ .  
 (٣) انظر في الكندي السيوطي ١/ ٥٥٣ ودائرة المعارف الإسلامية . و بروكلمان ٣/ ٨٢ .

وعليه اعتمد فيما ذكره من أخبار الحاكم . وكان يعاصره هو والطحان المسيحي <sup>(١)</sup> الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله المتوفى سنة ٤٢٠ ، وقد ترجم له ابن سعيد في المغرب ترجمة ضافية ذكر فيها مصنفاته الكثيرة . وأهمها تاريخه الكبير عن مصر وولائها وخلفائها الفاطميين ، سماه « كتاب أخبار مصر وفضائلها وعجائبها وطرائفها وغرائبها وما بها من البقاع والآثار وسير من حلها من الولاة والأمراء والأئمة الخلفاء آباء أمير المؤمنين » وقد نشرت منه هيئة الكتاب قطعة صغيرة تؤرخ سنتي ٤١٤ و ٤١٥ للهجرة . وتلقانا سيرتان إيام الفاطميين : سيرة جوذر الصقلي أحد رجال الدولة الفاطمية قبل استيلائها على مصر ، وهي منشورة ، وأهم منها السيرة المؤيدية للمؤيد الشيرازي داعي دعاة الفاطميين المار ذكره ، وفيها يتحدث عن حياته من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠ ويذكر بعض رسائله ومناظراته العلمية .

ومن أهم المؤرخين في زمن الفاطميين على <sup>(٢)</sup> بن منجب الصيرفي المتوفى سنة ٥٥٠ وله كتاب في وزراء الفاطميين سماه الإشارة إلى من نال الوزارة ألفه للوزير الفاطمي البطاحي . وللرشيد <sup>(٣)</sup> بن الزبير أحمد بن علي المتوفى سنة ٥٦٣ كتاب في شعراء مصر سماه « جنان الجنان ورياض الأذهان » ألفه سنة ٥٥٨ وهو أهم كتاب ألف عن الشعر الفاطمي وعليه اعتمد ابن سعيد في جزأى القسطنطين والقاهرة من مصنفه « المغرب » في كثير من تراجمه . وبجانب ذلك نجد في أواخر زمن الفاطميين مصنفات فرعية مثل « الرسالة المصرية » لأمية بن عبدالعزيز الأندلسي المعروف باسم أبي الصلت ، وعداده في الأندلسيين . ومن ذلك مصنف للقاضي الجليس في شعراء طلائع ابن رزيك ، ورسالة لابن جبريحي بن حسن ألفها في مدائح بني أسامة سنة ٥٢٥ . وولتقى بالقرطبي محمد <sup>(٤)</sup> بن سعد الذي ألف لشاور وزير الخليفة العاضد (٥٥٥-٥٦٧ هـ) كتابا في تاريخ مصر ، وتاريخ وفاته غير معروف . وعنه نقل ابن سعيد مقتطفات كثيرة في قسمي القسطنطين والقاهرة من كتابه المغرب . وكان يعاصره على بن أبي السرور الرُّوحى وله تحفة الظرفاء في أخبار الأقبياء والخلفاء إلى الظاهر لأهراز دين الله الفاطمي المتوفى سنة ٤٢٧ ويُظن أنه ألفه بالإسكندرية

(٣) انظر في الرشيد ابن خلكان ١/١٦٠ ومجمع الأدباء ٤/٥١ والطالع السعيد ٥٢ والحريدة قسم مصر ١/٢٠٠ والشعرات ٤/١٩٧ والسيوطي ١/٥٤٠ .  
(٤) انظر في القرطبي المغرب قسم القسطنطين ص ٢٦٧ .

(١) انظر في المسيحي المغرب (قسم القسطنطين) ص ٢٦٤ وابن خلكان ٤/٣٧٧ والسيوطي ١/٥٤٤ والوفى للصفدي ٤/٧ والعبر ٣/١٣٩ والشعرات ٣/٢١٥ والنجوم الزاهرة ٤/٢٧١ .

(٢) راجع مصادر ترجمة ابن منجب في ص ٤٠٥ .

سنة ٥٦٧ وطبع في القاهرة مع تكملة إلى العاضد آخر الخلفاء الفاطميين وتكملة ثانية إلى المستعصم سنة ٦٤٠ .

وفي أواخر زمن الفاطميين وأوائل عهد الأيوبيين نلتقى بأبي صالح الأرمني ، وله كتاب عن الكنائس والأديرة بمصر وما يجاورهما من البلاد ابتداء تأليفه سنة ٥٦٤ نُشر الجزء الأول منه في أكسفورد سنة ١٨٩٥ . ويلقانا في زمن الأيوبيين أبو طاهر السُّلَميُّ المار ذكره وله معجم السفر لشيوخه ومن لقيهم . وتتكاثر هذه المعاجم فيما بعد ، إذ تكثرت ترجمة العلماء لشيوخهم ، مما يُلقَى أضعاف كثيرة على الحركة الثقافية لعهدهم . وكان يعاصره الشريف النسابة محمد<sup>(١)</sup> بن أسعد الجَوَانِي الحسني ، المتوفى سنة ٥٨٨ وله كتاب طبقات الطالبين وتاج الأنساب .

وكتب إبراهيم بن وصيف شاه . قبل سنة ٦٠٦ كتاب جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور وأخبار الديار المصرية . ولعل بن ظافر الأزدي المتوفى سنة ٦٢٣ كتاب الدول المتقطعة في أربعة مجلدات وفيه يذكر تاريخ الطولونيين والإخشيديين والفاطميين والعباسيين حتى سنة ٦٢٢ . ومرّ بنا ذكر الحافظ عبد الغني بين الحنابله وأن له كتاب الإكمال في معرفة أسماء الرجال . وأكبر مؤرخ للرجال زمن الأيوبيين القفطي<sup>(٢)</sup> على بن يوسف المتوفى سنة ٦٤٦ وله كتاب إنباه الرواة على أنباه النحاة وكتاب المحمدين من الشعراء . وهما مطبوعان وله أيضا كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء . اختصره الزوزني محمد بن علي المعاصر له وسمى مختصره « تاريخ الحكماء » طبع في ليزنج والقاهرة ، وهو مبثوث في هوامش هذا الجزء .

ونخصي إلى زمن المماليك وفي عهدهم تزدهر كتابة التاريخ العام والخاص وتاريخ التراجم والسير ، ويلقانا المكين<sup>(٣)</sup> بن العميد ، وهو جرجيس (أوعبدالله) بن أبي اليسرين أبي المكارم المولود بالقاهرة سنة ٦٠٢ والمتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ وله كتاب المجموع المبارك وهو تاريخ عام للعالم في قسمين : القسم الأول من بداية الخلق إلى الرسول ﷺ والقسم الثاني من الرسول إلى سنة ٦٥٨ وقد نُقل إلى اللاتينية وطبع مع الأصل العربي في ليدن سنة ١٦٢٥ للميلاد وترجم إلى الأَنْجليزية وطبع في لندن ثم إلى الفرنسية وطبع في باريس . وكان يعاصره ابن ميسر<sup>(٤)</sup> تاج الدين محمد بن علي بن يوسف المتوفى سنة ٦٧٧ مصنف تاريخ مصر وهو ذيل أو تكملة لكتاب المسبّحي

١٩١/٢ والسيوطي ٥٥٤/١ .

(١) انظر في الجواني الحريدة (قسم مصر) ١١٧/١

(٣) انظر المكين في بروكلمان ١٤٤/٦ ودائرة المعارف

ولسان الميزان ٧٤/٥ .

الإسلامية .

(٢) انظر القفطي في معجم الأدباء ١٧٥/١٥ والطلع

(٤) انظر ابن ميسر في بروكلمان ٩٠/٦ .

السعيد ص ٢٣٧ والشذرات ٢٣٧/٥ وفوات الوفيات

آنف الذكر . وللشاعر المعروف باسم الجزائر المتوفى سنة ٦٧٩ قصيدة تاريخية سماها العقود الدرية في الأمراء المصرية حتى الملك الظاهر بيبرس احتفظ بها السيوطي في كتابه حسن المحاضرة . ولابن<sup>(١)</sup> الراهب القبطي أبي شكر بطرس المتوفى سنة ٦٨١ كتاب في التاريخ العام يشتمل على تاريخ ملوك الروم والبطاركة والخلفاء والأمراء إلى سنة ٦٥٧ تُرجم إلى اللاتينية سنة ١٦٥١ وعُني به اليسوعيون ببيروت ونشروه سنة ١٩٠٣ . وحرى بنا أن نذكر هنا ابن<sup>(٢)</sup> خلكان أكبر كتاب التراجم وأوثقهم المتوفى سنة ٦٨١ وحقا نشأ بالموصل ، ولكنه أقام فترات طويلة بالقاهرة وفيها بدأ تأليف كتابه النفيس : وفيات الأعيان سنة ٦٥٤ وأتمه بها سنة ٦٧٢ . ويلقانا بحبي<sup>(٣)</sup> الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ وله سيرة نفيسة في السلطان قلاوون<sup>(٤)</sup> باسم : تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون وهي منشورة ، وله أيضا سيرة في السلطان الظاهر بيبرس وسيرة ثالثة في الأشرف خليل بن قلاوون ، وأيضا له خطط القاهرة .

ونلتقى في القرن الثامن بالدوادار<sup>(٥)</sup> ركن الدين بيبرس المنصورى المتوفى سنة ٧٢٥ وله زيادة الفكرة من تاريخ الهجرة ، وهو تاريخ عام للدولة الإسلامية حتى سنة ٧٢٤ مرتب على السنين في أحد عشر مجلدا . وفي مكتبة جامعة القاهرة مصورات لبعض أجزاءه . وكان يعاصره النويرى الذى تحدثنا عنه بين الجغرافيين مشيرين إلى موسوعته الكبرى نهاية الأرب . وبها سيرة نبوية مطولة وتاريخ عام للدولة الإسلامية ، وأشرنا هناك أيضا إلى ابن فضل الله العمري وموسوعته مسالك الأبصار ، وبها مجلدات ضخمة لتراجم الأطباء والفقهاء والعلماء من كل صنف والمشراء والكتاب لا في مصر وحدها بل في العالم العربى جميعه . ونلتقى بالحافظ ابن<sup>(٥)</sup> سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ وسيرته النبوية : « عيون الأثر في فنون المغازى والشانل والسير » . وبها إضافة مهمة إذ لا تكتفى بما في كتب السيرة كسيرة ابن هشام ، بل تضيف إلى ذلك المراجعة على كتب الحديث مثل صحيح البخارى . ويلقانا الإدفوى<sup>(٦)</sup> جعفر بن ثعلب المتوفى سنة ٧٤٨ مصنف الطالع

(١) راجع في ابن سيد الناس السيوطي ١/٣٥٨ ،

٤٢٥ والبدر الطالع ٢/٢٤٩ والنجوم ٧/٣٥٦ وطبقات

القراء ١/٣٨٦ والدرر الكامنة ٤/٣٣٠ والسبكي

٤٦٨/٩ .

(٦) راجع في الإدفوى السيوطي ١/٥٥٦ والشذرات

٦/١٥٣ والدرر الكامنة ٢/٧٢ والبدر الطالع ١/١٨٢

(١) انظر ابن الراهب في بروكلمان ٦/١٤٦ .

(٢) انظر مصادر ترجمة ابن خلكان وأخباره في الجزء الخامس من هذه السلسلة بقسم العراق .

(٣) راجع مصادر ترجمة بحبي الدين بن عبد الظاهر في ص ٤١٥ .

(٤) انظر في النوادر الدرر الكامنة ٢/٤٣ والشذرات

٦/٦٦ ودائرة المعارف الإسلامية .

السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد . وكان يعاصره المفضل بن أبي الفضائل القبطى وله ذيل على تاريخ المكين بن العميد باسم « النهج السديد والدر الفريد فيما يعد تاريخ ابن العميد » ويشمل تاريخ سلاطين المماليك من الظاهر بيبرس إلى الأنصارين قلاوون وتاريخ بطاركة الإسكندرية والمسلمين فى اليمن والهند وتاريخ التتار ، نُشر منه القسم الخاص بسلاطين<sup>(١)</sup> المماليك . وولتقى بالحافظ مُعلطى المار ذكره بين المحدثين ، وله سيرة نبوية باسم « الزهر الباسم فى سيرة أبى القاسم » ومنها مخطوطة فى دار الكتب المصرية .

ويلقانا بهاء الدين السبكى الذى ذكرناه بين فقهاء الشافعية ، وله كتابه النفيس « طبقات الشافعية » . ونراه يصل التاريخ بالمجتمع فى كتابه « معيد النعم » وهو يلتقى بكتاب الجمهورية لأفلاطون وكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى ، والكتابات إنما يعرضان للحياة السياسية والاجتماعية فى المدينة عرضا مثاليا ، والسبكى يتجه فى « معيد النعم » نفس الوجهة فى المجتمع المصرى ، فيصور المثالية ، ولا يكتفى بذلك ، بل يعمد إلى تصوير الواقع مقابلا بينه وبين المثال ، ولكى يصل إلى ذلك استعرض عناصر المجتمع ، وهى تبلغ عنده مائة واثنى عشر عنصرا : من السلطان ونوابه وموظفى الدولة وقواد الجيش والقائمين على الضرائب والأسواق والقضاة والعلماء والوعاظ والصوفية وخزنة الكتب ومعلمى الكتاتيب والوراقين وأصحاب الصيد والزراعة والصناعة والتجارة وأصحاب الحرف المختلفة ، وحتى البوابين والقائمين على إصطبلات الخيول والشحاذين . كل هؤلاء يستعرض حياتهم بواقعا وما ينبغى أن تكون عليه من صورة مثالية . وبذلك رسم المجتمع المصرى بكل ما يهيه وما ينبغى أن يكون عليه من هيئة فاضلة .

ويلقانا فى مطلع القرن التاسع ابن<sup>(٢)</sup> الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم المتوفى سنة ٨٠٧ . وله كتاب « تاريخ الدول والملوك » بلغ فيه نهاية سنة ٨٠٣ وكان فى عشرين مجلدا . وكان يعاصره ابن دقاق<sup>(٣)</sup> صارم الدين إبراهيم بن محمد المذكور بين الجغرافيين والمتوفى سنة ٨٠٩ وله كتاب الانتصار لواسطات عقد الأمصار ، خص كل جزء منه بمدينة ، وقد نشر فولرز منه الجزء من الخاصين بالقاهرة والإسكندرية ، وله كتاب فى تراجم الصوفية ، وله فى تاريخ مصر كتاب نزهة الأنام فى اثنى عشر مجلدا وتاريخ لحكام مصر حتى سنة ٨٠٥ صنفه للسلطان بقوق وله فيه سيرة

(٣) انظر ابن دقاق فى السيوطى ٥٥٦/١ والشذرات

(١) بروكلمان ١٤٦/٦ .

٨٠/٧ والضوء اللامع ١٤٥/١ .

(٢) انظر ابن الفرات فى السيوطى ٥٥٦/١ والضوء

اللامع ٥١/٨ .

سماها « عقد الجواهر في سيرة الملك الظاهر برفوق » وتكثر في هذا العصر كتابة سير السلاطين . وقد ذكرنا بين الجغرافيين القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ وكتابه صبح الأعشى ، وهو سجل تاريخي حافل بمعلومات نفيسة عن مكاتبات الحكام في العالم العربي على مر العصور بجانب أنه معلمة جغرافية رائعة . وله مصنفات مختلفة .

ونلتقى بالمقریزی المتوفى سنة ٨٤٥ وقد مر ذكره بين الجغرافيين مع الإشارة إلى كتابه « الخطط » وفيه يتحدث عن البيئة الطبيعية - كما أسلفنا - لمصر ، ويفيض في الحديث عن القاهرة وآثارها وأحيائها ومساجدها ومدارسها وحماماتها ومارساتها ومصانعها وخزائن كتبها وما كان بها من حركة علمية ، ويتحدث عن الدول التي أظلمت ، وبذلك يلتقي في الكتاب تاريخ مصر الفكرى بتاريخها السياسى والاجتماعى والروحى والحضارى ، إذ حوّل المقریزی التاريخ إلى دراسة اجتماعية وعقلية وسياسية مع تصوير عادات السكان وتقاليدهم ومستوى معيشتهم ونزعتهم الصوفية وكل ما اختلف على أهل مصر والقاهرة من صور الحياة . وله سيرة نبوية في ستة مجلدات باسم « إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع » وله اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفا في تاريخ الدولة الفاطمية وهو مطبوع وكتاب المقتفى في تراجم أمراء مصر وأعيانها رتبته على الحروف الأبجدية ، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك في تاريخ مصر من سنة ٥٧٧ - ٨٤٤ وكتاب درر العصور الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، وكتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب إلى غير ذلك من كتب تاريخية نفيسة . وكان يعاصره ابن حجر<sup>(١)</sup> الذى مر ذكره بين المحدثين ، وعنى بالتأليف في التراجم . وله كتاب الإصابة في تراجم الصحابة وكتاب رفع الإصر عن قضاة مصر وكتاب تهذيب التهذيب في اثني عشر مجلدا وكتاب لسان الميزان وكتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . وكل هذه الكتب مطبوعة . وله أنباء الغمر بأبناء العمر ، وعنى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بطبعه .

ويلقانا أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى<sup>(٢)</sup> بَرْدَى المتوفى سنة ٨٧٤ ، وله كتابه النفيس « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » يؤرخ فيه لمصر منذ دخلها عمرو بن العاص وأضاءت فيها

(٢) انظر ابن تغرى بردى في الضوء اللامع ج ١٠ رقم ١٧٨ والشذرات ٣١٧/٧ والبدر الطالع ٣٥١/٢ ومقدمة كتابه النجوم الزاهرة طبع دار الكتب المصرية ودائرة المعارف الإسلامية في أبي المحاسن ، وزيادة ص ٢٦ .

(١) انظر ابن حجر في السيوطى ١/٣٦٣ والشذرات ٢٧٠/٧ والضوء اللامع ج ٢ رقم ١٠٤ والفوائد البية للكتنى ص ١٠٠ والبدر الطالع ٨٧/١ والمؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادى محمد مصطفى زيادة

أنوار الدين الحنيف حتى سنة ٨٧٢ وهو تاريخ على السنوات . وعادة يقدم لسنوات كل وال أو خليفة أو حاكم أو سلطان بكلمة عامة عن حكمه وما وقع فيه من أحداث مهمة وما يداخل زمنه من بعض الشؤون الاجتماعية مع الاهتمام بالتواحي العلمية . وهو فيه لا يؤرخ لمصر وحدها ، بل يذكر مع سنواتها دائما تاريخ الدول العربية ، ومع كل سنة وفيات الأئمة والعلماء والأدباء في العالم العربي ، وأيضا مع تصوير الحياة العربية في جميع مناحيها . وكانت له عقلية فذة استطاع بها أن يبرز الأحداث السياسية في وطنه والأوطان العربية مع سوق كبير من الطرائف الأدبية والاجتماعية . والكتاب مطبوع في ستة عشر مجلدا . وله مصنفات تاريخية مختلفة بجانبه أهمها كتابه المنهل الصافي وهو معجم نفيس لمشاهير الرجال الذين توفوا من سنة ٦٤٨ حتى أيامه ، ويشمل نحو ثلاثة آلاف ترجمة لمن عاشوا في مصر والشام في تلك المدة ومن عاصروهم من أهل العراق والحجاز واليمن والتتار وبلاد المغرب والأندلس من الملوك والسلاطين والأمراء والوزراء والقواد والعلماء والكتاب والشعراء والمؤرخين والأطباء والمهندسين والتجار وأرباب المهن وغيرهم ، وصنع له مختصرا باسم الدليل الشافي على المنهل الصافي وهو منشور في مجلدين .

وكان يعاصره ابن قطلوبغا الذي مر ذكره بين الأحناف ، وقد أشرنا هناك إلى أن له كتابا في تراجم الحنفية سماه « تاج التراجم » وهو مبثوث في هوامش هذا الجزء . وولتقى بشمس<sup>(١)</sup> الدين السخاوي محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٩٠٢ وله كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع وهو معجم بديع لتراجم هذا القرن ، وقد عدنا إليه مرارا فيما أسلفنا من حديث ، وله ذيل على كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لأستاذه المقرئ ، وذيل آخر لكتاب أستاذه الثاني ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ، وقد خصه بترجمة لحياته .

ويتوج السخاوي هذا النشاط التاريخي العظيم بكتابه : « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » وهو محاولة رائعة لوضع علم التاريخ الإسلامي العربي . واسم الكتاب يوحي بأنه دفاع عن التاريخ ، وقد بدأ ببيان معنى كلمة التاريخ لغة واصطلاحا وبيان موضوعه وأنه الزمان والإنسان ، وأخذ يصور فوائده في التربة الدينية والحلقية والشئون الاقتصادية وأيضا الشؤون السياسية بما يدفع إليه الحكام من العدل في الرعية والقواد من تدبير شئون الجيش ، وبالمثل الشؤون الاجتماعية وما يتصل بها من الكمالات والنواقص في المجتمعات . ويعرض بالتفصيل لما ينبغي أن يتوفر في

والشفرات ١٥/٨ والبدر الطالع ١٨٤/٢ والنور السافر  
للعبدروسي ص ١٦ والمؤرخون في مصر لزيادة ص ٣٩

(١) انظر في السخاوي مقدمة كتابه الضوء اللامع  
وكذلك ج ٨ رقم ١ والكواكب السائرة للغزى ٥٣/١

المؤرخ من شروط العدالة والتحرى والتدقيق في الأخبار مما ينبغي معه رفض الإسرائيليات والأساطير. ويطول في بيان أنه ينبغي على المؤرخ أن لا يستشعر عداوة من يعاديهم لأسباب عقيدية أو مذهبية أو شخصية، ويصور الاختلاف العنيف بين المتصوفة وأهل السنة وكذلك بين الشيعة وخصومهم. ويُنجى باللائمة على الذهبي في تراجمه لاستطالته على المتصوفة وكثيرين من أئمة الشافعية والحنفية والأشاعرة لمخالفتهم له في العقيدة الحنبلية. وينقل عن السبكي أنه ينبغي أن لا يؤخذ بكلامه في ذم أشعري والثناء على حنبلي. ويفيض في بيان التحرى في الروايات والرواة ويسط الحديث في نقد المؤرخين وكتابتهم التاريخية. والكتاب بالغ الروعة والنفاسة:

وكان يعاصره السيوطي الذي مر ذكره بين اللغويين والنحاة والمحدثين وفقهاء الشافعية، وله طبقات الحفاظ وهو مختصر من طبقات الحفاظ للذهبي، وطبقات المفسرين وبقية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، وحسن المحاضرة وهو مبعوث في الهوامش، وتاريخ الخلفاء والسلاطين من عهد أبي بكر الصديق إلى زمن السلطان قايتباي، ومسالك الحنفا في والدى المصطفى، ولب اللباب هذب فيه اللباب لابن الأثير ويشتمل على نحو تسعة آلاف اسم وكل هذه الكتب منشورة. وله وراءها مصنفات أخرى منها سيرة للإمام مالك وسيرة للنووي. ويُحتمُّ زمن الماليك بابن إياس محمد بن أحمد الذي عرضنا له بين الجغرافيين، وله تاريخ مفصل عن مصر سماه «بدائع الزهور في وقائع الدهور»، وهو يتناول فيه باختصار تاريخ مصر، حتى إذا وصل إلى زمن قايتباي (٨٧٤ - ٩٠٣ هـ) أفاض في التاريخ إفاضة واسعة، حتى ليذكر وفيات كل شهر، ومن أهم ما كتبه وصفه لاحتلال العثمانيين مصر ميينا ما أحقوه بها من دمار ونهب لكنوزها وصناعاتها وعلماؤها وصناعاتها المهرة، حتى ليقول إنهم أبطلوا من مصر خمسين صنعة.

وتظل للتاريخ بقية من النشاط في زمن العثمانيين، وأول مؤرخ نلتقى به في عهدهم ابن زنبيل الرمال أحمد بن علي المتوفى سنة ٩٦٠ وقد مر ذكره بين الجغرافيين وكان موظفا في ديوان الجيش العثماني، وله كتاب فتح مصر أو أخذها من الجراكسة على يد السلطان سليم. ويصف معاركه مع الجراكسة في شمال الشام وفي القاهرة وعودته إلى عاصمته إستانبول. ويلقانا عبد الوهاب الشعراfi المتوفى سنة ٩٧٣ وقد ألمنا به في حديثنا عن المتصوفة في الفصل الماضي، وله طبقاته الكبرى في تراجم الصوفية على مر السنين حتى زمنه، وهي مطبوعة مرارا. ويلقانا في القرن الحادى عشر الهجرى زين الدين بن أبى السرور البكرى محمد الصديق وابنه شمس الدين محمد ولها كتب

مختلفة في العثمانيين ، وأهم منها عبد <sup>(١)</sup> الرؤوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ وله الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ، وصنف كتابا في الأحكام السلطانية وكتابا في معجم الحديث سماه كنوز الحقائق. وكان يعاصره الإسحاقى محمد بن عبد المعطى المتوفى سنة ١٠٣٢ وله لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول « وهو مطبوع . وولتقى بنور <sup>(٢)</sup> الدين الحلبي على بن إبراهيم المولود بمصر المتوفى سنة ١٠٤٤ وله السيرة النبوية الحلبية المشهورة ، وهي مطبوعة مراراً . ويلقانا شهاب <sup>(٣)</sup> الدين الخفاجى أحمد بن محمد المتوفى سنة ١٠٦٩ وله رحانة الألبا ترجم فيها لشعراء الشام والمغرب والحجاز ومصر أيام العثمانيين وهو مطبوع مرارا . وألفت كتب كثيرة في السيرة النبوية ، منها سيرة خير البرية للصبان المذكور بين النحاة والمتوفى بأخرة من زمن العثمانيين سنة ١٢٠٦ . وظلت مصر موقلة للعلماء - مؤرخين وغير مؤرخين - في زمنهم كما كانت في الأزمنة السابقة . ومن كبار المؤرخين الذين نزلوها حينئذ المقرئ المتوفى سنة ١٠٤١ مؤلف كتابى نفتح الطيب وأزهار الرياض الموسوعتين الأندلسيتين المشهورتين .

١٢٢/٣

(٣) انظر مصادر ترجمة الخفاجى فى ص ٤٥٩

(١) راجع المناوى فى خلاصة الأثر ٤١٢/٢ والبدر

الطالع ٣٥٧/١ .

(٢) راجع نور الدين الحلبي فى خلاصة الأثر

## الفصل الثالث

### نشاط الشعر والشعراء

١

#### تعرب مصر

كان بمصر قبل الفتح العربي الإسلامي لغات وعناصر جنسية مختلفة . فقد كان بها إغريق منذ عهد البطلمة ، وكانت اللغة الإغريقية - منذ زمانهم وفي عهد الرومان - اللغة الرسمية للدولة . وكان بها بعض السريان في الإسكندرية وبعض الأديرة ، وكانوا يهتمون بالطب ، ونُقل من لغتهم السريانية فيما بعد لعمر بن عبد العزيز كتاب في الطب لأهرون القس . وكان بها رومان ، وكثرتهم كانت من جنود الاحتلال الروماني . وطبيعي أن يتكلموا لغتهم اللاتينية . وكان بها بعض اليهود وخاصة في الإسكندرية وكانوا يتكلمون العبرية . وأهم من تلك العناصر جميعا جواهر مصر من القبط . وهم عامة الشعب وسواده ، وكانوا يتكلمون القبطية ، وكانت لها لهجات تتفاوتت تفاوت الأقاليم والبلدان المصرية البحرية والقبلية .

وبمجرد أن نزل العرب مصر لم يعد للآتينى أى شأن ، فقد طردت بقايا الرومان مع الجيش البيزنطى الذى غادر البلاد مدحورا مهزوما . وانحازت السريانية إلى الأديرة وأخذت في الزوال . واضمحلت العبرية . أما اللغة الإغريقية فظلت حية في الدواوين على ألسنة الموظفين بها وفي كتاباتهم حتى سنة ٨٧ للهجرة إذ أمر الوليد بن عبد الملك أخاه عبد الله والى مصر بنقل الدواوين من اليونانية إلى العربية<sup>(١)</sup> . وسرعان ما هجرت ونُبتت إلاكلمات قليلة سقطت في العربية إما من الإغريقية مباشرة وإما منها عن طريق القبطية .

أما اللغة القبطية فظلت بعد اللغة الإغريقية منتشرة على كل لسان في البلاد ، إذ كانت لغة

باللغتين اليونانية والعربية ، وانظر أدب مصر الإسلامية  
( عصر الولاية - نشر دار الفكر العربى ) للدكتور محمد كامل  
حسين ص ٣٠ .

(١) خطط المقرئى ١٨١/١ وفيه أن نقل الدواوين  
بمصر كان من القبطية إلى العربية وهو خطأ فقد كان من  
الإغريقية إلى العربية ، كما تشهد بذلك أوراق البردى التى  
نشرها جروهمان في مواضع متفرقة وهى صادرة عن الولى

التخاطب اليومي ، غير أنها كانت متخلفة ، إذ لم تحفظ لنفسها بشيء من التراث الأدبي الفرعوني عند أمثال حوتب الكاتب وبتاءور الشاعر ، واستحالت لغة فقيرة مجدبة في معجمها اللغوي وفي أساليبها البيانية ، وكل ما كانت تحمله حين الفتح كتابات دينية جافة<sup>(١)</sup> ، ليس فيها شيء من روعة البيان ، كُتبت في العهد الروماني أو قبيل الفتح وبعده . وحتى من كان لديه حينئذ ملكة شعرية خصبة من القبط آثر أن ينظم شعره باليونانية محاكياً لهوميروس أو لغيره من شعراء اليونان<sup>(٢)</sup> . ومعنى ذلك أنه لم يكن للقبطية تراث أدبي تستطيع أن تثبت به أمام العربية وتراثها الأدبي البديع . فأخذت تكتسحها وتظفر بالسنة القبط عاما بعد عام .

وعاملان قويان أخذوا يعملان بسرعة على تعرب مصر . أما أولهما فدخل كثيرين من القبط في الإسلام لما رأوا من تعاليمه السامية ، ولما استقر في نفوسهم من أن من يسلم منهم يصبح له جميع حقوق العربي الفاتح فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم . يقول بتلر : « كان في ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول في الإسلام لاسيما وقد طحن المقوقس الحاكم الروماني أو البيزنطي عقيدتهم ( الأرثوذكسية ) طحنا »<sup>(٣)</sup> . ومعروف أن الرومان أو قتل البيزنطيين ساموا القبط خسفا لا يطاق ، وكانوا يبهنون طيبات مصر بها ، ويعتصرون خيراتها اعتصارا ، فكان الإسلام للقبط ملاذا وملجئا . وعدّوا العرب مخلصين لهم من ظلم لا يطاق ، وأخذوا يدخلون في دين الله الخفيف ، ويمضى بتلر قائلا : « وكذلك دخل في الإسلام كثير من الروم بعضهم من الجنود وبعضهم ممن حلّ منهم في مصر » . وكلما قطعنا شوطا زمنيا بعد الفتح تزايد عدد الداخلين من القبط في الإسلام ، يدل على ذلك تناقص ضريبة الدفاع المسماة بالجزية التي كانت تؤخذ من القبط ، وكانت لا تؤخذ إلا من القادرين على حمل السلاح ، فلا تؤخذ من شيخ ولا صبي ولا امرأة ولا راهب ، وقلما كانت تزيد على دينار ، وربما أصبحت نصف دينار ، وكان مقدارها زمن عمر بن الخطاب اثني عشر ألف دينار ، فنقصت في عهد معاوية إلى خمسة آلاف ألف<sup>(٤)</sup> ، مما يدل بوضوح على دخول كثيرين من القبط في الإسلام في الفترة الأولى من الفتح العربي ، بحيث لو قلنا إنه دخل نحو نصف السكان في الإسلام لم نكن مغالين . وظل عدد من

(٢) راجع أدب مصر الإسلامية ص ٤

(٣) بتلر ص ٢٤٣ .

(٤) بتلر ص ٤٠٣ وانظر البلدان للياقوت ص ٣٣٩ .

(١) انظر فتح العرب لمصر لبتلر ترجمة محمد فريد

أبي حنيد ص ٨٥ وموجز تاريخ القبط الملحق برسالة

ماريتا الرابعة (مراجعة مراد كامل) ص ١٥٥ وأدب مصر

الإسلامية ص ٦ .

يسلمون في ازدياد مع السنين حتى إذا ولي حيّان بن شريح لعمر بن عبد العزيز بعد نحو ثمانين عاما من الفتح رأيناه يكتب إلى عمر : إن الإسلام قد أضرَّ بالجزية ، حتى اضطرتت إلى اقتراض عشرين ألف دينار أتممتُ بها عطاء أهل الديوان ، وكأنه كان يريد أن يبقى الجزية على من يسلمون من القبط ، فكتب إليه عمر كتابا شديد اللهجة قائلا : « أما بعد فقد بلغنى كتابك ، وقد وليتكَ جند مصر وأنا عارف بضعفك وقد أمرت رسولى بضررك عشرين سوطا على رأسك . فضع الجزية عمن أسلم قَبِحَ اللهُ رأيك ، فإن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يعنه جاييا يجمع الأموال <sup>(١)</sup> . » وكان كل هؤلاء المسلمين من القبط منذ عهد عمر بن الخطاب يُقبَلون على حفظ بعض آيات القرآن الكريم واستظهار بعض الحديث النبوى وتعلم العربية مما عمل بوضوح على تعرب مصر .

وعامل ثان لا يقل عن هذا العامل خطرا في تعريب مصر ، هو هجرات القبائل العربية إليها بعد الفتح حين سمعت بخصبها وزروعها وثمارها . وعادة يقف المؤرخون عند هجرات كبيرة لتلك القبائل مثل هجرة القبائل القيسية في عهد هشام بن عبد الملك ومثل هجرة بنى سليم والقبائل الهلالية في عهد الدولة الفاطمية . غير أنه كان وراء هذه الهجرات سيل متدفق من هجرة القبائل وعشائرها إلى مصر . وكان كل وال في العهد الأموى يصحبه كثير من الجند . وكانت مصر قريبة من الجزيرة العربية فتزها كثيرا كثيرون من قبائل الشمال وقبائل الجنوب والغرب والشرق . وتُعنى كتبُ بيان هذه القبائل المهاجرة ومنازلها بمصر مثل كتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب للمقريزى . وطبيعى أن تخلط هذه القبائل بسكان مصر لافى مدنهم فحسب . بل أيضا في ريفهم . فقد سَنَّ لهم عمرو بن العاص أو قل سن لجنده أن يرتبعوا أو يقضوا الربيع في ريف مصر ثم يعودوا إلى القسطنطينية . ونشأ عن هذا الاختلاط سريعا ضروب من المصاهرة بين بعض العرب والقبط عقب الفتح إذ يسمى ابن عبد الحكم طائفة من أبناء السلطيسيات القبطيات <sup>(٢)</sup> . من بينهم عون بن خارجة القرشى وعبد الرحمن بن معاوية بن حديج . وخارجة ومعاوية جميعا ممن حضروا الفتح . ولا بد أن اتسع ذلك فيما بعد . مع كثرة هجرة العرب . ومع اختلاطهم بالقبط . مما جعلهم يتعلمون لسانهم لكى يحسنوا التفاهم معهم . وكانت حاجتهم من وجهات كثيرة تدعو إلى ذلك ، فقد كان منهم من يقوم على جمع خراج الأرض للعرب وجمع الجزية . وكانت

تصلهم رسائل من الدواوين ويُضطرون للرد عليها ، فاضطروا لتعلم العربية ، واضطروهم إلى ذلك أيضا النظام القضائي ، فكان القبطي المدعى في قضية أو المتهم في حاجة إلى معرفة شيء من العربية . وكل ذلك عمل على ذبول القبطية ، ولكن غير صحيح أنها أخذت في الزوال من لسان القبط بعد نحو قرن من الفتح العربي كما زعم رونودوبعض الباحثين فقد ظلت حية ، يدل على ذلك أكبر الدلائل مارواه المؤرخون من أن المأمون حين زار مصر لسنة ٢١٧ بعد الفتح بنحو قرنين كان يتزل في قرى مصر وضياعها ويستمع إلى القبط وماقد يكون لديهم من شكوى ، والتراجمة بين يديه يترجمون له مايقولونه بالقبطية<sup>(١)</sup> . ويدور العام ويتولى الخلافة أخوه المعتصم ، فيأمر كيُدر واليه على مصر أن يقطع عطاء العرب من الديوان<sup>(٢)</sup> . وكان ذلك بدءًا حقيقيًا لتعرب مصر ، فإن كل من كان بها من العرب حتى جند الدولة اضطروا إلى أن يزاولوا مع القبط حياتهم ابتغاء الكسب ، فأخذوا يشاركونهم في الزراعة ، وهي مشاركة أقدم من ذلك منذ هجرة القبائل العربية الكبيرة إلى الحوف الشرقي في أواخر العصر الأموي ، غير أنهم جميعا الآن لم يعد لهم بُدٌّ من هذه المشاركة لا في الزراعة وحدها بل أيضا في التجارة والصناعة . وبذلك أصبح العرب في مصر جميعا مصريين ، يشاركون القبط في حياتهم المصرية وألوان الكسب فيها مشاركة تامة ، وكان ذلك إيدانا بأن يتم تعرب مصر نهائيا ، وأن تأخذ القبطية في الزوال والامحاء من ألسنة القبط في الريف والقرى وتُحل محلها العربية في جميع الألسنة .

والحق أن موجة التعرب كانت حادة وقوية منذ زمن الفتح بسبب كثرة من اعتنقوا الإسلام من القبط حتى ليقول بتلر : « إن التاريخ لم يذكر في حوادثه أمر أعجب من أن القبط انقسموا قسمين : قسم منهم امتزج كل الامتزاج بالإسلام ، والقسم الآخر بقى على دينه »<sup>(٣)</sup> وهو يريد بامتزاج القسم الأول بالإسلام اعتناقه له ويعجب من ذلك ، ولا عجب ، لأنه يعرف السبب ، كما مرَّ بنا ، وهو سماحة الإسلام والمساواة في الحقوق بين من يسلم وبين الفاتحين وما يفرضه الدين الخفيف بين الطرفين من أخوة وثيقة . والمهم أن هذه الآلاف ممن أسلموا بل ربما الملايين ، كما يدل على ذلك نقص ضريبة الجزية مما أشرنا إليه ، أقبلوا على تعلم العربية ، حتى يحسنوا أداء شعائر الإسلام . ولم يلبث أن نبع منهم كثيرون تُترجمُ لهم كتبُ التاريخ في الفقه والشريعة من مثل

١. والمقرزي ١/١٧٣ .

(١) خطط المقرزي ١/١٤١ .

(٣) بتلر ص ٤٢٥ .

(٢) الولاة والقضاة الكندي (طبعة جيست) ص ١٩٣

يزيد بن أبي حبيب الذي أقامه عمير بن عبد العزيز بأخرة من القرن الأول الهجري للفتيا بين الناس ، وقد ذكرناه في الفصل الماضي . كما ذكرنا من كبار القراء بمصر ورشاً . وهو أيضا من سلالة القبط ، وتقرأ البلاد المغربية إلى اليوم بقراءته . ولا نلث أن نلتقى بعد ورش بندي النون المصري الإخيمى وله فضل تأسيس التصوف في العالم الإسلامى . وهذه الأسماء المنحدرة من سلالة من أسلم من القبط إنما هي رموز فقط . ووراءهم من لا يكاد يحصى من أفاض العلماء في كل فن .

وهذه الموجة الحادة من التعرب لم تقف عند من دخلوا في الإسلام من القبط . فقد أخذت العربية تشيع على السنة كثيرين من القبط أنفسهم ، ويبدو أن كثيرين من الرهبان عنوا بتعلمها إذ نجد شماسا يسمى بنيامين كان يلزم الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان في أثناء ولايته أبيه على مصر يترجم له فصولا من الإنجيل ويشرحها<sup>(١)</sup> . وحتى علماء الإسكندرية نراهم يقبلون على تعلم العربية ، حتى ليرسل خالد بن يزيد بن معاوية - كما مر بنا في الفصل الماضي - بطلب جماعة منهم لينقلوا له بعض كتب الكيمياء والطب ، وذكرنا هناك أن عمر بن عبد العزيز استقدم من الإسكندرية الطبيب ابن أبحر ، وأسلم على يده ، وربما ألف أو نقل له بعض رسائل طبية . ومر بنا أيضا أن الدومبيلي ذكر كتابين في الكيمياء ألفها عالم مصرى أو علماء لأوائل القرن الثالث الهجرى ، وكان سعيد بن توفيل طبيب أحمد بن طولون يتقن العربية ، كما تدل على ذلك ترجمته<sup>(٢)</sup> في طبقات ابن أبي أصيبعة . وملتقى بعده بسعيد بن البطريق بطريق الإسكندرية (٣٢١ - ٣٢٨ هـ) وقد ذكرنا في الفصل الماضي له كتابا بالعربية في تاريخ البطارقة والخلفاء . وذكر له ابن أبي أصيبعة كتابا في الطب بالعربية . وكل تلك شواهد تؤكد أن مصر بقبطها ورهبانها وبطاركتها تعربت أو كادت في القرن الثالث الهجرى ، يدل على ذلك أننا نجد ساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين المتوفى في أواخر القرن الرابع الهجرى يشكو شكوى مرة من ندرة اللسانين القبطى واليونانى في مصر . وليس معنى ذلك أن القبطية طردت نهائيا من مصر ومن كنائسها وأنه لم يعد بين القبط ورهبانهم من يعرفها . بل معناه أنها أخذت في الروال وحلت محلها في السنة القبط العربية وخاصة في لغة التخاطب اليومى ، أما هي فاحازت إلى الأديرة والصوامع البعيدة في الصحراء والصحيد . من ذلك ما يذكره المقرئى المتوفى سنة ٨٤٥ للهجرة عن نصارى

(١) انظر سير الآباء البطارقة لأسقف الأشمونين ساويرس (٢) راجع عيون الأنبا في طبقات الأطباء ص ٥٤١ .

ابن المقفع (بعض أجزاء منه طبع باريس) ص ٢٤ .

أديرة درنكة<sup>(١)</sup> بالقرب من أسيوط من أنهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية ، وأن لهم معرفة تامة بالرومية يريد اليونانية . على كل حال هذه أسراب قليلة حافظ عليها نصارى بعض الأديرة النائية . أما الكتلة القبطية فإنها تعربت - كما قدمنا - مبكرة منذ القرن الثالث الهجرى .

## ٢

## كثرة الشعراء

كان نشاط الشعر بمصر محدودا زمن الأمويين . وقد يرجع ذلك إلى أن أكثر الفاتحين لمصر كانوا يمنية ، والشعر لا ينشط على السنة اليمنيين نشاطه على السنة المصريين والقيسين . على أن القبائل القيسية والمضرية أخذت جموعها تنزل في مصر طوال الحقب الأموية . ولذلك ربما كان أولى من هذا التعليل لضعف الشعر بمصر حينئذ أن ماُنظم منه لم يسجله الرواة ولا اهتم أصحابه بتسجيله ، ولولا ما سجله منه الكندى في كتاب الولاة والقضاة وابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر والمقرئى في الخطط لظل مجهولا لنا تماما . على أن ما سجلوه قليل ، وأكثره يتصل ببعض الأحداث التاريخية . وهو شعر في جملة متوسط ، وربما كان خير شعرائه أيام الأمويين ابن أبى زمزة ، والشعر المنسوب إليه قليل ولا يوضح شخصيته . وحقا نشط الشعر بمصر زمن ولاية عبد العزيز بن مروان عليها (٦٥ - ٨٦ هـ) فقد كان جوادا ممدحا فانتجعه وقدم إليه مدائحه شعراء كثيرون حجازيون ونجديون وعراقيون ، منهم جميل صاحب بيشنة وكثير صاحب عزة وعبد الله بن الحجاج التغلبى وأبن بن خريم . ومن جذبه جوده ابن قيس الرقيات وله فيه مدائح بدیعة<sup>(٢)</sup> ويصف في إحدى مدائحه لعبد العزيز رحلة نيلية من القسطنطينية إلى حلوان وأهم شاعر حجازى امتدحه ولزمه نصيب وكان مُستترقا لكنانى ، وحين وفد عليه واستمع إلى مديحه أعجب به إعجابا شديدا ، ورد إليه حرثته مما أثر في نفسه آثارا عميقة ، وأخذ يوالى نائله العمر عليه ، وهو يوالى مديحه مديحا رائعا ، وله ترجمة في كتابنا العصر<sup>(٣)</sup> الإسلامى . وفي كتاب الأغاني تفاصيل كثيرة بتراجم هؤلاء الشعراء الوافدين على عبد العزيز ، وما أضنى عليهم من النوال وأضفوا عليه من المديح .

كتابنا العصر الإسلامى (الطبعة التامة) ص ٢٩٩ .

(٣) العصر الإسلامى ص ٢٢٣ .

(١) الخطط ٣/٥٦١ .

(٢) انظر ترجمته في كتابنا الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بنى أمية (طبع دار المعارف) ص ٢٧٥ وكذلك في

ونغضى إلى زمن العباسيين وولاتهم وقضاتهم المتعاقبين على مصر . وتلقانا في كتاب الولاية والقضاة أشعار كثيرة تتصل بالأحداث أو بهجاء بعض القضاة أو بمدحهم ، وبصور ذلك إسحاق بن معاذ في مديحه للمفضل بن فضالة الذي ولي قضاء مصر سنة ١٦٨ للهجرة ، وعاد فهجاه<sup>(١)</sup> كما يصوره يحيى الخولاني في هجائه لعبد الرحمن العمري الذي ولي قضاء مصر في أيام هرون الرشيد سنة ١٨٥ لكثرة ما اتخذ من الشهود ورضاه بانتساب بعض المصريين من سلالة الأقباط في العرب ، وهجاه أيضا بشغفه بالغناء وقبوله - فيما زعم - للرشوة<sup>(٢)</sup> . وفي هذه الأثناء نزل مصر أبو نواس الشاعر البغدادي المعروف قاصداً الخصب بن عبد الحميد متولى الخراج<sup>(٣)</sup> بها حوالى سنة ١٨٠ وأخذ ينثر عليه مدائح رائحة ، ومدحته الرائية له : (أجارة بيتنا أبوك غيور) مشهورة . وأهم شعراء مصر حين زارها أبو نواس سعيد بن عُفَيْر والمعلّى الطالبي ، ولسعيد أشعار في الولاية والقضاة للكندى تتصل بالأحداث والأشخاص بين سنتي ١٦٨ و٢٠٩ . والمعلّى الطالبي - بدون ريب - أشعر منه ، وأشعاره عند الكندى تتردد بين سنتي ١٩٠ و ٢١٤ وروى له ابن سعيد في قسم الفسطاط من كتاب المغرب أبياتا في هجاء القاضى العمري يصفه فيها بالظلم وأنه يتردد إلى المغنيات لسماع الغناء ، وله مرثية رائعة لجارية له اختطفها منه القدر كانت تسمى « وَصْفًا » وفيها يقول<sup>(٤)</sup> :

ياموت كيف سلبتنى وَصْفًا قَدِّمَتْهَا وتركتنى خَلْفًا  
وأخذت شِقَّ النفس من بدنى فقَبَّرَتْهُ وتركت لى النَّصْفَا

وزاره يتصل بالولاية ومدحهم واحدا تلو الآخر ، ومن اتصل بهم ومدحهم عبد الله بن طاهر حين ولي مصر سنة ٢١١ وله يقول من مدحة طويلة<sup>(٥)</sup>

يا أعظم الناس عفوًا عند مقدرةٍ وأظلم الناس عند الجود للمال  
لو أصبح النيلُ يجرى ماؤه ذهبًا لما أشرتَ إلى خَزَنِ بِمثالٍ

ونزل مصر أبو تمام في بواكير حياته ، ويبدو أنه نزلها مرتين : مرة قاصدا عباس بن هبة الحضرمي القائم على الشرطة والخراج لواليتها المطلب الخزاعي بأخرة من القرن الثاني ، ومرة ثانية

العصر العباسي الأول (الطبعة الثامنة) ص ٢٢٤ ، ٢٢٨

(١) الولاية والقضاة للكندى ص ٣٧٩ ، ٣٨٦ .

(٤) العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف) ٣/٢٧٩ .

(٢) الكندى ص ٣٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٣ .

(٥) الأغاني (طبع دار الكتب) ١٢/١٠٢ .

٤١٣ ، ٤١٤ .

(٣) خطط المقرئى ١/٣٨٥ وانظر ترجمته في كتابنا

حين وليها عبد الله بن طاهر قاصداً له بالمدح ، وظل بها حتى سنة ٢١٤ كما تدل على ذلك أشعاره التي أنشدتها الكندى في مديح عبد الله بن طاهر وكذلك أشعاره في رثاء عمير بن الوليد الوالى بعده . ويبدو أن صداقة انعقدت بينه وبين المعلى الطائى وابنه حِطَّان . إذ نجده ينشد في ديوان الحماسة قطعة بديعة لحِطَّان يصور فيها عاطفة الأبوة الرحيمة الشفيقة إزاء البنات والأولاد بمثل قوله <sup>(١)</sup> :

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض

وهو بجانب من التعاطف الحميم في الأسرة المصرية سنتلقى به مرارا عند الشعراء المصريين . وأهم شاعرين مصريين في النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ذو النون المصرى الإخميمى مؤسس التصوف الإسلامى المتوفى سنة ٢٤٥ وهو ينحدر من سلالة مصرية خالصة ، والشاعر الثانى الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام المتوفى سنة ٢٥٨ للهجرة ، وفيه يقول ياقوت : « كان شاعراً مقلِّقاً مدح الخلفاء والأمراء » ولحق أحمد بن طولون ولكن القدر لم يمهله .

ومرَّ بنا أن أحمد بن طولون ولى إمارة مصر سنة ٢٥٤ وأسس بها الدولة الطولونية ، وقد أخذ ينهض بعمرانها فأنشأ قصراً ضخماً . كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، وألحق به ميدانا فسيحا للعب الكرة . وأنشأ خजारويه ابنه بعده بستانا كان من عجائب الدنيا لما فيه من الزهر من كل لون وشكل . ومرَّ بنا حديث مفصل عن كل هذه المنشآت . وعنى أحمد بن طولون ومثله ابنه خजारويه بالشعر والشعراء فأسبغ عليهم العطايا وأسبغ عليهما الشعراء مدائح كثيرة . ولعل ذلك ما جعل كثيرين من الشعراء يندبون دولتهم حين أزالها العباسيون سنة ٢٩٢ للهجرة ، ويذكر ابن تغرى بردى منهم إسماعيل بن أبى هاشم وسعيد القاضى الملقب بقاضى البقر ومحمد بن طشوبه وأحمد بن إسحق <sup>(٢)</sup> ، ويقول المقرئى : رأيت كتابا قدر اثنتى عشرة كراسة مضمنة فهرستاً بأسماء الشعراء الذين بكوا الدولة الطولونية « ويعلق على ذلك بقوله : « فإذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة فكم يكون شعرهم ؟ مع أنه لا يوجد من ذلك الآن ديوان واحد » <sup>(٣)</sup> . وفى هذا ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء بمصر حينئذ ، ومما يدل على ذلك أيضاً أن نرى الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ يؤلف كتابا فى أخبار شعراء مصر <sup>(٤)</sup> . فالشعراء تكاثروا بمصر منذ زمن الدولة الطولونية ، ومنذ

(٣) الخطط ١/٦١٢

(٤) معجم الأدباء ٢/٤١٥

(١) الحماسة لأبى تمام بشرح المرزوق (طبع لجنة

التأليف) ١/٢٨٥ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣/١٤٠ وما بعدها

أخذ تعريب مصر يتكامل كما أسلفنا . ومن أهم شعراء هذه الدولة القاسم بن يحيى المرّبي شاعر خمارويه ، وله مدائح فيه وأشعار في وصف السفن والحيل والصيد . وللبحترى مدائح مختلفة في خمارويه وأبيه أحمد بن طولون ، ويذكر ابن تغرى بردى أنه زار مصر لمديح خمارويه <sup>(١)</sup> وأغلب الظن أن مديحه له ولأبيه إنما كان حين لقيهما في الشام ، فقد كانت تتبعها ، وكانا ينزلان بها كثيرا ، ومر بنا في الفصل الماضي أن خمارويه قُتل بدمشق على يد غلامه . ونزل مصر لعهد تلك الدولة الناشئ الأكبر أبو العباس المعروف بابن شرشير المتوفى بها سنة ٢٩٣ . وكان من الشعراء المجيدين ، ويقول ابن خلكان إنه يُعدُّ في طبقة ابن الرومي والبحتري ونظرائهما <sup>(٢)</sup> ، وقد ترجمنا له في كتابنا العصر العباسي الثاني ، وأنشدنا له بعض أشعاره في جوارح الصيد وآلاته ، وله فيها أشعار بدیعة كثيرة ، وأنشدنا أيضا أشعاراً له رائعة في الغزل تملأ النفس إعجابا . وكانت له قصيدة من الشعر التعليمي تتناول فنونا من العلم في نحو أربعة آلاف بيت ، وقصيدة تاريخية في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم تبلغ نحو ألف بيت وكان له كتاب نقدي في الشعر وفضله . وبدون شك التفَّ حوله كثير من المصريين وأفادوا من شعره وعلمه ونقده بدليل أنه آثر المقام بينهم إلى مماته . ونزل مصر مثله منصور <sup>(٣)</sup> بن إسماعيل الفقيه المشهور بمقطعاته في الزهد . ويدور بنا الزمن دورة وتُظَلَّ مصر الدولة الإخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) ويظَلُّ الشعر ناشطا في أيامها ، ويترجم الثعالبي في كتابه اليتيمة لطائفة كبيرة من شعرائها مثل صالح بن مؤنس ومحمد بن هرون الأكمي وعبيد الله بن أبي الجوع والحسن بن محمد الشهاجي وصالح بن رشدين وابن أبي العصام وابن طباطبا الحسيني الرّسّی <sup>(٤)</sup> . ونزل مصر في عهد كافور المتنبّي ، كما مرّ بنا في الفصل الماضي ، فأحدث نزوله حركة أدبية واسعة ، وكان ابن رشدين وابن أبي الجوع من كبار المعجبين به فعُنِيَ برواية شعره ، وظلا يدرسانه للطلاب بعد مبارحته مصر . ومن نزولها زمن كافور كشاجم شاعر الشام المتوفى سنة ٣٦٠ وله في أديرتها شعر كثير . ونزلها أيضا في زمنه الناشئ الأصغر وامتدحه وامتدح وزيره ابن جزّابة <sup>(٥)</sup> .

ويؤسس الفاطميون دولتهم بمصر وتظل نحو قرنين من الزمان ، تتحول فيها مصر إلى ما يشبه إمبراطورية ضخمة ، إذ يمتد سلطانها من شواطئ إفريقيا الشمالية إلى الفرات شرقا واليمن جنوبا ،

وقد جاءها المعز أول خلفائها الفاطميين وورثته شاعره المؤمن بعقيدته الإسماعيلية ابن هانئ الأندلسي ، ومعه ابنه تميم الشاعر الشاب الفذ ، وكان المعز نفسه شاعراً ، روى ابن تغرى بردى بعض شعره <sup>(١)</sup> ، وكان ابنه العزيز نزار الذى ولى الخلافة الفاطمية بعده أيضاً شاعراً <sup>(٢)</sup> وكذلك كان الحاكم <sup>(٣)</sup> والمستنصر <sup>(٤)</sup> ، فطيمى أن يبعثوا نهضة شعرية فى البلاد ، خاصة أنهم كانوا يعنون بالدعاية لعقيدتهم الإسماعيلية ، وقصدهم الشعراء فأغدقوا عليهم الأموال والعطايا . وكان يصنع صنيعهم وزير المعز والعزيز : يعقوب بن كلس . وكان يهوديا وأسلم . ودبر دولتها تدبيراً جيداً ومهد لها قواعد الدولة ، وكان الشعراء يترددون عليه ينشدونه المدائح . ولعل مما يدل على كثرتهم حينئذ أننا نجد الذهبى وغيره من المؤرخين يقولون إنه لما توفى سنة ٣٨٠ رثاه مائة شاعر <sup>(٥)</sup> ولا بد أن من رثوا المعز وابنه العزيز كانوا أيضاً كثيرين ، فضلا عما كانوا ينتهون عليها أشعار المديح . غير أنه ينبغى أن نعود فنقيد هذا الكلام بعض التقييد لأن أهل مصر لم يكونوا راضين عن الفاطميين لعقيدتهم الإسماعيلية المفرطة فى التشيع المنحرف ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع . فلا يصح أن نتخذ من مديح الخلفاء الفاطميين مقياسا لمدى نشاط الشعر فى مصر ، فقد كان أوسع من ذلك وأكبر .

وإذا مضينا بعد المستنصر إلى عهد الخليفة الفاطمى الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) وجدنا خبرا مهما يسوقه المقرئى عنه إذ يذكر أنه بنى بركة الحبش منظره بها طاقات صور فيها جميع الشعراء ، كل شاعر واسمه وبلده ، وعلى جانب كل طاقه قطعة قماش كُتب عليها عند رأس كل شاعر قطعة من مدحه ، وبجانب صورة كل شاعر رفّ مذهب . فلما دخل المنظره وقرأ الأشعار أمر أن يوضع على كل رفّ صُرة محتومة فيها خمسون دينارا ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صُرتَه بيده <sup>(٦)</sup> وكان وزيره الأفضل بن بدر الجمالى شاعراً ، وروى ابن ميسرّ فى أخبار مصر بعض شعره ، وكان يجزل العطاء للشعراء . فمدحه كثيرون منهم . ويعرض أمية بن أبى الصلت فى رسالته المصرية أسماء طائفة من مدّاحه وبعض مدائحهم ويلم ببعض من هجوه وهجائهم . ويسمى العماد الأصبهاني فى القسم المصرى من كتابه الخريدة أسماء طائفة من شعرائه . وكان الوزير طلائع بن رزّيك بأخرة من العصر الفاطمى شاعراً ، والتف حوله كثير من الشعراء ، ونخصهم شاعره الجليس بن الحباب بمصنف

(٤) المصدر نفسه ٨١/٥

(١) النجوم الزاهرة ٤/٧٩

(٥) النجوم الزاهرة ٤/١٥٨

(٢) النجوم الزاهرة ٤/١١٣

(٦) الخطط ٢/٢٦٨

(٣) النجوم الزاهرة ٤/١٩٦

نقل منه العماد الأصبهاني تراجم طائفة منهم ، ومن أهم شعرائه الرشيد بن الزبير وله كتاب في شعراء مصر في العهد الفاطمي سماه « جَنَّانُ الجَنَانِ ورياض الأذهان » وهو مفقود ، غير أن العماد الأصبهاني انتفع بترجمه ، وبالمثل ابن سعيد في كتاب المغرب . ووفد على مصر زمان الفاطميين كثيرون من الشعراء النابهن في البلاد العربية أمثال أبي الرقعمق الأنطاكي وصریح الدلاء البغدادي والتهامي المكي وابن حيّوس الدمشقي وأمّية بن أبي الصلت الأندلسي المار ذكره آنفا .

ويظل نشاط الشعر المصري في زمن الأيوبيين بل يزداد نشاطا على نحو ما يصور ذلك كتاب بدائع البدائه لعلی بن ظافر الأزدي ، وهو يسجّل الأشعار التي كان ينظمها الشعراء في مجالسهم على البديهة . وتلقّى هذه المجالس في كل مكان إذ يجتمع الشعراء ويتخذون موضوعا طريفا لنظم أشعار على البديهة دون بُطء ودون أناة كأن ينظموا في بعض الأزهار إذا كان مجلسهم في حديقة أو ينظموا في فانوس السحور برمضان إذا كان مجلسهم في ليلة من لياليه ، ونحس في هذا الكتاب كأن الشعراء كان على لسان . ومن الأدلة على ازدهار الشعر في أوائل زمن الأيوبيين وأواخر زمن الفاطميين أننا نجد العماد في خريدته يخصّ مصر بمجلدين ترجم فيها لمائة وأربعين شاعرا . وكان القاضي الفاضل في الدولة الأيوبية مثل طلائع بن زُرّيك والأفضل بن بدر الجالي في الدولة الفاطمية ممدّحا ، والتف حوله عشرات من الشعراء ، وكان بدوره شاعرا كبيرا . وأطلقت فتوح صلاح الدين وانتصاراته المدوية على الصليبيين ألسنة الشعراء في مصر وجميع البلدان العربية حتى لم يكذبني شاعرنا به لإقصده مادحا كما يقول ابن خلكان (١) . ونرى فاضل بن راجي الله العطار المصري يقدم لابنه سلطان مصر بعده العزيز (٥٨٩ - ٥٩٥ هـ) كتابا في شعراء مصر لزمه سماه « الشعراء العصرية بالديار المصرية » (٢) . ويفد على مصر بأخرة من زمن الأيوبيين على بن سعيد الأندلسي كما يفد عليها ابن العديم علم حلب لزمه ويصحبه معه إلى بلدته ، وفيها يكتب له بين سنة ٦٤٤ و ٦٤٧ نسخة من كتابه المغرب ، وفيه قسم كبير خاص بمصر وبلداتها في الوجهين البحري والقبلي ، وقد اشتركت في نشر القسم الخاص منه بالفسطاط وبه طائفة كبيرة من شعرائها ، ونشر القسم الخاص بالقاهرة وبه أيضا شعراء أيوبيون كثيرون .

وتعنى كتب التاريخ والتراجم بشعراء مصر زمن الأيوبيين والماليك ، وفي مقدمتها وفيات الأعيان لابن خلكان وفيات الوفيات لابن شاکر الكتبي والوفى بالوفيات للصفدي وكتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر وكتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع

(٢) المغرب: قسم القاهرة (طبع دار الكتب) ص ٣٢٤

(١) ابن خلكان (نشر دار الثقافة بيروت) ٢١١/٧

للسخاوى وكتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وكتاى السلوك والخطط للمقريزى وكتاب بدائع الزهور لابن إياس . ولا يكاد يوجد شاعر نابه زمن الأيوبيين والمالِك إلا وله ديوان مطبوع فقد طبعت دواوين القاضى الفاضل وابن سناء الملك وابن النبيه والبهاء زهير وابن مطروح وابن الفارض والبوصيرى والقيراطى وابن نباتة وغيرهم ، بل طبعت دواوين لبعض الشعراء الفاطميين مثل تميم بن المعز وابن وكيع والشريف العقيلى والمؤيد الشيرازى وظافر الحداد وطلائع بن رزيك وابن قلاقس .

ويظل لمصر نشاطها الشعرى زمن العثمانيين . ويؤلف شهاب الدين الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ كتابا فى شعراء زمنه سماه «ريحانة الألبا» ، خص مصر بالقسم الثالث منه ويذيل على الريحانة المحبى المتوفى سنة ١١١١ بكتاب سماه «نفحة الريحانة» جعل لشعراء مصر قسما كبيرا منه ، وبالمثل يذيل على نفحة الريحانة ابن معصوم المدنى المتوفى سنة ١١١٧ بكتاب سماه «سلافة العصر» ترجم فيه لطائفة من شعراء مصر لزمنه . وتلقانا تراجم مختلفة للشعراء المصريين فى شذرات الذهب للعماد وهو لا يتجاوز بتراجمه القرن العاشر . وولتقى بطائفة منهم عند المحبى فى كتابه خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر وكذلك عند المرادى المتوفى سنة ١٢٠٦ فى كتابه «سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر» وأهم منه ومن العماد تاريخ الجبرى ، وهو يعنى فى الجزء بين الأولين بتراجم شعراء مصر حتى نهاية القرن الثانى عشر أى حتى نهاية أيام العثمانيين .

### ٣

## شعر دورى ورباعيات وموشحات وبديعيات

### (١) الشعر الدورى

ذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول ما نفذ إليه الشعراء العباسيون من تجديد فى الأوزان ، وأهم من ذلك ما نفذوا إليه من تجديد فى القوافى أتاح لهم أن يستحدثوا اللون الشعرى المعروف باسم المزدوج . وقد خصّوا به منظومات الشعر التعليمى ، وفيه تتحد القافية فى كل شطرين متقابلين وتتغير من بيت إلى بيت ، وكأن الوحدة فيه لم تعد البيت ، وإنما أصبحت الشطر . ويكثر بمصر كما يكثر بغيرها من الأقاليم العربية نظم المزدوجات التعليمية ، وكادوا لا يتركون علما دون أن ينظموا فيه الأراجيز المزدوجة ، وأكثروا من ذلك فى النحو واللغة والقراءات ، حتى الطب تلقانا فيه مزدوجات كثيرة . ومن أوائل ما يلقانا بمصر مزدوجة لابن وكيع التنيسى المتوفى سنة ٣٩٣

للهجرة في وصف فصول السنة ، وأهم من ذلك أن له مزدوجة مربعة بناها من أدوار ، كل دور بيتان تتحد شطورهما في القافية افتتحها بهذا الدور<sup>(١)</sup> :

رسالةً من كَلْفٍ عميدٍ حياته في قبضة الصدود  
بَلَّغَهُ الشوقُ مدى المجهودِ ما فوقَ ما يلقاه من مزيدِ

وتلاه بأربعة وأربعين دوراً . وقد كثر هذا النظام الدورى المكون من بيتين بيتين ، وشاع خاصة في العصر الحديث إلى اليوم .

ونظام دورى ثان هو المسمطات شاع مبكراً وعرضنا له في كتاب العصر العباسى الاول واستشهدنا له بمسطين لأبى نواس ، أحدهما من أربعة شطور والثانى من خمسة . والمسمط مشتق من السَّمَط وهو قلادة تلتقى فيها عدة سلوك عند جوهرة كبيرة ، وكل دور في المسمط كأنه سلك يلتقى مع الأتوار أو الأسلاك الأخرى في قافية الشطر الأخير من الدور ، وكأنها الجوهرة التى تتجمع عندها الأسلاك . وتتحد الشطور السابقة للشطر الأخير في قافيتها وتتغير من دور إلى دور . ومن كان يشغف من المصريين بصنع المسمطات تميم ابن الخليفة المعز الفاطمى وكان شاعراً مجيداً . ومن مسمطاته مخمّس مدح به أخاه العزيز استهله على هذا النمط<sup>(٢)</sup> :

دَمُ العُشَاقِ مطلولٌ ودينُ الصَّبِّ ممطولٌ<sup>(٣)</sup>  
وسيفُ اللحظِ مسلولٌ ومبدى الحَبِّ معذولٌ

وإن لم يُصنغِ لللائمِ

ويتوالى بعد هذا الدور ثلاثون دوراً على هذه الشاكلة ، فالشطور الأربعة الأولى تتحد قافيتها ، وقافية الشطر الخامس دائماً ميمية ، وهى عمود المسمط وقطبه الذى يدور عليه . وقد تدور المسمطات على شطر رابع أو على شطر سادس أو سابع ، وتسمى مربعات وسداسيات وسباعيات . وأنشد العماد الأصبهاني مسمطاً سباعياً<sup>(٤)</sup> لشاعر إسكندري يسمى موسى بن على . وأخذ الشعراء المصريون في العصور المتأخرة يكثرون من هذه المسمطات وأولعوا بتسميط بعض القصائد المشهورة مثل بردة البوصيرى وهمزته في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم . ويخصى بروكلمان من تخميسات البردة وتسبعياتها وتسبعياتها عشرات أكثرها لمصريين<sup>(٥)</sup>

(٣) مطلول : مهمل ولادية له .

(٤) الخريدة (قسم شعراء مصر) ١١٣/٢

(٥) بروكلمان (طبع دار المعارف) ٩١/٥

(١) البيتة ٢٥٦/١

(٢) ديوان تميم بن الغزلىن الفاطمى (طبع ونشر

دار الكتب المصرية) ص ٣٨

وتظل المسمطات وخاصة الخمسات تلقانا أيام العثمانيين في كتب التراجم من مثل ربحانة الألبا  
ونفحة الربحانة وتاريخ الحيرى . ولأبى السعود الشعرانى المتوفى سنة ١٠٨٨ من محمّس نبوى (١)

ياحادى العيس إن حَفَّتْ بك الكَرْبُ الْحَوْزُ - هُدَيْتَ - بركبِ ساقه الطَّرْبُ  
وَقُلْ لَصَبٌ غدا بالشوق يَتَّحِبُ لمهبطِ الْوَحْيِ حَقًّا تَرْحَلُ الشَّجْبُ  
وعند هذا المرجى ينتهى الطلبُ

وتستمر في الخمس قافية الشطر الخامس في الشطور الخامسة من الأدوار التالية بائية على نحو  
ما قدمنا في قاعدة نظمه .

### (ب) الرباعيات

مرّنا في كتاب العصر العباسى الأول كثرة الرباعيات عند أبى نواس وأبى العتاهية . والرباعية  
أربعة شطور من الشعر تؤلف بيتين ، تتحد شطورهما الأولى والثانية والرابعة في القافية ، أما الشطر  
الثالث فقد يتحد مع تلك الشطور في قافيته وقد لا يتحد . ولم يكن شعراء العصرين : العباسى  
الأول والثانى يقصرون الرباعية على وزن معين . حتى إذا مضينا في هذا العصر : عصر الدول  
والإمارات وجدنا الفرس يكثرون من استخدامها مع تسميتها باسم « دويت » أى بيتين .  
ويشركهم شعراء العرب في ذلك ، واستحدثوا جميعا لها وزنين هما : « فَعْلُنْ فَعْلُنْ مُسْتَفْعَلُنْ  
مُسْتَفْعَلُنْ » و « فَعْلُنْ مُتَفَاعِلُنْ فَعْلُنْ فَعْلُنْ » على نحو ما صورنا ذلك في حديثنا عن الرباعيات في  
قسم العراق بالجزء الخامس من هذه السلسلة ، وما نمضى في زمن الدولة الأيوبية حتى نجد الشعراء  
يكثرون من الرباعيات ، من مثل قول ابن مَمَّانِي (٢) :

ياغَضْنُ أراك حاملا عود أراك حاشاك إلى السواك يحتاج سِوَاكُ  
قُلْ لى أنهاك عن مجيئك نُهاك لو تمَّ وفاق بُسْتُ خَدَيْك وفاقُ

ومن نظموا فيها ابن النبيه وابن مطروح وابن قَزَل وغيرهم ، ويقول ابن سعيد الأندلسى الذى  
زار القاهرة بأخرة من تلك الدولة كما مر بنا : « كثير من أهل القاهرة من يقول الدُّوَيْتِ »

السواك ، وفاق أى فك ، وسمى صاحبه غصنا لاستواء  
قامتا . والنهى : العقل .

(١) نفحة الربحانة للمجى (طبعة الحلبي - تحقيق

عبد الفتاح الحلبي) ٥٣٨/٤

(٢) معجم الأديباء ١٢٤/٦ والأراك شجر يتخذ منه

أوالرباعيات . . ولم أسمع بها من شعرائها أحسن مما أنشدنيه لنفسه ابن أبي الإصبع :

قَبِلْتُ ثَنَايَا كُجَّانِ الْعَقْدِ مِنْهُ وَعَدَلْتُ عَنْ نُضَارِ الْخَدِّ  
نَادَى مَاذَا؟ قَلْتُ: طَبْعُ عَرَبِي بِشَاقِ أَقَاحِ الرُّوضِ دُونَ الْوَرْدِ<sup>(١)</sup>

ويُسهم في نظم الرباعيات أصحاب الشعر الصوفي وفي مقدمتهم ابن الفارض ، وله رباعيات تفوح بوجود مبرِّح من مثل قوله :

رُوحِي لَكَ يَا زَائِرُ فِي اللَّيْلِ فِدَا يَا مُؤَنِّسَ وَحْشَتِي إِذَا اللَّيْلُ هَدَا  
إِنْ كَانَ فِرَاقُنَا مَعَ الصَّبْحِ بَدَا لَا أَسْفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ صُبْحُ أَبَدَا

فهو يبذل روحه لمحبيه الرباني مخلصاً صادقاً ، ويتمنى أن يظل نوره يضيء دُجَاه وأن لا يسفر عليه صباح ولا تنفلت أضواؤه من الأفق إن كانت لحظات التجلي تنقطع مع النهار وأنواره . وتظل الرباعيات حية في أيام العثمانيين ، وكانت تستخدم أحيانا في المديح النبوي كقول الشهاب الخفاجي صاحب ربحانة الألبا<sup>(٢)</sup> :

مَا جَرَّ لظِلُّ أَحْمَدِ أذْيَالُ فِي الْأَرْضِ كَرَامَةً كَمَا قَالُوا  
هَذَا عَجَبٌ وَيَا لَهُ مِنْ عَجَبٍ وَالنَّاسَ بظَلُّهُ جَمِيعًا قَالُوا

وهو يشير في الرباعية إلى ما قيل من أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يقع ظله على الأرض لأنه نور روحاني ، والنور لا ظل له . وفي البيتين تورية واضحة في كلمة قالوا ، فالأولى في البيتين من القول والثانية من القيلولة بمعنى استظلوا ونعموا .

### (ج) الموشحات

في أثناء ظهور الرباعيات والمسمطات أخذ يظهر شكل جديد من أشكال المنظومات الشعرية الدورية هو الموشحات ، ويذهب بعض الباحثين وخاصة من المستشرقين الإسبان إلى أنها فن أندلسي خالص نشأ من أغان إسبانية أعجمية . ويذهب باحثون آخرون من المستشرقين غير

(١) المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٧١ وفيه : (٢) ربحانة الألبا (نشر مكتبة الحلبي - تحقيق عبد الفتاح

الإسبان إلى أنها فن تطور عن الشعر العربي المشرق<sup>(١)</sup> وفي رأي أنها فعلا تطورت عن شعرنا المشرق وبالذات عن المسمطات والمحمسات ، أليست تتكون من أدوار مثلها وغاية ما في الأمر أن الشطر الأخير في دور المسمط يتعدد مع اتحاده في جميع الأدوار ، فقد يصبح شطرين متقابلين أو عدة شطور ، ويسمى قفلا . ويشهد لذلك نفوذ ديك الجن المتوفى سنة ٢٣٥ إلى صنع منظومة موشحة<sup>(٢)</sup> ، وكأنما اطلع عليها بعده بعض شعراء الأندلس ، وأخذوا في محاكاتها وانسعوا في هذه المحاكاة ، بحيث أخذت الموشحة عندهم صوراً كثيرة ، حتى لقد ينظمونها من أوزان مهمله ، بل حتى أصبحت كأنها محتكرة لهم ، وكأنهم هم الذين صاغوها وأهدوها إلى الشعر العربي وشعرائه في أقاليمه المختلفة . ومعروف أن الموشحة تتكون من أدوار أو أغصان كما أشرنا إلى ذلك ، ومن شطور تسمى قُفلاً ، ومن خُرْجة وتطلق على القفل الأخير . وتتحد شطور الأقفال دائماً في قوافيها المتقابلة في الموشح كله ، بينما تختلف قوافي الشطور في الأغصان من غصن إلى غصن مثلها في ذلك مثل أدوار المسمطات .

وقد أخذ شعراء المشرق العربي في محاكاة نماذجها الأندلسية منذ القرن السادس الهجري على الأقل ، ومن أقدم صور هذه المحاكاة بمصر موشحة تقف بين النمط الأندلسي وبين المسمط المشرق المشرق ، وهي لعل بن عياد الإيمسكندري المتوفى سنة ٥٢٦ ، فقد روى له العباد موشحة على هذا النمط<sup>(٣)</sup> .

يا مَنْ أَلُوذُ بِظِلِّهِ فِي كُلِّ خَطْبٍ مَعْضَلٍ  
لَا ثَلْتُ مِنْ أَصْحَابِهِ مَتَمَسِّكًا يَدَ السَّلَامِ  
أَمَّا مِنْ كُلِّ بَاسٍ فِي الْحَوَادِثِ وَالصَّرُوفِ

وتتردد قافية الشطرين الأخيرين مع كل شطرين يعقبان الأدوار التالية ، وبذلك اتخذ منها ابن عياد قفلا لموشحة على شاكلة الأندلسيين إذ يوحدون قوافي الشطور في الأقفال ، بينما ينوعون في قوافي الأدوار كما ينوع أصحاب المسمطات . وعادة يبتدئ الوشاح الأندلسي بالقفل ويتلوه بالدور ، وقد يبتدئ بالدور ويتلوه بالقفل كما في هذه الموشحة . ولظافر الحداد مواطن ابن عياد

الأول ص ١٩٩ وقسم الثام من هذا الكتاب ص ٦١٤ .

(٣) الخريدة للعباد (قسم شعراء مصر) - طبع لجنة

التأليف والترجمة والنشر ٤٤/٢

(١) فن الترشيح للدكتور مصطفى عوض الكريم (طبع

ونشر دار الثقافة - بيروت) ص ١٠٨ وما بعدها .

(٢) انظر في هذه الموشحة المبكرة كتابنا العصر العباسي

المتوفى سنة ٥٢٩ موشحة طريقة يحتفظ بها ديوانه<sup>(١)</sup>.

وكان طبيعياً أن يتعرف المشارقة على الموشحات الأندلسية لكثرة الوافدين عليهم في الإسكندرية والقاهرة من الأندلس، إما للحج وإما لطلب العلم فكانوا ينشدونهم موشحات مختلفة، ومن لا نشك في أنه كان يكثر من إنشادها للمصريين: إسكندريين وقاهريين أبو الصلت أمية بن عبد العزيز، وفيه يقول ابن سعيد: «كان منشأ للمنشور والمنظوم» وأقام بمصر عشرين سنة، وصنّف في الأملحان وعنه أخذها أهل إفريقية<sup>(٢)</sup>، ولا بد أنها كانت مصحوبة بموشحات أنشدها لهم، وقد توفى سنة ٥٢٩. ونزل مصر اليسع بن عيسى بن اليسع بعده في عهد صلاح الدين وألف باسمه كتابه المغرب في أخبار محاسن المغرب<sup>(٣)</sup>، ولا بد أن يكون قد ضمنه بعض الموشحات. ونزلها أيضاً حكيم الزمان عبد المنعم الجلياني الأندلسي<sup>(٤)</sup>، ومدح صلاح الدين الأيوبي مدائح كثيرة، وكان له عشرة دواوين ثامننا يشتمل على موشحاته. ومثّر بنا ذكر معجم السلفي محدث الإسكندرية وقد سجّل فيه لبعض من تلمذوا عليه من الأندلسيين بعض ما أنشدهوه من الموشحات الأندلسية.

وهذه كلها إنما هي إشارات قاصرة إلى ما حدث في القرن السادس الهجري بمصر من انتشار الموشحات بها انتشاراً هياً لظهور وشاح كبير فيها هو ابن سناء الملك المولود سنة ٥٥٠ ومحدثنا العباد الأصبهاني عن لقائه به سنة ٥٧١ ويشيد بشاعريته وينشد موشحة مبكرة له<sup>(٥)</sup>. وكأنما اختارت المقادير ابن سناء الملك لا ليكون وشاحاً مصرياً ممتازاً، بل لما هو أبعد من ذلك: ليضع عروض الموشحات ونظامها كما وضع الخليل بن أحمد عروض الشعر العربي ونظامه، على نحو ما يوضح ذلك كتابه النفيس: «دار الطراز» الذي ألفه في عهد السلطان الأفضل<sup>(٦)</sup> بن صلاح الدين (٥٩٥-٥٩٦هـ) وقد استهله بمبحث واسع في الموشحات وأقفاها وعدد شطورها وأنها تتردد في الموشح ست مرات في التام وخمس مرات في الأقرع<sup>(٧)</sup> وقد تصل الأقفال إلى أحد عشر جزءاً<sup>(٨)</sup>. ويقول عن الخرجة، وهي القفل الأخير في الموشحة، هي «أبراز الموشح وملحه وسكره

(١) ديوان ظافر الحداد ابن الإسكندرية (طبع مكتبة

مصر) ص ٣٣٧.

(٢) المغرب (القسم الأندلسي - طبع دار المعارف)

٢٦١/١ وما بعدها.

(٣) نفس المصدر ٨٨/٢.

(٤) فوات الوفيات ٣٥/٢ وطبقات الأطباء لابن

أبي أصيبعة ص ٦٣٠.

(٥) الحريرية (قسم شعراء مصر) ٦٧/١ وما بعدها.

(٦) راجع مجلة الثقافة العدد ٦٢٨ سنة ١٩٥١.

(٧) دار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء الملك

تحقيق الدكتور جودة الركابي (طبع دمشق) ص ٢٦.

(٨) انظر دار الطراز ص ٩٧.

ومسكه وعنبره» ويقول إنه ينبغي أن يسبق إليها خاطر الوشاح قبل أن يتقيد بوزن وقافية معينة<sup>(١)</sup>، ويقول أيضًا إن اللحن يستحسن فيها كما يستحسن أن تكون ماجنة. ويلاحظ أن الموشحات من حيث الوزن قسمان: قسم يجرى على أوزان العرب وأشعارهم، وقسم لا وزن له<sup>(٢)</sup>، إنما يزنه الإيقاع. والقسم الأول هو الأكثر وهو الذي دار على ألسنة العلماء والشعراء. واختار ابن سناء الملك في كتابه للأندلسيين أربعًا وثلاثين موشحة، واختار لنفسه خمسًا وثلاثين، وله وراءها موشحات كثيرة إذ أنشد له أحمد السخاوي في كتابه: «سجع الوُزُق المنتخبة في جمع الموشحات المنتخبة» أربعًا وثلاثين موشحة سوى ما أنشده النواجي في كتابه: «عقود اللآل في الموشحات والأزجال».

ومعروف مدى ما وفره الوشاحون الأندلسيون لموشحاتهم من جمال الجرس والإيقاع متخذين لذلك وسيلتين مهمتين هما صفاء الألفاظ وعذوبتها ورشاققتها، وقصر الشطور، حتى تصبح نغما خالصا يلدّ الأسعاع والقلوب، وعرف ابن سناء الملك كيف يمتلك هاتين الوسيلتين، فإذا موشحاته لا تفل روعة موسيقية عن موشحات الأندلسيين من مثل قوله في مطلع موشحة رواها ابن سعيد<sup>(٣)</sup>:

|                                    |                          |
|------------------------------------|--------------------------|
| البَدْرُ يَحْكِيكَ                 | لولا تَشْنِيكَ           |
| وأنت جُنَّةٌ <sup>(٤)</sup> الصديق | لولا تَجْنِيكَ           |
|                                    | لم يلق نُعْمِي ونعيم     |
|                                    | حَمَلْتَنِي كُلَّ عَظِيم |
|                                    | وإن لى ذنبا قديم         |
| بالضَّمِّ أَجْنِيكَ                | لِلصُّدْرِ أُذْنِيكَ     |
| لأن لى قلبًا رقيق <sup>(٥)</sup>   | عساه يُعْدِيكَ           |

والكلمات تطير بخفة عن الفم لخلوة جرسها وعذوبتها في النطق والسمع وجمال وقعها في النفوس والأفئدة، وموشحاته في دار الطراز أنغام حلوة وصور بديعة، على نمط هذا الدور أو الغصن في إحدى موشحاته:

وَجْهَكَ يَا أَحْسَنَ الْبَرِيَّةِ      قَدْ جَمَعَ الْمِلْحَ وَالْمَلَاحَةَ

(٤) جُنَّة: وقاية

(٥) فى الأصل رقيقا

(١) دار الطراز ص ٢٢

(٢) دار الطراز ص ٢٣

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٦٩

نرجسةً فيه مستحيهٌ ووردةٌ تحتها أقاحهٌ  
والخالُ في الوجنةِ المُضِيهه في الماء لا يُحسِن السباحه

وقد جمع في الدور أروع صورة للملاحة ، فالعين ملأى بالخضر والحياة ، والوجنة ورد ناضر ، تحتها أقحوان الثغر المتلألئ والخال في الوجنة غارق في ماء النضارة والحسن لا يرم . وبذلك أعد ابن سناء الملك المصريين بعده لكي يبرعوا براعة فائقة في نظم الموشحات ، ويتوفى سنة ٦٠٨ وكان يعاصره مظفر<sup>(١)</sup> الأهمى العيلاني المتوفى سنة ٦٢٣ صاحب الموشحة المشهورة :

كَلِّى يَأْسُحُبُ تَبِجَانِ الرَّبِّى بِالْحَلِّى  
وَاجْعَلِى سِوَارَهَا مُنْعَطَفَ الْجَدُولِ

والموشحة تفيض بكنوس الفرحة بالخمر والحديث عن ليلة الوصل والبهجة بالمحبوب، بهجة ما بعدها بهجة. وكان يعاصره ابن النبيه المتوفى سنة ٦١٩ وفي ديوانه موشحة بديعة يقول فيها<sup>(٢)</sup> :

قل لمن يلومُ في مُهْفَهْفِ أَسْمَرِ  
ثغره النَّظِيمُ مُسْكِرٌ وَسُكْرٌ

آه لو سقاني اطفأت نيرانى دُرَّةً ثَمِينَةً في الياقوت مكنونة

وواضح تعبيره عن رضاب الثغر بأنه يطفىء نيران قلبه وأن ياقوت الشفتين يحمل درة بل درراً ثمينه وهى كناية بديعة. ونمضى إلى زمن المماليك فنلتقى بكثير من الوشاحين ، وفى مقدمتهم العزازى وابن الوكيل. وظلت الموشحات مزدهرة فى أيام المماليك على لسان ابن نباتة وغيره<sup>(٣)</sup> وشاع استخدامها على لسان المتصوفة فى أذكارهم، ولعلى بن محمد بن وفا شيخ الطريقة الوفاية فى زمنه المتوفى سنة ٨٠٧ ديوان موشحات صوفية لا يزال مخطوطا، وأنشده منه السخاوى فى سجع الورق المذكور آنفا خمسا وخمسين موشحة ونخص كلاً من العزازى وابن الوكيل بكلمة.

العزازى<sup>(٤)</sup>

هو شهاب الدين العزازى أحمد بن عبد الملك وكان تاجرا بقيسارية جهاركس فى القاهرة

والأزجال للنواجى بتحقيق عبد اللطيف الشهاى ولابن نباتة  
فيه تسع موشحات وللمجد الدين بن مكانس أربع موشحات.

(٤) انظر فى العزازى المنهل الصافى ١/٣٤٠ وما بعدها

والنجوم الزاهرة ٩/٢١٤ وفوات الوفيات لابن شاعر الكبى

٨٨/١ والواقي ٧/١٥٢ والدرر لابن حجر ١/٢٠٥ .

(١) انظر فى مظفر وموشحه المغرب (قسم القاهرة) ص

٣٤٨ ، ٣٧٠ وراجع فيه معجم الادباء ١٩/١٤٨ وفوات

الوفيات ٢/١١١ ونكت الهيمان ٢٩٠ والشذرات ٥/١١٠

(٢) ديوان ابن النبيه (طبعة عبد الله فكوى) ص ٥٤ .

(٣) انظر فهرس كتاب عقود اللآل فى الموشحات

قرب حى الغوريّة الحالى ويقول ابن تغرى بردى : كان أديباً مطبوعاً ظريفاً له النظم الرائق الفائق ولا سيما نظمه للموشحات فإنه غاية في ذلك . ويقول ابن حجر : له في الموشحات يد طويلة توفى سنة ٧١٠ وله ثلاث وثمانون سنة . وفي دار الكتب المصرية نسختان من ديوانه غير تامتين ، والديوان في خمسة أقسام : في مدائح الرسول وأهل بيته وفي مدائح الأمراء والوزراء والكتاب والقضاة ، وفي النكت والملح والألغاز والأحاجي ، وفي الغزل والتنهائي والتعازي ، وفيما وقع بين أدباء عصره وشعره زمانه ، وفي غرائب الأوزان من الخمسات والموشحات . وفي مكتبة جامعة القاهرة مصوّرة منتخبة من ديوانه بخط الصفدى . ويذكر ابن تغرى بردى بعض موشحاته ، وبالمثل يذكر طائفة منها ابن شاكر في فوات الوفيات والنواجي في عقود اللآل في الموشحات والأزجال ، ومن أطرفها موشحة موزعة بين النشوة بالخمر وبالحب وبجمال الطبيعة استهّلها بقوله :

يا لهلّة الوصل وكأس العُقار      دون استتار      علّمَتانى كيف خلَعُ العِدَارُ<sup>(١)</sup>

اغْتَمَ اللذاتِ قبلَ الذهابِ

وجرَّ أذيالَ الصِّبا والشبابِ

واشربُ فقد طابت كتوسُ الشَّرابِ

واختتمها بقوله :

يا ليلة أنعمَ فيها وزارُ      شمسُ النَّهارِ      حَيَّيتِ من بين الليالى القِصارُ

وله في مطلع موشحة بديعة :

ما سلَّتِ الأهينُ الفواترُ من غمِّدِ أجفانها الصِّفاخِ<sup>(٢)</sup>

إلا أسالتُ دِماَ المهاجرُ من غيرِ حربٍ ولا كِفاحِ<sup>(٣)</sup>

ومن طريف موشحاته موشحة بناها من رباعيات ، كما يقول ابن شاكر ، وهى فى الحقيقة خمسم رباعى ، وهو يدل كما تدل موشحاته على غزارة ينبوع الشعر عنده ، وأنه كان يتدفق على لسانه تدفقاً ، مع الخلاوة وحسن الألفاظ وجمال النغم والإيقاع .

(٣) المهاجر : ما استدار حول العيون وأراد بها العيون نفسها .

(١) خلَع العِدَار : كتابة عن الانهالك فى الهون

(٢) الصِّفاخ : السيوف

ابن الوكيل<sup>(١)</sup>

هو محمد بن عمر بن المرحل المعروف بابن الوكيل الدمياطي ، ولد بدمياط سنة ٦٦٥ وانتقل مع أبيه إلى دمشق ، ونشأ بها ، وتولى التدريس في غير مدرسة هناك ، ثم انتقل إلى القاهرة ، وأُسند إليه التدريس بها في زاوية الشافعي والمشهد الحسيني والمدرسة الناصرية إلى أن توفي سنة ٧١٦ . ويقول السبكي : كان إماما كبيرا بارعا في مشهد الشافعي يضرب به المثل في البحث نظارًا مفرط الذكاء عجيب الحافظة . وبجانب ما كان يحفظ من كتب الفقه والحديث النبوي كان يحفظ مقامات الحريري وديوان المتنبي ، ويشيد مترجموه بما كان له من شعر ورباعيات وموشحات . وكانت له مشاركة في الشعر الشعبي : الزجل والبلايق التي تدور في المزل . ومن قوله في إحدى موشحاته :

ما أخجلَ قَدَهْ غصونَ البانِ بين الورقِ  
إلا وسبًا لها مع الغزْلابِ حُسْنُ الحدقِ  
الصحة والسقام في مقلتهِ  
والجنَّة والجحيمُ في وجنته  
ما أبدع معنى لاسخ في صورته  
كالورد حواه ناعم الرِّيحانِ بالطلِّ سقى  
والقدُّ يميل ميلة الأغصانِ للمعتنقِ  
أحيا وأموت في هواه كمدًا  
من مات جوى في حبه قد سَعِدَا  
ياعاذلُ لا أترك وجدى أبدا

وقد استخدم ابن الوكيل في هذه الموشحة وزن الرباعيات ، ليدل على قدرته في ضبط النغم واللحن ، وأنه لا يقل عن المحار الحلبي معاصره الذي حاكاه فيها وفي وزنها إبداعًا واقتانًا .

المحاضرة ٤١٩/١ والبداية والنهاية ٨٠/١٤ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٥٣/٩ والبدر الطالع ٢٣٣/٢ وعقود اللآل في الموشحات والأزجال للنواجي (انظر الفهرس) .

(١) راجع ترجمة ابن الوكيل في الفوات ٥٠٠/٢ والوفاء بالوفيات ٢٦٤/٤ والنجوم الزاهرة ٢٣٣/٩ وشذرات الذهب ٤٠/٦ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٣٤/٤ وحسن

وله موشحة جعل الشطور الثانية من نونية ابن زيدون المشهورة مضمنة في مطلعها وأقفاها كقوله في المطلع :

غدا مُنَادِينَا مَحْكَمًا فِينَا يَقْضَى عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا  
ويسرى التكلف إلى الموشحات بعد ابن الوكيل والعزازی ، غير أنها تظل حية وناشطة حتى أيام العثمانيين على نحو ما يلاحظ في كتب التراجم عند الشهاب الحفاجي وغيره ، وتلقانا عند المحبي موشحة بديعة لزين العابدين البكري المتوفى سنة ١١٠٧ للهجرة عارض بها موشحة لابن سناء الملك ، ومن قوله فيها <sup>(١)</sup> :

اعجبوا من حُسْنِ تلويحِ العيونِ      تلکمُ حانَهُ  
بِأبي مَرِّ الحَفَا بالدَّرِّ حَالِي  
قَدْرُهُ قد حَطَّ من قدرِ العوَالِي  
مطلبي من نَعْرِه كَتَرُ اللَّالِي  
وهايتيكم كينانه

والموشح يسيل عدوية ، وأنشد الجبرقي لقاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ موشحاً <sup>(٢)</sup> عارض به موشحاً مشهوراً للسان الدين بن الخطيب .

### البيديات

إذا تركنا الموشحات إلى البيديات وأجدناها قديمة في الشعر المصري ، على الأقل منذ زار مصر أبو نواس وأبو تمام ، واستمع شعراؤها إلى ما في أشعارهما من طرائف البديع ومحسناته ، ولم يكن الشعراء المصريون يكثرون من استخدام تلك المحسنات والطرائف ، إذ كانوا يستخدمونها من حين إلى حين دون إفراط ، وظل ذلك دأبهم في الحقب الأولى من زمن الدولة الفاطمية على نحو ما يلاحظ في شعر ابن وكيع التنيسي المتوفى سنة ٣٩٢ . وإذا مضينا إلى القرن الخامس لقينا أهم شعرائه الشريف العقيلي شاعر الخمر والطبيعة ، وشعره زاخر بالتشبيهات والاستعارات والجناس والطباق والمشاكلة ، ويتصنع في قلة لاستظهار بعض المصطلحات العلمية ، ولكن

(١) النساء في الاستواء والاعتدال .

(٢) تاريخ الجبرقي ١٩٨/١

(١) نغمة الرمانة ٥١٩/٤ والكنانة : جمعة السهام أشار

بها إلى سهام العيون . والعوالي : الرماح وتشبه بها قنود

ذلك كله لا يثقل عنده ولا نحس فيه بتكلف ، ونجد عنده التورية التي اشتهر بها المصريون في مثل قوله <sup>(١)</sup> :

وشاعِرٍ شعره فنونُ نكل بيتٍ له طنينُ  
تُسخن عينَ العدوِّ منه قصائدُ كلها عيونُ

فقد ورى في كلمة عيون المقابلة لعين العدو وهو إنما يقصد بها آيات الشاعر النفيسة . وللتورية أمثلة أخرى في شعره ذكرناها في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » ، ونجدها كثيرة عند الشعراء بعده ، مما يدل على أن ظهورها بمصر لم يتأخر حتى زمن القاضي الفاضل وأيام الدولة الأيوبية كما ظن ذلك صاحب الخزانة <sup>(٢)</sup> . ومن يرجع إلى القسم المصرى من كتاب الخريدة للهاد الأصهباني وما ترجم فيه من شعراء مصر في القرن السادس الهجرى يلاحظ شيوع محسنات البديع على ألسنة شعراء القاهرة والإسكندرية ، كقول ابن قلاؤس في وصف مغن <sup>(٣)</sup> :

لا أشربُ الرّاحَ إلا ما بين شادٍ وشادنُ  
قُمَ بانديمى فأنصتِ والليلَ داجٍ لداجينُ  
طاوغَ على القصفِ والعزِّ فكلُّ حاسٍ مُحاسينُ

والقطعة جميعها على هذا النمط من الجناس بين القافية والكلمة السابقة لها ، فشادٍ أى مغن تسبق كلمة شادن أى غزال ، وكلمة داج أى مظلم تسبق كلمة داجن أى مغن ، وكلمة حاسٍ أى للشراب تسبق كلمة محاسن . وهو بذلك يصعب المرور إلى جناسه . وكانوا يكثرون في أشعارهم من الطباق ولهم فيه صور كثيرة طريفة كقول ابن هانئ الصغير في وصف سيف <sup>(٤)</sup> :

ومهندٍ سبيحِ الفرندُ بِصَفْحِهِ وطفاً فيحسبُ مُعمداً مسلولاً

والفرند ما يرى في صفحة السيف مما يشبه ذيب الحمل أو الغبار . ومن حين إلى حين نرى عندهم الاقتباس من الذكر الحكيم وتضمنين بعض الشطور للجاهليين والإسلاميين والعباسيين كما

١٦١/١

(٤) الخريدة ٢٧٨/١

(١) المغرب (قسم النسطاط) ص ٢٤٤

(٢) الخزانة للحموى (طبعة بولاق) ص ٣٣٧ وما بعدها

(٣) الخريدة للهاد الأصهباني (قسم شعراء مصر)

نرى التورية معانقة لجناس تام في قول ابن قادوس<sup>(١)</sup> :

لام العواذُ مغرماً في حبِّ مُلْهِيةٍ وَقِيئةٍ  
ولو أَنهِنَّ رَأَيْنَ تَأْ ثِيرَ الغرامِ به وَقِيئةٍ

والتورية والجناس واضحان في كلمة « وقينه » المكررة في نهاية البيتين ، والواو في الأولى عاطفة وفي الثانية من أصل الفعل : « وقى » وهي موضع التورية . وبجانب ذلك نجد عند الشعراء لعهد الفاطميين عناية بمراعاة النظر في الصور والكلمات ، واستخدموا في قلة شديدة مصطلحات العلوم وتسمى باسم التوجيه ، وحتى الألفاظ نجد لها مبنوثة في أشعارهم ، ويذكر العماد شاعرا من بينهم تسمى ابن مجبر كان يعنى بصنع الألفاظ فيما يبدو عناية شديدة<sup>(٢)</sup> .

ويحمل لواء هذه البديعيات في زمن الدولة الأيوبية القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الذي نشأ وتربى في الدواوين الفاطمية على أمثال ابن قادوس وغيره من الشعراء والكتاب الفاطميين . ويجعله ابن حجة الحموى والصفدى إمام الشعراء في زمنه وبعد زمنه<sup>(٣)</sup> في استخدام المحسنات البديعية من تورية وغير تورية ، ويقولان إنه سار في دربه على منواله ونهجه ابن سناء الملك ومن خلفوه من شعراء الدولتين الأيوبية والمملوكية أمثال الجزار المتوفى سنة ٦٧٢ وناصر الدين ابن النقيب المتوفى سنة ٦٨٧ ومحيي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ والوراق المتوفى سنة ٦٩٥ وابن دانيال المتوفى سنة ٧١٠ ونصير الدين الحمامي المتوفى سنة ٧١٢ . ونستطيع أن نضم إلى من سميائهم من شعراء القرن السابع من جاءوا بعدهم طوال هذا العصر من أمثال ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ والقيراطي المتوفى سنة ٧٨١ وابن مكانس المتوفى سنة ٧٩٤ . وحتى شعراء الصوفية من أمثال ابن الفارض نجدهم يستخدمون هذه المحسنات بكثرة . وجعلها النقاد القطب الذي تدور عليه كتاباتهم في فن الشعر ، يتقدمهم في ذلك ابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤ على نحو ما هو معروف عنه في كتابه « تحرير التجبير » .

وتصبح البديعيات المقياس أو المقاييس الدقيقة لإبداع الشعراء . وتتضمنها قصائد في مديح الرسول ﷺ تسمى البديعيات وتشرح شروحا مطولة ، ومن أهم هذه القصائد قصيدة للسيوطي أو بديعية سماها « نظم البديع في مدح خير شفع » وله عليها شرح ، وكانت تعاصره عائشة

(٣) انظر خزنة الأدب للحموى ( طبع مطبعة بولاق )

الباعونية المتوفاة سنة ٩٢٢ وقد جعلت بديعيتها في مائة وثلاثين بيتا . ويلاحظ أن استخدام الشعراء المصريين طوال هذا العصر للمحسنات لم يسمح ولم يتقبل ولم يتحول إلى صور من التكلف المقيت حتى أيام العثمانيين ، وكأنما حالت العذوبة التي تنطوي عليها نفوسهم وأمزجتهم والتي تجرى بها مياه النيل في أرضهم ، بين كل ذلك وبين ما استخدموه من محسنات البديع وتلاوينه . وقد يما لاحظ ذلك ابن سعيد صاحب كتاب المغرب حين نزل الفسطاط والقاهرة واختلط بشعرائها ، إذ لم يلبث أن أنشد<sup>(١)</sup> :

أيا ساكني مصرِ عَدَا النَّيْلُ جَارَكُمْ فَأَكْسِبُكُمْ تِلْكَ الْحَلَاوَةَ فِي الشَّعْرِ  
وكان بتلك الأرض سحرًا وما بقي سوى أثر يبدو على النظم والثَّرِ

وسنذكر نفاثات من آثار هذا السحر وما طوى فيه من حلاوة وعذوبة في تراجم الشعراء لتلك الأزمنة

#### ٤

#### شعراء المديح

يكتظ الشعر العربي في مصر بالمديح منذ زمن الولاة المبكر أيام الدولة الأموية ، وخاصة في ولاية عبد العزيز بن مروان إذ كان جوادا ممدحا ، فانتجعه شعراء الحجاز ونجد والعراق ، ويظل شعر المديح يجرى على ألسنة الشعراء أيام الدولة العباسية ، ويزور أبو نواس مصر لمدح والى الخراج بها : الخصب ، ويضفي عليه مدائح رائعة ، ولا يلبث أن يزورها أبو تمام ، ويمدح عياش بن لهيعة الحضرمي القائم على الشرطة والخراج كما مر بنا ، كما يمدح واليها عبد الله بن طاهر . ومن أهم شعراء مصر حينئذ المعلّى الطائي ، وأنشدنا في غير هذا الموضوع بعض مديحه في عبد الله بن طاهر والى مصر للمأمون . ويظّلها عهد الدولة الطولونية ويتبارى شعراؤها في مديح أحمد بن طولون . وأهمهم في بواكير حكمه لمصر الحسن<sup>(٢)</sup> بن عبد السلام المشهور بلقبه الجمل الأكبر المتوفى سنة ٢٥٨ ، وله من قصيدة في مديحه :

والنجوم الزاهرة ٣/٣٠ وله في كتاب الولاة والقضاة للكتدي  
أشعار مخرقة .

(١) فوات الوفيات ٢٣٦/١  
(٢) انظر في ترجمة الجمل الأكبر معجم الأدباء لياقوت  
١٢١/١٠ والمغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ٢٧٠

له يَدُكم خَلَّدتْ من يَدِ سحابةٍ عَمَّتْ بأنوارِها  
انظُرْ إلى مصرٍ بسلطانِهِ ترَّ الهدى فاضَ بأرجائها

ومن شعراء الطولونيين المرمي<sup>(١)</sup> القاسم بن يحيى المنسوب إلى جده أبي مريم السلولى أحد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو شاعر أبي الجيش خوارويه اختصَّ به وأسبغ عليه كثيراً من نواله ، وفيه يقول :

يقولون لى ما بالُ رَحْلِكَ دائما بمصرٍ وإنى لستُ عن غيرها أَرْصَى  
وكيف رحيلى عن بلادٍ غدا بها أبو الجيشِ والتَّيْلُ الذى ملأَ الأوصا

وتوفى المرمي سنة ٣١٦ .

وكان الشعراء قد أخذوا يتكاثرون بالفسطاط منذ الدولة الطولونية كما مرَّ بنا . وأطرد تكاثرهم في عهد الدولة الإخشيدية ، وفي أيامها بدأ عصر الدول والإمارات الذى تؤرخ له في هذا الجزء وكان الإخشيد قد ملك مصر والشام وثور الروم وخطب له بالحجاز واليمن . ولذلك يقول شاعره سعيد<sup>(٢)</sup> بن فاخر من قصيدة يمدحه بها :

ياملِكُ الشامِ ومصرَ إلى أقصى ثغور الروم والشامِ  
واليمنِ الأبعد لاوَالِ [مُدَّ كُكُم] ربيعاً قادراً حامياً

ويتوفى الإخشيد سنة ٣٣٤ بعد أن أوصى لمولاه أبي المسك كافور الحبشى بتدبير الدولة لابنيه : أو نوحور وعلى ، ويتوفى أولهما سنة ٣٤٩ ويخلفه أخوه على ويتوفى سنة ٣٥٤ وقيل سنة ٣٥٥ . ويستقل كافور بالملك حتى وفاته سنة ٣٥٧ وكان ساعده الأيمن فى حكمه وزيره جعفر بن الفرات المعروف باسم ابن جرتابة . وكان كافور ممدحاً ، فقصدته الشعراء من كل فجٍّ وفى مقدمتهم كشاجم شاعر الشام ، والمتنبى إمام الشعراء لزمه وبعد زمنه . وكان أول ما أنشده يائته ، وفيها يقول :

(٢) انظر سعيدا (قاضى البقر) فى المغرب (قسم الفسطاط) ص ١٩٧ و ٢٧٢ ولعله هو نفسه سعيد القاصى المذكور فى النجوم الزاهرة ١٤١/٣ بين من رثوا الدولة الطولونية

(١) راجع فى المرمي للمغرب (قسم الفسطاط) ص ١٣٦، ٢٧١ وانظر أشعاراً متفرقة له فى الولاية والقضاة للكندى فى أنبلج خوارويه وفى مقالاته عنه بمجلة الحجة : العدد ١٤٢ ومجلة الكتاب العراقية سنة ١٩٧٤ فى عددي آب وتشرين الثامن

قواصدُ كافرٍ تواركُ غيرهَ وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقْلَّ السَّوَابِيَا  
وغيرُ كثيرٍ أَنْ يزوركُ راجلٌ فيرجعُ ملكًا للعراقين واليا

وظل المتنبى نحو أربع سنوات ينتظر أن يوليه كافر على بعض بلدان الشام التابعة لمصر . حتى إذا نفذ صبره ارتحل إلى العراق ليليل وهجاه هجاء مرا .

وتستقبل مصر سريعاً عهد الدولة الفاطمية ، إذ ينزلها جوهر الصقلي ويؤسس بها القاهرة ومسجدها العظيم الأزهر ويتبعه المعز الخليفة الفاطمي ، وتصبح القاهرة حاضرة لدولته الضخمة ودولة أبنائه وأحفاده من بعده ولا يلبث المعز أن يتوفى سنة ٣٦٥ ويخلفه ابنه العزيز ( ٣٦٥ - ٣٨٦ هـ ) ويتخذ يعقوب بن كلس وزيراً له ، وكانا يجزلان العطاء للشعراء . مما جعل ألسنتهم تلهج بمدحها ، على شاكلة قول عبيد الله بن أبي الجوع في إحدى مدائحه <sup>(١)</sup> :

لولا العزيزُ وآراءُ الوزيرِ معا نَحَيْفَتْنَا خَطوبُ تَشَعَّبُ الْأَمَّا

ولم يم في المعز في أبيه وأخيه العزيز مدائح طنانة ، ونزل القاهرة في عهد المعز أبو الرقعمق الأنطاكى : أحمد بن محمد ، وأقام بها زماناً طويلاً حتى توفى سنة ٣٩٩ ويقول ابن خلكان : « معظم شعره في ملوك مصر ورؤسائها : مدح بها المعز وولده العزيز والحاكم بن العزيز والقائد جوهر والوزير يعقوب بن كلس وغيرهم من أعيانها » <sup>(٢)</sup> وينشد له قصيدة في مدح ابن كلس . وكان محمد بن القاسم بن عاصم الملقب بصنّاجة الدوح شاعر الحاكم ، وأنشده في زلزلة حدثت بمصر من قصيدة في مدح <sup>(٣)</sup> :

بالحاكم العدلِ أضحى الدينُ معتلياً نَجَلُ الْعُلَا وسليلِ السادةِ الصَّلْحَا  
مازلتُ مصرُ من كيدِ يُرادُ بها لكننا رقصتُ من عدلهِ قَرَحَا

وبلى الحاكم ابنه الظاهر ، وينزل مصر في أول عهده صريح <sup>(٤)</sup> الدلاء البغدادي ، ويمدحه

١٥٥/٣ .

(١) راجع خطط المقرئ ٢٩٦/٢ وانظر في ابن أبي الجوع البيهقي ٣٩٥/١ ومر بنا حديث عنه . تشعب : تفرق وتفسد .

(٣) المغرب (قم القاهرة) ص ٣٢٨ وانظر في صنّاجة الملح حسن المحاضرة ١/٥٦٢

(٢) ابن خلكان ١٣١/١ وما بعدها وانظر في أبي الرقعمق البيهقي ٣٢٦/١ والعبر ٣/٧٠ والشذرات

(٤) انظر صريح الدلاء في تمة البيهقي ١٤/١ وفي ابن خلكان ٣٨٣/٣ والعبر ٣/١١٠ والشذرات ٣/١٩٧

ويخلفه المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧) ويعتلى الوزارة بدر الجمالي سنة ٤٦٨ ويصبح الأمر والسلطان منذ هذا التاريخ بيد الوزراء . ويخلفه على الوزارة ابنه الأفضل (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) . وكان شاعرا كما كان مدحا ، فبعث نهضة قوية في الشعر ، وصفها - كما مر بنا - أمية بن أبي الصلت في رسالته المصرية ، معددا فيها أسماء الشعراء في زمنه ممن مدحوه وهجوه جميعا . ومن كبار مدأحه ظافر الحداد وسنترجم له بين شعراء التشيع ، وحسن بن زيد الأنصاري وسنترجم له بين الكتاب ، وله فيه مدائح رائعة من مثل قوله<sup>(١)</sup> .

أَيامُكَ العُرُّ مصقولٌ عوارضُها      كَأَن آصَالِها      من رِقَّةٍ بُكَّرَ  
أَحْمَلتَ ذَكَرَ ملوكِ كَنت خاتمهم      وَأَنجُمُ الليلِ      في الإصباح تَسْتِيرُ  
بعضُ الوَرَى أنتَ لَكن فُقتهم شرفاً      إن الحجارة      منها الدرُّ والمدرُّ  
تخال راحته والمشرقى بها      سحابةً ظلَّ      فيها البرقُ يستعُرُ

ولفظه جزل متين وصوره بديعة ، مما يدل على شاعرية خصبة . ويلقانا بأخرة من الدولة الفاطمية الوزير طلائع بن زُرَّيك ، وكان مثل الأفضل الجمالي راعيا لكثير من الشعراء مثل ابن قادوس والقاضي الخليس والمهذب بن الزبير وأخيه الرشيد . وتزخر الخريدة وكتب الأدب بمدائحهم لطلائع . .

وكانت هناك مواسم كثيرة في زمن الدولة الفاطمية يقدم فيها الشعراء مدائحهم للخلفاء . في مقدمتها الأعياد وموالد الرسول صلى الله عليه وسلم والإمام على بن أبي طالب والسيدة فاطمة الزهراء وابنيها الحسن والحسين والخليفة الذي بيده صولجان الحكم وعيد الغدير ويوم عاشوراء وليالي رمضان وأول رجب وأول شعبان وأول السنة وأعياد النصارى وليلة الغطاس وليلة التبروز ووفاء النيل وما يقترن به من فتح الخليج . وفي كل هذه الأعياد وما يماثلها كانت تقام احتفالات ضخمة ، وكان الشعراء يهتنون بها الخلفاء ، وكل يحاول أن يكون له قصب السبق على أقرانه ويصور لنا ذلك المقريزي من بعض الوجوه في احتفال بوفاء النيل سنة ٥١٧ لعهد الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) . إذ يذكر بعض الأشعار التي أنشِدَتْ وما كان يصحبها من نقد يديه بعض المستمعين ، من ذلك<sup>(٢)</sup> أن ابن جبر أنشد في هذا الاحتفال مدحة استهلها بقوله :

(٢) خطط المقريزي ٢٥٣/٢ .

(١) الخريدة للعماد الأصبهان (قسم شعراء مصر)

فُتِحَ الخَلِيجُ فَسَالَ مِنْهُ المَاءُ وَعَلَتْ عَلَيْهِ الرَايَةُ البِيضَاءُ  
فَصَفَّتْ مَوَارِدُهُ لَنَا فَكَانَهُ كَفَّ الإِمَامِ فَعَرَفَهَا الإِعْطَاءُ

فانتقد عليه الناس قوله : « فسال منه الماء » قالوا أى شيء يخرج من النهر غير الماء . وبذلك ضيعوا عليه ما قاله بعد هذا المطلع . وأنشد شاعر مدحة افتتحها بقوله :

لَمِنْ اجْتِمَاعِ الخَلْقِ فِي ذَا المَشْهَدِ لِلنَّيْلِ أَمْ لَكَ يَا بِنْتَ مُحَمَّدِ

فهلل الناس لمطلعه ، فأمر له الخليفة الأمر على الفور بخمسين ديناراً وخُلع عليه وزيد في جاريه . ومَرَّ بنا حديث المنظرة التي بناها الأمر للشعراء ببركة الحبش ورفوفها وما كان عليها من صُررٍ للشعراء وفي كل صُرَّة خمسون ديناراً جزاءً وفاقاً لمديحهم ، وكان ذلك كان مكافأة معلومة لهم . ويخلفه الخافظ ( ٥٢٤ - ٥٤٤ هـ ) ويبدو أن الشعراء كانوا يتجادون أيامه في تطويل مدائحهم ، فأمرهم أن يختصروها مما جعل أبا العباس أحمد بن مفرج يشده في إحدى مدائحهم (١) :

أمرتنا أن نصوغ المدح مختصراً لِمَ لا أمرت ندى كفيك يُختصرُ  
والله لأبُدَّ أن نُجزي سوابقنا حتى يبين لها في مدحك الأقر

فأمر الأمر بالعود إلى ما كانوا عليه .

وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس منذ أواخر القرن الخامس ، وأسسوا به مملكة وأضافوا إليها مملكة في طرابلس وثالثة في أنطاكية ورابعة في الرها ، وبلغت مصر حينئذ من الضعف مبلغاً بعيداً لم تستطع خلاله أن تقاومهم إلا بعض تجريدات عسكرية وخاصة في عهد وزيرها طلائع بن رزك ، تجريدات لم تُغن عنها شيئاً . وبينما اليأس ينجم على الناس إذا بعاد الدين زكى يخلص الرها من أيديهم ، ويقضى على مملكتهم فيها قضاء مبرماً ، ويتابع جهاده ابنه نور الدين ، ويستغيث به شاور في مصر ضد ضرغام فيرسل إليه أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتتطور الظروف سريعاً ، فينهي صلاح الدين حكم الفاطميين لمصر ، ويقبض على صولجان الحكم . ويتوفى نور الدين ، فيضم الشام تحت لوائه ، ويأخذ في الانقضاض على الصليبيين ، وكلما التقى بهم دمر مجموعهم تدميراً ، حتى كانت الموقعة الفاصلة : موقعة حطين التي

(١) الحريدة (قسم شعراء مصر) ٦٤/٢ .

استولى فيها المسلمون على الصليب الأعظم : صليب الصَّلْبوت ، وأسروا قواد الصليبيين وزعماءهم ومزقوا جموعهم شرمزق . ويقول المؤرخون إنهم أكثروا منهم في القتل والأسر حتى كان من يشاهد القتلى يظن أنه ليس وراءهم أسرى وكان من يشاهد الأسرى يظن أنه ليس وراءهم قتلى ، ويقولون إنه بلغ من كثرة الأسرى أن كان الأسير منهم يباع في أسواق الرقيق بثلاثة دنانير ، وفي هذا النصر العظيم أنشد العباد الأصهباني صلاح الدين مدحة رائعة يقول فيها <sup>(١)</sup> :

حططت على حِطِينَ قَدَرَ ملوكهم ولم تُبْقِ من أجناسِ كفرهمُ جِئْسًا  
بطونُ ذئاب الأوضِ صارتِ قبورهمُ ولم تَرُضْ أرضٌ أن تكون لهم رَمِيْسًا <sup>(٢)</sup>  
سبَايا بلادُ الله مملوءةٌ بها وقد شُرِيَتْ بِحَسًا وقد عُرضَتْ نَحْسًا <sup>(٣)</sup>  
يُطَافُ بها الأسواقُ لاراغبٍ لها لكثرتها كم كثرةٌ توجب الوكْسًا <sup>(٤)</sup>

وفُتحت لصلاح الدين بعد هذه المعركة أبواب مدن كثيرة في فلسطين ولبنان مثل نابلس وبيت جبريل ( بيرسيع ) وقيسارية وحيفا وصَيْدَاء وبيروت . وتغنى الشعراء في مصر والشام والعراق بهذا النصر المبين . وسرعان ما تلاه صلاح الدين بفتح بيت المقدس ، وعمَّ الفرح بهذا الفتح جميع البقاع الإسلامية ، وتغنى به الشعراء طويلا من مثل قول محمد بن أسعد نقيب الأشراف بمصر <sup>(٥)</sup> :

أُتْرَى منامًا ما بعثني أبْصِرُ القُدْسُ يُفْتَحُ والفرَنْجَةُ تُكْسَرُ  
قد جاء نصرُ الله والفتحُ الذي وعدَ الرسولَ فسَبِّحوا واستغفروا  
فُتِحَ الشَّامُ وطَهَّرَ القُدْسُ الذي هو في القيامة للأنام المحشَّرُ

وكان هذا تحولا واسعا في قصيدة المديح المصرية ، فإنها لم تعد - كما كانت أيام الفاطميين - قصيدة تُشَدُّ في الأعياد والاحتفالات الرسمية : قصيدة مناسبات ، بل أصبحت قصيدة أمجاد حرية مظفرة . وتبَّه لذلك أبو شامة في الروضتين فأتبع المواقع الحربية بما نُظِم فيها من مدائح تصور البطولة العربية تصويرًا يملأ نفس كل عربي بالفتوة والقوة والمضاء ويدفعه دفعا إلى أن يكيل لأهداء العروبة والإسلام ضربات قاصمة .

(٤) الوكس : البيع بالخسارة .

(٥) الروضتين ١٠٥/٢ .

(١) الروضتين لأبي شامة ٨٣/٢ .

(٢) رمسا : قبرا .

(٣) نحسا : من النخاسة وهي بيع الرقيق .

ولا يكثر المديح الحماسي لصلاح الدين فحسب ، بل يكثر أيضا لقواده من إخوته ، وخاصة أخاه العادل ، وفيه يقول القاضي الفاضل من قصيدة بديعة<sup>(١)</sup> :

أَهْدَى كَفَّهُ أَمْ غَيْثُ غَوْتٍ      وَلَا بَلَغَ السَّحَابُ وَلَا كِرَامَةً  
وَهَذَا بِشْرُهُ أَمْ لَمَعُ بَرْقٍ      وَمَنْ لِلْبَرْقِ فِينَا بِالْإِقَامَةِ  
وَهَذَا الْجَيْشُ أَمْ صَرَفُ اللَّيَالِي      وَلَا سَبَقَتْ حَوَادِثُهَا زِحَامَةً  
وَهَذَا الدَّهْرُ أَمْ عَبْدٌ لَدَيْهِ      يَصْرَفُ عَنْ عَزِيمَتِهِ زِمَامَهُ  
وَهَذَا الثَّرْبُ أَمْ نَخْدٌ لَكُنَّا      فَأَثَارُ الشَّفَاهِ عَلَيْهِ شَامَهُ

ويعرف هذا الأسلوب في البديع باسم تجاهل العارف بمبالغة في المديح ، فالقاضي الفاضل لا يدري أكرم ما يصيبه هو وأمثاله من العادل أم غيث سحاب منهر ، بل إن السحاب دون كرمه الفياض . ولا يدري أبشر وجهه الذي يتلأأ أم البرق ؟ غير أن البرق يعرض ويزول أما هو فقيم لا يريم . وأيضا لا يدري ما يقوده إلى النصر جيش أم هو صرف الليالي ، بل إن الدهر عبد لديه يصدع بأمره ومشيئته ، ويعجب لما يسير عليه وكأنه يسير على حدود يرى عليها آثار الشفاه التي تقبل الأرض من دونه ، لكثرة الحشود المزدحمة على تقيلها ، وكأنها نفس الشامة التي نراها على الحدود .

ويظل جهاد الصليبيين الموضوع الأهم في مدائح السلاطين الأيوبيين حتى إذا كانت سنة ٦١٥ غزا حملة الصليب دمياط لعهد السلطان الكامل ، وظلوا بها نحو ثلاث سنوات ، وحدثتهم أنفسهم أن يتقدموا إلى الجنوب نحو المنصورة واستنفر السلطان الكامل أخويه المعظم عيسى صاحب دمشق والشام والأشرف موسى صاحب الولايات الشرقية حتى الفرات . وتجمعت جيوشهم وأنزلت بحملة الصليب هزائم ساحقة ولأوا على إثرها فارين إلى البحر المتوسط وما وراءه . وتغنى البهاء زهير بهذا النصر المجيد في مدحة أنشدها السلطان الكامل وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

بِكَ اهْتَرَّ عِطْفُ الدِّينِ فِي حُلِّ التَّصْرِ      وَرُدَّتْ عَلَى أَعْقَابِهَا مِلْدَةُ الكُفْرِ  
وَمَا فَرِحَتْ مِصْرٌ بِذَلِكَ وَحْدَهَا      لَقَدْ فَرِحَتْ بِغَدَاؤِ أَكْثَرِ مَنْ يَصْرِ  
فَن مِبلَعُ هَذَا الهِنَاءِ لِمَكَّةَ      وَيُثْرَبَ يُنْبِئُهُ إِلَى صَاحِبِ القَبْرِ

(٢) البهاء زهير للشيخ مصطفى عبد الرازق (طبعة سنة

(١) غزاة الأدب للحموي (طبع مطبعة بولاق) ص

والبهاء زهير يصور تهليل الدين الخفيف باندحار الصليبيين وأن الفرحة بالنصر الباهر لم تعم مصر وحدها بل عمت أيضا بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وإنه لحرى أن تهتأ به منازل الوحي في مكة والمدينة وأن يهتأ به الرسول في جدته الطاهر. وكأنما كان هذا النصر درسا ظل حملة الصليب يذكرونه نحو ثلاثين عاما، حتى كانت سنة ٦٤٧ إذ تجمّعوا بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، ونزلوا دمياط واتجهوا نحو المنصورة، غير أن المصريين بقيادة توران شاه آخر السلاطين الأيوبيين عصفوا بهم سنة ٦٤٨ وسحقوهم سحقا ذريعا، وأخذ لويس التاسع أسيرا وسُجن بدار ابن لقمان كاتب الإنشاء وكان يحرسه الطواشي صبيح. وأذعن لشروط الصلح التي فرضها توران شاه وخرج من مصر مع فلول حملته خاسئا مدحورا. وتتطور الظروف سريعا، فيقتل توران شاه وتخلفه شجرة الدر فالسلطان أيك. ولعل التابع السريع لهذه الأحداث هو الذي عقد السنة الشعراء فلم يتغنوا ببطولة توران شاه وجيشه الباسل وما أذاق حملة الصليب من نكال شديد.

وتظل مصر وشعراءها دولة المالك، وما توافى سنة ٦٥٧ حتى تكتسح سيول التتار الشام وتهبط إلى الجنوب في فلسطين ويلتقي بها جيش المالك فيكيح جماحها في عين جالوت، ويردها قُطر والظاهر بيبرس إلى غير مأب. ويصبح بيبرس سريعا سلطان مصر سنة ٦٥٨ وكان على الهمة بعيد النظر، فأعاد الخلافة العباسية في القاهرة، وبذلك أصبحت مصر حامية الخلافة والإسلام. وعصره يُعد العصر الذهبي في زمن المالك، وقد صورناه من بعض الوجوه وصورنا فتوحاته وحرابه المستمرة مع الصليبيين والتتار، وكيف قوّض للأوليين مملكتهم في أنطاكية، وما كان من تعقبه الدائم للتتار في الموصل. وسمع يوما بجموع لهم على الشاطئ الشرقي للفرات، فخاضه إليهم وخاضه الجيش معه فقتل منهم مقتلة عظيمة ولم ينج منهم إلا القليل، وفي ذلك يقول ناصر الدين حسن بن النقيب الكناني - وكان حاضر الواقعة - من قصيدة طويلة<sup>(١)</sup> :

ولما ترامينا الفرات بيخيلنا سكرناه منا بالقوى والقوائم<sup>(٢)</sup>  
فأوقفت التيار عن جريانه إلى حيث عدنا بالغنى والغنائم

وكان الشعراء ينثون على بيبرس قصائدهم في كل معركة وكل نصر مظفر على التتار والصليبيين وفي أرمينية وآسية الصغرى، وبالمثل حين كان ينشئ المدارس والمساجد، وفي مدرسة الظاهرية

يقول السراج الوراق من مدحة بديعة<sup>(١)</sup> :

وشيدها للعلم مدرسة غداً عراقُ إليها شيقٌ وشامٌ  
ولا تذكرن يوماً نظاميةً لها فليس يُضاهى ذا النظامَ نظامٌ

فهي في رأى الوراق تفوق المدرسة النظامية التي أنشأها نظام الملك في بغداد .  
ولا يلبث أن يتولى مقاليد الحكم بعد بيرس السلطان قلاوون ( ٦٧٨ - ٦٨٩ هـ ) . ومربنا  
بناؤه للمارستان ضخماً وإلحاقه به مدرسته المنصورية ، وفي ذلك يقول معين الدين عثمان بن  
سعيد بن تولو التنيسى المصرى مستهلاً قصيدة في مديحه بقوله<sup>(٢)</sup> :

أنشأت مدرسةً ومارستاناً لتصحح الأديان والأبدان

ونازل قلاوون الصليبيين مرارا ، واستولى منهم على بعض الحصون . وخلفه ابنه السلطان  
خليل ( ٦٨٩ - ٦٩٣ ) وكان بطلامغورا فافتتح أيامه بجهاد حملة الصليب واستطاع في أقل من  
ثلاث سنوات أن يستخلص منهم عكا وصور وصيدا وبيروت وجميع سواحل الشام ، فلم يبق لهم  
بلد ولا قلعة ، ومن بقى منهم ولّى على وجهه إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وكان الشعراء ما ينون  
يهنون السلطان خليل بفتوحه ، ولبدر الدين المنجى التاجر بالقاهرة قصيدة طويلة في هنته  
بانتصاراته المجيدة أولاها :

بلغت في الملك أقصى غاية الأمل وقت شأو ملوك الأعرص الأول

ونظم كثيرون من معاصريه قصائد وأشعارا مماثلة من ذلك قول البوصيرى شاعر المدائح النبوية  
المشهور<sup>(٣)</sup> :

قد أخذ المسلمون عكا وأشبعوا الكافرين صكاً  
وساق سلطانتنا إليهم خيلاً تدك الجبال دكاً

وحقا أشبعوهم صكا وقتلا ودفعا إلى البحر المتوسط في غير رجعة ولا مآب ، فقد سقطت  
عكا آخر حصونهم ، بل لقد دمرتها مجانيق المصريين وحرقتها نيرانهم ، وفي ذلك يقول أحمد

(٣) ديوان البوصيرى (طبع مطبعة مصطفى الحلبي) ص  
٢٣١ .

(١) المخطوط للمقرئى ٣/٢٤١  
(٢) النجوم الزاهرة ٧/٣٢٧ .

ابن عبد الدائم الشَّارِمَسَاحِي (١) :

لا تعجبوا للمجانيقِ التي رشَقَتْ  
بل اعجبوا للسانِ النَّارِ قائلةً  
عكًّا بنارٍ وهَدَّتْهَا بأحجارِ  
هدى منازلَ أهلِ النَّارِ في النَّارِ

وتوقف حركة الفتوح ، فلم يعد في الشام صليبيون ، ويتحول شعر المديح إلى شعر مناسبات في الأعياد ، وحين يستولى سلطان على مقاليد الحكم ، وخاصة إذا قرب من نفوس الشعب مثل السلطان الأشرف شعبان (٧٦٥ - ٧٧٨ هـ) . وكان قد استولى على صولجان السلطنة في ربيع الثاني فقال ابن نباتة :

طَلَعَةُ سُلْطَانِنَا تَبَدَّتْ بِكَامِلِ السَّعْدِ فِي الطَّلُوعِ  
فَاعْجَبْ لَهَا تَيْكِ كَيْفَ أَبَدَتْ هَلَالَ شُعْبَانَ فِي رَيْبِ

وكانت أيام حكمه أيام أمن ورخاء وازدهار للآداب والفنون ، وفيه يقول شهاب الدين أحمد بن العطار (٢) :

لِلْمَلِكِ الْأَشْرَفِ الْمَنْصُورِ سَيِّدِنَا مَنَاقِبُ بَعْضُهَا يَبْدُو بِهِ الْعَجَبُ  
لَهُ خَلَائِقُ يَبِيضُ لَا يَغْيَرُهَا صَرَفُ الزَّمَانِ كَمَا لَا يَصُدُّهُ الذَّهَبُ

وللعطار أشعار كثيرة في أحداث زمنه أنشد منها ابن تغرى بردى طائفة في الجزء الحادى عشر من كتابه النجوم الزاهرة . ولما تولى مقاليد السلطنة الظاهر برقوق يوم الأربعاء التاسع عشر من رمضان سنة ٧٨٤ مدحه بقوله من قصيدة :

ظَهَرُ يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ ابْتَدَأَ بِالظَّاهِرِ الْمُعْتَرِّ بِالْقَاهِرِ  
وَالْبِشْرِ قَدْ تَمَّ وَكُلُّ أَمْرِي مَشْرُوحٌ بِالْبَاطِنِ بِالظَّاهِرِ

وربما كان أهم حدث يلقانا بعد ذلك فتح السلطان الأشرف برسباى لجزيرة قبرص إذ كانت موطئاً لكثير من القراصنة الذين كانوا يعيشون فساداً في البحر المتوسط وما يحمل من سفن تجارة للمصريين ، كما كانوا يعيشون فساداً في شواطئ مصر والشام ، وأرسل إليها برسباى حملات ثلاثاً انتهت بالاستيلاء عليها سنة ٨٢٩ وتغنى الشعراء بهذا النصر المجيد في عدة قصائد ، من ذلك

قصيدة زين الدين عبد الرحمن بن الخراط أحد كتاب التُّنْت ، وفيها يقول (١) :

بُشْرَاكَ بِأَمْلِكَ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ      بفتوح قبرسَ بالحسامِ المَشْرِفِ (٢)  
فَحُّ تَفْتَحَتِ السَّمَاوَاتُ الْعَلَا      مِنْ أَجْلِهِ بِالنُّضْرِ وَاللُّطْفِ الْحَفِي

ولا نعود نسمع عن انتصارات حربية مجيدة أيام المالك ، ويصبح المديح مديح مناسبات للسلطين في توليم مقاليد الأمور وفي الأعياد .

ويُظَلُّ مصر عهد العثمانيين وفيه يقدم الشعراء مدائحهم للولاة ونوابهم وكبار الموظفين في زمنهم ويكثف تاريخ الجبرتي وغيره بأشعارهم على نحو ما يلقانا في مديح الولى العثماني رضوان كتحدا المتوفى سنة ١١٦٨ وكان قد بنى لنفسه عدة قصور وعاش للهو ، وقصدته الشعراء ومدحوه بالقصائد والأواجيز والموشحات والمقامات وأعطاهم الجوائز السنية . واتخذ له جلساء وندماء منهم عبد الله الإزكاوى ، وقد صنف في مدائحه كتابا سماه « الفوائح الجنانية في المدائح الرضوانية » ومن كبار مداحه مصطفى اللقيمي الدمياطى ، وله مقامة طويلة ضمنها أشعارا كثيرة في مديحه ، وله فيه مزدوجة فريدة ، يقول فيها (٣) :

مَلِكٌ سَعِدٍ قَدْ سَمَا فِي عَصْرِهِ      مُؤَيَّدٌ مَعْظَمٌ فِي مِصْرِهِ  
مَعْرُزٌ كَيُوسُفٍ فِي قَصْرِهِ      عَلَيْهِ مَنشُورٌ لَوَاءُ نَصْرِهِ

ومن مداح رضوان قاسم (٤) بن عطاء الله ، وله فيه مزدوجة بديعة ومدائح كثيرة ، وله أيضا فيه توشيح عارض به الموشح المشهور للسان الدين الخطيب ، وفيه يقول :

كَفَّهُ الْغَيْثُ عَلَى النَّاسِ هَمًّا      فَأَعَادَ الْخِصْبَ بَعْدَ الْيَبْسِ  
أَصْبَحَ الدَّهْرُ بِهِ مَبْتَسِمًا      وَهُوَ فِي فِيهِ مَحَلُّ اللَّعْسِ

ويكثر مدح الشعراء لعلماء الأزهر الأجلاء ، ويلقانا ابن الصلاحى (٥) السيوطى كلفا بأستاذه الشمس الحفنى ، وله فيه مدائح كثيرة على شاكلة قوله :

(٤) الجبرتي ١٩٣/١ وما بعدها وانظر ترجمة قاسم في

١٨٤/٢ .

(٥) الجبرتي ٢٦٥/١ وما بعدها

(١) النجوم الزاهرة ٢٩٦/١٤ .

(٢) المشرقي : نسبة إلى مشارف الشام أو اليمن ، والسيوف المشرقية : سيوف حادة قاطعة .

(٣) الجبرتي ٢٣٢/١ .

إمام الهدى الراقى إلى ذروة العُلا إلى رتبةٍ عنها الثوابُ تقعدُ  
وماشتَ قل فيه فأنت مصدِّقُ مزاياه تقضى والحاسنُ تشهدُ

وأكثرُوا حينئذ من التأريخ بالشعر يؤرخون به قديم والو أو مناسبة من المناسبات في آخر شرط  
بالقصيدة إذ تحسب حروف الكلمات فيه بحسب الجمل فتكون سنة الولاية أو سنة المناسبة ،  
ويحسن أن نستعرض شعراء المديح الناهين على مر الحقب .

### المهذب<sup>(١)</sup> بن الزبير

هو الحسن بن على الغسانى ، ولد بأسوان في أوائل القرن السادس الهجرى ، وبها ثقف علوم  
العربية ، وأوى ملكة شعرية خصبة ، فلم يلبث أن لهج بالشعر ، وما نصل معه إلى سنة ٥٢٦ حتى  
نراه يتصل ببني الكثر سراة بلدته ، ويمدح كبيرهم بقصيدة بديعة يقول فيها :

لئن جهل المذَّاحُ طُرُقَ مديحكم فإني بها من سائر الناسِ أعلمُ  
وهل لىَ حمدٌ فى الذى قلت فيكم ونُعماكمُ عندى التى تتكلمُ

ونال على قصيدته جائزة كبيرة : ألف دينار . ودفعه طموحه الأدبى إلى التروح عن بلده إلى  
القاهرة : حاضرة الفاطميين وموطن الشعراء الكبار . ونراه يمدح رضوان بن ولخشى وزير الخليفة  
الحافظ ( ٥٢٤ - ٥٤٤ هـ ) ولعله هو الذى أنقذه فى مهمة إلى اليمن ، فأكبَّ على كتب  
النسب ، وألف فيه دائرة معارف ضخمة قال ياقوت إنها تقع فى أكثر من عشرين مجلدا . ولم  
تصرفه عنايته بهذه الدائرة عن الشعر والمديح . وأهم وزير اتصل به بعد ابن ولخشى طلائع بن  
رُزَيْك ( ٥٤٩ - ٥٥٦ هـ ) . وكان يعد أكبر شاعر فى زمنه ، وقد ترجم له العماد الأصبهانى ترجمة  
ضافية استهلها بقوله : « المهذب بن الزبير محكم الشعر كالبنا المشيد ، لم يكن فى زمانه أحد أشعر  
منه ، وله شعر كثير ومحل فى الفضل أثر » . والغالب على شعر المهذب المديح .

ومن يدرس الشعر العربى يعرف أن قصيدة المديح تقوى تارة وتضعف أخرى ، فهى تقوى

الصعيد ص ١٣ ، ١٠٠ وابن خلكان ١/١٦١ فى ترجمة  
أخيهِ الرشيد وفوات الوفيات ١/٢٤٣ والنجوم الزاهرة  
٥/٣١٣ وحسن المحاضرة للسيوطى ١/٥٦٣ .

(١) انظر فى ترجمة المهذب وأشعاره خريدة القصر ( قسم  
شعراء مصر - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ١/٢٠٤  
ومعجم الأدباء ٩/٤٧ والنكت المصرية لمارة الجنى ص  
٣٥ والظالم السعيد الجامع لأشياء الفضلاء والرواة بأعلى

حين تعبر عن فتوح وانتصارات جديدة بأن يسجلها الشعراء ويتغنواها ، وهي تضعف حين تعبر عن زلنى وما يتصل بالزلنى من رياء . ومعنى ذلك أنه توجد للمديح في الشعر العربي قصيدتان لا قصيدة واحدة ، قصيدة ذات موضوع واضح ، وقصيدة ليس لها موضوع واضح ، ومن الضرب الأول مدائح أبي تمام في قواد الدولة العباسية وحروبهم في خراسان وفي آسية الصغرى ، ومنه أيضا مدائح المتنبي في سيف الدولة وانتصاراته المجيدة ضد البيزنطيين . ومن الضرب الثاني مدائح مهيار وغيره من الشعراء للخلفاء والوزراء والحكام في المناسبات والأعياد المختلفة . وفرق بعيد بين الضربين ، ففي الضرب الأول نقرأ حقائق واقعة ، بل يقرأ العرب تاريخهم في صورة رائعة من الغناء والشعر ، أما في الضرب الثاني فلا نقرأ حقائق ولا ما يشبه الحقائق ، ولا يقرأ العرب تاريخهم حربيا أو غير حربى ، إنما يقرءون ملقا وترلفا ورياء .

ويمكن أن ندخل مدائح المهذب بن الزبير للوزير طلائع بن رزك في الضرب الأول ، لأنه ملاً أيامه ببطولة محققة في حرب الصليبيين وردهم عن بعض حصون فلسطين ، وفي كتاب الروضتين في أخبار الدولتين للمقدسى ما يصور ذلك . فقد كانت الجيوش المصرية في أيام وزارته ماتى تنازل الصليبيين في العريش وغزة وعسقلان ، وكان الأسطول المصرى يقوم بدور مهم فهو يُفزعهم في « صور » و « عكا » وهو يقطع على بعض سفنهم في البحر المتوسط طريقها إلى الموانى الشامية والفلسطينية . وكان طلائع يقود بنفسه بعض جيوشه البرية ، ويتصر على الصليبيين في عسقلان وغير عسقلان ، والمهذب شاعره يتغنى بانتصاراته مبهجا بمثل قوله :

|                               |   |
|-------------------------------|---|
| لما أبوا ما فى الجفان قرينتهم | بصوارم سلت من الأجفان <sup>(١)</sup>    |
| وثللت فى يوم العريش عروشهم    | شبا ضراب صادق وطعان <sup>(٢)</sup>      |
| ألجأتهم للبحر لما أن جرى      | منه ومن دمهم معاً بحران                 |
| ولأنت تخضب كل بحر زاخِر       | ممن نحارب بالتجيع القانى <sup>(٣)</sup> |
| حتى ترى دمهم وخضرة مائه       | كشقائق نثرت على الرخان                  |
| وكان بحر الروم خلق وجهه       | وطقت عليه منابت المرجان <sup>(٤)</sup>  |

(٣) التجيع : الدم . القانى : شديد الحرارة .

(٤) خلق وجهه : طيب بالخلق وهو الزعفران .

(١) الجفان : جمع جفة وهي قصة الطعام .

والأجفان : جمع جفن وهو عمد السيف .

(٢) شبا : جمع شاة ، وهي حد السيف .

والمهذب بن الزبير فرح مبهج بما آفاه الله من نصر على ابن رزّيك في العريش ، فقد دقّ أعناق الصليبيين هناك ، ونكصت بقيتهم على أعقابها إلى البحر منزهة . ولا ريب في أن تصوير المهذب لدم الأعداء على صفحة البحر المتوسط بأنه خضاب أو هو شقائق أو ورد أحمر نثر على الرمان ، وكان المتوسط قد خلّق وجهه وطيب بالزعفران وطفّت عليه منابت المرجان ، لا ريب في أن ذلك كله تصوير بديع . ويذكر المهذب أن الأسطول المصرى لقي فلول الصليبيين المنهزمين إلى البحر يقتل فيهم ويأسر ، يقول في سفنه وصنيعها بهم :

شُبُهْنَ بِالغُرْبَانِ فِي أَلْوَانِهَا      وَفَعَلْنَ كَوَاسِرِ الْعُقْبَانِ  
وَأَتَتْكَ مُوقِرَةً بِسِسِيٍّ بَيْنَهُ      أَسْرَاهُمْ مَغْلُولَةٌ الْأَذْقَانِ (١)

وهو يصف الأسرى وقد غلّت أعناقهم إلى أذقانهم فلا يستطيعون لره وسهم عطفًا ولا حركة ، ويتوهّ بقتل أحد أمرائهم ، قائلا :

قَتَلَ الْبِرْنَسَ وَمَنْ عَسَاهُ أَعَانَهُ      لَمَّا عَتَا فِي الْبَعْجِ وَالْعُدْوَانِ  
وَأَرَى الْبَرِيَّةَ حِينَ عَادَ بِرَأْسِهِ      مَرَّ الْجَنَّا يَبْدُو عَلَى الْمَرَانِ (٢)

وتصادف في أثناء ذلك أن وقعت زلازل شديدة في الشام دكّت بعض حصون الصليبيين فذكر ذلك ابن الزبير ملتصقا له تعليلا طريفا إذ يقول لابن رزّيك :

مَا زُلْزِلَتْ أَرْضُ الْعِدَا بِلِذَاكَ مَا      بِقُلُوبِ أَهْلِهَا مِنَ الْخَفَقَانِ

وله في ابن رزّيك مدائح كثيرة وراء هذه التورية . وكان يتقن فنون الشعر المختلفة من استعطاف وغير استعطاف ، وله في استعطاف أحد دعاة الفاطميين باليمن ميمية مشهورة ، كان أخوه الرشيد قد ذهب إليه في مهمة للدولة ، فهمّ بقتله ، وسجّنه ، فأرسل إليه بتلك القصيدة يستعطفه لأخيه ، فعفا عنه وردّ إليه حريته . واشتهرت القصيدة بغزلها وما يرمز فيه من لفة على أخيه ، إذ يقول :

يَارَبِّجُ أَيْنَ تَرَى الْأَحْبَةَ يَمَّمُوا      هَلْ أَنْجِدُوا مِنْ بَعْدِنَا أَوْ أَنْهَمُوا (٣)  
نَزَلُوا مِنَ الْعَيْنِ السَّوَادِ وَإِنْ نَأَوْا      وَمِنَ الْفَوَادِ مَكَانَ مَا أَنَا أَكْمُ

(٣) أنجدوا : دخلوا مجددا . أنهموا : دخلوا تامة .

(١) موقرة : محملة .  
(٢) الجنّا : الثمر . المران : الرماح .

رحلوا وفي القلب المعنى بعدهم  
وتعوّضت بالأنس روحى وحثّة  
إني لأذكركم إذا ما أشرقت  
لا تبعثوا لى في النسيم تحيّة  
وجدّ على مرّ الزمان محيّم  
لا أوحش الله المنازل منهم  
شمس الضحى من نحوكم فأسلم  
إني أغار من النسيم عليكم

والأبيات تعبر عن عاطفة الحب المتناعة وأنه لن ينسى أحباءه أبدا نزلوا نجدا أو نزلوا تهامة ، فهم فى سويداء فواده والوجد يبرّح به ، والوحشة منهم تلذع روحه ، وهو يستقبل شمس الضحى المشرقة من ديارهم بالسلام الحار . وما يلبث أن يعبر فى البيت الأخير عن رقة ورهافة حس بالغة ، وله من جملة قصيدة بيته المشهور :

وما لى إلى ماء سوى التبل غلّة  
ولو أنه - أستغفر الله - زمزم

وهو يصور أدق تصوير محبته لوطنه ، وهى محبة تملك دائما على المصريين شغاف قلوبهم . وكان المهذب وأخوه الرشيد - وكان شاعرا مثله - وثقا صلتهما بشركوه وصلاح الدين حين قدما مصر لنجدة الوزير شاور ضد خصمه وضد الصليبيين ، ولم يلبث شاور أن قلب ظهر الجح لصلاح الدين وعمه شركوه ، واضطرا إلى مبارحة مصر فترة . وحينئذ يقتل شاور الرشيد ويسجن المهذب فينظم شعرا كثيرا فى استعطافه ، ويرد إليه حرته ، وسرعان ما يتوفى سنة ٥٦١ للهجرة .

### ابن قلاقس<sup>(١)</sup>

هو نصر الله بن عبد الله بن قلاقس الإسكندرى ، ولد بالإسكندرية سنة ٥٣٢ ونشأ بها وسمع من شيوخها ، ولزم حلقة أبى طاهر السلفى أكبر المحدثين فى عصره ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة فمدح بعض أولى الأمر المشرفين على الإسكندرية : وكان فى أثناء ذلك يلزم صحبة شيخه السلفى وله فيه مدائح بديعة مثبتة فى ديوانه من مثل قوله :

تفيض بحار العلم من كلماته  
فإن كنت ظمأنا فرد خير منهل  
فيا أيها المحمود من كل ناطق  
على كل معنى فى قنا كل منزل

الجنان ٣/٣٨٣ . وديوانه طبع قديما بمطبعة الجوانب وراجعه وضبطه خليل مطران .

(١) انظر فى ترجمة ابن قلاقس الخريدة (قسم شعراء مصر) ١/١٤٥ ومجمع الأدباء ١٩/٢٣٦ وابن خلكان ٥/٣٨٥ وحسن المحاضرة ١/٢٤٢ والشذرات ٤/٢٢٤ ومراة

تَحَسَّدتِ الأَيَّامُ فِيكِ هَلُم تَرَل مَتَّى القَادِمِ الجَدَلَانِ وَالمُتَرَحَّلِ

وهو يشير إلى علم أستاذه وأنه كان مقصدًا للراجلين في طلب الحديث من كل بقاع العالم الإسلامي . وليس في ديوانه مديح لوزير مصرى قبل شاور وزير العاصد ( ٥٥٧ - ٥٦٤ هـ ) .  
واتصل بكتاب الديوان لهده ومدحهم ، وفي مقدمتهم القاضى الفاضل ، وله فيه غرر المدائح ،  
ومن قوله في إحداها متخلصًا من الغزل إلى مديحه :

يَارِبُّ خَمْرٌ قَمُّهُ كَأَسْهُهَا لَمْ أَقْنَعُ مِنْ شَرِبِهَا بِالشَّمِيمِ  
أَتَبِعْتُ رَشْفًا قُبْلًا عِنْدَهَا وَقَلْتُ : هَذَا : مَزْمٌ وَالحَطِيمِ  
فَافْتَرَّ إِمَّا عَنِ أَقَاحِي الرُّبَى تَضْحَكُ أَوْ دُرُّ العُقُودِ النُّظْمِ  
أَوْ كَانَ قَدْ قُبِلَ مُسْتَحْسِنًا مَا حَبَّرَ الفَاضِلُ عَبْدُ الرَّحِيمِ  
مَنْ لَفْظُهُ رَاحٌ وَأَخْلَاقُهُ رَوْحٌ وَتَلِكِ الدَّارُ دَارُ النِّعَمِ

والأبيات تصور قدرة رائعة على تكوين الصور الشعرية البديعة ، فقم صاحبه كأس خمر ،  
وهو يرشفها وكأنه يرشف من ماء زمزم ويقبلها وكأنه يقبل الحطيم المقدس . وضحكت فخال  
أقاحى الربى تضحك ، بل عقد در نظم . بل درر القاضى الفاضل عبد الرحيم ، مَنْ لَفْظُهُ خَمْرٌ  
وأخلاقه قَرَحٌ وداره جنة الخلد ، ولعله يريد قصر الخلافة الذى كان يعمل به الفاضل كاتباً .  
وليس في شعره أى شائبة تدل أو تشير إلى أنه اعتنق التشيع ، وكان عهد وزارة شاور عهدًا  
مضطربًا أشد الاضطراب ، فسدت فيه أداة الحكم فسادًا شديدًا ، مما جعل شاور يضطر مع  
ضرغام على الوزارة ، ويستعين بنور الدين أمير حلب ويرسل معه أسد الدين شيركوه وصلاح  
الدين ، فيعيدانه إلى كرسى الوزارة ، وما يلبث أن يستعين ضدّهما بالصليبيين . ولعل هذا  
الاضطراب الشديد الذى عانته البلاد حينئذ هو الذى جعل ابن قلاقس يفكر في مبارحة مصر إلى  
صقلية ، ويبدو أنه كان يسمع في أثناء مقامه بالإسكندرية من مسلميها الداهيين إلى الحج تنويها  
كثيرا بها وبرجالاتها ، وكانت قد سقطت في أيدي النورمانديين ولكن أمراءهم منذ روجار كانوا  
لايزالون يعاملون المسلمين بها معاملة حسنة ، وأعانوهم على استمرار نشاطهم العلمى والأدبى .  
على كل حال نفاجاً برحيل ابن قلاقس إلى صقلية في شعبان سنة ٥٦٣ ولم يكذب ينزل بها حتى  
أرسل بقصيدة يصف فيها رحلته البحرية إلى الجزيرة وصفًا بديعًا ، وكانت قد أعجبت مشاهدتها  
الطبيعية فأنشد :

بلدُ أعارته الحمامة طَوْقَهَا وكساه حَلَّةَ ريشه الطاووسُ  
فكانما الأزهارُ منه سُلَافَةٌ وكانَ ساحاتِ الديارِ كَثُوسُ

وتنقلُ في بلدانها ، وكانت لاتزال عامرة بالمسلمين ، ونزل حاضرتها يلزم ، وتعرفُ على أكبر شخصية عربية بها : أبي القاسم بن الحجر ، ويبدو أنه كان رئيس ديوان المسلمين وصاحب الأمر والنهى فيهم ، وفيه دُبُج مدائح كثيرة ، مشيداً ببيانه وبلاغته ، وبمحسن تدييره ، بمثل قوله :

ويمناك طَيْرٌ يُعْنِ وسَعْدٍ أَصْفَرُ الظهرِ أَسْوَدُ المنقارِ  
قلمٌ دَبَّرَ الأقاليمَ فالكُتُبُ بِهُ من كُتَّابِ الأقدارِ

والبيت الثاني يشير بوضوح إلى أن أبا القاسم كان يصرف أمور المسلمين في صقلية ، ولعله لذلك تسميه بعض المصادر العربية صاحب صقلية ، وفيه كتب ابن قلاقس كتاباً سماه « الزهر الباسم من أوصاف أبي القاسم » وصف فيه رحلته إلى صقلية ومقامه بها نحو عامين ومدائح فيه ، واحتفظ العاد الأصباهي في ترجمته بقطعة كبيرة من هذا الكتاب . وفي ديوانه مدائح كثيرة لشخصية ثانية بصقلية ، هي شخصية القاضي علي بن أبي الفتح بن خلف الأموي ، ويقول العاد إنه نوه به في كتابه الزهر الباسم وقال عنه « حَدة العلم الناظرة وحديقة الأدب الناضرة » وفيه يقول :

وكم لك في الفصاحة من أبايدٍ ملكتَ بها الفَخَّارَ على الإيادي<sup>(١)</sup>  
تَحَدَّتْكَ من صَقَلِيَّةٍ خيلاً فكنت الوردَ يُقَطِّفُ من قَتَادِ  
وشيمتك بين أهلها صَفِيًّا فكنت الجمرَ يُقْبِسُ من زنادِ

وابن قلاقس لا يريد أن يهجو أهل صقلية بأنهم قتاد وشوك وابن خلف وحده هو الورد ، ولا أنهم زناد صلْد وهو وحده الجمر ، وكل ما في الأمر أنه يريد أن يمدحه ، وبالغ في مديحه ، أما بعد ذلك فكان هناك أبو القاسم بن الحجر مملوحه وراعيه فيها . وقد مدح بها آخرين ، منهم جُرْدُنَا وزير صاحب صقلية ، وفيه يقول :

وجرْدُنَا المدائح فاستقرتْ على أوصافِ جُرْدُنَا الوزيرِ

وهو يشير مراراً إلى مجالس الشراب في صقلية ، وأنه قضى بها أياماً وليالي هنيئة ، كان يستمتع

(١) هوقس بن ساعدة الإيادي الحليب المشهور .

فيها بالاستماع إلى الغناء والموسيقى ورؤية الراقصات وهن يتشئن في نسق بديع من الحركات يقول :

وَمُعْنٌ تَنَاوَلَتْ يَدُهُ الْعَوْدَ فَعَادَتْ بِنَا إِلَى الْأَفْرَاحِ  
بَيْنَ رِيحٍ مِنَ الْمَزَامِيرِ أُسْرَى بَيْنَ أَجْسَامِنَا مِنَ الْأَرْوَاحِ  
وَصَبَاحٍ قَدْ عَقَدُوا طُرُقَ اللَّيْلِ لِرَجَائِلِنَا عَلَى الْوَجْهِ الصَّبَاحِ  
يَبْعَثُ الرُّوضُ مِنْهُمْ حَرَكَاتٍ سَرَقَتْ بَعْضَهَا طَوَالَ الرَّمَاحِ

وعاد ابن قلاقس إلى مصر ، فوجدها لاتزال مضطربة قبل تحول مقاليد السلطان إلى صلاح الدين ، ففكر في الارتحال عنها ، وولى وجهه نحو عدن سنة ٥٦٥ استقبله استقبالا حسنا ياسر بن بلال وزير محمد وأبي السعود ابني عمران حفيد الداعي سبأ صاحبها ، فأغدق عليه نائلا غمرا ، وركب البحر الأحمر عائدا إلى مصر ، فانكسر المركب به وغرق جميع ما كان معه بالقرب من جزيرة دَهْلَك ، فعاد إلى ياسر ، وأنشده قصيدة دالية استهلها بقوله :

صَدَرْنَا وَقَدْ نَادَى السَّمَاحُ بِنَا رِدْوَا فَعُدْنَا إِلَى مَعْنَاكَ وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ  
وَجَادَبْنَا لِلْأَهْلِ شَوْقٌ يَقِيمُنَا وَشَوْقٌ لِمُعْنِينَا عَنِ الْأَهْلِ يَقَعْدُ  
وَمَا فَاحَ فِينَا غَيْرَ ذِكْرَاكَ رَوْضَةً وَلَا سَاحَ فِينَا غَيْرَ نَعْمَاكَ مَوْرَدُ  
فِي يَاسِرَا نَلْنَا بِهِ الْفَضْلَ يَاسِرَا وَيَآمَنُ وَجَدْنَا مِنْهُ مَا لَيْسَ يُوجَدُ  
دَعْوَتَ بَصَوْتِ الْجُودِ حَتَّى عَلَى النَّدَى لِأَنَّكَ تَرَوِي عَنِ بِلَالٍ وَتُسْنِدُ

والقصيدة كلها من هذا النمط البديع ، وما أروع بيتها الأخير ، وقد تصور ياسرا يؤذن بصوت الجود داعيا الناس إليه ، ويعلل ذلك تعليلا طريفا ، إذ يقرن اسم أبيه بلال إلى بلال مؤذن الرسول وهو يروى عنه ويقتهى به قدوة حسنة . وكان يحسن التعليل كما يحسن التصوير ، ومن طريف صورته وتعليقاته قوله في جارية سوداء :

رُبَّ سَوْدَاءٍ وَهِيَ بِيضَاءٌ مَعْنَى نَافَسَ الْمَسْكَ عِنْدَهَا الْكَافُورُ  
مِثْلَ حَبِّ الْعَيُونِ يَحْسِبُهُ النَّاسُ سُوَادًا وَإِنَّمَا هُوَ نُورُ

وهي صورة بديعة غريبة . ويكثر مثلها عنده ، كقوله يصف الشَّعْرَ وَأَنْ مِنْهُ مَا يَذْبَلُ سَرِيحًا

ومنه ما يخلد على الدهر ، ومنه القبيح ومنه الجميل ، يقول :

الشَّعْرُ مِنْهُ قَصِيرٌ عَمْرُهُ زَهْرٌ يَدْوِي وَمِنْهُ طَوِيلٌ عَمْرُهُ زَهْرٌ<sup>(١)</sup>

(١) زهر : نجوم ، كناية عن الخلود .

أو كالعيون فهذى حظها حَوْلُ يُعَصُّ منها وهذى حظها حَوْرُ

وكان قد ظل عند ياسر نحو ستين وعاد في شوال سنة سبع وستين ، وركب البحر إلى عيذاب  
تفر قوص على بحر القلزم ، وكان الموت كان في انتظاره ، فلم يكذب يتزها حتى لَبَّى نداء ربه وهو في  
الخامسة والثلاثين من عمره .

### ابن سناء <sup>(١)</sup> الملك

هو القاضي السعيد هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن القاضي المعتمد سناء الملك  
السعدى ولد سنة ٥٥٠ بالقاهرة في بيت يسار ونعمة ، إذ كان أبوه وجده من كُتَّاب الإنشاء في  
الدولة الفاطمية ، كما يدل على ذلك تلقيبها بلقب القاضي الذي كان يمنح لكبار الكتاب ،  
وكانت قد انعقدت صلة وثيقة بين جده وأبيه وبين القاضي الفاضل حين كان يعمل معها في  
الدواوين الفاطمية . ولما تطورت الظروف وأصبحت مقاليد الحكم في مصر بيد صلاح الدين  
واتخذ القاضي الفاضل وزيراً له ومستشاراً قُربَ الفاضل منه جعفر بن سناء الملك وتوثقت الصلة  
بينهما حتى كان ينييه عنه في غيبته مع صلاح الدين بالشام . وعُني جعفر بترية ابنه هبة الله منذ  
نعومة أظفاره ، فعهد إلى بعض القراء بتحفيظه القرآن الكريم ، حتى إذا حفظه اختلف إلى  
حلقات العلماء وخاصة حلقة ابن بَرِّي أكبر أئمة اللغة والنحو المصريين حينئذ . وأكبُّ يقرأ كتب  
الفقه وعلم الكلام والمنطق على نحو ما يشهد بذلك استظهاره في أشعاره لبعض مصطلحات هذه  
العلوم في الحين بعد الحين . ودفعه طموحه العلمي إلى الارتحال إلى الإسكندرية لسماع الحديث  
على السني الكبير الحافظ السلفي أحمد بن محمد ، وفيه يقول :

وجئتُ إلى الإسكندرية قاصداً  
إلى أحمد المحيي شريعة أحمد  
إلى كعبة الإسلام أو علم العلم  
فلا علمت منه أباً أمة الأمي

للحموي في مواضع متفرقة ومقالنا : « الروح المصرية في  
شعر ابن سناء الملك » بكتابتنا : « فصول في الشعر ونقده  
وابن سناء الملك : حياته وشعره ل محمد إبراهيم نصر » ومقدمة  
محمد عبدالحق لنشرته للدبوان في الهند ، ونشره وحققه في  
القاهرة محمد إبراهيم نصر .

(١) انظر في ترجمة ابن سناء الملك وأشعاره الخريدة  
(قسم شعراء مصر) ٦٤/١ ومعجم الأدياء ٢٦٥/١٩  
والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٢٧٣ وابن خلكان  
٦١/٦ وصر الذهبي ٢٩/٥ والشفراء ٣٥/٥ وحسن  
الحاضرة ٢٤٣/١ وبدائع البداهة لعل بن ظافر وخزانة الأدب

وقد أكبَّ على دواوين الشعراء يلتهمها كما أكبَّ على الموشحات الأندلسية في طلبعة عمرة كما يقول في مقدمة كتابه النفيس « دار الطراز » الذي سبق أن تحدثنا عنه وقلنا إنه وضع فيه عروض الموشحات ، وإنه يقوم في ذلك مقام الخليل بن أحمد في وضعه عروض الشعر العربي ، ونراه يختم بعض موشحاته بأقوال أعجمية مما يدل على معرفته بالفارسية . ويشهد وضعه لعروض الموشحات وضعاً نهائياً بذكاء خارق .

وقد فتحت موهبة ابن سناء الملك الشعرية مبكراً فتتحاً راع القاضي الفاضل كبير أدباء زمنه ، فاستاذن أباه في أن يتخذ كاتباً بين يديه ، وأذن له ، وأضفى عليه من إعجابه بشعره وودّه ما أصبح به أباً روحياً له ولفنّه . ومن خير ما يصور هذه الأبوّة الروحية كتاب ابن سناء الملك المسمى « فصوص الفصول » ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، والكتاب في جمهوره مراسلات بين ابن سناء الملك وأبيه جعفر من جهة وبين القاضي الفاضل من جهة ثانية حين كان يذهب إلى الشام في رفقة صلاح الدين ، فيكاتب الشاعر وأباه ، وخاصة حين يرسل إليه ببعض مدائح فيه أو في صلاح الدين . وهي ليست مكاتبات إخوانية فحسب ، بل هي أيضاً ملاحظات نقدية على الشعراء السالفين والمعاصرين وخاصة ابن سناء الملك نفسه وأشعاره . وتموج رسائل الفاضل فيها ببناء غديّ عليه من مثل قوله عن بعض قصائده : « مايرينا من آية إلا هي أكبر من أختها ، وما يجلو علينا عروساً إلا وقد جمع بين حسننا وبخثها ، وقلما يُجمعُ بين الحسن والبخت » ويفضّلها على المعلقات . ويمدحه مرة ثانية فيقول : لله درُّ تلك الأنفاس التي تستخف عقول الرجال ، بل عقود الجبال . . . ولقد أبقى للأباء ذكراً ، وللأبناء فخراً ، وأرسلها مقلّدت ، فأرهفها مجرّدت ، وأثارها أوابد ، فنظّمها قلائد » . ويشيد الفاضل بموشحاته كما يشيد بأشعاره رافعا منزلته فيها على منزلة الأندلسيين درجات . وهما ما يسجله كتاب فصوص الفصول من أنه كان ناقدًا كما كان شاعرا .

واختصر ابن سناء الملك كتاب الحيوان للجاحظ ، باسم روح الحيوان ، ويقول ابن خلكان إنها تسمية لطيفة ، ويذكر له كتابا ثانيا باسم مصايد الشوارد . وكان ناثرا بارعا كما كان شاعرا مبدعا ، يقول ابن خلكان : « ومن نثره في وصف النيل في سنة كان ناقصا ، ولم يوف الزيادة ، التي جرت بها العادة : « وأما أمر الماء فإنه نصبت مشاريعه ، وتقطعت أصابعه ، وتيمم العمود (عمود المقياس) لصلاة الاستسقاء ، وهمّ المقياس من الضعف بالاستلقاء » . يقول ابن خلكان : « وهذا من أحسن ما يوصف به نقصان النيل » . وزعم ابن سعيد في كتابه المغرب أنه

كان غالباً في التشيع ، وربما دفعه إلى ذلك أنه وجده يمدح القاضي الفاضل في يوم عاشوراء ذاكراً  
مقتل الحسين الشهيد فيه يقول :

يَوْمٌ يَسَاءُ بِهِ وَفِيهِ كُلُّ شَيْعِيٍّ وَسَيِّئِيٍّ

ولم يكن القاضي الفاضل شيعياً ، بل كان سُنِّيًّا ومثله ابن سناء الملك ، وهو لذلك يقول إن  
ذكرى هذا اليوم تحزن السنين والشيعه معاً . وقد أشار في رثائه لبعض العلويين من أصحابه إلى نوم  
الخلق عن ثأر الحسين . وفي رأينا أنه ليس في ذلك ما يعارض سنته ، فإن مصرع الحسين يأسي له  
الطرفان المتعارضان من أهل السنة والشيعه جميعاً ، وقد صرح في مدحه للقاضي بأنه سني رغم  
حبه وتشيعه له يقول :

وَعَدَوْتُ فِي حَيِّ لَهْ مَشِيْعًا مِنْ ذَا رَأْيٍ مَشِيْعًا مَتَسُنًّا

وليس من المعقول أن ينال حُظوة القاضي الفاضل وصلاح الدين شاعرٌ شيعي غالباً في تشيعه .  
ويبدو أن الصفدي قرأ هذه التهمة عند ابن سعيد ، وأكدها عنده أنه قرأ في ديوان ابن الساعاتي  
هجاء له في ابن سناء الملك حين سقط عن جواد له كان يسمى الجمل ، فزعم أنه إنما سقط عنه  
لبغضه أم المؤمنين السيدة عائشة وأباها الصديق أبا بكر ، يقول :

أَبْغَضْتُ بِالطَّبِيعِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ تُحِبِّ أَبَا هَا فَجَاءَتْ وَقَعَةُ الْجَمَلِ

وهو هجاء لابن الساعاتي جرّه إليه أن اسم الجواد الجمل ، وآله فيه أهاج مختلفة كما يشهد  
ديوانه ، وكأنه ذكر ذلك كيداً له . وقد أشاد في مقدمته لفصوص الفصول بالصحابة جميعاً ، ولم  
يخص على بن أبي طالب بتتويه . ومر بنا أنه تلمذ على الحافظ السلفي أكبر سني في عصره .  
وكان ابن سناء الملك يعيش في رغد من العيش ، لثراء أبيه ، وفي الديوان أنه أهداه مرة  
بستاناً ومرة فندقاً . وظل موظفاً في ديوان الإنشاء منذ بواكير حياته ، وبعد وفاة صلاح الدين  
واستعفاء القاضي الفاضل من عمله ظل يعمل في الديوان مع السلطان العزيز ثم أخيه السلطان  
الأفضل ثم السلطان العادل وابنه الكامل ، حتى إذا كانت سنة ٦٠٦ عهد إليه السلطان الكامل  
بتدبير ديوان الجيش ، غير أنه استعفاه فأعفاه . ولم يلبث أن توفي سنة ٦٠٨ . ولم يكن يعمل مع  
كل أولئك السلاطين فحسب ، بل كان يقدم إليهم مداخمه وكانوا يجزلون له في العطاء ، وبالمثل  
كان يجزل له في العطاء أمراء البيت الأيوبي حين كان يمدحهم ، وفي ديوانه مدائح كثيرة لهم  
ولصفي الدين بن شكر وزير السلطان العادل . فالأموال كانت تُمدَّقُ عليه بالإضافة إلى راتبه

وما ورثه عن أبيه مما يؤكد أنه عاش مترفاً منعماً . وفي ديوانه أشعار كثيرة يصف فيها داره التي كانت تطلُّ على النيل وحديقتها وما كان بها من نافورات ، وكانت تمتدى للشعراء من أصدقائه وكانت تجرى بينهم فيها محاورات ومفاكهات طريفة .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ابن سناء الملك ، أكبر شاعر ظهر بمصر قبل العصر الحديث ، وقد أوضحنا في مقال عنه بكتابنا فصول في الشعر ونقده تمثيله في أشعاره للروح المصرية ، من ذلك ما يجرى في أساليبه من السهولة التي تعد انعكاساً لما يشعُّ منها في روح المصريين أبناء النيل وأوديته وسهولة وما أسبغ على ساكني ضفافه من حياة سهلة ، مما دفعه إلى استخدام بعض الكلمات العامية المألوفة في السنة المصريين مثل « ياما بمعنى كثير جدا ، ومثل « وديني هو على أكثر » ومثل « على عيني » . ومن ذلك الرقة في ألفاظه ومعانيه وما يتصل بها من اللين والدمائة ، مما جعله يكثر من التغزل بمن فقدن أبصارهن من الفتيات والنساء كقوله في إحداهن :

شمسٌ بغير الليل لم تُحَجِّبِ      وفي سوى العَيْنين لم تُكْسِفِ  
مُعَمَّدةُ المُرْهَفِ لكنها      تَفْتِكُ بِالْغَمْدِ بلا مُرْهَفٍ<sup>(١)</sup>

فهي شمس منيرة تحجبها غلالة من الليل ، شمس أصابها في عينها كسوف ، ونورها يغمركل ما حوفا وإن جفونها لتطبق على عينها إطباق الغمد على سيفه ، ومع ذلك تفتكان بمن يبصرهما كما يفتك السيف القاطع . ويتجسّد تمثل ابن سناء الملك للروح المصرية في تعلقه الشديد - مثل المصريين جميعاً - بوطنه ونفوره من الغربة حين يذهب إلى القاضى الفاضل بالشام في إحدى القضايا المهمة ، حتى ليقول :

ووالله ما أُشْرِى الشَّامَ وَمُلْكُهُ      وَغُوطَتَهُ الحَضْرَا بِشْبْرَيْنِ من شِبْرَا

فغوطة دمشق بمشاهدها الساحرة بل الشام وملكه وصولجانه ، كل ذلك لا يشتره بشبرين من شبرا : إحدى ضواحي القاهرة . وصفة مصرية رابعة ماثلة بالقوة في شعره هي حبه لأبويه وأسرته حياً يملك عليه كل شيء من أمره ، مما نراه ماثلاً في مراتبه لأمه وأبيه وجدته وزوجه وأخته وإخوته . وله في أبيه مدائح بديعة من مثل قوله وكأنه يمدح بعض السلاطين :

يا سائلا عن معاليه ليشهرها      البدرُ في الأفقُ يستغنى بشهرته

ذاك الذى يَسْمُ الدَّهْرُ العَبُوسُ بِهِ تَيْهًا وَتَبْهَجَ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهِ  
وَنَحْسٌ فِي مَدِيحِهِ لِأَبِيهِ بِسَعَادَتِهِ سَعَادَةٌ غَامِرَةٌ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنْ مَزَلَّتِهِ وَأَدْبِهِ وَعِلْمِهِ وَشَيْعِمِهِ فِي  
إِجْلَالٍ وَإِكْبَارٍ يَفُوقَانِ الوَصْفَ . وَأَيْضًا مَا تَمَتَّازُ بِهِ مِصْرٌ مِنْ تَعَلُّقِ بِالدِّينِ نَجْدُهُ مِصْرًا فِي أَشَارِهِ .

وأهم من استفند مدائحه صلاح الدين والقاضى الفاضل ، ومعروف أن صلاح الدين قضى  
على أسطورة الصليبيين وما كان يقال عن بأسهم وما أسسوه في الشام من ممالكهم فقد مزق  
جموعهم تمزيقًا ، وردَّ فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه . وقد مضى ابن سناء الملك يمدحه  
مدائح رائعة منذ إعداده لحرب الصليبيين ومدَّ سلطانه على حلب وغيرها من ديار الشام ، وجمعه  
للحرب تحت لوائه ، حتى ينقضَّ بهم على حملة الصليب ، وله يقول :

بِدَوْلَةِ التُّرْكِ عَزَّتْ مَلَّةُ الْعَرَبِ وَبَابِنِ أَيُوبَ ذَلَّتْ شَيْعَةُ الصُّلْبِ  
وَفِي زَمَانِ ابْنِ أَيُوبٍ عَدَّتْ حَلْبٌ مِنْ أَرْضِ مِصْرٍ وَعَادَتْ مِصْرٌ مِنْ حَلْبِ

وكانه كان يستشعر في عمق أمنية توحيد العالم العربي . وله في صلاح الدين مدائح كثيرة يصور  
فيها بطولته وبطولة جيوشه وسحقهم للصليبيين . وما زال صلاح الدين يتزل بهم الدمار ويأخذ  
منهم الحصون والبلاد حتى كانت هزيمتهم الكبرى في موقعة حطين ، وفيها جرت دماؤهم أنهارا  
وتعمَّ الفرحة الديار العربية ، وهبى ابن سناء الملك صلاح الدين بهذا النصر المبين قائلاً :

|  |  |
|--|--|
| لَسْتُ أَدْرِي بَأَى فَتْحِ نُهْتَا        | يَا مُنْبِلَ الْإِسْلَامِ مَا قَدْ تَمَّتْ     |
| أَنْهَيْتَ إِذْ تَمَلَّكَتَ شَامَا         | أَمْ نُهَيْتَ إِذْ تَمَلَّكَتَ عَدْنَا         |
| قَدْ مَلَكْتَ الْجِنَانَ قَصْرًا فَقَصْرَا | إِذْ فَتَحْتَ الشَّامَ حِصْنًا فَحِصْنَا       |
| لَكَ مَدْحٌ فَوْقَ السَّمَوَاتِ يَنْشَا    | وَمَحَلٌّ فَوْقَ الْأَسْنَةِ يُبَيِّ           |
| حَمَلُوا كَالْجِبَالِ عُظْمًا وَلَكِنْ     | جَعَلْتَهَا حَمَلَاتُ حَيْكِكَ عَيْنَا (١)     |
| لَمْ تَلَاقِ الْجِيُوشَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ  | مَكَ لَاقِيَتَهُمْ بِلَادَا وَمُدْنَا          |
| وَتَصَيَّدْتَهُمْ بِحَلْقَةِ صَيْدِ        | تَجْمَعِ اللَّيْثِ وَالْغَزَالِ الْأَعْمَا (٢) |

(١) يشير إلى الآية الكريمة : (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) . والعهن : الصوف .  
(٢) الغزال الأغص : الذى يخرج صوته من خياشيمه .

والقصيدة مديح رائع وتحمل كثيرا من الصور المبتكرة ، وقد مضى فيها بصور أخذ صلاح الدين لصليب الصلبوت الذي يزعم المسيحيون أن المسيح صُلب عليه ، ويغريه بإحراقه ، كما يصور أخذه لطبرية وعكا ونابلس وبيت جبريل وتبين وغيرها من مدن الشام وحصونه ، وذكر فتكه بأرناط صاحب الكرك بيده جزاء وفاقا لسوء فعله وقوله لتعرضه القبيح للحجاج المصريين ولإعداده أسطولا - كما مر بنا - لغزو مكة والمدينة ، ولما نُقل إليه عنه من استخفاً به بالرسول عليه السلام .

ومدائح في القاضي الفاضل كثيرة حتى تُتعدّ بالعشرات ، إذ كاد لا يترك مناسبة دون أن يهديه من أشعاره ، فهو يهديها له في الأعياد وفي القدوم من الشام ومن الحج وفي انتصارات صلاح الدين ، إذ كثيرا ما ينوّه بها في مدائح له ، وهو فيها يباليغ مبالغات كثيرة من مثل قوله :

صَوَّرَ اللهُ ذَلِكَ الشَّخْصَ نَوْرًا وَجَمِيعُ الْأَنَامِ مَاءٌ وَطِينٌ

وقوله :

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا خَادِمٌ أَنْتَ رَبُّهُ وَمَا الخَلْقُ إِلَّا عَالَمٌ أَنْتَ فَاضِلُهُ

وقوله :

الدَّهْرُ مَدٌّ إِلَيْهِ كَفُّ مَفْتَقِرٌ فَدُّ لِلدَّهْرِ مِنْهُ لِحَظٍّ مَحْتَقِرٍ  
فِي كَفِّهِ قَلَمٌ إِنْ شِئْتَ أَوْ قَلْدَرٌ بِصَرْفِ الخَلْقِ بَيْنَ النِّفْعِ وَالضَّرْرِ

وهو يكرر معنى البيت الثاني وبطيل فيه ، وله يقول :

بِمَيْمُونِ رَأَيْكَ كَانَ الفَتْوحُ وَمِنْصُورِ عَزَمَكَ كَانَ القَلْبُ

وكثيرا ما يردد هذا المعنى وكأنه يشير إلى قوله صلاح الدين المشهورة : لم أنتصر على الأعداء

بسيفي وإنما انتصرت بقلم القاضي الفاضل ، وفيه يقول واصفا كرمه الفياض :

لَا يَسْتَقِرُّ المَالُ فَوْقَ بِنَانِهِ حَتَّى كَانَ بِنَانُهُ مَخْرُوقٌ  
بِاطَالِبِينَ ذُرَى عُلَاهُ تَوَقَّفُوا وَمُؤْمَلِينَ نَدَى يَدِيهِ أَفِيقُوا

وهما بيتان رائعان في وصف الجود ، ويحق كان القاضي الفاضل يستحق منه كل ثناء وكل

تكرم فقد رعاه أعظم رعاية ، ونوه بأشعاره تنويها ليس وراءه غاية ويحق ، يقول له :

شُكْرِي لِنُتَاكَ شُكْرُ الأَرْضِ للمَطْرِ أَوَّلًا فَشُكْرُ سَوَادِ العَيْنِ لِلنَّظْرِ

فهو يشكره شكر الأرض المجدبة للغيث المدرار الذى يجي مواتها ، بل شكر سواد العين لنور  
البصر الذى يصلها بالوجود ومشاهده . وله فيه صور كثيرة مبتكرة مثل قوله فى جوده المنهمر على  
الناس :

وقَصَّرَ البحرُ عنه فهو مكتسبٌ أما تراه بكفى موجِه التطمنا  
وولتِ السحبُ - إذ جارته - باكيةً أما ترى الدمع من أجفانها أنسجماً

فالبحر يشعر لزاء كرمه بقصوره حتى ليندب حظه ويلطم وجهه بكفى موجِه ، وإن الغيث  
ليبكي بدموع غزار لا تزال تهمل . ونحسُّ بفرحة تسرى فى كثير من مدائحهم للفاضل كما نحس خفة  
الظل التى يشتهر بها المصريون وخاصة فى تخلصاته من الغزل إلى المديح كقوله :

ضنَّتْ بطرفِ ظلِّ يُعدي سقمه أرايتُم من ضنَّ حتى بالضنا  
إني رأيتُ الشمس ثم رأيتها ماذا على إذا هويتُ الأحسنا  
وسألتُ من أىِّ المعادن ثغرها فوجدتُ من عبد الرحيم المعدنا  
أبصرتُ جوهرَ ثغرها وكلامه فعلمتُ حقاً أن هذا من هنا

وضنَّ صاحبه بالطرف وعدواه وضنَّها حتى بالسقم أو بالضنا غريب ، وتلطَّف فى التخلص  
من الغزل إلى مديح القاضى الفاضل عبد الرحيم ما شاء له التلطف والرشاقة وخفة الروح وعدوبة  
الكلم . وله فى غزله كثير من هذه التصاوير المبتكرة ، كقوله :

أفتِ على عاشقك القيامة بوردي لخدُّ وغصنٍ لقامة  
فمينَ ورِّد خلدك كيف النجاة؟! ومن غصنٍ قدك كيف السلامة

وقوله :

وأشكو إلى ليل الغدائر غدَّرها وأملى عليه وهو فى الأرض يكتب

وقوله :

ألقى حباتل صيِّد من ذوائبه فصادَ قلبي بأشراكِ من الشَّعْرِ

وقوله :

لا تحشَّ منى فإني كالنسيم ضنا وما التيسمُ بمخشى على العُصنِ

وقوله :

يُعَانِقُهَا مِنْ دُونِي الْعِقْدُ وَحَدَّهُ فَيَا عَجَبًا يَا قَوْمُ هَلْ يَقَلِّقُ الْعِقْدُ

وقوله :

سَأَلْتَنِي مَا حَالُ قَلْبِكَ بَعْدِي رَبَّةَ الْبَيْتِ أَنْتِ بِالْبَيْتِ أَخْبِرِي

وهو باب واسع عند ابن سناء الملك ويدل على شاعرية خصبة وأنه كان ما يزال يغوص وراء التصاوير حتى يأتي منها بفرائد عجيبة ، مع حلاوة الأسلوب وعذوبته ، مما يدل على أنه كان شاعرا مبدعا إلى أبعد حدود الإبداع . وسنعود إليه مرارا في عرض موضوعات الشعر الأخرى سوى المديح .

### ابن نبأة<sup>(١)</sup>

هو جمال الدين محمد بن محمد بن شمس الدين محمد بن شرف الدين محمد ، من سلالة عبد الرحيم ابن نبأة خطيب سيف الدولة المشهور ، وقد غلبت عليه نسبته إليه . كان أبوه وجده من شيوخ الحديث ، وقد ولد لأبيه بزقاق القناديل في القاهرة ، واختلف من ترجموا له في سنة ولادته هل كانت سنة ٦٧٦ أو سنة ٦٨٦ وجمهورهم يؤكد أنه ولد في السنة الأخيرة ، غير أن هناك نصا عنه يذكر فيه أساتذته أو شيوخته في الأدب ، ويذكر من بينهم محيي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ وليس من المعقول أن يتلمذ له ويأخذ عنه الأدب وهو في الخامسة أو السادسة من عمره ولذلك كنا نرجح أنه ولد في سنة ٦٧٦ على الأقل إن لم يكن قبيل ذلك . ويذكر مترجموه كثرة من شيوخته في الحديث من بينهم أبوه وجده . وتنقل في حلقات شيوخ الأدب وتفتحت موهبته الأدبية في الشعر والنثر مبكرة . وكان كثير من العلماء في مصر يرحونها إلى دمشق والشام في تلك الحقب . وبالمثل كان كثير من علماء الشام يرحونها إلى مصر والقاهرة ، ويبرح أبوه مصر إلى الشام

مواضع متفرقة وكتاب ابن نبأة المصري لعمر موسى ( طبع دار المعارف ) والأدب في العصر المملوكي لمحمد زغلول سلام ( طبع دار المعارف ) ٢٢١/٢ و طبع ديوانه قديما في مصر وهو في حاجة إلى طبعة محققة ، ومنه عطلوطات كثيرة في مكاتب العالم العربي والغربي

(١) انظر في ابن نبأة وشعره الدرر الكامنة ٣٣٩/٤ وحسن المحاضرة ٥٧١/١ وطبقات الشافعية طلسكي ٢٧٣/٩ والوفى بالوفيات للصفدى ٣١١/١ والبداية والنهاية لابن كثير ٣٢٢/١٤ والنجوم الزاهرة ٩٥/١١ وشنرات الذهب ٢١٢/٦ والبدر الطالع ١٥٢/٢ . وخزانة الأدب للحوى في

حوالى سنة ٧١٠ ويتزل دمشق ، ويأخذ الطلاب عنه الحديث<sup>(١)</sup> ، ويستقر بها ويتولى فيها بعد مشيخة الحديث بالمدرسة الظاهرية هناك . ولعل ارتحال أبيه عن مصر هو الذى حَبَّب إليه الرحلة وراءه إلى دمشق واتخاذها منذ سنة ٧١٦ دار مقام له ، وظل بها مدة تقارب نصف قرن أو بعبارة أدق نحو خمسة وأربعين عاما ، وقد ظل يحن إلى مصر حيننا متصلا بمثل قوله :

أَوْ لِمَصْرَ وَأَرْضَ مِصْرَ وَكَيْفَ لِي بِدِيَارِ مِصْرَ مَرَاتِعًا وَمَلَاعِبًا  
حَيْثُ الشَّيْبَةُ وَالْحَبِيبَةُ وَالْوَفَا فِي الْأَقْرَبِينَ مِشَارِبًا وَأَصْحَابًا  
وَالدَّهْرُ سَلْمٌ كَيْفَمَا حَاوَلْتَهُ لَا مِثْلُ دَهْرِي فِي دِمَشْقٍ مَحَارِبًا

وقواده يهفو إلى مصروترب مصر ونيل مصر ورياض مصر ومراتع صباه بها وملاعبه ، ويقول إنها ديار شبابه وجهه وديار الوفاء في الأقرباء وغير الأقرباء وديار الأمن والسلام ونعيمه . وفى أثناء مقامه بدمشق كان يتردد على حلب ، وبالأخص على حماة وصاحبها المؤيد أبى الفداء الذى استقبله أروع استقبال ، وقرر له راتباً سنوياً : ستائة درهم غير ما كان يسبغه عليه من العطاء كلما قدم عليه بمدحة من مدائحه ، وظل يفد عليه حتى توفى سنة ٧٣٢ فوفد على ابنه الأفضل من بعده .

وفى دمشق والشام تفجر ينبوع الأشعار عند ابن نباتة حتى أصبح - كما يقول ابن كثير والسبكي - حامل لواء الشعر فى زمانه ، غير منازع ولا مدافع . وأروع أيامه حينئذ أيام اتصاله بالسلطان المؤيد ، ونراه لا يكتفى بما يقدم إليه من مدائح ، بل يؤلف الكتب باسمه ويهدىها له مثل كتابه « سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » وهى الرسالة الهزلية ، ومثل كتابه « مجمع الفوائد » . وكان قد قرظه كثيرون من فضلاء دمشق وعلمائها وأدبائها ، مما جعله يؤلف فيهم كتابه « سجع المطوق » مترجماً لهم ، وهو كتاب نفيس لا يزال مخطوطاً . ونراه فى هذه الفترة : فترة اتصاله بالسلطان المؤيد وثيق الصلة بشيوخ دمشق وأعلامها ، من مثل ابن الزملاكنى وابن صصرى القاضى والشهاب محمود شاعر الشام وتقى الدين السبكي وابنه تاج الدين وابن فضل الله العمرى ، وله فيهم جميعاً مدائح بديعة . وكان ابن فضل الله يتولى كتابة السر فى دمشق ، فكان

(١) انظر ترجمته فى الواقى بالوفيات ٢٧٠/١ والدرر

طبيعياً أن يقرب ابن نباتة ويعهد إليه بكتابة التوقيع . وكان أحياناً يُعزل عنها وأحياناً يعود إليها حتى سنة ٧٦١ . وفي هذه السنة استدعاه الناصر حسن سلطان مصر والشام إلى القاهرة في ربيع الأول وأمر أن يُصَرَّفَ له ما يتجهَّز به وأن يرد عليه ما انقطع عنه من الراتب ، وعينه موقِعاً للذُّسْتِ وكانت قد تقدمت سنه ، فلم يستطع القيام بتوقيع الذُّسْتِ ، فأعفاه السلطان حسن من الحضور وأمر بإجراء راتبه عليه ، كما أمر بنسخ ديوانه وحفظ نُسخٍ منه في المكاتب السلطانية . وبذلك أمره على الشعراء ، مما جعله يلهج بمدحه والثناء عليه . ولم يلبث السلطان حسن أن توفي ، وكان راتبه ربما صُرف له وربما لم يصرف حتى توفي بمارستان قلاوون سنة ٧٦٨ للهجرة .

وكان نَبِعُ الشعر عند ابن نباتة فياضاً ، فله بجانب ديوانه الكبير ديوان سماه « القطر النبأى » وهو خاص بمقطوعاته الشعرية ، والقطر السكر والتورية في اسم الديوان واضحة ، يريد السكر النبات . وله ديوان خاص بغزلياته سماه « سوق الرقيق » . وديوانه الكبير يحتفظ بالمدائح ، وعُنِيَ كثيرون من معاصريه بمعارضته في بعض قصائده ، واشتهر الصفدى بكثرة إغارته على معانيه ، وخاصة على تورياته البديعة وكان مغرماً بصنعها ، وألف في سرقات الصفدى منه كتاباً سماه « خبز الشعير » يزيد أن سرقاته كخبز الشعير المأكول المسموم ، واستهْلَ خطبة هذا الكتاب بالآية الكريمة : ( رب اغفرلى ولوالدى لمن دخل بيتى مؤمناً ) ويورد دائماً أبياته موضع السرقة ، ثم يورد سرقة الصفدى مثل قوله في الغزل مورياً .

ومولع بفخاخ يمدّها وشبالك  
قالت لى العين ماذا يصيدُ قلت كراكى

ويقول الصفدى :

أغار على سرح الكرى عند ما رمى الـ سكراكى غزالٌ للبدور يحاكى  
فقلت ارجعى يا عينُ عن وِردِ حسنهِ ألم تنظره كيف صادَ كراكى  
والكرى : النوم ، والكراكى طير مفردة كركى . والتورية واضحة عند ابن نباتة وخفيفة رشيقة وقد أحالها الصفدى ثقيلة بما أضاف إليها من شرح وتطويل ، ومن ذلك قول ابن نباتة متغزلاً :

فديتك أيها الرامى بقوسٍ ولحظٍ يا ضناً قلبى عليه  
لقوسك نحو حاجيك انجذابٌ وشيهُ المشى منجذبٌ إليه

ويقول الصفدي :

تَشْرَطُ مَنْ أَحَبُّ فَذُبْتُ وَجَدًا      فقال وقد رأى جَزَعِي عَلَيْهِ  
عَقِيقُ دَمِي جَرَى فَأَصَابَ خَدِّي      وشيئهُ الشَّيْءُ      منجذب إليه  
وتشبيهه الحاجب بالقوس والمجذابه إليه طبعي ، أما انجذاب الدم إلى الخَدِّ وتشبيهه به فانفر منه بعيد .

وابن نباتة في شعره يمثل بحق ما تمتاز به الروح المصرية من الحقة والإشاقة . ويذكر السبكي في كتابه طبقات الشافعية أنه مدح ابن الزمِّلَكَاني بتأثيره رائعة بدأها بالجزل ووصف الخمر ، وأنشدها ثم قال : « حاول أدباء عصره معارضته فيها فلم يحسنوا إحسانه ، بل قَصَّروا وتأخروا ولم يلحقوا شأوه »<sup>(١)</sup> . وأروع مدائحهم ما نظمه في المؤيد صاحب حماة وابنه الأفضل ثم بعد ذلك في السلطان حسن ، وقد دَبَّح في المؤيد نحو أربعين قصيدة ومقطوعة من مثل قوله :

لو أَنَّ لِلْبَحْرِ جَنَواه لفاض على      وَجَهَ الثَّرَى بنفيس الدرِّ متضوِّد  
ولو أمرُّ على صَلْدِ الصِّفا يده      لَأُتِبَ العُشْبَ منها كلُّ جُلْمودِ  
ياحبُّدا الملكُ السارى على شِمْمِ      تَرَوَى وتَنْقَلُ عن آباته الصِّيدِ  
أغنى العفاة فلولا ناهياتُ تَقَى      - أستغفر الله -      نَسَمَوه بمعبودِ

وهو دائم الإشادة بجوده الفياض على العفاة والسائلين ، ويكثر من مديح أسرته الأيوبية وآبائه الصيد الشجعان وماشادوا لأنفسهم من بيت فخار ملؤه في أعلى السموات ولايزال يتألق ويضيء بين الكواكب . وكان المؤيد مؤرخا كبيرا ، وعالما في العربية والفقه والأصول والطب والفلك والمنطق والفلسفة ، وبنوه ابن نباتة مرارا بعلمه من مثل قوله مشيرا إلى تصانيفه الكثيرة :

العالمُ الملكُ السيارُ سوِّددهُ      في الأرض سَيْرَ الدَّرارى بين أفلاكِ

وقوله :

وللعلوم تصانيفُ بدتْ فَعَدَّتْ      نعم السَّوارُ على الإسلامِ والسَّورُ  
وكان مولعا بالتورية كما أسلفنا ، وكان يدخلها في مدائحهم للمؤيد ، وورى كثيرا باسم مدينته حماة عن الحماة الحقيقية ، ومن تورياته الطريفة في مديحه قوله :

أقسمت ما الملك المؤيد في الورى إلا الحقيقة والكرام مجاز  
هو كعبة للفضل ، ما بين الثدى منها وبين الطالبين حجاز

وواضح أنه ورى في كلمة « حجاز » فلم يرد بها المعنى القريب المقابل للحقيقة ، وإنما أراد بها المعنى البعيد وهو المعبّر ، وورى في كلمة « حجاز » فلم يرد بها المعنى القريب الذى تشير إليه كلمة الكعبة وهو الحجاز لإقليم الكعبة المعروف ، وإنما أراد المعنى البعيد وهو الحجاز ، ومن ذلك قوله في مديح المؤيد :

يذكرنا أخبارَ معرٍ بجوده ونشئ له لفظاً فينشئ لنا معناً

ومعنى بن أوس المزنى مشهور بجوده فى مفتتح العصر العباسى شهرة حاتم فى الجاهلية ، وقد ورى آخر البيت فى مدلول كلمة معنى ، فلم يرد بها المعنى القريب المقابل للفظ وإنما أراد بها معناً المزنى .

ومملوحوه الثانى فى الديوان بعد المؤيد ابنه السلطان الأفضل ، وقد أنشده حين تولى إمارة حاة بعد أبيه تهنته بسلطنته وتعزية له عن أبيه ، تُعدُّ من فرائد الشعر العربى ، وفيها يقول :

هناءٌ محاً ذاك العزاء المقدماً فما عبسَ المحزونُ حتى تبسماً  
ثغورُ ابتسامٍ فى ثغورِ مدامعٍ شيبان لا يمتاز ذو السبق منها  
مليكان هذا قد هوى لضريحه برغى وهذا للأسرة قد ساء  
كانَ ديار الملك غاباً إذا انقضى به ضيغمُ أنشأ به الدهر ضيغماً  
فإن يكُ من أيوبَ نجمٍ قد انقضى فقد أطلعت أوصافك الرقر أنجماً  
وإن تك أيامُ المؤيد قد مضتْ فقد جددتْ عليك وقتاً وموسماً  
هو الغيثُ ولّى بالثناء مشيعاً وأبقاك بجرّاً بالمواهب مُنعماً

وعلى هذا النحو تمضى تهنته الأفضل جامعة بين النقيضين فى كل بيت : بين المدح والثناء ، وفى ذلك ما يصور براعة ابن نباتة وحدة ذهنه ودكائه وخصب شاعريته وسهولة أسلوبه ، وهى سهولة تتمم سهولة أشعار ابن سناء الملك ، بل سهولة أشعار المصريين عامة ، سهولة تقترن بعذوبة ، وكأنها نفس عذوبة مياه النيل ، وكان يحس ذلك معاصروه إزاء أشعاره وما تقترن به من حلاوة ، فقالوا إن أشعاره سكر نبات أو قطر نبات . وله فى مديح الأفضل وآبائه الأيوبيين :

قَوْمٌ لَذِكْرِهِمْ عَلَى صُحُفِ الْعُلَا  
 الْمَلِكُ بَعْضُ دِيَارِهِمْ فَلْيَتَرَلُوا  
 إِنْ يَتَّقِ مَا ضِيحِهِمْ عَلَى سُنَنِ الْوَفَا  
 مَلَأَتْ مَوَاهِبُهُ الْقُلُوبَ مَهَابَةً  
 وَكَأَنَّمَا أَقْلَامُهُ بِسَوَادِهَا  
 لَاعْيَبَ فِيهِ سِوَى الْعَزَائِمِ قَصْرَتْ  
 أَصْلُ الْفَخَارِ وَكُلُّ ذِكْرِ مُلْحَقُ  
 وَالنَّجْمُ بَعْضُ جِلْدِهِمْ فَلْيَتَرَقُوا  
 فَلَأَنَّهُمْ بِيَقَاءِ أَفْضَلِهِمْ بَقُوا  
 فَالْقَلْبُ قَبْلَ الطَّرْفِ فِيهَا مُطْرَقُ  
 غُرْبَانُ بَيْنَ فِي الْخَزَائِنِ تِنَعُقُ  
 عَنْهَا الْكَوَاكِبُ وَهِيَ بَعْدُ تَحْلُقُ

وواضح أنه مع سهولة الأسلوب في القصيدة نحس كأن الألفاظ يستدعي بعضها بعضا مع جمال التصاوير فالقلب مطرق قبل العين هيبة ، والأقلام كأنها غربان فراق لخزائن الأمير ماتزال تنعق في أمواها بالبين والبعد إلى غير مآب ، وعزائم الأفضل ماتتى محلقة في السموات البعيدة ، حتى لتعلو الكواكب في تحليقها المتغلغل في الفضاء ، وإن قومه لأصل الفخار وكل فخر لغيرهم إنما هو ملحق بفخرهم . وكان قد خرج مع الأفضل في رحلة صيد ، فوصفها في أرجوزة طويلة نيفت على مائة وستين بيتا ، وصف فيها رياض حماة ثم أطنب في وصف القنص بالشواهين والصفور والكلاب والبندق بمثل قوله :

وَكُلُّ شَاهِينٍ شَهِيٌّ الْمُرْتَمَى  
 بَيْنَا تَرَاهُ ذَاهِبًا لَصِيدِهِ  
 حَتَّى تَرَاهُ عَائِدًا مِنْ أَفْقِهِ  
 وَكُلَّ صَقِيرٍ مُسْبِلِ الْجَنَاحِ  
 ذُو مَقْلَةٍ لَهَا ضَرَامٌ وَاقْدُ  
 كَأَنَّمَا الْمُخْلَبُ مِنْهُ مِنْجَلٌ  
 وَكُلَّ مَنْسُوبٍ إِلَى سَلُوقِ  
 طَاوِي الْفَوَادِ نَاشِرِ الْأَظْفَرِ  
 بَعْضَ بِالْبَيْضِ وَيَخْطُو بِالْقَنَا  
 كِبَارِقِ طَارٍ وَصَوْبٍ قَدْ هَمَّا (١)  
 مَعْتَصِمًا بِأَيْدِهِ وَكَيْدِهِ (٢)  
 مَلْتَمِزِمًا طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ  
 مَوَاصِلُ الْغَدْوِ وَالرَّوَاحِ (٣)  
 يَكَادُ يَشْوِي مَا يَصِيدُ الصَّائِدِ  
 لِحَصْدِ أَعْمَارِ الطَّيُورِ مَرْسَلِ  
 أَهْرَتَ وَثَابِ الْخَطَا مَشُوقِ (٤)  
 يَاعْجَبًا مِنْهُ لَطَاوٍ نَاشِرِ  
 وَيَسْبِقُ الْوَهْمَ لِادْرَاكِ الْمَنَى

(٤) سلوق تنسب إليها كلاب الصيد السلوقية . أهرت : واسع الشدق .

(١) الصوب : المطر . هما : سال

(٢) الأيد : القوة

(٣) مسيل : مرسل

وإنما نتمتتا بهذه الأبيات جميعها من الأرجوزة لندل على أن أرجوزة الطرد والصيد الملية بالألقاظ الغربية عند أبي نواس ومن جاءوا بعده استحالت إلى هذه اللغة السهلة عند ابن نباتة بفضل مهارته الأسلوبية ، والأبيات محمله بصور بديعة ، فقلعة الصقر كأنها شعلة نار ومغلبة كمنجل يحصد من الطير الأعمار ، وكل كلب سلوق يعض بأسنانه الحادة ويخطو بسيقان كأنها القتا أو الرماح القاتلة . وختم الأرجوزة بمدح الأفضل وبحق سماها : « نظم السلوك في مصابيد الملوك » .

وملوحه الثالث السلطان الناصر حسن ، مدحه بأخرة من حياته حين ألقى عصاه بالقاهرة ، وليس في مدحه له الحرارة التي ألقاها في مدح الأفضل وأبيه المؤيد ، وقد يكون ذلك لتقدم سنه ، وله بقول :

ياناصرَ الدين والدنيا لقد نفذتْ أقلامُ مدحك في الدنيا بسطانِ  
دانتْ لك الخلقُ من بدوٍ ومن حَصيرِ وفاضِ جودك في قاصِرِ وفي داني  
هدى المدائنُ من أقصى مشارقها لمتهى الغرب في طوعِ وإذعانِ

وله وراء مدح السلاطين والأمراء والعلماء والكتاب مدح نبوى رائع . وبينه وبين صلاح الدين الصفدى محاورات ومراسلات ومعاتبات ، وأرسل إليه الصفدى قصيدة عتاب جعل شطورها الثانية أعجاز معلقة امرئ القيس ، مفتتحاها بقوله :

أفي كل يومٍ منك عتبٌ يسوفنى كجلمود صَخِرَ حطهُ السَّيْلُ من عُلِّ

ولعله كان يعاتبه لتسجيله عليه سرقاته منه في كتابه « خبز الشعير » المألف . وصنع ابن نباتة صنيعه فرد عليه بقصيدة من نفس الطراز شطورها الثانية مقتبسة من نفس الشطور في معلقة امرئ القيس استهلها بقوله :

فطمتَ ولانِي ثم أقبِلتَ عاتبا أفاطمُ مهلا بعضَ هذا التدلُّلِ  
وابن نباتة كثير الشكوى في شعره من يؤسه ورقة حاله ، وربما صدق ذلك على أيامه قبل لقاء السلطان المؤيد الذى غمره بنواله ، وربما كان لكثرة عياله أثر في ذلك ، بل إنه يعلن هذه الكثرة في مثل قوله :

لقد أصبحتُ ذا عُنبرٍ عجيبِ أقضى فيه بالأنكادِ وفقى  
من الأولادِ خمسٌ حولَ أمِّ فواحرَياه من خمسي وسيتُ

وكلمة ست لا يريد بها العدد كما يتبادر ، وإنما يريد أم عياله ، ويسميا سته أو سيدته . وكان مرزاً ، حتى يقول ابن تغرى بردى في ترجمته بالمنهل الصافي إن كثيرين من أولاده توفوا في سن الخامسة والسادسة والسابعة ، فكان يألم لهم ويرثهم مرأى كثيرة ، وله رثاء حار في السلطان المتوحد وابنه الأفضل . ويقول الشوكاني : هو أشعر المتأخرين ولاسيما في الغزليات .

### عبد الله<sup>(١)</sup> الشبراوى

من بيت علم وجلالة ، كما يقول الجبرتي ، ولد في سنة ١٠٩٢ ومضى في نعومة أظفاره يحفظ القرآن الكريم ، ثم اختلف إلى الشيوخ بالأزهر يأخذ عنهم الفقه الشافعي ، وسرعان ما ظهرت براعته ، فأملى وحاضر الطلاب . واعترف له الجميع بالفضل والتعمق في الشريعة والعلوم الدينية ، مما أتاح له أن يتولى مشيخة الأزهر في سنة ١١٣٧ . وكان له جاه رفيع ومترلة عظيمة عند الأمراء ورجال الدولة ، وكانت كلمته لديهم نافذة وشفاعته مقبولة . وصار لأهل العلم في مدة مشيخته للأزهر مقام على<sup>٢</sup> وهيبه وتجلته عند الخاص والعام ، ومن مؤلفاته عنوان البيان وبستان الأذهان في الأدب والسلوك والأخلاق وشرح الصدور بغزوة بدر والإتحاف بحب الأشراف وديوان منائح الألفاظ في مدائح الأشراف ، وكلها مطبوعة بالقاهرة من قديم . يقول الجبرتي : « وله ديوان يحتوي على غزليات وأشعار ومقاطيع مشهور بأيدى الناس » . وما زال يتولى مشيخة الأزهر حتى وفاته سنة ١١٧١ عن نحو ثمانين سنة .

وللشبراوى مدائح في ولاية مصر العثمانيين ، وأهم وال دُيِّج فيه مدائحه عبد الله الكجورى أو الكجورى لأوائل العقد الخامس من القرن ، وكان جديراً حقاً بمدحهم له ، إذ يقول الجبرتي عنه : « كان خبيراً صالحاً منقاداً إلى الشريعة أبطل الحارات والمنكرات » ويقول « إنه كان من أرياب الفضائل وله ديوان شعر جيد على حروف المعجم ومدحه شعراء مصر لفضله وميله إلى الأدب » ويذكر أن للشبراوى فيه مدائح طنانة ، وفيه يقول :

سليلاً المكرمات ابن الكجورى كريم الطبع والأصل الشهير  
أقام العدل في مصر وأحياناً معاملة بها بعد الدثور

وإن لمعت صوارمه بأرضه تسارعت العصاة إلى القبور  
وإن حادثته في العلم تلقى بحوراً موجهاً درُّ النحور  
وإن ساومته شعراً فحدث عن ابن أبي ربيعة أو جرير  
وإن تسمع تلاوته تجده حكي داود يلهج بالزبور  
أدام الله دولته بمصر ومتعنا به دهر الدهور  
وأنقذنا به من كل كرب وكف بغزوه أهل الفجور

ونسبح القصيدة جيد ، والشبراوى يمدح الكبورى بقضائه على أهل الفجور وإشاعته للعدل الذى لا تصلح حياة الأمة بدونه ، وينوّه بعلمه وحسن تلاوته للذكر الحكيم كما ينوّه بشعره ونثره . وقد مضى فى القصيدة يمدحه ببلاغته وتفوقه على نوابغ الشعراء من أمثال ابن هانى الأندلسى ونوابغ الكتاب من أمثال الحريرى . وكثرت منذ زمن المماليك تقاريط الكتب والمصنفات الأدبية والبلاغية ، وللشبراوى من تقريظ لبديعية وشرحها لعل بن تاج الدين :

أذاك نَفَرُ تَسَمُّمٍ أم ذاك لُطْفُ تَجَمُّمٍ  
أم روضةٌ قد تَعَتَّى شُخْرورُها ونَرْنَمٍ  
أم الصُّبا حين هَبَّتْ أزالَتِ الهَمَّ والِقَمَّ  
قد كنت أعتب دهرى وأحسب الدهر أَعْقَمٍ  
حتى رأيتُ عَجيباً من فضلك الباهر الجَمِّ  
فكلُّ لفظك لُطْفٌ وكلُّ معنالك محكم

والتقريظ طويل إذ تحوّل به الشبراوى إلى مدحة يشيد فيها بعلم على بن تاج الدين وحفظه وفهمه كما يشيد بنثره وشعره وذكائه وبراعته . وكان من عادة الشعراء حين يتولى أميراً أو يتوفى هو أو بعض العلماء أو الأدباء أن ينظموا أبيتاً فى تلك المناسبة ، إذا حُسبت حروف الكلمات فى شطرها الأخير بحسب الجمل أرّخت لسنة الوفاة أو الولاية ونحو ذلك . وكان الشبراوى يشارك فى هذا الصنيع ، من ذلك تأريخه لوفاة الشيخ أحمد الدلنجاوى شاعر وقته المتوفى سنة ١١٢٣ للهجرة :

سألتُ الشعر هل لك من صديقٍ وقد سكن الدلنجاوى لَحْدَهُ  
فصاحَ وخرَّ مغشياً عليه وأصبح ساكناً فى القبرِ عنده  
فقلتُ لمن أراد الشعرَ أقصرُ فقد أرّختُ : ماتَ الشعرُ بعده

وللشيخ الشبراوى بعض غزليات رقيقة ، كان يفرد لها أحيانا مقطوعات قصيرة ، وأحيانا يجعلها فى مقدمات مدائحه على عادة الشعراء السابقين ، ومن قوله فى مقدمة إحدى مدائحه لعبد الله الكبورى :

أَعِدْ خَبْرَ الْعُدَيْبِ وَسَاكِنِيهِ وَكَرَّرْ طَيْبَ ذِكْرِهِمْ عَلِيًّا  
فَلَنَهُمْ - وَإِنْ هَجَرُوا وَصَدُّوا أَحَبُّ النَّاسِ كُلِّهِمْ إِلَيَّا

وواضح أن صياغة الشبراوى جيدة ، وفى شعره وشعر أمثاله من معاصريه ما يدل على أن الشعر كانت لاتزال فيه أيام العثمانيين بقية من حيوية وحياة .



### شعراء المراتى والشكوى

نشط الرثاء فى مصر من قديم ، وولتقى به زمن الولاة فى العهد الأموى ، ولعل أهم وال رثاه الشعراء حين موته عبد العزيز بن مروان ، وكان - كما مرَّ بنا - ممدِّحا ، وتصادف أن توفى بعد وفاة ابنه الأصغر بنحو شهر ، فبكاها الشعراء ، وسجل الكندى بكاءهم لهما فى كتاب الولاة والقضاة كما سجل بكاءهم لدارهما المذهبة حين أمر مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين بحرقها وهو فارق بمصر وجيش العباسيين يطارده ، وكان عبد العزيز قد تأنق فيها ، وكأنا عزَّ على مروان أن تصير للعباسيين .

ونخصى فى زمن الولاة وتلقانا فى كتاب الولاة والقضاة مرثى مختلفة لنفر منهم ولبعض الشخصيات العربية ، وفى رأينا أن أهم مرثية خلفتها تلك الحقبة مرثية المعلى الطائى لجاريته ، وقد أشرنا إليها فيما أسلفنا من حديث . وتُظَلُّ الدولة الطولونية مصر ، ومرَّ بنا ما كفلته لمصر من استقلال عن بغداد ومن نهضة عمرانية وعلمية وأدبية وما أقامته من آثار عظيمة فى مقدمتها قصر ابن طولون وميدانه الذى حوله خمارويه إلى بستان رائع واتخذ فيه بركة من الزئبق ، واتخذ لنفسه فى قصره مجلسا سماه مجلس الذهب نُقِش على جدرانه صور بارزة له ولحظاياه وعلى رؤسهن أكاليل الذهب المرصعة بالجواهر . وأعدت الدولة على الشعراء إغداقا واسعا ، فلما قضى عليها جيش الخلافة العباسية بقيادة محمد بن سليمان - كما أسلفنا - وهُدِمت آثارها بكأها الشعراء وبكوا آثارها

بلموع غزار من مثل قول إسماعيل بن أبي هاشم<sup>(١)</sup> :

قِفْ وَقْفَةً بِفَنَاءِ بَابِ السَّاجِ وَالْقَصْرِ ذِي الشَّرَفَاتِ وَالْأَبْرَاجِ<sup>(٢)</sup>  
 وربوع قوم أزعجوا عن دارهم بعد الإقامة أيما إزعاج  
 فانظر إلى آثارهم تلقى لهم علما بكل ثنية وفجاج<sup>(٣)</sup>

ولسعيد القاصّ مرثية طويلة للدولة وآثارها احتفظ بها الكندي<sup>(٤)</sup> في كتابه الولاية والقضاة ،  
 واقتطف بعض أبياتها ابن تغرى بردى وأنشدها مع ما أنشد من مرثى الشعراء للدولة وما كانت  
 أقامت من قصور ومبان وآثار فخمة ضخمة ، ومن قول ابن أبي هاشم مخاطبا القصر وقد خلا  
 من سكانه :

بِاللَّهِ عِنْدَكَ عِلْمٌ مِنْ أَحْبَبْنَا أَمْ هَلْ سَمِعْتَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِنَا خَبْرًا

وتكاثر الشعراء - كما مرّ بنا في غير هذا الموضع - لعهد الدولة الإخشيدية ، غير أنهم لم يبكوها  
 حين دخل جوهر الصقلى مصر واستولى عليها باسم إمامه المعز لدين الله سنة ٣٥٨ وقد يرجع ذلك  
 إلى أن مدة الإخشيد لم تطل ، وخلفه ابنه أنوجور حتى سنة ٣٤٩ فأخوه على حتى سنة ٣٥٥ وكان  
 كافور مذبر مملكتها ، ولم يكن لها من السلطان شيء . وخلف عليا كافور حتى سنة ٣٥٧ وتوفى  
 فخلفه أحمد بن علي بن الإخشيد وعمره إحدى عشرة سنة ، واضطربت أمور مصر اضطرابا  
 شديدا ، ولم يتداركها الخليفة العباسى بئغداد ، وسرعان ما دخلت رايات المعز الفاطمى بقيادة  
 جوهر ، واستولى على البلاد دون مقاومة تذكر ، وكأنما تنفست مصر الصعداء بزوال هذه الدولة  
 فلم يبكها أحد من شعرائها على نحو ما بكوا الدولة الطولونية .

وتلقانا في أوائل الدولة الفاطمية مرثى مختلفة لعم بن المعز أول خلفائها بمصر ، وكان أكبر  
 أولاده ، وكان المظنون أن يتخذها ولى عهده ، غير أن سيرته السيئة جعلت أباه يصرف ولاية العهد  
 عنه إلى أخيه عبد الله ، حتى إذا توفى مبكرا سنة ٣٦٤ حولها إلى أخيه نزار الذى تلقب بلقب  
 العزيز ، ولعم مرثية فى أخيه عبد الله مطلعها<sup>(٥)</sup> :

كُلِّ حَيًّا إِلَى الْفَنَاءِ يَصِيرُ وَالسَّيَالَى تَعَلَّةٌ وَغُرُورُ

وكان ابن طولون قد بنى مدينة القطائع فوق قلعة الجبل .

(١) النجوم الزاهرة ٣/١٤٠ وانظر الولاية والقضاة ص

(٤) الولاية والقضاة ص ٢٥٣ .

(٢) باب الساج : أحد أبواب القصر .

(٥) ديوان عم بن المعز لدين الله الفاطمى (طبع دار

(٣) التنية : الطريق فى الجبل ، والفجاج . الطرق .

الكب المصرية) ص ١٤٧ .

ويبكي شبابه بدموع غزار ، وما يلبث القدر أن يلمَّ بأبيه المغر سنة ٣٦٥ ويرثيه بمقطوعة قصيرة تخلو من اللوعة على فقده ، وهو شئ طبيعي لتحميته له عن العهد . ويتوفى أخوه عقيل عن ثلاثين عاما ، ويبكي فيه الحسينَ الشهيدَ وآبائه الفاطميين . ويبكي جارية له بكاء فيه غير قليل من اللفة والحسرة على ما ضاع منه فيها من الجمال وحسن الصوت والغناء وطيب المدام كما يقول ، ويبكي بالمثل قينة امغنية . وله في الحسين مرثية رائعة ، وهو يبكيه بكاء مؤثرا قائلا (١) .

نَحَرُوهُ غَيْرَ مَذْمُومٍ نَحَرَ الْهَدَايَا لِلضَّحِيَّةِ

ويصوّر موقعة كربلاء وما سُفك فيها من دماء البيت العلوي ، ويصف موكب النساء اللاتي كنَّ مع الحسين وهنَّ مشهّرات على ظهور الإبل إلى يزيد بالشام ولا من يرحمهن أو يشفق عليهن ، ويتوعد الأمويين بالويل والثبور والدمار ، والمرثية تكتظ بالأنات واللوعات الممضّة . وتلتقى بالمسبحي مؤرخ دولتهم المتوفى سنة ٤٢٠ ويذكر له ابن خلكان في ترجمته مرثية لأبيه ومرثية أخرى لأم ولده ، وفيها يقول (٢) .

وباليتى للموت قَدِّمْتُ قبلها وإلا فليتَ الموت أذْهَبَنَا معا

وتكثر مرأى الشعراء لخلفاء تلك الدولة ، ومن ذلك مرثية أبي المناقب عبد الباقي بن علي التنوخي للمستنصر ، إذ يقول (٣) :

وليس رَدَى المستنصر اليوم كالرَدَى ولا أمرُه أمرٌ يقاسُ به أمرٌ  
وقد بكت الخنساء صخرًا وإنه ليبيكيه من قَرَطِ المصاب به الصَّخْرُ

وقلما مات وزير في العصر إلا بكاه الشعراء وبالمثل القضاة وكبار الكتاب وأصحاب الوظائف العليا في الدولة ، وتلقانا من ذلك طرائف كقول ابن قادوس اللدماطي في مرثية (٤) :

يا فجعاً هي في الجنان مسرةً لقدومه تختمال في عُرفاتها  
إن كان في الدنيا عليه ماتمُّ فأراه عرسَ الجورِ في جنَّاتها

وحين قضى صلاح الدين الأيوبي على هذه الدولة لم يبكيها المصريون ولا ودّعوها ، لأنهم لم يكونوا راضين عن عقيدتها الإسماعيلية المفرطة في الغلو ، وكان حكمها قد فسد فسادا شديدا على

(٣) النجوم الزاهرة ٢٣/٥

(٤) الحريرة (قسم شعراء مصر) - ٢٣١/١ .

(١) الديوان ص ٤٥٥ وما بعدها .

(٢) ابن خلكان ٣٧٨/٤

نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، وتكفل بذلك شاعر من شيعتها هو عمارة اليمنى الذى ترجمنا له في الجزء السابق من هذا التاريخ للأدب العربى . ولعل بطلا لم يبكه الشعراء كما بكوا صلاح الدين محطم الصليبيين حين انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ، وقد أقيمت عليه المآتم في غير بلد من البلدان العربية ، وراثه كثير من الشعراء ، من ذلك قول العمامة الأصهبانى في رثائه (١) :

لا تحسبوه مات شخصاً واحداً      قد عمّ كلّ العالمين مماتُهُ  
لو كان في عصر النبىِّ لأُنزِلَتْ      في ذكرو من ذكرو آياته  
ياراعيا للدين حين تمكنتُ      من كل قلب مؤمن روعاته  
فعلی صلاح الدين يوسفَ دائماً      رضوان ربّ العرش بل صلواته

وهى مرثية طويلة فى مائتين وثلاثين بيتاً ، صوّر فيها جهاده فى الدين واستبساله فى حروب الصليبيين حتى استخلص منهم بيت المقدس وأكثر بلدانهم وحصونهم فى الشام ما حقاً لهم محقاً ذريعاً . ويتوفى صلاح الدين ويخلفه ابنه العزيز سنة ٥٨٩ كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع ويتوفى سنة ٥٩٥ ويخلفه أخوه الأفضل وما يلبث عمّه العادل أن يستولى منه على عرش مصر ، ويعمل على تغية آثار العزيز ويبكى القاضى الفاضل قصره وقصر أبيه بمثل قوله مخاطباً القصر (٢) .

وكم قد حَجَجْنَا فِىكَ لِلْمَجْدِ كَعْبَةً      وكم قد أَقْبْنَا فِىكَ لِلْحَجِّ مَوْسِمًا  
وكم قد وَجَدْنَا فِىكَ رَافَةً رَاحِيَةً      إِذْ تُعْطَى حَظِيمًا وَزَمَزَمًا

ولابن سناء الملك مرثيات مختلفة فى أصدقائه وأقربائه وأهله ، وله ندى رائع فى أبيه ، تنمرفيه دموعه ، وتنسكب ، وهو يذكر تقواه ونسكه ذكرى مضمّة ، وما يزال يندبه ويبكيه قائلاً (٣) :

ويا أرضه إن ينكسف بك بذرُهُ      فما برحتُ فى الأرض تُكسِفُ أَقَارُ

وينفس اللوعة والحرقه لموت الأب يلتاع لموت الأم وتظلم الدنيا فى عينه ، وبحس كأنما كان فى فردوس معها من فراديس الجنان وأخرج منه إلى غير أوبة يقول (٤) :

لَهْفَ نَفْسِي عَلَيْكَ يَا مَابِقَلْبِي      مِنْكَ يَا طُولَ حَسْرَتِي وَعَنَائِي  
كَتَبْتُ فِي جَنَّةٍ فَأُخْرِجْتُ مِنْهَا      وَاسْتَعَادَ الْعِطَاءَ رَبُّ الْعِطَاءِ

(٣) ديوان ابن سناء الملك (طبعة حيدرآباد) ص

(١) النجوم الزاهرة ٦/٦٠ وانظر خاتمة كتابه البرق الشامى .

(٤) الديوان ص ٣ وما بعدها .

(٢) ديوان القاضى الفاضل (نشر بلوى) ص ٣٤ .

وكلمة « ياما » في الشطر الأول من كلمات العامية المصرية ومعناها كثير . ويلقانا بنفس اللهفة والحسرة والإحساس الحاد بالألم والحزن والضيق والوحشة في رثائه لجارية شابة ، اختطفها منه الموت دون شفقة أورشمة ، ويظل يئن ويسكب دموعه إلى أن يقول (١) :

وأنسى من بعدها طولُ وحشتي وضاجعتي في مضجعي بعدها كزبي  
أيا تُربُّ ما أنصفتَ نَصْرَةَ غُصْنِهَا أَهَذَا صَنِيعُ التُّرْبِ بِالْغُصْنِ الرَّطْبِ

ويشتهر ابن النبيه بمرثية دالية رائعة رثى بها ابنا للخليفة الناصر سنة ٦١٣ وهى من بدائع المراثى ، إذ يعزى الناصر عن ابنه فى أسى ولوعة ودعوة حارة إلى الصبر على المصاب بمثل قوله (٢) :

الموتُ نَقَادٌ عَلَى كَفِّهِ جَوَاهِرٌ يَخْتَارُ مِنْهَا الْجِيَادُ  
والمرءُ كَالظِّلِّ وَلَا بُدَّ أَنْ يَزُولَ ذَاكَ الظِّلُّ بَعْدَ امْتِدَادِ

ولا يموت سلطان أيوبى بمصر حتى يندبه الشعراء ، ومن ندبوه الملك الصالح نجم الدين أيوب المتوفى سنة ٦٤٧ وهو يستعد لمنازلة لويس التاسع ، وخلفه ابنه توران شاه ففتك بالصليبيين فتكا ذريعاً ، وأخذ لويس التاسع قائد الحملة الصليبية أسيراً ، غير أن مماليكه لم يلبثوا أن فتكوا بالبطل : بطل موقعة المنصورة وبكاه غير شاعر مصرى من مثل قول ابن مطروح (٣) :

يَابَعِيدَ اللَّيْلِ مِنْ سَحْرَةِ دَائِمًا يَبْكِي عَلَى قَمْرَةِ  
خَلِّ ذَا وَاَنْدَبَ مَعِيَ مَلِكًا وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ

وحقاً ولَّتِ دنيا الدولة الأيوبية على أثره وغربت شمسها المضيئة ، إذ استولى المماليك على صولجان الحكم بمصر . وأول سلاطينهم العظام الظاهر بيبرس بطل موقعة عين جالوت التى سحق فيها التتار ، ودفع سيولهم إلى الوراء حتى حلب فالعراق . وله بعد ذلك بلاء رائع فى حرب بقايا الصليبيين والاستيلاء على كثير من حصونهم بالشام . حتى إذا توفى سنة ٦٧٨ بكاه شعراء مصر بمثل قول محيى الدين (٤) بن عبد الظاهر :

(٤) انظر تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور

تلاوون لمحيى الدين بن عبد الظاهر (نشر وزارة الثقافة والإرشاد بمصر) ص ٢٥ .

(١) الديوان ص ٦٢ .

(٢) ديوان ابن النبيه (تحقيق عمر الأسعد) ص ١٠٤ وما بعدها .

(٣) فوات الوفيات ١٨٥/١ .

هذا الذى هزَمَ التتارَ فأصبحوا تغتالهم عند الكرى الأحلامُ  
هذا الذى قهر الفرنج فكلّهم تُرديهم من رُعبِ الأوهام

وقلما يتوفى سلطان بعد الظاهر فى زمن المالك إلا ويكيه الشعراء .  
ومرّ بنا الحديث عن ابن نباتة ومدوحه السلطان المؤيد الذى ذبّج فيه غرر المدائح ، حتى إذا  
مات رثاه بمرث طنانة وفيها يكيه بكاء حارا من مثل قوله فى إحدى مرثياته :

نعى المؤيدَ ناعيه فوا أسفا للغيث كيف غدتُ عنا غواديه  
واروعتا لصباحٍ من رزيتيه أظنّ أن صباح الحشرِ ثانيه  
ليت الحمامَ حياَ الأيامَ موهبةً فكان يُفنى بنى الدنيا ويقيه  
ليت الأصاغر يُقدى الأكبرون بها فكانت الشهبُ فى الآفاق تُقديه

وهو تأبين ممزوج بندب وأنين ، وحسرة ما بعدها حسرة ، حتى ليتمنى لومات الناس جميعا  
فداء للمؤيد بل يتمنى لو كانت الشهب تستطيع أن تقديه .

ويستولى العثمانيون على مصر ويتعاقب عليها ولاتهم ولشعرائها فيهم وفى كبار الموظفين حيث  
يتوفون مرث كثيرة ، من ذلك قول الشيخ محمد الغمري فى رثاء الأمير إسماعيل بن إيواظ المتوفى  
سنة ١١٣٦ للهجرة <sup>(١)</sup> :

أقى أمانٍ وسيفُ الأمن قد عُندا ويدرُ أفق سماء العدلِ قد فُقدنا  
وشمسُ نصرِ عباد الله قد كُسفتْ ودولة العزِّ ماتتْ بالذى لُجدا  
كم قد أعاث فقيراَ من ظلامته وأبدل الجور عدلا والفسوق هدى

وتكثر مرثى العلماء الأعلام وتكتظ بمرثيتهم كتب التراجم ، وخاصة منذ عصر المماليك ،  
من ذلك قول <sup>(٢)</sup> عبد الباسط بن خليل الحنقى ، فى رثاء جلال الدين عبد الرحمن السيوطى حين  
توفى سنة ٩١١ :

مات جلالُ الدين غوثُ الورى مجتهدُ العصر إمامُ الوجود  
فيا عيونُ انهملى بعده ويا قلوبُ انفطرى بالوقود

ويروى الجبرتي أنه لما مات الشيخ محمد العشماوى سنة ١١٦٧ قال بعض شعراء الوقت وه

(٢) بدائع الزهور لابن لياس ٦٣/٣ .

(١) الجبرتي ١٢١/١ .

السيد حسين الإدكاوي قصيدة أنشدت وقت الصلاة عليه مطلعها<sup>(١)</sup> :

ما بين حرقة أدمعى وتولّهي نارٌ يؤجّجها هيبٌ تولّهي  
يا أرضُ ميدى ياسماء تشقّقى ياشمسُ نوحى يانجومُ تاوّهى

والمبالغة واضحة في البيت الثاني

وكان وتر الشكوى من الزمن وأحواله وتقلباته ونوائبه ورزاياه ومن نكد الحظوظ وبؤس الحياة مشدودًا دائمًا إلى قيئارات الشعراء يتغنون عليه آلامهم وأحزانهم وما يصيبهم من شر الحياة ونكرها ومن ضعة الحظوظ التي كتبت عليهم فيها ، ومن نزول المصائب التي تعصف بهم ، من مثل قول تميم بن المعز<sup>(٢)</sup> :

أما والذي لا يملك الأمر غيرهُ ومن هو بالسرّ المكتم أعلمُ  
لئن كان كتمانُ المصائب مؤلماً لإعلانها عندى أشدُّ وآلمُ  
صبرتُ عن الشكوى خياءً وعفّةً وهل يشتكى لدغ الأرقام أرقم<sup>(٣)</sup>  
وبى كلُّ ما يبكى العيونَ أقله وإن كنت منه دائماً أتبسمُ

وكان تميم يعيش في نعيم لأنه ابن المعز مؤسس الدولة الفاطمية بمصر ، غير أنه كان أكبر أبنائه وصرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله حتى إذا توفى صرفها إلى أخيه نزار الملقب بالعزير الفاطمي . وعاش تميم يتجرع مرارة هذه العُصّة دون أن يستطيع التفوه بكلمة ، إلا مثل هذه الأبيات التي كان ينفس بها عما يجثم في دخائله من ألم مرير . ويردد شعراء الدولة الفاطمية بعده شكواهم من الحياة وكوارثها والحظ وبؤسه وقصوره عن أمانهم كقول ظافر الحداد<sup>(٤)</sup> :

ولى همّةً تبغى النجومَ وحالةً تصحف ماتبعيه فهو لنا ضدُّ  
إذا رفعتنى تلك تخفضُ هذه فكلُّ تناوٍ فى إرادته الحد<sup>(٥)</sup>  
فما حالُ شخصٍ بين هاوٍ وصاعدٍ وليس له عن واحد منها بُدُّ  
تولتني الأرزاءُ حتى كأنما قوادى لكفى كلُّ لاطمةٍ خدُّ

فهمته ماتزال تصعد به حتى يصافح النجوم وحظه مايزال يهبط به حتى يهوى إلى الدرك

(٤) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٣/٧ .

(٥) الحد : المنع .

(١) تاريخ الجيفى ١/١٨٩ .

(٢) الديوان ص ٣٩٨ .

(٣) الأرقم : الأضراب .

الأسفل من البؤس والشقاء وكأنه في أرجوحة مايزال صاعدا هابطا وماتزال الأرزاء والكوارث تنزل به بل تلطم فؤاده لطما عنيفا .

ويلقانا بأخرة من الدولة الفاطمية داود بن مقدم من أهل المحلة شمالي طنطا ويقول العماد :  
كان منحوس الحظ غير مبخوت ، منكوب الجاه بحرفة الأدب منكوت ، وينشد له (١) :

لقد بكرتُ تلومُ على خمولى كأن الرزقَ يجلبهُ احتيالي  
وكم أدليتُ من دَلْوٍ ولكنْ بلا بللٍ يُرَدُّ على قَدالي (٢)  
وكم علقتُ أطاعى رجاءَ بخلبِ بارقٍ ووميضِ آل  
ولا أنا بالكفافِ التزيرِ راضي ولا أنا عن طلابِ الكثرِ سالر

فصاحبه تلومه على خموله وأنه يقعد عن طلب الرزق ، ومفتاحه ليس في يده ، وطالما أدلى بدلوه مع طلابه فعادت دلائهم ملاء ، وارتد عليه دلوه فارغا ، وكأنما يتعلق ببرق كاذب وسراب يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، وهو مع ذلك لا يزال يطمع في الكثير وكان حربيا به أن يرضى بالترز القليل .

وتحفُّ الشكوى على ألسنة الشعراء في زمن الدولة الأيوبية وانتصاراتها المدوية ، إلا في بعض لحظات تعسة قد تمر بالشاعر فيشكو شكوى عارضة كقول ابن سناء الملك (٣)

ياخَيْبَةَ الحُرِّ الذى لم يلق فوق الأرض حراً  
وإذا اشتكى فقراً أسا ل الدمع من عينيه ثيراً  
والخَلْقُ تُذرى الدمعَ ما ء وهو يُذرى الدمعَ جَمراً  
وإذا تملكتِ اللسا مُ فإن موتَ الحُرِّ أحرى

ولا أظن أن ابن سناء الملك اشتكى الفقر والبؤس يوماً ، فقد كان يعيش في مجبوحة من الترف والنعيم ، ولذلك نظن أنه قال قصيدة هذه الأبيات في لحظة من لحظات غضبه ، وهي فعلا أبيات عارضة في ديوانه الضخم .

ويعود الشعراء إلى الشكوى في أيام المالك والحديث عن بؤسهم ، وكانوا يمزجون هذا الحديث بنخفة الظل التي عُرف بها المصريون ، حتى لتصبح الشكوى ضرباً من الفكاهة أحياناً على

(٣) الديوان ص ٣٢٨

(١) الحريدة ٤٦/٢ .

(٢) القلاد : القفا .

نحو ما هو معروف عن الجزار والوراق وابن دانيال ، وسترجم لهم في حديثنا عن شعراء الفكاهة .  
ويأخذ هذا الحديث صورة عابسة جادة عند نفر من الشعراء ، وفي مقدمتهم ابن نباتة الذي أكثر  
- كما أسلفنا - عن الحديث عن كثرة عياله كقوله لأحد ممدوحيه :

ياسيدي دعوة ذي حالة أحالها الدهر وعدوانة  
تقليسه في الشام بعد الغنى يعصى بأن القلب حرانة  
فارق أولادًا وأهلا وما تحمّلت للبين أظعانة

فهو يستعطف ممدوحه لما أصابه الدهر به من البؤس والضحك وضيق العيش ، وقد فارق  
أولاده وأهله بيتي أن يجد لهم ما يقوتهم وأن يعود لهم غنيا ثريا أوقى بسطة من الرزق . ويردد ابن  
نباتة ذلك كثيرا في أشعاره . ووراءه كثيرون في زمن الماليك كانوا يشكون مما يتجرعون من مرارة  
الحياة وعيشها البائس المضمي . وساعد على ذلك أن الماليك لم يرعوا الشعراء في زمنهم رعاية  
الحكام من قبلهم ، وأنهم قلما كانوا يسبقون عليها عطائياهم ، وحتى ما كانوا يعطونه لهم أحيانا كان  
نزرا قليلا ، فكان طبيعيا أن يستشعروا الحرمان والبؤس وأن يندبوا حظهم العاثر ، وأن يصبوا  
نقمتهم على الدهر والزمان . ثم حلت الحقبة العثمانية ، فزادتهم إغالا في البؤس واليأس والشكوى  
المريرة . ولعل من الخير أن نقف قليلا عند بعض شعراء الرثاء والشكوى في المراحل المختلفة لهذا  
العصر .

### علي بن النضر<sup>(١)</sup>

من أهل الصعيد كان نحويا أديبا روى عنه ابن بَرِّي وغيره ويقال إنه كان يحفظ كتاب  
سيبويه ، وكان متصرفا في علوم كثيرة ، وهو أحد قضاة الصعيد النابيين ، تولى قضاء الصعيد  
وإخميم في زمن الأفضل بن بدر الجالبي (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) . ويبدو أن موهبته الشعرية  
استيقظت مبكرة ، مما جعله يقبل على شعر المديح محاكيا شعراء عصره . فمدح كثيرين من أعيان  
الصعيد وفي مقدمتهم بنو الكنتز أعيان أسوان . ثم قصد بمدححه الأفضل فرفع منزلته وعينه قاضيا  
للصعيد ، وفيه يقول أبو الصلت في رسالته المصرية التي كتبها عن شعراء مصر وأدبائها ، وقد

(مصر) للمعاد الأصبهاني ٩٠/٢ والطالع السعيد ص ٢٢٠  
والبخية للسيوطي ص ٣٥٣ .

(١) انظر في ترجمة ابن النضر وأشعاره رسالة أبي الصلت  
أمية في نوادر المخطوطات لعبد السلام هرون (المجموعة  
الأولى) ص ٤٠ وما بعدها وخريدة القصر (قسم شعراء

افتتحها بذكره قائلا : « من الأفاضل الأعيان ، المعدودين من حسنات الزمان ، ذو الأدب الجم والعلم الواسع ، والفضل الباهر والنثر الرائع ، والنظم البارع ، وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى ، والرتبة الأولى » ويبدو أنه كان واسع الثقافة . ويقول الأذفوي صاحب الطالع السعيد : « أكثر شعره في تشكى الزمان والإخوان » . وكان قد قصد الأفضل في أول الأمر راجيا خلعة عنده أو ولاية فخاب أمله فيه وضاع رجاؤه ، فقال من قصيدة يعاتب فيها الزمان ويشكو الخيبة والحرمان :

بين التعزير والتدلل مسلكٌ  
فاسلكه في كل المواطن واجتنبُ  
ولقد جلبتُ من البضائع خيرها  
ورجوتُ خفصَ العيش تحت رواقه  
ظنًا شبيها باليقين ولم أخل  
لأقارعنَّ الدهرَ دون مروءتي  
بادى المتارِ ليعين كل موَفِّي  
كِبَرَ الأبى وذلةَ المتملِّقِ  
لأجل مختارٍ وأكرم متقٍ  
أن الزمان بما سقاني مُشْرِقِ (١)  
وحرمتُ عزَّ النُصر إن لم أصدُقِ

وهو ينصح غيره من الشعراء أن لا يصعروا خدوم كبرا ، وأهم من ذلك أن لا يُسيما أنفسهم ذل الملق والمهوان ، وليتخذوا منه وما صنع به الأفضل عبرة وعظة ، إذ قدم له بين يدي ما أمّله منه قصيدة بديعة من قصائده ، فكان جزاؤه خيبة ما بعدها خيبة ، ومع ذلك فهو يمسك نفسه ، إذ هي أكبر من أن تنكسر ، بل إنه ليهدد بمقارعة الدهر ونزاله دون مروءته وعزة نفسه ورفعه إلى غير قليل من الزهد والقناعة يحض عليهما ويذم الضراعة ، متأسفا على امتهان نفسه وإراقة ماء وجهه للأفضل دون طائل بمثل قوله :

لَهْفِي لِمَلِكٍ قَنَاعَةٍ لَوْ أَنِّي  
وَلَكَنَّا بِأَسِيٍّ كُنْتُ قَدْ أَحْرَزْتُهُ  
أَلَيْتُ أَجْعَلُ مَاءَ وَجْهِ بَعْدَهُ  
لَا أَنشَأُنِي الْحَادِثَاتُ لِمِثْلِهَا  
مُتَعْتُ فِيهِ بِعِزَّةِ التَّمَلِّكِ  
لَوْلَمْ تَعِبْ فِيهِ الْخَطُوبُ وَتَفْتَكُ  
كَدَمٍ يُهِيلُ بِهِ الْحَجِيجَ بِمَنْسِكِ  
وَرُمِيْتُ قَبْلَ وَقُوعِهَا بِالْمُهْلِكِ

لقد أضع ملك قناعة كان هنيئا به متمتعا فيه بعز سلطانه ، وأضع معه كثر بأس من الوزراء والحكام أمثال الأفضل كان مغتبطا به سعيدا ، ويقسم أن لا يريق ماء وجهه لأحد بعد الأفضل

(١) مشرق : جاعلي أعص بما سقاني .

وما صنعه ، ويدعو على نفسه بالموت إن هو فكر أن يعود إلى المديح وهوان الاستجداء وذلّه ، ويتجه إلى ربه داعياً ضارعا بمثل قوله :

يا مستجيبَ دعاءِ المستجيرِ بهِ      ويامفرجَ ليلِ الكربةِ الداجي  
قد أرتجتِ دوننا الأبوابُ وامتنعتِ      وجلّ بأبك عن منعِ وارثاجِ  
نخافُ عدلكَ أن يجرى القضاءُ بهِ      ونرتجيك فكننُ للخائفِ الراجي

فقد أغلقت أبواب الرجاء من دونه ، وأظلمت الدنيا من حوله ، وغرق في كرب وغم ، وأخذته اليأس من كل جانب ، فلا أمل ، بل قنوط مقيم ، حتى ليخشى على نفسه من أن يفلق الله عنه بابه ، وإنه ليمتلئ خوفا ورجاء . ويعزى نفسه ويدعوها إلى الصبر الجميل :

يانفسُ صبرا واحتسابا إنها      غمراتُ أيامِ تمرُّ وتنجلي  
لا تياسى من رُوحِ ربكِ واحذري      أن تستغري بالقنوط فتُخذلي

إنه يتمنى لنفسه أن تخلص من محنة اليأس الذي يملؤها شقاء وعناء ومسرة ولوعة ، فيخفف عنها ذلك كله أو يحاول أن يخففه بما يدعوها إليه من الصبر على البلاء وأن لا تياس من روح ربها فإنه لا يياس من روحه إلا الظالمون لأنفسهم المستسلمون للقنوط وأهواله .

وكان علي بن النضر يجيد الرثاء كما يجيد الشكوى من الزمان وأهله ، وله مرثية بديعة في إبراهيم ابن الزبير حاكم قوص لسنة ٧٢٢ هـ للهجرة وهو جد المذهب بن الزبير الشاعر المار ذكره ، استهلها بقوله :

يامزُنْ ذا جدتُ الرشيدي قففِ معي      نسفحُ بساحته مزادَ الأدمع<sup>(١)</sup>  
وامسحُ بأردانِ الصبا أركانهُ      كي لا يلمَ به شحوبُ البلقعِ  
ويودُ نفسي لو سقيتُ ترابهُ      دمَ مهجتي ووقته بالأضلعِ

وهو يتجه إلى المزن أو السحاب الممطر محاولا أن يستوقفه ليسفح أمطاره معه على قبر صاحبه ، بل ليسفحها معا عليه قربانا من الدموع ، ويتوسل إليه أن يمسح بأكمام الصبا أركانه ، حتى يظل ناضرا لا يلم به شيء من شحوب البلقع أو القفر من حول جدته ، وكان بود نفسه لو فداه بروحه وسقى ترابه دم مهجته ووقاه بأضلعه ، ويخاطب قبره مُلتاعا بقوله :

(١) مزاد : جمع مزادة وهي القرية .

لَتَنْفَسَتْ فِيكَ الصَّبَا مَفْتُوقَةً بِسِيمِ مِسْكِ رِيَاضِهَا الْمَتَضَوِّعِ  
 أَوْ مَا عَجِبْتَ لِطَوْدِ عَزٍّ بَادِخٍ مُسْتَوْدَعٍ فِي ذِي الثَّلَاثِ الْأَذْرَعِ  
 وَلَخَدْ مَنْ وَطِئَ الْكَوَاكِبَ رَاقِيًا كَيْفَ ارْتَضَى مِنْ بَعْدِهَا بِالزَّرْمَعِ  
 وَلَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى رَبْوَعِكَ شَاكِيًا وَبِهَا الَّذِي بِي مِنْ أَسَى وَتَوَجُّعِ

وهو يدعو للقبر أن تهب عليه ريح الصبا العطرة بمسك الرياض ذكي الرائحة وأن يظل ذلك دائما أبدا ، ويعجب لهذا الجبل الشامخ عزا أن تطويه ثلاث أذرع ومن وطئ الكواكب بقدمه راقيا أن يرتضى النزول تحت اليرمع أو الحجارة الرخوة ، وإنه - مثل كل ما حوله من الربوع - ليمتلىء حسرة وأسى وتوجعا ما بعده توجع . ولعل في ذلك كله ما يصور ملكة ابن النضر الشعرية الخصبية .

### علي بن عَرَّام<sup>(١)</sup>

شاعر أسوان مسقط رأسه وموطنه ، بل شاعر الصعيد قاطبة ، دفعه طموحه في شبابه إلى أن ينزل الفسطاط ويأخذ عن علماء اللغويين من أمثال ابن بركات وغير اللغويين . وكان فيه ذكاء وحب للعلم وفنونه ، فبرع في غير فن ، وصنف تصانيف كثيرة . ويبدو أنه آثر المقام ببلدته أسوان ، وله في أعيانها غير مدحة ، وكان كثير الوفود على حكام الصعيد من الأيوبيين في قوص وغير قوص ، من مثل مبارك بن منقذ وتوران شاه . ويقول العماد الأصبهاني إنه سأل عنه سنة ٥٧٣ فقالوا له إنه حتى في أسوان ، وكان لا يزال يذكرها حين يبرحها فترة في حين بالغ ، حتى ليقول في إحدى رحلاته وقد ذكرها ، فكأنما نكأ جرحا في فؤاده إذ يقول متلهفا في العودة إليها حين نفاه بنو الكثر أعيانها إلى إسنا :

وَلَا بَارِكَ الرَّحْمَنُ فِيمَنْ أَزَاخِنِي عَنِ الظِّلِّ وَالْمَاءِ الْوَالِئِ الَّذِي يَجْرِي  
 مَقِيلٌ وَلَكِنْ أَيْنَ مَيِّ ظِلُّهُ وَسُقْيَا وَلَكِنِّي بَعِيدٌ عَنِ القَطْرِ

فهو يتمنى وقت قبولة بأسوان وشربة من مائها السلسبيل ، إنها نعيمه وفردوسه الذي لا يماثله فردوس ، وسرعان ما عاد إليها وظل بها حتى توفي سنة ٥٨٠ . ويقول صاحب الطالع السعيد :

المحاضرة ١/٥٦٥ .

(١) انظر في ابن عرام وترجمته وأشعاره الخريدة (قسم شعراء مصر) ١٦٥/٢ والطالع السعيد ص ١٩٨ وحسن

« لم يكن في أرض مصر من يدانيه في فضله وبضاهيه في نبهه ». ويشيد به وبشعره العباد الأصهباني إشادة رائعة ، ويذكر أن بعض أصدقائه أحضر له ديوانه فوجده من طبقة عالية ، مما جعله يعرض منه ألوانا ، ويقول : « قد أوردت من جملة نظمه الفائق الرائع ، ولفظه الرائع الشائق ، ما إذا حُسِرَ <sup>(١)</sup> اسلحر . . ولا ين عَرَّام في ميدان النظم عَرَّام <sup>(٢)</sup> ، وبابتكار المعاني الحسان غرام ، ولرويته في إذكاء <sup>(٣)</sup> نار الذكاء خبرام . . وكل سحر وخمر سوى منسوج فدامه <sup>(٤)</sup> ومزوج مدامه حرام ، اعجب : بحر في الصَّعيد <sup>(٥)</sup> يُقصدُ بالتميم لمائه ، ونجم في صعود السعود لا يرتقى إلى سمائه ». ويتلو العباد ذلك بطائفة من أشعاره مرتبة على حروف الهجاء ، ويذكر له من قصيدة في رثاء بعض العلويين ، وربما كانت من أشعاره في زمن الفاطميين ، وفيها يقول :

إنما هذه الحياةُ غرورٌ كَسَرَابٍ بدا لنا في فجاج  
تتبع الحُلُو من جنى عَيْشها الحُدَّ و بِمَرٍّ من الرِّزَايا أجاج <sup>(٦)</sup>  
نحن فيها كمثل ركبٍ أناخوا ساعةً ثم أُرهِقوا بانزعاج

وتلك سنة الحياة : غرور كلها وسراب سرعان ما يزول ، وحُلُو سرعان ما يحول مرا وملح أجاجا ، وما أشبه الناس فيها بركب أناخوا قليلا وجميعهم وقوف ، كل منهم ينتظر دوره في الرحيل ، فالكل راحلون إلى أجداثهم وقبورهم فهي قرارهم ومنزلهم ولا مآب لهم منه ولا خلاص . وله مرثية في ابن عمه هبة الله بن عَرَّام ، وكان شاعرا محسنا وفيه يقول :

مَنْ لِسود الخطوب غَيْرِكَ يُجَلِيها وقد غاب منك بدرٌ منيرُ  
مَنْ يَحُوكُ القَرِيضَ مِثْلَكَ يُسْديها على خَيْرِةٍ بِهِ وَيُنِيرُ <sup>(٧)</sup>  
ليس في العَيْشِ بعدَ فَقْدِكَ خَيْرٌ حَبْدًا وافدُ الرَّدَى لو يزورُ  
كان ظني إذا المنايا انتحنتا أننى أولٌ وأنت أخيرُ <sup>(٨)</sup>

(٦) أجاج : شديد الملوحة .

(٧) يسدي : من السدى وهو ما يمد طولاً في النسيج .

ينير : ينجم أو يجعل له لحة وهي ما يمد عرضاً في النسيج .

يريد أنه يحكم الشعر إحكاماً دقيقاً .

(٨) انتحنتا : قصدنا .

(١) حسر : انكشف .

(٢) عَرَّام : قوة وشدة .

(٣) إذكاء : إيقاد .

(٤) فدام : ما يوضع على ضم الدن تصفية مافيه .

(٥) الصَّعيد : الوجه القبلي وهي أيضاً وجه الأرض

كيف لي بالسُّلُوِّ عنه وطىُّ الـ قلب من فقهه جوى منشور  
فسقى قبره نداءً ففيه لكره غنى وري غزير

وهو شديد اللوعة على ابن عمه وصديقه ، ولذلك يخلط نديه بتأينه ، إذ فقد البدر الذى كان ينير فى دجى خطوب الدهر وكوارثه ، وإنه ليندب للشعر شاعره المبدع الذى كان ينسج خيوطه نسجا محكما ، وكأنما فقد كل نعيم فى دنياه وكل خير ، حتى ليرتضى الموت ، إذ لم يعد له بقاء بعده ، ولا عاد يعرف كيف السلوان عنه ، وقلبه منطو على نار من الجوى لا تحبو ولا تهدأ ، وإنه ليذكر نداءه وكرمه الذى طالما أغدقه على من حوله ، ويدعو الله أن ينزله على جدته شآبيب رحمة .

ويروى العماد لابن عرام قصيدة بل مناحة كان ينوح بها أهل أسوان على المقابر ناديين موتاهم باكين ، استهلها بقوله :

الرّدى للأنام بالمرصادِ كل حىّ منه على ميعادِ  
كيف يُرَجى ثباتُ أمرِ زمانٍ هو جارٍ طبعاً على الأصدادِ  
فإذا سرّ ساء حتماً ويقضى بوجودٍ إلى بلى ونفادِ

فالموت غاية كل حى ، والناس جميعا يسقطون فى قراره العميق ، لكل منهم موعده لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، وبألمها من سخريه للزمان ، فإنه لا يبقى للإنسان على شيء ، وحتى لو سرّه يوماً لساء يوماً أو أياماً ، وإنه ليسلبه كل ما أعطاه حتى وجوده وحياته . ويمضى فى نفس القصيدة أو المراثية قائلاً :

نحنُ فى هذه الحياة كسفرٍ ربما أُعجلوا عن الإروادِ<sup>(١)</sup>  
عرّسوا ساعةً بها ثم نادى بالرحيل المجدِّ فيهم مُنادِ<sup>(٢)</sup>  
كم أبٍ والهٍ بئكلٍ بينه كم يتيمٍ فينا من الأولادِ  
يدعى المرءُ لمرثِ أرضٍ ودارٍ سَهَّاهُ غيرَ لائقٍ بالسَّدادِ  
وهو موروثها إذا كان يبقى وهى تَبقى على مدى الآبادِ  
وقُصاراهُ أنْ يشيعَ محمواً لأَ بأكفانه على الأعوادِ

(٢) عرسوا : نزلوا آخر الليل للراحة .

(١) الإرواد : الإمهال .

وما أبأس الحياة من رحلة ، وما أبأس ركب هذه الرحلة ، فليس لهم فيها حق في الريث والأناة ، ولا في التمهّل والوقوف ، إنها لا تريد عن ساعة تنزلها قافلة ، وسرعان ما يصبح في ركبها مناد بالرحيل السريع ، وكل من في الركب يبكي وينوح وبين أنيناً لا ينقطع ، أب بين ويذرف الدموع مدراراً على أنثائه ، وأبناء أيتام يتنون ودموعهم لا تجفُّ ولا ترقأ على آباتهم وأمهاتهم ، وكأنما يقطعون جميعاً وادياً كله غُصص وآلام ، إنه وادى الموت يجوسون خلاله ، وهم لا يدرون . وأعجب العجب أن يحرص الإنسان على إرث الأرض وملكها ، وهو موروثها ومملوكها الذي سرعان ما يزول ويفنى ، بينما هي باقية على كُرِّ الدهور ، وما أعظمها عبرة ، فكل إنسان مها بلغ من الثراء أو المجد يخرج من دنياه كغيره محمولاً على أعواد ، وسرعان ما يلقى عليه رداء التراب الثقيل . ويقول ابن عَرَّام

وإذا الأهل والأقارب والأخذ      بابٌ راحوا فأنت في الإثر غادِ  
فالقبورُ البيوتُ مضجَعُنا في      ها وما إن سيوى الثرى من وسادِ  
كم أحال البلى إليه قديماً      جسداً ناعماً من الأجسادِ  
شاهدُ الموتِ لائحٌ في جبين ال      حى منا في ساعة الميلادِ

فالكل ميت ، وكل ما هناك سابق ومسبوق ورائح وغادٍ إلى القبور : البيوت الدائمة التي نضطجع فيها على وسائد الثرى ، لا فرق بين إنسان وإنسان ، فنحن جميعاً بنو الموت ، ونحن جميعاً سكان القبور ومنذ يولد الإنسان يلوح على جبينه ساعة ميلاده شاهد موته وأنه ملق به - طال أجله أو قصر - وراء تراب وأحجار .

ابن النقيب<sup>(١)</sup> : الحسن بن شاور الكتافي

ولد بالفسطاط سنة ٦٠٨ وتوفى سنة ٦٨٧ وهو بذلك من شعراء الدولتين : الأيوية والمملوكية ، وكانت له عناية بالحديث النبوي . روى عنه الحافظ اللمياطي وغيره ، واتصل بالأيوبيين ، فعينوه في دواوينهم ، وقد لقيه ابن سعيد الأندلسي مؤلف كتاب المغرب حين زار

وحسن المحاضرة للسيوطي ٥٦٩/١ وشذرات الذهب لابن  
العقاد ٤٠٠/٥ .

(١) انظر في ابن النقيب : الحسن بن شاور المغرب في  
حل المغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ٢٥٨ وفوات  
الوفيات لابن شاعر ٢٣٢/١ والنجوم الزاهرة ٣٧٦/٧

مصر في أوائل العهد الرابع من القرن السابع ، يقول : « اجتمعت به وهو يتولى لسلطان مصر معدن الزمرد ، فأبصرت شخصاً مجسداً من الفضائل معنونا عن بيته - إذ يُنسبُ إلى شاور وزير المعاضد الخليفة الفاطمي - بما يبدو عليه من كرم الثمائل » وصنف كتاباً سماه « منازل الأحباب ومنازه الألباب » . وفي شعره ومترلته الشعرية يقول ابن سعيد : « هو عندي من أفراد شعراء العصر المتغفلين في الغوص على المعاني الخاترين من غايات الإحسان ما يقصر في إطرابه عنه الثالث والثاني » ويقول ابن شاعر : « شعره جيد عذب منسجم فيه التورية الرائعة اللاتقة المتمكنة . وهو أحد لرسان تلك الحلبة الذين كانوا من شعراء مصر في ذلك العصر ، ومقاطيعه جيدة إلى الغاية » . وابن شاعر يقصد بالحلبة السراج الوراق والجزار والحمامي الذين كانت أسماؤهم على كل لسان لحنفة وروحهم وكثرة ما كانوا ينظمونه من التوريات ، وكان ابن النقيب على شاكلتهم يكثر منها ومن طريف تورياته :

أنا العُدْرِيُّ فاعذُرني وسامعُ      وجرَّ علىَّ بالإحسان ذَيْلا  
ولما صِرتُ كالمجنون عِشْقاً      كتبتُ زيارتي وأتيت ليلا

وكلمة « ليلا » في نهاية البيت الثاني لا يريد بها الليل الحقيقي إذ جاء بها تورية عن صاحبتة « ليلى » . وهي تورية تدل على ما وراءها من سرعة بديهته ، ورقة حسه ، وله غزل بديع سنششد منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل . وله محاورات كثيرة مع من سميناهم من الشعراء ، وكتب إليه ابن سعيد بيتيه اللذين أنشدناهما في غير هذا الموضع ، وهما :

أيا ساكني مصرٍ غدا النيلُ جاركم      فأكسبكم تلك الحلاوة في الشعرِ  
وكان بتلك الأرض سحرٌ وما بقى      سوى أثر يبدو على النظم والتثبيرِ

وأجابه ابن النقيب من قطعة كتب بها إليه متواضعا :

ولا تَطْلُبْنِ سحرَ البيان بأرضنا      فكم فيه موسى مبطلُ آيةِ السحرِ  
ولا رِقَّةَ الشعرِ الذي كان أولاً      وكيف رقيق الشعرُ مع قسوة الدهرِ

وإنما ذكرنا هذه الإجابة لما فيها من شكوى الدهر وقسوته ، منذ الثلاثينيات من عمره ، ولا ندرى هل ظل موظفا بالدواوين في عهد المالك أو أنه آثر العزلة مكتفيا بما ورثه عن آبائه ؟ . وأكبر الظن أنه ظل متصلا بالمالك ودواوين الدولة ، يدل على ذلك ما رواه ابن تغرى بردى ،

لما مررنا في غير هذا الموضع من أنه كان حاضرا وقعة الظاهر بيبرس مع التتار على شطّ الفرات سنة ٦٧١ وكيف أنه صوّر انتصاره تصويرا ارائعا .

وحانت منه التفاتة فيما يبدو إلى جندي قبل المعركة كان في الساقة وعرف أن له نظراء لا يوضعون في مقدمة الجيش وإنما يوضعون في مؤخرته ، أو لعله إنما التفت قبل كل شيء إلى نفسه ، فتأثر وبلغ به التأثر حدا بعيدا من الإحساس بالظلم ، وإذا هو ينشد في ألم بالغ :

|          |        |          |          |          |              |                       |
|----------|--------|----------|----------|----------|--------------|-----------------------|
| نحن      | إلا    | قطاعةُ   | الأجنادِ | وبراياتُ | غرَّ هذا     | النادى <sup>(١)</sup> |
| نحن      | إلا    | حكايةُ   | وخيالُ   | وحديثُ   | لحاضرٍ       | ولبادى                |
| نحن      | إلا    | غُسالَةُ | لمراقٍ   | لقدور    | تفرَّغت      | وزبادى                |
| نحن      | إلا    | زُبالةُ  | ضَمَّها  | الزَّبَّ | ألُ فوق      | الأكوام               |
| جَرَدونا | فما    | قطعنا    | فردُّو   | نا -     | وقد أحسنوا - | إلى الأغادِ           |
| وعرَضنا  | على    | براذينِ  | جيشِ     | ما       | استعدَّتْ    | لحملةٍ                |
| ورماحِ   | لم     | تعتقل    | لطعانِ   | وسيوفٍ   | ما جَرَدتْ   | لجِلاذِ               |
| فهمَ     | لا فرق | في يد    | الفارس   | الكُشْد  | حانَ         | منا أو في يد          |
|          |        |          |          |          | الحدادِ      |                       |

ويبدو أنها شكوى بلسان فريق من الفرسان ، ممن وضعوا في مؤخرة الجيش الذى يقوده الظاهر بيبرس لحرب التتار يريدون أن يكونوا في أول الصفوف لمنازلة العدو التتارى ودحره دحرا لاتقوم له قائمة بعده ، ويسوق ابن النقيب الشكوى في مرارة ، إذ يقول على لسان هؤلاء الفرسان متهما : ما نحن إلا نُحاةُ الأجناد بل نحن حكاية وخيال وحدث مردد ، بل غُسالَةُ لمراق بل زبالة ، ولعله يبالغ في تصوير ما أصاب هؤلاء الفرسان من ظلم ويبدو أنهم كانوا مثله بلغوا من العمر عتيا فوضعوا في المؤخرة . على أن في شكوى ابن النقيب ما يدل على أن فرسان المقدمة إنما كانوا يختارون من أصلب الجنود وأعتاهم ، إذ كانوا هم وغيرهم يعرضون ، ويختارون في أثناء العرض وبعد الاختبار ، وهو لذلك يقول لانهم جردوهم لينظروا إلى أى حد هم سيوف قاطعة قلما لم يقطعوا ردوهم إلى الأغاد أو إلى المؤخرة ، ويلقى التبعة على البغال التى ركبوها ، فإنها

(٢) براذن جمع برذون : بغل ضخم .

(١) القطاعة : النحاتة كالبراية .

لم تكن ممرنة على العدو الشديد والغارة السريعة ، وأيضاً فإن السيوف والرماح كانت قد علاها الصدأ ولم تعد صالحة للتزال ، فسيان هي في يد الفارس البطل منا أو في يد الحداد كي يشحذها ويزيل عنها الصدأ . وتلقانا عند ابن النقيب شكوى مرددة من البؤس والفقر ، في مثل قوله :

يا قُفْلَ بابِ الرِّزْقِ يا ذا الذي مازال عند الفتح قُفْلاً عَسِرَ  
أفرطتَ في العُسْرِ ولا بُدَّ أنْ تنفَسَ أو تندُقَ أو تنكسِرَ

وهو يشعر كأن باب الرزق أُغلق من دونه ، وهو يعالج فتحه ، ولا يفتح ، ويشكو ما يلقاه من عسر وضيق وذنك ، ويأس من فتح هذا القفل بأى مفتاح من مفاتيح طلب الرزق فيأمل في أن ينفش وتفتح أغلاقه أو يندق أو ينكسر . وتجتمع عليه الشيخوخة والعوز والإملاق ، فينشد :

وجرَّدتُ معَ قَفْرِي وشيخوختي التي تراها فنومي عن جُفُونِي مشرِّدُ  
فلا يدعى غيري ثيابي فلانني أنا ذلك الشيخُ الفقيرُ المجرَّدُ

وحق ثيابه نزعها البؤس عنه ، فهو شيخ فقير عريان مسهَّد لا ينام . ولعل في ذلك كله مبالغة ، وهي على كل حال تدل على مدى إحساسه بلوعة البؤس واستطالته عليه في شيخوخته . ويبدو أن محنته بالحياة لم تقف عند ضيق ذات اليد ، فقد اتسعت لتشمل الأصدقاء والأصدقاء ، حتى ليقول :

لا تَبَيَّنْ من آدَمِي في وداٍ بصفاء  
كيف ترجو منه صفوا وهو من طينٍ وماء

فطبيعي - في رأيه - أن لا يُصنَى إنسان لصديقه إخاء . لأنه لا يعرف الصفاء ، بل هو دائماً كدر وكذلك كل ما يتصل به إذ هو مركب من طين وماء .

### عبد الله<sup>(١)</sup> الإدكاوي

ولده بإدكو بالقرب من رشيد سنة ١١٠٤ وألحقه أبوه بكتاب بها حفظ فيه القرآن الكريم ، حتى إذا أتمه ذهب في طلب العلم إلى القاهرة ، فحضر دروس العلماء بها في زمنه ، واشتهر بأدبه

١/٣٥٢ راجع ١/٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢٦٣ ، ٢٤١ .

(١) انظر في ترجمة الإدكاوي وأشعاره تاريخ الجبتي

وشعره ، ولزم السيد على برهان زاده نقيب الأشراف ، وظل يسبغ عليه من عطاياه ، وحجَّ معه بيت الله الحرام سنة ١١٤٧ وزار قبر الرسول ﷺ وعاد إلى القاهرة ، وأقبل - كما يقول الجبرتي - على تحصيل الفنون الأدبية فنظم ونثر ، ومهر وبر ، وهو في أثناء ذلك يكثر من رحلاته إلى رشيد والإسكندرية ويطارح أدباءهما . وتزوج حينئذ وأصبح صاحب عيال ، وتوفى النقيب المذكور ، فلزم الشيخ عبد الله الشبراوي المترجم له بين شعراء المديح ومدحه بقصائد كثيرة ، حتى إذا توفى سنة ١١٧١ لزم الشيخ الشمس الحففى ، وأنشد الجبرتي بعض مديحه فيه ، وله يخاطبه من قصيدة :

يا بهجة العصر يا من هاج كلُّ علماً يا مَحِينِ الدين بالآثار والسُننِ

وظل يلازمه إلى أن توفى سنة ١١٧٨ وصوِّح روض عزه بعده إلى أن توفى سنة ١١٨٤ . وله تصانيف كثيرة منها الدررة الفريدة في شرح مدحة نبوية ، وهداية المتوهمين في كذب المنجمين ، ومختصر شرح بانث سعاد للسيوطى ومنظومة في علم العروض والمقامة التصحيفية ضمنها ألفاظا تتغير معانيها بالتصحيف ومقامة أخرى مجونية ، ونضاعة الأريب في شعر الغرب ، وهى مجموعة من أشعاره . وله أيضاً تخميس بانث سعاد والدر المنتظم في الشعر الملتزم والفوائج الجنانية في المدائح الرضوانية جمع فيها أشعار المادحين للأمير رضوان كتحدا ، ثم أورد في خاتمتها ماله من الأمداح فيه نظما ونثرا ، وفيه يقول :

رضوانُ أوحِدُ من تفرَّد بالعطا فنانحُ الأجواد بعضُ هباته  
الفارسُ المقدامُ في يومِ الوغى والمرهبُ الآسادِ في وثباته

ومن تصانيفه « الدر الثمين في محاسن التضمين » . وبجانب ذلك كله ديوانه وهو مرتب على الحروف الهجائية .

ويورد الجبرتي قطعة من شعر الإدكاوى تدل على براعته وقدرته على استخدام فنون البديع من تضمين وغير تضمين ، ونراه يستعيد قدرة الحريرى في بناء الأبيات من كلمات منقوطة وأخرى عاطلة أو كلها منقوطة أو كلها عاطلة أو الكلمات تتكون من حرف عاطل فحرف منقوط ، وكذلك في صنع أبيات تُقرأ شطورها طردا وعكسا ، فهى تُقرأ من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين ، وهو ما كانوا يسمونه « ما لا يستحيل بالانعكاس » مثل قوله :

ارْعَ لَخِلْ إِنْ أَسَا وَأَثَسَ لَخِلْ إِنْ عَرَا

وكان يكثر من تشطير بعض القصائد المشهورة ، وكذلك من تخميس بعض الأبيات ، وتصنع لاستظهار مصطلحات بعض العلوم ، ولكن في خفة ودون أن نصطدم عنده بتكلف شديد ، كقوله مستظها لمصطلحات المنطق ، إذ يذكر المناطق كثيرا المقدمات والبراهين والنتائج :

وشقائتي قالت لنا بين الربا بمقدماتٍ ما بها إيهام<sup>(١)</sup>  
برهانٌ سعدي الآن أنتج قائلا دَعَّ وَجَنَّةَ المحبوبِ فهى ضرام

وله مرث مختلفة فيمن سميتهم من الشيوخ رعاته وفي غيرهم من علماء عصره ، ومن رثاهم وتفعج عليهم طويلا الشيخ حسن المدابغي المتوفى سنة ١١٧٠ للهجرة ، موله فيه مرثتان مطلع أولاهما :

مَضَى عالمُ العصرِ الإمامَ لرَبِّهِ حميدَ المساعي فاندبتهُ وبالغ

وفي خاتمها ينشد :

ولما قضى ذاك المهذبُ نَجَبَهُ وآبَ برضوانِ من الله سايغ  
دعوتُ أحبَّائي وقلت لهم قفوا معي عند ذا التاريخِ نبكى المدابغي

ومطلع الثانية :

صبرا فذا الدهر من عاداته الخنُ وفي تلونه قد حارتِ الفِطْنُ

ويختتمها بقوله :

والحورُ جاءتك بالبشرى مؤرِّخةً حُلِّيت من حُللِ الأبرارِ يا حَسَنُ

ولم ينشد له الجبرتي شيئا من مرثيته الأخرى ، وكأنه اكتفى بالإشارة إلى مرثيته في المدابغي ، ومع ذلك فقد أنشد له مقطوعة في رثاء نفسه وبكائها قبل موته ، وفيها يقول :

ليت شعري إذا دَنَا يارِفاقي أجلي ثم هَيَّئوا لي تُرابي  
واغْتَدُوا بي إلى مَحَلِّ بِهِ صَحْ جِي جَعَوِي وليس يُرْجَى إِيابي  
هل إذا غَرَبُوا الترابَ أَيْلَقُوا ذرَّةً من عَظْمِي فَيَا مِصَابِي  
وَيَحْ هَذِي الدنيا التي تَحْرَقُ الأَكْدَ بادَ قد مَزَقَتْ بِلِحْدِي إِهَابِي  
وبذاك القَفْرِ اغْتَدَيْتُ رَهِينًا ليس لي من زادٍ ولا من رِكابِ

وهو يذكر ساعة الموت وقد حُفر لحده والمشيعون يحملون نعشه إلى سمثواه ، وما يلبثون أن ينصرفوا عنه إلى غير رجعة أو مآب ، وقد بلى جسده في التراب ولم تبقى من عظامه باقية . ويتساءل هل إذا فتشوا عن ذرة من عظامه أيجدونها أم لا يجدون إلا عدما ، فقد مزقت الدنيا إهابه وعظامه في لحده . وكأنما لا يكفيها ما تصنعه بالإنسان في حياته من إحراق كبده . وإنه ليندب نفسه ويبيكها وقد غدا وحيدا غريبا في قفر موحش ، بل غدا حبيسا لازادا ولا ركاب إلى يوم الحشر ، وفي الحق أنه كان شاعرا مجيدا وهو يعد أنه الشعراء المصريين في زمنه .

## ٦

## شعراء الدعوة الإسماعيلية

مر بنا - في غير هذا الموضع - أن الدولة الفاطمية قامت على أساس العقيدة الإسماعيلية الشيعية وأنه كان لهذه العقيدة طائفة من المبادئ جعلتها متطرفة غاية التطرف ، بل جعلتها تنفصل عن نظرية أهل السنة انفصالا تاما . وقد عملت بقوة على نشر هذه المبادئ منذ أول الأمر متخذة دعاة لها في أقطار العالم الإسلامي ، ودفعت معهم الشعراء إلى تقريرها والعمل على إذاعتها وفي مقدمتهم ابن هانئ وسنخسه بكلمة . وتميم بن المعز أول خلفائها بمصر يرددها في أشعاره لأخيه الخليفة العزيز ، ولا نكاد نتقدم في ديوانه حتى نجده يخاطبه بقوله في إحدى مدائمه (١) :

إنما أنت حُجَّةُ الله لاحتُ في البرايا ووارثُ الأنبياء

والحجة عند الإسماعيلية مصدر الحكم ولا يراجع في حكمه لأن حكمه الحق ، ويقول عنه وارث الأنبياء مشيرا بذلك إلى نظرية الدور التي تزعم أن الأئمة منذ آدم يتوالون في أدوار حتى إذا ختم الأئمة من الأنبياء بالرسول ﷺ بدأت أئمة آل البيت ، وبذلك يصبح العزيز وغيره من الأئمة الفاطميين ورثة للأنبياء ، على نحو ما يزعم تميم . ونمضي في الديوان وفي قراءة مدائمه للعزيز ، وسرعان ما نلتقى بقوله فيه (٢) :

وهو لسان التقي ومقلته . وهو يمينُ العلاء ويُسراها  
صوّر من جوهر النبوة إذ كان الوري طينةً وأمواها  
فن يُطعمه بقرُّ بطاعته ومن عصاه فقد عصى الله

وواضح في البيت الثاني ما كان يردده شعراء الفاطميين من أن الأئمة منهم ومن الأنبياء خلُقوا من جوهر لطيف مصفًى وأن أجسادهم ليست كأجساد البشر المادية الغليظة ، بل هي أجساد نورانية شفاقة . والبيت الثالث يصور بوضوح مبدأ طاعة الإمام في مذهب الإسماعيلية وأنها واجبة بحيث يفوض إليه أتباعه أمورهم دون أى مناقشة أو سؤال ، إذ هي فريضة توجب طاعة الإمام ، وجزء لا يتجزأ من إيمانهم بالدعوة الإسماعيلية . وكانوا يزعمون أن كل إمام من الفاطميين له مرتبة قائم القيامة أو كما يسمونه المهدي المنتظر ، وبذلك يخاطب تميم أخاه قائلاً<sup>(١)</sup> :

أنت المسمى المرجى قبل مولدو      والخامس القائم المذكور في الكتب •  
وهو يشير في أول البيت إلى ما كان يؤمن به الإسماعيليون في الإمامة من فكرة الوصية الشرعية وأن كل إمام تالٍ وصى لسلفه كما قدر الله وقضى ولا راد لقضائه ، ويقول إنه القائم أو المهدي المنتظر وأنه خامس الخلفاء الفاطميين منذ جهرهم بالدعوة في المغرب ، وهم المهدي والقائم والمنصور والمعز ثم العزيز الخامس ، أما من كانوا قبلهم فلم يجهروا بالدعوة بل كانوا مستترين يدعون لها سرا . ويقول تميم أيضا في العزيز<sup>(٢)</sup> :

ما أنت دون ملوك العالمين سوى      روح من القدس في جسم من البشر  
نورٌ لطيفٌ تنهى فيك جوهره      تناهياً جاز حدَّ الشمس والقمر  
معنى من العلة الأولى التي سبقت      خلق الهيولى وبسط الأرض والمدبر  
والبيت الأول يشير فيه تميم بصراحة إلى ما كان يؤمن به الإسماعيليون من أن للإمام نسبتين : نسبة بروحه إلى عالم القدس ، ونسبة بجسده إلى عالم الطبيعة ، أما نسبته إلى عالم القدس فهي الجانب النوراني فيه ، وهو جانب صاف لطيف ، يجعل عقله فوق عقول البشر ، عقلاً ممثلاً للعقل الكلي الفعّال المتصل بالله ، وقد سماه بالعلة الأولى ، وجعله معنى من معانيه . وأوغل الإسماعيليون في هذا التصور حين قالوا إن الإمام مدبر الكون ، وما يقولون إلا زورا وبهتانا . وتميم يقول إن هذا العقل الأول أو العلة الأولى أول ما خلق الله ، فهو سابق لخلق الهيولى أو المادة وخلق الأرض وما عليها . ونمضى في قراءة ديوان تميم فنجده يقول في لإحدى مدائمه للعزيز<sup>(٣)</sup> :

وإن جميع الغيب لله وحده      تبارك من رب ومن صمد وتر  
وما علمت منه الأئمة إنما      رووه عن المختار جدّهم الطهر

(٣) الديوان ص ٢٠٧ . والوتر : الفرد .

(١) الديوان ص ٦٩ .

(٢) الديوان ص ٢٢٤ .

وتتم يجعل الغيب في البيت الأول لله وحده ، وأشرك الرسول ﷺ معه في علمه ، وكأنه يصدر في ذلك عن قوله جلَّ شأنه : ( عالمُ الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ) ولو أنه سكت عند بيان ذلك لما كان في كلامه غلو ، ولكنه لم يسكت بل أضاف أن الأئمة يعلمونه عن طريق الرسول مشيراً إلى ما يزعمه الإسماعيلية من توارث أئمتهم لعلم الغيب عن الرسول وهو تمام في الغلو والبهتان .

وسرى ابن هاني يتأدى مثل تميم في الغلو ، بل لعله يزيد عنه درجة أو درجات ، ونرجع إلى كتب التاريخ والشعر والشعراء فلا نجد أصداء واضحة لها فضلاً عن أن تكون قوية في أشعار من خلفوها في القرنين الرابع والخامس للهجرة إلا ما كان من المؤيد داعي الدعاة لعهد المستنصر ولم يكن مصرياً ، بل كان إيراينياً ، وسنخصه بكلمة بعد ابن هاني ، والشاعر المصري الوحيد الذي ردّد هذا النغم الإسماعيلي الغالي هو ظافر الحداد المتوفى سنة ٥٢٩ هـ وسترجم له بعدهما ، وكان يعاصره على بن محمد الأخفش وهو مغربي وليس مصرياً ، ونرى العباد الأصهباني ينشد له في الخريدة بيتاً في الخليفة الأمر قاتلاً<sup>(١)</sup> :

إلى ذرّوة النور العلائىّ إنه إلى ذرّوة النور الإلهىّ يُنسبُ

وهو ينسب الأمر إلى نور الأنوار ، إلى النور الإلهى الذي يعم الأكوان . ويذكر له العباد قصيدة في الخليفة الحافظ ملاحظاً أن الغلو أفضى به إلى الكفر الصريح ، إذ يقول فيه مستطرداً من وصف الخمر إلى مديحه<sup>(٢)</sup> :

|  |                                |
|--|--------------------------------|
| صِرْفُ جِرْبَالٍ بَرَى نَحْرِمِهَا     | من يرى الحافظَ قَرْدًا صَمَدًا |
| بَشْرٌ فِي الْعَيْنِ إِلَّا أَنَّهُ    | من طريق العقل نورٌ وهُدَى      |
| جَلٌّ أَنْ تُذَكِّرَكَ أَعْيُنُنَا     | وتعالى أن تراه جَنَدًا         |
| فَهُوَ فِي التَّسْبِيحِ زَلْفَى رَاكِع | سمع الله به مَنْ حَمِيدًا      |
| تُذَكِّرُ الْأَفْكَارُ فِيهِ نَبَأٌ    | كاد من لإجلاله أن يُعْبَدًا    |

وهو يسبغ على الحافظ صفات الله من الفردية والصلدية ، وكان دعواتهم يزعمون أن الله

(٢) الخريدة ٢٤١/١ والجربال : الخمر

(١) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢٣٩/١

ينبغي أن يتزّه عن الصفات والأسماء ، وأن ما في القرآن الكريم من أسمائه وصفاته إنما هي صفات العقل الكلي الأول وأسماءه . ومربنا أنفا أنهم كانوا يزعمون أنه ممثل الأئمة ، ومن هنا أضفوا عليهم أسماء وصفاته ، وبالغوا فجعلوهم تجسدا للذات العلية ، بل إن ابن الأخفش يخلى الحافظ من كل تجسد ومادة ، فهو نور خالص لا تدركه الأعين . ويتأدى في هذا الغلو والبهتان الآثم ، حتى يكاد يجعله معبود الإسماعيلي في ركوعه وقيامه . ويلقانا نفس الغلو المقيت عند الشريف ابن أنس الدولة داعي دعائنا ، إذ يُروى أن الخليفة الحافظ صعّد المنبر يوم عيد ، فوقف بإزائه ، وقال يخاطب المصلين <sup>(١)</sup> :

خشوعاً فإن الله هذا مقامه وهمساً فهذا وجهه وكلامه  
وهذا الذي في كل وقت بروزه تحيَّاته من ربنا وسلامه

وهو غلو ما بعده غلو ، بل هو انحراف عن جادة الدين ما بعده انحراف ، وكأنما الحافظ تجسّد للذات الإلهية على نحو ما جسّد المسيحيون الرب في المسيح .

ويلقانا بأخرة من أيام الدولة الفاطمية يحيى بن حسن بن جبر ، وله مجموع <sup>(٢)</sup> في مدائح بني أبي أسامة كتاب الإنشاء في عهد الحافظ والأمر من قبله ، ألفه سنة ٥٢٥ وجعله الشيخ الأميني في الغدير من شعراء المستنصر في سنة ٤٨٧ وهو متأخر عنه بشهادة ترجمة العماد الأصبهاني في الخريدة إذ أنشد له شعرا في ابن <sup>(٣)</sup> رُزبك الوزير الفاطمي من سنة ٥٤٩ حتى سنة ٥٥٦ وله قصيدة في فضائل علي بن أبي طالب وبكاء الحسين أنشدها صاحب «الغدير» وفيها يقول <sup>(٤)</sup> :

يا آل أحمد كم يكابد فيكم كبدى خطوباً للقلوب بواكى  
كيدى بكم مقروحة ومدامعى مسفوحة وجوى قوادى ذاكى  
وإذا ذكرت مصابكم قال الأسى لطفونى اجتنى لذيد كراك <sup>(٥)</sup>  
وابكى قبلا بالطفوف لأجله بكت السماء دماً فحق بكاك

وهو يغلو في مديح علي بن أبي طالب ، وينسب له كثيرا من معجزات غير ثابتة ، كرد الشمس إليه ببابل لقضاء فرض كان سيفوته وقته ، ويزعم أن الريح سُحرت له رُخاء ، ويقول إنه

(٤) شعراء الغدير ٣١٣/٤ وانظر أدب الطغ ٣٢٨/٢ .

(٥) كراك : نومك .

(١) عطل للقرنيزى ٢١٤/٢ .

(٢) الخريدة ١٠٥/٢ .

(٣) الخريدة ٣٣١/٢ وما بعدها

أحيا الموتى إلى غير ذلك من مزاعم غير صحيحة . ونقف عند ثلاثة من أعلام الدعوة الإسماعيلية هم ابن هانيء والمؤيد في الدين وظافر الحداد .

### ابن هانيء<sup>(١)</sup>

هو محمد بن هانيء المهلبى الأندلسى ، ينتمى إلى المهلب بن أبي صفرة الأزدي القائد المشهور في زمن بنى أمية ووالبهم فترة على خراسان ، ويقال إنه من سلالة حفيده يزيد والى المنصور العباسى على إفريقية ، وقيل : بل من سلالة أخيه رَوْح واليها بعده . ويبدو أن أبناءهما ظلوا بعد وفاتها بإفريقية ، وكان من سلالتها أبو الشاعر هانيء ، إذ يقال أنه كان من قرية من قرى المهديّة بتونس وكان شاعرا أديبا نزح إلى الأندلس داعيا - فيما يبدو - للمذهب الإسماعيلي هناك ونزل إشبيلية وفيها وُلد له الشاعر سنة ٣٢٠ أو سنة ٣٢١ على اختلاف الروايات ، وبها نشأ وعكف على الأدب ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فاتصل بصاحب إشبيلية وحظى عنده ، غير أنه كان كثير الانتهاك في اللذات ، واتهم بأنه يعتقد مذهب الفلاسفة ، أولعله اتهم باعتناقه المذهب الإسماعيلي متابعا في ذلك أباه ، وكانتا تعدان تهمتين خطيرتين هناك فنصحه ممدوحه بالغيبة عن البلدة مدة فبارحها إلى إفريقية في السابعة والعشرين من عمره ونزل بجعفر بن على الأندلسى أمير الزاب وأخيه يحيى فأكرماه ومدحها الشاعر مدائح بديعة . بمثل قوله في جعفر :

المشركات النيرأت ثلاثة الشمس والقمر النير وجعفر

وسمع به المعز فطلبه من جعفر وأخيه فلما وصل إليه بالغ في الإنعام عليه وخاصة حين رآه يعتقد المذهب الإسماعيلي ويلجج في مديحه بمبادئ المذهب التى أسلفنا الكلام عنها ، بل لكأنما اتخذ أشعاره أداة لتسجيلها في صور مغالية غلوا شديدا . وكان شاعرا مبدعا فأبدع في مدائحه ، كما أبدع في مديح قواده وخاصة في جوهر الصقلى فاتح مصر ، وله فيه حين يمم بجيشه مصر من القيروان عينية رائعة استهلها بقوله :

لسان الدين ٢١٢/٢ والمغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ٩٧/٢ ومعجم الأدباء ٩٢/١٩ وابن خلكان ٤٢١/٤ وعبر الذهبي ٣٢٨/٢ والشذرات ٤١/٣ وديوانه طبع قديما بالهند .

(١) انظر في ابن هانيء وترجمته وشعره كتاب التكملة لابن الأبار ص ١٠٣ والمطبع للفتح بن خاقان ص ٧٤ والمطرب لابن دحية (الفهرس) والجنوة للحميدى : ٨٩ وبغية المتلمس رقم ٣٠١ ونفع الطيب (الفهرس) والإحاطة

رَأَيْتَ بَعِينِي فَوْقَ مَا كُنْتُ أَسْمَعُ      وَقَدْ رَاعَنِي يَوْمٌ مِنَ الْحَشْرِ أَرْوَعُ  
غَدَاةً كَانَ الْأَفْقَ سُدًّا بِمِثْلِهِ      فَعَادَ غُرُوبُ الشَّمْسِ مِنْ حَيْثُ تَطْلَعُ

وَنُوهُ بِالْجَيْشِ وَعِظْمُهُ وَرِحْلَةَ جَوْهَرِ الْمَظْفَرَةِ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَلَمْ يَلْبَثْ جَوْهَرًا أَنْ أُرْسِلَ إِلَى  
الْمَعْرِزِيَّةِ بِفَتْحِ مِصْرَ سَنَةِ ٣٥٨ فَهَتَفَ ابْنَ هَانِيءٍ فَرِحًا مُسْتَبْشِرًا :

يَقُولُ بَنُو الْعَبَّاسِ هَلْ فُتِحَتْ مِصْرُ      قَتَلَ لَبْنِي الْعَبَّاسِ قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ  
وَمَنْدُ جَاوَزِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ جَوْهَرُ      تَصَاحَبَهُ الْبُشْرَى وَيَقْدُمُهُ النَّصْرُ

وَجَمَعَ الْمَعْرِزِيَّ بِسَبَابِهِ وَتَوَجَّهَ إِلَى مِصْرَ سَنَةِ ٣٦٢ وَشِيعَهُ ابْنُ هَانِيءٍ وَرَجَعَ إِلَى أَسْرَتِهِ بِالْمَغْرِبِ  
لَأَخْذِهَا مَعَهُ وَاللِّحَاقَ بِهِ ، وَتَجَهَّزَ وَتَبِعَهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ اغْتِيلَ فِي بَرْقَةِ لَشَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ ٣٦٢ وَيُقَالُ إِنَّهُ لَمْ  
يَشِيعَ الْمَعْرِزِيَّ كَانَ فِي صَاحِبَتِهِ إِلَى أَنْ دَخَلَ مِصْرَ ثُمَّ عَادَ إِلَى الْمَغْرِبِ لِأَخْذِ عِيَالِهِ ، وَاغْتِيلَ بِبَرْقَةِ كَمَا  
تَذَكَّرْنَا . وَلَمَّا بَلَغَتْ الْمَعْرِزِيَّ وَفَاتَهُ حَزَنٌ عَلَيْهِ وَتَأْسَفٌ قَائِلًا : هَذَا الرَّجُلُ كُنَّا نَرْجُو أَنْ نَفَاخِرَ بِهِ شِعْرَاءَ  
الْمَشْرِقِ فَلَمْ يَقْدِرْ لَنَا ذَلِكَ . وَلَعَلَّهُ لَمْ يَكُنْ يَرِيدُ أَنْ يَفَاخِرَ بِهِ مِنْ حَيْثُ رُوِيَ شِعْرُهُ فَحَسِبَ ، بَلِ  
كَانَ أَيْضًا يَرِيدُ أَنْ يَفَاخِرَ بِهِ مِنْ حَيْثُ اسْتَظْهَرَهُ لِلْعَقِيدَةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَمِبَادِئِهَا الْمَفْرُطَةِ فِي الْغُلُوفِ الْفِرَاطِ  
بَعِيدًا حَتَّى لَتُنْحَرَفَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَجَادَّتْهُ .

وَبِمَجْرَدِ أَنْ نَقْرَأَ فِي دِيْوَانِ ابْنِ هَانِيءٍ نَرَاهُ يَرُدُّ أَنَّ إِمَامَةَ الْفَاطِمِيِّينَ رِبَانِيَّةٌ وَأَنَّهَا فَرِيضَةٌ مَكْتُوبَةٌ  
عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَأَنَّهُمْ يَتَوَالَوْنَ بِتَرْتِيبِ الْإِلَهِيِّ وَأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مِنْ كُلِّ زَلَلٍ وَأَنَّ طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ  
مَنْ أَطَاعَهُمْ اسْتَحَقَّ رِضْوَانَ اللَّهِ وَمَنْ عَصَاهُمْ كَانَ مَالَهُ الْخُسْرَانَ الْمِيئِينَ ، يَقُولُ فِي الْمَعْرِزِيَّ :

إِمَامًا رَأَيْتُ الدِّينَ مَرْتَبِطًا بِهِ      فِطَاعَتُهُ فَوْزٌ وَعِصْيَانُهُ خُسْرٌ

وَهُمْ دَائِمًا مَبْرَأُونَ مِنَ الذَّنُوبِ مَطْهُرُونَ مِنَ الْآثَامِ ، بَلِ هُمْ نُورُ اللَّهِ وَمَشْكَاتُهُ فِي الْعِبَادِ ،  
يُضِيئُونَ لِلنَّاسِ حَيَاتَهُمْ ، وَيَكْشِفُونَ عَنْهُمْ ظِلْمَاتِ الضَّلَالِ ، وَكَأَنَّهُمْ يُتِمُّونَ نُورَ اللَّهِ أَوْ كَأَنَّهُمْ  
يُشَارِكُونَ فِيهِ ، يَقُولُ فِي الْمَعْرِزِيَّ :

وَمَا كُنُّهُ هَذَا النُّورِ نُورٌ جَبِينِي      وَلَكِنَّ نُورَ اللَّهِ فِيهِ مِشَارِكُ

وَيُكْرَرُ هَذِهِ الْفِكْرَةُ كَثِيرًا فِي مِثْلِ قَوْلِهِ مَا دَحَا لِلْمَعْرِزِيَّ :

تَسْعَى بِنُورِ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ      لَتَنْصِيءَ بِرِهَانًا لَهُمْ وَتُلُوْحًا  
وَجَدَ الْعِيَانُ سَنَّاكَ تَحْقِيقًا      وَلَمْ تُحِطِ الظُّنُونُ بِكُنْهِهِ تَصْرِيْحًا

وقد انتقل ابن هانيءُ نقلة واسعة فقد جعل المعز نوراً خالصاً ، وكأنما ليس فيه شيء من المادة ولا من الطبيعة البشرية ، ويصرح بذلك إذ يقول إن العيان والحسُّ إنما يشهدان سناه وضيائه فحسب ، أما هو فكانه الذات العلية لا تحيط الظنون بكنهه وحقيقته ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ويعود إلى مثل هذا الغلو الشائن في مدحه للمعز قائلًا :

أَتَبِعْتُهُ فِكْرِي حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ غَايَاتَهَا بَيْنَ تَصْوِيبٍ وَتَصْعِيدِ  
رَأَيْتُ مَوْضِعَ بَرَهَانٍ يَلُوحُ وَمَا رَأَيْتُ مَوْضِعَ تَكْيِيفٍ وَتَحْدِيدِ

وقد خطا ابن هانيءُ في الغلو هنا خطوة أبعد من سابقتها إذ جعل المعز مخلو من كل صورة للمادة ، بل كأنما جعله الخالق نفسه ، إذ نفى عنه ما ينفيه المعتزلة عن الله من كل تشبيه وتجسيد ، فلا حد له ولا كيف ولا هيئة بأى شكل من الأشكال . وقد بدأوا كما بدأ المسيحيون في مسيحتهم بأن في الإنسان لا هوتا وناسوتا أوروها وجسما . وبالتالي فخلَّصوا - مثل ابن هانيءُ - أمتهم من كل أثر للمادة ، وجعلوهم روحا أونورا خالصا ، بل جعلوهم نفس الله بأسمائه وصفاته ، حتى لئى ابن هانيءُ يقول في المعز :

مَا شَتَّ لَمَا شَاءَتِ الْأَقْدَارُ فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

ويقول فيه أيضا :

نَدَعُوهُ مُنْتَقِمًا عَزِيزًا قَادِرًا غَفَّارًا مُؤَبِّقًا الذَّنُوبِ صَفْحًا

فالمعز الواحد القهَّار المنتقم العزيز القادر الغفار . وعلى هذا النحو زين لهم دعواتهم وشياطينهم أن يتزهوا الله عن أسمائه وصفاته في القرآن الكريم ويسبغوها على أمتهم ، ضلال ما بعده ضلال ومروق لا يدانيه مروق . ومن هذا الباب ما يزعمه ابن هانيءُ في المعز من أنه مقسَّم الأرزاق بين العباد :

رَأَيْتِكَ مَنْ تَرَزُّقُهُ يُرَزِّقُ مِنَ الْوَرَى دِرَاكًا وَمَنْ تَحْرِمُ مِنَ النَّاسِ يُحْرِمُ

فن شاء رزقه ووسَّع رزقه ومن شاء حرمه وضيق عليه وجعل حياته ضنكا ، وكل شيء في الأرض بل في الكون بمشيئته حتى ليقول ابن هانيءُ فيه :

أَدَارَ - كَمَا شَاءَ - الْوَرَى وَتَحَيَّرْتُ عَلَى السَّبْعَةِ الْأَفْلَاكِ أَنْمَلُهُ الْعَشْرُ

فهو لا ييمن على شئون الناس وأحوالهم فحسب ، بل هو أيضا ييمن ويسيطر على الأفلاك التي تصدر عنها الحركة في الكون . وكل ذلك لما لجأ فيه من أن الإمام يمثل العقل الفعال المسيطر على الوجود ، فجعلوه نفس هذا العقل الذي آمن به الفلاسفة ، وجعلوه لذلك العلة الأولى أو علة العلل التي ينبثق عنها الكون ، مما جعل ابن هانئ يقول عن المعز :

هو عِلَّةُ الدنيا وَمَنْ خُلِقَتْ له ولعلَّةٍ ما كانتِ الأشياءُ

وماذا بقي لخالق الكون ؟ وحتى الحياة والموت ملكها ابن هانئ للمعز يوزعها على الناس كيف يشاء إذ يقول مخاطبا للمعز :

لك الدهرُ والأيامُ تَجْرِي صُرُوفُها بما شئتَ من حَتْفٍ ورزقٍ مقسَّمٍ

فهو الذي يحيي ويميت وهو الذي يدبّر الدنيا ويصرفها ، وهو الذي ييمن على الكون وينسقه ، وهو الرازق ومانع الرزق وهو المنتقم العزيز الغفار وهو الواحد القادر القهار . ولا نعجب بعد ذلك كله لابن هانئ إذ يقول :

أرى مدحهُ كالمُدحِ لله إِنَّه قُنُوتٌ وتَسْبِيحٌ يُحِطُّ به الوِزْرُ

ويستضيء ابن هانئ بفكرة الدور عند الإسماعيلية مرارا وما يذهبون إليه من أن الأئمة الفاطميين خلفاء الأنبياء وأنهم ينتظمون معهم منذ آدم في أدوار سبعة ، كل دور يُختمُ بإمام سابع نبي أو من الخلفاء الفاطميين ويسمونه الناطق وهو يمثل عندهم العقل الأول الفعال الذي تحولت إليه قدرة الله وأسمائه وصفاته ، ومن هنا كانت تطلق على ممثله من الأئمة ، وهو الإمام السابع الحامل للنور الرباني الذي يتمثل في كل إمام سابع منته آدم . ولما كان المعز نهاية السبعة الثانية من الأئمة الفاطميين فإنه كما يتمثل فيه نور كل إمام سابع قبله من الأنبياء يتمثل فيه نور نوح :

لو كنتِ نوحاً منذراً في قومهِ مازادهم بدعائِهِ تضليلاً

ويتمثل فيه قيس موسى وشعلته وهداه :

من شُعلة القَبَسِ التي عُرِضَتْ على موسى وقد حارتُ به الظلماءُ

ويتمثل فيه نور المسيح الذي كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتي بإذن الله :

أقسمتُ لولا أن دُعيتَ خليفةً لدُعيتَ من بعد المسيح مَسِيحاً

ويمثل فيه نور الرسول ﷺ المشاهد في كل نور بملكوته السموات : في الشمس والقمر والكواكب والنجوم :

وكأنما أنت النبيُّ محمدٌ وكأنما أنصارك الأنصارُ

ويبلغ به الإلحاد في الدين أن لا يكتفى بحلول أرواح الأنبياء في المعز ، بل يجعل الله يحلّ فيه ، بل لكأنه الله ، حلّ جلاله عن أن يتعلق بذاته العلية شيء من ترهاته إذ يقول في غير استحياء للمعز حين حلّ بقرية رقادة بجوار القيروان :

حَلَّ بِرِقَادَةَ الْمَسِيحُ حَلًّا بِهَا آدَمُ وَنُوحُ  
حَلًّا بِهَا اللَّهُ ذُو الْمَعَالَى وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ

وكان ابن هاني شاعرا فذا بارعا ، وإنا لنأسى له حين سخر ملكاته الشعرية الخصبية التي منحها له ربه في الدعوة للعقيدة الإسماعيلية الضالة . وهو في رأينا بعدُ مستولا إلى حد كبير عن اندفاع الشعراء بعده في هذه الدعوة الخاطئة المنحرفة ، وهو أيضا إلى حد ما يعد مستولا عن ضلال الخليفة الحاكم الفاطمي حين قال بعد جده المعز : أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ، وتبعه في ضلاله ومروقه من تبعه . وكان ابن هانيء يكثر من التشبيهات والاستعارات أحيانا في أشعاره ، ونفذ إلى صور كثيرة مبتكرة كقوله في مطلع قصيدة مدح بها جعفر بن علي الأندلسي :

فَتَقَتْ لَكُمْ رِيحُ الْجِلَادِ بِعَنْبَرٍ وَأَمْدَكُمْ فَلَقْتُ الصَّبَاحَ الْمُسْفِرَ  
وَجَنَيْتُمْ ثَمَرَ الْوَقَائِعِ يَانَعًا بِالنَّصْرِ مِنْ وَرَقِ الْحَدِيدِ الْأَخْضَرِ

وهو يتصور الجلاد أو القتال ربحا عاصفا يفوح منه شذى العنبر والطيب وهو يهب في الصباح المشرق الجميل . ونفذ إلى صورة بديعة إذ تحمّل السيف شجرا مورقا مثمرا وهم يجنون منه النصر المأمول ، والقصيدة تكتظ بأبيات رائعة .

### المؤيد<sup>(١)</sup> في الدين الشيرازي

هو هبة الله بن أبي عمران موسى بن داود ، ولد بشيراز في العقد الأخير من القرن الرابع

إبراهيم نشر د . محمد عبد القادر عبد الناصر ، وانظر معجم الأدباء ١٧٥/٣ وما بعدها في ترجمة أبي العلاء .

(١) انظر في المؤيد ديوانه ومقدمته بتحقيق الدكتور محمد كامل حسين وكتابه : في أدب مصر الفاطمية ص ٥٩ ونشره للسيرة المؤيدية وراجع مختصر المجالس المؤيدية لحاتم بن

المجربى لأبيه موسى ، وكان من دعاة الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وتقدم في الدعوة ، حتى استحق لقب حُجَّة إقليم فارس ، ونشأ ابنه على مثاله في الإخلاص لتلك الدعوة ومازال يسمى له عند الحاكم الخليفة الفاطمي (٣٨٦ - ٤١١ هـ) حتى جعله خليفة له في فارس ، ومنحه نفس اللقب الفاطمي : الحجة ، وهو لقب رفيع من ألقابهم . وكان سيوسا ، فتقرب من نفوس أتباعه وأخلصوا له ، وحاول أن يدخل أباكاليجار الحاكم البويهي في عقيدته ، ويقال إنه عقد له مجلسا كان يلقي فيه كتاب دعائم الإسلام للقاضي النعمان بن محمد الكتامي داعي الدعوة لعهد المعز ، وأيضا فإنه بنى مسجدا بالأهواز ونقش على محرابه بالذهب أسماء الأئمة الفاطميين ، وطلب من أتباعه أن يؤذّنوا فيه بأذان الإسماعيليين : «حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ» . ومن أهم أتباعه حينئذ ناصر خسرو . وتنبه له الخليفة العباسي ببغداد ، فأرسل إليه من يتعقبه ، وخشى على نفسه ، ففرّ موليا وجهه نحو مصر والقاهرة : مركز دعوته ، ووصل إليها سنة ٤٣٧ لمعهد الخليفة الفاطمي المستنصر ، واستقر بها ، وحضر مجالس الدعوة فيها ، وعيّنهُ الوزير اليازوري رئيسا لديوان الإنشاء ، وظل في هذا العمل حتى سنة ٤٥٠ وهو يتصل سرا بدعاة الدولة في إيران والعراق ، وأحسَّ خطر طغرلبيك السلجوقي حين تستقيم له العراق ، فرمى فكر في الاستيلاء على الشام ومصر ، وكانت العلاقة ساءت بين طغرلبيك وأخيه إبراهيم ، وكان قد ولاءه على الموصل ، فأعلن العصيان لأخيه ورحل إلى بلاد الجبل فتبعه بجيشه ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، ورأى المؤيد في الدين الفرصة سانحة فكاتب البساسيري مقدم الأتراك ببغداد . وذهب إليه بنفسه محمّلا بالأموال من المستنصر ، ومحدثنا في سيرته كيف أخذ يستميل أمراء العرب في طريقه إلى بغداد وكيف نفروا معه ، يوازهم أهل الكوفة وواسط وحلب ، وكيف وصل إلى بغداد ، حيث وجد البساسيري قد أبعده الخليفة العباسي القائم بأمر الله إلى «عانة» سنة ٤٥٠ ودعا على المنابر باسم المستنصر بالله ، وظل ذلك نحو عام ، حتى إذا قضى طغرلبيك على عصيان أخيه وثورته قدم إلى بغداد وقضى على البساسيري ودعوته وأعاد الخليفة العباسي إلى عرشه . وفرّ في هذه الأثناء المؤيد إلى القاهرة ، وتولى بها مرتبة داعي الدعوة جزاءً لجهوده وإن كانت قد أخفقت إخفاقاَ ذريعا ، غير أنه حقق للفاطميين حلما طالما رجوا تحقيقه وهو أن يُدعى على منابر بغداد باسمهم ولو إلى حين اقصر . وكتابه «السيرة المؤيدية» يصور فيه حياته من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠ وما اضطرب فيه من أحداث ، وهو لذلك يعد وثيقة تاريخية مهمة .

وأخذ المؤيد في أثناء اضطلاعه بمرتبة داعي الدعوة يلقي دروسه بالجامع الأزهر ، وقد جمعها

في كتابه « المجالس المريدية » وهي تضم ثمانمائة مجلس له ، وقد اختصرها حاتم بن إبراهيم الداعي اليمنى ، وعُني بنشر مختصره وتحقيقه الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر وهو موسوعة كبيرة في العقيدة الفاطمية والتأويل الباطني وما يتصل به من الحكمة التأويلية ، ويشتمل على مناظرات مع مخالفيه وردود عليهم ، لعل من أهمها ردوده على ابن الراوندي ودحض آرائه الإلحادية<sup>(١)</sup> . وله رسائل متبادلة مع أبي العلاء المعري ناظره فيها طويلا في تحريمه على نفسه أكل الحيوان وكل ما يتجه من اللبن والبيض وعسل النحل ، وقد احتفظ بها ياقوت في معجمه . وكان شاعرا كما كان كاتباً نائراً ، وحقق الدكتور محمد كامل حسين ديوانه ونشره بالقاهرة ، وهو في مديح المستنصر الفاطمي وآبائه والدعوة إلى العقيدة الفاطمية وكل ما يتصل بها من التأويل الباطني الموقوف على الأئمة الفاطميين وآبائهم من البيت العلوي ، فهم وحدهم الذين يعرفون أسرار التأويل في القرآن على نحو ما خصَّ الله الخضر<sup>(٢)</sup> الرجل الصالح بأسرار لم يعرفها موسى عليه السلام ، وبالمثل الأئمة يعرفون من الأسرار في تأويل الذكر الحكيم ما لا تعرفه العامة ، وفي ذلك يقول في أولى قصائده بديوانه محتجا بقصة الخضر على جهل العامة بسر الملكوت أو أسرارهِ ووقفها على الأئمة :

يا قومُ سرُّ الملكوت هذا يجعلُ أصنامكمُ جُذاذا  
سرُّ له صاحبُ موسى الخضرًا قال معي لن تستطيع صبرا  
تدبروا القصَّة ماذا يَمَّا من قَصِّها إن لم تكونوا نوَّما

وكان كل إمام خِصُرُ زمنه ، وهو وحده الذي يعرف أسرار الكون وبواطن الآيات القرآنية ، وهي معرفة اختص الله بها الوصي الأول على بن أبي طالب وأبناءه الأئمة . والمؤيد في الدين بذلك يرفع الأئمة درجات على سائر الخلق ، بل هي العقيدة الفاطمية التي تجعلهم نورا خالصا . لا تعلق بهم مادة ولا ما يشبه المادة على نحو ما رأينا عند ابن هاني ، وقد مضى المؤيد وراءه يردّد تقديسه للأئمة وأنهم فوق الطبيعة البشرية ، ومضى يسبغ عليهم كثيرا من الصفات الربانية ، حتى يجعلهم القائمين على الجنة والنار فيدخلون الجنة بأتباعهم ويزجؤون بأعداءهم في الجحيم ، يقول :

يقسمون الجنان والنارَ فيهم فلكلِّ نصيبه الموجبُ

كبرت كلمة بل كلماتٍ تخرج من فمه ، ويتأدى في هذا الضلال فيجعل زيارة الإمام أداء

(١) انظر في ذلك كتاب تاريخ الإلحاد في الاسلام لعبد

الرحمن بدوي (نشر مكتبة النهضة) ص ٧٥-٨٨.

لفريضة الحج يقطع إليها أصحابه القلوات للتبرك به ، فهو القبلة والغاية التي ليس بعدها غاية ، يقول :

هَلَمْ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي بِسَاحَتِهَا سَكَّانُهَا أَمِينُوا الْمَوْتَ  
إِلَى عِلْمِ الْإِيمَانِ وَالْقِبْلَةَ الَّتِي عَلَيْهَا بِلَامِسْكِ دَلَّلْتَ وَوَجَّهْتَا  
وَمِيزَانِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي بِهِ تُؤْفَى الثَّوَابَ الْجَزَلَ إِنْ أَنْتَ وَفِيْنَا  
فَالْمُسْتَنْصِرُ وَأَمْثَالَهُ مِيزَانُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ ، بطاعتهم ومقدارها يكون الثواب وبعضياتهم  
ومقداره يكون العذاب ، وما يزال المؤيد يردد مثل هذا الضلال والبهتان في ديوانه .

ومما رده المؤيد طويلا نظرية الدور التي تصور إيمان الإسماعيلية في أئمتهم وأنهم مثل العقل  
الفعال الأول في عالم الطبيعة ، وهم لذلك يعدون مدبرين للكون ، وأيضا فإن أسماء الله الحسنى  
تُسَبِّحُ عَلَيْهِمْ ، وقد رَتَّبُوا فِي أَدْوَارٍ تَشْتَرِكُ مَعَهُمْ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ مِنْذَ آدَمَ ، وكل منهم يمثل من  
سبقوه في هذه الأدوار من الأئمة والرسل ، وفي ذلك يقول في المستنصر وآله :

|  |  |
|--|--|
| سَلَامٌ عَلَى الْعَتْرَةِ الطَّاهِرَةِ | وَأَهْلًا بِأَنْوَارِهَا الزَّاهِرَةِ    |
| سَلَامٌ بَدِئُ عَلَى آدَمِ             | أَبِي الْخَلْقِ بَادِيهِ وَالْحَاضِرِ    |
| سَلَامٌ عَلَى مَنْ بَطُوفَانِهِ        | أَدِيرْتُ عَلَى مَنْ بَقِيَ الدَّائِرَةِ |
| سَلَامٌ عَلَى مَنْ أَنَاهُ السَّلَامُ  | غَدَاةً أَحَقَّتْ بِهِ النَّائِرَةُ (١)  |
| سَلَامٌ عَلَى قَاهِرٍ بِالْعَصَا       | عُصَاةً فِرَاعِنَةً جَائِرَةَ            |
| سَلَامٌ عَلَى الرُّوحِ عَيْسَى الَّذِي | بِمَبْعَثِهِ شَرَّفَتْ نَاصِرَهُ (٢)     |
| سَلَامٌ عَلَى الْمُصْطَفَى أَحْمَدِ    | وَلِيِّ الشَّفَاعَةِ فِي الْآخِرَةِ      |
| سَلَامٌ عَلَى الْمُرْتَضَى حَيْدِرِ    | وَأَبْنَائِهِ الْأَنْجَمِ الزَّاهِرِ     |
| سَلَامٌ عَلَيْكَ فَمَحْصُولِهِمْ       | لَدَيْكَ أَيَا صَاحِبِ الْقَاهِرَةِ      |
| بِنَفْسِي مُسْتَنْصِرًا بِالْإِلَهِ    | جُنُودَ السَّمَاءِ لَهُ نَاصِرَةَ        |
| شَهِدْتُ بِأَنَّكَ وَجْهٌ الْإِلَهُ    | وَجُوهُ الْمَوَالِي بِهِ نَاصِرَةَ       |

وواضح أن المؤيد بدأ سلامه بآل البيت ، ثم تلاهم بآدم ونوح صاحب الطوفان وإبراهيم  
الذي ألقاه النمرود في النار فجعلها الله عليه بردا وسلاما وموسى صاحب العصا التي استحالت

(١) النائرة : نائرة الحرب : شرها

(٢) ناصرة : بلدة المسيح .

ثعبانا في مجلس فرعون فإذا هي تلقف كل ما جاء به سحرته من سحر رهيب ، وعيسى الروح الأمين الذي شرفت به مدينته الناصرة ، ومحمد المصطفى الشفيق المشفق في الآخرة ، وعلى أو حيدر المرتضى وأبنائه الأئمة الأنجم الزاهرة . ويقول إن المستنصر لديه محصول كل هؤلاء الرسل وكل الأئمة فهو الرسول وهو عيسى وهو موسى وهو إبراهيم الخليل وهو نوح وهو آدم وهو علي والأئمة جميعا قبله إماما إماما . وهو بذلك وارث الأئمة والرسل ، وارث علومهم ومعجزاتهم وخوارقهم . ولا يكتفي المؤيد بكل ذلك ، إذ يقول إن الملائكة جنده الذي ينصره في معاركه ، وليس ذلك فحسب ، فإنه يتقدم خطوة بل خطوات إذ لا يُسبغ عليه صفات الله وحدها ، بل يجعل ذاته نفس ذات الله إذ يقول إنه وجه الإله ، وكأنه اتحد معه في ذاته تعالى الله عن هذا البهتان الآثم علوا كبيرا ، وهو ليس بهتانا فحسب ، بل هو ضلال مبين .

### ظافر<sup>(١)</sup> الحداد

هو ظافر بن القاسم الإسكندري ، من سلالة قبيلة جُدام اليمنية ، كان أبوه حدادا بالإسكندرية ، ولد له في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، ويبدو أنه أرسله في صباه إلى الكُتاب ، ورأى من ذكائه ما جعله يدفعه إلى حلقات العلماء ، وهو مع ذلك يعاونه في حرفته . وأكبَّ الصبى على حفظ الشعر وكانت له ملكة خصبة ، سَوَتْ منه شاعرا كان يلفت أقرانه ، كما لفت كثيرين من شعراء الإسكندرية ، وكانت بها آنذاك نهضة شعرية واسعة ، جعلت شعراءها يتكاثرون ، كما جعلت العماد الأصمباني في الخريدة يترجم لكثيرين منهم . ولعل شيئا من العجب يداخلنا إذ نجد بين الشعراء هناك شاعرا حدادا ، ولكن إذا عرفنا أن الثقافة العربية الإسلامية كانت طوال الحقب السالفة ثقافة شعبية عامة إذ كانت تُلقى بالمساجد ، ولكل شخص الحق في أن يجلس إلى حلقة الشيخ الذي يريد الاستماع إليه ، وكانت للشعراء في المساجد حلقات ، مما أتاح لشباب العامة المشاركة في الشعر وفي العلوم العربية والإسلامية ، وتكثر هذه الظاهرة بين شعراء الدولة المملوكية ، إذ نجد بينهم جزارا وحماسياً ووراقاً وخياطاً وكحالاً . وقد

والنجم الزاهرة ٣٧٦/٥ وفي أدب مصر الفاطمية ،  
للدكتور محمد كامل حسين ص ١٩٠ وظافر الحداد لحسين  
نصار وديوانه بتحقيقه (نشر مكتبة مصر) .

(١) انظر في ترجمة ظافر وشعره الخريدة (قسم شعراء  
مصر) ١/٢ وما بعدها ومعجم الأدباء ٢٧/١٢ ووفيات  
الأعيان لابن خلكان ٥٤٠/٢ والرسالة المصرية لأبي الصلت  
أمية في الجزء الأول من نوازل المخطوطات لعبد السلام هرون

تفتحت موهبة الشعر عند ظافر مبكرة وتهايت له فرصة أن يتألق اسمه بين شعراء مدينته ، فإن ابن ظفر واليها من قبل الخليفة الفاطمي تصادف أن ورم خنصره وبه خاتم ، فخشى عاقبة الأمر وطلب حداذاً كى يكسر حلقتة ، فجاءوه بظافر ، فلما كسر الحلقة أنشده بديها :

قَصَّرَ فِي أوصافك العالَمُ واعترف النائرُ والناظمُ  
من يكنو البَحْرُ له راحةً يضيق عن خنصره الخاتمُ

فاستحسن ذلك منه ابن ظفر ووهبه الحلقة وكانت من ذهب . وكان بين يديه غزال مستأنس قد ربيض أو طوى قوائمه ، وجعل رأسه في حجره ، فقال له أحد الحاضرين : إن كنت ذا خاطر سمح فأنشدنا أسرع من لمح البصر في هذا الغزال المستأنس ، فقال تَوًّا :

عجبتُ لجرأة هذا الغزالِ وأمرٍ نخطى له واعتَمَدُ  
وأعجبُ به إذ بدًا جاثمًا فكيف اطمأنَّ وأنت الأسدُ

فزاد ابن ظفر وجلساؤه في الاستحسان . وكانت هناك شبكة مسدولة على باب المجلس تمنع الذباب من دخوله ، فتأملها ظافر وقال بديها :

رأيتُ ببابك هذا المنيفِ شيبًا كما فأدركني بعضُ شكِّ  
وفكَّرتُ فيما رأى خاطري فقلتُ البحارُ مكانُ الشبِّكِ

وكانت هذه الحادثة سببا في اشتهاظ ظافر بمدينته ، وتهاداه أعيانها وقضاتها مثل ابن أبي حديد قاضيا وله فيه مدائح طريفة .

وطمح ظافر إلى لقاء الأفضل بن بدر الجمالي وزير الفاطميين ، وكان قد حجر على الخليفة الأمر وأصبح له الملك والسلطان كله ، فاتخذ الأسباب إلى لقائه ، ولم يكذب يستمع منه إلى مديحه حتى أكبره وقلَّعه على أقرانه ، وسكن ظافر بجواره في الفسطاط ، وأخذ يدبِّج فيه مدائح طنانة ، وهو يعتقد عليه من نواله مع راتب قدره له ، وإلى ذلك يشير قائلا :

وهذا الجنابُ الأفضليُّ يُكنى ذرى ظلَّهُ إني إذنُ لسعيدُ

وقلَّرتُ لهذه السعادة أن ينحسر ظلها عن ظافر إذ دبر الخليفة الأمر للأفضل من قتله غيلة سنة ٥١٥ للهجرة ، وولى الوزارة بعد الأفضل المأمون البطائحي ، ولظافر فيه مدحتان يشكو فيهما من عوزه وضيق ذات يده ، ومع ذلك يشكره على ما أولاه من نعم . ويبدو أن ما نعم به في زمن الأفضل

من أموال انقطع بعده إلا قليلا ، وكان أبواب المأمون لم تكن مفتوحة له إلا من حين بعيد إلى حين ، ولا يلبث الخليفة الأمر في سنة ٥١٩ أن يصادر المأمون ثم يقتله . حيثئذ نجد ظافرا يفكر في تقديم مدائحه للخليفة ، ولم يكن شيعيا فضلا عن أن يكون إسماعيليا طوال أيامه الماضية ، فقد رأيناه حين نزل الفسطاط يقصر مدائحه على الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ، وكان سنيًا ، وكان المأمون البطاحي من رجاله ، ولعله لذلك لم يكن شيعيا أو بعبارة أدق لم يكن غالبا في تشيعه . على كل حال ليس في مديح ظافر له وللأفضل ما يدل على صلته بالتشيع الإسماعيلي حتى هذا التاريخ . ولكن المأمون قُتل ، وكأنما دُفع دفعا لكي يمدح الخليفة الأمر ، فأكتبُ على ديوان ابن هاني الأندلسي يدرسه ليمثل معاني العقيدة الإسماعيلية ، ويرى نهجه في عرضها بمدحها ليحتديه ، يقول في إحدى مدائحه للأمر مصرحا بذلك دون أي مواربة :

أَجَادَ ابْنُ هَانِي فِي الْمَعْرِ مَدَائِحًا هَدَاهُ إِلَيْهَا ذَلِكَ الْفَضْلُ وَالْمَجْدُ  
وَقَدْ جَادَ مَدْحِي فَيْكَ لَمَّا رَأَيْتُ مَا رَأَى فَاسْتَوَى الْمُدْحَانُ وَالْإِبْنُ وَالْجَدُّ

ونراه في نفس هذه القصيدة يردد ما رده ابن هاني من أن طاعة الخليفة أو الإمام الفاطمي فريضة واجبة ، على كل إسماعيلي أن يعتنقها وأن يؤدي واجباتها ، يقول :

فَمَنْ عَاشَرَ أَحْيَاهُ نَدَاهُ وَمَنْ يَمَتُّ عَلَى حُبِّهِ طَوْعًا فَسَكُنْهُ الْخُلْدُ  
أَطَاعَتُهُ أَسْرَارُ الْقُلُوبِ دِيَانَةٌ فَمَا لَامِرِي لَمْ يَعْتَقِدْ حُبَّهُ رُشْدُ  
فَطَاعَتُهُ فَرَضٌ وَخِدْمَتُهُ تَقَى وَنُصْرَتُهُ دِينٌ وَمَرْضَاتُهُ جَدُّ

فطاعة الأمر وأمثاله من الأئمة فرض مكتوب ، فمن أطاعه فاز بالرضوان ومن عصاه كانت عاقبته الخسران ، وإن مرضاته لجدُّ أو حظ أكبر ، ولا إسلام إلا بطاعته وموالاته ومحبته . والأمر مثله مثل الأئمة قبله ، يرتفع فوق حدود الطبيعة البشرية ، إذ هو مثل العقل الفعال الأول الرابط بين الله والوجود ، وهو بذلك النور الإلهي ، نور السموات والأرض . ولن يفهم ظافر كل هذه الفلسفة الإسماعيلية المنحرفة التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضوع ، وهو لذلك سيلتقط دون تعمق من ابن هاني فكرة النور التي يرددها في مديحه للمعز قائلا في الأمر :

إِمَامٌ تَبَدَّى لِلوَرَى مِنْ جَبِينِهِ ضِيَاءٌ بِهِ تُشْفَى بِصَائِرُهَا الرُّمْدُ  
وَنُورُكَ مَا يَهْدِي الصَّبَاحُ لِنَظِيرٍ وَلَوْلَاهُ ضَلَّ النَّاسُ وَامْتَنَعَ الْقَصْدُ

وكان ظافرا ينقل ذلك عن ابن هانيء دون أن يدرك مقصده تماما وأن ممدوحه نور السموات والأرض ، وبالمثل نقل عنه نظرية الأدوار التي تزعم أن الأنبياء والأئمة الفاطميين إنما هم مظاهر دورية للعقل الفعال وحلقاته البادئة بآدم والتي ينتظم فيها نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ثم علي وأبناؤه وأحفاده من الأئمة الطاهرين ، ويلم ظافر بظاهر من ذلك كله قائلا في مدحة أخرى للآمر :

أنت الذي بعثَ الإلهُ لنا بهِ آباءَهُ فتمثَّلوا بِمُثولِهِ  
هذا ضياءُ اللهِ والمعنى الذي تتفاضلُ العلماءُ في تعليلِهِ  
مازال يَنقُله الإلهُ مُطَهَّرًا عن ظَهْرٍ مثلِ ذبيحِهِ وخليلِهِ  
وتوارثته الأنبياءُ وسادةُ الـ خلفاءِ حتى حان وقتُ حُلُولِهِ

فآباء الأمر من الأئمة والأنبياء قد تمثلوا فيه بميراثهم الرباني من النور الذي يعم أطباق السموات والأرض ، ومازال الله ينقل هذا النور من نبي إلى نبي ومن إمام إلى إمام من مثل إبراهيم وإسماعيل وذبيحه ومثل علي وجعفر الصادق إلى أن حلَّ في الأمر المطهر المحضوف بالعبادة الإلهية والتفحة النورانية ، ومن ثمَّ كان ابن هانيء يقول في المعز إنه جوهر الملكوت وأنه العقل المدبر للكون . ولم يكن ظافر يتغلغل في العقيدة الإسماعيلية هذا التغلغل ، بل كان يقف كما رأينا عند ظاهر من أقوال ابن هانيء في المعز ويردها في الأمر . وهو معنى ما قلناه في غير هذا الموضع من أن المصريين انصرفوا عن العقيدة الإسماعيلية ولم يحاول أحد منهم أن يكون داعية لهم على شاكلة المؤيد وابن هانيء . ولعل مما يؤكد ذلك عند ظافر أننا نجده يضيف إلى قيثارة مديحه للآمر وترين لا نجدهما عند ابن هانيء ، وهما ميراث الأمر وآبائه للرسول ﷺ ، مما جعله يتغنى بمعجزاته الخارقة من المعراج وغير المعراج ، ثم الاتساع بخياله في بيان سحق جيوش الأمر للصليبيين ، وكانوا قد استولوا في عهده على بيت المقدس وكثير من ثغور الشام وبلدانه ، والخليفة ووزيره الأفضل والمأمون يغطون في غفلة لا تدانها غفلة ، وكان ظافرا يحاول إيقاظ الأمر ودفعه للذب عن حرُمات الإسلام ودياره أمام حملة الصليب ، وهو في ذلك إنما كان لسانا للمصريين يعبر عن فزعهم للغزو الصليبي وما يأملون من القضاء على حملة الصليب قضاء مبرما . وهذا الوتر في مدائح ظافر للآمر ووتر الميراث النبوي أتاحا لمدحته له أن لا تقف عند المبادئ الإسماعيلية في مدح الأئمة الفاطميين إلا لاما وإلا عند هذا الظاهر السطحي منها الذي صوّناه .

ودليل ثان على أن هذه المبادئ لم تتعمق نفس ظافر أنه حين قُتل الأمر سنة ٥٢٤ وتولى ابن عمه الخليفة الحافظ واتخذ أبا علي بن الأفضل الجمالي السني وزيراً له ، حيث نجد ظافراً يمدحه مدحا يخلو خلواً تاماً من هذا الغلو الإسماعيلي الذي رأيناه في مدائح الأمر . وكان من المبادئ الإسماعيلية أن يتولى الخلافة ابن الخليفة وتصادف أن الأمر لم يترك ابناً ، وقيل بل ترك طفلاً رضيعاً اسمه الطيب ، وتعصبت له جماعة سميت الطيبية وتعصبت جماعة أخرى سريعاً للحافظ عبد المجيد ابن عم الأمر ، وأخذت له البيعة واستولى على مقاليد الخلافة . وظل من ذلك جَمْرٌ محتفٍ وراء الرماد ، مما جعل ظافراً يدافع في بعض مديحه للحافظ عنه وعن حقه في الخلافة قائلًا :

ورثَ ابنُ عمِّ محمدٍ من بعده حقَّ الخلافةِ مُنصفاً في نقلها  
وورثتَ أنتَ عن ابنِ عمِّك حقَّها فجرى قياسُ خلافةٍ في شكلها

الحافظ ورث الخلافة عن الأمر كما ورثها عن الرسول ﷺ ابن عمه علي بن أبي طالب رأس الأئمة . ولا يلبح ظافر فيما كان يعتقده الإسماعيليون في أئمتهم من معان قدسية ومن رفعهم عن حدود الطبيعة البشرية المادية ، فهو إنما يمدح الحافظ بمراته للرسول مما يجعله يطيل في بيان معجزاته . ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن كل ما استبقاه من العقيدة الفاطمية في مديحه قوله .

يأحجَّةَ الله التي أبدتْ لنا بِكَمالِها الآياتِ والبُرهانِ

وكأنما حدث انقلاب في مديح ظافر للحافظ بالقياس إلى مديحه للأمر ، وليس له في الحافظ إلا قصيدتان مع أنه عاش في مدة خلافته خمس سنوات ، إذ توفي سنة ٥٢٩ . وأكبر الظن أن فيما قدمت ما يدل على أن ظافراً لم يكن إسماعيلياً بالمعنى الدقيق ، وإنما هي فترة محدودة نحو أربع سنوات اضطر فيها لمديح الأمر على طريقة القوم ، مما جعله يعود إلى ديوان ابن هانئٍ يستظهر ما فيه أو بعضاً مما فيه ، ولم يَعدْ استظهاره قشوراً ، ردّها حيناً في مديح الأمر ثم كفّ عنها في مديح الحافظ إلا ما سقط عفا .

وبدون ريب كان ظافر شاعراً بارعاً وفيه يقول العباد الأصهباني في ترجمته له بكتابه الخريدة :  
« ظافر ، بحظه من الفضل ظافر ، يدل نظمه على أن أدبه وافر ، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر .. حدّاد لو أنصِفُ لسمي جوهرياً ، وكان باعتزائه إلى نظم اللآلي حرياً ، أهدي بروي شعره

الرؤى للقلوب الصادية<sup>(١)</sup> رِيًّا ، فياله ناظما فصيحاً مفلحاً جريًّا<sup>(٢)</sup> . وحقا شعره غاية في السلاسة والعدوية ، وهي ظاهرة عامة تلاحظ دائما في شعر المصريين ، كما يلاحظ عندهم على الأقل حتى زمن ظافر أنهم لا يتصنعون للبديع ومحسناته المعقدة ، قد تأتي عندهم وقد يستخدمونها أحيانا ولكن في خفة وإشاقة . ودائما تلقانا عند ظافر العدوية والرقعة على نحو ما نرى في مثل قوله متغزلا :

ياساكني مصرٍ أما مِنْ رَحْمَةٍ فيكم لمن ذهب الغرامُ بِلِيهِ  
أمن المروءة أن يزورَ بلادكم مثلى ويرجعَ مُعدماً من قلبهِ

وهما بيتان في منتهى السهولة ، وكان ينفذ كثيرا إلى صور طريفة مبتكرة ، وقد يبعد فيها حتى لتصبح كأنها رؤى حاملة على شاكلة قوله :

لئن أنكرتْ مقلتاها دَمَهُ فنهْ على وَجنتِها سِمْه  
وها في أناملها بَعْضُهُ دَعْتُهُ خِصَاباً لِكى تُوهَمَهُ

وواضح أنه كان عند ظافر حظ من الخيال المغرق في الوهم لإغراقا بروع قارئه ، وسنشد له قطعة من غزله في الفصل التالي ، ونكتفي بصورة واحدة من صورته الحاملة العجيبة لندل على هذه المقدرة البارعة ، وهي صورة وصف فيها الهرمين وأبا الهول وصفا لم يقع لشاعر من قبله ولا من بعده ، يقول :

تأملُ بنيةَ الهرمين وانظُرْ وبينهما أبو الهولِ العجيبُ  
كعمارتَيْنِ على رحلي لمحبوبين بينهما رقيبُ  
وماءُ النيلِ تحتهما دموعُ وصوتُ الريحِ عندهما نجيبُ

وهي صورة مركزة لشهد واسع كبير استحال إلى هذه الرؤيا الخاملة ، فالهرمان كأنهما عاريتان أو هودجان هرميا الشكل لمحبوبين بينهما أبو الهول وكأنه رقيب ، يشهدهما ساعة الوداع ، وهما يذرفان الدمع مدرارا ، ويهمن تحت أقدامهما نهرا فياضا كبيرا هو نهر النيل ، والريح من حولها تنتحب وتئن أنينا لا ينقطع . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ظافرا كان أبرع شاعر عرفته مصر زمن الدولة الفاطمية .

(٢) جريا : جريتا .

(١) الصادية : الظائمة .

## الفصل الرابع

### طوائف من الشعراء

١

#### شعراء الغزل

لعل موضوعاً لم يشغل شعراء مصر طوال هذا العصر كما شغلهم الغزل ، الذى يصور عاطفة الحب الإنسانية الخالدة ، والذى ظلما تغنى به الشعراء مصورين حبيهم للمرأة وهيامهم بها ، وما شعروا به من سعادة حين أقبلت عليهم ولو بعض الإقبال وما شعروا به من شقاء حين كانت تعرض عنهم ولو بعض الإعراض . أما حين كانت تقبل فكأنها تناولهم شراباً هنيئاً بل رحيقاً صافياً لا يدانيه رحيق ، وأما حين كانت تعرض فكأنها تلقى عليهم شواظاً من نار يلذع قلوبهم وأفئدتهم ، ويصور الشاعر كيف يتصل ذلك كله بقلبه وبنفسه وبأحاسيسه ومشاعره ، يصور ما يجد فى حبه من لذة أو ألم ومن نعيم أو جحيم . ولا يكاد يوجد محب إلا وهو يخشى القطيعة والفراق إلى غير مآب ، فإن حلت الفراق فإنه يشكو ويضرع ويستعطف . لقد حُرِّم حتى من الإشارة واللحمة من بعيد ، ولكن الأمل فى اللقاء يظل يراوده مها تجرُّع من الآلام واحتمل من ألوان العذاب ، ويبدىء ويبعد فى تصوير عذابه وآلامه لعل صاحبه تعطف عليه وتعيد ما كان بينها وبينه من وصال . وحقا قد تلقانا فى تضاعيف ذلك صور من الحب الجسدى الذى تمليه الغرائز ، وهو خليق بالازدراء ، إنما الذى يملؤنا إعجاباً هو الحب العذرى العفيف الطاهر الذى يشغف قلوب أصحابه ويملؤهم بوجد ليس بعده وجد ، وجد لا ينجلون منه ولا يستخزون ، لأنه لا يتعلق بمأرب مادية ، فحسبهم الوصال واللقاء ، وهنىء لهم عذابهم بهذا الحب الذى ليس بعده عذاب ، إنه حب قوى حار ، حب نقي صاف ، حب يمتلئ إحساناً . وسواء استحال هذا الحب نارا من اليأس أو نورا من الأمل فإن تعقبه عند الشعراء المصريين وعرضه فيه كثير مما يلدِّ النصس ويمتعا ، وخاصة ما نقلوا إليه من غزل وجدانى صادق فى وصف حبيهم وما انطوت عليه قلوبهم من مشاعر الصباية ، مما ستره واضحا عند ابن النيبه والبهاء زهير .

ويخيل إلى الإنسان كأنما أوقد الحب جذوة من النار لا تنطفئ أبداً في قلوب الشعراء ، فهم دائماً يَصْلَوْنَها وَيَصْلَوْنَ معها البعد والفراق ، وحتى مع القرب يَصْلَوْنَ عذاب الحب ، دون إشفاق أو عطف أو رحمة ، على نحو ما يقول ابن هاني<sup>(١)</sup> .

فَتَكَاتُ طَرْفَةَ أُمِ سَيْفٍ أَيْلِكُ      وَكُوسُ خَمِرٍ أُمِ مَرَّاشُ فَيْكِ  
أَجْلَادُ مُرْهَفَةٍ وَفَتْكُ مَحَاجِرِ      مَا أَنْتِ رَاحِنَةٌ وَلَا أَهْلُوكِ  
يَا بِنْتَ ذِي السَّيْفِ الطَّوِيلِ نِجَادُهُ      أَكْذَا يَجُوزُ الْحَكْمُ فِي نَادِيكِ  
عَيْتَالِكُ أُمِ مَغْنَاكِ مَوْعِدُنَا وَفِي      وَادِي الْكِرَى أَلْقَاكِ أُمِ وَادِيكِ  
قَدْ كَانَ يَدْعُونِي خِيَاثَةً طَارِقًا      حَتَّى خَعَانِي بِالْقَنَا دَاعِيكِ  
مَنْعُولِكُ مِنْ سَيْتَةِ الْكِرَى وَسَرَّوًا فَلَوْ      عَثَرُوا بِطَيْفِ طَارِقِ ظَنُّوكِ

وهو لا يدري كيف يتقى فتكات طرف صاحبه التي تشبه أتم الشبه فتكات سيف أيها ، وإنها جميعا لتصبيه في الصميم دون أى رافة ، وإنه ليائس بأسا شديدا من رافة أيها وأهلها ، فلا يأمل في رؤية لها أو لقاء ، ويتعلل بلقائهما ورؤيتها في الكرى والأحلام ، ويألم ألما شديدا ، فقد منعوا طيفها من الإلام بعينيه في الحلم ، وإنه ليبست خائفا منهم حذرا ، أن تسفر له عن وجهها الباسم حتى في النوم ، فما أشقاه وما أشد عذابه ، إذ لا يجنى من حبه لها سوى الألم والحمران واللوعة . ولم يكن تميم بن المعز الفاطمي أقل منه لوعة وأسى حين صور وداعه لصاحبه ، وهي لا تقل عنه أسى والتباعا ، يقول<sup>(٢)</sup> :

مَازَالَ فِي الْحَبِّ شَوْقٌ مَوْجِعٌ وَأَسَى      مَبْرَحٌ يَقْطَعُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبِدَا  
حَقٌّ رَمَى الْبَيْنُ بِالتَّفْرِيقِ أَلْفَتْنَا      وَحَلٌّ مِنْ وَصَلْهَا مَا كَانَ قَدْ عَقِدَا  
فَأَوْ مِنْ لَوْعَةٍ مَشْبُوبَةٍ وَجَوَى      فِي الصَّدْرِ لَمْ يُبْقِ لِي صَبْرًا وَلَا جَلْدَا  
قَالَتْ وَعَبَّرْتَهَا مَخْلُوطَةً بِدَمٍ      تَجْرِي وَأَنْفَاسُهَا مَرْفُوعَةٌ صُعْدَا  
لَا تَطْلُبِ النُّطْقَ مِنْي بِالسَّلَامِ لَمَّا      أَبْقَى فِرَاقُكَ لِي رُوحًا وَلَا جَسَدَا

وهو يصور أساه في حبه وكيف بفتت منه الأحشاء والكبد ، وإذا البين ينبع بالفراق ، فيلتاع لوعة تستمر بين جوانحه ، ويتألك ويفقد الصبر والجلد ، بينما هي تذرف الدمع مدرارا مرسله

(١) ديوان ابن هاني (طبعة زاهد على) ص ٥٣١ . (٢) ديوان تميم ص ١٣١ .

أنفاسا حارة ملتبية ، وتلطّف له قائلة لا تطلب منى النطق بالسلام ، فلم أعد أستطيع الكلام ، وتشعر كأن الفراق يكلفها من الجهد فوق ما يطيق جسدها وروحها ، بل لكأنما لم يعد لها جسد ولا روح . ويعود إلى تصوير لوعة هذا الفراق لمحيوياته في الديوان مرارا بمثل قوله (١) :

قالتُ وقد نالها للبين أوجعُهُ والبينُ صعبٌ على الأحباب موقِعُهُ  
اجعلْ يديك على قلبي فقد ضَعُفَتْ قُوَاهُ عن حَمَلِ ما فيه وأضلَعُهُ  
كأنني يومٌ ولتُ - حَسْرَةً وأسى - غريقٌ بِخَيْرٍ يرى الشاطي وَيُمنَعُهُ  
فقد ارتفع نبضها وعلت ضرباته ، وتحس كأنما لم يعد في قلبها فضلٌ من قوة تستطيع به أن تحتمل صدمة الفراق المروعة ، وتتمم يبادلها نفس الشاعر ونفس الآلام والأوجاع ، وإنه لينوب حسرة وأسى لفراقها ، ولا يستطيع أن ينقذها وينقذ نفسه من هذه المحنة ، وكأنه غريق تلعب به الأمواج وهو يرى الشاطي. ولا يستطيع وصولا إليه . وجلى الرغم من أنه كان أميرا وكان ابن الخليفة المعز تلقانا عنده مشاعر الحب الحقيقية التي ترتفع عن أدران الحس ، ومن طريف قوله في بعض غزله (٢) :

قلتُ اسْمَحِي لِي بتقبيلِ أعيش به قالت : وأيُّ محبٍّ قَبْلُ القمرَا  
ومرَبْنَا في ترجمة ظافر الحداد أن له غزلا رقيقا يطير عن الفم بخفة وأنشدنا له قطعتين ، واشتهر بقصيدة له ذالية أو اختار أن تكون ذالية ليدل على قدرته في النظم على هذه القافية التي يظن أنها تستصعب على الشعراء ، وهي قصيدة غزلية ، تجرى على هذا اللفظ (٣) :

لو كان بالصبر الجميل مَلَاذُهُ ماسَحٌ وابلٌ دمعهُ ورَدَاذُهُ  
من كان يرغبُ في السلامة فليكن أبداً من الخلدِ المراضِ عيَاذُهُ  
لا تخدعَنَّك بالفستور فإنه نَظَرٌ يضرُّ بِقَلْبِكَ استِلْدَاذُهُ  
يا أيها الرِّشَا الذي مِنْ طَرْفِهِ سهمٌ إلى حَبِّ القلوبِ نفاذُهُ  
دُرٌّ يلوح بِفَيْكٍ مَنْ نَظَامُهُ حَمْرٌ يجولُ عليه مَنْ نَبَاذُهُ (٤)  
وقناةُ ذاك القُدِّ كيف تقومتُ وسينانُ ذاك اللُّحْظِ ما فولَاذُهُ  
رَفَقًا بجسمك لا يذوبُ وإنني أخشى بَأْنَ يَجْفُو عليه لآذُهُ (٥)

(٤) النباذ : صانع النيبذ

(٥) اللاذ : ثوب من حرير

(١) الديوان ص ٢٦٠ .

(٢) الديوان ص ١٥٢ .

(٣) ابن خلكان ٥٤٠/٢ والنجوم الزاهرة ٣٧٦/٥ .

والقصيدة على هذه الشاكلة تسيل رقة وعلوبة ، حتى مع قوافيها الذالية ، وتملاً صورة النفس بهجة ، فهذا الرشأ أو الظبي الجميل الغرير يرسل سهامه وهي سهام حقيقية تنفذ إلى حبّ القلوب وسويدائها ، ويخال ذرّاً ملء فيها ويتساءل من نظمه في هيته البديعة ، أما ما حوله من رُضاب أوريق فخمير حقيقية ويتساءل من النباذ الذى صنع هذه الخمر العجيبة . ويشد به العجب وهو ينظر إلى قامه صاحبه واستوائها الرائع ، ويتساءل أى فولاذ صلب أتخذ منه سنان لحظها المرهف القاطع النافذ إلى الأفتدة . وإن جسد صاحبه ليذوب رقة ما بعدها رقة ونعومة ما تماثلها نعومه ، حتى ليظن كأن اللاذ أو الحرير الذى تلبسه ينبو عليه لشدة لطفه ورهاقه . وله يتغزل موجهاً الخطاب إلى معاتبه في حبه وتهالكة فيه <sup>(١)</sup> :

عتتَ ولكنى لم أع وأين ملامك من مسمعى  
وما قدر عتبك حتى يزيل غراما تمكّن من أضلعي  
وما دام لومك إلا وأنت تقدر أن جاني معي  
مضى كى يودّع سُكَّانَهُ غداة الفراق فلم يرجع  
فؤادى فى غير ما أنت فيه فخذ فى ملامته أودع

والقطعة توج برقة الحسّ ولطفه إلى أبعد حدود الرقة واللفظ اللين يشتر بها أهل القاهرة من قديم ، وليس فيها لفظة غريبة بل كأنه تعمد أن يختار ألفاظها أقرب ما تكون إلى لغة الحياة الفاهرية اليومية . ولا نبعد إذا قلنا إنها تعد هي ونظيراتها عند ظافر مقدمة للغزل الوجداني الصافي الذى سنعرضه عند ابن التيبه ومعاصريه . وهو يقول لصاحبه فى القطعة بمنتهى الرقة والتلطف كفى عتاباً فقد سلبت محبوبتى عقلى وسمعى ، وملك حبها جنانى ، بل لقد مضى وراءها منذ الفراق ولم يعد . فأنا لا أعقل ولا أسمع شيئاً مما تقول ، ويتلطف إليه غاية اللطف حين يترك له الخيرة فى أن يستمر فى لومه أويكف عنه ، وعادة المحبين أن يعنفوا بلائيمهم فى الحب ، وظافر لا يعنف بل يتلطف فى ود ارقيق .

وربما كان من تنمة الرقة فى غزل الشعراء المعاصرين لظافر أن نجد ابن قادوس الدياتى يتغزل بحارية سوداء ، محاولاً بكل ما استطاع أن يرد عنها ما يُظنُّ من قبح السواد ، يقول <sup>(٢)</sup> :

(٢) الخريدة ١/٢٣٢ .

(١) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦/٢

وعاذلو مُحْتَفل مجتهد في عَـذَلِ  
 يلومنى في ظَبِيبة مخلوقة من كُحْلِ  
 إن السَّوَادَ عِلَّةُ من نورِ هدى المُقَلِّ  
 والحَجَرُ الأسودُ لم يُخْلَقْ لغير القُبَلِ  
 والقَارُ - مذ كان - وعاء السَّلْسَبِيلِ السَّلْسَلِ

فقد دافع عن تلك الجارية دفاعا بديعا . إذ جعلها مخلوقة من الكحل الذى تزدان به الحسان في عيونها ، بل جعلها مخلوقة من سواد العيون الذى تبصر به من حولها النور المبتق في الكون ، وإنه ليذكر الحجر الأسود وإكباب الحجاج على تقيله ، كما يذكر القار أو القطران واتخاذة في دعم الجدر لآنية الماء العذب . وهو ظرف بالغ من ابن قادوس ، ظرف نعرفه دائما للشعراء المصريين . وكانوا يستنون هذا الظرف بكثير من الصور الخيالية المبتكرة ، وقد يبالغون في وصف هيامهم مبالغة بعيدة على نحو ما نقرأ للمهذب بن الزبير<sup>(١)</sup> :

إذا أحرقت في القلب موضع سُكناها فن ذا الذى من بعدُ يُكرم مَثَواها  
 وما الدمعُ يوم البين إلا لآلئى على الرِّسْمِ في رسم الديارِ نثرناها<sup>(٢)</sup>  
 وما أطلعَ الزَّهرَ الربيعُ وإنما رأى الدَّمْعُ أجيادَ الغُصونِ فحلَّأها  
 ولما وقفنا للوداع وترجمتُ لعينى عما في الضمائر عيناها  
 بدتُ صورةً في هيكلِ فلو أننا ندينُ بأديان النَّصارى عبدناها

وهو يشكو من النار التى دلعتها صاحبته في فؤاده ، ويقول لها إنه مسكنك فإذا لم تبق عليه فأين يكون مثواك ، استعطاف واسترحام ، فقلبه ملئُ بها فتونا بل نارا موقدة ، وقد أزمعت البين والفراق وهو ينثر دموعه نثرا . ويمتد به الخيال فيظن أن الندى العالق بغصون الأشجار دموعه ، ويعلن سحرها له وشغفه بها ، وكيف يعبث جالها بفؤاده ، حتى لتبدو له وكأنها صورة في هيكل تقدّم لها القرايين والتراتيل ، ويوشك أن يعبدها كما يعبد النصارى المسيح . ونحس عند المهذب نقلة لشعر الغزل المصرى ، إذ يستحيل وجدًا وصباية ورقة وخفة من مثل قوله<sup>(٣)</sup> :

(٣) الخريدة ١/٢١٦ .

(١) معجم الأدياء ٦١/٩ .

(٢) على الرسم : على العادة .

هُمْ نُصِبَ عَيْنِي أَنْجِدُوا أَوْ غَارُوا وَمَتَّى قَوَادِي أَنْصَفُوا أَوْ جَارُوا (١)  
 فَارَقْتَهُمْ وَكَأَنَّهُمْ فِي نَاطِرِي مِمَّا تَمَثَّلُوا لِي الْأَفْكَارِ  
 تَرَكَوا الْمَنَازِلَ وَالْأَدْيَارَ فَاهْلَهُمْ إِلَّا الْقُلُوبَ مَنَازِلُ وَدِيَارُ  
 وَاسْتَوَطَنُوا الْبَيْدَ الْقِفَارَ فَاصْبَحَتْ مِنْهُمْ دِيَارُ الْإِنْسِ وَهِيَ قِفَارُ  
 فَلَنْ غَدَتْ مِصْرٌ فَلَائَةَ بَعْدَهُمْ فَلَهُمْ بِأَجْوِازِ الْفَلَائِ أَمْصَارُ (٢)  
 أَوْ جَاوَرُوا نَجْدًا فَمَلَى مِنْ بَعْدِهِمْ جَارَانُ : فَيُضِضُ الدَّمْعَ وَالْتِدَّكَارَ  
 وَالذَّهْرَ لَيْلٌ مَدَّ تَنَاعَتْ دَارَهُمْ عَنِّي وَهَلْ بَعْدَ النَّهَارِ نَهَارُ

إنه لن ينساهم أبدا مهما أنجدوا أو غاروا ومهما شرقوا أو غربوا ، ومهما أنصفوه أو ظلموه ، لقد فارقه وصورهم ماثلة في خياله لا تبرحه ، وحقا تركوا المنازل والديار ، ولكنهم تركوا وراءهم مترا عظيما ، لا تتراible صورهم ، إنه قلبه الملتاع المطوى على حبيهم . وينظر إلى الديار والمنازل حوله بمصر فيظنها فلوات ومفازات ، فقد غادروها فقرا يبايا خرابا إلى ديار كانت خالية موحشة فأصبحت بهم أمصارا ، وليس من جاره في قفره الحزب إلا جاران : تذكارهم ودموعه المنهلة التي لا ترقأ أبدا ، وقد أظلمت الدنيا في عينيه . حتى غدا النهار مظلما داجيا ، فقد أخذوا معهم كل شيء حتى النهار وضيائه . وله أبيات غزلية خفيفة من مثل قوله (٣) :

لَمْ يَهْنُ قَطُّ عَلَيْنَا بَعْدُكُمْ مِثْلَمَا هَانَ عَلَيْكُمْ بُعْدُنَا  
 لَمْ تَبَالُوا إِذْ رَحَلْتُمْ غُدُوَّةَ أَيِّ شَيْءٍ صَنَعَ الذَّهْرُ بِنَا  
 وَقَوْلُهُ (٤) :

أَحِبَّابِنَا مَابَالَكُمْ فِينَا مِنَ الْأَعْدَاءِ أَعْدَى  
 وَحَيَاةٍ وَوَدُكُمُ وَتُرْبَةٍ وَصَلَكُم مَأَخَذْتُ عَهْدًا

والرقة واضحة في الأبيات ، وواضح في البيت الأخير الظرف المصري ، فالوصل مات وقبر والمهذب يحلف - كما يحلف المصريون حتى اليوم بأعزائهم وتُرْبِهِمْ أو قبورهم - بترية الوصل العزيز وما سكب عليه من الدموع الحارة .

(٣) الخريدة ١/٢١٩ .

(٤) الخريدة ١/٢١٤ .

(١) أنجدوا : دخلوا نجدا . غاروا : دخلوا الغور أي

تامة .

(٢) أجواز : جمع جوز : وسط .

ويلقانا في أوائل أيام صلاح الدين الأيوبي على بن الدباغ الإسكندري ، ومن بديع ماله في الغزل أبياته المشهورة<sup>(١)</sup> :

يَارِبُّ إِنْ قَدَّرْتَهُ لِمُقْبَلٍ غَيْرِي فَلِلْمَسَاكِ أَوْلَ الْأَكْثُوسِ  
وَلَنْ قَضَيْتَ لَنَا بِصَحْبَةِ ثَالِثٍ يَارِبُّ فَلَيْكَ شَمْعَةٌ فِي الْمَجْلِسِ  
وَإِذَا قَضَيْتَ لَنَا بَعِينَ مَرَاقِبٍ فِي السَّرِّ فَلَتَكُ مِنْ عَيُونِ التَّرْجِسِ

وابن الدباغ يصور في أبياته أنانية المحب وكأنه يجب نفسه كما يجب محبوبته ، بل هو يرى فيها ظلال نفسه ، ولذلك يتمنى لها ما يتمنى لنفسه من أن لا يقبل شفتيها سوى المسواك للوضوء والأكثوس أو الأكواب للشراب ، وأن لا يصحبها ثالث إلا أن يكون شمعة تضيء المجلس ، وإذا كان لابد من عين لرقيب فلتكن من عيون الترجس .

وكان القاضي الفاضل وزير صلاح الدين يمنح إلى استخدام المحسنات البديعية وإلى صور مختلفة من التكلف ، وكان قد نشأ بمصر وتنفس في حياتها الأدبية ولعله لذلك يؤثر من حين إلى حين السهولة في غزله وأن يمتح من المعين المصري العذب كقوله<sup>(٢)</sup> :

يَا طَرْفُ مَالِكٍ سَاهِدًا فِي رَاقِدٍ يَاقَلْبُ مَالِكٍ رَاغِبًا فِي زَاهِدٍ  
مَنْ يَشْتَرِي عَمْرِي الرِّخِيصَ جَمِيعَةً مِنْ وَصْلِكَ الْغَالِي بِيَوْمٍ وَاحِدٍ  
عَاتِبْتُهُ فَتَوَرَّدَتْ وَجَنَاتُهُ وَالْقَلْبُ صَخْرٌ لَا يَلِينُ لِقَاصِدٍ

والقطعة مكتظة بالطباق ولكن لا تكاد نحسه ، لأن الألفاظ متداخلة متواصلة ، وهو يصور فيها انصراف المحبوبة عنه ، بينما هو واليه بها واجد ، وعاتبها فتضرجت وجناتها بالحنجل ، غير أنها ظلت منصرفه عنه لا تلين له ولا تعطف عليه ، ومن غزله البديع قوله<sup>(٣)</sup> :

تُرَى لِحْنِي أَوْ حَنِينِ الْحَائِمِ جَرَتْ - فَحَكَتْ دَمْعِي - دَمْعُ الْغَائِمِ  
وَهَلْ مِنْ ضُلُوعٍ أَوْ رُبُوعٍ تَرَحَّلُوا فَكَلُّ أَرَاهَا دَارَسَاتِ الْمَعَالِمِ  
لَقَدْ ضَعَفَتْ رِيحَ الصَّبَا فَوصلَتْهَا فَمَنَى لَامِنَهَا هَبُوبُ السَّهَائِمِ

وهو ترداد طريف ، فهو لا يدري أبحاكي السحاب في قطره المنهل حنينه المتنازع أو هو يبلي

(٢) الخزانة ص ٢٤٧ .

(٣) الخزانة ص ٢٤٦ .

(١) الخريدة ١٣٣/٢ وخزانة الأدب للحموي (طبع

مطبعة بولاق) ص ٢٤٦ .

الحمام وما ترسل من حنين شجي ، وهو لا يدري أيضا أى منازل رحل عنها أحبابه أهى الربوع أو الضلوع . فكلاهما أطلال دارسة ، ويبلغ به الخيال أن يظن أنفاسه الحارة امتزجت بنسيم الصبا ، فأحالته سمائم لافحة .

ولتلقى بخذن القاضي الفاضل ورفيقه : ابن سناء الملك أكبر شعراء مصر فى العصر ، وشعره يمجج بوجود لا حدود له ولا ضفاف ، وجد يشقى به تارة وينعم به تارة ، إذ يذوق لذة الحب المؤلمة والحلوة ، حتى إذا اختلس قبة أو ضمة كاد يطير من الفرح طيرانا ، مها تأبّت عليه محبوبته ومها صدت عنه ونفرت منه ، بل إنه ليلقى ذلك كله بحنان لا يمانله حنان ، يقول (١) :

لا أجازى حبيبَ قلبى بجُرْمِهِ      أنا أحنى عليه من قلبِ أمّة  
ضنّ عنى بريقه فتحيّد      ت إلى أن سرّفته عند لثمه  
وإلى اليوم من ثلاثين يوما      لم تزل من فمى حلاوة طعمه  
إن قلبى لصدرة ورقادى      ملك أجفانه وروحي لجسمه  
يكسر الجفن بالفتور ومالى      عمل عند كسرو غير ضمه

والأبيات تمجج بالعدوية والظرف ، فكله حنان لصاحبه ، حتى ليفوق حنوه عليها حنو الأم . وما زال بها حتى اقتطف منها خلسة قبة ، ومرت الأيام ولا تزال حلاوتها فى فمه ، ويشعر كأن كل شىء فيه لها : قلبه وروحه ، وملك أجفانها رقاده وسهده . وتصنّع فى البيت الأخير لاستخدام مصطلحى الكسر والضم عند النحاة ، ومع ذلك أوقعها فى موضعها ، فلا نحس فيها تصنعا ولا ما يشبه التصنع ، ومن قوله (٢) :

نعم المشوق وأنعم المشوق      فالعيش كالخضر الرقيق رقيق  
خضر أدير عليه معصم قبلة      فكان تقبلى له تغنيق  
ونعم لقد طرق الحبيب وماله      إلا حدود العاشقين طريق  
فرشوا الحدود طريقه فكأنما      زفراهم لقدمه تطريق (٣)  
واقى وصبح جبينه متنفس      وأنى وجيد رقيب مخنوق

(٣) التطريق : تسهيل الطريق للمارة .

(١) الديوان ص ٦٦٤ .

(٢) الديوان ص ٥٠٢ .

وهي لحظة من لحظات الحب الحلوة صورها ابن سناء الملك تصويرا بديعا ، فقد سعد العاشق الوطان بما أنعم عليه العشوق من لقاء ، وأحس بابتهاج ما بعده ابتهاج ، فقد زارته المحبوبة الفاتنة التي شغفت قلوب كثيرين ، وإنهم ليفرشون طريقها بخلودهم لتطأ عليها ، مرسلين زفراتهم ، وكأنما يمهّدون بها الطريق لها ، وقد وافت بجيئتها المشرق لإشراق الصباح ، وغصّ الرقيب بريقه حتى كأنه مخنوق . ومن طرائف غزله قوله <sup>(١)</sup> :

سَعِدْتُ بِيَدِ خَدِّهِ بُرْجُ عَقْرَبِ فَكَذَّبَ عِنْدِي قَوْلَ كُلِّ مَنْجَمِ  
وَأَقْسَمُ مَا وَجَّهُ الصَّبَاحَ إِذَا بَدَأَ بِأَوْضَعِ مَنِي حُجَّةً عِنْدَ لَوْعِي  
وَلَا سَيًّا لَمَّا مَرَرْتُ بِمَنْزِلِهِ كَفَضَلَةِ صَبْرٍ فِي قَوَادِ مَثِيمِ  
وَمَا بَانَ لِي إِلَّا بَعُودُ أَرَاكَةِ تَعَلَّقَ فِي أَطْرَافِهِ ضَوْؤُ مَسِيمِ <sup>(٢)</sup>  
وَقَفْتُ بِهِ أَعْتَاضُ عَنْ لَثْمِ مَبْسَمِ شَهِيٌّ لِقَابِي لَثْمٌ آثَارِ مَسِيمِ <sup>(٣)</sup>  
بَكَيْتُ بِكَلَّتِي مُقَلَّتِي كَأَنِّي مَتَمُّ مَا قَدَ فَاتَ عَيْنِي مُتَمِّمِ

وهو يقول إنه سعد برؤية هذا البدر وما سال على خده من عقرب الشعر ، مما جعله يكذب قول المنجمين أن برج العقرب في السماء إذ رآه على خد صاحبه الفاتنة . وإن فتنها وما تدلع في قلبه لأنصع برهان له عند لائمه ، أنصع من الصباح في وضوحه وضياؤه . وقد مرّ بمنزلها الذي لا يكاد يبين ، كما لا يكاد يبين الصبر في قواد العاشق الوطان ، وبان له بفضل عود أراك كانت تستاك به صاحبه قبل الوضوء ، إذ تعلق بأطرافه ضوء من مبسمها ، واهتدى إليها وإلى منزلها على لأنه فوق مبهوتا مشدوها ولا أمل له في قبلة يقتطفها أو ما يشبه القبلة ، وأقبل يلثم آثار منسمها أو طريقها باكيا بدموع غزار ، باكيا بمقلتيه وكأنه يتمم بكاء متمم بن نويرة على أخيه مالك وقد اشتهر بكثرة بكائه عليه ، وكان أعور فما زال يبكيه حتى دمعت عينه العوراء . وعلى هذا النحو لا يزال ابن سناء الملك يتقلب بين لحظات حب مؤلمة مبكية وأخرى مفرحة مبهجة . وكان يلنوب لطفًا ورقة مما جعله يتغزل - كما أشرنا في ترجمته ، ببعض من فقدن بصرهن ، وهو يحتال في غزله بين على إيراد ألوان من حسن التعليل ترفع عنهن هذا الضيم الذي نزل بهن ، من مثل قوله <sup>(٤)</sup> :

فَتَسْتَحِي مَكْضُوفَةً نَاطِرَاهَا كَتَبَا لِي مِنَ الْجِرَاحِ أَمَانَا

(١) الديوان ص ٦٩٨ .

(٢) المنسم : طرف خف البعير ويريد راحلة الجبيلة .

(٣) الديوان ص ٨٤٦ .

(٤) ميسم : نقر

فَهِيَ لَمْ تَسَلِّ الْفُتُورَ حُسَامًا      لا ولم تحمل اللِّحَاطَ سِنَانًا<sup>(١)</sup>  
 وَهِيَ بِكَرِّ الْعَيْنَيْنِ مُحْصَنَةٌ الْأَجْدُ      فان ما افتَضَّ مِيلُهَا<sup>(٢)</sup> الْأَجْفَانَا  
 قَصَّرَتْ عَشَقَهَا عَلَى فَمٍ تَعَدُّ      شَقُّ فَلَانًا إِذْ لَمْ تُعَايِنِ فَلَانَا  
 لا ولم تبصر الرجال فتختا      ر على مُلْتَحِيهِمُ الْمُرْدَانَا  
 عَمِيَتْ مِنْ هَوَايَ وَارْتَحَلَ الْإِزْدُ      سَانُ مِنْ عَيْنِهَا وَأَخْلَى الْمَكَانَا  
 عَلِمْتُ غَيْرِي عَلَيْهَا فَخَافْتُ      أَنْ تَسْمَى غَيْرِي لَهَا إِنْسَانَا

وهو يعلن إليها فنتته بحسنا ، وهي فتنة مزوجة بغير قليل من الرضا والغبطة ، إذ أمن عندها أن تصمى سهام عينها قلبه ، أو يصحبه حسام الفتور وسنان اللحاط ، ويصفها ببيكاراة العينين وطهارة الأجفان ، إنها عذراء البصر ، لم يمس ميل الكحل عينها ، وإنما لتفرده بالحب إذ لم تر ولم تبصر سواه ، فهو دنياها غير مفكرة في شيب وشبان ، إذ لا تعرف الفرق بين أصحاب اللحي والمردان . وتبلغ به الرحمة والإشفاق والعطف عليها أن يقول إنها فقدت بصرها بسبب حبه ، وبذلك خلا مكان إنسان العين منها ، وكأنما عرفت غيرته عليها حتى من إنسان عينها ، فنحته عنها ، حتى لا يكون لها إنسان سواه . وكل ذلك لطف من ابن سناء الملك ورقة ورحمة وعطف وحنان ما بعده حنان . وهو بحق يعد في الذروة من شعراء العرب النابيين الذين يمتازون بدقة الحس ورهافة الشعور وروعة المعاني والتصاوير .

ويتفجر هذا الغزل الوجداني البديع على كل لسان بعد ابن سناء الملك ، وكان من أهم الأسباب في ازدهاره الشعر الصوفي الذي ذاع وشاع منذ زمن الدولة الأيوبية ، فإن الصوفية من أمثال ابن الكيزاني وابن الفارض أذاعوا فيه وجدنا ملتناعا وكان لذلك أصدأوه الواسعة في غزل الشعراء ، فانفكوا من أصداف البديع ومن الأخيلة الجامدة المتحجرة ، وأخذوا يصورون حبيهم وما يذوقون فيه من الوجد والصبابة وما يثير في قلوبهم من المشاعر والعواطف وما يصطلون فيه من العذاب والآلام : الآلام الفراق وعذاب الإعراض ، من ذلك قول الحسن بن شاور في بعض غزله<sup>(٣)</sup> :

قَلَدْتُ يَوْمَ الْبَيْنِ جَيْدَ مَوْدَعِي      دُرَّرًا نَظَمْتُ عَقُودَهَا مِنْ أَدْمَعِي

(١) اللِّحَاط : مؤخر العين ممايل الصدغ .

(٢) الميل : المكحل أو المرود وهو ما يوضع به الكحل في

العين .

(٣) فوات الوفيات ١/٢٣٦ .

وحدا بهم حادى المطى فلم أجد  
 يانفسُ قد فارقت يوم فراقهم  
 هيئات يرجعُ شملنا بالأجرع  
 بحياتكم جودوا على تكراً  
 فلقد عدمتُ الصبر يوم فراقكم  
 يانا زحين فهل لكم من عودة  
 لو لم تعودوا للديار وترجعوا  
 قلبى ولا جلدى ولا صبرى معى  
 طيبَ الحياة فى البقا لا تطمعى  
 ويعود أجبابى الألى كانوا معى<sup>(١)</sup>  
 فعسى خيالكم يلم بمضجعى  
 وتضمرت نار الأسى فى أضلعى  
 نرح التفرق ما بقى من مدمعى  
 هلكت من شوقى وقرط توجعى

وابن شاور فى أول الأبيات يبكى يوم البين والفراق شاعرا بأنه يعجز عن احتمال هذه المحنة التى خانته فيها صبره وتجلده ، بل التى توشك أن تقضى عليه ، لقد تفرق شملهم ، ولم يعد هناك أمل فى لقاء بالأجرع : لقاء أحبابه ومهوى قواده . ويستحلفهم وقد حرموه طلعة وجوههم فى اليقظة أن لا يحرموه طيفهم فى المنام ، لعله يخفف من نار الحب المضطربة فى صدره . ويتمنى عودة لهم أورجعة ترد إليه روحه وترد عنه أوجاعه من الحب الملتب وأوصابه .  
 وولتقى بتقى الدين<sup>(٢)</sup> السروجى المولود سنة ٦٢٧ والمتوفى بالقاهرة سنة ٦٩٣ ويقول عنه أبو حيان : كان مع زهده وعفته مغرماً بحب الجمال وكان يغنى بشعره الغرامى المغنون لرقه انسجامه وعلوية ألفاظه ، ومن غزله :

أتعم بوصلك لى فهذا وقته  
 يا من شغلتُ بجه عن غيره  
 بالله إن سألوك عنى قل لهم  
 أوقيل مشتاق إليك فقل لهم  
 يا حسن طيف من خيالك زارنى  
 فحضى وفى قلبى عليه حسرة  
 يكفى من الهجران ما قد ذقته  
 وسلوت كل الناس حين عشقته  
 عبدي ومليك يدي وما أعتقته  
 أدري بذنا وأنا الذى شوقته  
 من عظم وجدى فيه ما حققته  
 لو كان يمكننى الرقاد لحقته

وهو يتضرع لمحجوبه أن ينعم عليه بالوصل بعد طول الهجران والعذاب فى حبه وانشغاله الدائب بعشقه ، ويقول متذلاً له إنه عبده وملك يده ولن ترد إليه حريته ، ويشكو لواعج الشوق ،

٤٦٦/١ وخزانة الأدب للمحوى (طبع بولاق) ص

(١) الأجرع : الأرض ذات الحزونة المشاكلة للرمل .

(٢) انظر فى ترجمة السروجى وشعره فوات الوفيات

ويأسى لنفسه إذ رأى طيفه في المنام ولم يكبد يحققه أو يتحقق منه حتى قرَّ النوم من عينه ، وهو لا يتمنى لقاء كعادة المحبين ، ليأسه منه ، وإنما يتمنى لو عادت له رؤيته في منامه ، أو لو طال حلمه وطال رقاذه قليلا حتى يشفى منه غلَّة حبه . ويعلق ابن حجة الحموى في خزائنه على هذه الأبيات بقوله : « ما نفتات السحر إذا صدقت عزائمها بأوصل إلى القلوب من هذه النفتات ولا لسلاف نغرا انبائب مع حلاوة التقبيل عذوبة هذه الرشفات » . ومن غزله :

قصَدَ الحِمَى وَأَتَاهُ يَجْهَدُ فِي السَّرَى      حَتَّى بَدَتْ أَعْلَامُهُ وَقِبَابُهُ  
وَرَأَى لِلَّيْلِ العَامِرِيَّةَ مَتَزَلًا      بِالْجُودِ يُعْرِفُ وَالنَّدَى أَصْحَابُهُ  
قَدْ أَشْرَعَتْ بِيضُ الصَّوَارِمِ وَالْقَنَا      مِنْ حَوْلِهِ فَهَوِ الْمَنِيحُ حِجَابُهُ  
وَعَلَى حِمَاهُ جِلَالَةٌ مِنْ أَهْلِهِ      فَلِذَلِكَ طَارِقَةُ العَيُونِ تَهَابُهُ  
كَمْ قَلْبَتْ فِيهِ القُلُوبُ عَلَى الثَّرَى      شَوْقًا إِلَيْهِ وَقُبِّلَتْ أَعْتَابُهُ

وهو يرمز لصاحبه بليلى العامرية وكأنه مجنونها وعاشقها قيس الذى ملأ اليد بأغانى حبه ، ويقول إنه ما زال يدأب فى السرى أو السير الليلالى المتصلة حتى بدت أعلام حبيها وقبابه أو خيامه ، وباللهول لقد وجد من دون رؤيتها السيوف والرماح مشرعة وشعر بجلال وهيبه لا يماثلها هيبه وجلال ، وهناك رأى كثرة من العشاق يضمون الثرى إلى صدورهم مقبلين الأعتاب آملين أملا يائسا فى أن يرفع الحجاب . وكان يعاصر السروجى فخر الدين بن لقمان كاتب بيبرس وقلاوون ، وله غزليات رقيقة مثل قوله (١) :

كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَإِنِّى بِكَ مَغْرَمٌ      رَاضٍ بِمَا فَعَلَ الهَوَى الْمُتَحَكِّمُ  
وَلَنْ كَسَمْتُ عَنِ الوَشَاةِ صَبَابِى      بِكَ فَالْجَوَانِحُ بِالهَوَى تَسْكَمُ  
أَشْتَاقُ مِنْ أَهْوَى وَأَعْلَمُ أَنِّى      أَشْتَاقُ مَنْ هُوَ فِي الفُؤَادِ مَحْمِىمٌ  
يَا مَنْ يَصِدُّ عَنِ الحُبِّ تَدْلُلًا      وَإِذَا بَكَى وَجَدًا غَدَا يَتَبَسَّمُ  
أَسَكَّنْتُكَ القَلْبَ الذِّى أَحْرَقْتَهُ      فَحَذَارٍ مِنْ نَارٍ بِهِ تَنْصَرَّمُ

وهو راض من صاحبه بكل ما تصنع من إقبال وإعراض ، وإنه ليخفى حبه عن الوشاة بل

(١) المنبل الصافي لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب

يكتمه بينما جوائمه تنطق به وتعلمه ، ويعجب أن يشناق صاحبه ويود لقاءها ، بينما هي مخيمة في قواده لا تبرحه . وإنما لتمعن في التدلل ، وحتى إن بكى وجدا سرعان ما تبسم . ويحدرها من هذا الدلال وما يطوى فيه من اللعب . فقد أسكنها قلبه الذى أحرقتة ، ولا تزال نار الحب فيه مضطربة مدلعة . ولابن نباتة غزل وجداني كثير من مثل قوله <sup>(١)</sup> :

أهلاً بطيفٍ على الجرعاء مُختَلَسٍ      والفجرُ في سَحَرٍ كالثغرِ في لَعَسٍ <sup>(٢)</sup>  
والنجمُ في الأفقِ الغربي مُنحدرٌ      كشُعَلَةٍ سقطتْ من كَفِّ مُقْتَبَسٍ  
ياحبُّدا زمنُ الجرعاءِ من زمنٍ      كلُّ الليالي فيه ليلةُ العرسِ  
وحبُّدا العيشُ معَ هيفاءِ لوبرزتْ      للبدْرِ لم يَزُهُ أو للفضنِ لم يَمِسِ  
محروسةٌ بشعاعِ البيضِ ملتَمَعاً      ونورُ ذاكِ المحيَّا آيةُ الحرسِ  
يَسَعِي وَرَاً لَحَظَهَا قلبِي ومن عَجِبِ      سَعَى الطَّرِيدَةِ في آثارِ مفرسِ  
ليت العنولَ على مرأى محاسِنِها      لو كان ثَنَى عَمَى عَيْنِهِ بِالْحَرَسِ

وهو يصور فرحته بالطيف الذي رآه في حلمه اختلاسا لأواخر الليل والفجر يتلجج في الآفاق المظلمة تلبج الثغر في لعس الشفاه ، والنجم يسقط في الأفق الغربي منحدرًا سقوط شعلة من كف مقتبس . وتعاوده ذكرى ليالي الجرعاء المفرحة فرح ليالي العرس ، وهو يعيش رانيا إلى حبيته التي لورآها البدر لغض من زهوه ولو رآها الفصن لغض من ميسانه وخيلائه . ويقول إنها ممثلة محروسة بسيوف باترة ، وآية حراستها هذا النور الذى يُشِعُّه وجهها في الآفاق ، ويعجب أن يسعى قلبه وراء لحظها سعى طريدة الصيد وراء مفرسها ، ويقول إن ضياءها أحال عيني العنول عشوائين ، فهو لا يبصرها ، ويتمنى لو ثنى ذلك بخرسه وانعقاد لسانه ، فلا يتحدث عنها أى حديث من قريب أو من بعيد .

ومن كانوا يكثرون من الغزل التواجي <sup>(٣)</sup> شمس الدين محمد بن حسن صاحب كتاب حلبة الكيت في الحمر والتلماء وآدابهم ، وبعد أكبر شعراء القرن التاسع الهجرى ، توفى سنة ٨٥٩

(١) النجوم الزاهرة ٩٦/١١ .  
(٢) الجرعاء : الأجرع أو الحزن . اللعس : سواد الشفة .  
(٣) انظر في التواجي وشعره الضوء اللامع للسماوى

٢٢٩/٧ والنجوم الزاهرة ١٧٧/١٦ والبدر الطالع للشوكافى  
١٥٦/١ وصفحات لم تنشر من بدائع الزهور (طبع دار المعارف) ص ٢٧ . وبدار الكتب المصرية مخطوطة من ديوانه . ومن كبه « عقود اللآل في الموشحات والأزجال » .

للهجرة ، ومن غزله قوله :

خليلي هذا ربيع عزة فاسعيأ إليه وإن سالت به أدمعي طوفان  
فجفني جفا طيب المنام وجفنتها جفاني ، فيالله من شرك الأجنان

ونمضي في قراءة مثل هذا الغزل الوجداني الملتاع حتى إذا أظلم لواء العثمانيين البلاد أخذ يفيض  
معينه في القلوب والنفوس وخاصة عند نور الدين على العسيلي ، وسنخصه بكلمة ، ومثله خرَّجه  
وتلميذه يحيى<sup>(١)</sup> الأصيلي ، الذي يقول في بعض غزله :

بدا بوجوه جميل الوصف والشان يقول : سبحان من بالحسن وشاني<sup>(٢)</sup>  
كأنه روضة غناء مزهرة من دمع عاشقها تُسقى بغدران  
أشبهت في حبه ورق الحمى فغدا كل بيت الجوى شجوا على البان

فالله جل شأنه زين وجهها بالجمال حتى كأنها روضة ، أليس يشبه الشعراء الثغر بالأقحوان ،  
والحد بالورد والشقيق والعين بالرجس ، لذلك جعل وجهها كأنه روضة تسقى من دموع العشاق  
بغدران ، ومضى يستكمل خياله فورق الحمى وحامه بيت جواه شجوا على أغصان البان وهو يشبه  
على من قامتها تحاكي قامة البان . وتخرج على يد الأصيلي يوسف<sup>(٣)</sup> المغربي ، وغزله كغزل أستاذه  
يسيل عذوبة من مثل قوله :

جعلوا الصباح مباسماً ثم الظلا م صفائراً ثم الراح قدودا  
والورد خذاً والغصون معاطفاً والبدر قرقا والغزالة جيداً  
ورأت غصون البان أن قدودهم فاقت فأضحت رُكعاً وسجوداً

وتشبيه قدود الحسان بالراح وغصون البان لضمورهم واستقامتها مشهور . وكان المغربي  
والأصيلي والعسيلي يكوّنون في الغزل زمن العثمانيين مدرسة متاثلة في رشاقة الموسيقى وجمال  
الصياغة ، وإن كان التكلف قد أخذ يعم في الغزل بعدهم وفي أيامهم . ولعبد الله الإدكاوي :

(٣) راجع في يوسف المغربي ربحانة الألبا ٣٢/٢ وما  
بعدها وخلاصة الأثر ٥٠١/٤ .

(١) راجع في يحيى الأصيلي ربحانة الألبا ٣٨/٢ وصلافة  
العصر لابن معصوم ص ٤١٥ وخلاصة الأثر ٤٨٠/٤ .

(٢) وشاني : زيني .

عقيقُ دمعى غداً في الجزع كالديمِ .  
وانهلَّ مُنسجماً من نار مضطرمِ  
ظبيّ نفورٍ أنيسٍ ناعسٍ يقظِ  
إن أرضَ يغضب وإن أقربَ نأى صلفاً  
مُهفَهفٍ ما بدت للغصنِ قامته  
وإن تبسّم ما برقُ بكاطمةٍ  
ما فيه عيبٌ سوى تفتيرِ مُقلتهِ  
مُذبانَ سكانَ بانٍ الحى والعلمِ  
ملآنَ وجداً إلى خشفِ بذي سلمِ  
بالليلِ مُتَشحٍ بالصبحِ مُلثَمِ  
وإن أذلَّ يته بالعرِّ والشممِ  
إلا أنتهى ذابلَ الأوراقِ ذا ضرمِ  
له وميضٌ يجلى داجى الظلمِ  
وفتكها في فوادِ المُذنبِ السقمِ

والعقيق : خرز أحمر ، يقول الإدكاوى إنه مازال يبكى حتى اختلط دمه بالدم القاني وتناثر في الجزع أو جانب الوادى وكأنه ديم مسكوبة مذ بعدد سكان الوادى والعلم أو الجبل وما بها من شجر البان ، وإنه ليبكى وأحشاؤه تضطرم بوجود مبرح إلى خشف أو ظبي من ظباء ذى سلم بنجد ، وإنه لظبي نفور أنيس ناعس يتشع بوشاح أسود من شعره ، ويلثم بلثام منير من وجهه . وإن لقيه راضياً غضب وازور عنده وإن قرب منه نأى بجانبه ، وحتى إن ذل له تاه عليه سلفاً وشما أو تكبراً . وهو مهفهف ضامر دقيق الخصر ، وما يرى الغصن قامته حتى تذبل أوراقه خجلاً ويلتاع لوعة ملتبة . وإن ابتسامته لتضىء الكون من حوله ضياء لعله أكثر من ضياء البرق الخاعا في الليالى الداجية . ويجعل عيه الوحيد فنور عينيه الذى طالما تغنى الشعراء به وبما يرسل من سهامه التى تصمى أفئدة المرضى بالحب ، وفتكك بهم فتكا . وواضح ما يداخل هذا التصوير من مبالغة وتكلف شديد . وحرى بنا أن نقف عند نفر من شعراء الغزل الوجدانى الذين صوروا ما اختلج في خبايا قلوبهم وصدورهم من وجد مبرح ولوعات ممضة .

ابن (١) النبيه

هو الكمال أبو الحسن على بن محمد بن يوسف المعروف باسم ابن النبيه ، ولد بمصر حوالى سنة ٥٦٠ واختلف إلى كتاب حفظ فيه القرآن الكريم وبعض الأشعار على عادة لداته ، ثم أخذ يختلف

تحقيقاً بديها وطبع طبع حجر في القرن الماضى . وطبع الديوان حديثاً بتحقيق عمر محمد الأسعد (نشر دار الفكر) بيروت .

(١) انظر في ابن النبيه وترجمته وشعره ابن خلكان ٣٣٦/٥ وفوات الوفيات ١٤٣/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٣/٦ وحسن المحاضرة ٥٦٦/١ وشذرات الذهب ٨٥/٥ ومقدمة عبدالله فكرى للديوان إذ جمعه ورتبه وحققه

إلى حلقات العلماء والأدباء ، وفتحت ملكته الشعرية ، ورنا إلى الالتحاق بدواوين صلاح الدين ووزيره الكاتب البليغ القاضي الفاضل راعي الأدباء في عصره ، وفي ديوانه مدائح مختلفة له ، وليضع أمامه الدليل الواضح على قدرته البيانية ضَمَّن جميع أبيات إحدى مدائحه له كلمات من سورة المزمل مقتبسا لها في قوافيه بقوله في مطلعها :

قَتُّ لَيْلِ الصُّدُورِ إِلَّا قَلِيلًا      ثُمَّ رَتَّلْتُ ذَكَرَكُمْ تَرْتِيلًا  
وَوَصَلْتُ الشَّهَادَ أَقْبَحَ وَضَلُّ      وَهَجَرْتُ الرِّقَادَ هَجْرًا جَبِيلًا

ويبدو أن القاضي الفاضل لم يُعْجَب بالقصيدة ، فلم يَعرِّن في دواوين صلاح الدين وأيضا لم يَعرِّن في دواوين ابنه العزيز ، حتى إذا ولي شئون مصر السلطان العادل سنة ٥٩٦ رأيناه يقدِّم مدائحه إليه وإلى وزيره الصفيِّ بن شُكْر . ويبدو أن صداقة انعقدت حيثُذ بينه وبين الأشرف موسى بن السلطان العادل ، حتى إذا ولاه أبوه على الرُّها سنة ٥٩٨ اصطحبه معه واتخذه كاتبه . وأخذت إمارته أو مملكته تتسع ، فشملت خِلاط وميافارقين ونصيبين ومعظم بلاد الجزيرة . وكان ينتقل الأشرف موسى في بلدان إمارته وكانت أكثر إقامته بالرُّقة لموقعها على الفُرات وابن النيه معه يلازمه ، ولا يترك مناسبة من انتصار في حرب أو عيد إلا ويقدم له مدائحه . ومن أهم هذه المناسبات - كما مر بنا في غير هذا الموضع - قدومه إلى مصر بجيش جرار ساعد به سلطانها أخاه الكامل في سحق الصليبيين بموقعة دمياط ورد فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وقد تغنى ابن النيه بذلك طويلا بمثل قوله :

دَمِيَاطُ طُورٍ وَنَارُ الحَرْبِ مَوْقِدَةٌ      وَأَنْتَ مُوسَى وَهَذَا اليَوْمُ مِيْقَاتُ  
أَثَلَجَتْ صَدْرَ رَسولِ اللَّهِ وَانكشَفَتْ      عَن سَرْحَةِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا غَامَاتُ  
اللَّهُ أَكْرَمُ أَنْ تُمْسِيَ مَزَامِرَهُمْ      تُتَلَّى وَتُنْسَى مِنَ القُرْآنِ آيَاتُ

وهو يستغلُّ اسمه في مديحه ، فيقرنه إلى موسى الرسول ومعجزته في الطور ، ويذكر في القصيدة أن عصاه تلففت كل ما أفكروا ، ويصور كيف اندحر الصليبيون وتوزعهم المسلمون قُتلا وأُسرا وسبيًا ، ومن بقى منهم عاد إلى البحر المتوسط وما وراءه بنجزي لا يمانله خزي .

ويدل ديوان ابن النيه على أنه كان يعيش لدى الأشرف موسى معيشة مبهجة يتمتع فيها بالرياض ومجالس الأُنس والظرب حتى وفاته بتَصبين سنة ٦١٩ . ومع ما كان فيه من هتاء لم

ينس وطنه ، بل ظل يحنُّ له ، وظل حينه يتفرق في تضاعيف أشعاره كأقوى ما يكون الشعور الصادق لدى المحبين الواهين ، كقوله مكنياً عن مصر بالعقيق أحد وديان الأراضي المقدسة في المدينة النورة الذي طالما تغنى به شعراء الصباية والحب المتناع :

يَابَارِقَا أَذْكَرَ الْحَشَا شَجَنَّهُ      مَنْزَلْنَا بِالْعَقِيقِ مِنْ سَكَنَهُ  
 وَمَرْبِعُ اللَّهْوِ يَانِعُ خَضِيلُ      أَمْ غَيْرَ الدَّهْرِ بَعَدْنَا دِمْنَهُ (١)  
 يَا بَرِّقُ هَذَا جَسْمِي يَذُوبُ ضَنِّي      وَمَهْجَتِي بِالْعَقِيقِ مُرْتَهَنَةٌ  
 بَلِّغْ حَدِيثَ الْحَمِيِّ وَسَاكِنِهِ      لِمَغْرَمٍ أَنْحَلَ الْهَوَى بَدَنَهُ  
 أَشَقِي الْمَحْبِينَ عَادِمٌ وَطَرًّا      فَكَيْفَ إِنْ كَانَ عَادِمًا وَطَنَهُ  
 سَقِيًّا لِأَيَامِنَا الَّتِي سَلَفَتْ      كَانَتْ بِطَيْبِ الْوَصَالِ مَقْرَنَهُ  
 لَوْ يَجَّ يَوْمٌ مِنْهَا وَكَيْفَ بِهِ      كُنْتُ بِعُمْرِي مُسْتَرَحْصًا ثَمَنَهُ

وابن النيبه في أول الأبيات يخاطب برقاً أذكره ما يعتلج في أحشائه من الشجن أو الأشجان على بعده عن موطنه بوادي النيل ، ويتساءل عن السكان والأحباب وهل لا يزال مربع اللهو والشباب كعهده به يوم فارقه من النضرة والجمال أم غير الدهر بعده الديار وتبدل الحال . ويشكو للبرق ارتهان مهجته وراءه وتخلفها بمصر وكيف أنه يذوب ضناً وسقماً ونحولاً متمنيا لو يسمع شيئاً بطمئنه عن الحمى وساكته . ويقول إن أشقى المحبين من عدم الوصال بمحبوبه فكيف بالحب المقنون الذي عدم الوصال بوطنه ، ويدعو بالسقيا لأيام وصاله الهنيئة الماضية له ، ويتمنى لو حج إلى هذا الوطن المقدس تقديس العقيق أو عاد إليه ، ويقول إنه يقدم حياته كلها راضيا بيوم واحد يقضيه بين ربوعه . وابن النيبه بذلك يصور تصويرا رائعا تعلق المصريين في غربتهم بوطنهم وشغفهم به ومدى حنينهم إليه وطمئنه إلى جرعة من نيله في ظلاله وبين رياضه .

وإذا أخذنا نقرأ في ديوان ابن النيبه أحسنا بوضوح أنه يمثل في غزله الأروح القاهرية المصرية بكل ما عُرف عنها من الدماعة والرقه وخفة الظل لا في موسيقاه وجمال أنغامه فحسب ، بل أيضا في تصوير مشاعره ووجداناته وعواطفه ، دون أى حجاب من أصداف المحسنات البديعية ، فهو قلما يستخدمها بل يترك نفسه على طبيعتها ، مما جعل غزله يرتفع إلى مستوى وجداني سام ، دون

(١) خضل : مبتل ندى . اللمن : جمع دمنة : آثار

ترداد الأوصاف المادية الحسية للمرأة ، فحسبه أن يصور عاطفته إزاءها في رقة متناهية . وهياً ذلك قدما لغزله أن يكثر التغنى به في ديار الجزيرة والموصل وفي الشام ومصر واليمن<sup>(١)</sup> لرقته ورشاقته وصفاء موسيقاه ، ومازال المغنون والمغنيات يتغنون بأشعاره ، وتتغنى بها السيدة أم كلثوم وغيرها ، ومن ذلك قوله :

أَفِيهِ إِنْ حَفِظَ الْهَوَى أَوْضِعَا      مَلِكَ الْفَوَادِ فَمَا عَسَى أَنْ أَصْعَا  
 مِنْ لَمْ يَذُقْ ظَلْمَ الْحَيْبِ كَظَلْمِهِ      حُلُومًا فَقَدْ جَهَلُ الْحَبَّةِ وَادْعَى<sup>(٢)</sup>  
 يَا أَيُّهَا الْوَجْهُ الْجَمِيلُ تَدَارِكُ الصَّبَّ السَّحِيلَ      فَقَدْ وَهَى وَتَصَغُّعَا  
 هَلْ فِي قَوَادِكُ رَحْمَةٌ لِمَتِّمْ      ضَمَّتْ جَوَانِحُهُ فَوَادًا مَوْجَعَا  
 هَلْ مِنْ سَبِيلٍ أَنْ أَبْتُ صَبَابَتِي      أَوْ أَشْتَكِي بَلْوَايَ أَوْ أَتَضَرَّعَا

وهو يفدى محبوبه بروحه سواء حفظ العهد أو ضيعه فهو لا يملك إزاءه في الحالين إلا أن يزداد تعلقا بحبه وشغفا ، بل إنه ليتقبل ظلمه ويحده شرابا سائغا ، وإلا حق عليه أنه دعى حب . ويتضرع إليه أن يتداركه ، فإن كل شيء فيه حتى بدنه وهن ولم يعد يستطيع احتمالا ، وبسترحه لوهن جسده وأوجاع روحه ، لعله يستطيع أن يبثه شيئا من حبه أو من محبته فيه . ولا تقل جمالا وروعة عن هذه الأغنية في أيامنا الأغنية التالية :

أَمَانَا أَيُّهَا الْقَمَرُ الْمُطَّلُ      فَمَنْ جَفَنَيْكَ أَسِيْفًا تُسَلُّ  
 يَزِيدُ جَمَالَ وَجْهِكَ كُلَّ يَوْمٍ      وَبِجَسَدٍ يَذُوبُ وَيَضْمَحَلُّ  
 وَمَا عَرَفَ السَّقَامُ طَرِيقَ جَسْمِي      وَلَكِنْ دَلُّ مِنْ أَهْوَى يَدُلُّ  
 إِذَا نُشِرَتْ ذَوَائِبُهُ عَلَيْهِ      تَرَى مَاءَ يَرْفُ عَلَيْهِ ظِلُّ<sup>(٣)</sup>  
 وَقَدْ يَهْدِي صِبَاخُ الْخَدِّ قَوْمًا      لِبَلِيلِ الشَّعْرِ قَدْ تَاهَا وَضَلُّوا

وابن النبي يتوسل إلى صاحبه أن لا تسل عليه أسياف جفنيها وأن تُبقي عليه فلا تفتك به ، حتى يتمتع بجمال وجهها الذي يزداد ويتضاعف كل يوم ، بينما يذوب بدنه أضمحللا وتضاؤلا ونحولا . وما عرف السقم يوما طريقا إليه إلا عن طريق حبه لها وهيامه بها ، بينما هي تدل عليه

(٢) الظلم بفتح الظاء : ريق الثمر وريقه .

(٣) النواذب : صفات الشعر .

(١) انظر كتاب شعر الفناء الصنعاني للكوكور محمد عبده

غانم (طبع دار الكتاب العربي ببيروت) ص ١٧٧ .

وتزداد كل يوم دلالة وإعراضا . وماذا يبصر ؟ إنه لا يبصر إلا جلالا فاتنا وجسدا ساحرا رقيقا رقة الماء يهتر عليه من الشعر ظل ناضر باهر . ويقول :

ياساكى السَّفْحَ كم عَيْنِو بكم سَفَحَتْ      تَرْحَمُ فَهَى بعد البُعْدِ قد نَزَحَتْ  
لَهْفَى لظِيَّةِ أَنْسِرِ مِنْكُمْ نَفَرَتْ      لا بل هى الشمسُ زالتْ بعد ما جَنَحَتْ  
يَبْضَاءُ حَجَبِهَا الْوَأَشُونَ \* حِينَ وَشَوَا      عَنِ وَلَوْ لَمَحَتْ صَبِغَ اللَّحْجَى لَمَحَتْ  
يَقْتَصُّ مِنْ وَجَّتِيهَا لِحْظُ عَاشِقِهَا      إِنْ ضَرَّجَتْ قَلْبَهُ بِاللَّحْظِ أَوْ جَرَّحَتْ  
مَنْ لِي بِسَلْمَى وَفَى أَجْفَانِ مُقَلَّتِهَا      لِلْحَرْبِ يَبْضُرُ حَدَادُ قَطُّ مَا صَفَحَتْ  
وَأَسْوَدُ الْخَالِ فِي عَمْرٍ وَجَّتِيهَا      كَمِسْكَةٍ نَفَحَتْ فِي جَمْرَةٍ لَفَحَتْ

وفي القطعة جناس بين « السفح وسفحت » بمعنى صببت العين الدمع ، وكذلك بين « ترحمت » بمعنى بعدتم و« نزحت » العين بمعنى نفذ دمعها ، وأيضا بين « الواشون » و« وشوا » في البيت الثالث وبين « لمحت » من لمح البصر واختلاسه و« محت » في آخر البيت من المحو والإزالة ، والبيت الأخير به جناس ناقص بين « نفحت ولفحت » . والجناسات جميعها جناسات خفيفة على اللسان والآذان ، لأن صانعها موسيقى ماهر في قياس الأنغام ، وهو في أول القطعة يشكو لساكى السفح من كثرة ما سفحت دموعه وسكبت حتى لقد جفت عيناه ، ويقول كأن محبوبته سلمى ظيية نافرة بل لكأنها الشمس مالت إلى الغروب ولو أنها أطلت بطلعها المضيئة على الليل لمحت ظلمته محوا ، ويتخيل كأنما يقتص بالانظر إلى وجتيتها من جرحها لقلبه جرحا لا يندمل أبدا . وهي مبالغة مسرفة . ويتمنى لقاء سلمى مع ما قد يصيبه من فتك عينها الساحرتين ، ويتصور الخيال في خدها الوردى كحجته من المسك تعلقت بجمرة لافحة ، فانتشر منها أريج عطر . ومن غزله الذى يقطر حسنا ورقة قوله :

تعالى الله ما أَحْسَنَ      شَقِيْقًا حُفًّا بِالسَّوْسَنِ  
خُدُودُ لَسْمُهَا يُبْرِى      مِنَ الْأَسْقَامِ لَوْ أَمَكْنَ  
فَمَا تُجَنِّى وَحَارْسُهَا      يَقْفُلُ الصَّدْغُ قَدْ زَرَقْنَ (١)

(١) زرقن الصلغ : جعل الشعر المدلل على الخلود كالحلقة .

أَبْتُ هَوَاهُ مِنْ حُرْقِ لِنَجْمِ اللَّيْلِ لَمَّا جَنُّ  
وَكَمْ أَسْكَنْتُهُ قَلْبِي فَسَارَ وَأَحْرَقَ الْمَسْكَنَ

وهو يعلن اقتنانه بجمال صاحبه واحمرار خلودها المشبهة لورد الشقيق المحفوفة بمخض السوسن من شعرها الذهبي ، ويقول إن لثم خلودها يبرئ السقم ، ولكن من يستطيع أن يصل إليها ؟ إن أحدا لا يمكنه أن يقتطف من خلودها شيئا من زهرات الحب ، فإن وراءها حارس أمين من شعرها لوى على خلودها فلا كالحلقة ، فلا يستطيع أحد إليها وصولا . وإنه ليث هواه وما يدوقه من حرارته اللافحة للنجم حين جَنُّ الليل ودجت ظلماته ، معلنا إليه هذا الهوى الذى لم يعد يستطيع اكتنانه . ويأسى لنفسه ومصيره ، فكم أسكن محبوبته قلبه فعبثت به بل أحرقت وأتت عليه . ومن غزله الرائع :

|  |   |
|--|---|
| أَمَا وَبِيَاضِ مَبْسُوكِ النَّقِيِّ     | وَسُمْرَةِ مِسْكَةِ اللَّعْسِ الشَّهِيِّ <sup>(١)</sup> |
| لَقَدْ أَسْقَمْتُ بِالْهَجْرَانِ جِسْمِي | وَأَعْطَشَنِي وَصَالِكِ بَعْدِ رِيٍّ                    |
| إِلَى كَمْ أَكْمُ الْبَلْوَى وَدَمْعِي   | يَبُوحُ بِمُضْمَرِ السَّرِّ الْحَقِيِّ                  |
| وَكَمْ أَشْكُو لِلْأَهِيَةِ غَرَامِي     | فَوَيْلٌ لِلشَّجِيِّ مِنَ الْحَلِيِّ                    |
| تَغَاذَلْنِي وَتَزَوَى حَاجِبِيهَا       | كَمَا انْبَرَتْ السَّهَامُ عَنِ الْقَيْسِيِّ            |
| وَتَخْتَرِقُ الصَّفُوفَ بِرَيْقِ فِيهَا  | وَهَلْ يَخْفَى شَدَى الْمَسْكِ الشَّدِيِّ               |
| يَذُودُ شَبَا الْقَنَا عَنْ وَجَّتَيْهَا | كَمَنْعِ الشُّوْكِ لِلرُّودِ الْجَنِيِّ <sup>(٢)</sup>  |
| إِذَا مَارُمْتُ أَقْطَفُهُ بَعِينِي      | تَقُولُ حَذَارٍ مِنْ مَرَعِي وَيَبِي <sup>(٣)</sup>     |

وابن النبية يُقَسِّمُ لمحبوبته بميسمها الفاتن وسمرة شفاهاها اللعس أنها أسقمت جسمه بهجرانها بعد الوصال وبما أصابته به من ظمأ بعد رِيٍّ ، ويقول إلى كم أكتم محتى في الحب ودمعي يبوح بسرِّي وإلى كم أشكو للاهية عنى ، وصدق المثل القديم : ويل للشجى من الحللى . ويعجب أنها تغازله أو تمدله أسباب الغزل ، بينما تقطَّب حاجبيها وتزوى ما بينها ، ويلتمس لها عذرا ، فكان حاجبيها قوسان يرسلان السهام ، ولا بد لهما كالقوس ووترها من الشد والجذب فى أثناء الرمي

(٣) وي : ونجم .

(١) اللعس : سواد الشفة .

(٢) شبا القنا : حد الرماح .

بالسهام والنبال ، ويقول إن شذاريقها كشذا المسك وأريجه يعلن عنها من بعيد . ويتحدث الشعراء كثيرا عن السيوف والرماح المسلولة من العيون على الناظرين للجمال المصون ، ويرسم ابن النبية من ذلك صورة رائعة ، فعيون صاحبه بما يحمها من الرماح تذود عن وجتها الفانتين كما يذود الشوك عن الورد حين تمتد يد لاجتائه أو اقتطافه ، ويقول إنه حتى حين يريد أن يقتطف بعينه لا يشفتيه شيئا من ورد وجتها تقول له حذار من مرعى وخيم العواقب .

وكل هذا غزل وجداني موج باللهفة والظمأ واللوعة الملتبة التي لا سبيل إلى إطفائها في قلب المحب الوهّان ، وهو دائما يستعطف ويتوسل ويتضرع ، ولا يجيب حتى بنظرة أو كما يقول باقتطاف نظرة إلى الوجه الفاتن . وقد تراءت لنا صور من هذا الغزل الوجداني الصافي الملتاع عند ظافر الحداد والمهذب بن الزبير وابن سناء الملك غير أنه تكامل عند ابن النبية في هذه الصورة الرائعة التي تخلو من المتاع الحسى والتي يسيل فيها الشرقة وعذوبة وسلاسة . وما أشك في أن الحاجرى شاعر الموصل استلهم في غزله الوجداني الذي تحدثت عنه في الجزء الخامس من هذه السلسلة لتاريخ الأدب العربي هذا الغزل الوجداني لابن النبية نزيل دياره حين كان الحاجرى لا يزال شابا في نحو الخامسة عشرة من عمره ، وتلاه التلعفرى الموصلى الذي تحدثنا عن غزله الوجداني الملتاع يستضيء فيه بابن النبية أيضا ، ولاحظ ذلك صاحب فوات الوفيات ، فقال في ترجمته إن قصيدة التلعفرى التي أنشد منها قطعة في ترجمته بالكتاب المشار إليه والتي يستلها بقوله :

أى دمعٍ من الجفون أسألُه إذ أتته معَ النسيم رسالة  
إنما نظمها معارضةً ومحاكاةً لقصيدة ابن النبية :

بَدْرُ رِيمٍ له من الشعر هالَه من رآه من المحيين هالَه<sup>(١)</sup>

فهي من نفس الوزن والروى ، بل المحاكاة عند التلعفرى لابن النبية أوسع من هذا ، إذ هي محاكاة لغزله الوجداني الرائع لافي أساليبه السلسلة السائغة فحسب ، بل أيضا في مضمونه المليء بالأسى المبرح والوجد الملتب ، مع الرقة والدماثة واللفظ وخفة الروح . وسقطت القيثارة من يد ابن النبية بوفاته وكانت مصر قد أنجبت البهاء زهير ، وإذا هو يستخرج من قيثارته نغما رائعا لهذا الغزل الوجداني على نحو ما سنرى عما قليل ، وهو نغم يبلغ به الذروة التي كانت مأمولة لهذه الصباية

(١) هالة الأولى : دارة القمر . وهاله الثانية : من هاله الشيء إذا أعجبه وروع .

الوجدانية ، وإذا كان شرر هذا النعم قد تطاير عن طريق ابن النبيه إلى الموصل فإنه تطاير عن طريقه وطريق البهاء زهير إلى الشام وإلى بيئات عربية مختلفة .

### البهاء<sup>(١)</sup> زهير

هو بهاء الدين زهير بن محمد ، ينتهى نسبه إلى المهلب بن أبي صفرة القائد المشهور في العراق وإيران زمن بنى أمية ، ولد لأبويه المصريين في وادى نخلة بالقرب من مكة في أثناء حَجَّهَا خامس ذى الحجة سنة ٥٨١ . وكان أبوه رجلا صالحا يشهد بذلك وصفه على نسخة خطية من الديوان بدار الكعب المصرية بأنه : « العارف محمد قدس الله روحه »<sup>(٢)</sup> وقد تؤذن كلمة العارف بأنه كان صوفيا أو على صلة بالصوفية والتصوف ، ويبدو أنه أقام مع ابنه وزوجه في مكة ناسكا بضع سنوات ، إذ يشير البهاء في بعض أشعاره إلى ذكريات له فيها أيام طفولته ، بمثل قوله :

تذكرتُ عهداً بالمحْصَبِ من مِئى ومادونه من أَبْطَحِ وحَجُونِ<sup>(٣)</sup>  
منازلُ كانتُ لى بهن منازلُ وكان الصَّبَا لى بها وقَرِيفى

وعاد العارف محمد بزوجه وابنه إلى بلدته بالصعيد : قوص ، وكانت حينئذ عاصمة الصعيد وباب المسافرين من مصر والمغرب والأندلس في البحر الأحمر من سواكن وعيذاب إلى الحجاز ، وكانت بها حركة تجارية واسعة ونهضة علمية وأدبية ناشطة ، وهى منشأ البهاء ومرباه ، فيها تلقن العلم والأدب والشعر . وتعرف في أثناء ذلك على خِذْنَه ورفيقه ابن مطروح ، وانعقدت بينهما صداقة حتى المات . وفي ديوانه قصيدة قصيرة مدح بها الملك المنصور حفيد صلاح الدين وكان قد ولى شئون مصر بعد أبيه العزيز فترة قصيرة سنة ٥٩٥ وأغلب الظن أنه أرسل بها إليه من قوص وهو لا يزال في الرابعة عشرة مما يدل على أن ملكته الشعرية تفتحت في سن مبكرة .

وينشد ابن خلكان له أبياتا من قصيدة مدح بها جلدك التقوى والى دمياط سنة ٦٠٥ وأكبر الظن أنه أرسل أيضا بها إليه من قوص . ونراه في سنة ٦٠٧ يقدم مدحه لوالى بلدته قوص : مجد

(١) انظر في ترجمة البهاء زهير وشعره ابن خلكان .

(٢) انظر في ذلك البهاء زهير للشيخ مصطفى عبد الرزاق ص ٥ .

(٣) المحصب : موضع رمى الجمار بمضى . والأبطح : أبطح مكة وهو وادىها . والحجون : جبل بها .

(١) انظر في ترجمة البهاء زهير وشعره ابن خلكان ٣٣٢/٢ والنجوم الزاهرة ٦٢/٧ وحسن المحاضرة ٥٦٧/١ .  
٢٣٣/٢ وشذرات الذهب ٢٧٦/٥ . و« البهاء زهير » :  
بحث بقلم الشيخ مصطفى عبد الرزاق . وقد طبع ديوانه  
بكبرج سنة ١٨٧٦ بتحقيق يلمر مع مقدمة وتعليقات ،

الدين إسماعيل اللطى يهنئه فيها بولايته على أعمالها ، وأعجب به اللطى فاتخذها كاتبا له ، وظل يعمل معه نحو عشر سنوات ، ثم أخذت العلاقة تفتّر بينهما ، ويبدو من استعطافاته له في بعض أشعاره أنه عزله من منصبه فهاجر من بلدته إلى القاهرة . ويظن بعض الباحثين أن هذه الهجرة حدثت في سنة ٦١٩ وفي رأينا أنها تسبق هذا التاريخ بسنة أو أكثر إذ نراه يهنئ السلطان الكامل الأيوبي في انتصاره العظيم سنة ٦١٨ على الصليبيين وطردهم من دمياط أو طرده فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه . ويأخذ في دعم صلته بأبناء السلطان الكامل منذ هذا التاريخ ، ويحاول الاتصال بابنه الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم إلى القاهرة سنة ٦٢١ ويقدم له ملحقين ، ويخف على قلب أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ويلحقه بخدمته ، ويلبّيه منشدا فيه قصيدة بديعة يقول فيها :

لَبَّبِكَ يَا مَنْ لَامِرْدٌ لِأَمْرِهِ وَإِذَا دَعَا الْعَيُوقَ لَا يَتَعَوَّقُ<sup>(١)</sup>  
 الصَّالِحُ الْمَلِكُ الَّذِي لَزَمَانِهِ حُسْنُ يَتِيهِ بِهِ الزَّمَانُ وَرَوَّعُ  
 سَجَدْتُ لَهُ حَقَّ الْعَيُونِ مَهَابَةً أَوْ مَا تَرَاهَا حِينَ يُقْبَلُ تَطْرِقُ

ويصحبه معه حين أصبح في سنة ٦٢٩ نائبا عن أبيه في حكم بعض البلدان الشرقية في نواحي الفرات . وعاش البهاء مع الملك الصالح في رغد ، ينعم بالحياة وينها بها . ويتنقل معه في بلدان إمارته ، غير أنه لم ينس موطنه ، فقد ظل يذكره وظل لا ينسى أيامه فيه وأصدقائه ، ولا ينسى نيله الغدق ورياضه ومراكبه المصعدات المنحدرات ، ويتلهف على العودة إلى واديه والخلى بجماله واكتحال عينيه بحسنه وبساكنيه وكل ما فيه ، بمثل قوله :

سَقَى وَادِيًا بَيْنَ الْعَرِيْشِ وَبَرْقَةٍ مِنْ الْغَيْثِ هَطَالُ الشَّايِبِ هَتَانُ<sup>(٢)</sup>  
 بِلَادٌ إِذَا مَا جِئْتَهَا جِئْتَ جَنَّةً لَعَيْنِكَ مِنْهَا كَلِمَا شَتَّ رِضْوَانُ  
 تَمَثَّلَ لِي الْأَشْوَاقُ أَنْ تَرَاهَا وَحَصْبَاءَهَا مِسْكٌ يَفُوحُ وَعَقِيَانُ<sup>(٣)</sup>  
 فَيَا سَاكِنِي مِصْرٍ تُرَاكِمُ عَلِمْتُمْ بَأَنِي مَالِي عَنْكُمْ الدَّهْرُ سُلُوَانُ  
 عَسَى اللَّهُ يَطْوِي شُقَّةَ الْبَعْدِ بَيْنَنَا فَتَهْدَأُ أَحْشَاءُ وَتَرْقَأُ أَجْفَانُ

كثير المطر .

(١) العيوق : نجم في طرف الهجرة يتلو الثريا .

(٢) حصابها : حصاها . العقيان : النعب الخالص .

(٣) الشاييب : جمع شويوب وهو دفعة المطر ، وهتان :

فهو يدعو للوادي من شرقه إلى غربه أن يظل يسقيه من الغيث هطال مدرار ، ويتصور الوادي جميعه فردوسا لا يشبه فردوس وترابه وحصباء مسكا وذها خالصا ، وهو لا يسلو أهله ولا ينسأهم أبدا ويتمنى لو قصرت المسافة وعاد إلى موطنه ينظر ما شاهده ، حتى تجف دموعه المنهلة ، وتهدأ أحشائه الموجعة .

ويستولى الملك الصالح في سنة ٦٣٦ على دمشق فيتحول معه إليها ويتملى بغوطها ورياضها ، ولا يلبث الملك الصالح أن يفكر في الاستيلاء على أملاك داود ابن عمه صاحب الكرك في جنوبي الأردن ويتزل نابلس ، غير أن مؤامرت تحاك له ، ويُعْتَقَلُ بسببها عند ابن عمه داود في الكرك ، ويظل البهاء زهير بنابلس حافظا لعهد . وتُرَدُّ إليه حريته ، ويتجه إلى مصر فيستولى من أخيه الصغير العادل على مقاليد الحكم بها سنة ٦٣٧ ويولى البهاء زهير ديوان الإنشاء ، والبهاء يكاد يطير فرحا برجوعه إلى موطنه وتعظم منزلته عند الملك الصالح ويصبح مستشاره الأعلى وأمين سره ، وكان خيرا نبیلا ففتح - كما يقول ابن خلكان - خلقا كثيرا بحسن وساطته عنده وجميل سفارته . ومن حين إلى حين كان يرحل مع الملك الصالح إلى دمشق ، وفي آخر رحلة لها هناك جاءهما خبر الحملة الصليبية على دمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وتصادف أن كان الملك الصالح مريضا ، فصمَّ على منازلة لويس وجيشه في أقرب فرصة ، وحُمل من هناك في محفَّة حتى نزل بطناح بالقرب من المنصورة في شهر المحرم سنة ٦٤٧ ومضى يستعدُّ للقاء الصليبيين وهو يجاهد المرض جهادا عنيفا حتى شهر شعبان إذ لبَّى نداء ربه . وقبيل وفاته بقليل عُزل البهاء زهير من منصبه ، ويذكر المؤرخون أن ذلك كان بسبب تقصيره في الالتفات إلى إشارة كان قد كتبها الملك الصالح على كتاب كان مرسلًا لابن عمه داود صاحب الكرك ، مما أغضب الملك الصالح . ونظن أنه رجع ذلك السهو إلى تقدمه في السنِّ ، فأعفاه من منصبه وأسندته إلى نائبه فخر الدين ابن لقمان . ويقال إنه حاول بعد وفاة الملك الصالح إعادته إلى منصبه ، وكأنما عزَّ ذلك على البهاء فلم يقبل تقلده ، وقيل : قَبِلَهُ فترة ثم استعفى منه . وفي ديوانه مدائح مختلفة أرسل بها إلى الناصر الأيوبي حين استولى على دمشق ، وأكبر الظن أنه أرسل بها إليه انتظارا لبعض رفده ، ولزم بيته نحو ثمانى سنوات عرف فيها شظف العيش بعد رَعْدِهِ ومَرَّهُ بعد حُلُوهِ إلى أن فارق دنياه سنة ٦٥٦ في وباء حدث بالفسطاط والقاهرة .

ويدلُّ شعر البهاء على أنه كان صاحب نفس كريمة كبيرة ، ويقول ابن خلكان في ترجمته :  
كنت أود لو اجتمعت به لما كنت أسمعُه عنه فلما اجتمعت به رأيته فوق ما سمعت عنه من مكارم

الأخلاق ودعائه السجاياء . وما مر من حديثنا عنه يدل على أن حياته ظلت ، حتى أعفاه الملك الصالح من منصبه وهو في نحو السابعة والستين من عمره ، حياة سهلة ليس فيها حرمان ولا شيء من بؤس ، بل فيها غير قليل من النعيم ، وفي شعره وصف كثير لمجالس أنس مع الرفاق والأصدقاء ، وفيه ما يدل أيضا على شغفه بالطبيعة ومجالها الفاتنة . وله مراسلات شعرية رقيقة مع ابن مطروح خذن صباه وشبابه في قوص . وشعره يكتظ بالمرح والتفاؤل والدعوة إلى الفرحه بمتع الحياة وطرح الهموم عن عاتق الإنسان ، يقول :

أيها الحاملُ هَمًّا إن هذا لا يدومُ  
مثل ما تَقْنِي السَّرا ت كذا تَقْنِي الهمومُ

والغزل هو الموضوع الأساسي في ديوانه ، وهو غزل وجداني من نفس المعين الذي كان يستمد منه ابن النبيه ، بل ربما كان يتقدم خطوة أو خطوات نحو السهولة ، مما جعل ابن خلكان يقول : « شعره كله لطيف ، وهو - كما يقال - السهل الممتنع » . وليس كل ما يلاحظ عليه السهولة فحسب ، فهو يتميز فيه حتى من ابن النبيه بالأوزان القصيرة والمجزوءة . وهو مثله بتقني بالحب وتبارحه في تدفق وانطلاق ، وقلما نجد عندهما معا روايب تصويرية من تقليد القدماء ، وما يجيء من ذلك يُعرض عرضا جديدا ، وأيضا ما يجيء أحيانا من جناس وغير جناس من المحسنات البديعية يجيء في خفة ورشاقة . فالشعر - وخاصة الغزل - ليس محسنات ولا تصاوير محفوظة مما يتردد على الألسنة ، وإنما هو مشاعر وانفعالات وعواطف . وقد يكون ذلك غريبا على أذواق الباحثين الذين طالما رددوا أنه لم يبق عند الشعراء منذ أيام الدولة الأيوبية سوى الأخيلة والتصاوير المتجمدة ، وسوى المحسنات البديعية التي استحالت إلى أصداف يتقصها البريق واللمعان .

وينبغي أن لا نجعل ذلك خاصة فريدة من خصائص البهاء زهير وحده ، فهذا الغزل الوجداني لم يكن خاصا بالبهاء زهير ، فقد كان يشرّكه فيه - كما أسلفنا - ابن النبيه وأيضا ابن سناء الملك ، وله مقدمات قديمة نجدها عند المهذب بن الزبير وظافر الحداد . ولا ريب في أنه لطبيعة مصر السهلة وطبيعة نيلها العذب السُّلس أثر كبير في ذلك ، فعلى نحو ما يمتد الوادي في مصر سهلا لا تنوء فيه ، كذلك شعره وشعر أصحابه تمتد لغته سهلة دون أي صعوبات ، وعلى نحو ما يجري النيل مترقا متدفقا كذلك شعره وشعر أصحابه يسيل عذبا سائغا شرابه . وكما أن الوادي يتطوى على السهولة كذلك النفس المصرية نفس سهلة لطيفة لا خشونة فيها ، نفس

طُبعت على اللين والرقه والدماثة ، مما انعكست آثاره عند ابن سناء الملك وابن النبيه . ومن الحق أن البهاء زهير كأنما خُلِق ليبلغ بتصوير هذه النفس كل ما يسمها من عنوبة وخفة ظل ورشاقة .

وربما كان من أسباب اندلاع هذا الغزل الوجداني على لسان البهاء زهير ما أشرنا إليه في صدر حديثنا عنه من أن أباه كان صوفيا أو على صلة بالتصوف والصوفية مما جعله يحفظ مبكرا - وتطور على لسانه - أشعارهم المليئة بالوجد الإلهي وتباريحه ، وانطبع هذا الوجد في نفسه وبثه في حبه . وجعل اختلاطه بهذه البيئة يُعمق هذا الوجد وأشواقه بأكثر مما عمقه في نفوس الشعراء من حوله ، وإن كنا نستبق بصفة عامة أثر هذا الوجد الصوفي في غزلهم جميعا ، مما دفع بقوة لظهور هذا الغزل الوجداني الصادق . ومعروف أن صوفية مصر من أمثال ابن الكيزاني وابن الفارض ممن ستحدث عنهم في غير هذا الموضوع بثوا في أشعارهم وجداً لا يضاف له ، وكان البهاء زهير استمد جفوة من هذا الوجد المبرح نشر شررها في غزله . وكثيرا ما نثر عنده على أبيات تصور تأثيره بالصوفية كقوله في بعض غزله :

أنا في الحقيقة أنتم هذا اعتقادي فيكم

ولو أننا لم نعرف أن البيت له وسئلنا لمن هذا البيت لقلنا إنه لأحد الصوفية يعبر فيه عن مبدأ الاتحاد المعروف عندهم : اتحاد المحب بالمحجوب . ومن ذلك قوله :

يا مَنْ إِلَيْكَ الْمَشْتَكِي أَنْتَ الْعَلِيمُ بِحَالِيهِ

وكانه متصوف يخاطب الذات العلية ضارعا مستعظفا ، وهو إنما يخاطب صاحبه التي دلعت نار الحب في قواده . وهذا الجانب من غزل البهاء زهير جعل بعض قصائده تلبس عند الأسلاف بقصائد ابن الفارض ، من ذلك رائيته المشهورة التي يقول فيها :

|           |             |       |        |           |                  |
|-----------|-------------|-------|--------|-----------|------------------|
| غیری      | على السلوان | قادر  | وسوائی | في العشاق | غادِر            |
| أشکو      | وأشکر       | فعلهُ | فاعجب  | لشاکو     | منه شاکر         |
| لا تنکروا | خَفَقَان    | قَد   | جی     | والحبيب   | لدى حاضر         |
| ما القلب  | إلا         | دارهُ | ضربت   | له        | فيها البشائر     |
| باليل     | طل          | ياشوق | دُم    | إلى       | على الحالين صابر |
| لی        | فيک         | أجر   | مجاهد  | إن        | صح أن الليل كافر |

والقصيدة في ديوان البهاء زهير، وهي أيضا في ديوان معاصره ابن الفارض المتصوف المشهور، وفي رأبي أن الالتباس الذي جعل الرواة يظنون أن القصيدة لابن الفارض جاءهم من أنها تحمل فكرة الغيبة والحضور التي يرددها كثيرا ابن الفارض في غزله الرباني، على نحو ما يلاحظ في البيت الثالث، وإن اختلف المتزعمان في الفكرة، وبالمثل البيت الرابع فقد يشير من طرف خفي كسابقه إلى فكرة الاتحاد بالمحبوب. وفي البيتين: الأول والثاني جناسات ناقصة وفي البيت الأخير تورية بالكفر بمعنى الشرك بالله والمراد الستر. على كل حال يلفتنا الالتباس بين شعر البهاء زهير وابن الفارض إلى ما قلناه من أن أصداء من الوجد الصوفي انعكست في شعر البهاء زهير. ويبدو أن انعكاسها بدأ مبكرا، إذ نراها واضحة في غزل قصيدة يمدح بها مجد الدين اللمطي إذ يقول:

لها خَفَرٌ يومَ اللقاء خَفِيرُها      فما بأُها ضَنَّتْ بما لا يَضِيرُها<sup>(١)</sup>  
 أعادتها أن لا يُعادَ مريضُها      وسيرتُها أن لا يُفكَّ أسيرُها  
 وها أنذا كالطيفِ فيها صباةٌ      لعل إذا نامتْ بلبيلٍ أزورها  
 من الغيدِ لم توقدْ مع الليل نارُها      ولكنها بين الضلوع تُشيرُها  
 يقاضى غريمُ الشوقِ مني حُشاشَةً      مروعةٌ لم يَبقَ إلا يسيرُها

والصور في القطعة دقيقة فَخَرَّ صاحبه أو خجلها وحيأؤها يجرسها يوم لقائه، فلماذا تبخل عليه بما لا يضيرها؟ وهل من عاداتها أن لا تعود مريضها ومن سيرتها أن لا تفك قيود أسيرها؟. وهو تضرع وتوسل لطيف. ويقول إنه أصبح كالطيف شبها متضائلا تخيلا. ويتسع به الخيال فيتمنى لو أصبح طيفا حقا وزارها في المنام وتضاعيف الأحلام. وهي صورة طريفة من مبتكرات خياله. ويقول إنها لم توقد نارها ليلا كعادة الناس اكتفاء بإيقادها بين ضلوعه وجوانحه. ويقول إنه لم يبق منه إلا بقية روح مروعة من حبا مفرعة. وفي القطعة جناسات وتصاوير لا نحس فيها بتكلف، بل نحس كأنها جوهر الأبيات ومعانيها. ووراء هذه القطعة قطع وقصائد كثيرة تسيل رقة وخفة وعذوبة، مع مسها للقلب بما يودعها من كلمات تشيع حتى أيامنا في اللغة اليومية الدارجة من مثل قوله:

تَعِيشُ أَنْتِ وَتَبْقَى أَنَا الَّذِي مِتُّ عِشْقًا  
 حَاشَاكَ يَا نَوْرَ عَيْنِي تَلَقَى الَّذِي أَنَا أَلْقَى  
 وَلَمْ أَجِدْ بَيْنَ مَوْتِي وَبَيْنَ هَجْرِكَ فَرْقًا  
 يَا أَنْعَمَ النَّاسِ بِالْأَى إِلَى مَتَى فِيكَ أَشَقَى  
 لَمْ يَبْقَ مَنِيَ إِلَّا بِقِيَّةً لَيْسَ تَبْقَى  
 قَدْ كَانَ مَا كَانَ مِنِّي (وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

والقطعة تفيض بالسهولة والبساطة والرفقة واللطف مع جمال الجرس واتساق الكلمات ، ومع ما يداخلها من ألفاظ اللغة اليومية مثل : « مت عشقا » و « يا نور عيني » و « قد كان ما كان مني » وأيضا مع ما يداخلها من الاقتباس القرآني في الشطر الأخير .

وكان الشعراء المصريون في زمنه وقبل زمنه يستظهرون بعض كلمات الحياة العاملة أو اليومية ، ولكنه توسع فيها وأكثر منها كثرة مفرطة ، وهي كثرة تجعل غزله يمس أوتار القلوب والأفتدة ، ومن طريف غزله :

مِنَ الْيَوْمِ تَعَارَفْنَا وَنَطْرِي مَا جَرَى مِنَّا  
 وَلَا كَانَ وَلَا صَارَ وَلَا قَلْتُمْ وَلَا قُلْنَا  
 وَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ مِنْ الْعَنْبِ فَبِالْحَسَنِ  
 فَقَدْ قِيلَ لَنَا عَنْكُمْ كَمَا قِيلَ لَكُمْ عَنَّا  
 وَمَا أَحْسَنَ أَنْ نَرْجِعَ لِلْوَصْلِ كَمَا كُنَّا

والقطعة كلها من اللغة الدارجة ، وقد عرف كيف يلتقط منها هذه الكلمات والعبارات الفصيحة ، وكأنها لا تفصل من لغتنا اليومية ، بل تفصل من القلوب والأفتدة . والقطعة عتاب ولكنها عتاب مملوء لطفًا وظرفًا وتسامحًا ورفقة ودماثة ، ودائمًا تجري في غزله هذه الرفقة الحلوة التي تشبه ماء النيل العذير الصافي والتي تجعل القلوب تتعلق بغزله من مثل قوله :

قَصُّرُوا مَدَةَ الْجَفَا طَوَّلَ اللَّهُ عُمُرَكُمْ  
 شَرَّفُونِي بِزُورَةٍ شَرَّفَ اللَّهُ قَدْرَكُمْ  
 قَدْ صَبَرْتُمْ وَلَيْتَنِي كُنْتُ أُعْطِيتُ صَبْرَكُمْ

لو رأيتم محلكم من فؤادى لسركم  
لو وصلتكم محبتكم ما الذى كان ضركم

والقطعة خفيفة خفة شديدة ، والدعاء ان فى البيتين : الأول والثانى من الأدعية المتداولة على ألسنة المصريين فى لغتهم اليومية ، وإنه ليتضرع لصاحبه مظهرًا لها ما يحتمله من الصبر وجهده لعلها تشفق عليه وتخلصه من عذاب الهجر والحرام . وهو لا يتحرج من إعلان تذللته فى الحب . بل من إعلان عبادته لمحبوته ، يقول :

سأشكر حبًا زان فيك عبادتى وإن كان فيه ذلَّة وخضوعُ  
أصلّى وعندى للصَّابَةِ رِقَّةً فكلُّ صلاتى فى هوائك خشوعُ

فغزله فيها ليس شعرا فحسب ، بل هو أيضا صلاة وتراتيل يقدمها لمن شغفت قلبه حبا ، بل عبادة وخشوع ودين ، يتعبّد لها كما يتعبّد الوثنيون للوثن ، ويأسى لنفسه ولهذا الحب الذى فُتن به ، بل الذى عبث به حتى جعله يعبد محبوته ، يقول :

لى حَبِيبٌ عِبْدَتُهُ وَيَعِخَ مَنْ يَعْبُدُ الْوَتْنَ

وكانه يريد أن يسترجع نفسه من محراب هذا الحب ، ولكنه لم يسترجعها أبدا ، فقد ظل يُتشدّ تراتيل غزله الوجدانى البديع .

وكان البهاء زهير يعرف فى وضوح ما ينشئ من هذا الغزل الرائع ، يدل على ذلك ما رواه الحموى فى خزائنه من حوار<sup>(١)</sup> له مع ابن سعيد الأندلسى حين أطلعه على كتاب المغرب ورأى الأندلسيين يكثرون فى الغزل من أصداف التشبيات والاستعارات فإنه قال له إن لنا فى الغزل طريقا آخر سماه الطريق الغرامى يقصد هذا الغزل الوجدانى . ثم لقيه مرة أخرى وأنشده : « يابانَ وادى الأجرع » وقال له : أشتهى أن تكمل هذا المطلع ففكر ابن سعيد قليلا وأنشد : « سُقِيتَ عَيْبَ الأدمع » فقال البهاء : والله حسن لكن الأقرب إلى الطريق الغرامى أن تقول : « هل مِلتَ من طربى معى » . وفى ذلك ما يدل من بعض الوجوه على إحكام البهاء للغة الغزل الوجدانى ومعانيه فى عصره ، وهو ما جعل معاصريه فى الديار الشرقية على شواطئ القرات وفى دمشق والشام وفى القاهرة ومصر يشغفون بديوانه ويروونه ، ويشهد بذلك ابن خلكان إذ يقول عنه :

« أجازني رواية ديوانه وهو كثير الوجود بأيدي الناس ». ومما يدل على ذلك من بعض الوجوه ما جاء في طبعة المستشرق بلمر لديوان البهاء من أنه اعتمد في تحقيقه للديوان على مخطوطة بمكتبة أكسفورد كتبها شرف الدين بن الحلوى الشاعر الموصلى الأصل الدمشقي الدار والمولد . ونصّ ابن خلكان في ترجمة البهاء زهير على أن هذا الشاعر لقيه ومدحه بقصيدة أحسن فيها كل الإحسان ، وطبعا طلب إليه أن يجيزه رواية الديوان فأجازه له . وأنشد ابن تغرى بردى لابن الحلوى قصيدة<sup>(١)</sup> في نهاية الرقة ، يتضح فيها تأثره بالبهاء وفيها يقول :

هَلالٌ ولكنْ أفتُ قلبى مَحَلُّهُ غزالٌ ولكنْ سَمَحُ عيني عَقِيْقُهُ<sup>(٢)</sup>  
على خَدِّهِ جَمْرٌ من الحسنِ مُضْرَمٌ يُشَبُّ ولكنْ فى قَوادى حَرِيْقُهُ

وشاع هذا الغزل الوجداني في الشام وغير الشام ، وبدون ريب لمصر وشعرائها ابن سناء الملك وابن النيه والبهاء زهير فضل شيوعه وذيوعه بعدهم في مصر والبلدان العربية .

### ابن<sup>(٣)</sup> مطروح

هو جمال الدين يحيى بن عيسى بن مطروح ، ولد بأسيوط سنة ٥٩٢ ونشأ وأقام بقوص دار العلم والأدب والشعر حينذاك ، واختلف إلى ما بها من حلقات العلماء والأدباء ، وفيها تعرّف على البهاء زهير وكان يكبره بنحو عشر سنوات . وأعجب به البهاء ، فاتخذة رفيقا وصديقا ، واستمع إلى أشعاره وملكته الشعرية فتفتح فكان يشجعه . ويبدو أنه حين عين حاكم قوص مجد الدين اللمطى البهاء كاتبه ، كما مرّ بنا في ترجمته ، سعى لديه ليستند عملا إلى صديقه ابن مطروح ، يدل على ذلك ما في ديوانه من مدائح موجهة لمجد الدين ، وأكبر الظن أنه حين سخط مجد الدين على البهاء وأعفاه من منصبه سخط بالمثل على ابن مطروح وأعفاه من عمله . وحاول أن يستلّ من نفسه سخطه عليه ، كما تشهد بذلك قصيدة يستعطفه بها استهلها بقوله :

لك الله إن العفو أقرب للتقوى ومثلك أولى مثلى الصّفْحَ والعفْوَ

٢٨٥/٦ وبراءة الجنان ١١٩/٤ وشذرات الذهب ٢٤٧/٥

والنجوم الزاهرة ٣٧٠/٦ ، ٢٧/٧ وحسن المحاضرة

٥٦٧/١ . وديوانه طبع قديما في القسطنطينية سنة

١٢٩٨ هـ وهو في حاجة إلى نشرة محققة .

(١) النجوم الزاهرة ٦٠/٧ .

(٢) العقيق : اسم وديان ومواضع متعلّقة في المدينة

ومجد .

(٣) انظر في ترجمة ابن مطروح وأشعاره ابن خلكان

ولم يجد الصديقان بدأ من ترك قوص والاتجاه إلى القاهرة ، ومَرَّت بنا مدحة رائعة للبهاء مدح بها السلطان الكامل عقب انتصاره الحاسم على الصليبيين سنة ٦١٨ وبالمثل نجد ابن مطروح يمدح الكامل منوها بهذا الانتصار بمثل قوله :

يَانَاصِرَ الدِّينَ الحَنِيفِ بِسِيفِهِ وَمِذْلًا أَهْلَ الشَّرْكِ وَالطَّغْيَانِ

وقد يدل ذلك على هجرة الصديقين معا إلى القاهرة في تلك السنة إن لم يكن قبلها ، وكما اتجه البهاء إلى أبناء الملك الكامل يمدحهم وفي مقدمتهم الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم منها إلى القاهرة سنة ٦٢١ كذلك مدحه ابن مطروح ، ومدح أيضا عمه الأشرف موسى ممدوح ابن النبيه ، وله مدائح مختلفة في أمراء بني أيوب . ويقول ابن خلكان في ترجمته إنه تنقلت به الأحوال في الخدم والولايات ، ولا نعرف بالضبط ما هي هذه الخدم والولايات التي عمل بها . ومَرَّ بنا أن البهاء زهير وثق صلته بالملك الصالح نجم الدين أيوب ، ونرى ابن مطروح يلتحق بخدمته ، ولا ندرى أى الصديقين قدم صاحبه إليه ، ويذكر ابن خلكان أن ابن مطروح كان في خدمة الملك الصالح حين أصبح نائبا لأبيه الملك الكامل على البلاد الشرقية : الرُّها والرِّقَّة وغيرهما في سنة ٦٢٩ وظل معه هناك حتى إذا استولى الملك الصالح على مقاليد الأمور بالقاهرة سنة ٦٣٧ استبقاه في دمشق فترة ثم استقدمه إليه سنة ٦٣٩ وعيَّنه ناظرا في الخزانة ، ولم يزل ينعم بقره وحظوته منه حتى سنة ٦٤٣ إذ عيَّنه وزيرا له في دمشق يدير شئونها ، فارتفعت منزلته . وقدم عليه الملك الصالح في سنة ٦٤٦ ولم تعجبه بعض تصرفاته فعزله من منصبه وسيره مع جيش للاستيلاء على حمص . وسمع بحملة لويس التاسع ومن انضموا إليه من حملة الصليب وأنهم اجتمعوا بجزيرة قبرس لقصد مصر ، فسحب جيشه المحاصر لحمص وعاد به إلى مصر في شهر المحرم سنة ٦٤٧ وخيَّم به على المنصورة وابن مطروح في خلتمته وهو متغير عليه متكر له إلى أن توفي في شعبان سنة ٦٤٧ وقاد ابنه توران شاه المعركة ، ودمر الحملة الصليبية ، وأسر لويس التاسع وسُجِن بدار ابن لقمان بالمنصورة والطواشي صبيح يحرسه إلى أن فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار وعاد مهزوما مدحورا مع فلول جيشه الصليبي إلى البحر المتوسط وما وراءه . وأغلب الظن أن ابن مطروح لم يحضر المعركة فقد عاد بعد وفاة الملك الصالح إلى داره بالقسطنطين وانقطع إليها ، وشاع أن لويس التاسع يعدُّ حملة ثانية لمصر فكتب إليه قصيدته اليبعية :

قُلْ لِلْفَرَنْسِيِّسِ إِذَا جِئْتَهُ . مَقَالَ صِلْتِي مِنْ قَوْلِي نَصِيحِ

آجَرَكَ اللهُ عَلَى مَا جَرَى      مِنْ قَتْلِ عِبَادِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ  
 أَنْتِ مَصْرًا تَبْتَغِي مُلْكَهَا      نَحْسِبُ أَنْ الزَّمْرَ - يَاطْبُلُ - رِيحَ  
 فَسَاقَكَ الْحَيْنُ إِلَى أَذْهَمِ      ضَاقَ بِهِ عَنِ نَاطِرِيكَ الْمَسِيحِ<sup>(١)</sup>  
 وَكُلُّ أَصْحَابِكَ أَوْدَعَتْهُمْ      بِحَسَنِ تَدْبِيرِكَ بَطْنُ الضَّرِيحِ  
 خَمْسُونَ أَلْفًا لَا تَرَى مِنْهُمْ      إِلَّا قَتِيلًا أَوْ أُسِيرًا جَرِيحَ  
 وَفَقَّكَ اللهُ لِأَمْثَالِهَا      لَعَلَّ عَيْسَى مِنْكُمْ يَسْتَرِيحُ  
 وَقُلْ لَهُمْ إِنْ أَضْمَرُوا عَوْدَةَ      لِأَخِذْ ثَأْرًا أَوْ لِقْصِدِ صَاحِبِ  
 دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ عَلَى حَالِهَا      وَالْقَيْدُ بَاقٍ وَالطَّوَاشِي صَبِيحُ

ويعلق ابن تغرى بردى على القصيدة بقوله : « لله دَرُّهُ ! فيما أجاب عن المسلمين مع اللطف  
 والبلاغة وحسن التركيب ». والقصيدة تمتلئ بالسخرية والتهكم ، فقد ظن لويس ظنا كاذبا أن  
 مصر قريبة المال فإذا من دونها حُرُّ رقاب الكثرة من جيشه وأسر البقية في الأغلال . ويسخر منه  
 سخرية قاتلة حين يطلب إليه أن يعيد أمثال تلك الغزوة المشتومة حتى يستريح منهم عيسى وتُحزَّرَ  
 رقابهم جميعا . ويسخر من البابا ودعوته لهم أن يتجهوا بحملاتهم الصليبية الخاسرة إلى الشرق ،  
 ويقول له ساخرا متهمكا : لاتزال دار ابن لقمان التي سُجنت فيها على حالها ، ولايزاد القيد أو الغل  
 باقيا ولا يزال حارسك صبيح في انتظارك . كلمات مسمومة وكأنها سقود يشويه عليه ، مع لطف  
 التعبير ودقته ورهافته ومع الوخز الأليم .

وظل ابن مطروح ملازما داره إلى أن لبى نداء ربه في مستهل شعبان سنة ٦٥٠ ونراه في  
 الستين الأخيرتين من حياته طوال مقامه بمنزله يكثر من الابتهال لربه أن يغفر له ، حتى إذا توفى  
 وُجد البيتان التاليان في رقعة تحت رأسه :

أَتَجَزَعُ لِلْمَوْتِ هَذَا الْجَزَعُ      وَرَحْمَةُ رَبِّكَ فِيهَا الطَّمَعُ  
 وَلَوْ بِذُنُوبِ الْوَرَى جِثَّتْ      فَرَحْمَتُهُ كُلُّ شَيْءٍ تَسَعُ

ويقول ابن خلكان : « كانت خلاله حميدة جمع بين الفضل والمروءة والأخلاق الرضية ،  
 وكانت بينى وبينه مودة أكيدة . وله ديوان أنشدنى أكثره » . ويبدو أن ديوانه المطبوع لا يحتفظ

(١) الحين : الهلاك . أدمع : قيد .

بجميع أشعاره ، ومن أكبر الأدلة على ذلك أننا لا نجد فيه شيئاً من مدائح في الملك الصالح إلا مقطوعة ذُكر فيها عرضاً مع أنه ظل في خدمته نحو عشرين سنة ، بينما نجد في الديوان غير ملك أو أمير أيوبى ، وربما كان حذف مدائح من الديوان من صنيع الشاعر نفسه ، وكأنما عَزَّ عليه أن يُعزَّل من منصبه ، فانتمم لنفسه بحذف تلك المدائح .

ومرَّ بنا آنفاً أنه نشأت بينه وبين البهاء زهير مودة صافية منذ أيام صباه وشبابه في قوص ، حتى كانا كالأخوين ، وامتدت بينها هذه المودة الحلوة طوال حياتها ، وجنَّيا منها واقتطفا أزهارها أو ثمارها هنيئة ، كما يوضح ذلك ديواناها وما فيها من مراسلات شعرية بينها . وهو مثل صديقه يكثر من شعر الغزل الوجداني غير أنه كان يميل أكثر منه إلى الرمز عن وجده بانخاذه غالباً البدويات رمزاً لمحبوباته ، وكأنه يريد أن يقرن وجده بوجود مجنون ليلي وأضرابه من شعراء نجد ، حيث يبثُّ في وجده وجه شذا الحنان والشوق الذى يكتظ به من قديم الغزل العذرى وما يُطوى فيه من حرارة ولوعة ، على شاكلة قوله :

|                              |                                     |
|------------------------------|-------------------------------------|
| هي رامةٌ فخذوا يمينَ الوادى  | وذروا السيوف تَقَرُّ في الأغادِ (١) |
| وحذارٍ من لحظاتِ أعينِ عينا  | فلكم صرَعن بها من الأسدِ (٢)        |
| مَنْ كان منكم واثقاً بفؤادِ  | فهناك ماأنا واثقٌ بفؤادِ            |
| ياصاحبى ولى بجرعاء الحمى     | قلبٌ أسيرٌ ماله من فادى (٣)         |
| سلبته منى يوم بانوا مقلَّة   | مكحولةٌ أجفانها بسوادِ              |
| وبحى من أنا فى هواه مئتُ     | عَيْنٌ على العُشاق بالمرصادِ        |
| كيف السيلُ إلى وصالِ محجَّبِ | ما بين بيض ظبًا وسُرَّ صعادِ (٤)    |
| حرسوا مُهفَهفَ قَدَّو بمثقفِ | فتشابه الميَّاس بالمَيَّادِ (٥)     |

وواضح أنه رمز لحبه والتباعد فيه برامة في نجد وظبائها ساحرات الأعين اللاتى يصرعن بين الأسد ، وقد خلف قلبه أسيراً هناك ولا من يفديه سلبته منه عين فاتتة مكحولة أجفانها بسواد

صعدة : القناة أو الرمح .

(١) رامة : موضع بالبادية .

(٥) الميَّاس : المتبختر . الميَّاد : المتابل ، والمثقف :

(٢) العين : بقرة الوحش .

الرمح .

(٣) جرعاء الحمى : أرضه ذات الحزونة

(٤) الظبي : جمع ظبة : حدالسيف . الصعاد : جمع

أسر ، وأحد لا يستطيع أن يصل أو يلمّ بتلك الديار : ديار رامة والحبيبة ، فمن دونها سيوف ورماح مسلولة مشرعة ، ويعجب أن يُحرَسَ قَدُّها الرشيقي المتبختر المختال برمح مشبه لها مياد أوامِيَال . ويقول :

سَفَرْتُ وجاءتُ في العَلَّالِ تَنَنِي فَأرْتُكَ حَظَّ المَجْتَلِي والمَجْتَنِي  
وَرَنْتُ فما تُعْنِي التَّائِمُ والرَّقِي وَأبيكَ عن لِحْظَاتِ تلك الأَعْيُنِ  
بِدَوِيَّةٍ كم دونها من ضارِبِ بالسيف مرهوبِ السُّطَّا لم يُؤْمِنِ  
لا يَخْدَعُنْكَ لِحْظَ طَرْفِ فَاتِرٍ أبداً ولا تَأْمُنْ لعِطْفَةِ كَيْنِ  
أَبْسَتْنِي ياهاجِرِي ثوبَ الضَّنَا وأخذتني يا تاركِي من مَأْمَنِي

لقد رفعت عن وجهها نقابها فشغفت قلبه حيا وافتتانا ، ومدّت بصرها إليه فوق في جبال أعينها مسحورا ولم تعد تغنيه التائم والرقى ، وإنما لبدوية أعراية تحميها السيوف المرفهة . وينصح صاحبه أن لا تخدعه العيون الناعسة ولا القدود اللينة عما يسيبان له من آلام وأوصاب دون أن يدوق شيئا من وصال ، ويشكو لصاحته البدوية ضناه وتباريح حبه ، يقول :

خَلَدُوا جِذْرَكُم من طَرْفِها فَهَوَّ سَاهِرُ وليس بناجِر من دَهْتَهُ المَهاجِرُ  
فإن العيون السودَ وهى فواتِرُ تقدُّ السيوف البيضَ وهى بَوَاتِرُ  
ولا تُخَدَعُوا من رِقَّةٍ في كلامِها فإن الحميَّ للعقول تُخايرُ  
من القاصراتِ الطَّرْفِ غارتُ لحسِنِا ضرائِرُها والنَّيِّراتُ الضَّرائِرُ  
إذا ما اشتهى الخَلْخالُ أخبارَ قُرْطِها فياطِيبَ ما تُمْلِي عليه الضَّفائِرُ

وهو يحتر من طَرْفِ صاحِبته ، فالسهام دائمة مصوبة منه ، ومن تصبه محاجرها تصمى قلبه ، وبالعجب فإن العيون الفاترة الناعسة تقد السيوف الباترة القاطعة ، ومخدّر من رقة كلامها المعسول فهو كالخمر يذهب بالعقول . ويقول إنها عفيفة مصونة ، تغار من حسنها الفاتن قربانها الحسناوات والكواكب النيرات . والصورة في البيت الأخير رائعة ، فضفاتر شعرها تطول حتى تلمس خلدخالها وكأنما تحدنه بأخبار قرطها ، ومن غزله في بواكير حياته :

خَدُّ تَوَقَّدَ إذ تَرَقَّرَ ماؤُهُ لَهْفِي على التَوَقُّدِ المَترقِرِ  
حقى الحَلِيّ لِحُسْنِها مَتوسِّسُ فاعجِبْ لِحَسَنِ الجِهادِ مَنْطِقِ

ياشمسُ قلبي في هوائك عطاردُ لولا تعرضه لها لم يُحرقِ  
 لم انس ما قالت وقد لمستُ يدي ماذا لقينا منه أو ماذا لقي  
 وأقول يا أنختَ الغزالِ ملاحاً فتقول لا عاش الغزالُ ولا بقي

يقول إن خد صاحبه المتوهج حمرة كأنه نار موقدة ، وماء جماله ونضرتة يتلألأ فيه ويتفرق ،  
 مما يملؤه فتنة به ولهفة عليه . ويقول إن حسنها يُنطق حتى الجواد ، وما وسوسة حليها إلا إعجاب منه  
 بها ، وما هو قلبه قد احترق من تعرضه لشمس حسنها كما احترق عطارد أقرب الكواكب السيارة  
 للشمس من تعرضه لنورها الحار المشتعل ، ويذكر رقة قلب صاحبه وأنها حين لقيته وسلمتُ  
 أظهرت له عطفًا وشفقة ، حتى إذا شبهها بالغزال حسنا وملاحه قالت له مدلة : لا عاش الغزال  
 ولا بقي ، فهي أكثر منه فتنة وسحرًا وجمالًا . ويقول :

هزوا القُدودَ وأرهفوا سمرَ القنا - واستبدلوا بدلَ السيفِ الأعمى  
 وتقدموا للعاشقين فكلهم أخذ الأمانَ لنفسه إلا أنا  
 لاخيرَ في جفنٍ إذا لم يكنجلُ أرقاً ولا جسمٍ بجافاهُ الضنا  
 لما انثنى في حلةٍ من سندسٍ قالتُ غصونُ البانِ ما بقي لنا  
 شبهته بالبدر قال : ظلمتني - يا عاشقي والله - ظلما بينا

وهو يتصور هؤلاء الفاتنات كأنهن يقدن معركة رماحها قدودهن وسيوفها عيونهن وكل من  
 حوله يطلب منهن الأمان إلا هو ، فقد تعلق بإحداهن ، وهو لا يرى للحياة قيمة بدون الحب  
 والسهاد فيه وضنا الجسم والنحول . ويرى صاحبه في حلة سندسية خضراء ، فيتصور كأن غصون  
 شجر البان الذي طالما تغنى به المحبون تقول : ما أبقت لنا من الحسن والنضرة والجمال ، ويشبهها  
 بالبدر فتقول له مدلة كصاحبه السابقة : ظلمتني ظلماً بيناً فهي أكثر منه جمالا وحسنا وروعة . ومن  
 آياته البديعة التي تتداولها كتب الأدب قوله في بعض غزله .

لبسنا ثيابَ العناقِ مزررةً بالقَبَلِ

ولعل في كل ما قدمت ما يصور غزل ابن مطروح الوجداني وما أشاع فيه من الرقة واللفظ  
 والدمائة والظرف وعضوبة الروح وخفة الظل .

برهان<sup>(١)</sup> الدين القيراطي

هو إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عسكر ، ولد لأبيه سنة ٧٢٦ . والقيراطي نسبة إلى قيراط بلدة بمحافظة الشرقية سميت فيما بعد باسم كفر النحال وُضعت إلى مساكن مدينة الزقازيق ، كان أبوه شيخا جليلا ولى القضاء بالمنوفية ودمياط وأسيوط ، ودرس في مدرسة كانت تجاور الإمام الشافعي وبمشهد السيدة نفيسة والجامع الأزهر توفى سنة ٧٤٠ . ونشأ برهان الدين بالقاهرة وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات العلماء إلى أن برع في الفقه وعلمى الأصول والعربية وأكب على كتب الحديث وأخذها عن أئمتها ، ودرّس وحدّث بالقاهرة . واستيقظت فيه مبكرة موهبته الشعرية ، فكان ينظم المدايح ويدبجها في السلطان حسن وغيره ، وسلك في شعره طريقة ابن نباتة ، وتلمذ له وراسله . وله في وصف شعره ونثره تقرير بديع احتفظ بفقرات منه الحموى في باب الاقتباس بجزائره . ويقول ابن تغرى بردى في ترجمته بالمنهل الصافي : « هو شاعر عصره بعد الشيخ جمال الدين بن نباتة وأقرب الناس إليه من دون تلامذته ومعاصريه من شعراء عصره ، مع علمي بمن عاصره من الشعراء ولا حاجة لنا إلى ذكرهم فإنه أرق وأحلى وأرشق » . ويقول ابن حجر : « كان له اختصاص بالشيخ السبكي وأولاده وله فيهم مدائح ومرثي وبينهم مراسلات » ويقول ابن العماد في الشذرات : « له في تاج الدين السبكي غرر المدائح » واحتفظ تاج الدين في كتابه « طبقات الشافعية » بمراسلات بينه وبين القيراطي استغرقت نحو ثمانين صحيفة ، وأنشد مرثية له في أبيه مطلعها :

أمسى ضريحك موطن الغفرانِ ومحلّ وفدٍ ملائِكِ الرحمنِ

ورأى أن يجاور بمكة مثل كثيرين من علماء عصره وقبل عصره ، فرحل إليها ، وأخذ عنه جماعة من علمائها والقادمين عليها ورووا عنه ديوانه . ويذكر ابن حجر بعض تلاميذه من جلة محدّثين في القاهرة أمثال شيخ الحفاظ أبي الفضل العراقي والشيخ بدر الدين البشتكي ، وفي مكة أمثال جمال الدين بن ظهيرة وتقي الدين الفاسي المذكور في مصادره ، وقد كتب عنه بعض شعره

٣٢/٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٧٠/٦ والقصد الثمين في تاريخ البلد الأمين لتقي الدين الفاسي (طبع القاهرة) ٢١٧/٣ . وله ديوان أسماه مطلع النيرين طبع بمصر سنة ١٢٩٦ هـ ومنه عدة مخطوطات بدار الكتب المصرية .

(١) انظر في ترجمة برهان الدين وأشعاره المنهل الصافي لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ٧٠/١ والنجوم الزاهرة ١٩٦/١١ وطبقات الشافعية للسبكي ٣١٤/٩ - ٣٣١/١٠ والدرر الكامنة لابن حجر

وأجاز له روايته ، ومازال طلاب علمه وشعره يعكفون على حلقاته بمكة حتى توفي بها سنة ٧٨١ .  
ولبرهان الدين غزل وجداني كثير ، أو كما يسميه البهاء زهير غزل على الطريقة الغرامية ، غزل  
يقدمه صاحبه لمحبوته مؤملا في الوصال ، ودائما لا وصال بل دموع وأشواق ووصف للصبابة  
والغرام والوجد الذي لا تنطفى ناره في قلوب أصحاب هذا الغزل ، مع مشاعر غامرة من اللطف  
والرقة ، ومع الألفاظ والأساليب الرشيقة من مثل قوله :

بأبي لحظُ غزالٍ قائلٍ في الفلوات<sup>(١)</sup>  
أخذتُ بابلُ عنه بعضَ تلك النفثاتِ  
حسناتُ الخدِّ منه قد أطالتِ حَسراتي  
أعشقتُ الشاماتِ منه وَهَى أسبابُ ممانِي  
إنَّ للموتِ بأقدا حِ جفوني سكراتِ  
قلتُ قد مِتُّ غراما قال لي مُتْ بجياني

والأبيات تطاير عن الفم بخفة ، وهو يشكو من لحظ غزال بدوى يقضى أوقات قيلولته في  
الفلوات ، غزال ينث في كل ما حوله السحر ، بفتنته وجمال وخطوده التي ملأت قلب الشيخ  
حسرات ، لأنه يتمنى الدنو منها ليتملّى بحسبها وما فيها من شامات تزيدها حسنا وجمالا ، وإنه  
ليبوب - أو كما يقول - ليموت وجدا والتياغا ، وتلك سكرات الموت تملأ أقداح جفونها ،  
ويتضرع إليها قائلا إنه مات غراما ، فتضحك في خبث مدلّة عليه قائلة له : « مت بجياني » ومن  
نفس هذا المعين المتدقق السلس يقول :

غرامى فيك يا قمرى غريبى  
وملّنى الحميمُ وصدّ عنى  
وكم سأل العواذل عن حديثي  
وعمّ يسائلون ولى دموعُ  
بدتُ في خدّها شاماتُ مسكٍ  
إذا نيرانُ خديّها تبدّتْ  
ومن شغفى يعضن القدّ منها  
وذكرك في دُجى ليلي نديى  
ومالى غير دمعى من حميمِ  
فقلت لهم على العهد القديمِ  
تحدّثهم عن التّبأ العظيمِ  
كحظى أو كليلي أو هومى  
رأيتُ بهنّ جنّاتِ التّعيمِ  
أغارُ على الثّصون من النسيمِ

(١) قائل : من القيلولة وهي وسط النهار ، وفعله قال

وكأنى بصاحبته في الأبيات هي نفس صاحبته الأولى ، ويقول إن غرامها غير يمه وذكرها  
 نديمه طوال الليل ، والتورية في البيت الثاني بديعة فقدم له الحميم والصديق في حب صاحبته ، ولم يبق  
 له إلا مدحه الحميم الحارير ارفقه . ويسيل البيت الثالث صفاء وعذوبة مع ما فيه من الجناس وكذلك  
 البيت الرابع وما به من اقتباس عن سورة « النبا » وتعجب أن يتساءلوا ودموعه تجرى على  
 حدودها ، ويقول إن شامت حدودها الضاربات إلى السواد كأنها نقط مسك أو كأنها مقطعة من  
 حظه معها أو من ليله أو من هوم حبا المشتعل في حنايا صدره . ويعجب أن يجمع خداه  
 بجمرتها المتوهجة بين نيران الجحيم حرارة وجئات النعيم وورودها الفاتنة . ويعلن غيرته عليها حتى  
 ليغار من النسيم إن هبَّ على ما يشبه غضبها من غصون الرياض النَّاضرة . ويقول :

|                                  |   |
|----------------------------------|---|
| يا مَنْ هجرتُ على هواهم عاذلُ    | أبجلُّ في شرع الهوى أن أهجراً               |
| طلعتُ بدورُ التَّمِّ من أزراركم  | فغدا اصطبارُ الصَّبِّ مُتَقَصِّمَ العُرا    |
| من كل هَيْفَاءِ القَوامِ كأنها   | غُصْنُ يجرُّهُ النسيمُ إذا سرى              |
| ذُكرتُ فصغرها العذولُ جهالةً     | حتى بدتُ للناظرين فكبرا                     |
| وجهلْتُ معنى الحسنِ حتى أقبلتُ   | فرايته فيها يلوحُ مصوراً                    |
| لما درتُ أنى الكلمِ من الهوى     | جعلتُ جواي في الحجة لن ترى <sup>(١)</sup>   |
| يامنْ إذا ما مرَّ حَلُو حديتها   | أغناك عن مرِّ العتيقِ وأسكرا <sup>(٢)</sup> |
| أرخصتُ يومَ البينِ سِعَرَ مدامعى | وتركتُ قلبى بالگرامِ مسعراً <sup>(٣)</sup>  |

وهو يتضرع إلى صاحبته أن لا تذيقه ألم الهجران وأن تنقذه منه ، فقد نفذ صبره إذ رآها مع  
 صواحبها الفاتنات وهن يمسنَّ ميسنَّ الغصون حين يداعبها النسيم ، ويقول إن العذول كان يحاول  
 الغض من جالها تسرية عن نفسه فلما رآها بهت وصاح . الله أكبر : أما هو فيرى فيها كل معاني  
 الفتنة مصورة مغرية . ولما علمت مقدار وجده المبرح بها لم يأخذها عليه إشفاق أو رحمة ، بل  
 مضت تُبدل عليه ، وتقول له : لن ترانى . ويعود إلى نداءها والتضرع إليها مصورا روعة حديثها  
 وحلاوته المسكرة ، ويقول لها : لقد أرخصت مدامعى وأسعرت قلبى أو أشعلته ناراً موقدة . وفي  
 البيتين الأخيرين طباق وجناس مندمجان في هذا الأسلوب السهل السائغ ، ويقول :

(٣) في مسعر تورية لأنها إما من السعور وهو المعنى المتبادر  
 غير المراد ، وإما من السعير أى الجحيم وهو المعنى المراد .

(١) الكلم : الجريح . لن ترى : لن ترانى .

(٢) يريد بالعتيق الحمر المعتقة .

علموا بأنى لا أحولُ فعدَّبوا      وَدَرَّوْا بَأْنِي عَاشِقُ فَتَضَيَّبُوا<sup>(١)</sup>  
 قتلوا المتَّيِّمَ فى الهوى ونظلموا      وَجَتَّوْا عَلَيْهِ بِصَدْمِهِمْ وَتَعْتَبُوا  
 ومهزَّهفٍ لولا حلاوةُ وجهه      مَا كَانَ مَرُّ عَذَابِهِ يُسْتَعَذَّبُ  
 إن كان يرضى أن أموت صبابةً      فَجَمِيعُ مَا يَرْضَاهُ عِنْدِي طَيِّبُ  
 يا باخلاً وله أجودُ بمهجتي      رَفَقًا عَلَى صَبِّكَ عَلَيْكَ يَعْذَبُ  
 إن ملتَ فالأغصانُ يُعْهَدُ مِثْلَهَا      أَوْ غَيْتَ فَالْأَقْمَارُ قَدْ تَتَغَيَّبُ

وهو يقول إن صاحبه عرفت أنه لا يستطيع حولا عنها فتادت في تعذيبه ، ولم ينفعه عندها عشقه . فقد أظهرت له سخطا وغبضا ، ومع أنها فككت بمحبها تشتكى منه ظلما وجورا . وما تزال تتجنى عليه ، ويقول إن جمال وجهها هو الذى جلب له هذا العذاب المرير ، وإنه ليستعذبه إرضاء لها . حتى ليطيب له الموت فى سبيلها . ويقارن بينه وبينها ، فهو يجود لها بروحه ، وهى شحيحة شحا شديدا ، لا تجود له حتى بنظرة . ويعلل نفسه قائلا : إن مالت عنه فذلك طبعى ، لأنها غصن رشيق ، وطبيعة الأغصان أن تميل مع الرياح ، وكذلك إن وعدته وغابت فطبيعة الأقمار أن تغيب عن الآفاق .

وكان القيراطى يكثر من التوريات ، واختار له ابن حجة الحموى منها فصلا<sup>(٢)</sup> طريفا أودعه خزائنه ، من مثل قوله :

تَنْفَسُ الصَّبْحُ فَجَاءَتْ لَنَا      مِنْ نَحْوِ الْأَنْفَاسِ مِسْكِيهِ  
 وَأَطْرَبَتْ فِي الْعُودِ قُمْرِيَّةٌ      وَكَيْفَ لَا تُطْرَبُ عُودِيَّةٌ

وعودية لها معنيان : القمرية التى تطرب على عود الشجر ، والمغنية الضاربة على العود ، والتورية واضحة . ولعل فيما سبق ما يوضح الغزل الوجدانى أو الغرامى عند القيراطى ، وكان - كما أسلفنا - شيخا من شيوخ الحديث النبوى فى عصره ، وكان طلابه يختلفون إليه فى أخذه عنه بالقاهرة ومكة . ولا ريب فى أن إسهام مثله فى هذا الغزل يدل دلالة قاطعة على أن موجته بمصر فى هذا العصر كانت حادة وأنها عمت حتى شيوخ الحديث وحفاظه من أمثال القيراطى . ووراءه كثيرون من الشيوخ الفقهاء والمحدثين المصريين خلفوا دواوين تحمل سيولا من هذا الغزل الوجدانى الرقيق أمثال ابن دقيق العيد وابن الصائغ الحنفى وابن حجر

(٢) خزانة الأدب للحموى ص ٣٨١ .

(١) أحول : أحول .

نور الدين<sup>(١)</sup> على المُسَبِّلِي

من علماء مصر وفضلائها وشعرائها في القرن العاشر الهجري توفي سنة ٩٩٤ للهجرة وكان فقيها شافعيًا تلمذ لشيخ الأزهر ، وأظهر براعة في فنه ، وعكف على التأليف والتدريس ، وفيه يقول الشهاب الخفاجي : « نور حدة الزمان ونور (زهر) حديقة الحسن والإحسان وكحل عيون الفضلاء والأعيان » وعاش طويلا ، وتعلق بأخرة بالسادة البكرية ، فقابله الدهر - كما يقول الشهاب الخفاجي - بوجه طليق . ويبدو أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة ، فقد غطى أشتهاره بشعره على شهرته بالعلم والفقه والفضل ، وغلب عليه الغزل من مثل قوله :

سَقَى الحِمَى ولياليه التي سَكَفَتْ      من أدمعى ومن الوَسْمَى هَتَانُ<sup>(٢)</sup>  
 لى فى الديار سقاها المزن صَيِّهْ      غزالُ حُسْنِ بديع الخلق قَتَانُ<sup>(٣)</sup>  
 يارِ رَبِّ الحسَن قد بالغتَ فى تلى      أما لهجرِكِ يالْمِيَاءِ هجرانُ<sup>(٤)</sup>  
 هلا نظرتِ إلى مُضْنَاكِ راحمةً      فكان يشفع منك الحسَنَ إِحْسَانُ

وهو لا يميل الدعاء بأن يُسَقَى الحمى وليالى حبه فيه أمطار الربيع ودموعه الهاطلة أبداً فى الديار غزال سحره وخلب ليه . ويهتف بسرب الحسن أن يلتفت إليه وبصاحبته لمياء أن تصله بعد طول الهجر والعداب ، حتى ولو بنظرة عطف وإشفاق على مضناها الذى طال عناؤه وشقاؤه وحرمانه . ويقول :

كَانَ الذى أهوى على نفسه جَنَى      قال على تلك المحاسن بالفتك  
 فأغرق خَدَّيه بماءِ جِمالِه      وأوقع فى الظلِّماء ناظرَه التُّركى  
 وهاجفنه يبيكى عليه من الضنَّا      وها خَصْرُهُ من ثِقَلِ أردافه يُشكى

وهو يجعل المحبوب التركي جانباً على نفسه ، فقد أغرق خديه فى ماء جماله أو بعبارة أخرى فى رونق حسنه ، وكأنما كحل ناظره الأسود بالظلام الداغى فلمع بريقه ، ويتخيل كأنما جفنه يبيكى

(٣) المزن : السحاب . صَيِّهْ : مطره .

(٤) الريب : القطيع من الظباء أو البقر الوحش .  
 والاستعارة واضحة .

(١) انظر فى نور الدين العسلى وترجمته رحمانه الألبا

(تحقيق عبدالفتاح الحلوى) ١٩٧/٢ وما بعدها وشذرات

الذهب ٤٣٤/٨

(٢) الوسمى : مطر الربيع . هتان : هطال .

على ضنائه وكأنما خصره يشكو من ثقل أردافه ، وقد استعمل يشكى مثل العامية بدلا من يشكو الفصيحة ، ويقول في إحدى الجوارى .

دَبَّتْ لَهُ ذُوَابَةٌ كَحَيَّةٍ مِنْ خَلْفِهِ  
تَحْمَى ضَعِيفَ خَصْرِهِ مِنْ خَارِجِي رِدْفِهِ

وهو يشبه الضفيرة بحية وكأنها تحمي خصره من ثقل ردفه ، وقد عبر عنه بأنه من الخوارج مبالغة ، ويقول :

كُلُّ فِعَالِ الْحَبِّ مَحْمُودَةٌ وَإِنْ تَجَانَى وَتَجَنَّى وَتَسَاه  
فَوَضَلَهُ قَطَعُ لِدَاءِ الْأَسَى وَهَجْرِهِ قَطَعُ لِقَوْلِ الْوَشَاه

فهو يرضى من محبوبته حتى هجرها ليقطع ألسنة الوشاة ، وهو جانب فيه من النظرف والرقه ورهافة الشعور مما يمتاز به أهل القاهرة ، وله قصيدة بديعة في دولا ب (ساقية) روض صورته فيها ينوح ويئن دائما لفراقه روضه إذ كان شجرة ضخمة في إحدى الرياض قطع أوصالها غبي ودق عظمها في ضلوعها ، فهي ماتني تبكى على عهدها بالرياض ، وماتني عيونها جارية بالدموع . وفي الحق أنه كان شاعرا بارعا ، ومررنا أنه يكون مع تلميذه يحيى الأصيلي وتلميذ يحيى الشاعر يوسف المغربي مدرسة في الغزل زمن العثمانيين كانت تمتاز بدقة الحس ورهافة الشعور .

## ٢

## شعراء الفخر والهجاء

الفخر والهجاء غرضان قديمان من أغراض الشعر العربي ، فنذ الجاهلية يتغنى الشعراء بمفاخرهم الذاتية ومفاخر قبائلهم وأقوامهم ، وبالمثل يتغنون بأهـاج فردية تتصل بفرد بعينه ، وأخرى جماعية تتصل بالقبائل والأقوام ومثالبهم . ولا ريب في أن وتر الفخر الذي شدّه الشعراء إلى قيثاراتهم كان وترا خصبا ، إذ وقع الشعراء عليه كثيرا من الألحان الخلقية الرفيعة ، مما يتصل بالبروءة والكرم والوفاء والكرامة وغير ذلك من الفضائل الحميدة ، كما وقعوا عليه كثيرا من الألحان الحماسية التي تصور بسالتهم الحرية وما أذاقوه أعداءهم من الهزائم الساحقة . وظلت هاتان المجموعتان من الألحان طوال الحقب التالية ، وظل العرب في كل مكان يردّدونها صحائف تربية

مثالية وأناشيد حرية حماسية . وشعراء مصر منذ نشط فيها الشعر يشاركون في المجموعتين ، يشارك فيها الأمراء وأبناء الشعب ، من ذلك قول العباس بن أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية<sup>(١)</sup> :

لله دَرَى إِذْ أَعَدُّوْا عَلَى فَرَسِي إِلَى الْهِيَاجِ وَنَارُ الْحَرْبِ تَسْتَعْرِ  
وَفِي يَدِي صَارِمٌ أَفْرَى الرَّعُوسَ بِهِ فِي حَدِّهِ الْمَوْتُ لَا يُبْقِي وَلَا يَدْرُ

والبيتان من قصيدة حماسية ملتبية ، ومعروف أنه أخطأ في هذه الحماسة وما اقترن بها من شجاعة ، إذ وجَّهها إلى أبيه ثائرا عليه . وأخفقت ثورته . وينزل مصر في أيام كافور الأبخشيدي المتنبئ ، وتستدير حوله ندوة كبيرة تروى شعره وتتدارسه وكل ما فيه من فخر مضطرم وحماسة ملتبية . وتستقبل مصر الدولة الفاطمية ويدخلها المعز الفاطمي ، ومعه ابنه الشاعر النابغة تميم ، وله فخر كثير ، وسنفرد له ترجمة عما قليل ، وولتقي بعده بولي الدولة بن خيران صاحب ديوان الإنشاء بمصر في عهد الظاهر والمستنصر المتوفى سنة ٤٣١ ونراه يبدئ ويعيد في الفخر بشعره وكتاباتاته من مثل قوله<sup>(٢)</sup> :

وَلَقَدْ سَمِعْتُ عَلَى الْأَنَامِ بِخَاطِرِ اللَّهِ أَجْرَى مِنْهُ بَحْرًا زَاخِرًا  
فَإِذَا نَظَّمْتُ نَظَّمْتُ رَوْضًا حَالِيًا وَإِذَا نَثَرْتُ نَثَرْتُ دُرًّا فَخَاخِرًا

فهو يفتخر بخواطره الغزيرة التي تنسكب من ذهنه كأنه بحر زاخر ، وهو يهدي منها إلى الناس والآفاق أشعارا رائعة ورسائل بديعة . وولتقي بغير شاعر فاطمي يفخر بنفسه فخرا حاسيا ملتبها على شاكلة قول الحسن بن زيد الأنصاري<sup>(٣)</sup> :

مَنَالُ الثَّرْيَا دُونَ مَا أَنَا طَالِبُ فَلَا لَوْمَ إِن عَاصَتْ عَلَيَّ الْمَطَالِبُ  
وَإِنِّي وَإِن لَمْ يَسْمَعْ الدَّهْرُ بِالْمَنَى فَلَ فِي كَفَالَاتِ الرِّمَاحِ مَآرِبُ  
تُقَرَّبُ لِي مُسْتَبْعَدَاتِ مَطَالِبِي جِيَادِي وَعَزْمِي وَالْقَنَا وَالْقَوَاضِبُ

فما يطلبه ويتمناه فوق الثريا في أعلى علين من السموات ، وطبيعي أن لا تناله يده أحيانا ، ومع ذلك هو لا ييأس أن ينال من الدهر مطالبه ومآربه بفضل رماحه وجياده وسيوفه القواضب

(٣) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦٩/٢ .

(١) النجوم الزاهرة ٢١/٣ .

(٢) معجم الأديباء ٨/٤ .

القاطعة وعزمه الذي لا يُقَلَّ ، إنه مملوء فتوة وقوة صلبة ينيلانه كل ما يتمنى . وكان يعاصره الرشيد بن الزبير أخو المهذب الذي ترجمنا له في الفصل الماضي وقلنا هناك إنه وقعت لأخيه الرشيد محنة باليمن إذ ذهب رسولا عن الدولة الفاطمية إلى أحد دعائها فسجنه وهمم بقتله مما جعل المهذب يستعطفه لأخيه بقصيدة رائعة ، ردَّ عليها بمجرد سماعها حرّيته ، إذ عفا عنه وأطلقه ، ونرى الرشيد يعلن في قوة أن نفسه لم تنكسر ولم يصيبها أى وهن بسبب هذا الحادث ، يقول (١) :

جَلَّتْ لَدَى الرَّزَايَا بِلَ جَلَّتْ هِمَمِي      وهل يَضُرُّ جَلَاءَ الصَّارِمِ الذِّكْرِ  
لو كانت النارُ للياقوتِ محرقةً      لكان يَشْتَبُه الياقوتُ بالحجرِ  
لا تُغَرَّرَنَّ بأطْهَارِي وَقِيمَتِهَا      فإنما هي أصدافٌ على دُرِّ  
ولا تظنُّ خفاءَ النجمِ من صِغَرِ      فالذنبُ في ذاك محمولٌ على البصرِ

وهو يقول إنه تحمّل الرزايا والمصائب التي نزلت به جلدًا شجاعا ، بل لقد جَلَّتْ همته جلاء السيف الباتر ، ويضرب مثلا بالياقوت فالنار مها اضطمرت لا تحرقه ، وإلا كان حجرا لا غناء فيه . وينظر إلى أطهاره وثيابه البالية فيقول لصاحبه : لا تغرنك هذه الأطهار الخلقة فإنها أصداف وقشور وأغطية للآلئ ثاقبة ، ويضرب مثلا بالنجم في السماء تستصغر الأبصار رؤيته ، والذنب في الصغر للبصر لا للنجم .

ونمضى إلى زمن صلاح الدين وما حققت مصر في أيامه من مجد حربي عظيم بسحقها الصليبيين في ديار الشام واستخلاص بيت المقدس وغيره من أيديهم ومحققهم محقا لا يكاد يبق منهم ولا يذر . وكان لابد لمصر من شاعر يتغنى لها بهذا المجد البطولي الذي توجها به صلاح الدين ، وتغنى ابن سناء الملك أكبر شعرائها حينئذ ببطولة صلاح الدين وجنده المصريين في قصائد حماسية مضطربة ، كما مر بنا في ترجمته ، وليس ذلك فقط ، فقد مضى يفخر في أشعاره فخرا عارما ، وكان كل ما تجمّع في صدر صلاح الدين وأبطال جيشه من أحاسيس تجمّع في صدر ابن سناء الملك وقلبه ، فإذا هو يتغنى بمثل هذا النشيد الرائع (٢) :

سَوائِ يَخافُ الدهرُ أو يرهَبُ الرُّدَى      وغيرى يَهْوَى أن يكون مَحَلِّدا  
ولكننى لا أرهَبُ الدهرَ إن سَطَا      ولا أهدُرُ الموتَ الرُّؤْمَ إذا عَدَا (٣)

(٣) الرُّؤْمُ : السريح .

(١) ابن خلكان ١٦٢/١ .

(٢) الديوان ص ١٦٥ .

ولو مدَّ نحوى حادثُ الدهرِ طرفه  
 توَقَّدُ عَزمِي يَبْرُكُ المَاءُ جَمْرَةً  
 وَأَظْمَأُ إِنِّ أَبْدَى لِي المَاءُ مِئَةً  
 ولو كَانَ إِدْرَاكُ الهَدَى بِتَدَلُّلٍ  
 وَإِنَّكَ عِبْدِي يَازَمَانُ وَإِنِّي  
 ولو عَلِمْتُ زُهْرَ النَجْمِ مَكَانِي  
 لَحَدَّثْتُ نَفْسِي أَن أَمَدًا لَهُ يَدًا  
 وَحِلْيَةٌ جَلْمِي تَتْرَكَ السِّيفَ مِيرَادًا  
 ولو كَانَ لِي نَهْرُ المِجْرَةَ مِوردًا  
 رَأَيْتُ الهَدَى أَن لَا أَمِيلَ إِلَى الهَدَى  
 عَلَى الكُرْهِ مَنِي أَن أَرَى لَكَ سَيِّدًا  
 لَحَرَّتْ جَمِيعًا نَحْوَ وَجْهِ سُجْدًا

وكانه لم يعبر في هذه الأنشودة الفريدة عن شعور كل مصرى لزمه حمل السلاح وسفك به دماء الصليبيين المعتدين الآثمين فحسب ، بل لقد عبر بها عن شعور كل مصرى على مر الزمن بأجماد أمته الحربية والحضارية . وإنه ليشمخ بنفسه في أعلى الأفلاك والسموات ، فإذا هولا يهرب الدهر ولا يهرب الموت الزوام ، ولو مد الدهر طرفه إليه لتنازله بعزم صادق يشعل الماء جمرا ملتها ويرد السيف كليلا صلداً لا يقطع . ويمتلئ صدره بإحساس الكرامة ، حتى إنه ليظماً إن أبدى له الماء مئةً ، بل إنه ليموت ظمأ حتى لو كان نهر المجره مورده وحقق له وروده كل ما أمله ، وحتى الهدى لو كان إدراكه بشيء من الهوان لرفضه . ويبلغ من استصغاره للدهر وأحداثه أن يشعر في قوة سيطرته عليه حتى كأنما ذل له ودان ، بل حتى كأنما أصبح له عبداً مسترقاً ، وهو مع ذلك يشعر في كبرياء بتعظيم شديد عليه ، حتى ليقول إن النجوم الساطعة لورأت وجهه لخرت ساجدة تقدم له التراتيل ، وكأنما تجسدت في روحه مضر الخالدة الجديرة بكل تقديس .

ومن طريف ما يلقانا من الفخر بعده فخر ابن نبأته الكثير شعره وكان حامل لواء الشعر في زمنه ، ومن قوله :

من مبلغُ العُربِ عن شعري ودولته  
 إِذَا رَأَيْتُ قَوَافِيهَا وَطَلَعَتَهَا  
 كَأَنَّ أَلْفَظَهَا فِي سَمْعِ حُسْدَهَا  
 أَنَّ ابْنَ عَبَّادَ بَاقٍ وَابْنَ زَيْدُونَا  
 فَقَدْ رَأَتْ مَقْلَتَاكَ البَحْرَ وَالثُّونَا  
 كَوَاكِبُ الرَّجْمِ يَحْرَقْنَ الشَّيَاطِينَا

وهو يقول إن من سمع شعره عرف أن الأندلس لم تُنْسَ ، فلا تزال حية نضرة ولا يزال شعراؤها العظام من أمثال المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وشاعره الوجداني ابن زيدون . وقد ورى في البحر والنون يريد بها بحر الشعر ونون القافية في القصيدة لا الحوت ، ويسمى حساده باسم

الشياطين تسقط عليهم آيات قصيده كسهب الرجم فيحترقون ويستحيلون رمادا تذرؤه الرياح .  
وقلما نلتقى في الحقبة العثمانية بفخر إلا ما يتصل بالشائيل والأخلاق الكريمة .

ومنذ سال الشعر على ألسنة المصريين سال معه هجاء كثير ، وكان الشعراء يقذفون بسهامه -  
كما مربنا في غير هذا الموضع - الولاة والقضاة كلما انحرفوا عن الصراط السوي على نحو ما يصور  
ذلك كتاب الولاة والقضاة للكندى . ومعروف أن أحمد بن طولون استقل بمصر وأسس بها  
الدولة الطولونية ، وضم إلى لوائه الشام ، وله أعمال مجيدة كثيرة ، ولم يكن يخلو منه ظلم وعسف  
وسفك للدماء كما يقول ابن تغرى بردى وفي كتاب الولاة والقضاة شاعر يسمى محمد بن أبي داود  
كان كثيرا ما يهجو مزريا على ماشاده من المارستان وغير المارستان ، وفيه يقول من أشعار مقذعة  
كثيرة حتى بعد وفاته :

وكم ضجّة للناس من خلف ستره تضحُّ إلى قلبٍ عن الله مُغفَلٍ

قلبه غافل عن ذكر ربه وعن حوائج الناس وهم يضحجون خلف حجابهِ وحرسه . ولا نشك  
في أن ابن أبي داود ظلم ابن طولون ، فقد كان يعنى بالرعية وبني جامعه المشهور وعهد إلى بعض  
العلماء بالتدريس فيه . وأهاجى المتنبي في كافر الإخشيدى مشهورة ، وقد ظلّمه بدوره ظلما بيّنا .  
وكان المصريون قد احتضوا به حين نزوله في إلفسطاط وعقدوا له ندوة كبيرة ظلت طوال مقامه بين  
ظهرانهم ، ومن لزمه فيها وروى عنه شعره صالح بن رشدين ، وعبيد الله بن أبي الجوع وله  
نقائض وأهاج مع صالح بن مؤنس ، وله يقول صالح (١) :

هاجيك فيما قاله مادحُ فأت في صَفقتك الراجحُ  
ياأيها الصَّعُو الذي لم يزل يرقص حتى دَفَّه الجارحُ (٢)

وهو يسمى هجاءه له مدحا لأن فيه ذكرا له ، ومثله ليس شيئا حتى يذكر ، ويقول له إنك  
عصفور صغير لا يزال يرقص على الأغصان من غصن إلى غصن حتى يدق عنقه صقرا أو نسر  
جارح . ونمضى إلى زمن الدولة الفاطمية وما أخذت تنشره من عقيدتها الشيعة الغالية الراضية .  
وما زعمته للأئمة من نسبة إلى عالم القدس وأنهم من جوهر روحى مصفى وأنهم يعلمون الغيب

مما عرضنا له في غير هذا الموضوع . ويروى أن الخليفة العزيز بن المعز صعد المنبر في يوم الجمعة ،  
فأرى ورقة كتب فيها شاعر مصرى هذين البيتين <sup>(١)</sup> :

بالظلم والجور قد رَضِينَا وليس بالكُفْر والحماقة  
إن كنتَ أعطيتَ عِلْمَ عَيْبٍ فقلْ لنا كاتبَ البطاقة  
فتناولها العزيز وقرأها ولم ينيس بنت شفة .

وظل شعراء مصر طويلا مغاضبين لهذه الدولة معرضين عنها ، كما أسلفنا ، وكان مما أثار  
حفيظتهم بالإضافة إلى نخلتها المنحرفة اتخاذها وزراء لها من اليهود ممن أعلنوا إسلامهم ، وكان كثير  
من المصريين يشك في صحة إسلامهم وأنهم يتخذون ذلك ذريعة للاستيلاء على الوزارة  
والمناصب الكبرى في الدولة ، وكان منهم صدقة بن يوسف الفلاحى وزير الخليفة المستنصر واتخذ  
أبا سعد التستري اليهودى مديرا للدولة معه فصاح أحد الشعراء المصريين بالخليفة ساخرا  
غاضبا <sup>(٢)</sup> :

يهودُ هذا الزمانِ قد بلغوا غايةَ آمالهم وقد ملكوا  
العزُّ فيهم والمال عندهمُ ومنهمُ المستشارُ والملكُ

وهى سخريه من المستنصر قاتلة ، مما اضطره إلى النزول على إرادة الشاعر والشعب ، فاعتقل  
الوزير الفلاحى ولقى حتفه على يده . وعلى نحو ما كان المصريون يتعرضون للفاطميين بالهجاء كانوا  
كذلك يتعرضون لوزرائهم هاجين مرًا على نحو ما هجا الشاعر جاسوس الفلك الجرجائى  
وزير المستنصر وكان أقطع الديدن لخيانة ظهرت عليه في أيام الحاكم ، فلما ولى الوزارة استعمل  
الأمانة الزائدة والاحتراز الشديد فخاطبه جاسوس الفلك قائلا <sup>(٣)</sup> :

يا أحمقًا إسمعْ وقُلْ ودعْ الرقاعةَ والتحامقْ  
أمن الأمانة والثقى قُطِعَتْ يداك من المرافقْ

ولم يكن الوزير مصرى الأصل بل كان من جرجايا من أرض العراق . واشتهر الناجى المصرى  
بمقطعاته الهجائية الكثيرة في الأفضل بن بدر الجمالى وزير الخليفة الأمر ، وفيه يقول <sup>(٤)</sup> :

(٣) ابن خلكان ٤٠٨/٣

(٤) الحميدة ١٠٣/٢ .

(١) النجوم الزاهرة ١١٦/٤

(٢) حسن المحاضرة ٢٠١/٢

قُلْ لَابِن بَدْرِ مَقَالَ مِنْ صَدَقَةٍ لَا تَفْرَحَنْ بِالْوَزَارَةِ الْخَلْقَةَ  
إِنْ كُنْتَ قَدْ نَلْتَهَا مُرَاغِمَةً فَهَيَّ عَلَى الْكَلْبِ بَعْدَكُمْ صَدَقَهُ

وهو هجاء مقذع إقذاعا شديدا . ونرى داود بن مقدم المحلى الملقب برضى الدولة المار ذكره  
يهجو بعض أصحاب الدواوين وما كانوا عليه من فساد في جمعهم للضرائب ، يقول (١) :

وَكُتَّابٍ لَهُمْ أَبَدًا حُمَاتٌ تُعَدُّ لَهَا الرُّقَى مِثْلَ الصَّلَالِ (٢)  
بَأْيِدِ تَبْتَدِرُونَ إِلَى الرِّشَاوِي كَأَيْدِي الْخَيْلِ أَبْصُرْتَ الْخَالِي

فكأنهم يشبهون الزنابير والعقارب والأفاعى ، إن لم يقدم لهم الرشاوى لسعوا من يجمعون منهم  
الضرائب كما يلسع الزنبور والعقرب بجمتها أو إبرتها وكما يلسع الصل أو الأفعى بسمه القاتل .  
ونلتقى في أثناء ذلك بدعابات ساخرة كقول ابن قادوس يتكلم على الرشيد بن الزبير وكان شديد  
السواد (٣) :

إِنْ قَلْتِ مِنْ نَارِ خُلِقْتَ وَوَقَّتِ كُلَّ النَّاسِ فَهَمَّا  
قَلْنَا صَدَقْتَ فَمَا الَّذِي أَطْفَاكَ حَتَّى صِرْتَ فَحْجَا

وهى دعابة قد يقبلها الرشيد لما فيها من فكاهة خفيفة ، ولابن قادوس أحيانا هجاء ملىء  
بالسوم وخاصة ممن يضيق بهم كقوله فى مناقق مايزال يتلون لكل شخص باللون الذى يعجبه ،  
يقول (٤) :

حَوْلَهُ الْيَوْمَ أَنْاسٌ كُلُّهُمْ يُزْهَى بِرَائِهِ  
وَهُوَ مِثْلُ الْمَاءِ فِيهِمْ لَوْنُهُ لَوْ أَنَّ إِنَائِهِ

ونغضى إلى زمن الأيوبيين ، ويلقانا ابن سناء الملك ساخطا على بعض معاصريه ، يكويهم  
بسياط هجائه وخاصة من يسمى ابن عثمان ، حتى ليود أن يصفع بالنعال على حد قوله (٥) :

وَكَمْ لَهُ مِنْ وَقْعَةٍ لَمْ تُبْقِ مِنْهُ بَاقِيَةٌ  
وَمَا عَلَيْهِ قَطُّ مِنْ صَفْعِ النَّعَالِ وَاقِيَةٌ

(٣) الخريدة ١/٢٢٩ .

(١) الخريدة ٢/٤٧ .

(٤) الخريدة ١/٢٣٣ .

(٢) حات : جمع حمة وهى إبرة الزنبور والعقرب .

(٥) الديوان ص ٨٧٦ .

والصلال : الأفاعى .

فهو يتصوّرهُ يُصَفِّعُ بالتعال ولا مغِيث له ولا مجير ، وللبياه زهير بعض مقطوعات في الهجاء ، وهو لا يقذع فيه ، بل يفسح للدعابة والوخز الخفيف الذي لا يدمى ، وقد لا يتعدى وصفه بالثقل كقوله <sup>(١)</sup> :

رَبُّ نَقِيلٍ لُبُغْضٍ طَلَعَتْهُ أَخْشَاهُ حَتَّى كَانَهُ أَجْلَى  
وَكَلِمًا قَلْتُ لَا أَشَاهِدُهُ أَلْقَاهُ حَتَّى كَانَهُ عَمَلِي

وكان الشعراء يتعرضون أحيانا للوزراء يهجونهم كقول ابن مطروح يهجو هبة الله بن صاعد الفاترى مستغلا اسم أبيه في هجائه <sup>(٢)</sup> :

لَعَنَ اللَّهُ صَاعِدًا وَأَبَاهُ فَصَاعِدًا  
وَبَيْنِيهِ فَنَازِلًا وَاحِدًا ثُمَّ وَاحِدًا

وهو كصاحبه البهائم زهير لا يتسع في هجائه ولا يقذع فيه ولا يفحش .

ويظل الشعراء طوال عصر المالك يريشون سهام الهجاء ، ويلقانا في أوائله الجزار والوراق ولها أهاج فكهة كثيرة سنعرض لها في غير هذا الموضع ، وكان يعاصرهما البوصيرى شاعر المديح النبوى الرائع ، وكان يعمل موظفا في دواوين الأقاليم ، وله هجاء عنيف في طوائف الموظفين جميعا أو كما يسميهم المستخدمين من كتاب خراج وقضاة وغير قضاة ، ومن قوله فيهم <sup>(٣)</sup> :

ثَكَلْتُ طَوَائِفَ الْمُسْتَحْدِمِينَ فَلَمْ أَرْ فِيهِمْ رَجُلًا أَمِينًا  
أَقَامُوا فِي الْبِلَادِ لَهُمْ جِبَاةٌ لَقَبُصٌ مُغَلَّهَا كَالْمُقَطَّعِينَا  
تَحَيَّلَتِ الْقَضَاةُ فَخَانَ كُلُّ أَمَانَتِهِ وَسَمَّوهُ الْأَمِينَا  
وَكَمْ جَعَلَ الْفَقِيهُ الْعَدْلَ ظُلْمًا وَصَيَّرَ بَاطِلًا حَقًّا مُبِينَا

فهو يشكو من فساد جميع الموظفين ، فعمال الخراج كأنهم من أصحاب الإقطاع وهم يجمعون ما تغله إقطاعاتهم ، والقضاة يخونون الأمانة والفقهاء يجمعون بفتاواهم المضللة الظلم عدلا والباطل حقا ، ويردد ذلك في أشعار كثيرة تصور فسادهم جميعا وكيف كانوا يجمعون ثروات طائلة بطرق غير مشروعة . وسرى لابن دانيال أهاجى فكهة كثيرة في حديثنا عن شعراء الفكاهة . وما يلاحظ

(٣) الديوان ص ٢١٨ .

(١) البهائم زهير للشاعر مصطفى عبدالرازق ص ٢٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ٥٨٧ .

أن المصريين قلما يفحشون في هجائهم ، وكثيرا ما يتحول إلى ما يشبه عتابا رقيقا كقول ابن مكناس المتوفى سنة ٧٩٤ هاجيا<sup>(١)</sup> :

نَعَمْ نَعَمْ مَحَضَّتُهُمْ صِدْقَ الْوَلَا تَطُولَا<sup>(٢)</sup>  
وما رَعُوا عهدا ولا مسودَّةً ولا ولا

وفي كلمة « ولا » الأخيرة تورية واضحة إذ يريد بها مقصور ولاء . ونراه حين يصادر أمواله وبغاله وخيله السلطان الظاهر برقوق لا يشتم ولا يهجو بل يكتفى بقوله<sup>(٣)</sup> :

رَبُّ خُذْ بِالْعَدْلِ قَوْمًا أَهْلَ ظُلْمٍ مِتْوَالِي  
كَلَّفُونِي بَيْعَ خَيْلِي بِرَخِيصٍ وَبِغَالِي

والتورية في كلمة بغالى مع كلمة برخيص - وهو يريد بغاله الحقيقية - واضحة ، وهو يعمد إليها في هذا الظرف الحرج من محنته .

ونظلم نلتقى بالهجاء في أيام العثمانيين ، من ذلك قول الشهاب الخفاجي من قصيدة جميعها على النمط التالى<sup>(٤)</sup> :

يا ضَيْعَةَ الْهَيْمَانِ مِنْ عَائِلِي قَبِيلِ عَيْدِ أَعْوَزِ الْفُطْرَةَ<sup>(٥)</sup>  
وياقفا المهزوم من فارس أدركه في ساحة قَفْرَةَ  
وبَهْتَةَ السُّكْرَانِ مِنْ هَاجِمٍ فِي لَيْلَةِ مَظْلَمَةِ قَرَّةٍ<sup>(٦)</sup>  
ويا نَعِيًّا جَاءَ عَنْ وَاحِدٍ إِلَى عَجْوِزٍ مَالِهَا أُسْرَةَ

وتمضى القصيدة على هذا النحو الساخر اللاذع المضمي تكيل الذم لمهجوه كيلا وتهزأ به وتسخر منه سخرية قاتلة .

وتلقانا مطارحة<sup>(٧)</sup> طريفة بين الشاعر المعروف باسم شبانة المتوفى سنة ١٢٠٠ للهجرة والشاعر قاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ ، فقد نظم شبانة - يداعب قاسما - قصيدة هجائية طويلة يقول فيها :

- 
- (١) ربحانة الألبا للخفاجي (طبعة الحلبي) ص ٤١ .  
(٢) تطولا : تفضلا .  
(٣) النجوم الزاهرة ١٢/١٢٩ .  
(٤) نفحة الربحانة للمحى ٦١٢/٤ .  
(٥) الفطرة : التقل في لغة المصريين العامية . الهيمان : كيس النقود .  
(٦) قرّة : باردة .  
(٧) تاريخ الجيفى ١٢٨/٢ .

سبحان من قسم الثَّوْبِ سَ لِقاسمٍ وأذلَّ هامةً  
وكساه ثوبَ جِنايَةٍ يَحْزَى بها يومَ القيامةِ  
ومضى يتمه بأنه يعين لصوص البيوت ويسرق الحرير ويسل الكحل من العيون ، وردَّ عليه  
قاسم هاجيا مداعبا ، من نفس الوزن والقافية ، وكأنها يعيدان لنا نقائص جرير والفرزدق يقول  
قاسم :

جَلَّ الذي . قسم الثَّقَا لشبانَةٍ وله أدامَةٌ  
بعمامةٍ لوخالها الـ قَلًّا توهمها بِرامَةٍ  
موروثَةٍ عن جَدِّهِ من قبل أن تُبْتَى القِمَامَةُ  
لو كان يصلحُ للصلاة لِحَقِّ للقرِّدِ الإمامَةِ

والقَلًّا مقصور القَلَاء وهو من يَقلُ اللحوم والأطعمة ، والبرام : القدر الذي يُقلَى فيه . يشير  
بذلك إلى ضخم رأسه وقذارة عامته . ولعله يريد بالقمامة كنيسة القيامة بالقدس ، وقد بنيت  
حوالى سنة ٣٢١ للميلاد . والدعابة واضحة فى الأبيات . ونقف قليلا عند بعض شعراء الفخر  
والهجاء :

### تميم<sup>(١)</sup> بن المعز

هو تميم بن المعز مؤسس الدولة الفاطمية بمصر ، ولد لأبيه سنة ٣٣٧ بمدينة المهديّة التي بناها  
جده عبيد الله المهدي بتونس ، وقد تحول عنها ابنه الخليفة المنصور فى نفس السنة التي ولد فيها تميم  
حفيده إلى مدينة أسسها هناك سماها المنصورية ، وولد لأبيه بعده على التوالى عبد الله ونزار  
وعقيل ، وكان المعز قد بوع بولاية العهد فى حياة أبيه المنصور ، وجُدِّدت له البيعة حين توفى سنة  
٣٤١ . وكان فى الثانية والعشرين من عمره ، وكان حصييفا سيوسا ، دانت له إفريقية من تونس  
إلى المحيط ما عدا سبتة فإنها ظلت - كما مر بنا فى غير هذا الموضع - مع عبد الرحمن الناصر الأموى  
صاحب الأندلس ، وسيّر جوهرًا قائده إلى مصر فافتتحها سنة ٣٥٨ - كما مر بنا فى غير هذا  
الموضع - ودخلها المعز فى سنة ٣٦٢ وكان على الهمة بحكم تدبير الأمور حازما منتهى الحزم ،

الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين ص ١٧٠ ومقدمة  
ديوانه ( طبعة دار الكتب المصرية ) .

(١) انظر فى تميم وترجمته وأشعاره البيعة ٤٣٦/١ وابن  
خلكان ٣٠١/١ والحلة السمرية ( طبعة د . حسين مؤنس )  
٢٩١/١ وحسن المحاضرة ٥٦٠/١ وكتاب فى أدب مصر

وانضح حزمه إلى أقصى حد في صرفه ولاية العهد عن ابنه الأكبر تميم ، وكان لا يزال في المنصورية بتونس ، حين تأكد أنه يسير سيرة معوجة منحرفة ، مما جعل واليه على صقلية أحمد بن الحسن الكلابي يستأذنه في قتل أحد أبنائه لمشاركته تيمما في مجونه <sup>(١)</sup> .

ويبدو أن المعز حاول - دون جدوى - أن يرد ابنه إلى الطريق السوي حتى إذا فشلت محاولته صرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله <sup>(٢)</sup> ، ولم يلبث عبد الله أن توفي حين نزل مع أبيه في مصر فجعل المعز ولاية العهد لأخيه نزار الذي خلف أباه حين وفاته بالقاهرة سنة ٣٦٥ متمسما باسم العزيز .

وليس من ريب في أن المعز عُني بتربية ابنه تميم الذي كان يعدّه لولاية العهد منذ نعومة أظفاره ، فأحضر له المعلمين الدينيين واللغويين وعهد إلى بعض دعاة النحلة الفاطمية بتلقينها له ، وكانت للغلام موهبة شعر فذة ، فأكب على الشعر العربي في أزمنته المختلفة بتزود منه ، وسرعان ما استيقظت فيه موهبته ، فعكف على اللهو والمجون لا يردعه رادع . وانتقل مع أبيه إلى مصر ، فمضى في سيرته ، يحيا للهو والمجون . ويموت أخوه وأبوه فيرثهما رثاء فاترا ، وهورثاء يدل على مكنون ضميره وأنه كان يشعر في أعماقه بأن أباه سلبه حقه . وهو في ديوانه يكثر من مديح أخيه العزيز ، ونحس صدقه في هذا المديح وإخلاصه له ، ومع ذلك كان لا يسلم من الوشاة بينه وبين أخيه ، مما جعله يبعده مرة إلى عين شمس بجوار القاهرة ومرة ثانية إلى الرملة بفلسطين ، ويألم ألاما شديدا لغريته وبعده عن ملاعب مجونه ، وسرعان ما يرد العزيز إليه حريته . وهما فترتان صغيرتان في حياته الهنيئة بالقاهرة حتى وفاته سنة ٣٧٤ .

وكان العزيز يصدق عليه إغداقا عظيما ، فقد جعل القصور على بركة الحبش - بمصر القديمة الآن - خالصة له ، وكانت تطل على النيل ومن حولها حدائق بديعة ، ووهب له بستانا عظيما يعرف باسم المعشوق ، غير ما كان يضي عليه من الأموال الضخمة . وكل ذلك أتاح له أن يجيا حياة ترف وهو في قصوره وبساتينه ورياضه وفي الأديرة . وكان ينتهز فرصة الأعياد الكثيرة : الأعياد الإسلامية والمسيحية والفارسية ، فيشارك الشعب في مرحه وقصفه ، سواء فيما كان يقم من

الذي ذكرناه فقد كان لا يزال في مطلع شبابه ، وقد عاد نصرها عنه مرة ثانية بعد وفاة أخيه عبد الله . وربما كانت كناية تميم بأبي على قاطعة في أنه أنجب فضلا .

(١) سيرة جوزف (تحقيق د : كامل حسين) ص ١٢٠ .  
(٢) ذكر ابن الأبار في الحلة السبراء أن السبب في صرف المعز لولاية العهد عن تميم أنه لم ينجب ولدا . غير أن صرفها عنه وهو لا يزال في نحو العشرين من عمره يؤكد السبب

مضارب وسراذقات وقباب بركة الحبش أو فيما كان يتخذ من قوارب تضاء بالشموع ليلاً في النيل ، والمغنون والمغنيات يطربون الناس . وهو يمر بزوارقه على قواربهم ، ويستمع إلى من معهم ويُسمعهم بعض قياته . وفي ديوانه ما يصور كتوس اللهو والمجون التي كان يعبّ منها عباً ، ومرّبنا مديحه لأخيه العزيز وما أذاعه ونشره فيه من مبادئ الدعوة الفاطمية الإسماعيلية وعقيدتها في الإمام وارتفاعه عن البشر بجوهره الروحاني اللطيف وجسده النوراني الشفاف وعقله الكلي الفعال وإسباغ الصفات الربانية عليه . ويتمادى تميم في ذلك ومثله حتى لكأنه داعية من دعاة الدولة ودعاة أخيه العزيز خاصة وحسبنا ما صورناه عنه في حديثنا عن المديح . وهو في الديوان يضيف إلى هذا المديح فخراً يمتزج أحياناً بعقيدته في الأئمة ، وكأنه الإمام المنتظر ، إذ يقول :

|               |            |              |            |
|---------------|------------|--------------|------------|
| أنا الصبحُ    | أنا الشمسُ | أنا البدرُ   | الذي يسرى  |
| أنا المرجوُّ  | في العُسرِ | أنا المرجوُّ | في السُرِّ |
| أنا المُسبِلُ | للنُعمي    | أنا الكاشفُ  | للضُرِّ    |
| أنا الراتقُ   | للفتقِ     | أنا القاصمُ  | للظُّهرِ   |

وكانما تجسدت فيه شخصية أحد الأئمة ، فهو نور الصبح ونور الشمس ونور القمر ونور الأنوار الذي يستمد منه كل نور ، وهو مدبر الكون ومقسّم الرزق المرجو في العسر واليسر والمسبغ للنعمي والكاشف للضر الراتق للفتق القاصم للظهر . ويستمر فيقول إنه هو الحاطم للعظم والجابر للكسر والعالم بالذکر ، يريد أنه العارف لبواطن الذکر الحكيم ، كما يزعم الإسماعيليون لأئمتهم . ولا يبعد أن يكون مثل هذا الفخر هو الذي كان يتخذه الوشاة أداتهم للوقعة بينه وبين أخيه العزيز ، مما جعله يبعده ، كما ذكرنا ، مرة إلى عين شمس ومرة إلى الرملة . وتتردد أصداء من هذه المعاني في أشعاره في صوت عال تارة ، وتارة ثانية في صوت خفيض ، ومن قوله في ذلك :

|                               |   |
|-------------------------------|---|
| أبني عليُّ إن نكنزُ نُنمى إلى | حَسَبِ أَنَا فِ بِنَا وَجَدُ أَرَوْعاً <sup>(١)</sup>     |
| فلقد علمتُ أنني أغشى الوغى    | وَأَنُوبُ فِي الْجَلِي قَوْلَا مُسْمِعاً <sup>(٢)</sup>   |
| ولقد علمتُ أنني رُضْتُ العلام | يَقَعَا وَحَاوَلْتُ الْمَكَارِمَ مُرْضِعاً <sup>(٣)</sup> |

(١) أناف : أشرف وارضع .

(٢) الجلي : القي في إبان شبابه .

(٣) الرض : صبغة مبالغة من

فَدَعُوا لِي الشَّرْفَ الَّذِي شَدَّيْتَهُ إِذْ هَضَمْتُمُوهُ فَانْكَفَأَ وَتَضَعَّضَعَا (١)  
 لِي فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ جَوْلَةً يَعْلَمُونَ بِهَا قَلْبُ الزَّمَانِ مُصَدِّعًا  
 فَادْفَعْ بِحِدِّ السَّيْفِ كُلَّ ظَلَامَةٍ إِنْ لَمْ تَجِدْ يَوْمًا سِوَاهُ مَدْفَعًا  
 فَبِذَلِكَ أَوْصَانِي الْوَصِيِّ وَرَهْطُهُ وَعَلَى فَرَضٍ أَنْ أُطِيعَ وَأَسْمَعَا

وهو يخاطب أسرته العلوية ذات الحسب العالی والحظ العظيم واضعا بين يديها شجاعته ونفوذه في الأمور العظيمة برأيه المحكم وشعره البليغ ، ويزعم أنه راض العلاء وساسها في مطلع شبابه وأنه حاول المكارم منذ كان في المهد مرضعا . وإذن فليعطوه حقه والشرف الذي يمنونه منه ، وكأنه يندرهم ويهددهم ويتوعدهم إن لم يردوا عنه ظلمهم ويردوا إليه الحق المسلوب ، ويزعم أن تلك وصية جده أبي الأوصياء على بن أبي طالب وأبناؤه من الأئمة وأن فرضا عليه أن يسمع ويطيع . ولا ريب في أن هذه المعزوفة التي كان يوقعها كثيرا على قيثارته كان يضيّق بها العزيز ، غير أن غمتها سرعان ما كانت تنكشف عن صدره حين يستمع إلى مدائح تميم فيه وترديد قلميته ووجوب طاعته .

ومعزوفة ثانية كان كثيرا ما يعزفها تميم ويلحنها على وتر الفخر في قيثارته ، وتقصد ردوده العنيفة على فخر عبد الله بن المعتز العباسي بأسرته العباسية الهاشمية . وله إزاهه موقفان : موقف يختار فيه قصيدة من قصائد ابن المعتز في فخره بأسرته وينقضها نقضا بما يصور من مفاخر أسرته الفاطمية . وموقف ثان لا يتقيد فيه بقصيدة معينة يرثي عليها ، وهو في الموقف الثاني حر يختار أي وزن ينظم فيه وأي قافية ، أما في الموقف الأول فيتقيد بوزن القصيدة التي يرد عليها وقافيتها على شاكلة ما كان يحدث بين جرير والفرزدق في نقائضها ، ومن قصائد الموقف الأول رائية لابن المعتز استلها بقوله : « أَيُّ رَجَبٍ لَالَ هِنْدٍ وَدَارِهِ عَمْدٍ تَمِيمٍ إِلَى نَقْضِهَا بِقَصِيدَةٍ تَمَثَّلُهَا فِي الْوِزْنِ وَالرُّوْيُ ، وَفِيهَا يَقُولُ ، رَأْدًا عَلَى ابْنِ الْمُعْتَزِ وَالْعَبَّاسِيِّنِ جَمِيعًا :

لَيْسَ عَبَّاسُكُمْ كَمَثَلِ عَلِيٍّ هَلْ تَقَاسُ النُّجُومُ بِالْأَقْمَارِ  
 مَنْ لَه الصُّهْرُ وَالْمُوَاسَاةُ وَالنُّصْرَةُ ، وَالْحَرْبُ تُرْعَمِي بِالشَّرَارِ  
 مَنْ دَعَاهُ النَّبِيُّ خِدْنَا وَسَاءَ هُوَ أَنْتَا فِي الْخِضَاءِ وَالْإِظْهَارِ

(١) هضمته : من هاض العظم إذا حطمه وكان على وشك أن ينجر .

مَنْ لَه قَالَ أَنْتَ مِنْى كَهَارِو  
 ثُمَّ يَوْمَ الْعَدِيرِ مَا قَدْ عَلِمْتُمْ  
 مَنْ لَه قَالَ : لَاقَى كَعْلَى  
 مَنْ تَوَطَّأَ الْفِرَاشَ يَحْلِفُ فِيهِ  
 وَلَنَا حُرْمَةُ الْوِلَادَةِ وَالْأَعْدَى  
 نَحْنُ أَهْلُ الْكِسَاءِ سَادِسْنَا الرُّوْحُ  
 حُجَّجٌ كَلِمًا تَأْمَلُهَا الْعَالَمُ  
 نَ وَمُوسَى أَكْرَمُ بِهِ مِنْ نِجَارٍ (١)  
 خَصَّه دُونَ سَائِرِ الْحُضَارِ  
 لَا وَلَا مُتَّصِلٌ سِوَى ذِي الْفَقَارِ (٢)  
 أَحْمَدًا وَهُوَ نَحْوُ يَثْرَبَ سَارِ  
 حَامِ وَالسَّبْتِ وَالْهُدَى وَالْمَنَارِ  
 حُ أَمِينُ الْمَهْمِينِ الْجَبَّارِ  
 لِمُ بَانَ لَهُ بَيَانَ النَّهَارِ

وتميم يوازن بين جده على بن أبي طالب وعمه العباس بن عبد المطلب ، ويفاخر بأنه صهر الرسول ﷺ وساعده الأيمن في الحرب ، ويشير إلى حديث نبوى ترويه الشيعة : أن النبي عليه السلام قال : « على منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » . وهم يستدلون بهذا الحديث على أن عليا ليس أحق بالخلافة من العباس فحسب ، بل هو أيضا - في اعتقادهم - أحق من الشيخين : أبى بكر وعمر بالخلافة . ويذكر يوم غدِيرِ خُمٍّ وهو موضع بين مكة والمدينة انتهى فيه الرسول ﷺ على ابن عمه على ، وقال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، وتذهب الشيعة إلى أن الرسول عليه السلام أوصى في هذا اليوم بالخلافة لعلى . ومنذ أواسط القرن الرابع الهجرى يتخذ الشيعة هذا اليوم الموافق للثامن عشر من ذى الحجة عيداً لهم . ويشير تميم إلى ما يرويه الشيعة من أن الرسول قال : لاقى إلا على ولا سيف إلا ذو الفقار : سيفه . ويذكر أنه هو الذى اصطفاه الرسول لينام فى فراشه ليلة خرج مع أبى بكر مهاجراً إلى المدينة ، مخترباً حصاراً مسلحاً ضرته قريش حول بيته ، حتى لا تتببه إلى خروجه ، وكانت قد بُيِّتَ القضاء عليه ( يريدون أن يُطْفِئُوا نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره ) . ويقول إنهم يشتركون مع العباسيين فى أنهم من سلالة أعمام رسول الله ويرتفعون فوقهم درجات بأنهم أبناء بنت رسول الله السيدة فاطمة الزهراء . ويشير إلى ما تقصّ الشيعة من أن الرسول أتى كِسَاءَ عليه وعلى السيدة فاطمة وعلى زوجها وابنيها الحسن والحسين وكان سادسهم - كما يقول تميم - جبريل وقال : نحن أهل البيت فى خبريرددونه . ويذكر جهاد على المبرورى وغزوات الرسول وخاصة فى بدر وأحد وخيبر وكيف أبلى فيها جميعاً بلاء عظيماً . ويقول هذه كلها براهين ساطعة كالشمس بأفضلية على وارتفاع منزلته على عمه ، ويهدد العباسيين

(٢) متصل : سيف .

(١) نِجَار : أصل وحسب .

بحرب مبيدة تعصف بهم عصفا شديدا .

وتتم في الموقف الثاني الذي لا يتقضى فيه قصيدة بعينها لابن المعتز يلح على هذه المعاني نفسها في رده على العباسيين وفخره عليهم فخرا مضطرا بشرر كثير ، يريد به أن يثبت أن العلويين أحق بالخلافة من أبناء عمومته سواء من جهة إرثهم لها عن طريق جدهم على وجدتهم فاطمة بنت الرسول عليه السلام أو عن طريق وصاية الرسول بها لعلى أو عن طريق خدماته الجللى للدين الحنيف ونصره . وبعد طرفا من هذا الجدل إلى بنى أمية وهو يقصد أصحاب الأندلس في أيامه ، وكان أخوه العزيز كتب إلى صاحبها الأموي - ولعله المستنصر بن عبد الرحمن الناصر - كتابا يسبه فيه ويهجوه ، فكتب إليه : « أما بعد فإنك قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبتك والسلام » فاشتد ذلك على العزيز وأفحمه عن الجواب (١) . ولعل ذلك ما جعل تيمها يتصدى للأمويين ويفخر عليهم بمثل قوله :

|                                      |  |
|--------------------------------------|--|
| إِنْ قُرَيْشًا بِعُلَا هَاشِمٍ       | تَفْخِرُ فِي عَقْوَةِ عَرِيْسِهَا (٢)  |
| إِنْ يَكُ مِنْ يَاقوتِهَا هَاشِمٌ    | فَعَبْدُ شَمْسٍ مِنْ ضَغَائِيسِهَا (٣) |
| اسْمُ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ | أَهْلُ مَعَالِيهَا وَتَقْدِيسِهَا      |
| دَعَّ عَبْدَ شَمْسٍ وَأَبَاطِيلَهَا  | فَقَدْ بَدَأَ اللَّهُ بِتَنكِيحِهَا    |
| قَبِيلَةَ مَا ظَهَرَ اللَّهُ مِنْ    | شَايِعِهَا مِنْ إِثْمِ تَنْجِيسِهَا    |

فهاشم جد الرسول والعلويين فخر قريش في ساحة غيلها الملتف ، وهو وبنوه ياقوت قريش ومعدنها النفيس أما بنو أمية فحجارة صلده ، وللهاشميين بفضل الرسول علاهم وقدسيتهم ، أما عبد شمس وبنوه فأصحاب أباطيل مزورة ، وقد هدم الله دولتهم في المشرق ، وإنها لقبيلة آتمة إنما فظيعا ، وإنها لتصم كل من شايعها وصمة شنيعة . ويستمر فيذ كرسفكمهم لدم الحسين وسيهم لمن كن معه من النساء ، مسجلا بذلك عارا عليهم لا يماثله عار .

(٣) الضغائيس : جمع ضغوس : الضميف اللعيم .

(١) ابن خلكان ٣٧٢/٥

(٢) عقوة : ساحة . عريس : غيل الأسد .

## طلائع<sup>(١)</sup> بن رزّيك

أرمنى الأصل قَدَم إلى زيارة مشهد الإمام على بن أبي طالب بالنجف ، وكان لا يزال شابا واعتنق مذهب الشيعة الإمامية ، وتعرّف في أثناء زيارته له على شخص يسمى ابن معصوم يبدو أنه كان من دعاة الفاطميين ، فحبّب إليه زيارة القاهرة والانتظام في خدمة القوم ، ولقيت دعوة الرجل من نفسه قبولا حسنا ، فسار إلى مصر ، وترقى في خدمة الفاطميين حتى وُلّوه حاكما لمنية الخصب بالصعيد (المنيا الآن) وحدث أن تأمر عباس الصنهاجي وزير الخليفة الظافر مع ابنه نصر على قتل الخليفة سنة ٥٤٩ هـ وتمت المؤامرة ، فاستغاث بيت الفاطميين بطلائع ضد عباس ، فأقبل يريد محاربته حتى إذا قرب من القاهرة فرعباس بما نهب من أموال القصر الفاطمي إلى الشام ، وقتله الصليبيون في الطريق . ودخل طلائع القاهرة فخلعت عليه الخلع الخاصة بالوزارة ونُعت بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين . وكان قد ولي الخلافة الفاطمية ابن للظافر تلقب بالفاتر (٥٤٩ - ٥٥٥ هـ) وكان صيبا لا يعدو خمس سنوات ، فدبّر الدولة طلائع وأحسن تديرها ، حتى إذا توفى الفاتر بعد نحو ست سنوات اختار للخلافة بعده طفلا لم يبلغ الحلم من الأسرة هو عبد الله بن محمد الملقب بالعاقد ، وزوّجه ابنته ، وأصبح صاحب الأمر كله في الدولة . وأخطأ إذ قطع رواتب الخاصة ، فلم يدرك عام في خلافة العاقد حتى دبّرت له مؤامرة لقتله ، فقتل سنة ٥٥٦ هـ ويقال إن العاقد نفسه هو الذي أعمل الحيلة في قتله لاستبداده بالأمر من دونه ، وخاصة أنه كان شيعيا لا على مذهب الفاطميين الإسماعيليين ولكن على مذهب الإمامية . ويقول المقرئ : « كان رجل وقته فضلا وعقلا وسياسة وتديرا » . ولم يكن يستر عقيدته الإمامية بل كان يعلنها ويجادل فيها الفقهاء الإسماعيليين ، وصنف في ذلك كتابا سماه « الاعتاد في الرد على أهل العناد » ويقول المقرئ إنه جمع له الفقهاء وناظرهم عليه . وكان يجادل أيضا بقوة عن مذهب المعتزلة في القدر وأن الإنسان حر الإرادة لا مجبر كما يقول القدرية ، وله في ذلك قصيدة سماها : « الجهورية في الرد على القدرية » ومن قوله في الرد عليهم :

النكت العصرية عليه وعلى حياته وأجاده ومدائمه ومدائح  
غيره فيه ، ونشر محمد هادي الأميني ديوانه في النجف ،  
وأودع في مقدمته نبئا مفصلا بمصادر ترجمته .

(١) انظر في طلائع وترجمته وأشعاره الحريدة ١/١٧٣  
والغرب (قسم القاهرة) ص ٢١٧ وابن خلكان ٢/٥٢٦  
والجزء الخامس من النجوم الزاهرة في مواضع مختلفة (انظر  
الفهرس) وخطط للمقرئ ٣/١٩٢ وبنى عبارة اليمنى كتابه

يا أمة سلكت ضللا بيّنا حتى استوى إقرارها وجُودها  
مِلْتُم إلى أن المعاصي لم يكن إلا بتقدير الإله وجُودها  
لو صَحَّ ذا كان الإله بزعمكم منع الشريعة أن تُقام حُدودها

وقد فتح أبوابه للشعراء ، وكثير منهم كانوا يختلفون إلى مجلسه في منزله وخاصة الجليس بن  
الحباب والمهذب بن الزبير وابن قادوس ، وأصبحت القاهرة لعهد كعبة للقصاد من شعراء البلاد  
العربية أمثال ابن الدهان الموصلي وعمارة اليمنى ، ولكل هؤلاء الشعراء فيه قصائد طائفة ، وفيه  
يقول العماد : « نفق في زمانه النظم والنثر واسترقَّ بإحسانه الحمد والشكر وقرب الفضلاء ،  
واتخذهم لنفسه جلساء ، ورحل إليه ذوو الرجاء ، وأفاض على الداني والقاصي بالعطاء » . وقد  
أدار العماد كثيرا من تراجمه في القسم المصري من كتابه الخريدة عليه وعلى مدائحه . وألف في أيامه  
الرشيد بن الزبير كتابه « جنان الجنان ورياض الأذهان » في معاصريه من الشعراء ومادحيه  
واقتحه بترجمته ، كما ألف شاعره الجليس بن الحباب كتابا قصره على مدائح الشعراء فيه .

وقد حقق محمد هادي الأمين ديوانه ونشره بالنجف في نحو مائة وخمسة وعشرين صحيفة ،  
ويقول ابن خلكان إنه رأى ديوانه وإنه كان يقع في جزءين ، وكان ديوانه المنشور وإنما هو  
مقتطفات من ديوانه الأصلي ، واتهم بعض معاصريه بأن كثيرا من أشعاره ليس له وإنما هو من  
صنع شاعريه : الجليس بن الحباب والمهذب بن الزبير ، ويبدو أنها تهمة غير صحيحة ، وأنه ربما  
كان يرجع إليها لتصحيح بعض أشعاره إن صح ما قيل من أنها كانا يصلحان له شعره . وأكثر  
الديوان المنشور في مديح آل البيت وراثتهم وراث الحسين خاصة ، ولعل هذا هو سبب النغم  
الحزين الكثير في شعره ، إذ الشيعة دائما محزونون منذ مقتل الحسين وقد اتخلوا يوما يندبون فيه هو  
يوم عاشوراء ، وجعلوا شعارهم السواد ، وهو سواد يطبع كثيرا من أشعار طلائع بالتشاؤم والتفكير  
الكثير في الموت ، حتى في يومه البيح يوم جلوسه في الوزارة إذ نرى الدنيا تتحول بهجتها أمام  
عينه حزنا وشؤما وموتا ، وإذا هو ينشد حين تربعه في دسّت الوزارة :

انظُرْ إلى ذى الدارِ كم قد حلَّ ساحتها وزيرُ  
ولكم تبختر آمنا وسطَ الصفوفِ بها أميرُ  
ذهبوا فلا والله ما بقى الصغيرُ ولا الكبيرُ  
ولثل ما صاروا إلي ه من الفناء غدا نصيرُ

وكان طلائع شجاعا بل مثالا عاليا من الشجاعة والبطولة ، ففضى يعدُّ الجيش المصرى لحرب الصليبيين ونازلهم مرارا برًّا وبحرا ، وظل ينازلهم ويقاتلهم طوال أيامه ، حتى لقبه معاصروه بأبى الغارات ، فقد كان جيشه لا ينى آيبا ذاهبا إلى موقعة الصليبيين وسحق جموعهم فى جنونى فلسطين ودقُّ أعناقهم وسفك دمائهم فى حزونها وسهولها وعلى سفوح جبالها ، وله فى تصوير ذلك قصائد كثيرة من مثل قوله :

توالَتْ علينا فى الكئابِ والكبِ بِشائِرُ من شَرَقِ البلادِ ومن غَرَبِ  
 جعلنا جبالَ القُدْسِ فيها وقد جرتْ عليها عتاقُ الخيلِ كالثَقَنَفِ السُّهْبِ<sup>(١)</sup>  
 وقد أصبحتْ أوعارُها وحزونها سهولاً تُوطأُ للفوارسِ والرَّكَبِ  
 ولما غدتْ لآماءِ فى جَنابِها صَبَّينا عليها وإبلاً من دمِ سَكَبِ<sup>(٢)</sup>

وهو فرح مبتهج بنصر جيشه على حملة الصليب وما أذاقهم من التقتيل ونثر دمائهم على جناب فلسطين حتى سالت هناك أنهارا . وكثيرا ما كان يرسل ببشائر انتصاراته على الصليبيين إلى صديقه أسامة بن منقذ الشَّيزْرِىِّ وكان قد زار مصر وأقام فيها مدة أيام عباس الصهاجى وانعقدت بينه وبين طلائع صداقة فكان يخبره بانتصاراته حتى يستثير نور الدين صاحب حلب لتضيق الحناق على حملة الصليب ، وكانت فرحته بالغة حين انتصر الجيش المصرى بقيادة ضرغام عليهم فى سنة ٥٥٣ نصرا عظيما ، وصور ذلك لأسامه فى ميمية استهلها بقوله :

ألا هكذا فى اللهِ تمضى العزائمُ وتمضى لدى الحربِ السيوفُ الصَّوارِمُ<sup>(٣)</sup>  
 وتُعزى جيوشُ الكفرِ فى عقرِ دارِها ويوطأُ حياها والأنوفُ رَواعِمُ<sup>(٤)</sup>  
 خيولُ إذا ما فارقتْ مصرَ تتبغى عِداً فلها النَّصْرُ المبينُ ملازم  
 يسيرُ بها ضِرغامُ فى كلِّ مآزقٍ وما يصحبُ الضَّرغامُ إلا الضراغِمُ<sup>(٥)</sup>  
 فقولوا لنورِ الدينِ لا فُلَّ حَدَّهُ ولا حكمتُ فيه الليلَى العَواشمُ<sup>(٦)</sup>  
 تجهَّزْ إلى أرضِ العدوِّ ولا تهنْ وتظهرْ فتورا أنْ مضتْ منك حارِمُ

(٤) عقر : وسط .

(٥) الضراغم : جمع ضرغام وهو الأسد .

(٦) العواشم : الشديدة الظلم .

(١) عتاق الخيل : كرامها . الثقف : القلاة . السهب : المستوى .

(٢) وإبلا : مطرا شديدا . السكب : الهائل السائل .

(٣) الصوارم : جمع صارم وهو السيف القاطع .

وهو يشيد بجيش مصر الباسل وانتصاره المدمر للصليبيين : انتصار أسده الهادرة ، ويدعو أسامة إلى إبلاغ نور الدين هذا الانتصار ، وكان حملة الصليب قد استولوا منه على حصن حارم تجاه أنطاكية وعقدوا معه هدنة ، ويدعوه إلى نقض ما أبرم معهم والاستعداد لحربهم حتى يضيَّق عليهم في الأطراف الشمالية كما يضيَّق الجيش المصرى في الأطراف الجنوبية .

وكان الأسطول المصرى لا يزال يجوب سواحل الشام ويفتك بسفن الصليبيين وأغار على عكا وثر بالقرب من حمص يسمى أنطراطوس ونكّل في الثغرين بحملة الصليب وسفهم فكبح طلائع إلى أسامة قصيدة يسأله فيها أن يبشر الملك العادل نور الدين بذلك ويستنهضه لفتح القدس يقول :

إن بعض الأسطول نال من الإف رنج ما لا يناله التأميلُ  
فحوى من عكا وأنطراطوسِ عدّة لم يحط بها التحصيلُ  
أبلغن قولنا إلى الملك العا دل فهو المرجو والمأمول  
قل له كم تُتأمل الدين في الكف بار فاحذر أن يغضب المطولُ  
سير إلى القدس واحتسب ذاك في اللد ه فبالسير منك يُشقى الغليل

وواضح أن جيوش مصر وأساطيلها لعهد طلائع كانت ماتزال تغدو وتروح إلى حملة الصليب منزلة بهم الهزائم تلو الهزائم . ودائما يستحث طلائع في حماسياته إلى أسامة صاحب نور الدين أن يزحف إلى حملة الصليب شمالا ، بينما يزحف هو إليهم جنوبا ، حتى يقعوا بين شقي الرحا فتدور عليهم الدوائر . ولعل في ذلك ما يشير بوضوح إلى أن مصر لم تقصر في واجبها إزاء حملة الصليب لعهد طلائع ، وكانت تُعدُّ حتى أيامه مقصرة في القيام بهذا الواجب ، قصرت أيام الأفضل بن بدر الجمالي ومن جاء في إثره من الوزراء ، فلما أقيمت مقاليد الأمور إلى طلائع وضع نصب عينيه أن تنهض بواجبها ، فجهز الجيوش والأساطيل وأمدّها بالرجال والعتاد . ودائما يبيب في كثير من حماسياته بنور الدين أن يهجم عليهم شمالا بينما يهجم هو عليهم جنوبا ، حتى يمزقوا كل ممزق ، غير أن يدا أئمة امتدت إليه ، فحالت دون أمانيه في الانتصار الحاسم على حملة الصليب إذ قضت عليه ، وورثاه عماره وغيره من الشعراء مرثى حارة .

## ابن (١) الذُّرَوِيُّ

هو الوجهه على بن يحيى الذُّرَوِيُّ أصله أو أصل آبائه من ذروة بلدة باليمن ، وفي ترجماته ما يدل على أنه نشأ بمصر إن لم يكن ولد بها ، وهو من شعراء الدولتين الفاطمية والأيوبية ، ويقول ابن سعيد : إنه رأى ديوانه وقرأ فيه مدائح في الخليفة العاضد في صباه وأخرى في صلاح الدين وأخيه العادل والقاضي الفاضل وابن شكر وزير العادل . ويذكر بعض المعاصرين أنه توفي سنة ٥٧٧ وقد ذكره العماد في الخريدة التي ألفها في أوائل العقد الثامن من القرن السادس ، فقال إنه شاب نشأ في هذا الزمان ، وفي كلام ابن سعيد المار أنه مدح الخليفة الفاطمي العاضد في صباه ، وذكر أنه مدح ابن شكر وزير العادل منذ سنة ٥٩٥ ولم يذكر السيوطي في حسن المحاضرة تاريخ وفاته ، غير أنه ذكره بعد ابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ وكل ذلك يؤكد أنه لحق القرن السابع وعاش فيه فترة من الزمن .

وكان ابن الذروري شاعرا مجيدا نوه به معاصروه في المديح ، وأنشد له ابن شاعر في الفوات مقطعات غزلية بديعة ، ويبدو أن ابن سعيد لم يكن يعجب به ، إذ قال إنه اطلع على ديوانه فوجده دون ما كان يظن ، ومن غزلياته قوله :

يابانُ إن كان سَكَّانَ الحِمْيِ بانوا ففَيْضُ شَأْنِي له في إثرهم شانُ  
مَنْ لى بأقارِ أنسٍ في دُجَى طُرِّرٍ أفلاكُها العيسُ والأبراجُ أظعانُ (٢)  
مِنْ كل قانية الحَدَّيْنِ ناهدةٍ لو كان للضمِّ أو للثَمِّ إمكانُ

وفي البيت الأول توريتان فكلمة بان الأولى نوع من الشجر طالما ذكره المحبون ، وبانوا بعدها بمعنى بعدوا ، ولفظ شأن الأول : واحد الشئون وهي مجارى الدمع و « شان » في آخر البيت بمعنى خير . والصورة في البيت الثاني تامة وبديعة ، فهو يمتني لويلقى أقمارا مضيئة في ليال شديدة من الطرر ، ويقول إنهن ركنن العيس فكأتما تحولت بهن أفلاكا وتحولت الأظعان أبراجا . ولعل

(١) انظر في ابن الذروري وترجمته وأشعاره الخريدة

١٨٧/١ وللغريب (قسم القنطرة) ص ٣٣٣ و٣٤١ والقوات

١٨٨/٢ وحسن المحاضرة ٥٦٥/١ و٤١٦/٢ والروضتين

٢٧/٢ وفي مواضع متفرقة والحزانة ص ١٢٣ وابن خلكان

في مواضع من تراجمه (انظر الفهرس) .

(٢) الطرر : جمع طرة وهي مقدمات شعر المرأة الذي

تصفه على جبهتها . العيس : الإبل .

موهبة الشعرية لم تبرز في فن كما برزت في فن الهجاء ، وقد اشتهرت له قصيدة فيه نظمها في شاعر  
معاصر له أحذب هو ابن أبي حُصَيْنَة وفيها يقول :

لَا تَظُنُّنَّ حَدَبَةَ الظَّهْرِ عَيْبًا فَهِيَ لِلْحَسَنِ مِنْ صِفَاتِ الْهَلَالِ  
وَكَذَاكَ الْقِسْيُ مُحَدَّوِدِيَاتٌ وَهِيَ أَنْكِي مِنَ الطَّبَا وَالْعَوَالِي (١)  
وَإِذَا مَا عَلَا السَّنَامُ فِيهِ لِقُرُومِ الْجِجَالِ أَيْ جِجَالِ (٢)  
وَأَرَى الْإِنْخَاءَ فِي مَنْسِرِ الْكَأ سِرٍ يُلْقَى وَمِخْلَبِ الرَّثْبَالِ (٣)  
قَدْ تَحَلَّيْتَ بَانْخَاءٍ فَأَنْتَ الـ رَآحِجِ الْمُسْتَمِرُّ فِي كُلِّ حَالِ  
وَتَعَجَّلْتَ حَمْلَ وَزْرِكَ فِي الظَّهِرِ سِرٍ فَأَمَّا فِي مَوْقِفِ الْأَهْوَالِ  
كُونَ اللَّهُ حَدَبَةَ فَيْكَ إِنْ شَدَّ تَ مِنْ الْفَضْلِ أَوْ مِنَ الْإِفْضَالِ  
فَأَنْتَ رَبُوءٌ عَلَى طَوْدِ حِلْمٍ مِنْكَ أَوْ مَوْجَةٌ بِبَحْرِ نَوَالِ  
مَارَاتِهَا النِّسَاءُ إِلَّا تَمَنَّتْ لَوْ غَدَّتْ حَلِيَّةٌ لِكُلِّ الرَّجَالِ  
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْهَجْرِ بُدٌّ فَعَسَى أَنْ تَزُورَنِي فِي الْخِيَالِ

وهو هجاء مؤلم أشد الإيلام ، إذ يعرض فيه حدبة ابن أبي حصينة على أنها ميسم جمال وصفة  
من صفات الحسن في الهلال ، ويأخذ في بيان حسنها وفضائلها ، فالقسي أشد فتكا من أسنة  
السيوف والرماح ، وهي مصدر جمال كالسنام للجبال ، وما كان الانخاء عيبا في منقار النور  
ومخلب الأسد المصور . ويتصوره راعيا مدى حياته ، ويعود فينتق عنه تقواه وصلاته ، ويقول  
إن حدبته وزر كبير مجسد تعجل حمله في دنياه . ويعود إلى السخرية والتهمك فيقول إنها ربوة تعلق  
طود حلمه أو موجة تعلق مياهه ، ويبلغ من السخرية به مبلغا بعيدا حين يزعم له أن النساء تعدها  
حلية وتتمنى لو تحلّى بها كل الرجال . ويتبادى في سخريته ، فيقول إنه مفتون برؤية جماله ، ولكنه  
هاجر له أبدا فيتمنى لو رآه . خيالا في منامه وأحلامه . ويخزفقيها متأدبا وخز الإبر فيقول فيه :

هُوَ فِي الْفَقْهِ مَاهِرٌ لَا يُبَارَى وَأَدِيبٌ فِي جُمْلَةِ الشُّعْرَاءِ  
لَا إِلَى هَوْلَاءَ - إِنْ طَلَبُوهُ - وَجَسَدُهُ وَلَا إِلَى هَوْلَاءَ

(١) الظبا : جمع ظبه وهي حد السيف . والعوالى :  
الرماح .

(٢) قروم الجمال : عظامها

(٣) منسر الكاسر : منقار الطير الجارح . الرثبال :  
الأسد .

فهو يدعى الفقه وإذا طلبه الناس بين الفقهاء لم يجدوه وهو يدعى الأدب وإن طلبه الناس بين الأدباء افتقدوه ، وهو يشير إلى الآية الكريمة في سورة النساء : ( مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ) . وكان يعاصره في شبابه شاعر يسمى هبة الله بن وزير دخل معه حماما فقال ابن وزير :

لله يومٌ بحمامٍ نعمتُ بهِ والماءُ ما بيننا من حَوْضِهِ جارِ  
كأنه فوق شَفَافِ الرُّحَامِ ضُحَى ماءٍ يسيل على أبوابِ قَصَارِ

والقَصَارُ : مبيض الثياب وغاسلها ، وكان الشاعر غفل ، فشبّه الماء بالماء . وانتَهز الصديق ابن الذرّوى الفرصة ، فقال على البديهة :

وشاعرٍ أوقد الطبعُ الذكاءَ له فكاد يَحْرِقُه من فَرَطِ إِذْكَاءِ  
أقسامٍ يُجهدُ أياماً قَرِيحَتُهُ وشبّه الماءَ بعد الجُهدِ بالماءِ

وشاع الشطر الأخير على السنة المصريين إلى اليوم لكل من يصيبه مثل هذا العي في الكلام عمدا أو غفلة . وكان أحدا لم يكن يسلم من لسان ابن الذرّوى حتى الأصدقاء ، بل أيضا حتى الطبيعة ، إذ نجده يهجو النيلوفر ، وهو ما يسمى في الريف المصرى باسم البشنين وهو زهر متفاوت الزرقة والحمرة بديع المنظر ، ولم يشفع له حسنه عند ابن الذرّوى فعمد إلى هجائه بقوله :

وَنَيْلَوْفَرٍ أَبَدَى لَنَا باطِنًا له مع الظاهر المَخْضَرُّ حُمْرَةً عَنْدَمِ (١)  
فَشَبَّهْتُهُ لما قصدتُ هجاءَهُ بكاساتِ حَجَّامٍ بها لَوْنُهُ الدَّمِ (٢)

وكانه يريد أن يقول إنه يستطيع أن يقبّح كل حسن مها يكن حسنه حتى زهر النيلوفر الذى طالما تغنى به الشعراء المصريون من قبله ومن حوله ، وقد تغنوا به طويلا من بعده .

(٢) الحجّام : محترف أخذ الدم بالحجم .

(١) العندم : خشب أحمر يتخذ للصبغة .

أحمد<sup>(١)</sup> بن عبد الدائم

هوشهاب الدين أحمد بن عبد الدائم الشَّرْمَسَاحِي نسبة إلى شَرِّ مَسَاح : بلدة قريبة من المنصورة في شمال الدلتا ، ولد في أوائل زمن المالك سنة ٦٦٣ وأقبل مثل لداته على الدراسات الدينية واللغوية ، وأكبَّ على الشعر حتى مهر فيه غير أنه لم يتجه به إلى زهد وتصوف ولا إلى غزل ومديح ، وإنما اتجه به إلى الهجاء يسلق الناس بلسانه ويخافون شره فيبادرون إلى إعطائه بعض النوال . ولم يقف بهجائه عند أهل مصر فقد كان يرحل إلى دمشق ويتخذ هناك نفس الوسيلة ، ويقال إنه دخل على قاضيا شهاب الدين الحَوَّيِّي وقدم إليه قصيدة هجو فردَّها إليه وقال له : كأنك ذاهل ، فقال له : لست بذاهل ، بل صنعت ذلك عمدا لأشهر فلنك إذا أدبني قال الناس : ما هذا ؟ فيجيبهم المؤدبون : هذا غريم القاضي ، فأشتره ، فوصله وعفا عنه . وكان لا يقف في الهجاء عند حد ، إذ كان يستخدمه كما رأينا في هجو القضاة كذبا وبهتاناً ، وبالمثل كان يستخدمه في هجو علماء الدين غير متورع ، من ذلك أن المظفر بيبرس الجاشنكير كان يقرب منه في سلطته بعد خلع الناصر بن قلاوون لنفسه سنة ٧٠٨ كلا من الفقيه ابن عدلان وزميله الفقيه ابن المرَّحَلِّ الدمياطي ، حتى إذا دار العام عزل نفسه وعاد الناصر بن قلاوون ، ولم يضع ابن عبد الدائم الفرصة ، فقد مدح الناصر بقصيدة يهنئه فيها بعودته إلى عرشه وبهجو المظفر بيبرس ويعرض بصحبته لشمس الدين محمد بن عدلان وصدر الدين محمد بن زين الدين الملقب بابن المرَّحَلِّ وبابن الوكيل ، ومن قوله فيها :

وَلِيَّ الْمَظْفَرِ لَمَّا فَاتَهُ الظَّفَرُ      وناصِرُ الحقِّ وافيٌّ وهو مُنتَصِرُ  
فَقُلْ لِيبيبرسَ إنَّ الدهرَ ألبسَهُ      أثوابَ عاريةٍ في طولها قِصرُ  
لَمَّا تَوَلَّى تَوَلَّى الخَيْرُ عن أُممٍ      لم يحمداوا أمرهم فيها ولا شكروا<sup>(٢)</sup>  
وكيف تمشي به الأحوالُ في زمنٍ      لا التَّيْلُ وافيٌّ ولا وافاهمُ مطرُ  
ومَنْ يقومُ ابنُ عدلانٍ بِنُصْرَتِهِ      وابن المرَّحَلِّ قُلْ لي كيف يتصرُّ؟

(٢) تولى الأولى بمعنى تقلد الحكم . وتولى الثانية بمعنى أدير وأعرض .

(١) انظر في أحمد بن عبد الدائم وترجمته وأشعاره الثغرات ٨٦/١ والدرر الكامنة لابن حجر ١٧١/١ والنجوم الزاهرة ٩/٩ ، ٢٤٩ .

وكان قد تصادف أن المطر لم يسقط في سنة ٧٠٩ بأرض مصر وقصّر النيل في فيضانه أجذبت بعض البلاد وارتفع السعر. وعفا الناصر عن الشيخين في انضمامها ضده إلى بيبرس الجاشنكير، وكان ابن عدلان يتولى نيابة الحكم فأعفاها منها، ومّرّ به ابن عبد الدائم فأنشده:

والله ماسرّني عزلُ ابنِ عدلانِ

فقال له: جزيت خيرا. فأكمل البيت قائلا:

من غير صَفْعٍ ولا والله أرضاني

وشاعت القصيدة. وكان آخر شيخ رماه بسهام هجائه قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة وكان يشرف على الأوقاف، وكأنه أراد أن يبتزّه، وكانت فيه صرامة فازدراه فانتقم لنفسه بهجائه وهجاء ابنه سنة ٧١٣ وكان فقيها ورِعًا مثل أبيه، وتمضى القصيدة على هذا النمط.

متى يسمعُ السلطانُ شكوى المدارسِ، وأوقافُها ما بين عافٍ ودارسٍ<sup>(١)</sup>  
يموت عديمُ القوتِ بالجوعِ حسرةً وَيَشْبَعُ بالأوقافِ أهلُ الطيّالِسِ<sup>(٢)</sup>

وأخذ يتهم القاضي وابنه بعظائم هما منها براء، وكلها كذب وبهتان وافتراء، وكاد القاضي ينزل به عقابا صارما لولا أن تدخل بعض الأمراء واستعفاها فعفا عنه. وازدراه الناس بعد هذه الحادثة ازدراء شديداً، وساءت حالته، فإن لحوم العلماء مسمومة. وأخذ ينتقل في البلاد لا يتحرى طريق الرشاد إلى أن عاجلته منيته حوالى سنة ٧٢٠ وكأنما كان غمة زالت عن صدور الناس والشيخوخ في زمنه.

### حسن البدرى الحجازى الأزهرى<sup>(٣)</sup>

يقول الجبّرى في ترجمته: «كان عالما فصيحاً مفوها متكلماً منتقداً على أهل عصره وأبناء عصره» ويقول كان أبوه ملازماً لقراءة كتاب الصحاح الستة: صحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن ابن ماجة وسنن أبى داود وسنن التّسائى وجامع الترمذى. وقد تفتحت موهبة الابن في سن

(٣) انظر في حسن البدرى الحجازى الأزهرى تاريخ

(١) عاف ودارس: محو زائل.

الجبّرى ٧٥/١ وما بعدها.

(٢) الطيّالِس: جمع طيلسان وهو كساء كان خاصا

بعلماء الدين تميّزا لهم.

مبكرة وعنى بنظم كثير من المتون العلمية مثل رسالة الوضع للعلامة العضد ، والدرّة السنيّة في الأشكال المنطقية ورموز الجامع الصغير ، وكانت وفاته سنة ١١٣١ للهجرة . وكان قد أصبح شاعراً كبيراً ويصف الجبرقي شعره فيقول : له في الشعر طريقة بديعة وسليقة منيعة ، على غيره رفيعة ، وقلما تجد في نظمه حشواً أو تكلمة ، وله أرجوزة في التصوف في نحو ١٥٠٠ بيت على طريقة الصادح والباغم ضمنها أمثالا ونوادر وحكايات ، وديوانه على حروف المعجم سماه باسمين : « تنبيه الأفكار للنافع الضار وإجراع الإيثار من الوثوق بالناس شرح فيه حقيقة شرار الخليفة من الناس ، المنحرفة طباعهم عن طريقة قوم القياس » . وواضح من تسميته لديوانه أن شعره أوجهوره على الأقل لم يكن مديحا وهجاء وغزلا وعتابا وما إلى ذلك من موضوعات الشعر المعروفة إنما كان نقدا للمجتمع ، وهو نقد يشوبه كثير من الازم لسلك الناس حتى ليدعو إلى اعتزالهم لما يتصفون به من الطمع والجشع والأنانية ، والعاقل من اجتنبهم وفر منهم فرار السليم من الأجر لا من الأبعاد فحسب بل أيضا من الأقارب ، يقول :

أخى فطنتا كُنْ واحذر الناسَ جملةً ولا تَكُ مغرورَ الظنون الكواذب  
ولا سميّا نوعُ الأقارب إنهم عقابك في الدنيا وعقرُ العقارب<sup>(١)</sup>

ويستمر في هجو الأقارب وأنهم يتمنون الموت لك ، إن كنت ثريا ليرثوك ، وإن كنت فقيرا كنت لديهم خسيسا أخس من الكلاب . وهو على هذا النحو سبى الظن بالناس حتى بالأقرباء من ذوى الرحم ، وكاد لا يسلم من سياط ذمه وهجائه أحد حتى المتصوفة ، يقول فيهم من قصيدة طويلة :

|  |   |
|--|---|
| احذرْ أُولَى التَّسْبِيحِ والسَّبْحَةِ | والصُّوفِ والعُكَّازِ والسَّمَلَةِ <sup>(٢)</sup>   |
| قد صار إبليس لهم تابعا                 | يقول يا لَلْعَتُونِ والتَّجْدَةِ                    |
| مما حَوَيْتُمْ عِلْمُونِي فما          | لِي عَنْكُمْ فِي المَكْرِ من غُيْبَةٍ               |
| لكم قيادى وانقيادى وما                 | مِثْلَكُمْ فِي النَادِ والتَّنَادَةِ <sup>(٣)</sup> |
| وَأَنْتُمْ تَاجِي عَلَى هَامِي         | مَا هِمَّتْ إِلا كُنْتُمْ هِمَّتِي <sup>(٤)</sup>   |

(٣) الناد : النادى حلقت الياء لضرورة الشعر .

(٤) همت : من هام بهم إذا خرج على وجهه لا يدرى أين يتوجه .

(١) عقر : بيت أو منزل .

(٢) السملة : شال كالطليسان يتلقع به على المنكين والصدر .

وهو طبعاً يقصد نفراً من المتصوفة حادوا عن طريق التصوف وانحرفوا عن واجباته  
ومسئوليته ، وتورطوا - كما يقول في القصيدة - في بعض الآثام ، وكان يؤذيه منهم من يدعون  
الجنون وتظنهم العامة أقطاباً وأولياء ، حتى إذا ماتوا شادوا لهم أضرحة وجعلوها مزاراً ، يقول :

لَيْتَنَا لَمْ نَعِشْ إِلَى أَنْ رَأَيْنَا كُلَّ ذِي جِنَّةٍ لَدَى النَّاسِ . قُطْبًا  
عَلَمًا هُمْ بِهِ يَلُودُونَ بَلْ قَدْ تَخَذُوهُ مِنْ دُونِ ذِي الْعَرْشِ رَبًّا  
إِذْ نَسُوا اللَّهَ قَائِلِينَ فُلَانٌ عَنْ جَمِيعِ الْأَنْامِ يُفْرِجُ كَرْبًا  
وَإِذَا مَاتَ يَجْعَلُوهُ مَزَارًا وَلَهُ يُهْرَعُونَ عُجْمًا وَعَرَبًا

وكاننا بإزاء داعٍ مصرى يدعو ضد الصوفية ومن كانت تسميهم العامة بالجنوديين وتقيم لهم  
الأضرحة والمزارات وتطلب منهم الدعاء أحياء وتقدم لهم النذور أمواتاً . ومع كثرة أشعاره في هذا  
الجانب لم تترك وراءها في مصر أثرًا . على أننا نجدد يوجه ذمه وهجاءه - ظلماً وعدواناً - لبعض  
رجال الدين كما وجهه إلى المتصوفة ، وهو في ذلك كله يسرف في هجائه وذمه ، فلا رجال الدين  
انصرفوا عن التقوى ولا المصريون اتخذوا أقطاب الصوفية أرباباً .

### ٣

#### شعراء الطبيعة ومجالس اللهو

عاش شعراء مصر على ضفاف النيل وفي وديانه ورياضه ، ينعمون بمباهم المتدفقة العذبة وبما  
ينشئ من غروس وزروع وثمار وأزهار ، وهو يجرى ناقماً لأعباه من حوض إلى حوض ، بأنا الحياة  
والجمال في كل ما يمسه ، مما جعل العرب يلقبون مصر حين فتحوها بأنها فردوس الدنيا . وقد  
وصفها القرآن الكريم بأنها جنات وعيون وزروع ومقام كريم . وفي كل مكان نعم الشعراء بهذه  
الجنات يسرحون الطرف فيها والخيال ، فتكون لديهم حاسة الجمال ، ويتمتعهم الشعور بما خصَّ  
الله ديارهم من هذا النعيم الذي يقصر أى وصف عن تصويره . وطبيعى أن يتردد ذكر النيل على  
أسنة الشعراء وذكر مشاهد رياضه الفاتنة وقواربه وسفنه الشراعية . ومحدثنا ابن قيس الرقيات  
حين زار مصر لعهد واليها عبد العزيز بن مروان في العصر الأموى عن رحلة نيلية له من الفسطاط  
إلى حلوان . وعنى شعراء مصر بعده بوصف مثل هذه الرحلة ووصف النيل وزوارقه وسفنه ، غير  
أن الشعر المصرى في عصر الولاة لم يبق منه القليل وإلا بقية تتصل بالأحداث والولاة والقضاة

احفظ بها الكندي . وتبدو العناية بتدوين أشعار الشعراء منذ عهد الدولة الطولونية ، ونجد المرعي القاسم بن يحيى شاعر خازويه يخص النيل بقصيدة بديعة يصور فيها مراكبه بمثل قوله (١)

وَمَطَايَا لَا يَغْتَدِينُ وَلَا يَسُوءُ      أَمَّنَ كَدُّ الْبُكُورِ بَعْدَ الرُّوْحِ (٢)  
 أَضْلَهَا الْبُرِّ وَهِيَ سَاكِنَةٌ فِي الْوَادِ      سَبَحَ سَكْنَى إِقَامَةٍ لَا بَرَا حِ  
 وَإِذَا أُوقِرَتْ فِذَاتُ وَقَارٍ      وَإِذَا أُخْلِيَتْ فِذَاتُ مِرَاحٍ (٣)  
 جَارِيَاتٍ مَعَ الرِّيَاحِ وَطَوْرًا      كَاسِرَاتٍ بِالْجَرَى جِدُّ الرِّيَاحِ  
 سَارِيَاتٍ لَا يَشْتَكِينُ سُرَى اللَّيْلِ      لَمْ يَلْ وَلَا يَرْتَقِبْنَ ضَوْءَ الصَّبَاحِ  
 لَا يَخْفَنَ الْغَمَارَ يُقَدِّفَنَّ فِيهَا      وَيَخْفَنَ الْمُرُورَ بِالضُّخْضَاحِ (٤)

ويطلب في تصوير المراكب ، فهي في الماء وهي خالية تماما من الماء ، وهي ذات أجنحة بيضاء وإن لم يكن لها جناح حقيقي ، وهي من البيض ويطل شطرها الأسفل بالقار ، فهي بيضاء سوداء من ذوات الألواح لا الأرواح ، وتقر على الشاطئ فتسكن دون ذلة في السكون ، وتسير على صفحة النيل وتجذ في سيرها دون اعتزام جهاح ، وكأنها على الماء قصور متحركة ، وتنساب في النيل خفيفة خفة الأفاعي ، وتتجمع أحيانا فتظنها كباشا سودا تقابلت للنطاح . ومع ضؤولة ملاحها يحسن تدبير جريها مع الرياح مكافحا في ذلك أشد الكفاح ، وله مساعدون يكثرون من الصباح حتى كأن السفن تجري خوفا من صياحهم . وهو تصوير بديع للسفن السابحة في النيل من شاطئ إلى شاطئ ومن مكان إلى مكان . ويوجز تميم بن المعز القول في وصف النيل وسفنه فيقول (٥) :

يَوْمَ لَنَا بِالنَّيْلِ مُحْتَصِرٌ      وَلِكُلِّ يَوْمٍ مَسْرَةٌ قِصْرٌ  
 وَالسَّفْنُ تَجْرِي كَالْحَيُولِ بِنَا      صُعْدًا وَجَيْشُ الْمَاءِ مُنْحَدِرٌ  
 فَكَأَنَّمَا أَمَاجُهُ عُكْنٌ      وَكَأَنَّمَا دَارَاتُهُ سُرٌّ (٦)

(٤) الغار : جمع غمر وهو لاء الكثير العميق الضحاح : لاء القليل لاعمق فيه .

(٥) ديوان تميم ص ٢٤١ .

(٦) الممكن : جمع عكة وهي ماثل من ظاهر البطن وطياتها .

(١) انظر مقالا من المرعي لجلال ناجي بمجلة الكتاب العراقية في العدد الثامن من السنة الثامنة

(٢) الرواح : الرجوع في المشي .

(٣) أوقرت : حملت حملا قليلا . للراح : للريح والنشاط .

والصورة الأخيرة للنيل بديعة ، فكان أمواجه عُكَنَ أو ثُنِيَتِ أمامية لأجساد عارية وكأنما فواراته أو داراته في فيضانه السُّرُّر أو النقر الصغيرة أو الثُكَّت في بطون من كن يهدين إلى النيل من عرائسه . ولعم أشعار كثيرة في وصف الحدائق والأزهار والثمار . ومن أوصافه الطريفة قوله في الناعورة<sup>(١)</sup> :

|        |         |            |          |          |              |                          |
|--------|---------|------------|----------|----------|--------------|--------------------------|
| تشنّ   | وليسنّ  | بمحزونة    | أنينَ    | المحبِّ  | الكثيبِ      | الحزينِ                  |
| فتنطقُ | بالصوتِ | لا من قَمِ | وتقذفُ   | بالدمعِ  | لا من جُفونِ | جُفونِ                   |
| كانَ   | لها     | ميتًا      | في الثرى | فأدمعُها | هُمُوعٌ      | كلُّ حينٍ <sup>(٢)</sup> |
| إذا    | زمرتُ   | أطربتُ     | نفسها    | فغنتُ    | بمخلفاتِ     | اللحونِ                  |
| غناءً  | يرقصُ   | كيزانها    | ويُظهِرُ | فيهن     | وثبَ         | المجونِ                  |
| فتهُوى | فوارغُ  | في بثرها   | وتصعدُ   | منها     | ملاء         | العيونِ                  |

والناعورة تن أنين الحب اليائس الحزين وتشكو لا بضم وتبكي لا من عين ، وتلحن مختلف اللحن وكيزانها ترقص هاوية فارغة وصاعدة ممتلئة ، لا تلتقي أبدا . ولظافر الحداد أشعار كثيرة في الرياض والثمار والأزهار ، ومن قوله في النخل وبُسرُه أو بلحه<sup>(٣)</sup> :

النَّخْلُ كَالهَيْفِ الحِسانِ تَرْتَيْتُ فَلَيْسَنَ من أثمارهنَّ قلائدا

وكانها في خياله فانات تترين حول جيدها بعقود البسر الزمردية والياقوتية ، ويشبه طلعتها الأخضر وهو لا يزال مغلقا على سنابل البلح البيضاء في أول تكونها بسلاسل من فضة يضمها حق من خشب الصندل طيب الرائحة . أما حين يتفتح الطلع ويظهر بلحه الأخضر المتصل بسنابله الصفراء فكاحل من زبرجد رعوسها مسها الذهب . وأما الخوص الأخضر ونحته البلح الأحمر فزبرجد يشر عقيقا ، وكأنما الطبيعة جميعها من حول الشاعر جواهر نفيسة .

ويتغنى ظافر بركة الحبش في مصر القديمة وكانت تشرف عليها قصور تميم ، كما يتغنى بجزيرة الروضة التي يفترق النيل عندها أمام القاهرة وسرعان ما يجتمع ، ويجعلها منه هي وأختها لها بجوارها بمنزلة السراويل ، ويعجب ابن قلاص بغروب الشمس وراء النيل فيقول<sup>(٤)</sup> :

(٣) حسن المحاضرة ٢/٤٣٥ .

(٤) الديوان ص ٧٥ .

(١) الديوان ص ٤٢٤ .

(٢) مع : سائل .

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربةً واعجب لما بعدها من حُمْرَةِ الشَّفَقِ غابتْ وأبدت شعاعاً فيه يَخْلُفُهَا كأنما احتَرقتْ بالماء في العَرَقِ ولللهال فهل واني لِيُثَقِّدَهَا في إثرها زورقٌ قد صَيِّعٌ من وِرْقٍ<sup>(١)</sup>

وهي صورة خيالية بديعة ، فقد غابت الشمس بل احترقت في النيل وخلفت فيه شعاعاً ، كما خلفت على صفحة الأفق حمرة الشفق ، ويتسع به الخيال فيتصور الهلال زورقا من فضة جاء لإنقاذها من العرق . ويموج بصدر البهاء زهير الحنين إلى مصر وهو مع الملك الصالح في الديار الشرقية نواحي الفرات ، فيتشوق إلى النيل ورحلاته النيلية فيه ، وينشد<sup>(٢)</sup> :

حِذَا النَيْلُ وَالْمَرَاكِبُ فِيهِ مَضْعَدَاتٍ بِنَا وَمُنْحَدِرَاتٍ  
وَلِيَالِيَّ بِالْجَزِيرَةِ وَالْجِدِّ فِيهَا اشْتَيْتُ مِنْ لُدَائِي  
بَيْنَ رَوْضِ حَكِي ظَهْوَرِ الطَّوَاوِيءِ سِرِّ وَجُوِّ حَكِي بَطُونِ الْبِرَاةِ<sup>(٣)</sup>  
حَيْثُ مَجْرَى الْخَلِيجِ كَالْحَيَّةِ الرَّقْدِ طَاءَ بَيْنَ الرِّيَاضِ وَالْحَنَاتِ  
هَاتِ زَنْقِي مِنَ الْحَدِيثِ عَنِ النَّيْلِ لِي وَدَعْنِي مِنْ دِجْلَةِ وَالْفُرَاتِ

إنه يذكر ذكرى عطرة رحلاته النيلية وامواج النيل تصعد بقاربه وغيره من القوارب وتنحدر ، وماتني صاعدة منحدره ، كما يذكر ذكرى عطرة مجالس أنسه في الجزيرة وجزيرة الروضة والطبيعة متبرجة بأزهارها وورودها من حوله وهي مختلفة الألوان البهجة كأنها ألوان الطواويس في جو صاف صفاء بطون البراة الطائرة ، والنيل يجري في خلجانه وبين رياضه كأنه حيات تسعى ، حيات لا تنفث السم بل تنفث الحياة في الوديان والسهول الخضراء الجميلة ، ويخفق قلب البهاء مرارا بهذا الحنين في أشعاره . وتُظَلُّ مصرَ أيامَ الممالك وَيَطَّلُ الشعراء يتغنون بالطبيعة المصرية ومفاتها الرائعة من النيل وقواربه ونزهاته وأشجاره وأزهاره ، ولاين مكانس المتوفى سنة ٧٩٤ وَصَفُ شَجَرَةٍ سَرُوَ بِاسْقَةِ قَصْدٍ مَوْضِعُهَا مَعَ بَعْضِ رِفَاقِهِ ، وَوَصَفَ مَعَهَا الْقَارِبَ الْمَطْلِيَّ بِالْقَارِ الَّذِي رَكِبُوهُ ، يَقُولُ<sup>(٤)</sup>

مَالَتْ عَلَيَّ النَّهْرُ إِذْ جَاشَ الْخَرِيرُ بِهِ . كَأَنَّهَا أُذُنٌ مَالَتْ لِإِضْغَاءِ

(١) ورق : فضة .

(٢) البهاء زهير ص ٢ .

(٣) البراة : جمع بازى وهي جنس من الصقور الصغيرة

طويلة الساق والذنب .

(٤) خزنة الأدب للحموى ص ٤٢٤ .

كَانَ صَمْنُهَا الْحَمْرَاءُ بِقَشْرَتِهَا الـ لِدَكْنَاءِ قُرْصٌ عَلَى أَعْكَانٍ سَمْرَاءِ  
نَسَعَى إِلَيْهَا عَلَى جَرْدَاءِ جَارِيَةٍ مِنْ آلَةِ كَهْلَالِ الْأَفْقِ حَدْبَاءِ  
سُودَاءِ تَحْكِي عَلَى الْمَاءِ الْمُصْنَدَلِ شَاءَ مَةً عَلَى شَفَةِ كَالشَّهْدِ لَعْسَاءِ

والتصوير في الأبيات بديع ، فشجرة السرو المائلة على النيل كأنها أذن مالت لتصفي إلى  
خريه ، ويتخيلها بلونها الأحمر الداكن وهي منحنية على أمواج النيل في فيضانه كأنها قرص  
ملتصق بطيات بطن لسمرء عارية . ويقول ابن مكناس إنهم سعوا إليها في سفينة حدباء كهلال  
الأفق سوداء ، ويتخيلها على ماء النيل الداكن المعطر عطر خشب الصندل شامة مطبوعة لا على  
خد ، وإنما على شفة ضاربة إلى السواد تقطر شهدا وعسلا مصفى .

وبجانب شعر الطبيعة المصرية ومفاتها الجميلة نجد شعراء يتغنون بمجالس الأنس والشراب ،  
وقد زار مصر - كما مر بنا - أبو نواس أكبر من تغنوا بالخمير وكثوسها وسقاتها وندمائها ، ولكن  
يبدو أنه لم يخلف من مجونه أثر أو آثارا واضحة ، لأن الشعب المصرى بطبيعته معتدل ولا يجترئ  
على ما حرّمه الدين ، وفي رأى أن المصريين إنما كانوا يحاكون شعراء العصر العباسى في المديح وغير  
المديح ودفعتهم هذه المحاكاة أو قل دفعت نفرا منهم نلتقى به منذ أيام الطولونيين إلى التغنى بالخمير ،  
إما إدمانا عليها وإما محاكاة وتقليدا لأبي نواس وأضرابه . وكان أول ما ساعد على ظهور هذا النفر  
أن أحمد بن طولون مع تمسكه بالدين كان لا يتحرج من معاقره الخمر ومثله ابنه خنارويه ، ويقال  
إنه كان يشرب أربعين رطلا من النبيذ<sup>(١)</sup> . فحكماهما بعض الشعراء في احتساء الخمر ، وأخذوا  
يقصدون لها الأديرة ، واشتهرت منذ هذا الحين أربعة أديرة ذكرها الشاشقى في كتابه الديارات ،  
وهي دير القصير على قمة الجبل الشرقى ويشرف على طرة والنيل ، وكان خنارويه كثيرا ما يزوره ،  
ودير مَرْحَنًا بمصر القديمة على شاطئ بركة الحبش ، ودير نهبيا بالجيزة ، ودير طمويه بجوار حلوان .  
ويلقانا في أيام الإخشيديين غير شاعر يعكف على كثوس الخمر حتى الثمالة ، يتقدمهم أحمد بن  
محمد بن طباطبا نقيب الأشراف العلويين بمصر ، وفيها يقول :<sup>(٢)</sup>

أَتَرَكَ الشَّرْبَ وَالْأَمْطَارُ دَائِمَةً وَالطَّلُّ مِنْهَا عَلَى الْأَشْجَارِ مَشُورٌ  
وَالْفُصْنُ يَهْتَرُ كَالثَّشْوَانِ مِنْ طَرَبٍ - وَالْوَرْدُ فِي الْعُودِ مَطْوِيٌُّّ وَمَنْشُورٌ

(٢) للغرب (قسم القساطط) ص ٢٠٣ .

(١) النجم الزاهرة ٦٣/٣ .

وإذا كان نقيب الأشراف يشرها حتى الخالة فقد حاكاه غير شاعر من مثل سعيد المنبوز باسم قاضي البقر وصالح بن مؤنس ومحمد بن عاصم وابن أبي العصام ، وكان الأخيران يلمان بالأديرة ، وكان ثانيها خاصة يتهتك في شرها ويجترى على الدين في غير استحياء حتى ليقول في وصف مجلس آثم من مجالسه<sup>(١)</sup> :

مجلسٌ لا يرى الإلهُ به غَيْدَ رَ مُصَلِّ بلا وضوءٍ وطُهْرٍ  
سُجَّدٌ للكُتوسِ من دونِ تَسْبِيحِ حِ سَوَى نَعْمَةٍ لَعُودٍ وَزَمْرٍ

فهو يعيش معيشة مزرية ماجنة أشد ما يكون المحزون مستهتره أسوأ ما يكون الاستهتار . وولتقى بتميم بن المعز ، ومر بنا أن أباه حرمه من ولاية العهد لانحرافه وسوء سلوكه وما سمعه عن مجونه ، وله في الخمر أشعار كثيرة ، وقد يسوق الحديث فيها منفردة ، وقد يجمع بينها وبين جمال الطبيعة أو بينها وبين بعض صواحيبه ، ومن قوله فيها وفي الورد<sup>(٢)</sup> :

ووردٍ أعارته الغواني خُدودَهَا وأهدى إليه المسكُ أنفاسَ مَفْتَوْقَهُ  
كَأَنَّ النَّدى فِيهِ مَدَامُ عَاشِقِي أُرِيقتْ غَدَاةَ اللَّيْنِ فِي خَدِّ مَعشوقِهِ  
أُدرْنَا كُتوسَ الرَّاحِ فِي جَنَابَتِهِ على حُسْنِ مَرآهِ وَرَقَّةٍ تَوْرِيقِهِ

وواضح أنه يحسن التصوير ، فالورد حدود الغواني وهو عبق بشذا المسك ، وكان الندى فيه دموع عاشق تناثرت على خد معشوقه يوم الفراق ، وهو يشرب على حسنه ورقة أوراقه . ومن طريف ماله في المزج بين الخمر وصاحبه قوله<sup>(٣)</sup> :

ناولتها مثل خَدِّيها مُشْعِشَةً صَرُفاً كَانَ سَنَاهَا ضَوْءُ مِقْبَاسٍ<sup>(٤)</sup>  
فَقَبَّلَتْهَا وَقَالَتْ وَهِيَ ضاحِكَةٌ وكيف تسقى حدودَ الناسِ للناسِ  
إذا تناولتُ خَدِّي كُنْتُ نائِلَةً نفسى وهذا لعمرى غيرُ منقاسِ

والفكرة بديعة ، فالخمر تشبه خديها بلونها ووهجها ، وتناولت كأسها منه وقبلته مازحة قائلة له : كيف تسقى حدود الناس للناس ؟ وكأنه قدَّم لها حدودها لتشرها ، بل كأنه قدم لها نفسها ،

(١) المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٧٣ .

(٢) الديوان ص ٢٤٩ .

(٣) الديوان ص ٢٩٨ .

(٤) المقياس : شعلة النار .

وهل من أحد يشرب نفسه ، وإنه لقياس غريب ، بل لا ينقاس . وقبس منه الفكرة ابن هانئ الصغير المتوفى لأواخر العهد الفاطمي ، إذ يقول في خمريته له (١) :

ومهفهفٍ أبدى الشبابُ بخدّه      صدغاً فرقوقَ ورّده في آسه (٢)  
تلهّبُ الصّهباءُ في وجناته      فتسير من عينيه في جلّاسه  
حتى إذا ملأ الزجاجةَ خدّه      نوراً وفاحَ الخمرُ من أنفاسه  
خالَ الزجاجةَ أفعمتَ بدمامةٍ      فدنا ليشرّب نُوره من كاسه

وهو يقول إن صدغ الشعر أو خصلته تمتزج بخدّه كما يمتزج الآس الأبيض بالورد ، ويتسع به الخيال فيقول إن الخمر تلهب في خدّه فتلهب السحر في عينيه فيسير منها إلى جلّاسه ، حتى إذا ملأ خدّه الكأس نورا ظلها ملكت خمرا ، واستحال ظنه يقينا ودنا من الكأس يريد أن يحتسيها . ولا ين سناء الملك خمريات مرحة في لغة سهلة سلسلة من مثل قوله (٣) :

أين كئوسى وأين أكوأى      فهىَ وحقّ المجونِ أوكى بى  
يبدو عليها الحبابُ إن مُزجتُ      مثلَ عيونٍ بغيرِ أهدابِ  
تأتى ويأتى السرورُ يتبعها      كأنه واقفٌ على البابِ  
أسجدُ شكراً لها إذا طلعتُ      كأن كاسى لدىّ محرابِ

وهو يصور في خمرياته مرحاً وابتهاجا ، ومربنا أنه كان يعيش في بلهنية ونعيم ، وقلما كان يعترضه في حياته شوك يؤذيه ، فهى ورد عطر ، وهى ترف ، وكل وسائل الترف مهيأة له ، لذلك لا نعجب إذا رأيناه مرحا في خمرياته .

وكانت حياة ابن النبية لينة ناعمة مثله ، مما جعل خمرياته تطفح بالمرح والابتهاج والشعور بأن كل ما فى الكون والطبيعة رائق شائق ، ومن طريف خمرياته قوله (٤) :

باكرُ صَبوحك أهنّا العيشِ باكرُهُ      فقد ترنّم فوقَ الأيكِ طائرُهُ (٥)  
والليلُ تجرى الدرارى في مجرته      كأزروض تطفو على نهرِ أزهرة (٦)

(٥) الأيك : الشجر الملتف .

(٦) الدرارى : الكواكب الثلاثة . المجرة : مجموعة من

النجوم تبدو كوشاح أبيض .

(١) الحريدة (قسم مصر) ٢٧٠/١ .

(٢) رقوق : مزج .

(٣) الديوان ص ٢٤

(٤) الديوان ص ٩١

فَانْهَضْ إِلَى ذَوْبٍ ياقوتٍ لها حَبَبٌ  
 حمراء في وَجْتهِ الساقِ لها شَبَّةٌ  
 تنوبُ عَنْ نَعْرِ مَنْ تَهْوَى جواهره  
 فهل جَنَاهَا مع العنقودِ عاصره  
 فابيضَ خَدَاهُ واسودَّتْ غَدَائِرُهُ<sup>(١)</sup>  
 وزوَّرتْ سحرَ عينيه جَاذِرُهُ<sup>(٢)</sup>  
 فكُبرى لآمن بعد الكفر ساجِرُهُ  
 فلو رأتْ مُقلَّتَا هاروتَ آيتَه الـ

والفرحة تسرى في الخمرية ، وتلف كل شيء فيها ، فالطير يتغنى فرحا على الغصون ، والسماء منورة بكواكبها الساطعة ، وحباب الكأس كأنه ثغر الحبيبة ، والخمر حمراء كخدها وكأنما الجاني اقتطف خمرته مع عنقودها وما أجمل بياض خديها المشرقين وسواد صفائرها البهيجة ، وكأنما قبست بانه الوادي رشاقتها ، وزوَّرت جاذره سحر عينها الخلابتين ، ولو رآه هاروت لآمن بربه وكفَّ عن سحره .

ويكثر من الخمريات شعراء اللهو والخمر في أوائل عصر الماليك مثل الجزار والوراق وابن دانيال وستحدث عنهم بين شعراء الفكاهة . ولعل مما يشهد بأن كثيرين ممن كانوا ينظمون الخمريات إنما كانوا ينظمونها محاكاة وتقليداً ولم يكونوا يتعاطون الخمر ولا تورطوا في إثمها أن نجد فقيها كبيرا من فقهاء زمن الماليك هو صدر الدين محمد بن عمر المشهور باسم ابن المرحل وابن الوكيل المتوفى سنة ٧١٦ ينظم فيها خمرية تداوها الرواة في عصره وبعد عصره استهلها على هذا النمط<sup>(٣)</sup> .

ليذهبوا في ملامى آية ذهبوا  
 لا تأسفن على مالٍ تمزقه أيدى سقاةِ الطلأ والحردُ العُربُ<sup>(٤)</sup>  
 فما كسوا راحتي من راجها حللاً  
 إلا وعروا قوادى الهَمِّ واستلبوا

وقد مضى يجيب فيها ويفرى بها على عادة المجان ، مما جعل بعض الناس يتهمه بمعاقرتها ، وقدم للقضاء وثبت براءته من وزرها الآثم ، وعاد إلى دروسه وعاد إليه طلابه . وللشيخ برهان الدين القيراطي الذي مرت ترجمته بين شعراء الغزل خمريات بدوره ، وكان فقيها ومحدثا ، وكأنه

(٣) الفوات ٥٠٢/٢ .

(١) الفسق : الظلام . الضمائر : الضمائر

(٤) الطلأ : الخمر . الحرد : جمع خريدة وهي البكر الحية .

(٢) الجاذر : جمع جاذر وهو ولد البقرة الوحشية المعروفة بجمال عينها .

ينطق بلسان شاعر ما جن كبير ، إذ يقول<sup>(١)</sup> :

كم ليلة نادمتُ بدرَ سماءها      والشمسُ تُشرقُ في أكفِ سقَاتِها  
والبدرُ يُستَرُّ بالغيومِ ويَنجَلِي      كتنفُّسِ الحساءِ في مرَاتِها  
خالفتُ في الصُّبهاءِ كلَّ مقلِّدٍ      وسعيتُ مجتهداً إلى حاناتِها  
أحرَّكَ الأوتارَ إن نفوسنا      سكناتها وَقَفُّ على حركاتِها  
ومليحةٍ أرغمتُ فيها عاذلي      قامتُ إلى وصلي برغمِ وُشَاتِها  
ياخجَلَةٌ الأغصانِ من خَطَرَاتِها      وفضيحةُ الغزلانِ من لَفَاتِها

والقيراطي إنما يستخدم مهارته الفنية التي صوّرتاها في غير هذا الموضع ، ليدل على براعته في محاكاة المجان لزمناه ، بل لعل أحدا من معاصريه لا يستطيع اللحاق به في مثل هذه الآيات ، وهو يجمع فيها بين جمال الطبيعة في الليالي القمرية وبين الصبهاء أو الخمر وصاحبته أو الغزل ، وهي طويلة ، وقد توه بها الأسلاف طويلا لروعها الموسيقية والتصويرية .

وأخذ يزاحم الخمر في عصر الماليك تعاطي الحشيش ، وحين أمر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦ هـ . بإغلاق حانات الخمر وحطّم دنانها أمر بحرق الحشيش ، وأشار إلى ذلك ابن دانيال في بعض شعره ويقول حين أبطلت المنكرات في أيام السلطان لاجين سنة ٦٩٦ وفي مقدمتها الخمر والحشيشة<sup>(٢)</sup> :

احذرْ نديمي أن تنوق المُسكزا      أو أن تحاولَ قطُّ أمرا مُنكرا  
ذی دولةَ المنصورِ لاجينَ الذي      قهر الملوک وكان سلطان الوری  
إياک تأکلُ أخضراً في عصره      یاذا الفقيرُ بصيرِ جِسْمکُ أحمرَا

والأخضر : الحشيش . ويشير إلى العقاب الشديد الذي سيتزل بمتعاطيه ، ونهى ابن دانيال بالمثل عن تعاطي الخمر . وسرعان ما يذهب عصر لاجين كما ذهب عصر الظاهر بيبرس ، ويعود نفر من الناس إلى الحشيشة والخمر ، ومن تعلق بها ابن الصائغ ، وله فيها عدة<sup>(٣)</sup> مقطوعات من مثل قوله :

عصر الأيوبيين للدكتور محمد كامل حسين ص ١٠٧ وما بعدها .

(١) للمتل الصافي ٧٢/١

(٢) فوات الوفيات ٣٨٨/٢

(٣) انظر في هذه المقطوعات كتاب دراسات في الشرقي

قم عاظمي خضراء كافوريةً قامت مقام سُلَافَةِ الصُّهَّاءِ  
يغدو الفقيرُ إذا تناول درهما منها له تبةٌ على الأمراء

ووصفها بأنها كافورية لأنه كان يُزرَعُ منها كثير بستان كافر في القاهرة ، ويلقانا كثيرون  
يفضلون عليها الخمر لمجالسها وكوسها ودانها وقيانها .

وتظل الحشيشة والخمر على السنة الشعراء في الحقبة العثمانية ، وبما نقرأ لهم قول أبي  
المواهب <sup>(١)</sup> البكري المتوفى سنة ١٠٣٧ للهجرة :

وقهوةٌ تَنْضَحُ مِسْكَاً ولا بَدَعُ فِي الفِنْجَانِ شَكْلُ الغَزَالِ <sup>(٢)</sup>  
تديرها هيفاء ممشوقةٌ خَوْدٌ تَنْتُ في بُرُودِ الدَّلَالِ <sup>(٣)</sup>  
بِسُرَّةٍ أوطرةٌ وزعت أفكارنا بين الهدى والضلال  
تقول للشمس وقد أقبلت تلتمي ما أنتِ إلا خيال

وربما كان من أسباب شيوع الخمريات على السنة بعض الشيوخ أيام المماليك والعثمانيين أنها  
كانت قد شاعت على السنة الصوفية من أمثال ابن الفارض وابن عربي متخذين من نشوتها رمزاً  
لنشوة الحب الإلهي ، فلم يجد كثيرون حرجاً في نظمها ومحاولة التفتن فيه . ونقف عند نفر من  
شعراء الطبيعة ومجالس اللهو ، وكلهم من الشعراء أيام الفاطميين ، أما من جاءوا بعدهم فقد  
مزجوا بين المجون والفكاهة الشعبية وسنخسهم ببعض الحديث .

ابن <sup>(٤)</sup> وكيع التنيسي

يسوق ابن خلكان لابن وكيع نسبا طويلا ، فيقول هو الحسن بن علي بن أحمد بن محمد بن  
خلف الضبي ، ووكيع لقب جده محمد بن خلف ، ويذكر أنه كان من أهل القرآن والفقه والنحو  
والسير وأيام الناس وأخبارهم ، وله مصنفات كثيرة ، ويقول إنه كان نائبا في الحكم بالأهواز في  
إيران لعبدان الجواليقي وإنه توفي سنة ٣٠٦ ببغداد ، ويذكر عن الشاعر أنه بغدادى ومولده

(١) ربحانة الألبا ٢/٢٦٦ .  
(٢) قهوة : خمر .  
(٣) خود : الشابة الحسنة .  
خلكان ٢/١٠٤ .

(٤) انظر في ابن وكيع وترجمته وأشعاره البيهية ١/٣٥٦

بتنيس، وهى مدينة كانت بقرب بورسعيد الحالية، وتمتد في بحيرة المنزلة، واشتهر أهلها<sup>(١)</sup> بصناعة النسيج والتفوق في صنع الثياب الشفافة والملونة، ويذكر المؤرخون والجغرافيون أنها كانت تكثف بالجنان والكروم والفواكه والأشجار والأزهار والطيور من كل لون، وأكثر أغذية أهلها السمك، وهم مياسير أصحاب ثراء، وأكثرهم حاكة، وهم يحبون النظافة والدمائة والغناء واللذة وأكثرهم بيتون سكارى. ويبالغ الأسلاف في وصف ما كان بهذه المدينة أو الجزيرة التي اندثرت من مشاهد طبيعية ومن جنات ورياض. وفيها ولد ابن وكيع كما يقول ابن خلكان ولا نعرف تاريخ مولده، أما وفاته فمعروف تاريخها وهو سنة ٣٩٣ وكذلك مكانها وهو مسقط رأسه تنيس. ولا نعرف الأسباب التي دفعت أباه إلى اتخاذ تنيس دار مقام له ولأسرته، وقد نشأ فيها الشاعر وثقف. ويبدو أنه طلب المزيد من الثقافة والتعرف على أدباء القاهرة فرحل إليها، وكانت شاعريته تفتحت فلفت إليه الأنظار، ولا ندرى متى كان ذلك تماما، غير أن من المؤكد وجوده في القاهرة حين نزلها المتنبى سنة ٣٤٦ ويبدو أن صلة انعقدت بينه وبين ابن حنّابة وزير كافر، وكانت العلاقات قد ساءت بينه وبين المتنبى، حيثذ رأينا ابن وكيع يؤلف كتابا في سرقات المتنبى سماه المنصف إرضاء للوزير، ويقول ابن رشيق في العمدة: «سماه كتاب المنصف، مثل ما سُمي اللديغ سليما، وما أبعداه عن الإنصاف». ولم يكن المتنبى من ذوق ابن وكيع، وبون بعيد بين ذوقيهما، فالمتنبى شاعر جاد منتهى الجد، لا يعرف اللهو ولا الخمر ولا الجون، وابن وكيع شاعر ماجن منتهى الجون، فاندفع يريد أن يسقط المتنبى من عليائه وأتى له ذلك؟! ويبدو أنه كان ثريا، فأعانه ثراؤه على انغماسه في الجون، ويدل على هذا الثراء أننا لا نجد رواية شعره يذكرون له قصائد في ابن حنّابة ولا في الخلفاء الفاطميين وقد عاصر منهم المعز والعزیز والحاكم، فحسبه دائما كأس وطاس، حتى ليؤثرهما على تولى منصب الخلافة الرفيع يقول:

وإن أتوك فقالوا كُنْ خَلِيفَتَنَا      فقلْ لهم إننى عن ذاك مشغولٌ  
وارضَ الخمولَ فلا يحظى بِلَدَّتِهِ      إلا امرؤُ حاملٌ في الناس مجهولٌ  
واسفكُ دمَ القهوةِ الصَّهباءِ تُحِىَ بِهِ      روحى فإن دم الصَّهباءِ مطلولٌ<sup>(٢)</sup>

فهو يؤثر حياة الخمول والجون على حياة العزة حتى لو كانت الخلافة، ويبدو أنه تمثل كل

(١) انظر فيهم نقول المقرئى عنهم في كتابه المخطوط (٢) مطول: مهرد لأيتلب ناره.

ما في ديوان أبي نواس من مجون حتى الجانب السيء عنده جانب الغلمان ، إذ نراه يداعب غلاما نصرانيا في مربعة مزدوجة طويلة أشرنا إليها في الفصل الماضي ، شكا له فيها من حبه وعذابه فيه ، ومضى يتوعده نظرفا إن لجَّ في هجره أن يشكوه إلى القساوسة والرهبان والأسقف والمطران والبطرك ، ويقول له كيف تحمل قتل الروح وهو ما لم يأت به المسيح ولا أخبر به يوحنا ومتى ولوقا ومرقص .

وكل ذلك على سبيل الدعابة ، ونظن ظنا أنه لم يكن متورطا في هذا الإثم ، وكل ما في الأمر أنه هو ومن نظموا فيه بعده على مر السنين . إنما كانوا يحاكون فيه مجان بغداد نظرفا ودعابة على نحو ما يتضح في مربعة ابن وكيع المزدوجة . وربما كان من أسباب ذلك كثرة النصرارى في تنيس كما يقول المقرئى وكثرة حاناتهم فيها ومن بها من السقاة والغلمان . ومن المؤكد أنه كان لا يطيل مكثه في القاهرة فهو دائم الرجوع إلى بلدته ناعما بثراته فيها وبمشاهدها الطبيعية . وله بجانب هذه المزدوجة المربعة مزدوجة ثانية في وصف فصول السنة يبدوها بوصف فصل الصيف وحره وغباره وما يجلب لشارب الخمر من الصداع ، ويتلوه بفصل الخريف وأهويته واختلاف برده وحره ، ويتبعه بفصل الشتاء وما فيه من برد وأمطار وزكام وحاجة مدمنى الخمر فيه إلى الدفء وإيقاد النار ثم يفيض في بيان محاسن الربيع المنتشرة في كل عناصر الطبيعة من شمس وقر وطيور ورياض وأزهار وثمار ، مما ينعم به شارب الخمر ويحمد فيه هناءه . ونقتطف الأبيات التالية من خمرة له جمع فيها بين وصف الخمر ووصف الطبيعة في الربيع ووصف مشغوف بها مفتون ، يقول :

أبدى لنا فصلُ الربيع منظرًا  
فالأرض في زىِّ عروسٍ فوقها  
أما ترى الوردَ كخدى كاعبٍ  
كأنما الخمر عليه نفّضتْ  
أخجله التّرجيسُ إذ جدّله  
وانظر إلى الأطيّار في أرجائه  
كأنها - تصفّر في رياضها -  
بمّله تُفْتَنُ ألبابُ البشَرِ  
من أدمع القطر نثارٌ من دُرِّ (١)  
راودها ، فامتعت منه بشرّ  
صباغها أو هي منه تُعْتَصِرُ (٢)  
فاحمرّ من قرط حياءٍ وخمرّ  
إذا دَعَا التّاكلُ فيها وصَفَّرُ (٣)  
سِرْبُ قِيانٍ فوق بُسْطٍ من حير (٤)

(٣) التاكل : من قعدت ابنا لها .

(٤) حير : جمع حيرة ، وهي القطعة من نسيج الحرير .

(١) الثار : ما ينثر على العروس ليلة الزفاف من الدراهم

الفضية

(٢) صباغها : لونها .

والتسكُّ في عصر الصِّبا كأنه من قبحه خَلَعُ عِذارٍ في الكِبَرِ<sup>(١)</sup>  
 فاشربْ عُقارا لو أصابتْ حَجْرًا لطارَ من خَفْتِه ذاك الحَجْرُ  
 كأنما الأوطارُ فيها جُمِعَتْ فليس في العيش لجافها وطَرٌ<sup>(٢)</sup>

وإنما أظننا في اقتطاف هذه الأبيات لندل على براعة ابن وكيع في تصوير الطبيعة تصوير  
 الصب المقتون بها ، فهي عروس جميلة موشاة بألوان زاهية ، ورأتها السماء فمشقتها وأخذت  
 تبكي بأجفان المطر ، وما أروع الورد ، إنه كوجنتي فتاة راودها ولهان بها ، فانشئت حياة  
 وتضرجت وجتاتها خفرا . ويعجب ابن وكيع أشد العجب هل الخمر نفضت لونها القاني على  
 الورد أو هي معصورة منه ومستخرجة ، أو لعل الزرجس جاد له فاحمراً لقوة حجته خجلا . وفي  
 أرجاء هذا الروض البديع يغني الطير غناء شجيا مؤثرا ، وكأنه أسراب قيان تغني فوق بسط من  
 سندس وحرير . ويدعو إلى اللهو واللذة في زمن الصبا والشباب ، ويزعم أن النسك وهجران  
 المتاع في بواكير الحياة ذميم مثل خلع العذار والمجون في الكبر . وكأنه نظم هذه الحميرية في شبابه .  
 ويزعم ما زعمه أبو نواس قبله من أن الخمر لو مست حجرا لمسه السرور ، وأنها مجمع الأوطار  
 والمنى . ودائما يقول إنه عاكف على شرب الخمر وسط مباحج الطبيعة ، غير مرعوب ولا مزدجر على  
 شاكلة قوله :

|                                       |   |
|---------------------------------------|---|
| جانبتُ بعدك عَفْتِي ووقارِي           | وخلعتُ في طرق المجون عِذارِي                    |
| خَوَفْتَنِي بالنار جُهْدَكَ دائِبًا   | ولججتُ في الإرهاب والإندار                      |
| خَوِيَ كخوفك غيرَ أني واثقٌ           | بجَمِيلِ عَفْوِ الواحد القهارِ                  |
| انظُرْ إلى زهر الربيع وما جَلَّتْ     | فيه عليك طرائفُ الأنوارِ                        |
| تاحتْ لنا الأطيَّارُ فيه فَأَرَهَجَتْ | عُرْسَ السرورِ وماتمَ الأطيَّارِ <sup>(٣)</sup> |
| فاشربْ معتَقَّةً كأنْ نسيما           | مسكٌ تَضَوُّعُه يَدُ العَطَّارِ <sup>(٤)</sup>  |
| مع مُسْمِعٍ حَلَفَتْ له أوتارُه       | أنْ لا تنسافرَ رنةَ المزمَارِ                   |
| فطنُ يجرُّك كلُّ عضوٍ ساكنٍ           | تحريكُه لسواكنِ الأوتارِ                        |

وهو يعلن لصاحبه أنه انغمس في المجون غير مصغ لتخفيفه له من عذاب النار ، إذ يأمل في

(٣) أُرَهَجَتْ : أثارت .

(٤) تَضَوُّعُه : تذكى رائحته وتشرها .

(١) خلع العذار : كتابة عن التبتك والإغراق في

المجون .

(٢) الوطر : الأمانة .

عفو الله وغفرانه ، وهو يكرر هذه النغمة كثيرا في خمرياته ؛ ويقول له : انظر إلى ما حولك من جبال الطبيعة الساحر وما فيها من بدائع النور والزهر وما يتشرف فيها من نواح الطير الذي يستثير حزنه كما يستثير فيه السرور والفرح . ويدعوه إلى شرب الخمر ذكية الرائحة وسط مباحج الطبيعة على ألحان مغن حاذق يجيد العزف حتى ليحرك في السامع كل عضو ساكن منه تحريكه لسواكن أوتاره . وفي كتاب اليتيمة قطعة كبيرة من شعر ابن وكيع . وكان له ديوان رآه ابن خلكان سقط من يد الزمن ، ولو وصلنا لعرفنا بوضوح مدى تأثيره في الشعراء المصريين بعده وفيما نظموه من شعر الخمر والطبيعة ، ومع ذلك ففي رأينا أن هذه القطعة كافية في بيان أثره فيمن خلفوه . وهذه هي أول مرة نلتقي فيها بشاعر في إقليم عربي يعيش للخمر والطبيعة ولا يعني أى عناية بالمديح .

### الشريف<sup>(١)</sup> العقيلي

هو علي بن الحسين بن حيدرة ينتهي نسبه إلى عقيل بن أبي طالب ، وتاريخ مولده غير معروف وكذلك تاريخ وفاته ، غير أن الثعالبي ترجم له في اليتيمة باسم أبي الحسن العقيلي وأردف الاسم بكلمة رحمه الله والثعالبي ترجم لشعراء أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ، وقد يفهم من قوله رحمه الله ، أن العقيلي لا بد أن يكون قد توفى قبل وفاته ومعروف أن الثعالبي توفى سنة ٤٢٩ ، ويقول ابن سعيد في المغرب : « سألت عن العقيلي جماعة من أهل مصر فلم أرفهم من يتحقق أمره ، وقال لي أحد الشرفاء المعنيين بأنساب الشرف : كان في المائة الرابعة » . وقد يشهد لذلك أننا نجد في ديوانه أبياتا ينوه فيها بالحسين بن جوهر وزير الحاكم ، وكان من بين من قتلهم سنة ٤٠١ . ويبدو أن كلمة « رحمه الله » في اليتيمة وضعها الثعالبي - إن كان هو الذي وضعها - خطأ أو سهوا فقد جاء في خطط المقرئ ما يشير إلى أن العقيلي امتدت حياته حتى سنة ٤٤٨ إذ ذكر أنه أنشد المستنصر الفاطمي صبيحة يوم عرفة في هذه السنة :

قُمْ فَانْحَرِ الرَّاحَ يَوْمَ النَّحْرِ بِالماءِ      وَلَا تُصَحِّحْ صُحِّيْ إِلَّا بِصَهْبَاءِ<sup>(٢)</sup>  
أَدْرِكْ حَجِيجَ التَّدَامِي قَبْلَ نَفْرِهِمْ      إِلَى مِيْنِي قَصْفِهِمْ مَعَ كُلِّ هَيْفَاءِ

(١) انظر في الشريف العقيل وترجمته وأشعاره اليتيمة

(٢) انحر : أذبح . يوم النحر : يوم الأضحى . تصحى

تذبح الأضحية . الصهباء الخمر .

(١٥/١ والمغرب (قسم القسطاط) ص ٢٠٥ وقد أنشد ابن سعيد قطعة كبيرة من شعره وراجع الفوات ٩٩/٢ والفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص ٤٨٣ ومقدمة ديوانه (طبع

فخرج المستنصر في ساعته بروايا الخمر تُزجى بنمات حُداة الملاهى وتساق ، حتى أناخ بعين شمس (بجوار القاهرة) في كبة من الفسّاق فأقام بها سوق الفسوق على ساق ، يقول : « وفي ذلك العام أخذته الله وأخذ أهل مصر بالسنين <sup>(١)</sup> » وكان ذلك كان في أول عام من أعوام المجاعة المشهورة لعهد المستنصر التي بدأت سنة ٤٤٢ وظلت سبع سنوات ، حتى هلك الحرث والنسل . والخبر يدل على أن الشريف العقيلي عاش على الأقل حتى هذه السنة ، ويستدرك صاحب المغرب على من ذكر له أنه كان في المائة الرابعة قائلا : « وقفت في الخريدة (للعاد الأصهباني) على ترجمته فدلّ على أنه متأخر العصر عن المائة الرابعة » . ولعل في ذلك كله ما يشهد بأنه عاش مطالع شبابه في القرن الرابع ، وامتدت به الحياة فعاش دهراً في القرن الخامس .

وهو من أهل الفسطاط ، وكان ثريا ثراء مفرطاً حتى قال ابن سعيد : كان له بها منتزهات ، وهو في ذلك مثل تميم بن المعز ، فهما جميعاً من سكانها وأصحاب البساتين والقصور بها ، غير أن تميها شغل في ديوانه بمديح أبيه وأخيه العزيز ، أما العقيلي فكما يقول ابن سعيد « لم يكن يشتغل بخدمه سلطان ولا مدح أحد » ويشهد بذلك ديوانه فليس فيه مديح لخليفة من الخلفاء الفاطميين ، فيه فقط بعض إخوانيات قليلة ، وكذلك بعض فخر وهجاء ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه استغرقه شعر الطبيعة والخمر والحب وكأنه امتداد لابن وكيع التنبسي . . ينظم أشعاره لنفسه ويتغنى لها بالطبيعة ومفاتها مازجاً بينها وبين الخمر في نشوة وفرح ومسرة . ونشر كأنما يتفرض أمامها انتفاضاً يعم كيانه كله ، وهو يشاهد جداولها ومياهاها ورياضها وأشجارها وأزهارها ويركها ، حتى لتتحول أمامه معبداً ما يزال يقدم إليه تراتيله مصحوبة ببخور الخمر وشذاها ، وكان حياته وعبادته إنما تأتلف من الطبيعة والخمر وكثوسها المترعة ، وهو يدعو دائماً إلى احتساء هذه الكثوس ، وكأنه يعب من الطبيعة ما يعب من فتنها ، ثم يعب من الخمر ما يعب من دنائها ، مع القدرة البارعة على التصوير والتحول بالمناظر الواسعة في الطبيعة إلى مناظر مركزة ، كالكوّة تتجمع فيها الأشعة فتتحول إلى ما يشبه قوس قزح رائع بديع ، يقول داعياً إلى المتاع بجبال الطبيعة وشرب الخمر العتيقة :

الغَيْمُ ممدودُ السُّرَادِقُ وَالزَّهْرُ مفروشُ النَّارِقِ <sup>(٢)</sup>  
والقَاشُ قد نُقِشَتْ لَنَا مِنْهُ المَجَالِسُ والمِرَافِقُ

(٢) النّارِق : الوَسائِد .

(١) خطط المقرئ ٥٨٣/٢ . والسنين : الجذب .

أشـجـاره وثماره مثلُ الترابِ والمخائق<sup>(١)</sup>  
 قد غنَّتِ الأطيارُ في طرقاته كلَّ الطرائق  
 فاعتقُ فؤادك فيه من رِقِّ الهمومِ بشرِبِ عاتق<sup>(٢)</sup>  
 فالأقحوانُ غصونُه بيضُ النواصي والمفارقِ  
 ومرادُ الأمطارِ قد كُجِلَتْ بها حدَقُ الحدائقِ

والطبيعة من حوله قد تجمعت في حفلٍ بسرادقٍ بهيجٍ وسائده من الزهر الملون ، وكذلك مجالسه ومتكاته كأنما قد قُطعتُ وفُصِّلت من القاش أو من نسيجٍ حريريٍّ متعدد الأصابع ، بينما تطلُّ عليه من الأشجار والثمار التراب والقلائد . والطير تشدو وتغني ، منظر فاتن ومعنى ساحر ، جدير بالشراب المزيل للهموم ، والأقحوان يتأيل على أغصانه وكل ما في الحدائق آخذ زيبته وزخرفه ، حتى العيون لم تنس كحلها ، عيون الأزهار البديعة ، فقد ناولتها الأمطار مراد تمتم بها زينتها وحسنها الفاتن . ومن قوله في مطلع الربيع .

قد بيَّضتُ قُبَّةَ السماءِ وزوَّقتُ قاعةَ الفضاءِ

فالسماء بسحبها البيضاء الممتدة على الأفق من كل جانب كأنها قُبَّة بيَّضت ، والربيع بأزهاره وأنواره كأنه قاعة متألقة نُقِشت ونُمِّتت بمنمات الربيع وزخارفه البديعة . وعلى نحو ما تجسد الطبيعة في مناظر يتمثل فيها التجميع والحشد والتركيز يكثر عنده التشخيص وبث الحياة في عناصر الطبيعة من مثل قوله :

قد حبا طفلاً الصباحِ بين داياتِ الرياحِ  
 وقوله :

السُّحْبُ تُرْضِعُ من بنات الأرضِ ما جعلَ الربيعُ لها الغصونَ مهودا  
 وقوله :

أمهاتُ الثمارِ بين الروابي تائماتُ بلبسِ خُضْرِ الثيابِ  
 وبناتُ الكرومِ تُجَلِّي بما قد صاغه الماءُ من عقودِ الحبابِ

(٢) العاتق : الخمر .

(١) المخائق : القلائد .

ففضل الصباح يجوب بين دابات الرياح والسحب ترضع أزهار الأرض على مهود الفصون ،  
وأمهات الثمار من الأشجار يملؤها التيه والدلال بشبابها الخضراء ، والماء يجلو الخمر من نبات  
الكروم بما يصوغ لها من عقود الحجاب . وعلى هذا النحو ما نزال نحس عند الشريف العقيلي  
باندماجه في الطبيعة وتملئ عينيه وقلبه بمشاهدتها الساحرة ، فهو مسحور بها سحراً لا حدود له ،  
سحرا كان يحس إزاءه بنشوة كنشوة الخمر ، وكان لا ينسى النشوتين جميعا حتى في غزله كقوله :

قامتُ قِيامَةً رَوْحِهَا لِرَوْاحِي    إِنْ التَّوَى لِقِيَامَةَ الأرواحِ  
وَبَكَتُ فَصَارَ الدَّمْعُ فِي وَجَنَاتِهَا    مِثْلَ الحَبَابِ عَلَى كُتُوسِ الرِّيحِ  
وَكَأَنَّ صَفْحَةَ وَجْهِهَا لَمَّا يَبْكُ    رَوْضُ بَرِصَعٍ وَرَدُّهُ بِأَفَاحِي

وقرار هذه الأبيات الروض وما يرصعه من أنوار وأزهار وهو القرار العام لشعره ، فهو شاعر  
الرياض ومباهجها ، وهي أنشودته أو أناشيده التي ظل يتغنّى طوال حياته بها وبما كانت تُلقى في  
وهمه وخياله من رؤى وأحلام وأشباح لا تكاد تحصى ، مما جعل الاستعارة المكنية القائمة على  
التشخيص تكثُر في أشعاره كثرة مفرطة ، مع التفوق فيها والبراعة ، ولاحظ ذلك الصفدى من  
قديم فقال : « مارأيت أحدا من شعراء المتقدمين أجاد الاستعارة مثله ولا أكثر من استعاراته  
اللائقة الصحيحة التخيل » .

### ابن (١) قادوس

هو أبو الفتح محمود بن إسماعيل الدمياطي المشتهر باسم ابن قادوس ، من شعراء النصف الأول  
من القرن السادس الهجري ، ذكره أبو الصلت الشاعر الأندلسي نزيل مصر في رسالته التي  
ألفها عن الشعراء المصريين حوالي سنة ٥١٠ مما يدل على أن نجمه أخذ يلمع ويتألق في المحافل  
الأدبية بالقاهرة منذ هذا التاريخ . وله مدائح مختلفة في الأفضل بن بدر الجمالي المقتول . كما مر بنا  
سنة ٥١٥ . ويبدو أن نجمه ظل يصعد في الأدب حتى عمل في الدواوين الفاطمية ، وما زال  
يترقى بها حتى أُسندت إليه - مع الموفق بن الحلال - رياسة ديوان الإنشاء ، واستمر يتقلدها حتى

الماضرة للسويطي ٥٦٣/١ ومقالا لنا عنه في مجلة الثقافة  
العدد ٦٨٩ .

(١) انظر في ابن قادوس وترجمته وأشعاره الخريدة  
(قسم شعراء مصر) ٢٢٦/١ والرسالة المصرية في المجموعة  
الأولى من نوادر المخطوطات نشر عبد السلام هرون وحسن

نزل به القضاء سنة ٥٥١ للهجرة . ورياسته لهذا الديوان تجعلنا مهئين لأن يكون شعره - مثل النثر المصرى الكتابى فى تلك الحقبة - مرصعا بالبديع ، كقوله فى الأفضل :

ملكٌ تذلُّ الحادثاتُ لعِزِّه يُعيد ويُبدي والليالى رواعمُ  
وكم كربةٍ يوم التزالِ تكشَّفتْ بحملاته وهى الغواشى الغواشمُ<sup>(١)</sup>  
تَشيد بناءَ الحمدِ والمجدِ بيضه . وهن لآساس الهوادى هودام<sup>(٢)</sup>

وواضح أن فى البيت الأول طباقا بين « يعيد ويبدى » وأن فى البيتين الثانى والثالث جناسا ناقصا بين « الغواشى والغواشم » وكذلك بين « الهوادى وهودام » . وكان بارعا فى صنع ما يسمى فى البديع بحسن التعليل ، إذ كان يعرف كيف ينفذ إلى تعليقات طريفة إن هو رضى عن شيء ، فإنه يلتبس له ما يحسنه كقوله الذى أنشكدهناه بفواتح الفصل فى جارية سوداء :

يلومنى فى ظبية مخلوقة من كُحْلِ  
والحجرِ الأسودِ لم يُخلقْ لغير القبلِ

فهو يرد عن السواد فى الجارية قبحة ، إذ يجعلها مخلوقة من كحل العين الذى تزين به النساء ، وقد مضى يقول - كما مر بنا - إن السواد هو الذى يمنح العين السوداء بصرها ونورها ، ما يبلغ حجر كرم ما يبلغ الحجر الأسود من القدسية ، حتى لينال عليه الحجاج بالقبل . وفى شعاره توريات يصنعها نظرفا . وكل شيء يؤكد أنه كان شاعرا بارعا ، غير أن ديوانه سقط من الزمن ، وهو فى شعره يتغنى بالخمر وينفذ فى وصفه لها إلى تصاوير بديعة ، ويبدو أنه كثيرا ما كان يشربها مع صحبه فى الأديرة ، يقول :

قُم قبل تأذين النواقيسِ واجلُّ علينا بنتَ قسيسِ  
عروسَ دَنِّ لم يدع عثَّها إلا شعاعا غيرَ ملموسِ  
تُجلى علينا باسمًا نقرها فلانقابلها بتغيبسِ  
مُذهبةُ اللونِ إذا صفتْ مُذهبةُ لهممِ والبوسِ

نارٌ إلى النار دعا شُرْبُهَا وَشَرَّدَتْ بالعقل والكيس  
في روضةٍ كانت أزاهيرها كأنها ريشُ الطواويس

وهو يحتسبها مع رفاقه في بستان دبر ، وهو يعبّ منها متمليا بجمال الطبيعة ، وهي تجلى عليهم عروسا رشيقة معتقة ، كأنما لم يبق منها عتقها إلا شعاعا يفرّج الهموم حين يمسّ الخلق ، وإنها لذات ثغر باسم بما يطفو عليها من حجاب ، وابن قادوس يشرها وهو غير ناس أنها محرمة وأنه يتناولها من يد إبليس ، وكأنه أمل في عفوره . وعلى نحو ما كان يمزج بين الخمر والطبيعة ، محتسبا كئوس النشوة منها جميعها ، كذلك كان يمزج بينها وبين الغزل في مثل قوله :

وليلةٍ كاغْتَاضِ الطَّرْفِ قَصَّرَهَا وَضَلُّ الحبيب ولم تَقْصُرْ عن الأملِ  
بنتا نجادب أهدابَ الظلام بها كَفَّ الملام وذكرَ الصّدِّ والمَلَلِ  
وكلما رام نطقا في معانتي سَدَدْتُ فاهُ بِطِيبِ اللّثم والقَبْلِ  
وبات بدرُ تمام الحسن مُعْتَنِي والشمسُ في فلكِ الكاسات لم تَقِلْ<sup>(١)</sup>  
فبتُّ منها أرى النار التي سجدتْ لها المِجوسُ من الإبريقِ تَسْجُدُ لِي  
راحُ إذا سفك التَّدْمان من دمها ظَلَّتْ تُقَهِّمُهُ في الكاسات من جَدَلِ<sup>(٢)</sup>  
فقل لمن لام فيها إنني كلفُ مُغْرَى بها مِثْلَ ما أُغْرِيَتْ بِالْعَدَلِ<sup>(٣)</sup>

والخمرية بديعه بصور فيها ابن قادوس ليلة من أروع ليالي وصاله ، يعاتب فيها صاحبه مصرحا بما اقتطفا فيها من أزهار الوجد والوله والصبابة ، بينا شمس الخمر تنفّلت أشعتها من أفلاكها في الكئوس مشرقة غير غاربة ، ويشعر كأنها نفس النار التي طالما سجد لها المِجوس تسجد له حين تصب من إبريقها في كأسه ، ويعجب أن يسفك دمها الشارب فتسيل من الدن إلى كأسه غير محزونة ، بل مستبشرة ، بل ضاحكة مقهقهة لشدة فرحها وسرورها . ويقول لعاذله في شرها كفى عذلا ، فإنني مولع بها ولوعك باللوم والعذل . وحسبنا هذه الخمرية وسابقتها لندل على تفوق ابن قادوس في تصوير الشغف بالخمر إما حقيقة وإما محاكاة لشعراء بغداد من أمثال أبي نواس ومعاصريه .

(٣) العذل : اللوم .

(١) ظل : تغرب .

(٢) جدل : سرود .

عبد<sup>(١)</sup> الباقي الإسحاق المنوفي

من شعراء القرن الحادى عشر الهجرى أيام العثمانيين ، ولد بمنوف وبها نشأ ، وتلقى العلم على شيوخها ، ثم نزل القاهرة وأكبَّ على حلقات علمائها ينهل منها ، حتى أصبح من علمائها ، وعنى بالتاريخ ، وكان شاعرا بارعا ، ويصفه الحجبى بأنه تجاوز فى الرقة الحد وأنه يمتاز بجلاوة معانيه وعذوبة مبانيه ، ومازال ينظم الشعر حتى توفى بمسقط رأسه سنة ألف ونيّف وستين ، وقد أنشد له طائفة من أشعاره ، استلهمها بجمرية ممزوجة بالغزل على هذا النمط .

تمشّت لنا تُخجِلُ الكوكبا فناديتُها مَرَحَبًا مَرَحَبًا  
أدارتُ بحضرتنا قهوةً وطافتُ بكأسِ الطَّلَا مُذهبا<sup>(٢)</sup>  
رنتُ ورميتُ بأحاطها وقد أذكرتني عهدَ الصِّبا  
وغنّتُ لنا فطربنا لها وياحُسنَ ذاك الذى أطربا

وهو يتغزل بساقية مغنية أسرت له ، وقد دارت عليه بكثوس الخمر ، وهو ينتشى بها ويجال المغنية كما يقول ، مصرّحا بذلك مجاها فى غير مداراة . وفى قصيدة ثانية يذكر مجلسا للهو والغناء نعم به بين مشاهد الطبيعة فى عفاف لا يدانيه عفاف . ومن قوله فى خمرة راقصة :

رقص المجلسُ أنسا فاجعل الجرة كأسا  
واسقى بالزقِّ والطّا سِ . فإنى طبتُ نفسا  
وأقمِ للهو والدِّ نذات فى حانى عُرُسا  
كيف لا وهى ترينى فى دُجا الظلماء شمسا  
وتقيم الميْت حيا بعد ماجاور رمسا

وهو لغرامه بالخمر وشغفه بها يريد أن يحتسبها جرارا وزقا وطاسا لا كأسا فحسب ، وتصوّر نفسه كأنما يعيش فى حان يحالها فيه شمسا ، ترد إلى اللوق الحياة ، تعبيرا بذلك عن شدة تعلقه بها ، ويقول :

القرن الحادى عشر ٢/٢٨٩  
(٢) الطَّلَا : الخمر .

(١) انظر فى عبد الباقي الإسحاق وترجمته نغمة الرحانة  
للمجى ٤/٥٨٩ وكذلك كتابه : خلاصة الأثر فى أعيان

أَمَلْ لِي الكاسَ تماما واسقني جَامًا جَامًا (١)  
 اسقني بالكوب والكا س فرادى وَتُوَامَا (٢)  
 ثم بِالْجَرَّةِ فالج رة حتى أَتْرَامِي  
 اسقني حينئذٍ بال زقُّ حتى لا كَلَامَا  
 ثم أزهى موضعٍ في ال روضِ فاحتره مقاما

وهو صَبُّ بالخمر يريد أن يحتسبها حتى الثالثة ، بل يريد أن يشربها أرتالا جاما جاما وكثوسا وأكولبا وَجَرَّتْ متوالية حتى يفقد الكلام ويغيب عن حسه ، وهو يشربها في أزهى موضع بالروض قد عبت فيه الأزهار بأريجها العطر . وكأنما يعيد الإسحاق في أيام العثمانيين ذكرى أبي نواس وأمثاله من الماجنين العباسيين .

## ٤

## شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

مرَّ بنا أن مصر عرفت الزهد والنسك الديني من قديم ، ويكفي أنها هي التي أنشأت في المسيحية نظام الرهبنة الذي شاع منها وانتشر في العالم المسيحي . وقد أقبلت على الإسلام بمجرد اعتناقها له ونزول العرب المسلمين فيها تنهل منه ، ورأيناها تسهم منذ زمن الولاة في نشر مذهبي مالك والشافعي ، كما أسهمت في القراءات عن طريق مقرئها المشهور : ورش . وأكبت على الحديث النبوي وتفسير الذكر الحكيم وأخذت تدرسها كما تدرس القراءات والفقهاء ، وتكونت لها طبقات من علماء الدين ومن الوعاظ والقصاص ، وكان كل من شدا منهم شعرا نظم في الزهد والوعظ أبياتا كان يتداولها الناس على نحو ما كانوا يتداولون أشعار الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ وظلوا يتداولون بعده أشعار منصور بن إسماعيل الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٣٠٦ من مثل قوله (٣) :

كُنْ بِمَا أوتيتَه مُغْتَبِطًا تَسْتَدِمُ عَمَرَ القَنوعِ المكثي  
 إن في نَيْلِ المنى وَشكِّ الرَّدَى وقياسُ القَصْدِ عند السَّرْفِ  
 كسراجِ دُهْنُهُ قُوْتُهُ فإذا غَرَّقْتَهُ فيه طُفِي

(٣) نكت الميمان ص ٢٩٨

(١) الجام : إناه من فضة .

(٢) توام : توأم : من الاثنين إلى مازاد .

وهو يدعو إلى القناعة والاكتفاء بالقليل وعدم التطلع إلى مئى عريضة يكون فيها حتف صاحبها ، ويقول لابد من القصد والاعتدال لتظل للإنسان مئته وقوته ، أما إذا أفرط وتجاوز الاعتدال والقصد فإنه لاشك صائر إلى الهلاك . وإذا تركنا الفقهاء إلى الشعراء وجدناهم يرددون بعض أشعار زاهدة وبعض مواعظ ، واتخذوا - كما أسلفنا - من زوال الدولة الطولونية عبرة كبرى للدهر ونكباته ، وأخذت العظة وما يتصل بها من شعر الزهد تتكاثر على ألسنة الشعراء ، ولتيم بن المعز قصيدة فى القرافة ومقايها وما تبعث فى النفس من خشية الله ، وفيها يتجه إلى ربه قائلاً أو مناجياً (١) :

رجوتك يارب لا أنى أعطتك طوع أولى الانتهاء  
ولكننى مؤمن مؤمن موقن بأنك رب الورى والسما  
وأنت أهل الحسنى الظنون وأنت أهل الحسنى الرجاء

فهو يرجو الله ويعبده لا خشية عقابه ولا خوف ناره ، ولكنه يعبده لأنه أهل لعبادته ، فهو رب الكون ، رب الأرض والسما ، وهو يرجوه للرجاء لا لشيء وراءه من مآرب الحياة أو مآرب الآخرة . فشىء من ذلك لا يعلق بنفسه ، وإنما يعلق بها اليقين والإيمان بأنه الرب الأعلى الخلق بكل عبادة وكل رجاء .

ومن يتصفح ديوان الشريف العقيلى شاعر الطبيعة والخمر يجده يختم كل قافية من قوافيه المرتبة على الحروف الهجائية بأبيات واعظة ، كأنما يكفر بها عما نظمه من مجون فى نفس القافية ، كقوله فى قافية الباء (٢)

أيها التائه الذى ضل عما يراد به  
إن للعرضى وقفة أمرها غير مشتبه  
فانتبه قبل أن ترى مذنباً غير منتبه

ووعظيات الشريف ليس فيها روح ، لسبب طبيعى وهو أنه لم يكن شاعر وعظ وزهد ، وإنما كان شاعر خمر وطبيعة ، ومع ذلك فأغلب الظن أنه هو الذى أوحى لشعراء الموشحات الأندلسية فى الحقب المتأخرة بفكرة الموشحات المكفرة لموشحاتهم الماجنة .

ونلتقى بظافر الحداد بعد تيمم ، وهو يذكر دائماً بالموت كقوله (١) :

كُنْ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى وَجَلٍ وَتَوَقَّعْ سُرْعَةَ الأَجَلِ  
تَحْدَعُ الإنسانَ لَدَتْهَا فَهِيَ مِثْلُ السَّمِّ فِي العَسَلِ  
أنتَ فِي دِنْيَاكَ فِي عَمَلٍ وَاللَّيَالِي فِيكَ فِي عَمَلٍ

فالسعيد في رأى ظافر من وضع الموت نصب عينيه ، ولم يغتر بمتاع الحياة ولذتها فهي كالمس في العسل ، لاتزال تسرى في الجسم ، ولاتزال الأيام والليالي تعمل عملها فيه ، حتى يفنى فجأة وعلى غير أهبة أو انتظار . ولا بن التضر يدعو دعوة حارة إلى الزهد والقناعة (٢) :

جِهَادُ النَّفْسِ مَفْتَرَضٌ فَخُذْهَا بِأَدَابِ القِنَاعَةِ وَالزَّهَادَةِ  
فإن جَنَحْتَ لذلكِ واستجابتْ وخالفتِ الهوى فهو الإرادة  
وإن جمحتْ بها الشهواتُ فاكبحْ شَكِيمَتَهَا بِمِقْمَعَةِ العِبَادَةِ  
عسَاكَ تُحِلُّهَا دَرَجَ العَالِي وَتَرْفَعُهَا إِلَى رَبِّ السَّعَادَةِ

وهو يحض على جهاد النفس وترويضها على الزهد في طيبات الحياة ، فإن خالفت هواها وأصغت لك فهي الأمنية المبتغاة ، وإن استعبدتها الشهوات فاكبح جاحها بالنسك والعبادة ، فهي خير مؤدب ومرؤس مدلل لها حتى ترقى إلى درج المعالي وتصعد إلى رتب السعادة . ومن تبتلاته إلى ربه (٣) :

يَا مُسْتَجِيبَ دَعَاءِ المُسْتَجِيرِ بِهِ وَيَا مُفَرِّجَ لَيْلِ الكُرْبَةِ الدَّاجِيِ  
قَدْ أُرْتَبَجْتُ دُونَنا الأَبوابُ وَاُمْتَنَعْتُ وَجَلَّ بِأَبْكَ عَنِ مَنَعِ وإِرْتاجِ  
نَخافُ عَدْلَكَ أن يَجْرِيَ القِضَاءُ بِهِ وَنَرْجِيكَ فَكُنْ لِلخائِفِ الرَّاجِيِ

وهو تبتل وتضرع رقيق إلى الذات العلية ، إذ يدعو الله المفرج لظلمات الكربة ، الكاشف لليلها الداجي ، أن يفتح له الأبواب بعد أن أُغلقَ دونه كل باب ، وإنه ليتعلق بالأمل في رحمته

رحمة تمنح العدل أن يجرى القضاء به متوسلاً بخوفه ورجائه في رحمة الله الواسعة ، ولا بن سناء الملك<sup>(١)</sup> :

أقولُ دارى وجيرانى مغالطةً والقبرُ دارى والأمواتُ جيرانى  
فى وحشةِ القبرِ والدودِ المقيمِ به شُغلٌ لِنَفْسِي عن دارى وبُستانى  
سأوسع القبرَ بالأعمالِ أصلحها جهدى وأبْسُ زهدى قبل أكفانى

فليست داره هى الدار الحقيقية له وليس جيرانه هم جيرانه الحقيقيون ، فداره الحقيقية القبر وجيرانه الأموات حول قبره ، وإنما لدار مفزعة ، دار وحشة وديدان تنتظره ، دار ضيقة وسيحاول أن يمد أطنابها بالأعمال الصالحة ، وسيسرع إلى ثياب الزهد فى الحياة الدنيا يلبسها قبل أن يلبس أكفانه ويتزل رمسه وحفرته المظلمة .

ويكثر ابن مطروح من مناجياته لربه كقوله<sup>(٢)</sup> :

يا مَنْ عَلا فى مُلكِهِ فاقْتَرَبْ وَمَنْ بَدَأَ فى نوره فاحتجَبْ  
وَمَنْ هو القَصْدُ لأهلِ الثَّهْبِ والمطلبُ الأَسْنَى وكلُّ الأَرْبِ  
عَوَدَتْنِي الأَنْسَ فلا تَنْسِنِي وهَبْنِي الرِّحْمَةَ فيما تَهَبْ

وهو يتضرع إلى ربه الذى علا فى ملكوته وهو أقرب إليه من جبل الوريد ، والذى يملأ الدنيا نورا وضياء من حوله ، وهو محتجب لا يراه أحد ، والذى هو المقصد والمطلب الأسمى وكل الأرب والأمل ، والذى عوده الأنس به ، أن لا ينساه وأن يهبه من خزائنه العلية ورحمته الواسعة .

ويظل شعر الزهد والتبتل إلى الله مزدهراً زمن الممالك ، من ذلك قول عبد الملك الأرمنى القصوى المتوفى سنة ٧٢٢ متعلقاً بعفوره<sup>(٣)</sup> :

قالَتْ لى النَّفْسُ وقد شاهدتْ  
بأىِّ وَجْهِ تَلْتَقى رَبِّنا  
فقلتُ حَسْبى حُسْنُ ظَنى بِهِ  
حالى لا تصلحُ أو تستقيمُ  
والحاكمُ العَدْلُ هناك العَريمُ  
يُنيلنى منه النعيمُ المقيمُ

قالت وقد جاهرت حتى لقد حقَّ له يُصليكَ نارَ الجحيمِ  
قلت معاذَ الله أن يبتلى بسنارِهِ وهو بحالي عليم

والمراجعة بين عبد الملك ونفسه طريفة ، فهي تلومه على حاله المعوجة وسلوكه غير الصالح وتقول بأى وجه تلقى غريمك وهو ربك ، فيرد عليها بأنه حسن الظن بإلهه وعفوه ، وأنه سيدخله جنات النعيم . فتسأله متعجبة أنجهر بذلك ولا تخفيه ، لقد حقت عليك النار . فيقول معاذ الله أن يصلية ربه الجحيم وهو العالم بحاله وصحة نيته في إيمانه .

ويقول الحافظ المحدث شمس الدين أبو المعالي ابن القحاح المتوفى سنة ٧٤١ للهجرة (١) :

اضْبِرْ عَلَى حُلُوِّ الْقَضَاءِ وَمُرِّهِ      وَاَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ بِالْغُ أَمْرِهِ  
وَأَثْبِتْ فِكْمِ أَمْرِ أَمْضُكَ عُسْرُهُ      لَيْلًا فَبَشِّرْكَ الصَّبَاحُ بِبُيُوسِرِهِ  
وَاضْرَعْ إِلَى اللَّهِ الْكَرِيمِ وَلَا تَسَلْ      بَشْرًا فَلَيْسَ سِوَاهُ كَاشِفَ ضُرِّهِ

وهو يدعو إلى الرضا بكل ما يأتي به القضاء من حلو ومر ، فتلك إرادة الله ولا راد لأمره ، وينصح بالثبات حتى تنكشف ظلمة الغمة وتسفر عن بشرى مضيئة ضوء الصباح وأن يلجأ الإنسان إلى ربه ويضرع إليه ، فهو وحده كاشف الغم ومفرج الحزن .

ونلتقى بتبتلات وأدعية كثيرة عند الشيوخ ، من ذلك قول قاضي القضاة ابن التنسي المالكي المتوفى سنة ٨٥٢ للهجرة (٢) :

إِلَهَ الْخَلْقِ قَدْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي      فَسَامِعْ مَا لِعَفْوِكَ مِنْ مِشَارِكِ  
أَغْنِ يَا سَيِّدِي عَبْدًا فَقِيرًا      أَنَاخَ بِيَابِكَ الْعَالِي وَدَارِكِ

فهو يتضرع لربه أن يعفو عن ذنوبه ، ويستغيث به ، فهو عبد فقير من عباده ، ألقى عصاه ببابه ، آملاً في قبول تضرعه ، ويورث تورية واضحة في قوله : « دارك » فعناه القريب الدار الحقيقية بدلالة كلمة الباب قبلها ، والمعنى البعيد المقصود أن يدركه قبل أن ييأس من عفوه ورحمته .

ويلقانا زهد كثير في الحقبة العثمانية من مثل قول محمد بن أحمد الحنطادى في الدعوة إلى القناعة

وأن لا يفكر الإنسان في رزق الغد<sup>(١)</sup> :

تَأْنٌ وَلَا تَجْزَعُ لِأَمْرٍ تَحَاوَلْتَهُ فَخَيْرٌ اخْتِيَارِ الْمَرْءِ مَا اللَّهُ فَاعِلُهُ  
تَقِيًّا بَظِلِّ اللَّهِ مِنْ رَوْحِ قَوْلِهِ أَلَسْتُ بِكَافٍ تَلَحُّقَكَ فَوَاضِلُهُ<sup>(٢)</sup>  
وَعِزٌّ تُهِنُّ دُنْيَاكَ وَاغْنَى بِتَرْكِهَا وَلَا تَحْفَلَنْ بِالرِّزْقِ فَاللَّهُ كَافِلُهُ

فهو يدعو إلى الصبر في طلب الرزق وأن لا ييأس الإنسان ، بل يدع شأنه لربه فإنه ضامن رزقه ولن ينساه ، وحرى بالإنسان أن يستظل بمثل قوله : ( أليس الله بكاف عبده ) مؤمنا بأنه يتكفل بعباده ولا يترك ظامئا إلا سقاه ولا عاريا إلا كساه ، وما العز الحقيقي إلا رفض الدنيا وما الغنى الحقيقي إلا تركها وعدم التعلق بها وأن لا يشغل الإنسان نفسه برزق الغد ، فالله كافله وضامنه .

وقد تحدثنا في الفصل الأول عن نشأة التصوف بمصر وأنه أخذ طريقه فيها إلى الظهور منذ سنة ٢٠٠ للهجرة ولم يلبث ذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ للهجرة أن رفع صرحه سامقا ، إذ يعد المؤسس الحقيقي للتصوف الإسلامى وترتيب أحواله ومقاماته ، وقد ذكرنا أطرافا من آرائه الصوفية وبعض تلاميذه من أعلام الصوفية بعده في الشام والعراق وإيران ، وكان مصر التي يرجع إليها الفضل في قيام نظام الرهبة في المسيحية يرجع الفضل إليها أيضا في قيام التصوف في أركان العالم الإسلامى ، أو قل بعبارة أدق يرجع الفضل في قيامه إلى أحد أبنائها وهو ذو النون المصرى ، وممراً بنا تصوير ذلك من بعض الوجوه وكيف أنه كان أول من وضع تعريفا للوجد الصوفى وأول من ذكر كأس المحبة الربانية التي هي جوهر التصوف وقوامه ، ومن ضيائها استمد في قوله مخاطبا ربه<sup>(٣)</sup> :

لَكَ مِنْ قَلْبِي الْمَكَانَ الْمَصُونُ كُلُّ لَوْمٍ عَلَيَّ فِيكَ . يَهُونُ  
لَكَ عِزْمٌ بَأَنِ أَكُونَ قَتِيلًا فِيكَ وَالصَّبْرُ عَنْكَ مَا لَا يَكُونُ

وكانه أول قتيل بل أول شهيد في الحب الإلهى ، فقد سبغ في بحاره وغرق بين أمواجه ، غرق في مياه عميقة ؛ ماداً بصره إلى القاع وأعماق الأعماق ، يريد أن يرتوى وأن يحظى بأمانيه من الوصال ، محتملا في ذلك جهودا مضنية ، وفي ذلك يقول<sup>(٤)</sup> :

(٣) ابن خلكان ١/٣١٦

(١) سلافة المصر لابن معصوم (طبع القاهرة) ص ٤١٨

(٤) طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٧ .

(٢) تقياً : استظل .

أُموت وماماتُ إليك صَبَابِي وَلا قُصِيَتْ من صدقِ حُبِّكَ أوطاري  
تَحْمَلُ قلبي فيك مالا أبُه وإن طال سُقْمِي فيك أوطال إضراري

فصباياته بالحب الإلهي لا تنقضي ، إنه لا يزال يريد أن يكون حبه لربه لا يدانيه حب ، ولا يزال يجد فيه نصبا وشقاء ، ولذته التي لا تحد إنما هي في هذا الشقاء والنصب الذي لا يشبهه نصب . وتناول كأس هذه المحبة منه كثيرون في العالم الإسلامي . ويدور الزمن بمصر دورات وندخل في هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وسرعان ما تنشأ بمصر الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وكانت تعارض التصوف حتى لا يطفى على عقيدتها التي صورناها في غير هذا الموضع وبصرف المصريين عنها ، ومن هنا تراجعت موجهة في عهدها ، ومع ذلك فينبغي أن لا ننظر أنه تلاشي ، فقد ظل حبله ممدودا بعد ذى النون . ومرّ بنا من متصوفها بعده أبو بكر الدقاق الكبير المتوفى سنة ٢٩٠ وبنان الحجال المتوفى سنة ٣١٦ وأبو علي الروذباري المتوفى سنة ٣٢٢ ويعد السيوطي بعض أسماء لمتصوفة ظهوروا في عهد الدولة الفاطمية<sup>(١)</sup> مثل ابن الترجان المتوفى سنة ٤٤٨ ويقول عنه : كان شيخ الصوفية بديار مصر . وولتقى بأخراة من أيام الفاطميين بصوفى كبير هو ابن الكيزاني وستترجم له عما قليل . ومرّ بنا أنه أخذ يتضح في التصوف منذ قيام الدولة الأيوبية اتجاهاً ، اتجاه فردي فلسفي واتجاه جماعي سني ، ومثّل الاتجاه الأول ابن الفارض وسنخصه بترجمة ، ومن تلاميذه ابن الخيمي محمد بن عبد المنعم المتوفى سنة ٦٨٥ ولم يتجه بتصوفه اتجاه ابن الفارض الفلسفي ، بل وقف به عند الوجد والحديث عن الشوق وأكثر من ذكر معاهد الحب على طريقة العذريين ، واشتهر بأنه تنازع مع محمد بن إسرائيل صوفي الشام في قصيدة صوفية واحتكما إلى ابن الفارض ، فشهد لابن الخيمي أنها من نظمه ، وفي فوات الوفيات قطعة من شعره ، ومن قوله في الذات الإلهية<sup>(٢)</sup> :

وَحَبِّبَ عَنَّا حُسْنَهُ نَوْرَ حَسَنِهِ فَمِنْ ذَلِكَ الْحَسَنِ الضَّلَالَةُ وَالهُدَى  
فِيانَارَ قَلْبِي حَبِّدَا أَنْتِ مُصْطَلِّي وَيَادَمَعَ عَيْنِي حَبِّدَا أَنْتِ مَوْرِدَا

وشعره الصوفي يهبط عن شعر ابن الفارض كثيرا . وكان يعاصره كتاكت المصرى الواعظ

المقرئ المتوفى سنة ٦٨٤ ونحس عنده قبسا من ابن الفارض في مثل قوله (١) :

حَضَرُوا فَمُنْذُ نَظَرُوا جَمَالَكَ غَابُوا وَالْكُلُّ مَذُ سَمِعُوا خَطَابَكَ طَابُوا  
فَكَأَنَّهُمْ فِي جَنَّةٍ وَعَلَيْهِمْ مِنْ خَمْرٍ حَبْكُ طَافَتِ الْأَكْوَابُ  
أَنْتَ الَّذِي نَاوَلْتَنِي كَأْسَ الْهَوَى . فَإِذَا سَكَرْتُ فَمَا عَلَيَّ عِتَابُ

ويقول ابن تغرى بردى إنها قصيدة مشهورة عند الفقراء يريد الصوفية ، وواضح أنه يصور في هذه الأبيات الغيبة التي طالما صورها ابن الفارض والتي تعنى عنده السكر وفقدان الوعي ، فقد غاب عن وعيه حين أحس بمشاهدته للجمال الرباني وكأنما طافت أكواب الخمر الإلهية ، وتناول منها كوبا ، جعله يغيب عن الوجود شاعرا بوجود لا يشبهه وجد ، وجد بالجمال الإلهي المطلق الذي يسرى في كل كائن جميل مستمدا منه حسنه وجماله ، يقول (٢) .

مَنْ أَنْتَ مَحْبُوبُهُ مَاذَا يَغَيِّرُهُ وَمِنْ صِفَاتِ لَهْ مَاذَا يُكَدِّرُهُ  
هَيَّاتِ عَنكَ مِلاخُ الْكُونِ تَشْغَلُنِي وَالْكُلُّ أَعْرَاضُ حَسَنِ أَنْتَ جَوْهَرُهُ

وكان الله يشاهد في كل جميل بالكون ، أو قل كأن كل جميل يستمد منه جماله ، أو يشاهد فيه جماله ، وفكرة الشهود ستعرض لها عند ابن الفارض عرضا أكثر سعة . وبدون ريب أثر ابن الفارض في صوفية مصر وغير مصر بعده آثارا تضيق وتتسع حسب مواجد الصوفي .

ويلقانا صوفي من أتباع ابن عربي ، مربنا ذكره في الفصل الأول ، وهو عبد العزيز بن عبد الغنى الحسني المتوفى سنة ٧٠٣ وفي شعره ما يدل على تلمذته لابن عربي إذ يقول (٣) :

وَجَدْتُ بَقَائِي عِنْدَ فَقْدِ وَجُودِي فَلَمْ يَبْقَ حَدٌّ جَامِعٌ لِحُدُودِي  
وَأَلْقَيْتُ سِرِّي عَنِ ضَمِيرِي مَلُوحًا بِرَمَزِ إِشَارَاتِي وَفَكَ قِيُودِي  
فَأَصْبَحْتَ مَنِي دَانِيَا بِمَعَارِفِي وَقَدْ كُنْتَ عَنِّي نَائِيَا بِجَمُودِي

ويقول ابن حجر معلقا على الأبيات : « وهذا نفس الاتحادية لا شك فيه » . يريد أن الأبيات تصدر عن فكرة الاتحاد بالذات العلية التي كان يؤمن بها ابن عربي ، وكان له ديوان

(٢) النجوم الزاهرة ٣٦٥/٧

(٣) الدرر لابن حجر ٤٨٤/٢

(١) انظر ترجمة ككاكت في الفوات ١٠٨/١ والنجوم

الزاهرة ٣٦٤/٧ .

كبير ، و يذكر له قصيدة نونية طويلة اسمها البسوس وهي ملكة النحل .  
ومن المؤكد أن النزعة الفلسفية في التصوف بمصر كادت تنحسر بعده إلا قليلا ، إذ مضت مصر  
تؤثر التصوف السني وما أشاعه من الطرق الصوفية الكثيرة ، وقد أفضنا في بيان ذلك بالفصل  
الأول ، وكان من أهم الطرق التي تأسست بها الطريقة الشاذلية ، ومن أهم أصحابها ابن عطاء  
الله السكندريّ الصوفي الواعظ تلميذ مؤسسها أبي الحسن الشاذلي وأبي العباس المرسي ، ومن  
شعره قصيدة يقول فيها <sup>(١)</sup> :

ويا صاح إن الركب قد سار مسرعا ونحن قعود ما الذي أنت صانعُ  
أترضى بأن تبقى المخلف بعدهم صريع الأمان والغرام يتنازع  
وهذا لسان الكون ينطق جهرَةً بأنّ جميع الكائنات قواطعُ

فهو يهتف بصاحبه أن يتبع ركب المحبوب ولا يتخلف ، حتى لا يفقد أمانه ويضيع منه حبه ،  
بل إن الكون كله ليهتف به أن يرحل وراءه ويهاجر له ، فجميع الكائنات ماترال مهاجرة تتبعه .  
وكثير من شعر هؤلاء الصوفية كانوا ينظمونه ليردده المنشدون في الذكر بين صفوف الذاكرين الله  
كثيرا ليملثوهم حاسة وإمعانا في ذكر الله وتسيحه ، من مثل قول عبد الغفار بن أحمد بن نوح  
القوصي الصوفي المتوفى سنة ٧٠٨ للهجرة :

أنا أفتى أنّ ترك الحبّ ذنبٌ آثمٌ في مذهبي من لم يُحبّ  
ذُقْ على أمرى مراراتِ الهوى فهو عذبٌ وعذاب الحبّ عذبٌ  
كل قلبٍ ليس فيه ساكنٌ صَبوةٌ عذريّةٌ ماذا قلبُ

ويكثر هؤلاء الشعراء من الصوفية في أيام المماليك ، ومن أشهرهم برهان الدين بن زقاعة ،  
المتوفى سنة ٨٥٩ عن سن عالية ، وكان يتبرك به السلطان برقوق وابنه السلطان فرج ، وله في  
الحب الصوفي ومواجهه أشعار كثيرة من مثل قوله <sup>(٢)</sup> :

رأى عقلي ولبيّ فيه حارا فأضرمَ في صميم القلب نارا  
ألا يالانمي دغني فلاني رأيت الموتَ حَجًّا واعتارا  
وأهلُ الحب قد سَكروا ولكنّ صحا كلُّ وِفَرقتنا سُكاري

(٢) المنبل الصافي ١/١٥٤ والنجوم الزاهرة ١٤/١٢٦ .

(١) النجوم الزاهرة ٨/٢٨٠

وهي نار كانت لا تزال مشتعلة في قلوب الصوفية ، نار حبيهم للذات العلية ، نار لا تنطفئ أبدا في أثناء حبيهم بل جهادهم الشاق العنيف في هذا الحب ، الذي كانوا لا يزالون يرحلون إليه رحلتهم الصوفية المجهدة حجا وعمرة ، وما يزالون راحلين هائمين مفضين إلى سكر لا يدانيه سكر ، متجردين عن كل رغبة في النفس ، حتى لكأما تتعطل إرادتهم ويموت كل شيء إلا رغبتهم الجامحة في الوجد الرباني .

ويلقانا شعراء صوفية كثيرون في كل طريقة من طرق الصوفية بل إن كثيرين من أصحاب هذه الطرق التي كان يرثها الأبناء عن الآباء كانوا شعراء ويجري الشعر على ألسنتهم على نحو ما نقرأ عند السادة الوفاة الشاذلية . والسادة البكرية في أيام المالك وأيام العثمانيين من مثل قول على بن وفا :

تغيبت عن عيني فغيبك شاهدي      ووجهك مشهودي وما عنك عائق  
فإن غبت فالأشباح منى مغارب      وإن لُحِتَ فالأرواح منى مشارق

ويتلو الشهاب الخفاجي البيتين بطائفة من أشعار أبنائه ويقول لهم أنفس قدسية أفيضت عليها العلوم اللدنية<sup>(١)</sup> . ونشأ للصوفية وطرقهم من قديم مريدون كثيرون كانوا لا يزالون ينوّهون بأصحاب طرقهم وأساتذتهم ، وقد يبالفون في ذلك ، فيطلبون منهم الهداية إلى طريق التقوى والصلاح<sup>(٢)</sup> .

وكان المديح النبوي يقترن بشعر التصوف من قديم ، ومنذ حسان بن ثابت وكعب بن زهير والشعراء بمدحون الرسول ﷺ . وأخذت هذه المدائح تتكاثر منذ القرن الرابع الهجري ، تكاثرت على السنة أهل السنة مجسدين في الرسول المثل الكامل للمسلم في نسكه وجهاده في سبيل نشر دعوته ورسالته النبوية ، وكذلك على السنة الشيعة ذاهبين إلى أن نوره المحمدي يتجسد في أئمتهم من بعده . وبالمثل على السنة المتصوفة وقد أخذوا منذ الحلاج يشيعون فكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول مبدأ الوجود الروحي للحياة الإنسانية ، بل مبدأ النور في الكون ، منه يستمد ضياءه . وقد مضى كل هؤلاء المادحين ينوّهون بصحابة الرسول وبمعجزاته المادية ومعجزته الكبرى القرآنية ، مع التوسل إليه بطلب الشفاعة يوم العرّض وأن يكون دائما معينا لهم ونورا هاديا . وما زال الشعراء المصريون - مثلهم مثل شعراء العالم الإسلامي يتغنون بمدح الرسول ﷺ ، حتى إذا نشبت

الحروب الصليبية ، وكانت حربا دينية ، أخذ حملة الصليب يهاجمون رسول الإسلام برسائل منكرة ، واندمت الحروب بين المسلمين وبينهم فكان طبيعيا أن يزدهر المديح النبوي للرد على أعداء الإسلام من جهة ، ومن جهة ثانية لرفع سيرته العطرة وجهاده في نشر رسالته شعاراً يتخذ منه الذائدون عن حمى الإسلام القدوة الحسنة دالعا فيهم الحماسة لدق أعناق الصليبيين وسحقهم سحقا ذريعا . وكاد لا يخلو ديوان شاعر مصرى حيثذ من مدحة أو مدائح نبوية ، وخاصة منذ ظهور البوصيرى أنه مادم مصرى للرسول ، بل أنه مادم عربى له على الإطلاق ، وسنخصه بكلمة ، ولكثيرين من معاصريه مدائح نبوية طنانة ، ونكتفي بأن نشير من بينهم إلى شيخ الإسلام تقي الدين محمد بن علي المشهور باسم ابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ وله أكثر من مدحة نبوية ، ومن قوله في مديحه عليه السلام (١) :

لم يبق لي أملٌ سواك فإن يفتُ ودعتُ أيام الحياة وداعا  
لا أستلذُّ غير وجهك منظرا وسوى حديثك لأريد سماعا

وكان العزازي معاصره المار ذكره بين الوشاحين يكثر من المديح النبوي ، ومن قوله في بعض مديحه للرسول الكريم (٢) :

أفَى النَّبِيِّنَ بَرَهَانًا وَمَعْجَزَةً وَخَيْرُ مَنْ جَاءَهُ بِالْوَحْيِ جَبْرِيْلُ  
سَلُّ الْإِلَهَ بِهِ سَيْفًا مَلْتِيْهِ وَذَلِكَ السَّيْفُ - حَتَّى الْحِشْرِ - مَسْلُوْلُ  
وَيْلٌ لِمَنْ جَحَدُوا بَرَهَانَهُ وَتَنَى عِنَانَ رُشْدِهِمْ غَيٌّ وَتَضْلِيلُ

ولاين سيد الناس صاحب السيرة النبوية المتوفى سنة ٧٣٤ للهجرة ديوان خصه بمديح الرسول عليه السلام سماه « بشرى اللبيب بذكر الحبيب » مخطوط بدار الكتب المصرية . ولاين نيانه وبرهان الدين القيراطي مدائح نبوية مختلفة ، ويظل الشعراء يمدحون الرسول الكريم مدائح كثيرة ويطرد ذلك في الحقبة العثمانية عند الشهاب الخفاجي وغيره (٣) ، كما يطرد التوسل به وطلب الشفاعة ، ع نحو ما نجد عند عبدالله الإدكاوي من مثل قوله متوسلا (٤) :

(١) الفوات ٤٨٧/٢ .  
(٢) المنبل الصافي ٣٤٣/١ .  
(٣) وانظر نغمة الريحانة للمحي ( طبعة عيسى البابي  
(٤) تاريخ الجبقي ٣٥٣/١ .

ياربُّ بالهادى الشفيعِ محمدٍ  
 كُنْ لى مميئاً فى معادى واخفى  
 منْ قد بدا هذا الوجودُ لأجله  
 همُّ المعاش وما أرى من ثقله  
 لك سببى واشفِ الحشا من غلِّه  
 واسترِّ بفضلك زلتى واغفرْ بعدَّ

وهو يضرع إلى الله متوسلاً إليه بالرسول الشفيع يوم القيامة لأهل دينه أن يكون عوناً له فى معاده ومعاشه ، وأن يغفر له ذنوبه ويستر عيوبه ، وحرى بنا أن نتوسع قليلاً فى الحديث عن بعض شعراء التصوف والمديح النبوى :

### ابن (١) الكيزانى

هو محمد بن إبراهيم الكنانى المقرئ الواعظ الشافعى ، مصرى الدار ، من شعراء الحب الإلهى وما يتصل به من الأحوال والمقامات ، اشتهر باسم ابن الكيزانى ، من شعراء مصر فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى ، إذ توفى سنة ٥٦٢ للهجرة ، وقد رأى ابن سعيد صاحب كتاب المغرب الذى زار مصر فى العقد الخامس من القرن السابع الهجرى ديوانه يباع بكثرة فى سوق الفسطاط وسوق القاهرة ، غير أنه لم يصلنا إذ سقط من يد الزمن ، وقد حوّن منه الهامد الأصبهاني فى كتابه « الخريدة » طائفة كبيرة من شعره ، تصور إلى حد بعيد مواجده الصوفية ، ونراه يقدم لها بأنه « فقيه واعظ مذكر حسن العبارة مليح الإشارة لكلامه رقة وطلاوة ، ولنظمه عدوية وحلاوة .. وله ديوان شعر يتهافت الناس على تحصيله وتعظيمه وتبجيله ، لما أودع فيه من المعنى الدقيق ، واللفظ الرشيق ، والوزن الموافق ، والوعظ اللائق ، والتذكير الرائع الرائق . ودفن عند قبر الشافعى » ويقول عنه : عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمعقول والمشروع ، مشهور بالتحقيق فى علم الأصول ، وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ومعرفة بالقديم مكون الحديث إلا أنه ابتدع مقالة ضلّ بها اعتقاده ، وزلّ فى مزالقتها سداده ، إذ ادعى أن أفعال العباد قديمة والطائفة الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة » وهم أشباه الكرامية بخراسان « فهو عالم

والواقى بالوفيات للصفدى ٣٤٧/١ والنجوم الزاهرة ٣٦٧/٥ ، ٣٧٦ . وراجع مقالين لنا عن ابن الكيزانى فى مجلة الثقافة ، المجلدين ٦٩٢ ، ٦٩٣ .

(١) انظر فى ترجمة ابن الكيزانى وأشعاره المغرب لابن سعيد ( القسم الخاص بالفسطاط ) ص ٢٦١ وما بعدها ، وتذكرة الحفاظ ١٣١٩/٤ والخريدة ( قسم مصر ) ١٨/٢ وابن خلكان ٤٦١/٤ وطبقات الشافعية للسبكي ٩٠/٦

بالسنة والفقه والشريعة وبالفلسفة وعلوم الأوائل ، غير أنه صاحب مقالة خاصة تشبه مقالة الكرامية في خراسان . ويقول المقدسي الذي زار مصر في أواخر القرن الرابع الهجري إنه كان لهم محلة بالفسطاط ، ومن الممكن أن تكون هذه المحلة ظلت حتى عصر ابن الكيزاني ، وهو بذلك كان كراميا صوفيا ، أو صوفيا على مذهب الكرامية القائلين بالتشبيه على الذات العلية للعباد ، وهو تشبيه كان يقترن بالتنزيه ، وتبدو الفكرة معقدة ولكن من الممكن تصورهما ، فانت إذ تشاهد كأننا جميلا ترى فيه خالقك ، مع تنزيهه عن أن يكون هونفس الكائن الجميل . وليست هذه الفكرة كل ما يميز الكرامية ، فقد كانوا يعتقدون - كما اعتقد الكيزانية - فكرة القدم في أفعال العباد لا في أفعال الله وحدها ، وقد أنكر العباد ذلك على ابن الكيزاني . وهو والكرامية معه إنما يريدون قدمها في العلم الإلهي ، ومادام العلم الإلهي قديما فهي قديمة مثله . ومربنا آفنا أن العباد قال إنه كانت تتبعه بمصر لمهده في النصف الثاني من القرن السادس الهجري فرقة كانت تعتق نحلته ، ويقول القفطلي المتوفى سنة ٦٤٦ : « لابن الكيزاني بمصر وسواحل الشام فرق تنتمي إليه في المعتقد وأكثرهم بحرف مصر » ويقول ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ : « بمصر طائفة ينسبون إلى ابن الكيزاني ويعتقدون مقالاته » . وفي ذلك ما يدل على أن منزعه الصوفي ظل معروفا بمصر وظل له أتباع طوال القرن السابع الهجري على الأقل . ويبدو أنه كان هناك من يعارضه في حياته وبعد مماته ، فقد ذكروا أن الفقيه نجم الدين الحنبوشاني نبش قبره في عهد صلاح الدين وأخرج منه عظامه ، وقال : « لا تنفق مجاورة زنديق إلى صديق » ويقصد بالصديق الشافعي . وقد نقله إلى سفح المقطم ، يقول ابن خلكان : « وقبره مشهور هناك يزار ، وزرته مرارا ، رحمه الله » ويقول ابن تغري بردي : « لا يلتفت لقول الحنبوشاني فيه لأنها أهل عصر واحد ، وتهور الحنبوشاني معروف » . وتجمع كتب التراجم على أنه كان ورعا زاهدا ، بل متصوفا متقشفا ، وقد أنشد له العباد أكثر من ثلاثمائة بيت في الحب الإلهي ، تسيل عذوبة ورشاقة وخفة من مثل قوله :

|   |   |
|---|---|
| تَلَدُّ لِي فِي هَوَى لَيْلِي مَعَاتِبِي          | لَأَنَّ فِي ذِكْرهَا بَرْدًا عَلَى كَيْدِي        |
| وَأَشْتَهِي سَمِّي أَنْ لَا يَفَارِقَنِي          | لَأَنَّهَا أَوْدَعْتَهُ بَاطِنَ الْجَسَدِي        |
| وَلَيْسَ فِي النَّوْمِ لِي مَاعَشْتُ مِنْ أَرَبِّ | لَأَنَّهَا أَوْقَفَتْ جَفْنِي عَلَى السُّهْدِي    |
| وَلَوْ تَمَادَتْ عَلَى الْهَجْرَانِ رَاضِيَةً     | بِالْهَجْرِ لَمْ أَشْكُ مَا أَلْقَى إِلَى أَحَدِي |
| اللَّوْمُ أَشْبَهُ بِي مِنْهَا وَإِنْ ظَلَمْتُ    | أَنَا الَّذِي سَقْتُ حَتَّى فِي الْهَوَى يَبْدِي  |

ولو أننا لم نعرف قائل هذا الشعر وأنه من الصوفية لظنناه شاعرا عذريا ، فهو يشكو الصد والهجر ويرمز عن الذات الإلهية بليلى ، ويتأدى في العتاب ، معلنا سقمه وسهده ، بل لقد عرض نفسه للموت والهلاك . وابن الكيزانى مثله مثل شعراء الحب الإلهى جميعا فقد رفضوا كل الحواجز بينهم وبين أصحاب الغزل العذرى ، معبرين بما فى غزلهم من حسيه واضحة عن رموز ومعان صوفية ، حتى لئزى ابن الكيزانى يقول :

|                                |                                |
|--------------------------------|--------------------------------|
| أترعم ليل أننى لا أحبها        | وأنى - لما ألقاه - غير حمول    |
| فلا ووقوفى بين ألوية الهوى     | وعصيان قلبى للهوى وعذولى       |
| لو انتظمتنى أسهمُ الهجر كُلهما | لكنتُ على الأيام غير ملول      |
| ولست أبالى إذ تعلقتُ حبها      | أفاضتُ دموعى أم أضرتُ نحولى    |
| وما عبئى بالنوم إلا تغلُّ      | عسى الطيفُ منها أن يكونَ رسولى |

وهل من «ارق بين هذه الأبيات وأبيات الحب العذرى ؟ إنه ليذكر وقوفه بمعاهد الهوى وعصيانه للعقول أو العواذل وصبره على المجران الأليم وما يحافى فيه من البكاء والنحيب والسقم والنحول ، ويأمل فى طيف يزوره فى الحلم ليلا ، ولكن لنحذر هذا الفهم الظاهرى للأبيات فابن الكيزانى إنما يتخذ ذلك كله رموزا عن معانى حبه وهيامه بالذات العلية ، وهو هيام لانهاى غير محدود بحس ولا ما يشبه الحس ، هيام كله لوعة ووجد ، وجد سماوى علوى يتدلج شرره فى كل جسمه وجوارحه وحشاه وهو صابر لا يتألم ولا يشكو ، بل يجد لذة لا يلبثها وصف فى ألمه ، حتى ليبدل دمه فى سبيل حبه طائعا مختارا ، فهو النور الذى يضىء فى جنات قلبه وقراهه ، وهو الخمر الروحانية التى سرت فى شرايينه ، فلم يعد يملك إزاءها حولا ولا قوة ، يقول :

جرُّ كيف شئتَ فلستُ أولَ عاشقٍ كأسُ الهبةِ فى محبتِ سقى

إنه لم يعد فى حال صحو بل أصبح فى حال سكر بالعشق الإلهى لاحتلوه ولاضاف له ، عشق ما إن يأمل فيه بلقاء محبوبه ، حتى يتعد عنه ، تاركا له الحشرات والدموع ، لقد كان شهوده قاب قوسين أو أدنى ، وسرعان ما طار الحلم وولى الأمل ، وينادى ابن الكيزانى :

يا حادى العيس اضطرب ساعةً فهجنى سارت مع الركب  
لاتحدُّ بالتفريق عن عاجل رفقا بقلب المائم الصب

وهو يعبر عن ضياع الأمل في لقاء المحبوب بالرحلة ولوعاتها الممضة في نفوس العشاق تعبيراً رمزياً عن آلامه وأوصابه وأوجاعه النفسية ، فلم يعد يستطيع اللحاق بمحبوبه فضلاً عن مشاهدته . وعلى نحو ما يعبر عن ذلك تعبيراً حسياً بالرحلة كذلك يعبر عنه - كما عبر المحبون العذريون طويلاً - بيبكاء الديار والوقوف على الأطلال الدارسة أو العافية ، بمثل قوله :

بِرَبِّكَا عَرَجًا سَاعَةً نَنُوحُ عَلَى الطَّلِّ الدَّارِسِ  
فَيُضُّ الدَّمُوعَ عَلَى رَسْمِهِ يُتْرَجَمُ عَنْ حَرْقِ البَائِسِ

ودائماً يتعلق ابن الكيزاني بخيط من الأمل في مشاهدة محبوبه ، ونوره يتألق له ولا يراه ، ويبحث عنه بين الأطلال ، ويسأل عنه العيس ، وهي ملححة في المسير ، لتلتفت إليه ، وهو هام على وجهه غارق في دموعه ، ونار الحب تنقد في أحشائه ، يقول :

يَا مَنْ يَتِيهُ عَلَى الزَّمَانِ بِحَسَنِهِ اعْطَفْ عَلَى الصَّبِّ المَشُوقِ التَّائِهِ  
أَضْحَى يَخَافُ عَلَى احْتِرَاقِ قَوَادِهِ أَسْفًا لِأَنَّكَ مِنْهُ فِي سَوْدَانِهِ

ودائماً تلقانا عند ابن الكيزاني هذه اللوعة ونارها التي توشك أن تحرق والتي ما يزال ينوقها ويمسلي بها مالكة عليه قلبه مستأثرة منه بكل شيء ، إنه ليس حبا فقط ، بل هو حب ومحنة أو هو سعادة وعذاب ، وهو راض بذلك كل الرضا ، حتى لا يطلب له دواء ولا شفاء ، يقول :

اضْرِفُوا عَنِّي طَبِيبِي وَدَعُونِي وَحَبِيبِي  
عَلُّوْا قَلْبِي بِذِكْرَا هُ فَقَدْ زَادَ لَهْبِي  
طَابَ هَتَكِي فِي هَوَاهُ بَيْنَ وَاشٍ وَرَقِيبِ  
لَا أَبَالِي بِفَوَاتِ الثَّفِّ سَسَ مَا دَامَ نَصِيبِي  
لَيْسَ مِنْ لَامٍ وَإِنْ أَطُ نَبَّ فِيهِ بِمَصِيبِ  
جَسَدِي رَاضٍ بِسُقْمِي وَجُفُونِي بِنَحْيِي

إن الداء هو نفس اللواء وإن العلة هي نفس الشفاء ، وهو لا يفكر في براء من علة أو داء ، لأنها سعادته الغامرة ، وحقاً إنها يثيران حريقاً في قواده ، غير أن ما يشره معها من رحيق المحبة الربانية المصني ينسيه الحريق وناره المتظلية التي لاتنطفئ في سويداء قواده أبداً .

## ابن الفارض (١)

هو عمر بن كمال الدين على الفارض ، كان أبوه من حاة بسوريا ، هاجر منها في مطالع شبابه إلى القاهرة ، وفيها رزقه الله ابنه عمر سنة ٥٧٦ للهجرة ، فهو مصرى المولد والمنشأ والمرنى والحياة . كان أبوه من علماء الفقه والشريعة ولُقِّب بالفارض لكتابه الفروض على النساء والرجال . ولى نيابة الأحكام بالقاهرة والفسطاط ، ويقال إنه عُرضت عليه وظيفة قاضى القضاة فأبأها ولزم قاعة الخطابة بالجامع الأزهر يتسك ، وعنى بابنه فألحقه بدروس العلماء بالعلوم الشرعية واللسانية ، حتى إذا شبَّ دفعه إلى التقوى وعبادة الله ومعاشرة المستضعفين من المتصوفة في الجبل الثانى من المقطم ، وهناك أخذ عمر يتجرد للعبادة والنسك . وأحسَّ برغبة شديدة للمقام بمكة مهبط الوحي على الرسول ﷺ فرحل إليها ، ومكث بها خمسة عشر عاما سائحاً في أوديتها عابداً لله ناسكاً مؤملاً في أن تفيض عليه الفتوحات الإلهية ، مكثراً من الصلاة والصيام ، حتى فُتحت له الأبواب المغلقة ، وشعر كأنه في مقام الشهود للذات العلية . وعاد إلى وطنه ، غير أنه ظل يأسى لفراقه مهبط فتوحاته الإلهية بمثل قوله :

ياسميرى رَوْحٌ بِمَكَّةَ رَوْحِي شَادِيًا إِنَّ رَغْبَتِي فِي إِسْعَادِي  
كَانَ فِيهَا أُنْسِي وَمِعْرَاجُ قُدْسِي وَمُقَامِي الْمَقَامُ وَالْفَتْحُ بَادِي

ولزم مناسك العبادة وخاصة وادى المستضعفين بالمقطم والجامع الأزهر ، يذكر الله ويسبحه ويعبده حق عبادته ناسكاً خاشعاً متضرعاً ، شاعراً من وقت إلى آخر أنه أصبح في مقام الشهود لربه ، فيشخص بصره ويغيب عن كل ما حوله غيبة قد تطول أياماً وهو لا يسمع صوتاً ولا يرى أحداً ولا يشرب ولا يطعم ولا ينام ، فقد غاب عن كل حواسه وغمره نور شهوده للذات العلية ، ومضى يعكف على التقوى والنسك والصلاة ، وشاع أمره في القاهرة فكان الناس يزدحمون عليه إذا سار في الطرقات يلتسمون منه الدعاء ، وهو غائب عنهم ، مشغول بحبه لربه وبما ينظم في هذا

للكور محمد مصطفى حلمى وكتابتها فصول في الشعر ونقده ص ١٩٧ وما بعدها . وديوانه طبع بمصر مرارا طبعات مستقلة ، وطبع مع شرح عبد الغنى النابلسى وهو شرح صوفى رمزى ، ومع شرح حسن البورى على ظاهر اللفظ دون تأويل .

(١) انظر في ابن الفارض وترجمته وأشعاره النجوم الزاهرة ٢٨٨/٦ وابن خلكان ٤٥٤/٣ وميزان الاعتدال ٢١٤/٣ وعبر الذهبي ١٢٩/٥ والبداية والنهاية ١٤٣/١٣ ولسان الميزان ٣١٧/٤ وشذرات الذهب ١٤٩/٥ وحسن المحاضرة ٥١٨/١ وكتاب ابن الفارض والحب الإلهي

الحب من أشعار لعلها أروع مانظمه الصوفية في حبه الإلهي ، حتى نُقِبَ بحق سلطان العاشقين للذات الربانية . وهي أشعار تملح بوجود ملتاع لاحدود له ، متخذاً لذلك لغة العشاق العذريين ومايذكرونه من معاهد المحبوبة يريد معاهد مكة التي هبط عليه فيها النور الإلهي ، وأيضا مايذكرونه من نسيم الصبا المحمل بشذى المحبوبة ، وهو في أثناء ذلك يئن وينوح آملاً في الوصال وأن يشرق عليه النور الرباني ، متجرعاً غصص الهجرة والصد والسهاد ، ويصبح فيمن تحدته نفسه بسلك هذا الطريق المحضوف بما لا يحصى من الأشواك والصعاب :

هو الحبُ فاسلَّمْ بالحشا ما الهوى سَهْلُ      فما اختاره مُضَيِّئٌ به وله عَقْلُ  
وعِشْ خالِياً فالحبُّ راحتهُ عَنَّا      وأوَّلُه سُقْمٌ وآخِرُه قَتْلُ

وهو لا يريد القتل الحقيقي ، بل يتخذهُ رمزاً للحظات الفناء في الذات العلية حين يتجرد الصوفي - مثل ابن الفارض - من حواسه ومن كل وجوده فلا يشعر بزمان ولا بمكان ، وكأنما غاب عن حياته ، بل كأنما مات بسبب حبه شهيدا ، وهو موت لا يتحقق تصوف بدونه ، حتى ينمحي المتصوف في الذات الربانية ونورها الإلهي ، وحتى لا يرى في الوجود سوى ربه المائل في الكون وكائناته وكل شيء فيه ، يقول :

تراه - إن غابَ عني - كلُّ جارحةٍ      في كلِّ معنى لطيفٍ راتقٍ بهجٍ  
في نعمة العود والثأني الرُخيمِ إذا      تألَّفًا بين ألحانٍ من الهزجِ (١)  
وفي مسارحِ غزلانِ الجمائلِ في      برِّدِ الأصائلِ والإصباحِ في البلجِ (٢)  
وفي مساقطِ أنداءِ الغمامِ على      بساطِ نورٍ من الأزهارِ مُنتجِجِ  
وفي مساحبِ أذبالِ النسيمِ إذا      أهدى إليَّ سُحيرا ، أطيَّبَ الأرجِ (٣)

فهو يرى الله وجلاله وجماله مائلا في جميع أركان الكون وعناصره : في أنغام العود والنأي المرافقة لألحان الهزج ، وفي مشهد غزلان الرياض وقد انتعشت قلوبها بأنغام الأصيل والصبح ، وفي الأزهار والورود مساقط أنداء الغمام وهي متناثرة هنا وهناك على أبسطه الطبيعة البيجة ، وفي النسيم يملأ الجو سحراً بشدهاء وأريجها العطر . وابن الفارض لا يعبر بذلك ومثله في أشعاره عن إيمانه

(٣) الأرج : الشذى والرائحة العطرة .

(١) الرخيم : اللين الناعم .

(٢) البلج : أول إسفار الصبح وانتشار الضوء .

بوحدة الوجود التي كان يؤمن بها غلاة الصوفية من أمثال ابن العربي . . . صره ، فهو إنما يريد أن يقول إن نور الله منبث في الكون بجميع كائناته وعناصره ، متجل في كل منظره ومشاهده ، وذلك هو سر وجوده وهيامه وولفه بربه ، يريد أن يشرق عليه ضياء جماله . ويظل يحلم بشهوده حلما متصلا مجاهدا في سبيل ذلك محتملا من العذاب ما يطاق وما لا يطاق ، متغنيا بالجمال الرباني وما يوصل في من هجر ، هاتفا من قواده :

تَهْ دَلَالًا فَأَنْتَ أَهْلُ لِذَاكَ      وَتَحَكَّمْ فَالْحَسَنُ قَدْ أَعْطَاكَ  
وَتَلَا فِي إِنْ كَانَ فِيهِ اتِّلَافِي      بِكَ عَجَّلْ بِهِ جُعِلْتُ فِدَاكَ  
فَقَتَّ أَهْلُ الْجَمَالِ حُسْنًا وَحُسْنِي      فِيهِمْ فَاقَّةٌ إِلَى مَعْنَاكَ

وهو يضيف إلى الذات العلية التحكم والدلال على طريقة أصحاب الحب العذري ، ولا يلبث أريح الحب الصوفي أن يعقب في البيت الثاني ، فهو يطلب أن يتلف في حبه مادام في تلفه اتئلافا بربه المحبوب ، وهو لا يريد التلف الحقيقي إنما يريد الفناء المطلق في ربه وجماله الذي يفوق كل جمال ، بل إن كل جميل ليفتقر إلى جماله المتجلى في الكون بنوره . وعلى نحو اتخاذ ابن الفارض للغزل العذري رمزًا لحبه الصوفي نراه يتخذ الخمر ونشوتها رمزًا لهذا الحب ، ولاخمر ولاكتوس ولادنان ولاسقاء ، وإنما هو جمال الذات الإلهية الذي شغف به حتى ليظن كأنما نهل من شراب قدسي مسكر ، فهو سكران دائما منتش غائب عن وجوده . ومن قوله في ذلك من قصيدة بديعة :

شَرِبْنَا عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ مُدَامَةً      سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخَلِّقَ الْكَرْمَ  
لَهَا الْبَدْرُ كَأَسْرُ وَهِيَ شَمْسٌ يُدِيرُهَا      هَلَالٌ وَكَمْ يَبْدُو - إِذَا مُزِجَتْ - نَجْمُ  
وَإِنْ خَطَرْتُ يَوْمًا عَلَى خَاطِرِ امْرِئٍ      أَقَامَتْ بِهِ الْأَفْرَاحُ وَارْتَحَلَ الْهَمُّ  
وَلَوْ نَفَّضُوا مِنْهَا ثَرَى قَبْرِ مَيِّتٍ      لَعَادَتْ إِلَيْهِ الرُّوحُ وَاتَّعَشَّ الْجِسْمُ

وهو يقول إن سكره بتلك المدامة أو الخمر قديم أقدم من الوجود ، وهو يشير إلى فكرة الحقيقة المحمدية التي يذهب المتصوفة إلى أنها تسبق نشأة الكون ، وأن أضواء مازالت تفيض من تلك الحقيقة في نفوس الأنبياء و نفوس الرسول ﷺ و نفوس المتصوفة من بعده حتى تجلت في ابن الفارض ، ومن هنا يقول إن سكره بها ونشوته يسبقان الخليفة . ويقول إنها تجلب الفرح وتطرد

الهم ، ونحى الروح لاجازا بل حقيقة ، فلو صبها على قبر ميت لعادت إليه الروح ودبت فيه الحياة . ويمضى فيقول : إنها صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هواء ، ونور ولا نار ، وروح ولا جسم . خمر ربانية لا تشوبها أى شائبة مادية ، خمر ينشئ بها ابن الفارض وأمثاله فيغيبون عن وجودهم غيبة كلها متاع وكلها نعيم لاحدود له . وديوانه كله من هذا الطراز انتشاء وسكر وحب ووجد ووله والنياع ، وتطول إحدى قصائده حتى تبلغ سبعائه وستين بيتا أو تزيد ، وهى تائية وتسمى التائية الكبرى لأن له بجانبها تائية صغرى ، وهو فيها يصور معراجة القدسي بمكة وفتوحه التى هبطت عليه هناك وإنحاءه حيثذ في الحقيقتين : الإلهية والمحمدية ، حتى ليتكلم في بعض أجزاء القصيدة باسمها ، وهو يستهلها ببيان شربه من كأس المحبة الربانية ونشوته بها وما تجشمه في معراجة من أهوال وخطوب وعمن ، وكلها كما يقول منح من ربه وعطايا اجتازها في معراجة ، خالصا إلى الانحاء والفناء في الذات العلية حتى ليقول :

ولم تهوى مالم تكن فى فانياً      ولم تفن مالم تُجتلب فيك صورتي  
كلانا مُصلٌ واحدٌ ساجدٌ إلى      حقيقته بالجمع في كلِّ سجدةٍ  
وما كان لي صلّى سوايَ ولم تكن      صلاحى لغيري في أدا كلِّ ركعةٍ

وكانه يشعر في البيت الأول أنه لايزال دون الحب الإلهي لاتصاله بل لاتصافه بالصفات البشرية . ويقول في البيت الثاني إنها ينبغي أن تُمحي فيه حتى ينفى في الذات الربانية وتتجلّى فيه الصورة الإلهية ، وما يليث أن يقول في البيت الثالث إن حواسه تعطلت وتعطلت فيه كل إرادة وشعور ، حتى فنى فناء مطلقا في ربه ، متخطيا مرتبة الصحو إلى مرتبة الشهود أو كما يسميها الجمع ، وكأنما يصلى لنفسه أو لربه متجليا فيه ، يقول :

وطاح وجودى في شهودى وبتت عن      وجود شهودى ماحياً غير مبيت  
وفي الصحو بعد المحو لم أكُ غيرها      وذاتى بذاتى إذ تجلّت تجلّت

فهو قد انمحي وفتى فناء كلياً في الذات العلية ، وبلغ من هذا الانحاء والفناء أعلى مراتبه ، إذ لا يعتره في حال المحو والغيبة مع الشهود للنور الرباني ، بل أيضا يعتره في حال الصحو ، فهو دائماً محوفاً في الذات الإلهية . وهو دائماً يعلن أنه متمسك أشد التمسك بالكتاب وأداء الفرائض

الدينية وبالسنة والحديث النبوي ، فمنها يستمد في كل موارد الروحية . وقد أشار مرارا إلى أن لب تصوفه وما يذهب إليه من عقيدة الفناء في الذات الربانية إنما يصدر فيه عن الرسول ، يقول :

وجاء حديثٌ في اتحادى ثابتٌ روايتهُ في الثقلِ غيرُ ضعيفِ  
يشيرُ بحبِّ الحقِّ بعد تقربٍ إليه بنقلٍ أو أداءِ فريضةِ

وهو يشير إلى الحديث النبوي المشهور : « ماتقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحببته ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها . وإن سألنى أعطيته ، ولن استعاذنى لأعبدته » . وفكرة الانحاء والفناء واضحة في الحديث ولعل في ذلك ما يشير بوضوح إلى أن تصوف ابن الفارض وأمثاله إنما كان تصوفاً إسلامياً خالصاً . وما زال يتنسك لربه حتى وفاته سنة ٦٣٢ للهجرة .

### البوصيرى<sup>(١)</sup>

هو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد ، كان أبوه من بوصير وأمه من دلاص ، فكأن لنفسه من اسم بلديها لقباً هو الدلاصيرى ، غير أن اللقب الذى غلب عليه ، وبه اشتهر ، هو البوصيرى . واختلف م ترجموا له في تاريخ مولده كما اختلفوا في تاريخ وفاته ، والأرجح أنه ولد سنة ٦٠٨ وتوفى سنة ٦٩٨ وتوفى بل ولد سنة ٥٩٨ وتوفى قبل السنة السالفة فقبل سنة ٦٩٤ أو ٩٥ أو ٩٦ أو ٩٧ وقيل بل سنة ٦٨١ والصحيح ما رجحناه . واختلف مثل لداته إلى الكتابات حتى حفظ القرآن الكريم ، ثم انتظم في حلقات الشيوخ يأخذ عنهم علوم الشريعة واللغة ، ويبدو أن ميوله الأدبية اتضحت فيه مبكرة وتفتحت في نفسه ملكاته الشعرية ، مما جعله يتنظم فيمن يعملون في الكتابة الديوانية ، وعين في دواوين بليس بالشرقية . ومربنا هجاؤه للموظفين هناك وتسجيله عليهم

والخطط الجديدة لعل مبارك ٨/١٠ وكتابتنا فصول في الشعر  
ونقده ص ٢٢٩ - ٢٥٤ . وديوانه ( طبعة الحلبي ) بتحقيق  
محمد سيد كيلاني . وأورد بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب  
العرى ٨١/٥ ترجمات بردهت إلى اللغات الأجنبية ونخبها  
وتشظيراتها وشروحها المختلفة وكذلك المخرية .

(١) انظر في البوصيرى وحياته وأشعاره القوات ٤١٢/٢  
والرأى بالوفيات للصفدى ١٠٥/٣ وحسن المحاضرة ٥٧٠/١  
وشذرات الذهب ٤٢/٥ ومقدمة ابن حجر الميمنى على  
شرح مدحه المخرية النبوية ولطائف المنن لابن عطاء الله  
السكندرى وطبقات الصوفية للشمراني ١١/٢ وما بعدها ،

الحياة للدولة وأكل أموال الناس بالباطل . ويبدو أنه زهد في العمل معهم سريعا وعاد إلى القاهرة ، محترفا إقراء القرآن للصبية وبعض الفتية في مسجد الشيخ عبد الظاهر ، وكان مسجدا مغمورا وتصادف أن أمر الملك الصالح في أثناء توليه لمقاليد الأمور بمصر ( ٦٣٧ - ٦٤٧ هـ ) بتوزيع ألف دينار على طلبة العلم . ولم يصب منها مسجده المغمور وطلابه شيئا ، فنظم على لسان المسجد شكوى للملك الصالح استهلها بقوله :

ليت شعري مأمقُتضَى حِرْمَانِي      دون غَيْرِي والألفُ للرَّحْمَنِ  
أتراني لا أَسْتَحِقُّ لكوني      جامعًا شَمَلَ قَارئِي القرآنِ

ونراه كثير الرحلة إلى البلدان المصرية والاتصال بمن فيها من الولاة ، وله فيهم بعض المدائح وكذلك في بعض وزراء الدولتين الأيوبية والمملوكية وفي بعض الأمراء والسلاطين ، ويبدو أنه كان يضطر للمديح اضطرارا ، ليوفر لأولاده الكثيرين الطعام والثياب ، ويصرح بذلك مرارا في مديحه بمثل قوله :

إليك نشكو حالنا إننا عائلةٌ في غاية الكثرة

وكما تلقانا في أشعاره المبكرة أهاج مختلفة لموظفي الشرقية تلقانا عنده دعابات مختلفة تصور المزاج المصري المعروف بالميل إلى الفكاهة والنادرة ، وربما أراد بشكواه في مدائحه من فقره وبؤسه إلى الدعابة ، ويقول :

ولو أنني وحدي لكنتُ مريدًا      في رباطٍ أوعابداً في معارة

وكانه كان يشعر في أعماقه بأنه خلُق لايكون إنسانا يضطرب في الحياة ومشاغلا اليومية ومكاسها الضرورية له ولأسرته ، وإنما ليكون عابدا ناسكا في رباط صوفي أو في كهف يخلوفيه للنسك والعبادة . ويبدو أنه مدَّ إحدى رحلاته إلى الاسكندرية وتعرف على أبي الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية المشهورة ، وانتظم في سلك مريديه وطريقته الصوفية ، حتى إذا خلفه أبو العباس المرسي على الطريقة ظل يلزمه ، حتى عدَّ ثاني اثنين من تلاميذه هو وابن عطاء الله السكندري ، وفي ديوانه قصيدة دالية يمدحه بها ، ويعزیه في شيخه أبي الحسن حين توفي سنة ٦٥٦ ويشيد به إشادة رائعة إذ كان من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب ، يقول :

اسْلُكْ طَرِيقَ مُحَمَّدِيٍّ شَرِيعَةَ حَقِيقَةِ وَعَمْدِيٍّ الْمَحْتَدِ  
 اِنِ الْاِمامَ الشاذليَّ طَرِيقَهُ فِي الْفَضْلِ واضِحَةً لَعَيْنِ الْمُهْتَدِي  
 قَطْبُ الزَّمانِ وَعَوْنُهُ وِامامُهُ عَيْنُ الْوَجودِ لسانُ سِرِّ الْمَوْجِدِ

فهو قطب الزمان وإمامه ، وعين الوجود إذ كان يؤمن المتصوفة بأن القبس الإلهي المبثوث في الأنبياء نُقل إليهم وإلى أئمتهم ، ويقول إنه من أهل الشريعة المحمدية والحقيقة الصوفية ويشير إلى أنه سليل الرسول ﷺ فهو محمدى نسبا وحقيقة صوفية وشريعة إسلامية .

ويبدو أن البوصيري منذ صلته بالطريقة الشاذلية لم يتجه بأشعاره نحو المحبة الإلهية على نحو ما اتجه ابن الفارض ، بل اتجه إلى المديح النبوي ، وبلغ فيه ذروة لم يبلغها أحد قبله ولا في زمنه ، فقد نظم فيه ديوانا رائعا . وكان الصليبيون ، شامت وجوهم ، يكتبون رسائل ضد الدين الخفيف وصاحبه ، فرد عليهم طويلا في مديح النبوي ، وأفرد للرد عليهم وعلى اليهود قصيدة طويلة في نحو مائتين وسبعين بيتا ، داحضا افتراءاتهم على الرسول الكريم ناقضا ما ادعاه النصارى من ألوهية المسيح وصلبه وما جاء في التوراة المخرفة من ارتكاب الأنبياء للمعاصي ، وسمى قصيدته « المخرج والمردود على النصارى واليهود » ويتحدث في حماسة فياضة عن صفات الرسول وسيرته ومعجزاته الباهرة وانتصاراته الساحقة على أعدائه وأعداء الله . ويكثر من المديح النبوي ومن التنويه بالخلفاء الراشدين وبالصحابة وآل البيت مصورا في الرسول أزلية النور المحمدي المعنوي لبُّ الوجود وروحه ، وكأن للرسول وجودين هذا الوجود المعنوي الذي يستمد منه الكون وجوده والذي تعاقب في الأنبياء منذ آدم ، ووجود ثان حسي مادي هو وجوده حين ولد ثم بُعث بشيرا ونذيرا ، وبذلك اتحد المعنى والصورة أو قل الحقيقة المحمدية الأزلية وصورة الإنسان ، على نحو ما نقرأ في قوله :

مُحَمَّدٌ حُجَّةُ اللَّهِ الَّتِي ظَهَرَتْ بَسْتَةٌ مَالِهَا فِي الْخَلْقِ تَحْوِيلُ  
 مِنْ كَمَلِ اللَّهِ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ قَلَمٌ يَفْتُهُ عَلَى الْخَالِينِ تَكْمِيلُ  
 مِنْ آدَمَ وَالْحَيْنِ الْوَضْعَ جَوْهَرُهُ الـ مَكْنُونٌ فِي أَنْفَسِ الْأَصْدَافِ مَحْمُولُ  
 فَلَنْسَبُوهُ إِتْمَامٌ وَمُبْتَدَأٌ بِيهِ وَالْفَخْرِ تَعْجِيلٌ وَتَأْجِيلُ

ودائما يعصف الحنين بقلبه إلى زيارة مكة والمدينة عصف الوجد الملتاع ، ودائما يردد معجزات

الرسول وجهاده في غزواته ، ودائما يكرر حقيقته الأزلية ، حتى لكأنه مبدأ الوجود ومبدأ النبيين وأيضاً خاتمهم ، يقول :

كان سِرًّا في ضمير العَيبِ منْ      قبل أن يُخْلَقَ كَوْنٌ أو يَكُونَا  
تشرق الأَكْوَانُ من أنواره      كلما أودعها اللهُ جَبِينَا  
ختم اللهُ النبيينَ بهِ      قبل أن يَجْبَلَ من آدم طِينَا  
فَهوَ في آباثهم خيرٌ -أبِ-      وهوَ في أبناثهم خيرُ البِنِينَا

فهو السر الأول في الكون أو هو العلة الأولى ، خُلِقَ قبلَ الكون وخلق قبل أن يُجْبَلَ أو يُخْلَقَ آدم ، وكل نور في الكون مستمد منه ، وهو مبدأ الأنبياء ومنتهاهم ، وهو أبوهم المعنوي الأزلي ، فيه تبدأ الحياة وإليه تنتهي . ويكثر البوصيري في مدائحه النبوية من الضراعة للرسول أن يقبل توبته وأن يكون شافعه يوم القيامة حتى ينال رضوان ربه وغفرانه .

ويشتهر البوصيري بمدحته النبوية المسماة بالهمزية وقد سماها « أم القرى في مدح خير الورى » وهي في نحو أربعمائة وخمسين بيتا وعُني كثير من بشرحها ، وهو فيها يحمل سيرة الرسول حتى يوقد حمية الشباب المحاربين للصليبيين ، ويفتحها بفكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول سر الوجود ونوره الذي يفيض على الكون وعلى الأنبياء من قديم ، يقول :

كيف تَرَفَّى رَقِيكَ الأنبياءُ      يا سَمَاءَ ما طاولتها سماءُ  
إنما مَثَلُوا صفاتِكَ للثَّاءِ      سِ كَمَا مَثَلُ النجومِ الماءُ  
أنت مصباحُ كُلِّ فضلٍ فما تَصَدُّ      إدْرُ إلا عن ضوئِكَ الأضواءُ

فالرسول لا تبلغ منزلته ودرجته الرفيعة منزلة أي نبي أو رسول ، إنه في أعلى عليين ، وكل رسول إنما مَثَلُ جانباً من صفاته الربانية ، كما تَمَثَلُ النجوم المترائية على صفحة الماء النجوم على صفحة السماء . وإن كل ضوء ونور في الكون ليستمد من مصباحه ، فهو منبع كل نور ومصدره . ويتحدث عن مولده وما اقترن به من دلائل النبوة ، ويفيض في الحديث عن سيرته حتى مبعثه ، ويعدد بعض معجزاته الباهرة وفي مقدمتها الإسراء ، ويصوّر جهاده الباسل في نشر دينه ، ويرد على النصارى واليهود افتراءاتهم على الدين الخفيف ، ويعرض بعض معتقداتهم الفاسدة ، ويلم بعداء اليهود للإسلام وحرهم لرسوله . ويصور حجَّته إلى مكة وأداء المسلمين

لمناسك الحج . وبنوه بمواقف كبار الصحابة وبالصحابة جميعا وبأستاذه الشاذلي وخليفته  
 أبي العباس المرسي ، ويتضرع في أثناء ذلك للرسول أن يكون شفيعا له عند ربه في محو ذنوبه .  
 وأروع من هذه المدحة النبوية مدحته الميمية المسماة بالبردة وقد عارضها كثيرون ويقال إنه كان  
 قد أصابه فالج ، فنظم هذه القصيدة وأخذها شفيعا لدى الله كي يعافيه ، وظل يكرر إنشادها  
 ويبكي ويدعو ويتوسل ، ونام فرأى النبي ﷺ يسبح على وجهه بيده المباركة ويلقى عليه بردة ،  
 وانتبه فوجد نفسه معافى ، وشاعت القصة وسميت القصيدة البردة . وهو يفتتحها متغزلا بحجازية  
 من ذى سلم أشعلت الحب في قلبه ، وهو إنما يتخذها رمزا لوجده الملتاع بحب الرسول عليه  
 السلام ، ويلم بأصل من أصول الطريقة الشاذلية . وهو كبح جاح النفس وردّها عن شهواتها .  
 ويتحدث عن فضائل الرسول مبتدئا بفضيلة الزهد وكيف أنه لولاه لم تخرج الدنيا من العدم  
 ويسترسل في تصوير الحقيقة المحمدية الأزلية قائلا :

فاق النبيّن في خَلْقِي وفي خَلْقِي ولم يدانوه في عِلْمِي ولا كَرَمِي  
 وكلُّهم من رسول الله ملتَمِسٌ عَرَفًا من البَحْرِ أورشَفًا من الدِّيمِ  
 فإنه شمسٌ فضلٍ هم كواكبها يُظهرن أنوارها للناس في الظُّلْمِ

فهو يفوق الأنبياء صورة وخلقا وعلمًا وكرمًا وكلهم يلتمس من علمه وحكمته ويستمد من  
 نوره ، فنوره يتجلّى في الأنبياء جميعا ومها تعددوا في الأزمنة فإنهم شخصية واحدة وحقيقة  
 واحدة هي الحقيقة المحمدية . ويفيض البوصيري في بيان معجزات الرسول ، وخاصة القرآن  
 معجزته الكبرى كما يفيض في بيان جهاد الرسول وصحابته لأعداء الرسول ودينه الخفيف حتى  
 استسلموا صاغرين . ويضرع للرسول أن يكون شفيعا له عند ربه كما يضرع لله أن يلطف به في  
 دنياه وآخرته . ولا تزال هذه القصيدة وأختها الهمزية تشد إلى اليوم في حفلات الموالد وحلقات  
 الذكر الصوفي وله بجانبها في المدائح النبوية أناشيد أخرى رائعة .

### محمد بن أبي الحسن<sup>(١)</sup> البكري الصليقي

من سلالة أبي بكر الصديق بمصر ، ولد بها سنة ٩٣٠ وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وأقبل على حفظ المتون والتلقى على شيوخ عصره . يأخذ ما عندهم ، وكان أستاذه الأول أباه ، وجلس مكانه في الجامع الأزهر للتدريس بعد وفاته وعمره لا يتجاوز إحدى وعشرين سنة ، وكان يدرس لطلابه فقه الشافعي ، وله شرح على متن أبي شجاع . وكان آية في العلم والزهد واشتهر بتعمقه في العلوم الشرعية واللغوية والصوفية ، وورث عن أبيه مشيخة السادة البكرية وله يناجي ربه :

رَبِّ إِنِّي عَبْدٌ ذَلِيلٌ ضَعِيفٌ      فَلَاحِلِي بِاللِّطْفِ مِنْكَ تَدَارَكُ  
كُلُّ قَطْرِ أَصَابِي مِنْكَ بَحْرٌ      كَيْفَ وَالْحَالُ فِي تَجْرِي بِحَارِكُ  
كُلُّ جِزْءٍ مِنْهُ لِسُرِّكَ دَارٌ      عَمَّرَ اللَّهُ يَا حَبِيبِي دِيَارِكُ  
مَنْ رَأَى رَاكَ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ      أَيُّ شَكٍّ وَقَدْ جَعَلْتُ مَرَارِكُ

وتمثل في الأبيات مثولا بينا فكرة الاتحاد بالذات الربانية المعروفة عند المتصوفة وما يتبعها من فكرة الفناء ، فناء الإنسان عن صفاته البشرية ، وهي فكرة رأيناها واضحة عند ابن الفارض :  
وله قصائد كثيرة يصف فيها حبه ومواجهه الروحية من مثل قوله :

حَبِيبُكَ دَانٍ رَقِيبٌ قَرِيبٌ      فَاذَا الْبِكَاءُ وَمَاذَا التَّحِيبُ  
نَعَمْ هُوَ دَانٍ وَلَكِنِّي      بَعِيدٌ فَقِيدٌ طَرِيدٌ غَرِيبٌ  
بُكَائِي عَلَيَّ لِأَنِّي بُلِيْتُ      بَدَاءَ الصُّدُودِ وَعَزَّ الطَّيِّبُ

وعلى هذا النحو دائما هو واله ملتحاق بيغي الوصال ، ومحبوه قريب منه ، بعيد لأنه لا يتبله أمنيته من الوصول وهو لذلك دائم القلق ، ويثن والمحجوب منصرف عنه معرض . وهو يهتف

للعيدروس ( طبع بغداد ) ص ٤١٤ وكتاب بيت الصليقي  
للسيد محمد توفيق البكري وما ذكره من مراجع .

(١) انظر في محمد بن أبي الحسن رحمة الألبا للخفاجي  
٢٢٠/٢ وأكمل الترجمة بعد ترجمته لابنه أبي المواهب ص  
٢٢٣ وراجع شذرات الذهب ٤٣١/٨ والنور السافر

وينادى آملا راجيا ويردد ما رده ابن الفارض وغيره من الصوفية قبله . من الحديث عن مدامة الحب الإلهي ورحيقه المسكر للصوفية .

وللبكري استغاثات كثيرة بالرسول ﷺ حبيب الله خير مبعوث قربه الله إليه ، وسره الأعلى الذي لا يجيب أمله ، والذي ينال سؤله اللائذ . ومن قوله في إحدى استغاثاته :

يا أكرم الخلق على ربِّهِ وخير من فيهم به يُسألُ  
 قد مسنى الكربُ وكم مرة فرجتَ كربًا بعضهُ يُذهلُ  
 وأنت بابُ الله أيُّ امرئٍ أتاه من غيرك لا يدخلُ

ويضيف في استغاثاته بالرسول إلى تفريج الكرب عنه وإقالته من عثراته الشفاعة له من ذنبه يوم المحشر بما أوتى من محبة الله ورؤيته له في عروجه إلى السموات .

## ٥

### شعراء الفكاكة

من أهم ما يميز مصر قديما وحديثا ميل أهلها إلى الفكاكة والتندير والدعابة ، وقد صورنا ذلك تصويرا جامعا في كتابنا « الفكاكة في مصر » مستعرضين هذه الحصلة في مزاج المصريين من عصر الفراعنة حتى العصر الحديث . ونراها واضحة طوال هذا العصر . بل منذ أن وجدت مصر شخصيتها الأدبية زمن الدولة الطولونية على نحو ما يتضح من نبز شاعر بلقب الجمل الأكبر ، وخطفه شاعر كان يلقب بالجمل الأصغر ، ويقول ابن سعيد . « كان ينحو في الطرافة والتطايب منحى الجمل الأكبر <sup>(١)</sup> » . ولا يلبث أن يقول في سعيد القاص شاعر الإخشيد الملقب هو الآخر بقاضي البقر : « من شعراء الإخشيد وزاد اختصاصه لديه بما كان فيه من الخلاوة والتندير والهزل <sup>(٢)</sup> » . وإذا مضينا إلى زمن الدولة الفاطمية وجدنا ظاهرة النبز بالألقاب دعابة للشعراء

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧١ .

(١) المغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ٢٧٠ .

تتسع ، إذ ينز غير شاعر بلقب غريب كما يوضح ذلك كتاب الخريدة للعماد الأصمهاني إذ يلقانا فيه شاعر لُقِبَ بِشَلَّعٍ وثان بالوضيع وثالث بالكاسات ورابع بالجهمجهان وخامس بالنسناس إلى غير ذلك من ألقاب .

ومن أوائل الشعراء في هذا العصر ابن وكيع التنيسي ومرت في الفصل الماضي مربعة مزوجة له ، جعل موضوعها غزله بفلام مسيحي ، وقد مضى فيها يداعبه ، منذرأله ، إن ظل هاجرا ، أن يشكوه إلى القساوسة ويتسع في ذلك محتجا بتعاليم المسيح ووصايا متى ولوقا ومرقص ويوحنا ، ويقول إنه سيشكوه إلى الأسقف فإن لم يقلع عن هجره شكاه إلى المطران ، فإن لم يكف شكاه إلى البطريك . وكانت تقترن بهذه الفكاهة سخرية شديدة بالفاطميين ووزرائهم عرضنا لها في حديثنا عن الهجاء . وأدى هذا الميل إلى السخرية والفكاهة والرغبة في التندير بالمصريين إلى الاتساع في القذف بسهام التورية ، وهي تكثر في سماء أشعارهم طوال هذا العصر حتى لتشبه النيازك التي يكثر إلقاؤها إلى الفضاء في الأعياد ، فلا تزال النيازك تلقى ليلة العيد ، ولا يزال الشعراء المصريون يرمون بتورياتهم قدحا ومدحا وغزلا على كل لون من مثل قول الشريف العقيلي مثنيا على زامر ونابه أو ناياته (١) :

وزامر يكذبُ فيه عائبَةٌ      تكثرُ في صنعته عجائبَةٌ  
يحجب صبر المرء عنه حاجِبَةٌ      كأنما نايأته ذوائبه

والتورية واضحة في حاجب وذوائب . ومن تعلقوا بصنع التورية في الحقبة الفاطمية ابن قادوس - كما مر في غير هذا الموضع - ومثله قر الدولة جعفر بن دؤاس ، وله يقول في ابن أفلح أحد الكتاب الشعراء وكان شديد السواد (٢) :

هذا ابنُ أفلح كاتبٌ متفردٌ بصفاته  
أقلامه من غيره ودوائه من ذاته

وتلقانا بجانب التورية دعابات كثيرة للشعراء في زمن الفاطميين ، يداعبون بها زملاءهم من الشعراء وأصدقاءهم من الكتاب والعلماء والأطباء ، من ذلك دعابة مشهورة للقاضي الجليس

شاعر الفاطميين ووزيرهم طلائع ابن رزيك وجّه بها إلى طيب تعهده وكان محمودا ، فلم ير أعلى يديه وفيها يقول (١) :

وَأَصْلُ يَلْتَنِي مَنْ قَدْ غَزَانِي مِنْ السُّقْمِ الْمَلْحِ بِعَسْكَرَيْنِ  
طَيْبٌ طَيْبٌ طَيْبُهُ كَغُرَابٍ بَيْنِي يَفْرُقُ بَيْنَ عَافِيَتِي وَبَيْنِي  
أَنِي الْحُمَى وَقَدْ شَاخَتْ وَبَاخَتْ فَرَدُّ لَهَا الشَّبَابَ بُسْخَتَيْنِ  
وَدَبَّرَهَا بِتَدْبِيرِ لَطِيفٍ حَكَاهُ عَنْ سِنَانٍ أَوْ حُنَيْنٍ (٢)  
وَكَانَتْ نَوْبَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ فَصِيرَهَا بِحَذْقِ نَوَاتَيْنِ

والجليس يداعب الطبيب فبدلاً من أن يصله بعافيته فرق بينها ، ويقول إنه جاء في أواخر الحمى وقد شاخت وباخت أو فترت فإذا هو يرُدُّ لها الشباب بورقتين من سقوف الدواء أو كما يقول بنسختين ، وكأنما أحكم تدبيره في ردِّ قوة الحمى إليها فإذا هي لاتعاوده في اليوم نوبة بل نوبتين . ولعل القارئ لم ينس ابن الذروري في الحقة الأيوبية ووصفه لخدبة ابن أبي حصينة وصفا ساخرا لاذعا . ومن طريق ما نقرأ من دعايات في هذه الحقب دعاية البهاء زهير مع أحد أصدقائه ، وقد جعل موضوعها بغلته ، يقول (٣) :

لَكَ يَا صَدِيقِي بَعْلَةٌ لَيْسَتْ تَسَاوِي خَرْدَلَهُ  
تَمْشِي فَتَحْسِبُهَا الْعَيُوبُ نُنُ عَلَى الطَّرِيقِ مُشْكَلَهُ (٤)  
وَتُخَالُ مَدْبِرَةً إِذَا مَا أَقْبَلْتَ مُسْتَعْجَلَهُ  
مَقْدَارُ خَطُوتِهَا الطُّوْ يَلِي حِينَ تَسْرَعُ أَنْمَلَهُ  
تَهْتَزُّ وَهِيَ مَكَانَهَا فَكَأَنَّمَا هِيَ زَلْزَلَهُ

ويريد البهاء زهير بالخردلة أقل شيء في الصغر ، ويقول إنها حين تمشي يُظنُّ أنها مقيدة لبطنها الشديد ، ويجعلها مدبرة حين تقبل ومقدار خطوتها الطويلة أنملة فما بالنا بخطوتها القصيرة ، وإنها لتهتز واقفة لاتسير ولا تتحرك كأنما هي زلزلة .

(١) الخريدة ١/١٩٢ .

(٣) كتاب البهاء زهير للشيخ مصطفي عبدالرازق ص

٥٤ .

(٢) سنان هو سنان بن ثابت بن قره من أطباء القرن

(٤) مشكلة : مقيدة .

الثالث ومثله حنين بن إسحق .

وتكثر التورية في شعر القاضي الفاضل وزير صلاح الدين كثرة مفرطة من مثل قوله متشوقا إلى مصر وإلى شربة من ماء النيل<sup>(١)</sup> :

باقه قُلْ للنيل عنى إننى لم أشفِ من ماء الفراتِ غليلا  
وسلّ الفؤادَ فإنه لى شاهدٌ أن كان طرْفى بالبكاء نجلا  
ياقلبُ كم خلّفتَ ثمُّ بُيئةً وأظن صبرك أن يكون جميلا

فقد غاب عن مصر مع صلاح الدين في بعض رحلاته وحملاته إلى الموصل ، وهو يعلن أن ماء الفرات لن يشفى غليله ، ولن يكف بكاؤه شوقا إلى مصر ورياضها ونيلها . والتورية واضحة في كلمة جميل بعد ذكره لبئنة صاحبة جميل الشاعر الغزل القديم .

ويتوقف ابن حجة الحموى بكتابه خزانة الأدب في حديثه عن التورية ملاحظا أنه خلفت القاضي الفاضل شعبتان<sup>(٢)</sup> : شعبة مبكرة وشعبة لاحقة ، أما المبكرة فجميعها مصريون وجميع اللاحقة شاميون ، ويعدّد المبكرة ومن قاموا عليها من المصريين في القرنين السادس والسابع للهجرة مسميا لهم ، وهم ابن سناء الملك من مثل قوله في بعض غزله<sup>(٣)</sup> :

ملكته الخافقين فتَهتَ عَجَبًا وليس هُما سوى قلبى وقُرطك

فهى لا تمتلك قرطها الخافق المهتر وحده بل تمتلك أيضا قلبه الخافق ، والتورية في كلمة الخافقين وهما الشرق والغرب . ويذكر ابن حجة بعد ابن سناء الملك شعراء القرن السابع المصريين : الجزائر والوراق وابن النقيب والحمامى وابن دانيال ومحيى الدين بن عبد الظاهر ، وسنلم ببعض توريات من سنترجم لهم منهم ، ومن توريات ابن النقيب قوله المشهور<sup>(٤)</sup> :

أقول وقد شتّوا إلى الحرب غارةً دعوى فإنى آكلُ الخبزَ بالجبنِ

والتورية في الجبن واضحة . ومن توريات الناصر الحمّامى قوله في بعض غزله<sup>(٥)</sup> :

ويظننى حيا رويتُ بريقه فإذا دعا قلبى يجاوبه الصدى

(٣) اللويان ص ٤٦٣ والخزانة ص ٣٠٠

(٤) خزانة الأدب ص ٣٠٨

(٥) نفس المصدر ص ٣٠٨

(١) خزانة الأدب للحموى (طبع مطبعة بولاق) ص

٣٠٠

(٢) خزانة الأدب ص ٢٩٨ .

والمعنى القريب للصدى المتصل بالدعاء والجواب رجح الصوت ، والمعنى البعيد المراد الذى ورى عنه النصير الحامى هو العطش . ويتوقف ابن حجة طويلا عند توريات ابن نباتة ، وقد روى منها أكثر من مائة تورية ، غير مارواه مما أخذه عنه الصفدى وغيره ، ومن طريف تورياته قوله لمن أهدى إليه تمرًا رديثًا غالبه نوى ، إذ كتب إليه (١) :

أرسلت تمرًا بل نوى فقبلته بيد الوداد فما عليك عتابُ  
وإذا تباعدت الجسم فودنا باقى ونحن على النوى أحباب

والمعنى القريب المتبادر لكلمة النوى هو نوى العمر ، والمعنى البعيد الذى أراد ابن نباتة هو البعد والفراق .

ويترك ابن حجة توريات ابن نباتة إلى توريات من جاء بعده من المصريين أمثال ابن الصانع الحنفى وفخر الدين بن مكانس وبدر الدين البشتكى وابن أبى الوفا وابن حجر العسقلانى المصرى . وتستمر التورية فى الحقبة العثمانية وكأنها والزواج المصرى صنوان لايفترقان . ويلقانا فى أيام العثمانيين شاعر فكه كان يعيش للهزل هو عامر الأنبوطى وسنترجم له عما قليل بين شعراء الفكاهة فى العصر .

### ابن (٢) مكنسة

هو إسماعيل بن محمد الإسكندرى عاش فى القرنين الخامس والسادس للهجرة إذ توفى سنة ٥١٠ وفيه يقول أبو الصلت فى الرسالة المصرية : « شاعر مكث التصرف ، قليل التكلف ، يفتن فى نوعى جد التعريض وهزله ، وضارب بسهم فى رقيقه وجزله » . وكان مع جودة شعره يتبدل فى مديحه وبلغ منه ذلك أنه انقطع إلى عامل مسيحي يسمى أبامليح فى عهد بدر الجمالى وزير المستنصر وكأنه لم يجد عند بدر ما يغنيه ، فلما تحولت الوزارة منه إلى ابنه الأفضل وتعرض لاستباحته لم يقبله ولم يقبل عليه ، لقوله فى رثاء أبى مليح :

طويت سماء المكرما      ت وكورت شمس المديح  
ماذا أرجى فى حيا      فى بعد موت أبى مليح

والخريلة ٢٠٣/٢ وفوات الوفيات ٣٦/١ ومعجم السلفى فى مواضع متفرقة .

(١) خزنة الأدب ص ٣٦٢

(٢) انظر فى ابن مكنسة وترجمته وأشعاره الرسالة المصرية لأمية بن أبى الصلت نشر عبد السلام هرون

ويبدو أن البيت الثاني هو الذي آذى نفس الأفضل ، فأعرض عنه وكفله عز الدولة بن فائق  
ويبدو أنه كان من كبار رجال الدولة الفاطمية ، وله في المديح كثير من الأبيات الطريفة كقوله :

يلقاك مبهجًا والغيثُ في يدهِ يَهْمِي فيجمعُ بين الشمسِ والمطرِ  
وقوله :

الطَّوْدُ حاسدٌ حِلْمِهِ وَأَنَا تِهِ وَالسِّيفُ حاسدٌ بِأَسِهِ وَمَصَانِهِ

وله أشعار غزلية كثيرة كان يعرف كيف يسوق فيها أفكارا وصورا مبتكرة ، وهو كالسابق إليها  
أوسابق فعلا من مثل قوله بصف خصلة من الشعر التوت على خد جميل في شكل عقرب :

قُلْتُ إِذْ عَقْرَبَ الدَّلَا لُ عَلَى خَدِّهِ الشَّعْرُ  
مَارْتِنِي قَطُّ قَبْلَ ذَا عَقْرَبُ حَلَّتِ القَمَرُ

والحديث عن عقرب الشعر وقرنه ببرج العقرب قديم ، وربما كان أروع من هذه الصورة ،  
وهي بحق صورة مبتكرة له قوله :

لَا تَخْدَعَنَّكَ وَجَنَّةُ مَحْمَرَةٍ رَقَّتْ فِي الْيَاقوتِ طَبَعُ الْجَلْمَدِ

وعلى شاكلة هذه الصورة المبتكرة قوله :

الحسَنُ فِي وَجْنَتِهِ وَطَرْفِهِ يَفْتَحُ وَرْدًا وَيَغْضُ نَرْجِسًا

وكانت له أشعار كثيرة في المجون والخمر ومعاقرة الدنان ، وكثيرا ما ينفذ منها إلى صور وخيالات  
بديعة من مثل قوله بصف الخمر وهي تُصَبُّ من إبريق :

إِبْرِيقُنَا عَاكِفٌ عَلَى قَدَحٍ كَأَنَّهُ الأُمُّ تَرْضَعُ الولدَا  
أَوْعَابِدُ مِنْ بَنِي المَجُوسِ إِذَا تَوَهَّمُ الكَأْسَ شَعْلَةً سَجْدًا

وكان في ابن مكنسة ميل شديد إلى الفكاهة والدعابة ، وله في ذلك نواذر وأشعار كثيرة ،  
كان فيها يتماجن على طريقة أبي الشمقمق الذي عرضنا له في كتاب العصر العباسي الأول ، إذ كان  
دائم التصوير لبؤسه وقره وخلو داره من الطعام وعبث الجرذان فيها وبنات ووردان أو الصراصير ،  
ويتابعه ابن مكنسة واصفا قبح داره وضيقها ، قائلا :

لَيْ بَتُّ كَأَنَّهُ بَيْتُ شَعْرِ لَابِنِ حَجَّاجٍ مِنْ قَصِيدِهِ سَخِيفٍ  
 أَيْنَ لِلْعَنْكَبُوتِ بَيْتٌ ضَعِيفٌ مِثْلُهُ وَهُوَ مِثْلُ عَقْلِي الضَّعِيفِ  
 بَقْعَةٌ صَدٌّ مَطَّلَعُ الشَّمْسِ عَنْهَا فَأَنَا - مَذَّ سَكَّتْهَا - فِي الْكُؤُوفِ

وهو يذكر عبث بنات وردان فيه وضيقة الشديد وقبحه ، ويقول أنه يشبه بيت شعر سخيف من أشعار ابن حججاج المفحشة ، ويقول إنه - مذ سكنه - في الكسوف ولا يريد كسوف الشمس وهو المعنى القريب الملائم لما قبله ، وإنما يريد المعنى البعيد من الخجل والاستحياء الشديد . وهي تورية واضحة . ومن قوله الفكاهة يشكو شيخوخته ووهن عظمه وكلال بصره :

عشتُ خمسين بل تزيد      دُ رقيقاً كما تَرَى  
 أحسبُ المقلَّ بُندُقاً      وكذا المِلْحَ سُكْرًا  
 وأظنُّ الطويلَ من      كلِّ شيءٍ مُدَوَّرًا  
 قد كَبُرَ بِرِ بِيْرٍ بِيْرٍ      تٌ وعقلي إلى وَرَا  
 عجبًا كيف كلُّ شئٍ      شئِيءٍ أراه تَعْيِرًا  
 لا أرى اليَبِضَ صَارَ يُؤُ      كَلُّ إِلَّا مُقَشَّرًا  
 وإذا دُقَّ بالحِجَا      رِ زجاجٌ تَكْسَرًا

وهو يعلن في مطلع الأبيات أنه عاش ماجنا رقيقا ، وكأنه لن يكفَّ عن رقاوته ومجونه ، ويصور شيخوخته وضعف نظره حتى لم يعد يفرق بين ثمر الدوم المسمى بالمقل والبندق ولا بين الملح والسكر ولا بين الطويل والممدور ، ويحسُّ ارتعاشه في شيخوخته بالبيت الرابع إذا لم يكده يلفظ بكلمة كبرت حتى ارتعش به فمه مكونا شطرا من بيت ، ويعجب أن كل شيء تغير ، ونقرأ ما تغير فنستغرق في الضحك ، إذ تحولت الحقائق في عقله الكليل إلى عجائب ، فالبيض يؤكل مقشرا ، والزجاج إذا دق بالحجارة تكسر . وما من ريب في أن هذه الفكاهة فيه والدعابة هي التي جعلت المصريين لزمه يلقبونه ابن مكنسة .

الجزائر<sup>(١)</sup>

هو يحيى بن عبد العظيم ولد سنة ٦٠١ وتوفى سنة ٦٧٩ فهو من شعراء الدولتين : الأيوبية والملوكية ، نشأ بالفسطاط في أسرة كانت تحترف الجزيرة ، ويقول ابن سعيد صديقه في ترجمته له بكتاب المغرب : دكاكين أسرته في الفسطاط عاينتها وأبصرته معهم بها . وكان في أول أمره قصباً وسال الشعر على لسانه وكانت ملكه خصبة فاحترفه ، وقصد به السلاطين والأمراء وعمال الدولة في الاسكندرية والمحلة ودمياط . وروى ابن سعيد في ترجمته قطعة كبيرة من شعره ومدائمه ، ويرجع تاريخ بعضها إلى سنة ٦٢٧ ويقول صاحب مسالك الأبصار : « قال الشعر وهو صغير أول ما احتلم في وطاف بأركان بيت له واستلم » . ويشيد ابن سعيد بكرمه وما أغدق عليه من بره ، ويذكر دعوته له مرارا للزهوة مع طائفة كبيرة من شعراء جيله أمثال ابن النقيب والسراج الوراق . وكانت للجزائر مسامرات ولقاءات كثيرة مع البوصيري والحمامي وابن دانيال ، وجعله كرمه يقرب ممن كانوا يفدون على مصر أمثال ابن العديم وابن خلكان وابن سعيد الذي يشيد بوصف مروءته وكرمه وحسن عشرته . ويخيل إلى الإنسان كأن لم يبق سلطان ولا وزير ولا قاض ولا كبير في الدولة إلا أسبغ عليه مدائمه ، وهي مدائح وسطى ليست بالغة الجودة ، ومع ذلك يقول الصفدي : « لم يكن في عصره من يقاربه في جودة النظم غير السراج الوراق ، وهو كان فارس الحلبة ، ومنه أخذوا وعلى نمطه نسجوا ومن مادته استمدوا » ويقول ابن سعيد : « رزق من حسن الاهتداء لغرائب المعاني وبدائع الألفاظ ما يدل على غوص فكره ، وطريقه من أسهل الطرق التي يميل إليها العامة ولا ينكرها الخاصة ، لقرب مأخذها وحسن مترعها » .

وإبن سعيد دقيق كل الدقة في وصف لغة الجزائر بأنها سهلة تميل إليها العامة ، مع فصاحتها ، وهي ظاهرة ترجع إلى نشأته ، وأنه ترى بين طبقة العامة في الفسطاط لزمته ، فطبيعي أن لا ينجح في أشعاره إلى الألفاظ الغربية إنما ينجح إلى الألفاظ الواسطة بين لغة العامة ولغة الخاصة بحيث يرضى الطرفين ويقع منها موقعا حسنا . والجزائر إحدى حلقات هذه السلسلة التي تصور صلة عامة

الزاهرة ٣٤٥/٧ وشذرات ابن الهادي ٣٦٤/٥ ومطالع البدور للزولي ١٩١/٢ وما بعدها ، ومكتبة جامعة القاهرة مصورة لمتخيات من شعره بخط الصفدي في ١٨٠ ورقة .

(١) انظر في الجزائر وترجمته وشعره المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٩٦ وحسن الحضرة ٥٦٨/١ وفوات الوفيات ٦٣٠/٢ ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري (مخطوطة دار الكتب المصرية) ١٢ الورقة ١٦٦ والنجوم

الشعب المصري دائما بالشعر العربي صلة لاتنقطع ، إذ دائما نرى شعراء من طبقة العامة الكادحة يرقون في الشعر إلى درجة عالية مثل ظافر الحداد في الحقبة الفاطمية ، وكثير من معاصري الجزائر كانوا مثله من أبناء عامة الشعب نذكر منهم صديقه الوراق ، وكان ورأقا يبيع الكتب ، وكذلك صديقه الحامى ، وكان له حَمَام يقوم عليه ، ومثل مجاهد الخياط بالفسطاط ، وله فيه بيت مشهور لزمناها دار على الألسنة إذ يقول :

وليس يرجوه غيرُ كلبٍ وليس يخشاه غيرُ تيسٍ

وردَّ عليه الجزار غير غاضب بل كأنما يريد استمرارًا في الدعابة :

يرجينا بنو كلبٍ ويخشانا بنو عجلٍ

ويبدو أنه كان يعود في بواكير حياته إلى القصابة والجزارة مما جعل صديقا له يسمى شرف الدين يعاتبه ويكثر من عتابه ولومه لتركه الأدب إلى حرقة الجزارة فقال :

كيف لا أشكرُ الجزارةَ ما عشتُ حِفاظًا وأرفضُ الآدابا  
وبها أضحتِ الكلابُ تُرجِّدُ نى وبالشعرِ كنتُ أرجو الكلابا

ولابد أن أزمة كرامةٍ مرت به ، فانسحب فترة إلى دكاكين أهله ، ولكن سرعان ما عاد إلى الأدب وإلى الكرام من ممدوحيه وأصدقائه وزملائه الكثيرين .

وربما كان أهم ما يتصف به الجزار ميل متأصل في نفسه إلى الفكاهة والدعابة ، مما جعله يُشَبِّهه بابن مكنسة وأبي الشمقمق العباسي في الشكوى من بؤسه وقره مداعبا متفكها بمثل قوله :

لى من الشمس خِلعةُ صفراءِ لا أبالى إذا أتانى الشتاءُ  
بيتى الأرضُ والفضاءُ به سو رُ مَدَارٌ وسَقَفُ بيتى السماءُ  
لو ترائى فى الشمسِ والبرْدُ قد أذَّ حَلَ جِسى لقلتُ إني هَبَاءُ  
كلما قلتُ فى غَدٍ أدرك السُّو لَ أتانى غَدٌ بما لا أشاءُ

فحتى الثياب لا يجدها ، وبيته الأرض وسقفه السماء ، وقد أنخله البرد حتى صار شيحا لا يكاد يرى ، وكل يوم يأمل ويرجو ويخيب الأمل والرجاء ، إذ لا ينال شيئا من دنياه سوى اليأس والشقاء ، ويعود إلى وصف داره قائلا :

وَدَارِ خَرَابٍ بِهَا قَدْ نَزَلْتُ وَلَكِنْ نَزَلْتُ إِلَى السَّابِعَةِ  
فَلَا فَرْقَ مَا بَيْنَ أَنِي أَكُونُ بِهَا أَوْ أَكُونُ عَلَى الْقَارِعَةِ  
وَأَخْشَى بِهَا أَنْ أَقِيمَ الصَّلَاةَ فَتَسْجُدَ حَيْطَانُهَا الرَّكَعَةَ  
إِذَا مَا قَرَأْتُ : ( إِذَا زُلْزِلَتْ ) خَشِيتُ أَنْ تَقْرَأَ : ( الْوَاقِعَةَ )

إنها دار خربة هوت به إلى الأرض السابعة ولاسقف ولاحيطان فكأنه على القارعة أو على الطريق . وإنه ليخشى أن يقيم بها الصلاة فتنقض حيطانها . ويتندر قائلاً إذا قرأت في صلاتي سورة الزلزلة خشيت أن تقرأ هي سورة الواقعة ، والتورية واضحة ، ويعود إلى ثيابه ويصف جبة له هذا الوصف الفكه :

لِي نِصْفِيَّةٌ تَعُدُّ مِنَ الْعُمْرِ سِنِيًّا غَسَلْتُهَا أَلْفَ غَسَلَةٍ  
كُلَّ يَوْمٍ يَحُوطُهَا الْعَصْرُ وَالذُّقُّ مَرَارًا وَمَا تُقَرَّرُ بِعُسَلَةٍ  
أَيْنَ عَيْشِي بِهَا الْقَدِيمِ وَذَاكَ التَّسْبِيحُ فِيهَا وَخَطَرْتِي وَالشَّمْلَةَ  
حَيْثُ لَا فِي أَجْنَابِهَا رَقْعَةٌ قَطُّ وَلَا فِي أَكْثَامِهَا قَطُّ وَصَلَّهُ

فهى نصفية أو « جبة » طالما لبست وغُسلت وصُبغت ، وفي كلمة « العصر » تورية لأنها كانت شائعة الدلالة على عصر الخصبين تأديبا للمجرمين وتقريرا لهم ، وترشحها في البيت كلمة الإقرار بالعملة وهى بفتح العين الجنابة وبالضم النقود . والشملة لاتزال تستعمل في العامية المصرية على ما يتلفح به الرجال من الصوف أو الحرير ، وهى فصيحة . والأبيات مختارة من قطعة طويلة مضحكة فى وصف هذه الجبة البالية . وصلى التراويح عند الوزير بهاء الدين بن حنّا فقرأ الإمام فى ركعة من ركعات التراويح سورة الأنعام ، فقال ثَوًّا :

مَالِي عَلَى الْأَنْعَامِ مِنْ قُدْرَةٍ لَأَسْمًا فِي رَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ  
فَلَا تَسْؤِمُونِي حُضُورًا سِوَى فِي لَيْلَةِ الْأَنْفَالِ وَالْمَائِدَةِ

ولكلمة الأنفال معنى قريب هو السورة الكريمة ومعنى بعيد هو الهبات ، وهو المراد ، وبالمثل لكلمة المائدة معنى قريب هو سورتها فى القرآن ومعنى بعيد هو مائدة الطعام وهو المراد . وله فى أطعمة رمضان : القطائف والكنافة وما إليها مداعبات كثيرة من مثل قوله :

سَقَى اللَّهُ أَكْنَافَ الْكِنَافَةِ بِالْقَطْرِ وَجَادَ عَلَيْهَا سُكَّرَ دَائِمُ الدَّرِّ

والقطر هنا السكر ، والدر : الهطلان والكثرة .

وتزوج أبوه امرأة متقدمة في السن ، ففضى ينتقم منه ومنها بفكاهات واصفا فيها هرمها ، مصورا ضعف عقلها لكبر سنها وقبح وجهها كما يزعم بمثل قوله :

تَزَوَّجَ الشَّيْخُ أَبِي شَيْخَةً لَيْسَ لَهَا عَقْلٌ وَلَا ذَهْنٌ  
لَوْ بَرَزَتْ صَوْرَتُهَا فِي الدُّجَى مَا جَسْرَتْ تَبَصَّرَهَا الْجِنَّ  
كَأَنَّهَا فِي فَرْشِهَا رِمَّةٌ وَشَعْرُهَا مِنْ حَوْلِهَا قُطْنٌ  
وَقَاتِلِي قَالَ فَمَا سَيِّئَهَا فَقَلْتُ مَا فِي فَمِهَا سِنٌ

والبيت الثالث شديد الإقذاع لهذه المرأة المسنة ، واستخدام التورية في البيت الأخير إذ سئل عن سنها أى عمرها ، فجعل السؤال عن أسنانها .

وينظم في حمار له مقطعات كثيرة فكهة ، ومات فأكثر من رثائه محاكيا بشارا في رثائه لأناته ، وجمع بعض معاصريه مراثيه لحماره في مجلد ، وهى مراث تدور على الدعابة الخالصة . ومن قوله اللاذع في أحد البخلاء لأيامه :

لَا يَسْتَطِيعُ يَرَى رَغِيْبًا عِنْدَهُ فِي الْبَيْتِ يُكْسِرُ  
فَلَوْ أَنَّهُ صَلَّى - وَحَا شَاهَ لَقَالَ الْخَبْرُ أَكْبَرَ

وفي الحق أنه كان جعبة فكاهة ودعابة ، وهو أحد من أكثروا لزمته صنع التوريات ، وقد روى له ابن حجة طائفة كبيرة ، منها قوله :

قَلْتُ لَسُقْمُ الْجِسْمِ مَنِي وَقَدْ أَفْرَطَ بِي قَرُطٌ ضَنًّا وَاكْتِنَابٌ  
فَعَلْتُ بِي يَأْسُقْمُ مَا لَمْ يَكُنْ تُتْبَسُّ - وَاللَّهِ - عَلَيْهِ الثِّيَابُ

والشطر الأخير له معنيان : المعنى الظاهر الضنا والنحول حتى لاتكاد الثياب تلبس ، والمعنى البعيد المراد وهو : مالا يصح ولا يجوز أبدا .

السراج<sup>(١)</sup> الوراق

هو سراج الدين عمر بن محمد بن حسن رفيق الجزار وصديقه ، وُلد مثله بالفسطاط سنة ٦١٥ وتوفى سنة ٦٩٥ وفيه يقول ابن تغرى بردى : « كان إماما فاضلا أديبا مكثرا متصرفا في فنون البلاغة ، وهو شاعر مصر (الفسطاط) في زمانه بلا مدافعة » ويقول صاحب فوات الوفيات : « كان حسن التخیل ، جيد المقاصد ، صحيح المعاني ، عذب التراكيب عارفا بالبدیع وأنواعه . ولم يكثر أحد من الشعر إكثاره إذ كان ديوانه سبعة أجزاء كبار ، وأكثره مقطوعات قصيرة . ويمتاز شعره - مثل الجزار - بالسهولة المفرطة ، لسبب طبيعى ، وهو أنه نشأ في أسرة شعبية متواضعة ، وما زال الشعر يصعد به حتى عین كاتباً للدرج عند بعض الأمراء ، ويبدو أنه لم يظل في ذلك طويلا وأنه احترف الوراقه ، وفي شعره مدائح لبعض السلاطين والأمراء كقوله في الظاهر يبهرس أثناء الاحتفال بافتتاح مدرسته الظاهرية :

وشيدها للعلم مدرسة غدا عراقُ إليها شيقٌ وشامٌ  
ولا تذكرن يوما نظاميةً لها فليس يضاها ذا النظام نظامٌ

وهو يجعلها فوق نظامية بغداد المشهورة التي بناها بها نظام الملك الوزير السلجوق المشهور ، وقد عرضنا لها في حديثنا عن العراق بالجزء السابق من هذه السلسلة ومدى إنفاقه عليها وعلى العلماء والطلاب بها ، وما حبس عليها من أوقاف دارة ، وكان لها شأن بعيد في النهضة العلمية ببغداد . ومررنا حديث عن المدرسة الظاهرية في فصل الثقافة . وللوراق مرثية بديعة في المعزايك حين قتل ، يقول فيها :

نقيمُ عليه ماتما بعد ماتمِ ونسفعُ دمعاً دون سفعِ المقطمِ

وله شعر غزل كثير مثل الجزار ولا نحس عنده بحرقه ولا بلوعة ، مثله في ذلك مثل صاحبه ، ومن قوله في بعض غزله :

٣٠٠ وما بعدها ومطالع البدر ٩٠/١ وخطط المقرئى  
٣٤١/٣ . ومن ديوانه مخطوطة بدار الكتب المصرية  
ومصورة بخط الصفدى في مكتبة الجامعة في ١٨٠ ورقة .

(١) انظر في السراج الوراق وترجمته وأشعاره فوات  
الوفيات لابن شاکر ٢١٣/٢ والنجم الزاهرة ٨٣/٨  
وشنرات الذهب ٤٣١/٥ وغزاة الأدب للحموى ص

فِي خَدِّهَا ضَلَّ عِلْمُ النَّاسِ وَاسْتَخْتَلَفُوا أَلَلشَّقَاتِ أُمُّ لَلوَرْدِ نَسِبَتُهُ  
فَذَاكَ بِالخَلَالِ يَفْضِي لِلشَّقِيقِ وَذَا دَلِيلُهُ أَنَّ مَاءَ الوَرْدِ رِيْقُهُ

وإذا غضضنا النظر عن حشره لعلم الناس واختلافهم في خد صاحبه ، فإن الصورة تبدو بعد ذلك بديعة ومعروف أن الشقيق قائم الحمرة ، وقد أبدع فعلا إذ جعل دليل نسبة الخد إلى الورد رى صاحبه الشبيه بمائه . ومن غزله أيضا :

لَا تَحْجُبِ الطَّيْفَ إِنِّي عَنْهُ مَحْجُوبٌ لَمْ يَبْقَ مِنِّي لَفَرْطِ السُّؤْمِ مَطْلُوبٌ  
وَلَا تَتَّقِ بَأْنِي إِن مَوْعِدُهُ بَانَ أَعِيشِ لِلْقِيَا الطَّيْفِ مَكْنُوبٌ  
هَذَا وَخَدُّكَ مَحْضُوبٌ يُشَاكِلُهُ دَمْعٌ يَفِيضُ عَلَى خَدِّي مَحْضُوبٌ  
تَأْوُدُ الْعُضْنَ مَهْتَرًا فَأَبْنَانَا أَنَّ الَّذِي فِيكَ خَلَقٌ فِيهِ مَكْسُوبٌ

وإنه ليتمنى رؤية خيال المحبوبة قبل موته وهيبات ، ويقول إنه يبكى بما قانيا كخذ صاحبه في حمرة . ويزعم أن ميلان الغصن واهتزازه إنما هو خلق فيه اكتسبه من تقليد صاحبه . وهو يستعير صورة الكسب في البيت من رأى المعتزلة في أن الإنسان يكسب عمله بفعله لا بقدر مقدور عليه .

وأهمية السراج الوراق في تاريخ الشعر المصري كأهمية الجزار ، إنما ترجع إلى جانب الفكاهة والدعابة عنده ، وقد خطا بطن التورية خطوة أوسع من خطوة صديقه الجزار ، مستغلا فيها إلى أبعد حد لقبه : السراج الوراق كما استغل الجزار لقبه في كثير من تورياته . ومن المؤكد أن السراج أرى عليه في هذا الباب حتى قال له بعض معاصريه : « لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك » ومن تورياته في لقبه السراج قوله مادحا :

كَمْ قَطَعَ الْجُودُ مِنْ لِسَانِي قَلَّدَ مِنْ نَظْمِ الشُّحُورَا  
فَهَا أَنَا شَاعِرٌ سِرَاجٌ فَاقَطَعَ لِسَانِي أَرِذْكَ نَوْرَا

وهو يشير إلى السراج الحقيقي حين يقول « اقطع لساني » وهو إنما يريد النوال الذي يقطع لسانه ويزيده مدحا وتنويها وإشادة . ومن تورياته في لقبه الوراق :

وَإِخْجَلْتِي وَصَحَائِفِي قَدْ سَوَّدَتْ وَصَحَائِفُ الأَبْرَارِ فِي إِشْرَاقِ

وفضبحتي لمُعْفٍ لى قائلٍ أكذا تكون صحائفُ الوراقِ

فهو خجل من لقاء ربه بصحائفه السود ، ويقول له لائمه : أكذا تكون صحائف الوراق سوداء ، بينما ينبغي أن تكون مشرقة بيضاء كصحائف زملائه من الوراقين . ومن تورياته في غير لقبه « السراج » وصناعته « الوراق » :

أصونُ أديمَ وجهي عن أناسٍ لقاء الموت عندهمُ الأديبُ  
وربُّ الشعرِ عندهمُ بغيضٌ ولو وافى به لهمُ حبيب

ولكلمة حبيب معنيان : معنى قريب من الحب ، ومعنى بعيد هو أبو تمام إذ اسمه حبيب ، وهو المعنى المراد . ومن تورياته البديعة قوله :

دَعِ الهُونِيَّ وانتصبْ واكتسبْ واكذَحْ فنفسُ المرءِ كدَاخَه  
وكُنْ عن الراحةِ في عزَلَةٍ فاللُصْفُ موجودٌ مع الرَّاحَةِ

ولكلمة الراحة معنيان : معنى أول هو الراحة من الاستراحة ، ومعنى ثان هو الكف أو اليد ، ومن تورياته في بقله معروفة في مصر باسم « الرجل » ، وقد أضافه بعض أصدقائه ، فداعبه قائلا :

وأحمقٍ أضافنا ببقلَه لنسبِهٍ بينها ووُضَلَه  
إذ مدَّ في وجه الضيوف رِجْلَه

وهو لا يريد مد الرجل الحقيقية ، وإنما يريد مد طعام الرجل على المائدة ، مما يدل بوضوح على حضور بديهة الوراق . ومن تورياته .

فَسَّرَ لى عابِرٌ منامًا فَصَّلَ في قوله وأجْمَلُ  
وقال : لايد من طُلوعِ فكان ذلك الطلوعُ دُمْلُ

والطلوع : الصعود والرقى ، واستغل الوراق تسمية العامة للدمل طلوعا ، وصنع هذه التورية البارة . وفي كتاب خزانة الأدب للحموى توريات كثيرة للسراج الوراق اقتطفنا منها ما أنشدناه . ووراءها توريات لا نقل عنها لظفا وبراعة .

## ابن (١) دانيال .

هو شمس الدين محمد بن دانيال ، ولد سنة ٦٤٦ للهجرة بالموصل وتركها فتى إلى القاهرة ، ولا نعرف أسباب هجرته من بلده ولا تاريخ هذه الهجرة ، ويقال إنه نزل القاهرة في سن العشرين ، ويلقب بالكحّال ، ويقولون : كان له دكان كحل داخل باب الفتوح ويلقبونه بالحكيم وليس معروفا بالضبط هل احترف طب العيون أو كان تاجر كحل وبائعه فقط . وأغلب الظن أنه كان يعالج العيون لقوله :

ياسائلي عن حرفتي في الورى واضبعتي فيهم وإفلاسي  
ماحال من درهم إنفاقه يأخذه من أعين الناس

والعورية في الشطر الأخير واضحة ، وهي عبارة تدور على ألسنة العامة ، يقولون يأخذ حقه من عينه أي رغم أنفه ، وهو لا يريد ذلك إنما يريد الإشارة إلى صنعته وحرفته . وكانت تتعقد في دكانه أغلب الليالي ندوة سمر يجتمع فيها كبار الفكهين لزمته من أمثال الجزائر وابن النقيب والوراق والحامى ، ويروى أنهم جاءوه يوما فقالوا له : نحتاج إلى عصيات يومئون بذلك إلى أن من يداوى عيونهم يُجهز على بصره فيصبح ضريرا محتاجا إلى عصا تقوده ، فقال لهم على الفور : ليس عندي إلا أن يكون فيكم من يقود لله تعالى . وكان يلزم الأشرف خليل ابن السلطان قلاوون قبل تقلده الحكم في عهد أبيه ، وأعطاه يوما فرسا ومرت أيام فإذا به يراه على حمار أعرج ، فقال له : ياحكيم أما أعطيناك فرسا تركبه ؟ فأجابه مسرعا : نعم بعته وزدت على ثمنه واشتريت هذا الحمار ، فضحك الأشرف وأعطاه فرسا آخر . ومن تورياته الطريقة قوله :

قد عقَلْنَا والعَقْلُ أَيُّ وثاقٍ وصَبْرْنَا والصَّبْرُ مرُّ المذاقِ  
كلُّ من كان فاضلا كان مثلي فاضلا عند قسمة الأرزاق

وكلمة « فاضلا » الثانية ليست من الفضيلة كسابقها . وإنما من الفضل بمعنى الزائد عن

الطالع للشوكاني ١٧١/٢ وكتابتها الفكاهة في مصر ( طبع دار الهلال ) ص ٥٣ وما بعدها .

( ١ ) انظر في ابن دانيال وترجمته وأشعاره فوات الوقيات ٣٨٣/٢ والدرر الكامنة لابن حجر ٣٨٢/٣ وشنبرات الذهب لابن العباد ٢٧/٦ والنجوم الزاهرة ٢١٥/٨ واليدر

الحاجة . وهذا الجانب الفكه في ابن دانيال استطاع أن ينفذ منه إلى صنع ثلاث تمثيلات أو كما يسميها بابات لتمثل على مسرح خيال الظل في أيامه ، وهو مسرح دُمِّي متحركة متحاوره ، واسم أولها « طيف الخيال » والثانية « عجيب وغريب » والثالثة « متم » . وتصور الأولى الحياة الاجتماعية لمهد الظاهر بيبرس . والثانية تصور سوقا مصرية ومن فيها من أخلاط الناس والأمم وقد جمدت ألسنتهم عند لهجاتهم الوطنية في بلدانهم وصور معينة من كلامهم تثير الضحك في النظارة . وتصور الثالثة الحيل وخاصة حيل المحبين مع صور مضحكة من عراك الديكة ونطاح الكباش والثيران .

وأبداع المسرحيات الثلاث وأطرفها « طيف الخيال » وهي مسرحية شعرية نثرية ونثرها مسجوع كثر المقامات وليس فيها لفظ غريب ، وكأنما حاول ابن دانيال أن يجعلها قريبة قريناً شديداً إلى عامية أهل القاهرة لزمه ، وهو يفتتحها بتقديمه لطيف الخيال الأحذب الموصلى متغنياً بفضله وجدّه وهزله ، ويسلم سلام القادم ويرد عليه الرئيس السلام مادحا له ولحديثة بمثل قوله :

قسماً بحسن قوامك الفتان يا أوحده الأمراء في الحدبان  
يامشبه الغصن الرطيب إذا انثنى من حذبتيه يمس بالرمان  
ياعجلاً شكل الهلال بقده حاشاك أن تُعزرى إلى نقصان

ويستمر في تحسين حديثه ، فهو صاحب ردّفين ، وهو جمل جليل السّم ، بل هو كالعود الأحذب المطرب . ويرد طيف الخيال عليه : لأفض الله فاك ، ولا أقال من سيف الحسبة قفاك . وكان الحاسب رجل شرطة وقانون . فهو يتمنى أن يظل سيفه مسلطاً على قفاه . ويعنى طيف الخيال بأبيات يستقبل بها النظارة من الحاضرين ، ويذكر أنه جاء مصر من الموصل زمن الظاهر بيبرس حين أمر في سنة ٦٦٦ بتحريم المنكورات وإغلاق الحانات وإعدام أحد أصحابها المسمى ابن الكازرونى بعد تجريبه في الطرقات وفي عقبه دنّ نبيذ أو نبادية . وإلى ذلك يشير طيف الخيال ، إذ يقول ابن دانيال على لسانه :

لقد كان حدّ السكر من قبل صلبيه خفيف الأذى إذ كان في شرعنا جلدًا  
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبي ألا تُب فإن الحدّ قد جاوز الحدّ  
والتورية واضحة في كلمة « جاوز الحد » إذ لا يريد المعنى المتبادر من مجاوزة الشيء لحدّه

وإفراطه ، وإنما يريد مجاوزة الحد الشرعى فى العقوبة . ويتوقف طيف الخيال الأحدث ليرثى إبليس وغوياته ويندب تحطيم أوانى الخمر وذنانه وندمانها وسقاتها بمثل قوله :

مات - يا قوم - شيخنا إبليسُ وخلا منه ربُّعه المأنوسُ  
والقناني به تكسرنَ والخمَّ - أارُ من بعد كسرهما محبوسُ  
ودَّو القَصْف ذاهلون وقد كا دتْ على سَيْلها تسيلُ النفوسُ  
والحرفايشُ حولها يتباكو ن بنارِ تُراع منها الجوسُ  
وقضيبُ و نرجسُ وسُعادُ باكياتُ ونزْهَةٌ وعروسُ

والمرثية طويلة ، واكتفينا منها بهذه الأبيات لندل على ما نوج به من هزل ودعابة . ويذكر طيف الخيال أنه جاء إلى مصر يبحث عن أخيه الأمير وصال ، وهو أمير مزيف ، ويظهر أخوه ، ويطلب الأمير كاتبه ، ويحدثه فى توقعات وودائع ، وأمره بكتابة تقليد بولاية ، تدليسا واقراء . ويلقب الكاتب طيف الخيال بلقب صُرْبَعَر انتقاما منه حين هزئ به ، فى مقابل لقب لشاعر بغدادى مشهور يسمى صُرْدَر . ويذكر وصال لأخيه أنه قد عزم على ترك الخلاعة والمجون والتوبة إلى الله والعمل بعمل أهل السنة والجماعة ، بادئا بالزواج . وتبدأ مشاهد التمثيلية من حين هذا اللقاء بين وصال وأخيه وتدور حول مشكلة الخاطبة فى الحقب الماضية وما كان ينشأ عنها من أغلاط فى تبين حقائق العروسين ، فالزوج يدعى أنه من أمراء الموصل ومعه كاتبه وحاسبه المزيف ، وحقيقته أنه بانس فقير لا يملك شروى نَقير كما يقول بلسانه فى التمثيلية ، حين طلب منه المهر . وقد أطلق البخور ورشَّ الطيب على الحضور وينشد :

أَمَسِيْتُ أَفْقَرَ مَنْ يَرُوحُ وَيَعْتَدِي ما فى يدي من فاقتي إلا يدي  
فى منزلٍ لم يَحِوْ غَيْرِي قَاعِدًا فإذا رقدتُ رقدتُ غيرَ ممددٍ  
وترى البعوضَ يطير وهو بريشه فإذا تمكَّن فوق عِرْقٍ يَقْصِدِ  
والفارُ يَرُكُضُ كالخِيولِ تسابقتُ من كلِّ جرداء الأديم وأجرد  
وترى الخنافسَ كالزُجوجِ تصفَّفتُ من كلِّ سوداء الأديم وأسود  
هذا ولى ثوبٌ تراه مرَّقا من كلِّ لونٍ مثل ريش الهدهدِ

ومع ذلك يُزِفَّ الأمير وصال على عروسه ، وحين تكشف عن وجهها يصيبه الدهول لهرمها

وقبحها المتناهي ، وينادى على الخاطبة وتأتيه ويشكو منها . وينشد طيف الخيال على لسانه شكوى مرة من زوجته . ويصور ما يتعاطاه من الحشيش وما يرسم له من الخيالات والأوهام ، حتى ليرى وجهه في زير مملوء ماء فيظن به لصا إذ يراه يعبس ويضحك مثل عبسه وضحكه ، فيحطمه حطما : وتموت الخاطبة وينوح عليها زوجها بمثل قوله :

ساعدونى بالتَّوْحِ والتَّعديِدِ بعد فقد العجوز أمَّ رشيدِ  
هلكتْ آخرَ اللَّيالي السودِ باليالي الوِصالِ باللهِ عُودى

والتمثيلية تزخر بالمواقف المتناقضة كما تزخر بهذه الروح الفكهة ، ويتخللها الغناء والرقص ويترد فيها التسلسل ، وشخصها في غاية الوضوح . وهى تصور جوانب كثيرة من الحياة الاجتماعية والسياسية وعلاقات الرجال بالنساء وعلاقات الشعب بحكامه في تلك الحقبة . وما زال ابن دانيال يتمتع أهل القاهرة بتمثيلياته الهزلية وفكاهاته التى كانت تدور فى أفواه الناس حتى وفاته سنة ٧١٠ للهجرة .

### عامر<sup>(١)</sup> الأنبوطى

يقول الجبرتي في ترجمته : «شاعر مفلق هجاء» ويقول إنه كان يقيم في بلده ويلم بالقاهرة من حين إلى حين فيزور العلماء والأعيان ، وكلما رأى قصيدة مشهورة سائرة قلبها وزنا وقافية إلى الهزل والطبيخ ، فكان الشيوخ والشعراء يتحامونه ويكرمونه ويجزلون له في العطاء ، وكان فيه ظرف يجعلهم يأنسون لكلامه ويهشون لشعره الفكه . من ذلك نظمه لألفية في الطعام على غرار ألفية ابن مالك في النحو ، استهلها بقوله :

يقول عامرُ هو الأنبوطى أحمد زى لستُ بالقنوطى<sup>(٢)</sup>  
وأستعين الله فى ألفيّه مقاصدُ الأكلِ بها محويّه  
فيها صنوفُ الأكلِ والمطاعمِ لذتُ لكلِ جائعٍ وهائمٍ<sup>(٣)</sup>  
طعامنا الضانى لذيذُ اللّهم لحما وسمنا ثم خبزنا فالنتقم

(٢) القنوطى : كلمة جلبتها القافية ولعله يريد بها اليانس

(٣) الهائم : شديد العطش .

(١) انظر في ترجمة عامر الأنبوطى وشعره الجبرتي

فإنها نفيسة والأكل عمّ مطاعمٌ إلى سناها القلبُ أمّ (١)  
والأصلُ في الأخبارِ أن تُقمرًا وجوزوا التقديد إذ لا ضررا (٢)

ولاريب في أن شيوخ الأزهر وطلابه حين كانوا يسمعون منه شيئا من أشعار هذه الألفية يفرقون في الضحك إغراقا ، لأنه نقل أكثر صنيع ابن مالك في ألفيته النحوية الجادة منتهى الجد إلى هذه الألفية الجليلة المضحكة غاية الضحك . ورأى أن لامية العجم للطرفائي تستولى على إعجاب الشعراء والناس منذ زمنه في القرن السادس لما تحمل من حكم وخبرات تنفع الناس في حياتهم وسلوكهم ، فنظم على وزنها وقافيتها لامية في المطاعم من مثل قوله :

أناجرُ الضانِ تزيّاقُ من العليلِ وَأَصْحُنُ الرزِّ فيها منتهى أُملى (٣)  
ولا خليلٌ يدفَعُ الجوعَ يرحمى ولا كريمٌ بلحْمِ الضانِ يسمح لى  
طال التلهف للمطعمِ واشتعلتْ حُشاشتى بحامِ البيتِ حين قُلَى  
أريد أكلًا نفيسًا أستمين به على العباداتِ والمطلوبِ من عملى

وكانت لابن الوردي الشامي المتوفى سنة ٧٤٩ قصيدة لامية جعلها جميعا حكما وأمثالا ، طارت شهرتها بين معاصريه ومن خظوهم فصاغ على وزنها لامية حكيمة في الطعام ، يقول فيها :

اجتنبْ مطعمَ عدسٍ وبصلٍ فى عشاءِ فهو للعقلِ خبيلٌ  
وعنِ البيصارِ لا تُعزَّ به تُمسِ فى صحّةِ جسمٍ من عليلٌ  
واحتفلْ بالضانِ إن كنتِ فتى زاكى العقلِ ودغِ عنك الكسلُ  
من كبابٍ وضلوعٍ قد زكّتْ أكلها يئنُّ عن القلبِ الوجلُ

وطعام العدس والبصل وكذلك البيصار من الأكلات الشعبية المصرية ، وهو ينهى عن أكلها ويدعو إلى أكل لحم الخرفان الضانى وما يتخذ منه من طعام الكباب واللحم المشوى .

وكان عامر بهذه الأشعار وما يماثلها يظرف معاصريه في القاهرة ويسرّى عن نفوسهم بهزله ويجعلهم يستفرون في الضحك ، بما يعرض عليهم في أشعاره الفكهة من أصناف الأطعمة وألوان

(١) أمّ : قصد .

(٣) أناجر : جمع أنجر ويطلق في العامية على أواني الطعام وطهيه الكبيرة .

(٢) تقمر : كلمة عامية أى تعرض على الناس

الحلوى ، مع إكثاره من دعاء ربه أن يُنبئه « كبابا » ودواء من الحلوى والحشاف . وما زال ذلك دأبه في أشعاره حتى توفي سنة ١١٧٣ للهجرة .

## ٦

## شعراء شعبيون

ليس معنى هذا العنوان أن شعراء مصر لهذا العصر ينقسمون إلى شعبيين وغير شعبيين ، فشعراؤها جميعا كانوا شعبيين إذا أردنا من نشأوا في بيئات شعبية ولم يكونوا من أبناء القصور أو من الطبقات الأرستقراطية . ونستطيع أن نستثنى فقط تميم بن المعز أول خلفاء الدولة الفاطمية بمصر ، فهو وحده الذى نستطيع أن نقول عنه إنه نشأ في ترف ونعيم ، أما بعد ذلك فالشعراء كانوا من أبناء الشعب ، وكثيرون منهم كانوا من طبقة الدنيا التى تتمهن الحرف والصناعات ، بل هم أنفسهم كانوا يمتحنون تلك الصناعات والحرف على نحو ما مر بنا في حديثنا عن ظافر الحداد وأنه نشأ حدادا ، وتفجر ينبوع الشعر على لسانه ، فترك عالم الحدادة إلى عالم الشعر والفن . ويلقانا كثيرون من هؤلاء الشعراء المحترفين حرفا متنوعة مثل الجزار والوراق ومجاهد الخياط والحامى الذين عرضنا لهم في حديثنا عن شعراء الفكاهة .

ومعنى ذلك أننا لا نريد أن نتحدث عن شعبية شعراء العصر بهذا المعنى من نشأتهم في الأوساط الشعبية ، فهى نشأة مشتركة تجعلهم جميعا شعراء شعبيين ، إنما نريد معنى أدق من ذلك معنى يتصل بلغة طائفة من شعراء مصر في العصر رأوا أن ينظموا بلغة الحياة اليومية حتى يصلوا مباشرة إلى التأثير في الناس باستخدام العامية لغتهم في التخاطب اليومي . وكانت قد نشأت في البلاد العربية فنون شعرية عامية ، هى الزجل أنشأته أو استحدثته الأندلس ، والموالي استحدثته أهل واسط بالعراق ، والكان وكان استحدثته بغداد ومثله القوما . وسرعان ما شاعت هذه الفنون في العالم العربى وخاصة الزجل والموالي .

والزجل أنواع منه ما يسمى بالاسم الأصلى وهو الزجل ويختص بالغزل والنسيب والخمر والطبيعة ، ومنه ما سمّته مصر بُلَيْقًا وجمعه على بلايق ، وهو ما تضمن الغزل أو الخلاعة والأحاض ، ومنه ما سمّي قَرْقِيًا وهو ما تضمن الهجاء أو الهزل ، ومنه ما سمّي مكفّرًا وهو ما تضمن المواعظ والحكمة ، وكأنهم اشتقوه من تكفير الذنوب . ومررنا أن الشريف العقيلي في القرن

الخامس كان يَحْتَم كل قافية من قوافي ديوانه بأبيات مكفّرة لما قدم في القافية من مجون .

وأخذت مصر منذ القرن السادس الهجري تشترك في صنع الزجل بأنواعه السابقة ، وأخذت تَلطَف أساليبه وأوزانه حتى بلغت فيه غاية لاتكاد تدرک ، وكما أقبلت على الزجل بالمعنى العام أقبلت على البُليق وهو زجل هزل ويقول ابن سعيد في منتصف القرن السابع الهجري : « كان بالفسطاط جماعة يصنفون البُليق ، وهو على طريقة الزجل الأندلسي ، منهم ساكن البُليق ، ومن بُلّيقاته :

بَسَى من الدين الثاني نرجع لديني الحقاني  
نرجع لديني الأول عن التّسا لَسْ نَحْوَل  
إن كنت في ذا تَقْوَل اَصْفَعُ وَقَطْعُ آذَانِي

وهذا من الطراز العالی في هذا الفن ، وهو عنوان كاف عن غيره <sup>(١)</sup> . واشتهر في القرن السابع ابن دقيق العيد ينظم البلايق <sup>(٢)</sup> . ومن اشتهر في القرن الثامن بصنع البلايق زين الدين القوصي وقدروى له ابن حجر بُلّيقاً <sup>(٣)</sup> ومثله سراج الدين عمر بن مولا هم ، وقدروى له ابن تغرى بردى بُلّيقاً <sup>(٤)</sup> هزلياً رقص به منشدوه بين يدي السلطان حسن ، وفيه يقول :

من قال أنا جندي خلقٌ فقد صدق  
عندي قَباً من عهد نوح على الفتوح <sup>(٥)</sup>  
لو صادفوا شمس السطوح كان احترق

وقد أشار بقوله : « أنا جندي خلق » أي هرم إلى بُلّيقنا مملوك السلطان وكان واقفا بين يديه ، وأغرق السلطان في الضحك واستعاد البُلّيق مرارا . ويحانِب البلايق تلقانا أزجال كثيرة في هذا العصر ، من ذلك مطلع زجل رواه صفي الدين الحَلَمي ، وكان قد نزل القاهرة في العقد الثالث من القرن الثامن الهجري ، وهو يجري على هذا النمط <sup>(٦)</sup> :

(٤) النجوم الزاهرة ١٠/٣١٧ - ٣١٨ .

(٥) القبا : ثوب يلبس فوق الثياب أو يتمنطق عليه .

(٦) العاطل الحالى لصفي الدين الحلى نشر ولهم هو نرباخ

بألمانيا ص ٢٧ .

(١) المغرب (قسم الفسطاط) ص ٣٦٥

(٢) انظر بعض بُلّيقات ابن دقيق في الطالع السعيد ص

٣٢٧

(٣) الدرر الكامنة ١٤/٣

مَنْ نَعَشَقُوا سِيدَ الْمَلَاخِ فِي خَدُّوْ مَا وَنَارُ طَرَزُوا مِنْ زَانُوا بِالْحِدَارِ  
عَرَضْتُ لُو بِاللَمَّاحُ صَارُ وُرُكُو كَالْبَهَارِ<sup>(١)</sup> وَتَبَدَّلَ لُونُو بِالصَّفَارِ

وأشد زجلا مصريا كاملا ، قال : سمعته للمصريين ، وهو يصور خفة روحهم ورقهم  
ولطفهم وظرفهم ، وما جاء فيه <sup>(٢)</sup> :

لَسْ غَرِيبٌ مِّنْ فَارِقِ أَوْطَانُوْ أَوْ يَبِئِدُ عَنْ نَاطِرُو الْحَبِيبِ  
إِلَّا مِّنْ دَارُو قَبْلُ دَارُو وَالْحَبِيبُ عَنْ نَاطِرُو مَحْجُوبِ  
حَبِيبِي عَنِّي حَجَبُوهُ أَهْلُو وَأَسْرَفُو فِي جَمْعِ حُطَاوِ  
وَالرَّقِيبُ قَدْ غَيَّبُوا عَنِّي حَتَّى عَنِي قَيْدَ الْفَاطُوِ  
كُلْ يَوْمَ لِأَجْلُو يَغِيظُ قَلْبُو رَبِّ غِيظُ قَلْبِ الَّذِي غَاظُو  
مَآخِطَرٌ إِلَّا وَهُوَ خَائِفٌ أَوْ عَبِيرٌ إِلَّا وَهُوَ مَرَعُوبِ  
لَسْ نَطِيقُ نَلْفِظُ مَعُو لَفْظُهُ لَا وَلَا يُرْسِلُ إِلَيْهِ مَكْتُوبِ  
رَيْتُ حَبِيبِي فِي الرِّيَاضِ يَمْرُخُ بَيْنَ أَقْرَانُو وَأَثْرَابُو  
قَلْتُ قَدْ صَحَّ الْمَثَلُ فِينَا مِنْ لَيْقَى أَحْبَابِوَيْسِي أَصْحَابُو  
قَالَ لِي قَدْ ضَجَّتْ بِنَا اءِدَانَا وَرَمُونَا قَلْتُ مَا صَابُوا

والزجل يسيل رقة ونعومة وعلوية . وقد روى صاحب خزنة الأدب قطعة من زجل ابن  
القحاح في وصف الترجس <sup>(٣)</sup> . ولما توفى السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٧٨ حزن الناس عليه حزنا  
عظيما وراثه الشعراء بعدة قصائد ، كما رثاه الزجالون ومن قول أحدهم <sup>(٤)</sup> :

كوكب السعد غاب من القلعة وهلاكو قد انطقا بأمان  
وُزَحَلْ قَدْ قَارَنَ الْمُرَيْخُ لِكُسُوفِ شَمْسِ الضُّحَى شُعْبَانُ

ومن أطرف الأزجال المصرية لعهد المماليك زجل نشرته قديما بمجلة الثقافة <sup>(٥)</sup> نظمه زجال  
مصرى في رثاء الفيل مرزوق ، وهو فيل كان قد أهداه تيمورلنك في أوائل القرن التاسع الهجرى  
إلى سلطان مصر ، وتصادف أن الغلمان الموكلين به ساروا معه نحو بولاق ورجعوا مجازفين به على

(٤) النجوم الزاهرة ٨٣/١١

(٥) مجلة الثقافة : العدد رقم ٣٧١ لسنة ١٩٤٦ .

(١) البهار : زهر أصفر .

(٢) الطائل الخليل ص ١٠٩

(٣) خزنة الأدب ص ٢١٩

قنطرة ضعيفة فوق ماء ، فانخسفت به ولم يقدر أحد على إنقاذه ومات ، وخرج الناس زمرا يتفرون عليه ، وأنشأ فيه بعض الزجالة مرثية بديعة ، وفيها يقول على لسان زوجته باكية له نادبة :

|                         |                        |
|-------------------------|------------------------|
| سهم الفراق قد صاب قلبي  | يا مسلمين              |
| ونا غريبة هندية         | قلبي حزين              |
| وعيطت حتى أبكت          | جيرانها <sup>(١)</sup> |
| من كثر مانحت ناخوا      | لأحزانها               |
| من نارها صارت تلطم      | بودانها <sup>(٢)</sup> |
| حتى الزرافة جاءتها      | متحسرها                |
| تبكى على الفيل اللي مات | في القنطرة             |

وكانت لدى هذا الزجال روح فكهة ولقنات ذهنية بديعة ، إذ جعل زوجة الفيل هندية كما جعلها تلطم « بودانها » أو آذانها ، واختار الزرافة لتساعددها في حزنها لما يبدو عليها دائما من تأمل وحزن كأنما ضاع منها شيء . ويبدو أن الزجل ازدهر حينئذ بمصر . وفي دار الكتب مجلد نفيس لأحمال زجل مصرية مطبوع بباريس .

وتظل الأرجال حية في الحقبة العثمانية ومثلها المواليا ، وهي الفن الشعبي العامي اللطيف الذي استكثر منه المصريون ومعروف أنه يخرج من بحر البسيط ، ونجده في ديوان ابن الفارض الصوفي ، واشتهر به في عصر الماليك أبو بكر بن العجمي عين كتاب الإنشاء في مطلع القرن التاسع الهجري وكان إمام فن المواليا<sup>(٣)</sup> لزمه وضروره المتشعبة ، ومن موالياته :

|                               |   |
|-------------------------------|---|
| للحبيب قالوا معنك الذي اذبلتو | جدلؤ بقبله فقلبو فيك خبلتو                |
| فقال أقسم لو ان البوس سبلتو   | ومات ، للشرق مادرتو وقبلتو <sup>(٤)</sup> |

قد تكون من القبلة بضم القاف وهو المعنى المتبادر لسبقها بكلمة البوس ، وقد تكون من القبلة بكسر القاف أي ماأداره نحو القبلة بعد موته وهو المعنى المراد .

(١) عيطت : بكت .

(٢) ودانها بالعامية : آذانها .

(٣) خزنة الأدب ص ٤٣ .

(٤) درتو : كلمة عامية أي أدرتو . وفي قبلتو تورية لأنها

وتظل المواليا حية في أيام المالك وأيضا في أيام العثمانيين . وكانت تتوزعها منذ القرن السابع الهجري الأنواع التي مرت في الزجل وهي : البليق ، وموضوعه الغزل وقد تصحبه الخلاعة ، وأنشد الجبرتي من أمثله الغزلية البارعة قول الشيخ شمس الحفني الشافعي الخَلَوْتُ :

خَطَرَ عَلَيَّ غَزَالِي مَرَّ مَا اتَكَلَّمُ فَوْقَ جَفُونِهِ وَقَلْبِي وَالْحِشَاءُ اكْتَلَمَ  
إِيشْ كَانَ يَضْرَهُ إِذَا بِالرَّاسِ لِي سَلَّمَ حَتَّى أَسْرَّ مَهْجَتِي لَوْلَا السَّلَامُ سَلَّمَ

والنوع الثاني القرقيا وينظم في الهزل والفكاهة وما يتصل بها ويسوق الجبرتي منه مثل قول حسن شَمَّه .

قَالُوا تَحِبُّ الْمُدْمَسُ؟ قَلْتُ بِالزَّيْتِ حَارٌّ وَالْعَيْشُ الْإِيضُ تَحِبُّهُ قَلْتُ وَالْكِشْكَارُ  
قَالُوا تَحِبُّ الْمَطْبِقُ؟ قَلْتُ بِالْقَنْطَارِ قَالُوا أَشْ تَقْلُ فِي الْخَضَارِي قَلْتُ عَقْلِي طَارَ

والقول المدمس طعام شعبي لأهل مصر ومثله الكشك ، والمطبق نوع من الرقاق محشو بالنخل والسكر ، أما الخضار فن طيور البحيرات . والنوع الثالث من المواليا المكفر وينظم في الحب الإلهي والمديح النبوي والمواظف وفي ديوان ابن الفارض منه أمثلة متعددة . ويسوق منه الجبرتي قول الشيخ شمس الحفني أو الحفناوي وهو مواليا يمكن قراءتها معربة على هذا النظم .

بِاللَّهِ يَا قَلْبُ دَعَّ عَنْكَ الْهَوَىٰ وَأَسَلَّمُ مِنْ كُلِّ مَيْلٍ وَوَأَفِي عَهْدِهِمْ أَسَلَّمُ  
وَالزَّمْ حِمَى سَادَةٍ مِنْ أُمَّهُنَّ يَسَلَّمُ وَأَسَلُّكَ سَبِيلَ التَّقَىٰ يَوْمَ اللَّقَا تَسَلَّمُ

ويقول صفي الدين الحلبي إن القوما خاصة بسحور رمضان من قول المغنين في آخر كل بيت فيها « قوما قوما للسحور » . أما الكان وكان فالشطر الأول من البيت فيه غالبا يكون أطول من الشطر الثاني وهو خاص بالحكايات والخرافات والمراجعات فكأن قائله يحكي ما كان وكان . ويقول إن فن القوما وكذلك فن الكان وكان لا يعرفها سوى أهل العراق<sup>(١)</sup> . ويحكي ابن تفرى بردى منه منظومة في وقعة قوصون ساقى الناصر بن قلاوون وما كان من قتله ، وهي تستهل على هذا النظم<sup>(٢)</sup> :

مِنَ الْكَرْكُ جَانَا النَّاصِرُ وَجَبَّ مَعَهُ أُسْدُ الْغَابَةِ

ووقعتك يا أمير قوصون ما كانتِ آلا كدابةً

ويبدو أن المصريين حاكوا فن القوما العراقي أيضا ، إذ نرى الجبرتي في الحقبة العثمانية يتوقف مرارا ليقول إن هذا الشاعر أو ذاك كان ينظم في الزجل والقوما والكان وكان والموالي والبليق<sup>(١)</sup> ونقف قليلا عند بعض أصحاب هذا الشعر الشعبي العامي .

### إبراهيم<sup>(٢)</sup> المعمار

هو جمال الدين إبراهيم بن علي المعمار ، يقول فيه صاحب فوات الوفيات : « إبراهيم الخائك وقيل المعمار وقيل الحجار عامي مطبوع تقع له التوريات المليحة المتمكنة لاسيا في الأزجال والبلاليتق » ويقول الصفدي : « عامي مطبوع تقع له التوريات المليحة المتمكنة المطبوعة الجيدة ولاسيا في الأزجال والبلاليتق ، بحيث إنه في ذلك غاية لاتدرك ، أما المقاطيع الشعرية فإنه يقعد به عنها مراعاة الإعراب وتصريف الأفعال » ويقول ابن تغري بردي : « كان ذكي الفطرة قوى القريحة لطيف الطبع » ويقول ابن حجر : « كان يلزم القناعة ولايتردد إلى أحد من الأكابر إلى أن مات في الطاعون سنة ٧٤٩ ومن قوله فيه قبل موته .

قُبِّحَ الطاعون داءً فُقدتْ فيه الأُحبةُ  
بيعتِ الأنفسُ فيه كلُّ إنسانٍ بحبِّه

وفي كلمة « حبة » تورية واضحة لأن الطاعون يصحبه دمٌ كبير ، وله توريات كثيرة كما قال من ترجموا له ، من ذلك قوله :

ياقلبُ صبرًا على الفراق ولو رُميتَ ممن تحبُّ بالبَّينِ  
وأنتِ يادمعُ إن ظهرتْ بما يُخفيه قلبي سقطتْ من عيني

وفي كلمة « سقطت من عيني » تورية إذ لا يريد معناها القريب وهو تحدر الدمع من عينه وإنما يريد معناها المعروف في العامية إلى اليوم وهو أنه ضاع ولم تعد له مكانة . وكان الناصر بن قلاوون

والوافي ١٧٣/٦ والدرر الكامنة لابن حجر ٥٠/١ وتاريخ

ابن إياس في مواضع متفرقة وخزانة الأدب ص ٣٨٥ .

وله زجل ماجن في كتاب عقود اللال للنساجم .

(١) انظر الجبرتي ٢٩٠/١ .

(٢) انظر في المعمار وترجمته وأشعاره فوات الوفيات

٥٥/١ والنجم الزاهرة ٢١٢/١٠ والمنهل الصافي ١٧٤/١

يألفه ويقربه منه لطرافة تورياته وله في زوجته مداعبا :

لما جَلَّوْا عِرْسِي وَعَايْنَتُهَا وَجَدْتُ فِيهَا كَلًّا عَيْبٍ يُقَالُ  
فَقُلْتُ لِلدَّلَالِ مَاذَا تَرَى؟ فَقَالَ: مَا أَضْمَنُ إِلَّا الْحَلَالَ

والدلال : جالب العروس ، ولكلمة الحلال معنيان : ضد الحرام والمباح . ومن تورياته  
مداعبا بعض من أمر بصفعه ، فحتى في هذا الموقف يفرع إلى التورية قائلا :

مَا كَانَ صَفْعٌ بِالرِّضَا لَكِنَّهُ مِنْ خَلْفِ أُذُنِي  
لَوْلَا يَدٌ سَبَقَتْ لَهُ لِأَمْرَتِهِ بِالْكَفِّ عَنِّي

وفي البيت الأول تورية في كلمة « من خلف أذني » إذ تحمل معنيين هما القفا موضع الصفع  
وعدم الاكتراث . وفي البيت الثاني تورية في كلمة « يد » إذ لها معنيان هما النعمة والصفع باليد ،  
وبالمثل لكلمة « الكف » معنيان هما : الانصراف عن الشيء والصفع بالكف . ومن تورياته :

وَخَادِمٍ يَلْعُو عَلَى عَشَاقِهِ بَرْتَبَةٍ مِنَ الْجَمَالِ نَاهَا  
وَإِسْمُهُ - وَهُوَ الْعَجِيبُ - عَمْسٌ وَكَمْ دَمُوعٍ فِي الْمَوَى أَسَاهَا

وفي كلمة « أساهها » تورية إذ تحمل معنى قريبا هو إسالة الدمع ومعنى بعيدا من الأسى وهو  
الحزن كأنه يرق لمحبيه حين يرى دموعهم ويحزن لهم . ومن لطائف تورياته :

مَا مَصْرُ إِلَّا مَنْزَلٌ مُسْتَحْسَنٌ فَاسْتَوَطَنُوهُ مَشْرِقًا أَوْ مَغْرِبًا  
هَذَا وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ بِهِ فَيَتِمُّوا مِنْهُ صَعِيدًا طَيِّبًا

وقد اقتبس الشطر الأخير من الآية القرآنية : ( فَيَتِمُّوا صَعِيدًا طَيِّبًا ) وهو لا يريد معنى  
الصعيد في الآية وهو وجه الأرض وإنما يريد صعيد مصر ووجهها القبلي ، وهي تورية بديعة ،  
ومن ذلك قوله :

حَزَنَ الْخَزَّانُ لَمَّا أَنْ رَأَى نِيلَنَا قَدْ عَمَّ سَهْلًا وَجَبَلًا  
وَرَأَى الْأَرْضَ لَنَا قَدْ أُخْرِجَتْ سُنْبُلَاتِ ذَاتِ حَبِّ فَاخْتَبَلُ  
وَبَكَى إِذْ رَمِدَتْ أَعْيُنُهُ زَادَهَا اللَّهُ عُرُوقًا وَسَبَلًا

والسبل : داء يصيب العين بغشاوة كأنها نسج العنكبوت بعروق حمر ، وهو لا يريد هذا المعنى فهو لا يريد الدعاء على الخزان وإنما يريد الدعاء لأرض مصر ونيلها وأن تزيد عروق قح وسبل كما تقول العامة أو سنبلات . ومن تورياته :

شهرُ الصيام تولى فراقه يوم عيدي  
فقبل شيع بست فقلت أيضا وسيدي

وكلمة « ست » لها معنيان معنى قريب هو الأيام الستة البيض التي تصام نفلا بعد رمضان ، ومعنى ثان هو السيدة ، وقد وجه العبارة إلى هذا المعنى كما يشهد بذلك الشطر التالي . ولم تُعَنْ كتب الأدب والتراجم برواية شيء من بلاليقه . ومن موالياته :

مَزَجَتْ يوما مع الحَبِّ الرشيْق القَدَّ وقلت آهي على من قَبْلِكَ في الحدِّ  
فَسَلَّ سيفو من أَجْفَانو لقتلى حدَّ قلت انتهى الأمر يا حَيِّي لهذا الحدِّ

وفي كلمة « الحد » الأخيرة تورية إذ لها معنيان : العقوبة مثل كلمة الحد السابقة ، والنهاية المقرطة . ومن موالياته أيضا :

رمى ، أصاب صميمَ القلب زين الزَّيْنُ وَأَصْبَحَتْ مُضْنِي قَلْقُ أَحْشِي حلول الحَيْنِ  
وكنت قبلُ خَلِيُّ لم أشكُ وشكُ البينِ سالمٌ من العشق حتى صابني بالعينِ  
ولكلمة « صابني بالعين » معنيان هما الحسد ، وإصابة المحب لمحبه بعينه وسهامها القاتلة . وله مواليات وأشعار مفحشة كثيرة كان يقولها نظرفا لأهل زمنه .

### العُبَارِي (١)

هو خلف بن محمد العُبَارِي عاش في القرن الثامن الهجري ، وكان فقيها وعلما وأديبا وشاعرا ينظم الشعر الفصيح ولكنه اشتهر بنظم الزجل . ونرى السلاطين منذ الناصر بن قلاوون يقرّبونه منهم ، كما نراه ينظم أرجالا مختلفة في أحداث مصر ، ولا يعرف تاريخ وفاته ، ويقال إن مئذنة

للتواحي ص ٢٥٥ وكتاب « الزجل والزجالون » لأبي بنية ص ٢١ .

(١) انظر في العُبَارِي تاريخ ابن إياس في مواضع متفرقة من القرن الثامن الهجري ، وراجع زجلا له في عقود اللآل

المسجد بقلعة الجبل سقطت عليه فمات ودُفن تحت أنقاضها ، وهو يعد أستاذ فن الزجل لزمناه ،  
فمنه تلقاه كثير من المصريين ، ويبدو أنه نظمه في موضوعات كثيرة : في المديح والرثاء والأحداث  
السياسية ، ومن زجل له في مديح السلطان شعبان ( ٧٦٤ - ٧٧٨ هـ ) وكان محبوباً من رعيته :

حُبَّ قلبي شعبان موقِّع رشيدٌ      وجمالو أشرقٌ ومالو حدودٌ  
وأبوه الحسن وعمه الحسينُ      وأرث الملك من جُدود لجُدود  
زَعَقِ السعد بين يديك شاويشُ      فرح القلب بعد ما كان حزين  
ونصَّب لك كرسي على المملكة      وظهرَ لك نصره بفتحو الميين  
والعصائب من حولك اشتالتُ      - خفقت في الركوب عليك - البنود  
فاحكم احكم في مصر ياسلطان      فجميع الجنود لحسك جنود

والشاويش : رتبة عسكرية ، ويريد الغبارى أن السعد مثل بين يدى السلطان شعبان مؤتمراً  
بأمره ، ويقول إن العصابت أو جماعات الفرسان والرجالة اشتالت أى رفعت البنود والأعلام  
كناية عن أنه أصبح في مصر صاحب الأمر والنهى والسلطان . ونراه متصلاً بابنه السلطان على  
( ٧٧٨ - ٧٨٣ هـ ) ناظماً الأزجال في الأحداث الكبرى لأيامه ، من ذلك زجل طويل نظمه في  
وقعة العريان بالبحيرة القريبة من الإسكندرية ، وفي مطالعه يقول :

جا الحَبْرَ يوم الأربعاء      بأنو في ليلة الأحد  
جا دمنهور عرب خلدوا      سوقها وأخربوا البلد  
وابن سلام أميرهم      هو الذى للجميع حشدُ  
فبرز أيتمش سريع      بمالك وجند نُوبُ  
وعُدد مالها عدد      ويطلبوا لهم طلب  
حضرُوا ما التقوا أخذُ      من جميع العرب حضرُ

وله وراء ذلك أزجال كثيرة في النصائح والوصايا والحكم ، ولعلها أروع مما أنشدناه ، إذ  
كانت تفصل من روحه ومن خبرته بالحياة ، وكأنما يريد بها إلى حسن التربية وإحكام السلوك  
والانتفاع بخبرة الآباء والأسلاف وتجاربهم في الحياة ، من مثل قوله في زجل طويل :  
في الناس رأينا للخير معادنٌ      والدرّ يوجد في كتر مِثْلُهُ

وَأَنْ رُمَتْ جَوْهَرٌ فِي الشَّخْصِ مَكْتُونٌ فَجَوْهَرُ الشَّخْصِ حَسَنٌ فِطْلَةٌ  
وَأَنْ كَانَ تَرِيدَ صِحَّةَ الْمَعَانِي وَشَرَحَ مَا فِي الْبَيَانِ مَحْرُزٌ  
خَذَ فَرْعَ يَأْيَدِكَ مِنْ أَسْأَلِ حَنْظَلٍ وَازْرَعَ جَنْدُورَهُ فِي أَرْضِ عَثْبٍ  
وَاسْقِيهِ بِمَاءِ بَانَ وَوَرَدٍ مَمْزُوجٍ وَعَقَدَ جُلَّابٌ وَحَلَّ سَكَّرٌ (١)  
وَحِينَ تَشُوفُهُ عَقْدَ ثَمَارِهِ وَأَنْ أَوَانَهُ وَحَلَّ فَصْلُهُ  
ذُوقُهُ تَرَاهُ مَرٌّ وَالسَّبَبُ فِيهِ مَا يَرْجِعُ الْفَرْعُ إِلَّا لِأَصْلِهِ

ولغة هذا الزجل تختلف عن لغة الزجلين السابقين ، فهي أكثر خفة وقربا من اللغة العامية المصرية ، وليس ذلك فحسب فهي تكظظ بالصور والاخيلة البديعة ، وكأننا بازاء شاعر بارع يحسن تأليف الصور وايرادها في موضع البراهين الساطعة ، ومن طريف حكمه ووصاياه في هذا الزجل نفسه قوله ناصحا صادقا :

لَا تَحْتَقِرْ أَيْ ابْنَ آدَمَ فِي طَوْلِ حَيَاتِكَ وَلَا تَنْمُهُ  
كَمْ حَى خَامِلٌ تَقُولُ عَلَيْهِ مَا يَعْرِفُ اسْمَ الْبَيْمِ مِنْ اسْمِهِ  
وَأَنْ جِيَتْ صَلَاحَتُهُ فِي يَوْمِ بَيَانٍ لَكَ تَظْهَرُ مَعَارِفَهُ وَيَنْجَلِي عِلْمَهُ  
وَيَشْبَهُ الرُّوضِ حِينَ يَبْدُو شَوْكُهُ وَالوَرْدِ مُسْتَوْرٍ مِنْ تَحْتِ سَيْلَتِهِ  
وَالْبَحْرِ تَلْقَى الرَّمَمَ تَعَوَّمُ بِهِ وَالذَّرَّ غَايِصٌ مَخْلُوطٌ بِرَمْلَتِهِ

وهي وصية نفيسة أن لا يبادر الإنسان إلى الحكم حكما سريعا على شخص دون تبين حقيقته ومعرفة جوهره ، والسُّلُّ في العامية : الشوك . ويمثل هذا الزجل كان الغباري إمام فنه في زمنه غير مدافع .

(١) البان : شجر مقدود الأغصان تشبه به الحسان .

والجلاب : ماء الورد والزهر .

## ابن (١) سودون

هو على بن سودون أكبر شخصية شعبية فكهة في القرن التاسع الهجري عُنى في بواكير حياته بحفظ القرآن الكريم وتحصيل العلوم والمعارف حتى أصبح شيخا فقيها ، وعُين إماما بأحد المساجد في القاهرة ، وكان فيه ميل متأصل إلى الفكاهة والمزول وقدرة على نظم الأشعار الهازلة الفكهة ، فشغف الناس به ، وتنافسوا في رواية أشعاره ودعاباته . ولم يلبث أن عُنى بجمعها وأضاف إليها بعض حكايات فكهة مكونا من ذلك كتابه أو ديوانه : « نزهة النفوس ومضحك العيوس » وجعله في خمسة أبواب : الباب الأول في القصائد والتصاديق ، ويقصد بالتصاديق مقدماتها وهي قصائد نُظمت بالفصحى ، والباب الثاني في الحكايات الملائيق وواضح من اسمه أنه أفاصيص قصيرة ، والباب الثالث في الموشحات الهبالية كما يقول وهي بالعامية ومثل هذا الباب باب التزجل والموايلا التالى فهو أيضا عامى اللغة . أما الباب الخامس فجعله للطرف العجبية والتحف الغريبة ، وكان البابين الثالث والرابع هما الخالصان بالشعر الشعبي العامى وإن كانت العامية عنده تتسرب إلى الباب الأول : باب القصائد ، ومن الطريف أن عاميته شعرا ونثرا تقترب جدا من عاميتنا الحديثة ، وقد يكون في ذلك ما يشير إلى أن مصر بلد محافظ . وبدون ريب يصور ابن سودون في كتابه مزاج المصريين الفكه . وفكاهته تقوم على ضروب من المفارقة المنطقية . تجملك تشعر بغير قليل من فقدان التوازن على شاكلة قوله في وصف الربيع وجمال طبيعته :

|                                      |                                     |
|--------------------------------------|-------------------------------------|
| إلى الربيع أرى الأهواء تُلوينى       | لما بدا زهره في حسن تلوين           |
| قد عطّر الأرضَ نَشْرَ الفول حين سرتُ | نُسَيْمَةً سحرا منه تحيىنى          |
| كان زهرته أمُّ الخُلول إذا           | فَلَقَّتْهَا فوق نَعْنَاعٍ بصَحُونِ |
| وكاد يشبه تاجُ القمح باميةً          | لولا شعورُ كأعراف البرّادين (٢)     |
| واعجب من الماء وَسَطَ البحر كيف غدا  | يمشى بلا قدمٍ سَحْبًا على الطينِ    |
| مُسْئِلا قد جَرى بإصاح منطلقا        | فاعجب لمن جمع الصلّين في حين        |

نزهة النفوس ومضحك العيوس مطبوع في القرن الماضى وطبع حديثا .

(٢) البرّادين : جمع بردون وهو البخل .

(١) انظر في ابن سودون شذرات الذهب ٣٠٧/٧

ومقالين لنا في تحليل ديوانه بمجلة الكاتب العددين رقم ١٠ ، ١٢ وراجع كتابنا الفكاهة في مصر ص ٦٧ وديوان

ومن يراه يتحدث عن الربيع والزهر في البيت الأول يظن أنه سيستمر في الحديث عن الجمال الهاجع في الطبيعة وأزهارها وورودها ورياحيتها ، وإذا هو يسقط به إلى النشر الفاتح من نبات الفول وإلى زهره الذي يشبه صدفة أم الخلول التي يطعمها المصريون واضعين على الخلول التنعاع والبهارات . أما القمح فتشبه سنابله البامية : الخضار المعروف ، لولا ما يتدلّى من سنابله من شعور كأعراف البغال والخيل . ويعجب عجباً لاحد له من جريان الماء على الطين ، ويسمى الماء مسلسلاً إذا جرى منحدرًا . ويستغل الكلمة ابن سودون إذ لها هذا المعنى ومعنى ثان من السلسلة بمعنى مقيدا بالسلاسل .

ونحن في أثناء ذلك كله نضحك ، لما أصاب توازننا المنطقي من اختلال ، وكأنما الأشياء تهوى أمامنا من حائق . ومن ذلك قوله .

|            |       |              |           |         |         |       |        |
|------------|-------|--------------|-----------|---------|---------|-------|--------|
| عجبٌ       | عجبٌ  | هذا          | عجبٌ      | بَقَرًا | تَمَشَى | ولها  | ذنبٌ   |
| ولها       | في    | بُسْرِيَّهَا | لَبِنٌ    | يبدو    | للناس   | إذا   | حلبوا  |
| من         | أعجب  | ما           | في        | مصر     | يُرَى   | الـ   | العنبُ |
| والنَّخْلُ | يُرَى | فيه          | بَلَحٌ    | أَيْضًا | وَيُرَى | فيه   | رُطْبٌ |
| والمركبُ   | مَعَ  | ماقد         | وَسَقَّتْ | في      | البحر   | بجبلٍ | تسحبُ  |
| والسناقةُ  | لا    | منقارَ       | ها        | والوزةُ | ليس     | ها    | قَتَبٌ |

وحين نقرأ قوله عجب ، نظن أنه سيرعرض علينا بعض العجائب فإذا هو يعرض بديهيات غاية في البدهاة ، في صورة مغرقة من التباله . ونحس كأن عدوانا أصاب منطقنا أو وقع عليه ، فالبقرة تمشى ولها ذنب وضرع مملوء لبنا ، وشجر الكرم يحمل العنب ، وعلى النخل البلح بُسْرًا ورطبًا ، والملاحون يجرّون مجابهم المركب الموسوق ، والسناقة لا منقار لها وكأنه كان يظنها بجسمها الضخم من الطير . ويظن الإوزة من الإبل تمشى على أربع ، ويتساءل عن قتها أو رحلها . وكل هذه مفارقات تتعدى على منطقنا فنفقد توازننا ونستغرق في الضحك لهذا الهزل الذي يُلغى فيه المنطق السديد إلفاء .

ومن طريف هزل ابن سودون ومفارقاته المنطقية المتناهية في الإضحاك . وصفه لحفل زواجه وقبح زوجته على هذا النمط :

حَلَّ السُرورُ بهذا العَقْد مبتدرا ونجمُ طالعه بالسَّعدِ قد ظهرا

وه الفل، كَلَّل وجه الأرض فانعطفت  
والطير من فرحها في دوحها صدحت  
تقول في صدحها: دام الهنا أبداً  
هذا وعقل عروسي كان أصغر من  
في السن قد طمعت ماضراً لو طمعت  
في وجهها نمش في أذنها طرش  
ياحسن قامتها العوجا إذا خطرت  
تظلل تهف بي: حسنا حظيت بها

أغصانه بالتهاني تنثر الزهرا  
بكل عودٍ عليه لاترى وترأ  
على العرايس كي يقضوا به الوطرا  
عقلي ولكن حوت في عمرها كيرا  
بالسن من رمح أوسيف إذا بترأ  
في عينها عمش للجفن قد سترأ  
يوماً وقد سببت في جيدها شعرا  
أواه لو حاسها موت لها قبرأ

وهو في أوائل الأبيات يجعل السعد رفيقا له كما يجعل الطبيعة ترقص طربا لرفاقه على عروسه ،  
فالأشجار تنثر أزهارها فرحا والطير تصدح على أعوادها داعية للعروسين بدوام الهنا أبدا . ونفاجأ  
بعد ذلك بمفارقة منطقية شديدة ، فالعروس عجوز شمطاء صماء في وجهها نمش وفي عينها  
عمش وقد حتى قامتها الهرم . ومع كل هذا القبح تظل تهف به أن يحمد الله على حظوته بها ،  
ويتمنى لو طمعت بسيف أو حازها الموت ودفنت في التراب إلى غير مآب

وعلى نحو هزل ابن سودون في تصويره لحفل قرانه نراه يهزل في رثائه لأمه هزلا ، بيعث على  
الابتسام بل على الضحك والإغراق فيه ، يقول :

لموت أمي أرى الأحزان تخينني  
وطالما دلعتني حال تربيته  
أقول : « مَمَّ مَمَّ » نجي بالأكل تُطمعني  
إن صحت في ليلة « وأوأ » لأسهرها  
كم كحلثني ولي في جبهتي جعلت  
ومن فقيهي إن أهرب ورام أبي  
وزغردت في طهوري فرحةً وغدت  
وخلفتني يتما ابن أربعة

فطالما لَحَسْتَنِي لَحْسَ تَحِينِي  
خوفا على خاطري كي لا تبكينني  
أقول : « أمبو » نجي بالماء تسقيني  
تقول « هوهُو » بهز كي تُنسينني  
« صوصو بينلي » وكم كانت تخينني  
مَسَكِي وَبَعَثِي له كانت تخينني  
تنثر الملح من فوق وترقيني  
وأربعين سينتا في حسايني

والرثية طويلة اقتصرنا منها على هذه الأبيات وكلها على هذا النحو عدوان على ما نألف في  
الرثاء عامة ، إذ بدلا من أن يحمل كل بيت صرخة ألم أو دمعاً حزن تتحول المرثية كلها هزلا

ودعابة . وكأنما ينظمها في عيد من أعياد أمه فهو يذكّرُها بأيام طفولته وكيف كان يقول لها « مَم » فتأتى له بالطعام « وأمبو » فتأتى له بالماء ، وكيف كان يبكي على صدرها وهي تهزه في حنان ، كما يذكّرُها بأيام صباه ، وكيف كانت تدلّي من شعره تعويذة على جبهته ، وكيف كانت تحبّه حين يهرب من الكتاب . ويذكّرُها بيوم يختانه وزغاريدها فيه وكيف كانت تنثر فوقه الملح بركة ، وترقيه من شر كل ما يؤذيه . وكل هذه مفارقة شديدة للرثاء وموقف الموت الوقور الحزين ، فإذا ابن سودون يهزل فنضحك وتهادى معه في الضحك . وقد جاء في المرثية ببعض كلمات الأطفال ، وهو يكثر من لغتهم في هزله كقوله :

ولما أن كبرتُ بحمد ربّي وصار لِمُتّهى عقلي ابتداء  
بقيتُ أقول : نُؤو تُؤو تاتهُ ودحُو كخُ وأمبو مَم آء

والكلمات كلها من لغة الأطفال قبل نطقهم بالكلام ، ومعنى كلمة دح في اللهجة المصرية العامية حسنا كلمة كخ قبيح ولا تفعل . والحق أن ابن سودون كان جعّبهُ هزل وفكاهة ، وقد بنى فكاهته على المفارقة المنطقية فنحس دائما بعدوانه على منطقنا ببلأته ، ونشعر كأنما الأشياء من حولنا تهوي من أبراج عالية ، هي أبراج المنطق والعقل الواعي ، فنضحك ونسترسل في الضحك .

# الفصل الخامس

## النثر وكتابه

١

### الرسائل الديوانية

ظلت مصر في عهد ولاتها من قبل الأمويين والعباسيين لا تعرف من الدواوين سوى ديوان الخراج والبريد ، وكانت الكتابة في الديوان الأول باليونانية إلى أن تعرب في عهد الوليد بن عبد الملك ، وعادة كان القائمون عليه وعلى ديوان البريد يجلبهم الولاة معهم من العراق <sup>(١)</sup> ، وبحق يقول القلقشندي إنه « لم يصدر عنهم ما يدون في الكتب وتناقله الألسنة <sup>(٢)</sup> » . ومرجع ذلك - كما لاحظ - أن الولاة لم يهتموا حينئذ باتخاذ ديوان للإنشاء . يوظف فيه كتاب مجيدون وتصدر عنهم رسائل محبرة .

حتى إذا ولي مصر أحمد بن طولون وأسس بها دولته الطولونية وامتد سلطانه إلى الشام وعلا شأنه أقام ديوان الإنشاء ورفع مقداره كما يقول القلقشندي <sup>(٣)</sup> ، واتخذ فيه جماعة من مهرة الكتاب على رأسهم أحمد بن محمد بن مودود المعروف باسم ابن عبد كان . ويشهد اسمه بأنه فارسي الأصل ، إذ الكاف في الفارسية القديمة تدل على التصغير والألف والنون على النسبة ، فعبد كان يقابلها في العربية عبيدى . وقد ظل قائما على ديوان الإنشاء بعد وفاة ابن طولون في عهد ابنه خiarوية حتى توفي فخلفه على الديوان إسحق بن نصير الكاتب البغدادى .

وابن عبد كان بيتدى بمصر سلسلة كتابها المشهورين ، ودوت شهرته منذ زمنه لا في مصر وحدها بل أيضا في العراق ، إذ نجده بعد نحو قرن من الزمان يُقرن إلى أبي إسحق الصابى كاتبها حينئذ . وإذا رجعنا إلى رسائله الديوانية وجدناه يُعنى فيها بالسمع . وقد يتخفف منه فيستخدم

(١) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ( طبع )  
دار المعارف ص ٣٤٥ وما بعدها .  
(٢) صبح الأعشى ١/٩٥  
(٣) صبح الأعشى ١/٩٥ ، ٢٨/١١ .

الازدواج من حين إلى آخر ، وسجمه خفيف . ويمده بغير قليل من التصاوير<sup>(١)</sup> ، وتوقف القلقشندی في كتابه صبح الأعشى ليدكر عنه كيف وضع رسوم الدعاء في افتتاح الرسائل وكيف تبتدئ أجوبة الكتب<sup>(٢)</sup> . وكان أهل بغداد في زمنه يغبطون عليه مصر ، ويقولون إن بها كاتباً - يقصدون ابن عبد كان - ليس لأمر المؤمنين بمدينة بغداد مثله<sup>(٣)</sup> . وكانت رسائله متداولة بين الكتاب حتى زمن ياقوت في القرن السابع الهجري<sup>(٤)</sup>

ونخصى إلى زمن الدولة الإخشيدية وقد ترتب ديوان الإنشاء وكثر الكتاب فيه ، غير أن أحدا منهم لم يشتهر شهرة ابن عبد كان ، ومن كتاب الديوان حينئذ إبراهيم بن عبد الله النجيمي ، واشتهر برسالة طويلة له ، ردّها على رومانوس حاكم بيزنطة ، وكان قد أرسل إلى الإخشيد رسالة يفتخر فيها ويمنّ عليه بأنه كاتبه وعادته أن لا يكتاب إلا خليفة ، فكال له النجيمي الصاع صاعين ، ولإعجابه برسالته كتب منها نسخا وأرسلها إلى العراق مفاخرًا بها مباحيا<sup>(٥)</sup>

ويستولى الفاطميون على مقاليد الأمور بمصر منذ منتصف القرن الرابع الهجري ويعظم ديوان الإنشاء في زمانهم لاتساع دولتهم من أقاصى المغرب إلى نهر الفرات وامتداد سلطانهم إلى الحجاز واليمن وأيضاً لأنهم كانوا أصحاب نخلة شيعية غالبية اتخذوا لها دعاة كثيرين في العالم العربي ونظموا الدعوة لها تنظيمًا دقيقاً ، فكان من الطبيعي أن يهتموا اهتماماً واسعاً بديوان الإنشاء القائم على كل شئون الدولة السياسية والإدارية والمذهبية ، وفي ذلك يقول القلقشندی : « لما ولي الفاطميون مصر صرفوا مزيد عنايةهم لديوان الإنشاء وكتّابه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع في الآفاق ذكره ، ووليه عنهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمي<sup>(٦)</sup> » . وكانت لصاحب هذا الديوان منزلة كبرى لدى الفاطميين ، فكان لا يتولاه - كما يقول القلقشندی - إلا أجلّ كتاب البلاغة ، ويخاطب بالأجلّ ويلقب بـ « كاتب الدست » ، والدست صدر المجلس إشارة إلى أنه في الصدر من مناصب الدولة « وكان أول أرباب الإقطاعات في الكسوة والرسوم والملاطفات .. وله حاجب من الأمراء والشيوخ ، وله في مجلسه المرتبة العظيمة والمخاد والمسدن والدواة العظيمة

(٥) المغرب في حلى المغرب لابن سعيد : القسم الخاض

بالفسطاط (طبع جامعة القاهرة) ص ١٦٧ وما بعدها .

(٦) صبح الأعشى ٩٦/١ .

(١) الفن ومناهبه في النثر العربي ص ٣٤٩ وما بعدها .

(٢) صبح الأعشى ١٦٠/٨ وما بعدها .

(٣) صبح الأعشى ١٧/٣

(٤) معجم الأدباء ٨٥/٦ .

الشأن ، ويحمل دواته أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة ،<sup>(١)</sup> . وكانت تساعده طائفة من الكتاب البلغاء . وبلغ من اهتمام الفاطميين بهذا الديوان أن ألحقوا به دائماً أكبر النحاة واللغويين في أيامهم لمراجعة الرسائل قبل صدورها من الديوان ، ومن اختاروه لذلك ابن بابشاذ كبير نحاة مصر ولغويها في القرن الخامس الهجري وخلفه في مكانه ابن بركات من تلاميذه ، حتى إذا توفي خلفه ابن برّي اللغوي المشهور ، إلى نهاية أيام الدولة الفاطمية<sup>(٢)</sup> . وكان يلتحق بالديوان بعض الشباب للتدريب فيه على تجويد الكتابة ، حتى إذا جودها شاب وأتقنها أصبح من كتّابه على نحو ما حدث<sup>(٣)</sup> للقاضي الفاضل بأخرة من زمن الفاطميين .

وتظل لديوان الإنشاء مكانته في عهد الأيوبيين ، ويتولاه لصالح الدين القاضي الفاضل مع قيامه على وزارته ، ويشرك معه العباد الأصهباني في الكتابة ، وكان صاحب الديوان حينئذ يسمى كاتب الدُست وكاتب الدُرَج وهو الورق الذي يكتب فيه . واتسع عمل هذا الديوان اتساعاً كبيراً في عهد الماليك ، مما جعل الظاهر يبصر يعين ثلاثة كانوا أصحاب الدُست ، حتى إذا تحولت السلطة إلى قلاوون سمي صاحب الديوان كاتب السر<sup>(٤)</sup> . ورفع منزلته فوق كتاب الدست . وجعلهم أعلى درجة من كتاب الدرج ، وكان في كل ولاية كبيرة لمصر ديوان إنشاء : في الإسكندرية وفي دمشق وغير دمشق . وظل هذا الديوان قائماً إلى نهاية عصر الماليك ، حتى إذا تبعت مصر الدولة العثمانية ضاعت منزلته نهائياً وأصبح أثراً بعد عين .

وفي صبح الأعشى للقلقشندي ثبت بأسماء من تولوا رئاسة هذا الديوان حتى زمنه<sup>(٥)</sup> سنة ٨٢١ وأضاف إليه ابن تغرى بردى من تولوه حتى أيامه<sup>(٦)</sup> سنة ٨٦٥ وأتمه السيوطي حتى نهاية القرن التاسع الهجري<sup>(٧)</sup> ، ووراء هؤلاء الرؤساء كتاب كثيراً ما بدؤوا من كانوا يكتبون بين أيديهم وهم كثيرون . ومربنا أن ابن عبد كان الذي وضع رسوم الكتابة الإنشائية بمصر لزمن الطولونيين كان يعنى بالسجع فإن تركه فإلى صور من الازدواج ، وظل كتاب الدولة الفاطمية في القرن الرابع الهجري يترسمون طريقتة ، فهم يسجعون ويزاوجون على نحو ما يلاحظ في الكتب التي كانت تصدر عن المعز والعزیز ، ويبدو أن ابن سورين المسيحي كاتب العزيز والحاكم كان يعنى بالسجع

(٥) صبح الأعشى ٩١/١ وما بعدها

(١) صبح الأعشى ١٠٢/١

(٦) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٣٣٤/٧ وما

(٢) انظر كتابنا « المدارس النحوية » طبع دار المعارف

بعدها

ص ٣٣٨

(٧) حسن المحاضرة ٢٣٠/٢

(٣) ابن خلكان ٢٢٠/٧

(٤) السلوك للمقرئزي ٦٦٦/١ وابن تغرى بردى ٣٣٢/٧

كثيراً<sup>(١)</sup> : وإذا مضينا إلى القرن الخامس الهجري ، وجدنا كتابا يصدر على لسان الخليفة الظاهر سنة ٤١٤ مسجوعا كله ، وربما كان الذى كتبه أحمد بن على بن خيران الملقب بولى الدولة ، وكان بلى ديوان الإنشاء فى عهد الظاهر (٤١١-٤٢٧هـ) والمستنصر إلى وفاته سنة ٤٣١ ، وكان كاتباً شاعراً ، وكان يعتدُّ بشعره وكتابه مما جعله يرسل إلى الشريف المرتضى ببغداد جزءين من شعره ورسائله ليعرضها على الأدباء هناك ، فإن استحسنوهما خلدهما له بمكتبة دار العلم ، وأعجب هلال بن المحسن الصائبي فيما يبدو برسائله<sup>(٢)</sup> . ويقول ابن سعيد فى المغرب : « وقفت على رسائله فى مجلدين . وأكثرها من طبقة المغسول »<sup>(٣)</sup> . ويسوق له رسالة عن الظاهر مسجوعة ، ويبدو أن ابن سعيد بالغ فى الحكم عليه ، أو لعله وجد عنده السجع فقط ولم يجد سجعه يزدان بألوان البديع ، ولذلك قال إن رسائله مغسولة أى من زينة البديع ومحسناته ، ومع ذلك فقد روى له قوله فى فصل من إحدى رسائله : « وكان قلمك يَجِفُّ<sup>(٤)</sup> ولا يَجِفُّ ، وسيفك من ذوى العناد يَكِفُّ<sup>(٥)</sup> ولا يَكِفُّ ، ووزنك فى سدِّ ثَمِّ الفساد يَرَجح ولا يَجِفُّ . والجناس واضح بين يَجِفُّ ويَجِفُّ وبين يَكِفُّ ويَكِفُّ وقد طابق بين يرجح ويحف مما يدل على أن ابن خيران لم يكن يحلى سجعه من محسنات البديع ، فهو ليس مغسولاً دائماً كما يقول ابن سعيد .

ولعل أهم كاتب خلف ابن خيران بديوان الإنشاء فى القرن الخامس الهجري ابن أبى الشخباء ولم يكن من رؤساء الديوان بل كان من الكتاب فيه ، وسترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية . واشتهر ابن الصيرفى فى إثره إذ تولى ديوان الإنشاء فى عهد الأمر (٤٩٥-٥٢٤هـ) وسترجم له عما قليل . وكان يكتب معه ابن قادوس المار ذكره بين الشعراء ، ومازال يرقى فى الديوان حتى أسند إليه الديوان مع الموفق بن الخلال إلى وفاته سنة ٥٥١ . وكان يعمل معه لزم بن الصيرفى الحسن بن زيد الأنصارى وهو حفيد ابن أبى الشخباء من قبل أمه ، وكان كاتباً بليغاً واحتفظ العماد الأصهبانى بطائفة من رسائله الديوانية والشخصية<sup>(٦)</sup> . وقام على ديوان الإنشاء حتى نهاية الدولة الفاطمية الموفق بن الخلال وفى صبح الأعشى بعض رسائله<sup>(٧)</sup> ، وعلى يديه تحرَّج القاضي الفاضل

(١) المغرب فى حل المغرب (القسم الخاص بالقاهرة -

طبع . مطبعة دار الكتب) ص ٢٤٩

(٢) معجم الأدباء ٥/٩ وما بعدها

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٢٤٧ .

(٤) يحف : يسرع . وفى الأصل يوجف

(٥) يكف : يسيل .

(٦) الحريدة (قسم شعراء مصر) ٧٣/٢ .

(٧) صبح الأعشى ٣١٠/١٠ و٣١٦ وانظر فى ترجمته

الحريدة ٢٣٥/١ وابن خلكان ٢٢٠/٧ وشعرات الذهب

٢١٩/٤ .

في صناعة الرسائل . وظل يرعى له حق التعليم والتخريج إلى أن توفي سنة ٥٦٦ للهجرة . وكان القاضي الفاضل صاحب ديوان الإنشاء ووزير صلاح الدين وابنه العزيز ومقاليذ الأمور كلها بيده فأشرك معه العماد الأصبهاني كما أسلفنا ، وسنترجم لها بعد قليل ، ومن كتاب الأيوبيين في عهد الفاضل ابن ممتى وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية ، وكتب من بعدهما للأيوبيين جماعة ، منهم البهاء زهير الشاعر الذي ترجمنا له ، ولم تؤثر له رسائل مدونة ، وأشرك معه إبراهيم بن لقمان لعهد الصالح نجم الدين أيوب . ولم يلبث الصالح أن أعنى البهاء ، وظل ابن لقمان حتى نهاية الدولة الايوبية ، وامتازت الكتابة الديوانية في العهد الأيوبي بأنه تكوّنت فيها مدرسة جديدة قادها القاضي الفاضل ، والحق أنها ليست جديدة خالصة ، فهي الثمرة النهائية لرقى الكتابة زمن الفاطميين ، إذ نرى الفاضل يكثر من المحسنات البديعية ، وكانت قد بدأت مع ابن خيران كما مر بنا ، وأضاف الفاضل إليها الإكثار من التورية ، وهي أيضا قديمة في الكتابات والأشعار الفاطمية منذ القرن الخامس على نحو ما مر بنا في حديثنا عن أشعار الشريف العقيلي . وألف في العصر الأيوبي كتابان في دواوين الخراج وشؤونها المالية هما كتابا قوانين الدواوين لابن ممتى ، وسنعرض له في ترجمته عما قليل ، وكتاب لمع القوانين المضيئة في دواوين الديار المصرية لعثمان بن إبراهيم النابلسي ، وكان كاتباً في دواوين مصر لعهد السلطان نجم الدين الأيوبي (٦٣٧-٦٤٨هـ) . وبلغنا إبراهيم<sup>(١)</sup> بن لقمان على ديوان الإنشاء أيام المماليك في عهد أيلك وقطز وبيبرس ومدة قليلة في عهد قلاوون ثم نقله إلى الوزارة ، وظل وزيرا لابنه خليل . ثم عاد كاتباً في ديوان الإنشاء إلى أن توفي سنة ٦٩٣ . وكان يشاركه في عهد الظاهر بيبرس محيي الدين بن عبد الظاهر ، وهو أهم كتاب المماليك ، وجعله قلاوون كاتب السر ، ووظيفة أنشأها لأول مرة ، وسنترجم لابن عبد الظاهر ، ومن كان يكتب بين يديه في الديوان ابنه فتح<sup>(٢)</sup> الدين . وخلفه على كتابة السر لعهد السلطان خليل بن قلاوون ، وكتب بين يديه أيضا سيئطه شافع<sup>(٣)</sup> بن علي بن عباس ، وهو الذي كتب عن السلطان قلاوون رسالة طويلة إلى السلطان أحمد القان بن هولاكو جواب كتاب كان قد أرسله القان إلى قلاوون يذكر فيه إسلامه وأنه حُرّم على عساكره الغارات على البلاد<sup>(٤)</sup> .

٤١٩/٥ .

(١) انظر في ابن لقمان صبح الأعشى ١١١/١٠ والنجم

الزاهرة ٥٠/٨

(٣) راجع ترجمته في فوات الوفيات ٣٧٦/١ .

(٢) انظر في فتح الدين حسن المحاضرة ٥٧٠/١ والنجم

(٤) صبح الأعشى ٣٣٧/٧

الزاهرة ٣٥/٨ وصبح الأعشى ٣٣٩/١٣ وشنرات الذهب

ويلمع في رئاسة ديوان الإنشاء بمصر ودمشق منذ عهد السلطان خليل المتوفى سنة ٦٩٣ حتى نهاية القرن الثامن غير كاتب من أسرة فضل الله العمري . وأول من ولي كتابة السر منها أو بعبارة أخرى رئاسة الديوان عبد<sup>(١)</sup> الوهاب بن فضل الله العمري ، وظل يشغل هذه الوظيفة حتى العقد الثاني من القرن الثامن إذ نقله الناصر بن فلاوون إلى دمشق ووليا بعده من الأسرة في سنة ٧٢٩ أخوه<sup>(٢)</sup> محيي الدين يحيى ، وكان يشركه في كتابة السراينة شهاب الدين أحمد ، وفي سنة ٧٣٢ نقلها الناصر فترة قليلة إلى دمشق ولم يلبث أن أعادها فظلا على كتابة السر حتى سنة ٧٣٨ إذ تغير الناصر على شهاب الدين وأقام مقامه أخاه<sup>(٣)</sup> علاء الدين ، وظل في الوظيفة حتى سنة ٧٦٩ وتولاها بعده ابنه بدر الدين<sup>(٤)</sup> إلى أن توفي سنة ٧٩٦ .

ومن الكتاب المهمين المعاصرين له ابن مكنس ، وسترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية . ويلمع في أوائل عهد المماليك البرجية اسم القلقشندى صاحب صبح الأعشى ، ولم يتول كتابة السر ولكنه ألمع كاتب بالدواوين في زمنه وسترجم له بين كتّاب المقامات . ويتولى رئاسة ديوان الإنشاء غير كاتب مصري وشامى ويتوقف النشاط فيه مع دخول العثمانيين مصر كما أسلفنا . ونعرض طائفة من أنه كتابه .

### ابن الصيرفي<sup>(٥)</sup>

هو علي بن منجب بن سليمان ولد بالقاهرة سنة ٤٦٣ وكان أبوه صيرفيا ، بينما كان جده معدودا بين كتّاب زمنه . ولعله هو الذى وجّهه إلى اتخاذ الكتابة الديوانية حرفة له . ولا بد أنه جمع له من أسبابها وأدواتها الثقافية ما جعله يتقنها سريعا ، والتحق بديوان الجيش وعنى به صاحبه صاعد بن مفرج ، وعمل في ديوان الخراج . وتنبه له وزير مصر لأيامه الأفضل بن بدر الجمالى (٤٨٧-٥١٥هـ) فنقله إلى ديوان الإنشاء ، وأعجب به متوليه سناء الملك أبو محمد الحسنى

المخاضرة ٦٠٤/١ وصبح الأعشى ٩٧/١ ، ٢٣٧/٨ -  
٢٤١ ، ٣١٦ - ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ ، وخطط المقرئى  
٢١٤/٢ والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة - طبع دار  
الكتب المصرية) ص ٢٥٢ وراجع كتابه قانون ديوان  
الرسائل (طبع مصر) والإشارة إلى من نال الوزارة (طبع  
المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة) .

(١) النجوم الزاهرة ٢٤٠/٩  
(٢) انظر ترجمته في فوات الوفيات ٤٦/٢  
(٣) النجوم الزاهرة ١٠٢/١١  
(٤) النجوم الزاهرة ١٤٠/١٢ .  
(٥) انظر في ابن الصيرفي وترجمته ورسائله معجم الأدياب  
٧٩/١٥ وتاريخ مصر لابن ميسر في مواضع مختلفة وحسن

الزيدى ، فأُسند إليه كتابة التقاليد والمراسيم والتوقيعات ، حتى إذا توفى الخليفة الفاطمى المستعلى سنة ٤٩٥ وولّى الأفضل الجمالي ابنه الأمر (٤٩٥-٥٢٤هـ) وهو فى الخامسة من عمره حينئذ نرى ابن الصيرفى هو الذى يكتب السجل بوفاة المستعلى وولاية الأمر . ويُقرأ سجله على رءوس كافة الأجناد والأمراء . ويضيف إلى ذلك كتابا عن الأمر عند استقراره فى الخلافة بعد أبيه بأنه فوّض إلى الأفضل الجمالي وزيره تدبير شئون الدولة والرعية . ويكتب كتابا ثانيا إلى ولاة الأطراف بعد كتابة السجل أو العهد وتفويض الأمور إلى الأفضل مهنتاً فيه بخلافة الأمر وتجديد ولايته . ويسجل القلقشندى فى صُبحه طائفة أخرى من كتب ابن الصيرفى فى البشارة بسلامة الخليفة فى مواسم رمضان إذ كانت تكب فى مواكب الجمعة الأولى والثانية والثالثة وكذلك فى عيد الفطر وعيد النحر ، وحذف القلقشندى من تلك الكتب اسم الخليفة ، وقد ظل يعمل فى ديوان الإنشاء لعهد الأمر برياسة الشيخ ابن أسامة ، حتى إذا خلفه فيه ابنه أبو الرضا شركه فى رياسة الديوان ، ثم انفرد برياسته لعهد الحافظ (٥٢٤-٥٤٣هـ) . ويبدو أنه ظل يعمل فيه حتى توفى سنة ٥٤٢ . ويذكر ياقوت أنه توفى لأيام طلائع بن زريك وزير الخليفة الفائز بعد سنة ٥٥٠ ولعل التاريخ الأول لوفاته هو الصحيح .

وكان ابن الصيرفى كاتباً بليغاً بل يُعدّ أبلغ الكتاب المصريين زمن الفاطميين ، وفيه يقول ياقوت : «أحد فضلاء المصريين وبلغاتهم مسلّم ذلك له غير منازع فيه . . . وله رسائل أنشأها عن ملوك مصر تريد على أربع مجلدات» ويشيد ابن سعيد فى المغرب ببلاغته قائلاً : «وقعت على ترسله فى مجلدات عدة ، فوجدت [القاضى] الفاضل البيسانى ينسج على منواله ويتزج منزعه» وسنعرّف عما قليل أن القاضى الفاضل أربع كتاب مصر فى هذا العصر . وتتضح مهارة ابن الصيرفى البيانية فى أول كتاب احتفظ له القلقشندى به ، وهو السجل الذى كتبه على لسان الأمر بوفاة الخليفة المستعلى وولايته الخلافة بعده سنة ٤٩٥ وقد استله بحمد الله والصلاة على الرسول وعلى آله الطيبين الطاهرين الأئمة المهديين ، يقصد آباءه من الخلفاء الفاطميين ، ويقول إن الله استرعى الأئمة هذه الأمة مشيراً بذلك إلى أن الله اصطفاها لهداية الناس ، ويصلّى على جدّه لأبيه على بن أبى طالب ، ويقول «إن الله أكرمه بالمتزلة العلية ، وانتخبه للإمامة رافة بالبرية ، وخصّه بغوامض علم التنزيل ، وجعل له مبرة التعظيم ومزية التفضيل» . وكل ذلك ترداد لما كان يبدىء الفاطميون فيه ويعيدون من تفضيل على بن أبى طالب على أبى بكر وعمر وغيرهما من جلة الصحابة ، وأن الله خصه بعلم فوق العلم الدينى المعروف للأمة ، به يعرف المعنى الحقيقى للقرآن أو المعنى الخ:

يعلو على الفهم العادى ، ويشيد ابن الصيرفى على لسان الأمر بنشر أبيه المستعلى للعدل بين الرعية ، ويصور فداحة الرزة به والفضيحة فيه ثم يقول :

« وقد كان الإمام المستعلى بالله - قدس الله روحه - عند نقلته ، جعل لى عقد الخلافة من بعده ، وأودعنى ما حازه من أبيه عن جده ، وعهد لى أن أخلفه فى العالم ، وأجرى الكافة فى العدل والإحسان على منهجه المتعالم ، وأطلعنى من العلوم على السر المكنون ، وأفضى لى من الحكمة بالغامض المصون ، وأوصانى بالعطف على البرية ، والعمل فىهم بسيرته المرضية ، بما جبلنى <sup>(١)</sup> الله عليه من الفضل ، وخصنى به من إيثار العدل ، وإنى - فيما استرعىته - سالك منهاجه ، عامل بموجب الشرف الذى عصب الله لى تاجه . »

والسجل أو العهد كله بهذه اللغة الصافية المسجوعة ، لا غرابة فى كلمة ولا نبوى لفظ ، بل ينساب الكلام فى فيض من البراعة البيانية ، وفيه يقرر ابن الصيرفى على لسان الأمر أن الخلافة انتقلت لى بالوراثة عن آبائه ، وأن أباه عهد لى بها ، فهو يخلفه عن عهد أو وصية ، وعند الفاطميين وجميع الشيعة أن الرسول أوصى بالخلافة لى وأنها تنتقل بالوصية من الأب لى الابن . ويقول ابن الصيرفى على لسان الأمر إن الله أطلع من العلوم على السر المكنون ومن الحكمة على الغامض المصون ، مشيراً بذلك لى عقيدة الفاطميين فى أن الأئمة يتميزون من الناس بعلم بطنى يتوارثه إمام بعد إمام متقللاً من جيل لى جيل ، وهو عندهم علم لا يشمل أمور الدين وحقائقه فحسب ، بل أيضاً يتسع ليشمل حوادث العالم حتى يوم القيامة ، وهو ما يفرض لهم على الناس طاعة واجبة لا تحدها حدود ، طاعة بدون قيد أو شرط .

وتوالى كتب ابن الصيرفى فى الجزء الثامن من صبح الأعشى يكتبها فى وصف خطابة الأمر وصلاته فى جمع شهر رمضان وفى عيد الفطر وعيد النحر أو الأضحى وفى وفاء النيل . ولا نراه يعود لى مثل الإشارات السالفة للعقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ويبدو أنه لم يكن غالباً فى العقيدة أو لى القلقشندى حذف مما دونه من كتبه ورسائله غلوه . ولم يكن كاتباً بليغاً يكتب الرسائل الديوانية فحسب ، بل كان أيضاً يكتب رسائل أدبية طريفة ، وقد أشار لى ابن سعيد فى المغرب حين قال : « له تصانيف مشهورة صغار ظراف » ويبدو أنه كان قد صنفها للوزير الأفضل بن بدر الجهمالى صاحب الأيدى السابعة عليه ، وله فيه إشادات مختلفة سجلها فى رسائله الديوانية التى

(١) جبلنى : خلقنى .

أشرنا إليها وردّها مرارا وتكرارا ، وقد ذكر ابن سعيد من تصانيفه كتاب « لَمَحَ المَلْح »<sup>(١)</sup> وأورد من نثره فيه قوله :

« جرت العادة في الغطاس ، إعمال الكاس والطاس ، وهذه الآلة - إذا فقدت الراح - بمنزلة أجسام عدمت الأرواح ، فداو بإحيائها قلبا لى قرحا ، وإذا كانت عازر فكنّ مسيحا » .  
والغطاس عيد من أعياد القبط بمصر كان يحتفل بيلته النصرارى والمسلمون فى الحادى عشر من شهر طوبة أشد أشهر الشتاء برودة ، وكانوا يكثرن فيه من الملاحى فى الزوارق بالنيل وعلى شاطئيه كما كانوا يكثرن من إيقاد المشاعل والفوانيس مع الاستماع إلى المغنين والمغنيات . وواضح أن ابن الصيرفى يشير إلى ما كان يتخذ فى هذا العيد من اللهو وشرب الخمر فى أوعيتها من الكاس والطاس ، ويقول إن هذه الأوعية إن لم تملأ بالخمر أو الراح كانت أجساما بدون أرواح . وكأنه يطلب خمرا من صديق ، فيقول له : داو بإحيائها قلبا لى جرحا ، يطلب منه أن ييث فى دنانه الحياة التى عدمتها بفقدانها الراح . ويقول إنها أصبحت مثل الميت المعروف باسم عازر الذى أحياه المسيح ، فأحيها وابعثها من جديد . ويذكر ابن سعيد من رسائل ابن الصيرفى الأدبية التى صنفها للأفضل الجمالى رسالة بعنوان « منائح القرائح » وينقل من صدرها قوله :

« أولى ما تُقَرَّب به إلى الله تعالى الإكثار من تحميده ، والإقرار بربوبيته وتوحيده ، والصلاة على نبيه محمد الذى عَصَدَه بتأييده ، وخصَّه من الشرف بما لا سبيل إلى تحديده<sup>(٢)</sup> ، وعلى آله الممنوحين من الفضل ما يعجز الواصف عن تعديده ، ثم التوسل إلى ملوك كل وقت بشكر نعمتهم ومواصلة خدمتهم ، وشهر خصائصهم التى امتازوا بها عن العباد ، وذكر مناقبهم التى سارت فى الأقطار ونَقِبَت<sup>(٣)</sup> فى البلاد ، والاجتهاد فيما نفقت<sup>(٤)</sup> بشريف مقاماتهم سوقه ، والاعتماد على مآظهن سُمُوقة<sup>(٥)</sup> فى البلاغة وُسُوقة ، ولاخلاف أن سلطان هذا العصر ، والمخصوص من الفضائل بما لا يدخل تحت الحصر ، مالكننا السيد الأجلّ الأفضّل أمير الجيوش سيف الإسلام ، ناصر الإمام » يقول ابن سعيد : وأخذ فى الاطناب على الأفضّل . ويذكر أنه قال من تمة تقدمته لتلك الرسالة :

(٤) نفق : راج .

(١) فى المغرب (قسم القاهرة) : ملح الملح .

(٥) سموقة وبسوقه : ارتفاعه

(٢) فى المغرب : تجديده

(٣) نقبت : ذهب وشاعت .

« فيجب على كل من صَفَتْ فكرته ، وصَحَّت فِطْرته ، وأمكنه استنباط معنى غامض ، واستدلَّ على المحاسن ببيْرِفها الوامض ، وعرف موضع الفضيلة فيما يضعه <sup>(١)</sup> من تصنيف ، وعلم موقع الوسيلة به إلى كل موقف شريف ، أن يُظهر كامن قُوته ، ويُعمل مطايا رَوِيَّته ، فيما يخدم مجلسه <sup>(٢)</sup> العالی به ، مما يُطرب مورده ومسموعه ، ويعجب مؤلفه ومجموعه » .

وواضح أن ابن الصيرفي كان يحسن الكتابة إحسانا بعيدا ، دون أى غرابة في لفظ ، بل مع السهولة واليسر ، فسجعه خفيف لا غلظ فيه ولا كزازة ، وكأنه يفيض من ينبوع غلِق ، شرابا يمتع النفس . وكان يوشيه أحيانا بالألفاظ القرآنية مثل قوله عن المناقب إنها « نُقِبَتْ في البلاد » أى مضت وانتشرت أخذًا من قوله تعالى : ( فنقبوا في البلاد هل من محيص ) . واقتباسه للألفاظ والآيات القرآنية واضح في رسائله . وكثيرا ما يوشى سجعهم بالمحسنات البديعية وخاصة الاستعارة والتشبيه والجناس والطباق . وأورد ابن سعيد لُغْزاله في السيف على هذا النحو : « يبالغ في شكره إذا أقصد <sup>(٣)</sup> وجرح ، وتقبل في تركيته شهادة المجرح » . وفي كلمتي التزكية والمجرح توريتان واضحتان فللتزكية معنيان . التعديل من قولهم زكى الشهود أى علّمهم ، وهو المعنى القريب للكلمة بدليل كلمة الشهادة . والمعنى الثانى بعيد ، وهو الإطراء وهو المراد ، وكذلك لكلمة المجرح معنى قريب بدليل كلمة الشهادة وهو الذى لا تقبل شهادته . ومعنى ثان بعيد وهو المجرح بالسيف في الحرب ، وهو أيضا المراد . ولعل في هاتين التوريتين ما يدل على أن ابن الصيرفي كان يستظهر التورية في نثره أحيانا ومرّ بنا أن شعراء القرن الخامس وفى مقدمتهم الشريف العقبلى كانوا يستخدمونها كثيرا . وتبعهم في ذلك الكتاب كما نرى الآن عند ابن الصيرفي . وبذلك يتبين خطأ ابن حجة الحموى حين زعم أن القاضى الفاضل هو الذى ذلل من التورية الصعاب وأنزل الشعراء بساحتها ورحابها <sup>(٤)</sup> فقد نزلها شعراء الدولة الفاطمية من قبله وكتّابها ، وبهديم اهتدى القاضى الفاضل ، وعن قوسهم رمى .

ولابن الصيرفي كتابان مطبوعان موجزان هما : قانون ديوان الرسائل ، وكتاب الإشارة إلى من نال الوزارة . والكتاب الأول في نظام ديوان الرسائل وبيان ما ينبغي أن يتحل به رئيسه وموظفوه من ثقافات وصفات مميزة ، وبه مقتطفات من بعض رسائله وهو كتاب نفيس . والكتاب الثانى

(٣) في المغرب : أفسد ، وأقصد السهم : أصاب

(١) في المغرب : يصنّفه .

(٤) خزانة الأدب للحموى ( طبعة بولاق ) ص ٦٧

(٢) في المغرب : عمله .

يُورخ في إجمال لوزراء الدولة الفاطمية ، وهو مع إجماله بالغ الأهمية التاريخية . وأنشد ياقوت لابن الصيرفي بعض أشعار ، وهي تدل على أن ملكته النثرية كانت أخصب من ملكته الشعرية .

### القاضي<sup>(١)</sup> الفاضل

هو عبد الرحيم بن علي بن حسن اللخمي أصلاً ، العسقلاني مولداً ، اليّساني نسبة إذ كان أبوه يتولى قضاء بيسان بفلسطين للفاطميين فُنسب إليها . ويذكر بعض من ترجموا له أنه ولد سنة ٥٢٩ وأكبر الظن أنه ولد قبل هذا التاريخ . كما سزى بعد قليل . وكان طبيعياً أن يُعنى أبوه بترتيته ، وبدأ بإرساله إلى كُتّاب أو مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم ، وحفظه وحفظ كثيراً من الأشعار . ويبدو أن الأب أحسَّ بميل ابنه إلى الأدب ، فرأى أن يرسل به إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة ليتدرب فيه على الكتابة ، وفرح الابن برغبة أبيه : أن يصبح من كُتّاب الدواوين الفاطمية ، فسافر إلى حاضرة الفاطميين لمعهد الخليفة الفاطمي الحافظ ( ٥٢٤ - ٥٥٣هـ ) ويقول الرواة إنه كان في الخامسة عشرة من عمره ، ونظن ظناً أن سنه كانت أعلى من ذلك على الأقل ستين أو أكثر حتى يتسنى له أن يهاجر من بيسان إلى القاهرة ، وقد اشتد عوده قليلاً وخاصة أنه كان أحذب ضعيف البنية . ويقول الرواة إنه حين ألمّ بديوان الإنشاء كان يرأسه الموفق بن الخلال أحد كتاب مصر المبدعين ، وكان يشركه في رياسته ابن قادوس الذي ترجمنا له بين الشعراء ، وظلت لهما الرياسة حتى توفي ابن قادوس فانفرد بها الموفق بن الخلال حتى نهاية الدولة الفاطمية . وعُنِيَ به الكاتبان الكبيران ، وخاصة الموفق بن الخلال ، ويقول القاضي الفاضل إنه سأله في أول لقاء له : ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فأجابه ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة ، فقال له . في هذا بلاغ ثم أمره بملازمته فكثرت يتردد إليه ويتدرب بين يديه ، وأمره الموفق بحلّ شعر ديوان الحماسة ، فحلّه من أوله إلى آخره ، ولم يزل ابن

(١) انظر في ترجمة القاضي الفاضل ورسائله وشعره عبر الذهبي ٢٩٣/٤ وابن خلكان ١٥٨/٣ وطبقات الشافعية للسيكي ١٦٦/٧ وحسن المحاضرة للسيوطي ٥٦٢/١ والحريدة للمعاد الأصهباني (قسم شعراء مصر) ٣٥/١ والنجوم الزاهرة ١٥٦/٦ وشذرات الذهب ٣٢٤/٤ ونهاية الأرب ١/٨-٥١ وصبح الأعشى (انظر الفهرس) وراجع

الكب التاريخية في زمنه وخاصة كتاب الروضتين . ونشر له د . أحمد بدوي ديوانه ومختارات محي الدين بن عبد الظاهر من نثره باسم الدر التنظيم من ترسل عبد الرحيم . وله فيه كتاب بعنوان : القاضي الفاضل : دراسة ونماذج ، وانظر كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ٣٦٨ .

الخلال يدربه حتى أتقن فن الكتابة . ويبدو أنه أحس أن المكانة التي يريد لها لنفسه في ديوان الإنشاء بالقاهرة من الصعب تحقيقها سريعاً لكثرة منافسيه فيه ، فرحل إلى ابن حديد قاضي الإسكندرية ومتولى الأمر فيها لعله يحقق لنفسه ما يريد من الشهرة ، ورُحِبَ به ابن حديد وعهد إليه بالكتابة عنه وظل عنده ثمانى سنوات ، وكانت كتبه تسترعى أنظار موظفي الديوان الفاطمى لفصاحته فيها وحسن بيانه . ويقول الرواة إنها لفتت نظر العادل بن رزيك حين تقلد الوزارة للعاقد آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٥٦ فأرسل إلى ابن حديد فى طلبه ليعمل فى دواوينه ، وأرسله إليه ، ووظفه رئيساً لديوان الجيش وتوثقت الصلة بينه وبين الوزير . ويبدو أنه انتقل من ديوان ابن حديد إلى دواوين الخلافة بالقاهرة فى وقت مبكر عن خلافة العاقد (٥٥٥ - ٥٦٧) إذ نرى فى الجزء التاسع من صبح الأعشى ص ٣٧٩ عهداً من إنشائه بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة ولم يُذكر اسم الخليفة ، وآخر خليفة فاطمى تولى الخلافة بعد أبيه الفائز بن الظاهر الذى تقلدها من سنة ٥٤٩ إلى سنة ٥٥٥ ووليها بعده عمه العاقد آخر خلفائهم . وواضح أن هذا العهد يؤكد أن القاضى الفاضل عمل فى دواوين القاهرة على الأقل فى عهد الفائز بل لا بد أن يكون قد عمل فيها قبله فى عهد أبيه الظاهر (٥٤٣ - ٥٤٩) حتى يمكن أن يكتب عنه هذا العهد . وقد استخلصه الموفق ابن الخلال رئيس ديوان الإنشاء لنفسه فكان يكتب بين يديه . ولا يلبث شاور أن يقتل العادل ويستولى على مقاليد الوزارة سنة ٥٥٨ ، وينشب خلاف عنيف بين شاور وضرغام على نحو ما مر بنا فى الفصل الأول من هذا القسم ، ويستنجد شاور والخليفة العاقد بنور الدين صاحب حلب ، ويقدم عليه شاور ويرسل معه بعساكر يقودها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وينصرانه . وسرعان ما يعرض اليد التى نصرته . وتتطور الأمور ويستعين شاور بالصليبيين مرارا ، ويستصرخ العاقد نور الدين فيرسل إليه شيركوه وابن أخيه صلاح الدين المرة تلو المرة ولكن « شاور » لا يثوب إلى رشده فيقتل به ويقتل ، ويتقلد أسد الدين شيركوه الوزارة المصرية للخليفة العاقد .

وفى هذه الأثناء كان القاضى الفاضل يكتب السجلات والتقايد والمنشورات عن العاقد بين يدي الموفق بن الخلال ، وكان قد أخذ بصرف الموفق يضعف جدا حتى أضرب ، فأصبح القاضى الفاضل هو المتصرف فى المكاتبات باسم العاقد وفى الجزء التاسع من صبح الأعشى ص ٣٧٩ عهد من إنشائه بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة ، ولم يذكر اسم الخليفة ، وأكبر الظن أنه العاقد ، وتكثر العهود والسجلات من إنشائه فى الجزء العاشر مما كتب به عن العاقد إلى القضاة

والولاية بتقلد أعمالهم ، ومن ذلك العهد الذى كتبه عن العاضد بتولى أسد الدين شيركوه الوزارة فى شهر ربيع سنة ٥٦٤ وتفويض كل شىء إليه ، وأيضاً العهد الذى كتبه عن العاضد فى نفس السنة حين توفى أسد الدين فى جمادى الآخرة بتولى ابن أخيه صلاح الدين الوزارة بعده . وكان القاضى الفاضل قد وثق الصلة به وبعمه ، وأنس به صلاح الدين وتمكن منه غاية التمكن كما يقول ابن خلكان ، فلم يكف له برياسته لديوان الإنشاء ، بل اتخذه وزيراً ، قلما يبرم شيئاً إلا بعد مشورته ، وكان إذا أناب عنه أحداً من أفراد أسرته بمصر فى أثناء غزواته للصليبيين أبقاه معه لإدارة دفة السياسة ، وكثيراً ما كان يصحبه معه فى مواقفه مع الصليبيين ، وخاصة منذ منازلته لهم فى حطين وفتح القدس .

وكان القاضى الفاضل اللسان المبين لصلاح الدين طوال حكمه يكتب عنه إلى الخلفاء العباسيين والملوك والولاة مسجلاً أحداث زمنه ومبلغاً عنه عهوده وسجلاته وتوقعاته إلى كل من تشملهم راية حكمه من الإسكندرية إلى الفرات وإلى النوبة وأقصى الصعيد والحجاز واليمن . وبلغ من تقدير صلاح الدين له أن كان يقول لأصحابه ، لا تظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم ، إنما ملكتها بقلم القاضى الفاضل . وللفاضل كتب كثيرة وجه بها إليه ، تفيض بالحب والإجلال والإعزاز ، وكان حاضراً وفاته بدمشق سنة ٥٨٩ ، وبكاه بكاء مرا . وولى بعده على مصر ابنه العزيز قآزره ، وظل عنده فى نفس المكانة التى كانت له عند أبيه والرفعة ونفاذ الأمر ، وتوفى العزيز سنة ٥٩٥ وخلفه ابنه المنصور وكان صبياً فظل على ولائه له وعونه ، حتى قدم الأفضل عمه من الشام . ولم يلبث السلطان العادل أخو صلاح الدين أن قدم إلى مصر بنية أخذها من المنصور وعمه الأفضل فى سنة ٥٩٦ وكانت بينه وبين القاضى الفاضل وحشة كما يقول ابن تغرى بردى ، فدعا الفاضل على نفسه بالموت - فيما يقولون - واستجاب الله دعوته فبينما كان العادل داخلاً من باب النصر كانت جنازة الفاضل خارجة من باب زويلة .

وكان الفاضل شاعراً وله ديوان شعر مطبوع ، كما كان كاتباً ، ودوت شهرته فى الكتابة ، وعُدَّ فيها رئيس مدرسة تبعه فيها المصريون والشاميون ، وفيه يقول العماد الأصهبانى فى كتاب الخريدة : « رَبِّ القلم والبيان واللّسن واللسان ، والقريحة الوقّادة ، والبصيرة النّقّادة ، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة ، والففضل الذى ماسمّع فى الأوائل بمن لوعاش فى زمانه لتعلق بغيره ، أو جرى فى مضماره ، فهو كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع ، يخترع الأفكار ، ويفترع الأبكار ، ويطلع الأنوار ، ويبعد الأزهار » . ويقول النويرى : « إلى القاضى

انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رويت ذوو الفضائل واعترفت ، وأمام فضله ألت البلاغة عصاها ، وبين يديه استقرت به نواها ، فهو كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره ، وناسر ألوية الفضل في مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان لاحالة ، والفاضل بغير إطالة .

وفما يلي قطعة من السجل أو العهد الذي كتبه بلسان العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مسندا فيه الوزارة إلى صلاح الدين ، يقول بعد أن صور ماقلمه هو وعمه أسد الدين شيركوه للعاضد من عون متحدنا بلسان الخليفة :

« ولو لم يكن لك هذا الإسناد في هذا الحديث ، وهذا المسند الجامع من قديم الفخر وحديث ، لأغنتك غريزة ، عزيزة ، وسجية ، سجية <sup>(١)</sup> ، وشيمة ، وشيمة <sup>(٢)</sup> ، وخلائق ، فيها ماتحب الخلائق ، ونخاتر <sup>(٣)</sup> ، لم يحز مثلها حائز ، ومحاسن ، ماؤها غير آسن <sup>(٤)</sup> ، ومآثر جد غير عائر ، ومفاخر ، غفل عنها الأول ليستأثر بها الآخر ، وبراعة لسان ينسجم قطارها <sup>(٥)</sup> ، وشجاعة جنان تضطرم نارها ، وخلال جلال <sup>(٦)</sup> عليك شواهد أنوارها تتوضح ، ومساعي لديك كرائم <sup>(٧)</sup> نورها تتفتح .. وأبسط يدك فقد فوض إليك أمير المؤمنين بسطا وقبضا ، وارفع ناظرك فقد أباح لك رفعا وخفضا ، واثبت على درجات السعادة فقد جعل لحكمك تثبيتا ودحضا ، واعقد حبي <sup>(٨)</sup> العزمات للمصالح فقد أطلق بأمرك عقداً ونقضا . وانفذ فيما أهلك له فقد أدى بك نافلة من السياسة وقرضا ، وصرف أمور المملكة فإليك الصرف والتصريف ، وثقف أود <sup>(٩)</sup> الأيام فعليك أمانة التهذيب والتثقيف . »

ولما اخترت هذه القطعة من سجل أو عهد كتبه الفاضل سنة ٥٦٤ لأدل على أن خصائص منه الثرى كانت قد استوت وتهيأت له مبكرة ، وقد استهل القطعة بذكر الإسناد والحديث كأنه يريد أن يحدث تورية ، فهو لا يريد الحديث النبوي وإنما يريد ما سبق في العهد من حديث عن عم صلاح الدين وجهوده التي بذلها للخليفة الفاطمي ، وجعل لصلاح الدين إسنادا فيه لا من السند وإنما من المساندة والمساعدة ، ومضى في تورياته المتصلة بالحديث النبوي ، فجعل قديم فخر

(٦) جلال : عظام .

(١) سجية : خليقة ، وسجية الثانية : دائمة .

(٧) كرائم : جمع كريمة وهي غطاء النور والزهرة .

(٢) وشيمة : جميلة

(٨) حبي : جمع حبة ، وهي الثوب يديره الجالس

(٣) نخاتر جمع نخيرة : طبيعة .

حول ساقبه وظهره للاستناد عليه

(٤) آسن : متغير الطعم .

(٩) أود : اعوجاج .

(٥) قطارها : قطرها ومطرها .

صلاح الدين وحديثه مسندا جامعا ، وكتب المساند النبوية معروفة ومنها الجامع الصحيح للبخارى ، وقد جانس بين الحديث أى الكلام السابق وحديث بمعنى جديد والطباق واضح بين كلمتى قديم وحديث . وتتوالى سجعات قصيرة أقامها على الجناس الناقص وكان كلفا بجميع صوره . ويجانس بين خلائق بمعنى طباع والخلائق بمعنى الناس والتورية واضحة فى كلمة الخلائق . وتتوالى جناسات ناقصة وتداخلها بعض التصاوير ، فاء المحاسن غير آسن والجَدَّ أو الحظ غير عاثر . ويحاول الإغراب والابداع فى سجمه فبأى بسجعة هى كلمة مفاخر تليها سجعة طويلة يداخلها طباق بين الأول والآخر . ويوغل فى إغرابه وإبداعه ، فبأى بسجعتين تداخلها فى صدرهما سجعتان إذ يقول : « وبراعة لسان ، ينسجم قطارها ، وشجاعة جنان يضطرم نارها » .

ويعمد إلى التصوير البارع فى السجعتين التاليتين فشواهد أنوار الخلال أو الخصال تتوضح ، وكأتم نور المساعى وزهرها تتفتح . ويفزع إلى الطباق فى السجعات الخمس التالية وقد تصنع أو تكلف فى استخدامه للطباق بذكره المصطلحين النحويين : رفعا وخفضا ، ولكنه تصنع مقبول ، فقد استظهرهما فى خفة وعذوبة .

ولعل فيما قدمنا ما يصور بوضوح خصائص القاضى الفاضل فى كتابته الديوانية ، وهى كتابة فيها روح مصر التى نشأ فى دواوينها وصقل لسانه فى رسائل كتابها من أمثال ابن الصيرفى والموفق بن الخلال ، كتابة ليس فيها ثقل ولا تكلف بعيد ، بل فيها انطلاق وسهولة مع الرونق وصفاء التعبير . وتتردد فى الكتب التى ترجمت للقاضى الفاضل أو عرضت لبراعته البلاغية عبارات مضيئة بحسبها البيانى كقوله عن صلاح الدين وأسرته :

« أنتم - يابنى أيوب - أيديكم آفة أنفس الأموال ، كما أن سيوفكم آفة أنفس الأبطال ، ولو ملكتم الدهر لامتطيتم لياليه أداهم <sup>(١)</sup> ، وقلدتم بيض أيامه صوارم <sup>(٢)</sup> ، وأفنيتم شموسه وأقاراه فى الهبات دنانير ودراهم ، وأوقاتكم أعراس إلا على الأموال فهى مآتم ، والجود فى أيديكم خاتم ، ونفسُ حاتم <sup>(٣)</sup> فى نقش ذلك الخاتم » .

والقطعة تمتلئ بالاستعارات والتشبيهات الرائعة ، مع ما يحفُّ بها من الجناسات والطباقات ، ومع ما صيغت فيه من العبارات الناصعة التى تلذ الألسنة والأفئدة . ومن هذا النسيج البديع قوله من رسالة فى صفة قلعة شاهقة ، اسمها كوكب :

(١) أداهم جمع أدهم : يريد خيولا سودا معدة للحرب (٣) حاتم : جواد العرب المشهور

(٢) صوارم : جمع صارم وهو السيف .

« هذه القلعة عُقاب في عِقاب <sup>(١)</sup> ، ونجم في سحاب ، وهامة لها الغامة عمامة ، وأتملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة » .

والجناس واضح بين عُقاب بضم العين وعقاب بكسرهما ، وقد استمر في تشبيهات وتصويرات بديعة ، وقال نقاده : إن قوله : « كان الهلال لها قلامة » أخذه من قول ابن المعتز في الهلال :

ولاح ضَوْءُ هلالٍ كاد يفضحنا مثل القلامة قد قُدَّتْ من الظَّفَرِ

غير أن القاضي أضاف إلى القلامة إضافة بديعة بذكره الأتملة إذا خضبها الأصيل . ولعل في ذلك ما يشير إلى قدرته على مراعاة النظر في صياغاته ، وذلك كثير في كتاباته على نحو ما نرى الآن حين ذكر القلامة ذكر معها الأتملة والخضاب . ومن أروع رسائله رسالته ، التي كتب بها إلى الخليفة الناصر يبشره فيها بانتصار صلاح الدين على حملة الصليب في حِطَّين وفتح العظم لبيت المقدس .

وللقاضي الفاضل كثير من الرسائل الشخصية ، وستقف عندها قليلا في غير هذا الموضوع ، ومربنا أن مخطوطة فصوص الفصول المحفوظة بدار الكتب المصرية تحمل مراسلات كثيرة بينه وبين ابن سناء الملك ، وكان يتخذها ابنا روحياً له وذكرنا في غير هذا الموضوع أن بها ملاحظات ومراجعات نقدية كثيرة .

### محيي الدين <sup>(٢)</sup> بن عبد الظاهر

هو عبد الله بن عبد الظاهر المصري من بيت علم وقه وأدب ، ولد سنة ٦٢٠ وبدأ بحفظ القرآن الكريم مثل لداته ثم اختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين وأصحاب التاريخ والسير ، وأحس بميل شديد إلى الأدب وجرى على لسانه الشعر ، وأنس في نفسه قدرة أدبية ، فالتحق بالدواوين لعهد الأيوبيين ، ولم يلبث أن أظله عهد المماليك ونرى نجمه يتألق في عهد الظاهر

(١) عقاب بضم العين طائر جارح وبكسرهما جمع عقبة وهي المرق الصعب في الجبال .

(٢) انظر في محيي الدين بن عبد الظاهر وترجمته ورسائله فوات الوفيات ٤٥١/١ وتاريخ ابن كثير ٣٣٤/١٣ وشنرات الذهب ٤٢١/٥ والنجوم الزاهرة ٣٨/٨ وحسن المحاضرة للسيوطي ٤٧٠/١ و٣٦٦/٢ ونهاية الأرب : الجزء

الثامن في مواضع مختلفة وصبح الأعشى (انظر الفهرس وخاصة ١٥٦/١ و١٧٦/١ و٣٥٦/٧ و٣٦٦/٨ و٣٠٠/٨ ، ١١٧/١٠ ، ١٦٣ ، ١٦٦ و١٣٩/١٤ وراجع كتابه تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون (نشر وزارة الثقافة) .

بيبرس ، إذ يصبح رئيسا لكتاب الدُّسْت ، ثم رئيسا لديوان الإنشاء ، وتظل له هذه الوظيفة في عهد السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل حتى يلبي نداء ربه سنة ٦٩٢ . وعنه كانت تصدر العهود والسجلات والتقاليد والمنشورات والتوقيعات نحو أربعين عاما ، مما جعله يضع مصطلحات ديوان الإنشاء لزمه وبقية زمن المالك ، وكان ابنه فتح الدين على غراره مهارة بيانية ، ورفق إلى وظيفة كاتب السر لمعهد قلاوون وابنه الأشرف خليل . وهي أكبر وظيفة في الدولة حينئذ ، وسبق أباه إلى رضوان ربه بعام فحزن عليه حزنا شديدا .

وقد أشاد بمجى الدين وبلاغته معاصروه إشادات رائعة ، من ذلك قول النويري في نهاية الارب : « كان مجى الدين أجَلَ كتاب العصر ، وفضلاء مصر ، وأكابر أعيان الدُّول ، والذي اختر بوجوده أبناء عصره على الأول ، له من النظم الفائق مارق صناعة وحسنا ، ومن النثر الراقق مافاق بلاغة ومعنى ، فقصائده مدونة مشهورة ، ورسائله بأيدي الفضلاء ودفاترهم مسطورة ، وكلامه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حجة ، وطريقه في البلاغة أسهل طريق وفي الفصاحة أوضح محجة » ويقول ابن شاعر في كتابه القوات عنه : « الكاتب الناظم النائر شيخ أهل الترسل ومن سلك الطريقة الفاضلية في إنشائه » . وجمع بعض رسائل القاضي الفاضل في كتاب سماه : « الدر النظيم من ترسل عبدالرحيم » .

وكان يستخدم في كتاباته السجع ، وكثيرا ما يطيل السجعة الثانية ليضمها ما يريد من المحسنات البديعية ، وفي مقدمتها التصاوير والجناس والطباق ، وكذلك ما يريد من الاقتباسات القرآنية ومن حل بعض الأشعار ونثرها ، مع حسن الألفاظ وعذوبة الكلم . وكان يرافق الظاهر بيبرس وقلاوون والأشرف خليل في غزواتهم ، ويرسل بوصفها لملك اليمن وغيره من أصحاب السلطان وللوزراء في مصر . ومن رسائله المهمة رسالته إلى الوزير بهاء الدين بن حنا ، يصف له حروب بيبرس مع التتار وبني سلجوق واقتلاعه مدينة قيسارية من أيديهما مع ما أخذ في طريقة إليها من الحصون والبلاد ، مصورا مسيرة الجيش المصرى في جبال شامخة مذلا فيها طريقه ليعوقه عن مقصده عائق . والرسالة طويلة في نحو خمس عشرة صحيفة مدونة في الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى ، وهي وثيقة تاريخية بحروب بيبرس للتتار والسلجوقيين في ذى القعدة من سنة ٦٧٢ وفيها يقول : « سرنا لا يستقر بنا في شيء من المهالك قرار ، ولا يُقْتَدَح من غير سنابك الخيل نار ، ولا نمرُّ

على مدينة إلا مرور الرياح على الخائل في الأصائل والأبكار ، ولا نقيم إلا بمقدار ما يزيد الزائر من الأهبة ، أو يتزود الطائر من الثَّغْبَة (١) ، نسبق وَفْدَ الرِّيحِ من حيث نَسْتَحِي ، وتكاد مواطئ خيلنا بما تَسْجِبُه أذيال الصوافن (٢) تَمْحَى ، تحمل هَمْنَا الخيل العناق ، ويكبو البرق خلقنا إذا حاول بنا اللحاق ، وكلُّ يقول لسلطاننا نصره الله :

أين أزمعتَ أيُّهَذَا الهامُ نحن نبتُ الرُّبَى وأنت الغامُ

وبتنا هنالك ليلة نستحقر بالنسبة إلى شدَّتها ليلة الملسوع ، وتمنئ العين بها هجمة هجوع ، وأخذنا في اختراق غابات أشجار نخي الرقيق عن رفيقه ، وتُشغله عن اقتفاء طريقه ، يَنبَرِي منها كل غصن يرسله المتقدم إلى وجه رفيقه ، كما يخرج السهم بقوة من منجنيقه ، حولها مغائر أحجار كأنها قبور بُعْثِرَتْ ، أوجبالٌ تَفْطَرَتْ (٣) ، بينها مخاض لا بل مغائص ماخر جنا منها إلا إلى جبال قد تمنظقت بالجداول وتعممت بالثلوج ، وعُمِّيت مسالكها فلا أحدٌ إلا هو قائل : فهل إلى خروج من سبيل أو إلى سبيل من خروج ، تضيق مناهجها بمشى الواحد ، وتلتفُ شجراتها التفاف الأكام على السواعد .

وعلى هذه الشاكلة يتدفق ابن عبد الظاهر في الرسالة دون أي عائق من لفظ غريب أو أسلوب ملتو ، بل سيولة وعذوبة مع السجع الرشيق ومع ما يشاء من الجناسات والاستعارات دون أن نشعر بالكلفة أو بشيء منها ، وفي صبح الأعشى رسائل وعهود له بديعة ، منها عهد الظاهر بيبرس لابنه الملك السعيد وعهد قلاوون لابنه الملك الأشرف خليل ، وفيه ينوه ابن عبد الظاهر بالأشرف على لسان أبيه قلاوون قائلا :

هو الذي بقواعد السلطنة أدرى بقوانينها الأعراف ، وعلى الرعايا الأعطف ، وبالرعايا الأرف ، وهو الذي ما قبل لبناء ملك هذا عليه قد وهى إلا وقيل هذا خير منه ومن أعلى بناء سعدٍ أشرف ، والذي ما برح النصر يتنسّم من مهابٍ تأميلة الفلاح ، ويتبسّم ثغره فتوسم الثغور من ميسمه النجاح ، ويُقسّم نوره على البسيطة فلا مصر من الأمصار إلا وهو يشرب إلى ملاحظة جين عهده الوضاح .. والذي كم جلا بهي جبينه من بهم ، وكم غدا الملك بحسن روايته ويمن

(٣) تفتتت : تشفتت .

(١) الثَّغْبَة : الجرعة .

(٢) الصوافن : جمع الصافن وهو الفرس

آرائه يهيم ، وكم أبرأ مورده العذب هيم<sup>(١)</sup> ، ولا ينكر الخليل إذا قيل عنه إبراهيم .  
والسجعات في هذا العهد تتوالى في مجاميع على حرف واحد أو روى واحد ، قد يكون الفاء أو  
الحاء أو الميم كما في هذه القطعة ، وقد يكون حرفا آخر كالمدال أو التاء أو النون إلى غير ذلك من  
حروف تتعاقب فيها السجعات في خفة . وقد ورى في السجعات الفائية حين ذكر فيها لفظ  
« أشرف » مورياً به عن الأشرف خليل ، ولم يكتف بهذه التورية في اسمه فقد أضاف إليها تورية  
أخرى في لفظ إبراهيم بآخر القطعة ، وقدم لذلك بذكر الخليل كأنه يريد إبراهيم عليه السلام ،  
وهو لا يريدُه إنما يريد بالكلمة أنه أبرأهما أى عطاشاً أشد العطش . ومن ذلك قوله في رسالة إلى  
صاحب اليمن مبشراً بفتح قلاوون لبعض حصون الصليبيين بالشام .

« تعطيه الملوك الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ، ويصطفى كراماً أمواهم وهم صابرون  
لا مصابرون ، وكم شكت منه حِمة تنسب بشكوها عن قلة الإنصاف ، وكم خافته معرةٌ وما من  
معرةٌ خاف ، وما زالت أيدى الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه تشكو من جور جواره تلك الحصون  
والصباصي<sup>(٢)</sup> ، وتبكي بمدمع نهرها من تأثير آثارة مع عصيانها وناهيك بمدمع العاصي » .  
وواضح في أول هذه القطعة اقتباس محي الدين بن عبد الظاهر لآية سورة التوبة : ( حتى  
يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ) . ويكثر الاقتباس لآى الذكر الحكيم وألفاظه في كتاباته كما  
يكثر حلُّ الشعر والاستشهاد بنصوصه وأبياته . وقد ورى في القطعة بذكره لفظ معرةٌ الثانية من  
العار مقدماً لها بذكر حِمة والمعرة وهما من مدن الشام . ورى أيضاً في قوله : « وناهيك بمدمع  
العاصي » وهو إنما يريد نهر حِمة المعروف باسم العاصي . ودائماً نحس عنده العذوبة والسلاسة وكأنه  
يستمد من نبع فياض لا يغيض أبداً ، على نحو ما نرى في قوله من رسالة يصف بها فتح قلاوون  
لطرابلس :

« صرف مولانا السلطان إلى طرابلس العنان ، وسبق جيشه إليها كل خير وليس الخبير كاليان ،  
وجاءها بنفسه النفيسة والسعادة قد حرسه عيونها والمخاوف كلها أمان .. وفي خدمته جنود  
لا تستبعد مفازة . وكم راحت وغدت وفي نفسها للأعداء حزازة ، فامتطوا بنجيوهم من جبال  
لبنان تيجاناً لها صاغتها الثلوج ، ومعارض لامرافق بها غير الرياح الهوج ، وانحطت الجنود من تلك  
الجنادل انحطاط الأجدال<sup>(٣)</sup> ، واندفعوا في تلك الأوعار اندفاع الأوعال<sup>(٤)</sup> ، ولم يحفل أحد

(٣) الأجدال : الصقور .

(١) هيم : جمع أهيم وهو العطشان عطشا شديداً .

(٤) الأوعال : جمع وعل وهو تيس الجبل

(٢) الصباصي : الحصون .

منهم بطريق لاصق ، ولا جبل شاق ، فقال : هذا منخفض أوعال .

والكلمات والسجعات تنزلق عن اللسان في خفة إذ كانت ملكته الأدبية خصبة ، فهي ماتزال ترفده بما يريد من الألفاظ التي تروق في السمع لا بسجعها فحسب ، بل أيضا بجرسها وحبس انتخابها لها ، وما يوفره لها من محاسن بدیعة بقدر الحاجة دون تكثر يميلها إلى تكلف شديد . وحقا كان يتصنع أحيانا لبعض مصطلحات النحو ولكنه لأياتي بها إلا في الحين بعد الحين ماعدا رسالة اقترحت عليه أن تكون توقيعا لمدرس نحو استهلها بقوله مداعبا : « حرس الله نعمة مولاي ، ولا زال كلم السعد من اسمه وفعله ، وحرف قلمه يأتلف ، ومنادى جوده لا يرثم وأحمد عيشه لا ينصرف » ومضى فيها على هذه الشاكلة متصنعا لمصطلحات النحو ، ولكن من الحق أنه أرادها إلى الدعابة ، وعلى نحو ما كان يبشر بالفتوح كان يبشر بوفاء النيل وله في ذلك رسائل بارعة يقول في إحداها :

« نِعْمُ اللهُ وَإِنْ كَانَتْ مُتَعَدَّة ، وَمِنَحْهُ وَإِنْ غَدَتْ بِالْبَرَكَاتِ مُتَرَدِّدَةٌ ، وَمِثَّهُ وَإِنْ أَصْبَحَتْ إِلَى الْقُلُوبِ مُتَوَدِّدَةٌ ، فَإِنْ أَشْمَلَهَا وَأَكْمَلَهَا ، وَأَجْمَلَهَا وَأَفْضَلَهَا ، وَأَجْزَلَهَا وَأَنْهَلَهَا ، وَأَتَمَّهَا وَأَعَمَّهَا ، وَأَضَمَّهَا وَأَلَمَّهَا ، نِعْمَةٌ أَجْزَأُ الْمَنِّْ وَالْمَنْحِ ، وَأَنْزَلَتْ فِي بَرَكِ سَفْحِ الْمُقَطَّمِ أَغْزَرَ سَفْحِ ، وَأَتَتْ بِمَا يَعْجَبُ الزَّرَّاعَ ، وَيَعْجِزُ الْبَرَقَ اللَّمَّاعَ ، وَيُغَيِّلُ <sup>(١)</sup> الْقِطَاعَ ، وَيُغَيِّلُ <sup>(٢)</sup> الْأَقْطَاعَ ، وَيَأْتِي فِي الْغَدِّ بِأَكْثَرِ مِنَ الْيَوْمِ وَفِي الْيَوْمِ بِأَكْثَرِ مِنَ الْأَمْسِ ، وَيَرْكَبُ الطَّرِيقَ مَجْدًا فَإِنْ ظَهَرَتْ بِوَجْهِهِ حَمْرَةٌ فَهِيَ مَا يَعْزُضُ لِلْمَسَافِرِ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ .. وَبَيْنَا يَكُونُ فِي الْبَابِ إِذَا هُوَ فِي الطَّاقِ ، وَبَيْنَا يَكُونُ فِي الْإِحْتِرَاقِ <sup>(٣)</sup> ، إِذَا هُوَ فِي الْاجْتِرَاءِ لِلْإِغْرَاقِ ، وَبَيْنَا يَكُونُ فِي الْمَجَارَى ، إِذَا هُوَ فِي السَّوَارَى <sup>(٤)</sup> . »

والتورية واضحة في كلمة سفح الثانية ، إذ ليس معناها معنى سابقها وهي سفح جبل المقطم إذ أراد الانصباب من قولهم سفح الماء إذا صبّه . واقتبس من القرآن الكريم قوله عز شأنه في سورة الفتح (يعجب الزرع) واقتباسه من الذكر الحكيم كثير في كتاباته كما أسلفنا . وتعليل ما يخالط النيل من الطمى بأنه نفس الحمرة التي تعرض للمسافر من طول سفره وتعرضه للشمس لتعليل حسن يدل على عمق تخيله وطرافته . وتصويره لفيضان النيل وأنه سرعان ما يملا مجرى النهر وتعلو أمواجه ويطفح عبابه ويتأدى طوفانه ، فبينما يدخل سدة باب إذا هو في الطاق وأعلى الشرفات ،

(١) يغل القطاع : يروي قطع الأرض مرارا .

(٣) الاحتراق : قلة الماء .

(٤) السواري : يريد الأعلى .

(٢) يغل الأقطاع : يجعل الضياع تغطي القلة والمجار

وبينا تكون مصر قبل فيضانه في زمن الاحتراق والتعطش للماء إذا هو يخترق الآفاق فيها لإغراقها بمياهه العذبة ، وبيننا يكون في أسافل الأرض ومجاريها إذا هو في السواري وأعلى الأعلى .

ولم يكن محيي الدين بن عبد الظاهر كاتباً ديوانياً فحسب ، فله رسائل شخصية سلمٌ بإحداها ، وأيضاً كان مؤرخاً ، وعنه أخذ البرزالي وغيره من كبار المؤرخين لزمه ، واهتم في التاريخ بكتابة السير ، فكتب سيرة الظاهر بيبرس ، وهي أحد مصادر المقرئ في خطه ، وكتب سيرة قلاوون بعنوان « تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور » ، وكتب أيضاً سيرة الأشرف خليل بعنوان « الألفاظ الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية » وله كتاب في خطط القاهرة ينقل عنه كثيراً المقرئ وكذلك القلقشندي في صبح الأعشى . ولعل فيا قدمنا من رسائله الديوانية ما يدل بوضوح على قدرته البانية والبلاغية .

### ابن<sup>(١)</sup> فضل الله العمري

هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري ، من سلالة أسرة مصرية تنتسب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وُلِيتْ أسرته ديوان الإنشاء بمصر ودمشق نحو قرن من الزمان هو القرن الثامن الهجري ، وقد وُلد لأبيه كاتب السر بدمشق سنة ٧٠٠ للهجرة وبها نشأ ، فحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات علمائها من أمثال ابن تيمية الفقيه الحنبلي المشهور وقاضي قضاة دمشق الشافعي شهاب الدين محمد بن الجمد وشيخ الشافعية بدمشق برهان الدين بن الفركاح الفزاري وأخذ علم الأصول على الشيخ شمس الدين الأصفهاني نزيل دمشق منذ سنة ٧٢٤ وبها ظل سبع سنوات وكان من أبرع علماء زمنه في العقلية ، وأذن لابن فضل الله في الإفتاء على مذهب الشافعي . وأخذ شهاب الدين العربية عن كمال الدين بن قاضي شُهبة وابن الرُّمْلَكَاني ، أما الأدب فأخذه عن أبيه ورفيقه في ديوان الإنشاء الشهاب محمود وعلاء الدين

والشدرات ١٦٠/٦ والوافي ٢٥٢/٨ وتاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي ٤١٠/١ . وطُبع له الجزء الأول من موسوعته مسالك الأبصار وانظر فيها ما تقدم في حديثنا عن النشاط الجغرافي بمصر وطُبع له كتابه التعريف بالمصطلح الشريف .

(١) انظر في ترجمة ابن فضل الله فوات الوفيات ١٢/١ والتجويم الزاهرة ٣٣٤/١٠ والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٣٥٢/١ وصبح الأعشى وخاصة الجزء الحادي عشر والرابع عشر (انظر الفهرس) وخطط المقرئ ٢٣٤/٢ وحسن المحاضرة ٣٧١/١ ، ٣٩٤ ، ٣٨٩/١

الوداعي . ورحل إلى مصر في أثناء الطلب ، وأخذ العربية عن شيوخها وعلمائها مثل ابن الصانع الحنفي ونزِيلها أبي حيان الأندلسي . وسمع الحديث على علمائها كما سمعه على حُفاظ الشام . ويبدو أنه نزع إلى العمل مع أبيه مبكرا في ديوان الإنشاء بدمشق ، وتخرج فيه كاتباً بارعا . وكان إلى ذلك لا يزال يأخذ عن العلماء في زمنه بالشام ومصر ، وكان أبوه يعمل أحيانا بالديوان في دمشق وأحيانا يعطل ، فكان إذا عمل لزمه ، حتى إذا استدعى الناصر محمد بن قلاوون أباه لكتابة السر بالقاهرة سنة ٧٢٩ تقلد معه هذه الوظيفة فكان هو الذي يقرأ كتب البريد ورسائله على الناصر ، ونقلها إلى دمشق في شعبان سنة ٧٣٢ ثم أعادها ثانية إلى القاهرة مسندا إليهما كتابة السر ورياسة ديوان الإنشاء سنة ٧٣٣ ويبدو أنه كان حاد الطبع ، ولم يتحاش عن إظهار هذه الحدة في مخاطبته للناصر ، فتغير عليه وصرفه ، وولى أخاه علاء الدين مكانه ، وكانت منزلة أبيه عند الناصر قد عظمت ، وطلب أن يرجع إلى دمشق فأجابته إلى طلبه ، على أن تستمر له رياسة ديوان الإنشاء في جميع ديار السلطنة وأن يكون جميع الموظفين في تلك الدواوين نوابه ، وسرعان ما لبى نداء ربه . وعاد الناصر في سنة ٧٤٠ فرضى عن شهاب الدين وولاه كتابة السر بدمشق ، ودخلها في المحرم سنة ٧٤١ وظل يلى وظيفته بها حتى طُلب إلى القاهرة سنة ٧٤٣ لكثرة الشكايات منه وشفع فيه أخوه علاء الدين ، وقُبلت شفاعته وعاد إلى دمشق ، وبارحها في سنة ٧٤٩ لقضاء فريضة الحج ، وتوفى بمكة ونقل تابوته إلى دمشق ، ولم يكد يبلغ الخمسين من عمره .

وكان شاعرا كما كان كاتباً ، نظم كثيرا من القصائد والأراجيز والمقطعات والدوبيت ، غير أن شهرته الكتابية غطت على شهرته الشعرية ، وقد أشاد بكتابته معاصروه من ذلك قول صلاح الدين الصفدى : « هو الإمام الفاضل البليغ المِقْوَه الحافظ حجة الكتاب ، إمام أهل الأدب ، أحد رجالات الزمان كتابة وترسلا ، وتوسلا إلى غايات المعاني وتوصلا ، يتوقد ذكاء وفطنة ويتلُهب ، وينحدر سيله مذاكرة وحفظا ويتصبّب ، ويتدفق بحره بالجواهر كلاما ، ويتألق إنشاؤه بالبورق المستعرة نظاما ، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة ، وتندى عباراته انسجاما وصياغة ، وينظر إلى غرر المعاني من ستر رقيق ، ويفوص في لجة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق ، يكتب من رأس قلمه بديها ، ما يعجز ترؤى القاضى الفاضل أن يدانيه تشبيها .. صرف الزمان أمرا ونهيا ، ودبر الممالك تنفيذا ورأيا » .

ولعل من الطريف ان ابن فضل الله جمع من كتاباته نماذج في جميع صور المكاتبات الديوانية وضمنها كتابه النفيس : « التعريف بالمصطلح الشريف » وجعله في سبعة أقسام أولا في رتب

المكاتبات إلى الخليفة العباسي بالقاهرة وعنه مع رسوم الكتابة إلى أمراء البلدان وراء السلطنة المصرية من الهند إلى الأندلس ، وأيضاً إلى نواب السلطنة والحكم خارج مصر . والقسم الثاني في العهود والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والعهود إما من الخلفاء إلى السلاطين وإما من السلاطين إلى ولاية العهد . والتقاليد خاصة ب كبار الموظفين والتواقيع لصغارهم والمراسيم لصغار الأمور والشئون والمناشير خاصة بالأمراء والجنود . والقسم الثالث خاص بنسخ الأيمان على العامة والولاية وكبار الموظفين وأهل الكتاب . والقسم الرابع في الأمان والهدن مع الأعداء ونقض المعاهدات . والقسم الخامس في حدود المدن والبلاد وهو جغرافى . والقسم السادس في مراكز البريد ووسائله براً وبحراً . والقسم السابع في الآلات وخاصة آلات الحرب من سيف وغير سيف وكذلك آلات السفر وآلات الصيد وآلات الطرب وأيضاً الحيوان الأليف والوحشى والطيور ، ويتسع هذا القسم للحديث عن المدن والحصون وأنواعها والأزمنة وفصولها والأنواء . وواضح أن الأقسام الأربعة الأولى هي التي دفعته لإعطاء النماذج الكتابية المتصلة بموضوعاتها . أما الأقسام الثلاثة التالية فقد رأى معرفتها ضرورة لكتاب الديوان لأنها تتصل بأعمالها اتصالاً قوياً . واشتهر هذا الكتاب بعد ابن فضل الله واتخذ الكتاب إماماً لهم وجعلوه نصب أعينهم في كتاباتهم الديوانية يحاكون نماذجه وأمثله ، واعتمد عليه الفلقشندي في بيان رسوم الكتابة الديوانية ، وما يصورها من أمثلة بليغة محكمة ، من ذلك قوله في تقليد وزير ووصيته بما ينبغى عليه في وزارته :

« عليه بالكفاة الأمانة ، وتجنب الخونة وإن كانوا ذوى غناء ، وإياه والعاجز ، ومن لورأى المصلحة بين عينيه ألقى بينه وبينها ألف حاجز ، وليطهر بابيه ، ويسهل حجابيه ، ويفكر فيما بعد أكثر مما قرب مقدا الأهم فالأهم من المصالح ، وينظر إلى ما غاب عنه وحضر نظر المماسي والمصالح ، ولا يستبدل إلا بمن ظهر لديه عجزه أو ثبتت عنده خيانتة ، ولا يدع من جميل نظره من صحت لديه كفايته ، أو تحققت عنده أمانته . وليصرف اهتمامه إلى استخلاص مال الله الذى نحن أمانؤه ، وبه يشغل أوقاته وتمتلى كالإبناء آناؤه ، فلا يدع شيئاً يجب لبيت المال المعمور من مستحقه ، ولا يتسرع في تخلية بشيء منه كما نوصيه أن لا يأخذ شيئاً إلا بحقه . »

وواضح أن ابن فضل الله لا يتكلف في كتابته ، وكأنه - كما قال الصفدى - بحريتهدفق ، وفي تضاعيف تدقه ينثر جواهر المحسنات ، وهى تواتيه طيبة ، تارة يطابق وتارة يجانس في يسر دون أن نحس عنده بتصنع أو ما يشبه التصنع . ومن طريف وصفه للسيف في كتابه التعريف قوله :

« سَلَّ سيفاً سالَ المَنُون من لُعبه ، وسار الموت في إهابه <sup>(١)</sup> ، وتناوم غراره <sup>(٢)</sup> ملء جفنيه فما هجع ، وتناوب <sup>(٣)</sup> للوثوب للمهجع فما رجع ، وتباكى على من قتل فجرت دموعه دماء ، وتحرق على من سلم فوقدت ضلوعه ناراً وترقرقت مآقيه ماء » .

وهي كلمات قصار ولكنها مليئة بالاستعارات والتشخيصات المتلاحقة ، وفيها الجناس والطباق وكأنها غير ملحوظين ، لما تجريان فيه من سهولة اللفظ وعذوبته . وله في وصف قدح أو كاس : « تكوّن من جوهر مكنون ، وتجسّد من هواء مظنون ، وأتخذ خدراً لابنة العنب <sup>(٤)</sup> ، وطاف به الساق فأصبح منه في راحة وهو في تعب ، قهقهه عليه الإبريق فصدح ، وطار منه شرار المدام فقيل : قدح » .

والقطعة مثل سابقتها زاخرة بالاستعارات والصور الطريفة . مع جناسات وطباقات بديعة ومع جمال الجرس والمهارة في انتخاب اللفظ ، وقد ختمها بكلمة قدح والتورية واضحة ، فهو لا يريد ما يتبادر من أنه يريد القدح الذي يصفه ، إنما يريد الفعل الماضي قدح أي قدح الشرر وأذكاه من قولهم قدح النار من الزند .

ولابن فضل الله العمري بجانب رسائله الديوانية رسائل شخصية قليلة وذكر له مترجموه نحو عشرة كتب ، منها التعريف بالمصطلح الشريف الذي وصفناه . ومنها فواصل السمر في فضائل آل عمر ، ومنها ضبابية المشتاق في مجلد في مدح النبي ﷺ . وأهم كتبه دون ريب كتابه « مسالك الأبصار » وقد نشر الجزء الأول منه وهو خاص بالديارات ، وهو في أكثر من عشرين مجلداً ، وهو مقسوم إلى قسمين كبيرين : قسم للأرض وأقاليمها وبحارها وطرقها أو مسالكها ، وقسم للممالك في العالم الإسلامي وغيره وسكان المعمورة ، وبه فصول طويلة عن الكتاب والشعراء في العالم العربي بمختلف أقطاره ، وعادة يضع مقدمة مسجوعة لكل كاتب وشاعر ثم يختار للكاتب نماذج من رسائله وللشاعر نماذج من شعره ، وبه مقتبسات من كتب سقطت من يد الزمن ، ومن خير ما احتفظ به تراجمه لشعراء صقلية ، وكذلك معلوماته الجغرافية والتاريخية عنها . وبالكتاب مفاخرة طريفة بين المشرق والمغرب تمس حضارتيهما ومن كان بهما من أفذاذ العلماء والأدباء .

(٣) تناوب الأمر : قام به مرة بعد مرة .

(١) إهابه : جلده .

(٤) الخنجر : البيت . ابنة العنب : الخمر .

(٢) غرار السيف : حده .

## الرسائل الشخصية

تموج كتب الأدب والتراجم بكثير من رسائل الأدباء والكتاب المصريين الشخصية والإخوانية في التهينة والتهادى والشكر والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية . وعادة معانيها محدودة ، ولكن أصحابها يحاولون إظهار براعتهم بإطالتها وتخيير عباراتها ونشر زخارف البديع ومحسناته عليها حتى تروق من تُرسل إليهم وتبلغ من التأثير فيهم المبلغ المنشود . ومن برعوا في تدبيجها وكتابتها في أيام الفاطميين عبد المجيد بن أبي الشخياء العسقلاني الكاتب الديواني لزمان الخليفة المستنصر ، وسنخسه بحديث مفرد ، وكان لا يكاد يقل عنه إحسانا في تلك الرسائل سبطه أو ابن ابنته الحسن<sup>(١)</sup> بن زيد الأنصارى الكاتب مثله في الدواوين الفاطمية ، وكان جده لأبيه شاعراً ، وهو على بن إسماعيل ، وكان أيضا فقيها ولى قضاء الأردن للفاطميين ، ويقول السلقى في معجمه : لم يكن له نظير في الأدب بقطره سوى ابن أبي الشخياء ، وقتلها بدر الجمالى وزير المستنصر . والحسن بن زيد بذلك سليل قتيلين وكأنا كُتِبَ عليه أن يقتل مثلها ، وتولى إثم ذلك الحسن بن الخليفة الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣) في أوائل خلافة أبيه لأبيات في هجائه دسها بعض معاصريه عليه ، وكأنا أراد القدر أن يثار له وكان الحسن قد استبدَّ بتنفيذ الأمور دون أبيه فدرس عليه السم في طعامه فات لسنة ٥٢٨ .

وواضح أن الحسن بن زيد - كما يقول ابن سعيد - « عريق النسب ، في صناعة الأدب ، يمتُّ إليها بأوفى ذمام ، ويضرب فيها بأحوال وأعام » ويقول العماد الأصبهاني : « وصفه القاضي الفاضل وأثنى على فضله ، وأنه في فنه لم يسمح الدهر بمثله » . واحتفظ العماد له في خريدته بطائفة من رسائله الديوانية والشخصية ، من ذلك قوله في رسالة إلى صديق يهنئه بالبرء من مرضه .

« إذا قَدَّمَ الوداد ، وصحَّ الاعتقاد ، وصفت الضمانر ، وخَلَصت السرائر ، حلَّ الإخاء المكتسب ، محلَّ أخوة النسب ، وصار المتعاقدان على الإيثار ، والمتحابان على بعد الدار ، متساهمين فيما ساء وسو ، ومتشاركين فيما نفع وضرر ، وتلك حالى وحال حضرة مولاي فاني وإياها

(١) ومعجم السلقى ص ٤٤٨ .

(١) انظر في ترجمة الحسن بن زيد الخريدة ( قسم شعراء

مصر ) ٦٧/٢ وما بعدها والمغرب ( قسم القاهرة ) ص ٢٣٧

كنفس قسّمت على جسمين ، وروح فرّقت بين شخصين ، فأما ألمها فقد مضى وأزعجني ، وأما برؤؤها فقد سرّها وأبهجني .

ومهارته في صياغة أسجاعه واضحة فعباراتها تتوازن وتتعادل تعادلا دقيقا ، وكأن كل كلمة في السجعة الثانية تعانق أختها في السجعة الأولى في علوية ونصاعة وسلاسة وطلاقة . ومن كتاب له في تعزية :

« الحَظْبُ الحَادِثُ ، فَادِحٌ كَارِثٌ <sup>(١)</sup> ، كَادَتْ لَه القُلُوبُ أَنْ تُتَبَّرَأَ مِنْ أَضَالِعِهَا ، وَالعَيُونَ أَنْ تَتَعَوَّضَ بِدِمَائِهَا مِنْ مَدَامِعِهَا ، وَالضَّحَى أَنْ يَدَّرِعَ <sup>(٢)</sup> جَلِبَابَ الدُّجْنَةِ ، وَالْحَوَامِلُ أَنْ تُجَهَّضَ بِمَا فِي بَطُونِهَا مِنَ الأَجْنَةِ . وَإِنِ المُنِيَةَ حَوَّضُ كُلِّ النَّاسِ وَارِدُهُ ، وَمِهْلُ كُلِّ الحَلِيقَةِ قَاصِدُهُ ، لَا يَسْلَمُ مِنْهَا مَلِكٌ نَافِذُ الأَمْرِ . . . وَلَا قَاقِرٌ خَامِلُ الذِّكْرِ » .

وتحمل القطعة نفس الصياغة السالفة بكل ماتسم به من اكتمال الإيقاع في الألفاظ بين السجعات وحسن الانتخاب للألفاظ والكلمات .

وكان يعاصر الحسن بن زيد الشاعر ظافر الحداد الذي مرت ترجمته بين الشعراء ، وكانت قد انعقدت صداقة بينه وبين أبي الصلت أمية بن عبدالعزيز نزيرل الإسكندرية ، وكان قد بارحها إلى المهديّة بتونس سنة ٥٠٦ ولم يصله من ظافر كتاب فأرسل إليه يعاتبه ، ومن قوله يجيبه عن كتابه <sup>(٣)</sup> :

« فَضِضْتُ الكِتَابَ عَنِ رِسَالَتِهِ الَّتِي يَبْهَجُ قَشِيهَا <sup>(٤)</sup> ، وَيَضُوعُ <sup>(٥)</sup> طَيْبِهَا ، وَلَا يُتَرَفُّ قَلْبِهَا <sup>(٦)</sup> ، فَخَلْتُ أَنِي أَخْتَالُ أَيُّ اخْتِيَالٍ فِي حَلْلِ الشَّبَابِ ، وَأَذْكَرُ الأَحْبَابِ ، وَأَرشَفُ الرُّضَابِ <sup>(٧)</sup> ، مِنَ الثَّنَايَا العَذَابِ ، بَعْدَ الصَّدِّ وَالأَجْتِنَابِ :

ذَكَرْتُ بِهِ عَهْدًا كَأَن لَمْ أَفْزُ بِهِ  
وَعَيْشًا كَأَنِّي كُنْتُ أَقْطَعُهُ وَنَبَا

ثم نزهت ناظري ، وجلوت خاطري ، بيدائع ماتضمّنه الكتاب ، من العتاب ، حتى وددت أني أجدد كل يوم ذنبا ، يوجب منه عتبا ، كي أقطف منه مثل تلك الأزهار ، وأجني مثل تلك

(٥) بضوع : يفوح

(٦) قليبها : معنيها

(٧) الرضاب : الريق

(١) كارث : محزن .

(٢) يدرع : يلبس . اللجئة : الظلمة .

(٣) انظر الرسالة في ديوان ظافر

(٤) قشيب : جديد

الأثمار ، فما أخصبها رياضاً ، وأغذها حياضاً ، وأشرفها أجساماً وأعراضاً .

وظاهر يعنى في رسالته بسجعاته ، ويوفر لها كل ما يستطيع من جال اللفظ وحسن الجرس ، حتى تقع من نفس أمية الموقع الذى يريد من بلاغة القول وروعة البيان . وإذا مضينا إلى زمن الأيوبيين لقينا القاضى الفاضل أهم كتأبهم يديج كثيراً من الرسائل الإخوانية أو الشخصية واقتطف منها محي الدين بن عبد الظاهر باقات كثيرة في مختاراته من رسائله التى سماها « الدر النظيم من ترسل عبدالرحيم » ومن قوله في إحداها يصف لأحد أصدقائه دمشق :

« إني وصلت إلى دمشق المحروسة حين شرد برُّدُها ، وورَّد وردُّها ، واخضرَّ نباتها ، وحسَّن نَعْمَها ، وصفا ماؤها ، وصفا (١) رداؤها ، وتغننت أطيارها ، وتبسَّمت أزهارها ، وافتَرَّ (٢) زهر أقحوانها فحكى ثغور غزلاتها ، ومالت قُصْبُ بانها ، فانتشت تثنى ولدانها . فلما قربتُ من بساتينها ، ولاح لى فسحُ ميادينها ، وتوسطت جنة وادياها ، ورأيت ما أودعه الله العظيم فيها ، سمعت عند ذلك حماما يغرَّد ، وهزاراً (٣) ينشد ويردد ، وقمرياً (٤) ينوح ، وبلبلاً بأشجانه ييوح . »

وأسلوب القاضى الفاضل واضح في هذه القطعة لا بأسجاعه فحسب وما يبلغ فيها من اكتمال الجرس والإيقاع بين أوائلها وتواليها ، بل أيضا بما يوشى به كلامه من الاستعارات البديعة وزخارف الجناسات ، وكان ما يزال يضيف إلى مثل ذلك طباقاته وتورياته الرشيقة وما عرف به من العناية بمراعاة النظر . وكثرت المراسلات بينه وبين ابن سناء الملك وأبيه القاضى الرشيد ، مما أتاح لابن سناء الملك أن يجمع منها كتابا يسميه « فصوص الفصول وعقود العقول » ، وتحفظ دار الكتب المصرية بمخطوطة منه ، وهو مقسوم قسمين : قسم لمراسلات القاضى الفاضل وابن سناء الملك وقسم لمراسلات القاضى الفاضل مع أبيه ، وفيه مراجعات كثيرة بين القاضل وابن سناء الملك تتصل بنظرات له ونقد لبعض أبيات من قصائده . وحرى بنا أن نذكر كثرة استشهاد القاضل في رسائله الشخصية بالشعر حتى ليروى له القلقشندي في الجزء الأول من صبحه (٥) رسالة موزعة بين كلمات نثرية تليها أبيات شعرية ، ورسالة ثانية موزعة بين كلمات وشطور أبيات . ومن كتّاب الديوان حينئذ البارعين في تحبير الرسائل الشخصية الأسعد بن ممانى ، وستترجم له عما قليل .

(٤) القمرى : ضرب من الحمام المطوق حسن الصوت

(١) صفا : سبخ .

(٥) صبح الأملئ ٢٧٦/١ .

(٢) افتَرَّ : تفتح .

(٣) الهزار : العندليب .

ونحفي في زمن الماليك فنجد الأدباء من كتاب وشعراء يتبادلون رسائل شخصية كثيرة ، من ذلك رسالة بعث بها محيي الدين بن عبد الظاهر سنة ٦٥٣ إلى الشاعر ابن النقيب الذي مرت ترجمته ، وقد بلغه أن شخصا عابه في مجلسه وأزرى به وبقدرته الكتابية ، وكان لا يزال شابا في نحو الثلاثين من عمره ، ويبدو أنه عرف أن ابن النقيب ردُّ على عتابه ، فكتب إليه يهجو هذا العائب ويشكره على جميل رده عليه ، وهي رسالة طويلة <sup>(١)</sup> ، جعل عنوانها « التواضع » وقد مضى فيها بصور حملة هذا العائب عليه ثم أخذ يعنِّفه تعنيفا شديداً ، وأنهاها بالدعاء لابن النقيب والدعاء على عتابه بالويل والثبور ، ونلم بأطراف منها ، يقول :

« إن فلانا غَضُّ مني .. وزعم أن إناء إباني غير مُقَمِّم <sup>(٢)</sup> ، وبناء مجدى غير محكم ، وأن جوارح إجادنى جريحة ، وقرائح ارتجالي قريحة <sup>(٣)</sup> ، وأن صدور المجالس تنكر إقدام أقدامى ، وبطون الطروس لا تُلقَّح بأقلامى ، وأنى لا أعدِّ فى جملة الكُتَّاب ، وإذا دخلوا من أبواب متفرقة للتكريم لا أدخل معهم فى باب ، والذي أقوله له مخاطبا ، وأومى <sup>(٤)</sup> به إليه مجابوا : ماكل الأفاعى تعبت بها الأنامل ، ولاكل المراعى تُنصَّبُ بها الحبائل ، ولاكل زَخَّار <sup>(٥)</sup> يُخاضُ ، ولاكل جَنَاح يُهاضُ ، ولاكل جامع يُراضُ ، ولاكل سابعة تُفاضُ <sup>(٦)</sup> .. ولا يَصْرُ الزناد الواهى <sup>(٧)</sup> قدحُ القادح ، كما أنه لا يضير النجم السارى نبحُ النايح .

والرسالة على هذه الشاكلة من السجع الموقَّع الملحن تلحننا حسنا ، مع توشيته بزخارف الاستعارات ومحاسن الجناسات ، وقد ورى في كلمة « قدح القادح » مع ذكر الزند الوارى فلم يرد بها قدح القادح للزند طلبا لإخراج النار منه ، وإنما أراد ذم الهاجى ، من قولهم : قدح فى عرض أخيه إذا عابه وثلبه .

وتكثر فى الرسائل الشخصية حينئذ تقریظات الأدباء والشعراء ، ولعل شاعرا لم يكثر تقریظ شعره ومصنفاته كما قرظ ابن نباتة . ومرَّ فى ترجمته أن له كتابا سماه « سجع المطوق » ترجم فيه لكل من قرظوا كتابه « جمع الفوائد » . ولتلميذه برهان الدين القيراطى الذى مرَّت ترجمته بين الشعراء تقریظ طريف لشعره ونثره ، ومن قوله فيه <sup>(٨)</sup> :

(٥) زخار : النهر الزخار : الملىء الطامى .

(٦) تفاض : تكون سابقة ضافية

(٧) الوارى : المقعد .

(٨) خزنة الأدب للحموى ص ٥٤٧ .

(١) انظرها فى نهاية « تمام المتن فى شرح رسالة ابن

زيدون » للصفدى

(٢) مفعم : ملء

(٣) قريحة : جريحة .

(٤) أومى : أشير .

« لا غرو أن فصّح بديع<sup>(١)</sup> الزمان بلفظه البديع ، وأزهرت الأوراق بمنثور رسائله التي كل فصل منها ربيع ، وتبارك الذي جعل في سماء دوحته لشمس بلاغته بروجًا ، وأعلى هيمه التي لا ترضى الشهب جياذًا والأهلة سُروجًا .. وقد زهت أمداحه المؤيدية<sup>(٢)</sup> فأصبحت بيوته المرفوعة ( ذات العماذ ) وراقت محاسنه التي ( لم يُخلَقْ مثلها في البلاد ) .. وظلما سرح الناظر في بستانها نظره ، ورام<sup>(٣)</sup> ابن سُكرة فتح الأبواب لمعارضة قطرها النبائي فوجدها مسكّره<sup>(٤)</sup> ، وعلم المتنبي أن هذا خاتم الأدباء لامحاله ، والمترسل الذي نهض عنه بأعباء كل رساله . »

والتقريظ زاخر بالاعتباس لآي القرآن الكريم وألفاظه كقوله في مديح أبيات ابن نباته إن بيوته المرفوعة أصبحت ذات العماذ . وفي كلمة بيوت تورية إذ لا يريد بيوت الشعر من الخيام التي ترفعها الأعمدة أخذًا من قوله تعالى في سورة الفجر ( ألم تركيب فعل ربك بعاد إرمَ ذات العماذ ) أي أنهم كانوا أهل خيام وأعمدة ، وهو لا يريد ذلك كله وإنما يريد بيوت شعر ابن نباته أو أبياته . وأكمل في العبارة التالية وصف القرآن في السورة نفسها لعاد بقوله : ( التي لم يخلق مثلها في البلاد ) . وراعى النظر مراعاة دقيقة حين ذكر ابن سُكرة فذكر معه القطر النبائي يريد شعر ابن نباته الحلوى . وحين ذكر المتنبي أشار إلى ما قبل من تنبؤه وأنه نهض عنه بأعباء كل رسالة ومعروف أنه لم يثبت تنبؤ المتنبي تاريخيًا غير أن القيراطي رأى استغلال ذلك في جلب ما يجدم غرضه من مراعاة النظر والتورية بكلمة رسالة . وربما كان أكثر من رسائل التقريظات رسائل الاستدعاءات ، إذ كان الأدباء من الكتاب والشعراء يستدعى بعضهم بعضًا للمشاركة في مجالسهم ومابها من أنس ومدام ومن رفاق وصحاب . ولبدر الدين بن الصاحب المتوفى سنة ٧٨٨ للهجرة رسالة<sup>(٥)</sup> طويلة أرسل بها إلى فخر الدين بن مكانس يدعو له مجلس أنس وشراب ، واصفًا له ما سيمتتع به معه من خمر معتقة ، وكأنه كان من المدمنين عليها في غير تخرج ، وله يقول :

« هل لك - بسط الله أمالك ، وضاعف نعيمك ودلالك - في عذراء مصونة ، كالدررة المكنونة ، فتانة مفتونة ، كأن على خدها فوق وزده ياسمينه .. لها من ذاتها طرب يغني عن الزامير ، بلقيسية الجمال لها ( صرحُ مُرَّد من قوارير ) ليلها من حسنها نهار ، وضوء وجهها ليد لامسها سوار ، تلمت بالمصباح ، وتلطفت حتى مازجت الأرواح ، أديمها كلما تعتقت يغلر ،

(٤) مسكرة : مغلقة .

(١) بديع الزمان : صاحب المقامات والرسائل المشهور .

(٥) مطالع البذور للغزولي ١٥٢/١ والأدب في العصر

(٢) المؤيدية : يريد أمداحه في المؤيد ( انظر ترجمته ) .

الملوكي للذكور محمد زغلول سلام ص ١١ .

(٣) ابن سُكرة : شاعر بغدادى ماجن معاصر للمتنبي .

ووردها كلما مرَّ يحلو ، أيامها أعياد ، وأوقاتها أقوات القلوب والأكباد . من « القاصرات الطَّرف » في كل قَصْر وهي على الإطلاق ذهبية العصر .. لاتنزل الحوادث ساحتها ، ولا يعرف التعب من صافح راحتها ، حمراء تخلع ثوبها على الندمان ، بل تكاد تطبق عينها على الإنسان . وهو ينثر في الرسالة كثيرا من التصاویر مع القدرة البديعة على صياغة السجع والاقْتباس فيه أحيانا من لفظ الذكر الحكيم كقوله مورِّيا عن دَنْ الخمر الزجاجية بما جاء في سورة النمل من وصف الصرح في قصر سليمان عليه السلام الذي شمردت بلقىس ملكة سبأ ثوبها حين دخلته إذ ( حسبته لُجَّةً وكشفت عن ساقها قال إنه صرح ممرد من قوارير ) أى من زجاج شفاف لا يحجب ما وراءه . ووصف بدر الدين بن الصاحب الخمر التي دعا ابن مكانس إليها بأنها من القاصرات الطرف اللاتي لم يمسهن أحد ، أخذًا للكلمة من الذكر الحكيم . ولم يلبث أن قال إنها ذهبية العصر . والتورية واضحة إذ لا يريد أن عصرها ذهبي كما يقال عصر هرون الرشيد الذهبي مثلا وإنما يريد أنها صفراء اللون حين تعصر من عنها وكرمها . وفي السجعتين التاليتين بآخر القطعة توريثان واضحتان ، فهو لا يريد بلفظة « راحتها » كنهها كما تشهد لذلك كلمة صافح ، وإنما يريد الخمر نفسها إذ تسمى راحة . وبالمثل لا يريد في السجعة التالية بالإنسان إنسان العين وسوادها وإنما يريد الإنسان الحقيقي الذى يحتسبها .

وظلت الرسائل الشخصية تتداول بين الأدباء طوال الحقبة العثمانية ، ودخلها غير قليل من التكلف والتصنع . ونسوق قطعة حيثنذ من رسالة محمد بن أبى الحسن البكرى الذى مرت ترجمته ، أرسل بها إلى النور العسلى ليتسلى بمجلسه فى ممتزه نصير يلتقى فى شاطئه ماء النيل وقت فيضانه بخضرة الزروع الزاهية ، وفيها يقول (١) :

« سيدنا البرّ الذى يجرى ببحر الفضائل من برّه ، ويعذب الورّد والصّدْرُ بما يصدر من صدره ، ويفيض إحسانه نهرا لراجيه وآمله ، وتبتدر الأنام لتلقى تيار أنامله ، وتتراحم على سيف (٢) زخّار علومه ، تراحم رقاب أعدائه على سيفه وخصومه .. ومدينة بولاق هى مجتمع البحور ، ومدار فلك السرور ، بفلك الجبور ، طفحت بالنيل لاجزّر عن الجزر مدّه المديد ، واستلت سيف النهر لقطع حروف الجروف من أقصى الصعيد . »

والرسالة تجرى على هذه الصورة من التكلف الشديد كما يلاحظ فى السجعات الأخيرة ، وقد تصنع فيها لذكر مصطلحات الفلك والعروض والنحو . ولمحمد الطيلونى من كتاب القرن الحادى

(٢) سيف : شاطئ .

(١) ربحانة الألبا للخفاجى (طبعة الحلبي) ٢٢٩/٢

عشر الهجري وشعرائه رسالة<sup>(١)</sup> هجا بها القاضي عمر المغربي هجاء أراد به إلى الفكاهة والضحك من مثل قوله :

« يامن ثوبة رثّ ، وحديثه غثّ ، ياكثير الثّباح ، ياخابا في الغدوّ والرواح ، ياتارك السنّة والقرّض ، يامنّ سعى بالفساد في الأرض ، يامهبط الدواهي ، وتابع العنّى والملاهي .. ياكثير الشكوى ، يا أثقل من رَضوى<sup>(٢)</sup> ، ياموت الخبيب وطلعة الرقيب .. يا أثقل من المكتب على الصّبيان ، ومن كِرا<sup>(٣)</sup> الدار على السكان » .

والرسالة طويلة اقتطف منها المحبي مقتطفات في نحو سبع صفحات أتبعها بقصيدة هجاء على غرارها للشهاب الخفاجي مؤلف ربحانة الألبا . وتظل المحسنات البديعية بارزة في الرسائل ، ولكننا نشعر في العبارات بضعف الصياغة ، وقلما نشعر بعاطفة فياضة أو إحساس مرهف أو معنى دقيق . وحرى بنا أن نقف عند بعض النابهن من كتاب هذه الرسائل الشخصية على مدار العصر ومختلف أزمته .

#### ابن أبي الشخباء<sup>(٤)</sup>

وقيل ابن الشخباء ، هو الحسن بن محمد بن عبد الصمد العسقلاني ، ولانعرف متى انتقل هو أو أسرته العسقلانية إلى القاهرة ، ويبدو أنه التحق مبكرا بدواوين الدولة الفاطمية لعهد الخليفة المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) وتخرج فيها على من كان يعمل بها من كبار الكتاب ، ولمع اسمه فيها وتألّق ، غير أننا لانمضي إلى سنة ٤٨٢ حتى نراه يُقتل بسجن مصر المسمى خزانة البنود ، وأكبر الظن أن بدرًا الجمالي وزير المستنصر هو الذي أمر بقتله كما أمر بقتل صهره القاضي إسماعيل بن علي كإمرًا بنا أنفا في الحديث عن حفيدهما الحسن بن زيد .

وكان ابن أبي الشخباء شاعرا بارعا كما كان كاتبًا بارعا ، ولذلك لُقّب بالمجيد ذي الفضيلتين ، وفيه يقول العماد : « المجيد مجيد كنعته ، قادر على ابتداع الكلام ونَحته ، له الخطب البديعة ، والملح الصنيعة » ، ويقول ياقوت عنه : « أحد البلغاء الفصحاء والشعراء » . له رسائل مدونة مشهورة قيل إن القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني منها استمدّ ، وبها اعتدّ .. كتب في ديوان

(٤) انظر في ابن أبي الشخباء معجم الأدباء لياقوت

١٥٢/٩ والنخيرة لابن بسام (طبع الدار العربية للكتاب

بتونس القسم الرابع - المجلد الثاني) ص ٦٢٧ وابن خلكان

٨٩/٢

(١) فحة الربحانة للمحبي (تحقيق عبد الفتاح الحلوطية

الحلبي) ٦٠٥/٤

(٢) رضوى : جبل بالمدينة

(٣) كرا : أجر

الرسائل للمستنصر صاحب مصر.. إلا أن أكثر رسائله إخوانيات وما كتبه عن نفسه إلى أصدقائه ووزراء وأمراء زمانه « ويقول عنه ابن خلكان : « صاحب الخطب المشهورة ، والرسائل المحيرة ، كان من فرسان النثر ، وله فيه اليد الطولى » . وبدون ريب كان أروع كاتب قاهري في القرن الخامس الهجري ، كما تشهد رسائله الديوانية والشخصية ، واحتفظ ياقوت وابن بسام في الذخيرة بطائفة كبيرة منها ، وأكثرها رسائل شخصية بديعة ، من ذلك قوله في رسالة استعطاف : « المودّات إذا كانت متينة العقود ، صادقة المشهود ، موضوعة على أصل عريق ، وأساس وثيق ، لم تحترمها الشبهة المُرْمضة <sup>(١)</sup> ، ولم تزلها الأباطيل المعترضة ، وإن تناقلتها ألسن مختلفة ، وعلتها برود من اللفظ مفوّفة <sup>(٢)</sup> ، ولما رأيت زيارة مولاي قد صارت مرّقة ، وجنوب <sup>(٣)</sup> مودته قد عادت مروّعة ، وضرت أرى قوله متناقضا ، وماء البشر من وجهه غائضا ، من بعد ما عهدته :

تنبى طلاقة وجهه عن وجهه فتكاد تلقى التّجّع قبل لقائه  
وضياء وجه لو تأمله امرؤ صاى الجوانح <sup>(٤)</sup> لارتوى من مائه

لم أتجاسر على سؤاله عن العلة خوفا أن يعيب على الارتباب بوّده ، ويتطرّق سوء الظن على عهده ، فسألته من يعلم دفاتنه ، ويخبّر ظاهره وباطنه ، فأخبرني أن بعض الناس - ولم يُسمّه - نقل إليه عني فشنّ الغارة على وفاته ، وزلزل أوأخى <sup>(٥)</sup> وده وإخائه ، فقلت : عتب ، والله ولاذنب ، وشكايه ولاينكايه <sup>(٦)</sup> ، وأنا أحاكم مولاي إلى إنصافه ، لإسعافه ، وعدله ، لأفضله ، وما كان أجدره برفض قول الماحل <sup>(٧)</sup> ، وتغليب الحق على الباطل .. والآن فقد أوّضعت وأوجفت <sup>(٨)</sup> ، وتألّفت مولاي واستعطفت ، فإن عادت ظلال وده مديدة ، وحبال كرمه محصوفة <sup>(٩)</sup> جديدة ، فحسن تلك الشائتل ، أن تجمع شمل الفضائل .  
والسجعات تنزلق عن الفم بخفة ورشاقة ، تشهد لابن أبي الشخباء بأنه كان كاتباً مجيداً حقاً ، وأن الكلم كان يطاوعه ، ليحيله درراً مختارة . وكان يزين سجعاته بمحسنات البديع من جناس

(٦) نكايه : غلبة وقهر.

(١) المرْمضة : الموجعة.

(٧) الماحل : الساعى بالهيمه .

(٢) البرود المفوّفة : الثياب الرقيقة المخططة .

(٨) أوضع : سار سيرا سريعا ، ومثلها أوجف .

(٣) الجنوب : ربيع لينة كالنسيم ، والاستعارة واضحة .

(٩) محصوفة : محكمة متينة .

(٤) صاى الجوانح : عطشان .

(٥) أوأخى : أواصر .

وطباق . وتكثر عنده الاستعارات المبتكرة الطريفة ، وكان يعرف كيف يفوص عليها ويستخرج لألثها النفيسة من أصدافها البراقة ، وطبيعي للقاضي الفاضل وللكتاب من بعده أن يعنوا بحفظ كلامه ويستحضروه فيما يكتبون ويصوغون . وله من رسالة يعاتب فيها بعض القواد .

« رأيت فلاناً عند نظرته لى بالأمس قد قطَّب<sup>(١)</sup> حاجبه ، وزعزع مناكبه ، فقلت : ماله ؟ أنزل إليه وحي ، أم عُصب<sup>(٢)</sup> به أمر ونهى ، أم قلَّ عقله فعقَّ نفسه وظلمها ، وجهل مقادير الأشياء وقيمها ، واعتقد أن الدنيا طوع حكه ، والفيطن صائب فهمه ، أم رأى الملائكة المقربين تشفَّع به ، والخور العين<sup>(٣)</sup> تشكو لاجع حبه ، وثمار الجنة تدلَّت إلى يده ، ونار جهنم تُقتبس من زنده ، والكوثر يمدُّ من معينه ، والسماوات مطوياتٌ يمينه »

وهو عتاب مرير لهذا القائد الذى شمخ بأنفه عليه ، وتعالى واستكبر استكبارا ، فضى يهزأ به ويسخر منه سخریات متعاقبة ، فهو ليس نبيا مرسلا . ولا أمراً ناهيا ، بل هو جاهل مغرور ، لا يعرف قيم الناس ولا أقدارها ، وكأنما ظن أنه الحاكم بأمره وأن عقله مجمع الفطن ، بل لكأنما توهم أنه نبي تشفَّع به الملائكة ، وأن الخور العين تشكو تباريح حبه ، وأن ثمار الجنة مدَّ يده ، ونار جهنم تقتبس من زنده الوارى المضطرم ، ومن معينه يستمد نهر الجنة ، أو أحد أنهارها : الكوثر . بل لكأنما توهم نفسه رب الكون ، وخال السماوات مطوياتٌ يمينه . وعلى هذا النحو تتوالى سخرياته ، يطعن بها هذا القائد فى الصميم ، وفى آخر القطعة اقتباس واضح لآية سورة الزمر : ( والسماوات مطوياتٌ يمينه ) . ويكثر هذا الاقتباس لآيات القرآن الكريم ألفاظه فى رسائله ، كما يكثر الاستشهاد بالشعر وإنشاده فيها مازجا له بكلامه . وكلُّ ذلك وما تقدم من استخدامه للمحسنات البديعية وضعه الكتاب المصريون بعده شعارا لهم وسُننا فى رسائلهم . وله من رسالة فى هجاء مضيف ومائدته .

« ولجتُ منزلا قد استعار من قلب العاشق حرًّا ورَهجا<sup>(٤)</sup> ومن أخلاق مالكة ضيقا وحرجا ، كأنما زفرت فيه النار ، ونقط على جدرانه بالقار ، فجلست طويلا إلى أن حضر الإخوان ، وقُدِّم

(١) قطب : عبس وضم حاجبه .

(٢) عُصب : عبس وضم حاجبه .

(٣) العين : جمع عيناء : واسعة العينين جميلتها .

(٤) رهجا : به : ضم إليه .

الخِوان<sup>(١)</sup> ، فرأيت أرغفة قد أحكمت في الصغر والإلطاف ، ولم تتعوّذ<sup>(٢)</sup> قط من الأضياف .. وثلاثة صحاف ، وانمة الأكتاف ، بعيدة الأوساط من الأطراف ، قد جعل في قرارة كل منها مالا يدفع السَّعْب<sup>(٣)</sup> ، ولا تجده اليد إلا بالتعب ، فجئنا جولة وعينه تطرف علينا شمالا ويمينا ، وتتفقد منا حركة وسكونا ، وقتنا ولم تقارب الكفاف ، وقد ظنَّ بنا الإسراف .

والسجع يطرد دائما عنده على هذا النحو من صفاء اللفظ وحصانته والقدرة البارعة على الملازمة بين السجعيات في الجرس ، مع الانطلاق والسهولة ، وكأنه يصدر عن النيل العذب وسلاسته . وهو بحق جدير بما أسبغ عليه الأسلاف من ثناء وإطراء .

#### ابن مَمَّان<sup>(٤)</sup>

هو أسعد بن الخطير مهذب بن مينا بن أبي المليح زكريا بن مَمَّان ، سليل أسرة قبطية من أسيوط ، هاجرت منها إلى القاهرة في القرن الخامس الهجري ، وكان جده مَمَّان جوهريا واشتهر بأنه كان يصيغ البِلُّور صبغة الباقوت فلا يعرفه إلا الخبير بالجواهر . ويقال إن الفَصَّ من عمله كان إذا نودى عليه في سوق الصاغة تشوف نحوه العيون لجودته وحسن منظره . واتصل ابنه أبو المليح بوزير المستنصر بدر الجمالي أمير الجيوش ، ووظفه بديوان الإقطاعات وشئون المال ، وكسب بعده لابنه الأفضل ، وظل هذا العمل الديواني في بيته ، يتولون ديوان الإقطاعات أو ديوان الجيش أو ديوان المال ، ولعلها جميعا كانت ديوانا واحدا متداخلا . وتولَّى هذا الديوان لآخر أيام الدولة الفاطمية الخطير مهذب ، حتى إذا أسندت الوزارة في آخر أيام العاضد الفاطمي إلى أسد الدين شيركوه نراه يُسَلِّم هو وأولاده على يده . وأقره أسد الدين على ما بيده من ديوان الإقطاعات ، وقيل بل ديوان الجيش . وكانا متداخلين كما ذكرنا . ومعروف أن أسد الدين شيركوه ولي الوزارة المصرية

(١) الخوان : المائدة عليها الطعام

(٢) كناية عن أن الأضياف لم يلمسوها

(٣) السعْب : الجوع الشديد

(٤) انظر في ابن مَمَّان وترجمته ورسائله الخريدة (قسم

مصر) ١٠٠/١ ، ومعجم الأدباء ١٠٠/٦ ، والمغرب (قسم

القاهرة) ص ٢٦٦ ، وابن خلكان ٢١٠/١ وإنباه الرواة

للقفطى ٢٣١/١ وخطط المقرئى ٥٧٧/٢ والنجوم الزاهرة

١٧٨/٦ والبداية والنهاية لابن كثير ٥٢/١٣ وشذرات

الذهب ٢٠/٥ وحسن المحاضرة ٥٦٥/١ وطبقات الشافعية

للسبكي ٢٤٣/٨ ولأبيه الخطير ترجمة بعده في الخريدة وقيل

في المغرب .

سنة ٥٦٤ وكان أسعد في العشرين من عمره فأسلم وحسن إسلامه وهو لا يزال في ريعان شبابه ، وكان ساعد أبيه وعونه طوال عمله الديواني إلى وفاته سنة ٥٧٧ .

وكان القاضي الفاضل يعجب بابن ممانى ويسميه بلبل المجلس لظرفه ، مما جعله يعينه ناظر الدواوين بمصر مع إسناد ديوانى الجيش والمال إليه ، وظل له هذا العمل بقية مدة صلاح الدين وابنه العزيز والأفضل ، حتى إذا ولي السلطان العادل بن أيوب سنة ٥٩٦ واستوزر الصنى بن شكر أخذ الجوى يكفهر بينه وبين الوزير ، بسبب ما كان يصدر منه في حقه أيام عمله في الديوان معه ، فلم تمض مدة طويلة حتى أخذ يدبر عليه المؤامرات ، وصودرت أمواله . واستتر فترة نحو عام ثم احتال في الفرار إلى الشام ، وأبعد في فراره حتى نزل حلب سنة ٦٠٤ على سلطانها الظاهر بن صلاح الدين فأحسن استقباله ، وجعل له راتباً معلوما وظل يسبغ عليه عطاياه حتى توفى هناك سنة ٦٠٦ .

وصنف ابن ممانى مصنفات كثيرة عدَّ له ياقوت في معجمه منها أكثر من عشرين مصنفًا ، منها مؤلفات ومنها مختارات شعرية من بعض الدواوين أو من كتب الموسوعات الشعرية مثل الذخيرة لابن بسام . ومن مصنفاته « الشئ بالشئ يذكر » ويقال إن القاضي الفاضل أعجب به حين عرضه عليه وسماه سلاسل الذهب . ومن أهم مؤلفاته كتاب قوانين الدواوين الذى نشره بمصر عزيز سوريال عطية في جزء واحد ، ويبدو أنه مختصر للكتاب إذ يقول المقرئى في خطه : « كتابه قوانين الدواوين صنفه للملك العزيز فيما يتعلق بدواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها ومايجرى فيها ، وهو أربعة أجزاء ضخمة ، والذى يقع في أيدي الناس جزء واحد اختصره منها غير المصنف ، فإن ابن ممانى ذكر فيه أربعة آلاف ضيعة من أعمال مصر ومساحة كل ضيعة وقانون ربيها ومتحصلها من عين ( نقد ) وغلَّة » . ومن أهم مؤلفاته تهذيب أفعال ابن طريف في اللغة ، ويقول القفطى في إنباه الرواة : « أجاده ، وأتى فيه بالحسنى وزيادة » ومن أجله ترجم له بين اللغويين والنحاة . وله كتاب اختار العامية لغة له ، هو كتاب الفاشوش في حكم قراقوش ، وسنعرض له في غير هذا الموضع . وكان له ديوان شعرى سقط من يد الزمن . ونظم سيرة صلاح الدين كما نظم كتاب كليله ودمنة شعرا . وكان أبوه الخطير شاعرا كما تدل على ذلك ترجمته عند العماد وفي المغرب .

وكان ابن ممانى يحسن الكتابة كما يحسن الشعر ، وفيه يقول العماد : « أحد الكتاب في الديوان انفاضلى ، ذو الفضل الجليلى ، والشعر العلى ، والنظم السوى ، والخطاط القوى ، والسحر

المانوى<sup>(١)</sup> ، والروى<sup>(٢)</sup> الروى<sup>(٣)</sup> ، والقافية القافية<sup>(٤)</sup> أثر الحسن ، والقرحة المقترحة صورة  
 اليمن ، والفكرة المستقيمة على جدّد<sup>(٥)</sup> البراعة ، والفطنة المستمدة من مدد الصناعة . وبعد  
 أن أشدّ العباد طائفة من أشعاره روى فصولا من رسائله الشخصية تدل على براعته الكتابية بجانب  
 براعته الشعرية مستهلا لها بقوله : « ومن نور<sup>(٦)</sup> نثره البديع ، ونور فجره الصديق<sup>(٧)</sup> وغرر درره  
 النصيحة<sup>(٨)</sup> ودرر غرره الصنيعة<sup>(٩)</sup> ، مأخذى<sup>(١٠)</sup> له بهائم القائم . وتُخذى<sup>(١١)</sup> به كرائم  
 المكارم ، ويرتّع<sup>(١٢)</sup> الحسن في روضه ، وتكرع<sup>(١٣)</sup> الحسنة من حوضه ، وتغتبط الآداب بدابه<sup>(١٤)</sup> ،  
 وترتبط الأبواب بيباه . »

ومن طريف مادونه له العباد فصل من رسالة شخصية يصور فيها فراقه لصديق في إحدى  
 الأسميات قائلا :

« فصلت عنه في أخريات النهار ، وقد ظهر في أطراف الجدران لفرق<sup>(١٥)</sup> فراق الشمس  
 اصفرار ، فلما ذهب ذهب الأصيل بنار الشفق ، ولبست المشارق السواد لما تمّ في المغرب على  
 الشمس من الغرق ، وأقبلت مواكب الكواكب في طلب النثار ، كدراهم النثار<sup>(١٦)</sup> وتشابهت  
 زواهرها - وإن اختلفت في الأسحار - بالأزهار في الأشجار ، وتكلف القمر الموافقة فظهر على  
 وجهه الكلف<sup>(١٧)</sup> ، ومرّت به طوالع النجوم فلم يستخبرها حسدا فأعرب عن غدر الخلف  
 بالسلف ، وظهر الوجوم ، في وجوه النجوم ، وعيل صبر التسرّين<sup>(١٨)</sup> فواحد طائر يجوم ، وآخر  
 واقع لا يقوم . ولم تزل متلاحقة متسابقة لتقفوا الأثر وتسمع الخبر ، إلى أن بدا سوسن الفجر  
 ولاح ، وابتسم نغر الصباح عن الأقاح<sup>(١٩)</sup> ، وكاد ثعلبه يأكل عنقود الثريا ، وبرزت الغزاة من  
 أس الكناس<sup>(٢٠)</sup> طلقة الحيا . »

- (١) المانوى نسبة إلى ماني مؤسس مذهب المانوية الفارسي قبل الإسلام  
 (٢) الروى الأولى : الحرف الذي ثبني عليه القصيدة  
 والروى الثانية من الماء أى شاق الغلة .  
 (٣) القافية الأولى : نهاية البيت في القصيدة ، والقافية  
 الثانية من قفا الشيء أى تبعه .  
 (٤) جدد : نهج مستر (٥) نور : زهر  
 (٦) الصديق : المنشق نورا (٧) النصيحة : الناصحة  
 (٨) الصنيعة : البديعة .  
 (٩) مأخذى : تقطع . بهائم : مبهات . القائم : التعاويد  
 (١٠) كرائم : شجرة يستتر به . طلقة الحيا : بشة الوجه .  
 (١١) تغتبط : تساق بالأراجيز والأشعار .  
 (١٢) دابه : تسهيل دابه أى غطه (١٣) فرق : جزء  
 (١٤) النثار : ما يثر على العروس في الزفة من الدراهم  
 (١٥) الكلف : ما يملو وجه القمر أحيانا من كلدرة  
 (١٦) التسران : نجان أحدهما يسمى السر الطائر ويسمى  
 الثاني السر الواقع  
 (١٧) أقاح : جمع أقحوان وهو نبت زهره أبيض وورقه  
 كأسنان المنشار وهو الأراولة ويشبه به الاسنان .  
 (١٨) الغزاة : الشمس . الكناس : بيت الغزاة في  
 الشجر يستتر به . طلقة الحيا : بشة الوجه .

وبدل هذا الفصل على أن العماد الأصهباني كان محققا كل الحق في التنويه ببراعة ابن ممانى الكتابية ، وهى براعة تكاد تبدو في كل سجة من سجمات هذا الفصل ، فأضواء الشمس في الأصيل تعكس بصفتها على أطراف الجدران فرقا وفرعا لهول الفراق . وتوارى ذهب الأصيل وراء نار الشفق اللتاع ، وليست المشارق السواد على الشمس الغربية في المغرب . وأقبلت مواكب الكواكب ، وجيوشها تطالب للشمس بالثار ، متفرقة ومتجمعة وكأنها نثار الدراهم في الأعراس ، أو كأنها الأزهار على الأشجار في الأسحار ، وتكلف القمر أن يظهر وحده لغياب الشمس أخته فظهر الكلف على وجهه ، ومرت به الكواكب وطوالها فلم يسألها ما الخبر ، حسداً وغدراً كما يغدر الخلف بالسلف . وبدأ الوجوم في وجوه النجوم ، وكاد السران أن يفقدا صبرها فواحد طائر يحوم وآخر واقع لا يقوم . ولم تزل النجوم متلاحقة ، إلى أن بدا سوسن الفجر وزهره الأبيض المشرق ولاح ضياؤه ، وابتسم ثغر الصباح عن أضواء كالأفاح . وطالما شبه الشعراء مجموعة نجوم الثريا بالعنقود . ويستغل ذلك ابن ممانى ، كما يستغل تسمية الشعراء للشمس الغزاة فجعلها تستر ليلا وراء الأفق في كناس ككناس الغزال والظباء في الشجر . ومراعاة النظر واضحة في السجمات الأخيرة . ويشيع في الفصل كله حسن التعليل ، كتعليل ابن ممانى الرائع لصفرة الأصيل على أطراف الجدران ، وتعليله لانتشار الظلام في بواكير الليل على المشارق حزنا على غرق الشمس ، وهو حزن تبعه لبس السواد ، ومن هذا اللون أيضا تعليله لكلف القمر لتكلفه الحزن على غرق الشمس . ويتأدى ابن ممانى مع مراعاة النظر ، فيجعل القمر لا يسأل الكواكب عن مصير الشمس حسدا يستشعر فيه من تلقاء نفسه غدر الخلف المعروف بالسلف . ومن هذا اللون أيضا ما علل به طيران أحد النسر من وقوع صاحبه لما فقدا من صبرهما . وتلاحق في تضاعيف ذلك الاستعارات ، وما يوشى به سجمات من الجناسات والطباقات . وله من صدر مكاتبة :

« لم يزل العبد لما عرض من إعراض المجلس .. ذا زفرات سوام تصرم<sup>(١)</sup> ، وعبرات هوام تصرم<sup>(٢)</sup> ، وعبارات عن بسط عذره تعثر بالكلام عيا فيتدمم<sup>(٣)</sup> ، بالصمت عن أن يتحز و يتحرم<sup>(٤)</sup> ، وأفكار تنزّه عن إساءة الظن بمودته فما يتكدر حتى يتكرم ، فكم تناول القلب جلده ، فجلده بالقلق لما تجاوز حده وحده<sup>(٥)</sup> ، وأجرى من سوابق دموعه عسكريا أجرى فشق

(٤) يتحرم : يجده حراما

(٥) حده : ضربه بالسياط

(١) سوام : لازمة لا تبرح . تصرم : تشتغل

(٢) هوام : سائلة . تصرم : تنقطع

(٣) يتدمم : يتوسل

خَدَّهُ وَخَدَّهُ<sup>(١)</sup> .. إلى أن بدت صحيفة وجه صَبْرِهِ مسوِّدةً ، وتمنى لو كان الموت قبل إخلافه وعَدَهُ ، وإخلاقه وَدَّهُ<sup>(٢)</sup> وَدَّهُ<sup>(٣)</sup> ، حتى جَنَى وَرَدَ ورود كتابه الكريم من انتظام شوك انتظاره ، ورفع ناظره بقدمه عليه على كَأَفَّةِ أمثاله وأنظاره ، فعلم أن عَلمَ المودة قد رُفِعَ ، وموصول جبل الجفوة قد قُطِعَ ، وكاد القلب يخرج لمصافحته لو استطاع نفاذاً ، واجتمعت فيه أمانى النفس ، فاتخذته دون جميع الملائم مَلَادًا<sup>(٤)</sup> . وتناوله بيد الإجلال ، وقضه بيد الإدلال ، فوجده منظوماً على خطِّ كالكتوس المرصعة لما لاح مداده مُدَامًا ونقطة حَبِيْبًا . وألفاظ تتيح للخواطر طرباً ، وتبريقاتٍ لو كان التصريح فضة لكانت ذهباً ، ومَنَى مالاحت سحائبها حتى وَكَفَتْ<sup>(٥)</sup> وأباید ما استكفت فواضلها حتى عَمَّتْ وَكَفَتْ .

ووشى الجناسات والاستعارات واضح في هذا الفصل ، فالزفرات تنصَّرمُ والعبرات تنصَّرمُ بينا يتدم بالصمت ويتحرم . ولانثب أن تلقانا جناساته التامة . فالقلب يلوذ إزاء إعراض صاحبه عنه في مجلسه بجلده فيضربه بأسواط القلق ، حين تجاوز حدَّه ومنتهاه ، ويحدُّه كما يُحدُّ الجناة ، وتجري سوابق دموعه فتشق خده وتحدُّه أى تشقه وتؤثر فيه ، وتخلق وتبلى نودة صاحبه فيتمنى لو كان الموت ودَّه وزاره . ويعود ابن ممانى إلى هذا الجنس التام بين « الملائم وملاذًا » كما يعود إليه في نهاية الفصل حين وكفت السحب أى أمطرت وعمت فواضل صاحبه وكفت من الكفاية . وتلقانا في الفصل مراعاة النظر والعلباق ، وكأنما كان ذلك شعاراً له في نثره . ومن طريف مآثر عنه من تصويره لوفاء النيل قوله .

« وأما النيل المبارك فإنه عمَّ البقاع<sup>(٦)</sup> ، وطبَّق<sup>(٧)</sup> ، البقاع ، وانتقل من الإصبع للذراع ، حتى لم يُلَفَّ بمصر قاطع طريق سواه ، ولا موهوب مرهوب إلاياه . »

وهو يصور في هذه الكلمات القليلة فيضان النيل بل طوفانه الذى لا يقاس بالإصبع وإنما بالذراع والذى علا موجه مرتفعات الوادى وجميع البقاع ، حتى قطع الطرق وأخذ بجنات الدور والسكان ، ورهبه الناس وطلبوا منه الأمان . ولعل في كل ما قلنا ما يصور قدرة ابن ممانى البيانية

(١) خده : شقّه وأثر فيه

الكفاية

(٢) إخلاق الشيبى : جملة باليا

(٣) ودّه : زاره

(٤) ملاذاً : ملجأ

(٥) وكفت : أمطرت ، وكفت في آخر الفصل من

(٦) البقاع هنا : مرتفعات وادى النيل

(٧) طبَّق : عمّ

وأنه كان جديرا بأن تعنى كتب الأدب والتراجم . بشعره ونثره ، وتحمل إلينا باقات كثيرة من رسائله .

### فخر الدين <sup>(١)</sup> بن مكانس

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد الرزاق بن إبراهيم بن مكانس ، من سلالة أسرة قبطية ، ولد لأبيه سنة ٧٤٥ بالقاهرة . وكان الأب مسلما كما يتضح من اسمه ، وكان من الكتاب في الدواوين ، فنشأ ابنه على غزاه ، وكان ذكيا ذا ملكة خصبة ، فسال الشعر مبكرا على لسانه . وصحب برهان الدين القيراطي وبدر الدين البشتكي الشاعر أحد تلاميذ ابن نباتة ، وعنه روى شعره ونثره . وكان حنفي المذهب . واحتل سريعا مكانة أدبية بين أقرانه في القاهرة ودواوينها السلطانية ، ورفى بها إلى منصب ناظر الدولة ، وغيره من المناصب الرفيعة . وغضب عليه السلطان برقوق (٧٨٣-٨٠١) فلت مرة فأمر بمصادرته وتأديبه على خشبة السرياق منكسا على رأسه ، قال :

وما تعلقتُ بالسرياق منتكسا  
لكنني مذ نفتتُ السحر من أدني  
لجريمة أوجبت تعذيب ناسوق <sup>(٢)</sup>  
علقتُ تعليق هاروت وماروت

ويدل البيتان على ظرفه . وعفا عنه السلطان برقوق وأعادته إلى العمل ، ثم عينه وزير دمشق ، فأقام بها مدة . وفي صحبة السلطان برقوق دخل حلب ، وطارح فضلاءها كما طارح فضلاء دمشق . وطلبه السلطان برقوق بعد عودته إلى القاهرة ليلي الوزارة بالديار المصرية ، غير أنه توفي قبل دخوله القاهرة ، ودفن بها سنة ٧٩٤ قبل أن يكمل سنته الخمسين . وخلف ديوان شعر كبير ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطتان منه إحداهما بخط ابنه مجد الدين وكان شاعرا بارعا على شاكلة أبيه ، وقد أنشدنا بعض شعره البديع في غير هذا الموضع .

وأشاد بفخر الدين كل من ترجموا له ، فيقول ابن حجر في الدر الكامنة : « كان قوى الذهن حسن اللوق حاد النادرة يتوقد ذكاء » ويقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان أدبيا فاضلا شاعرا

٣١٩ ، ٣٣٠ ، ٤١١ ، ٥٤٧

(١) انظر في ابن مكانس وترجمته ونثره وشعره الدر

(٢) لجرمة : لجرم أى لذنب . ناسوق : جدى .

الكامنة ٤٣٨/٢ والنجوم الزاهرة ١٣١/١٢ وصبح الأعشى

٢٦٧/١٤ وعزارة الأدب للمحموى ص ١٩ ، ٢٢٤ ،

فصيحاً بليغاً .. وهو أحد فحولة الشعراء بالديار المصرية في عصره ، وشعره في غاية الحسن والرقّة والانسجام ، وديوان شعره مشهور كثير الوقوع بأيدي الناس « وكان كثير التورية فيه على نحو ما يتضح مما رواه له مترجموه وخاصة الحموى صاحب خزانة الأدب . وله رسائل شخصية تدل على روعته البيانية ، من ذلك رسالة احتفظ بها القلقشندي في صبحه كتب بها إلى بدر الدين البشتكي في غيبته عن مصر بدمشق سنة ٧٨٤ وتصادف أن كان فيضان النيل عالياً وزاد زيادة مفرطة ، فرأى أن يصور له ذلك قائلاً :

« رَبَّنَا اجْعَلْنَا فِي هَذَا الطوفان من الآمنين ، وسَلِّمْ عَلَى نوح في العالمين . مات أخيراً مولانا ببحر العلم وشيخه عن رؤية هذا الماء ؟ .. فإنه قارب النيل أن يمتزج بنهر الحجر بل وصل وامتزج ، وأرانا من عجائبه ما حقق أنه المعنى بقول القائل : حَدَّثَ عن البحر ولا حرج .. وسَقَى الناس من ماء حياته المعهودة كما شربوا من الموت أصعب كاس ، وسُئِلَ ابن أبي الرِّدَاد عن قياس الزيادة فقال : زاد بلا قياس ، امتلأ اليَاب (١) ، وهال العُباب ، كال فطْفَف ، وزار فما خَفَّف ، جمع في صعوده إلى الجبال بين الحادى والملاح ، ودخل الناسُ إلى أسواق مصر وخصوصاً سوق الرقيق على كل جارية ذات ألواح (٢) ، وغَدَاَ التَّيَّار ينساب في كل يَم كالأَيْم (٣) ، وأصبحت هضاب الموج في سماء البحر وكأنما هي قطع العَيْم ، واستحالت الأفلاك فكل بُرْج مائى ، وتغيّرت الألوان فكل مافى الأرض سماءى .. وتحالى إلى أن أقرف (٤) الليمون الأخضر ، واحمَرَّت (٥) عينه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر ، ولقد صعب سلوكه وكيف لا وهو البحر المديد ، وأصبح كل جدول منه جعفرًا (٦) ويزيد .. ولكم قال الهرم للسَّارِن ، ياسارية الجبل ، وأنشد وقد شمر ساقه للخوض : أنا الغريق فما خوفى من البلبل ، وكم قال أبو الهول : لاهول إلأ هولُ هذا البحر ، وقال المسافرون : مارأينا مثل هذا النيل من هنا إلى ما وراء (٧) النهر .. ولورآه مولانا وقد هجم على مصر فجاس خلال الديار .. ودخل إلى المعشوق فتركه كالعاشق المهجور لم يرُ منه غيرُ الآثار ، لبكى بعيني عُرْوَة (٨) ، وأوى من الرِّصْد إلى رَبْوَة .. وكل سفينة قد علت على وجه الماء ، وارتقت لارتقاء البحر إلى أن اختلطت بالسماء ، وقد قالت لها أترابها عند الفراق إلا ترجعى ،

(١) الياب : القفر والحراب .

(٦) الجعفر : النهر الصغير .

(٢) يريد السفن

(٧) ما وراء النهر : ما وراء خراسان في شمالها الشرقى

(٣) اليم : البحر . الأيم : الحية الذكر

(٨) عروة هو عروة بن حزام العاشق المشهور في صدر

(٤) أقرف هنا : عطّر ، من القرقة المعروفة طيبة الرائحة

الإسلام

(٥) احمرت عينه : كتابة عن الحمرة في طمى النيل

وقلنا لها نحن على سبيل التفاؤل : ( ياسماء أقلعي <sup>(١)</sup> ) .. ولقد طار التسرُّ مبلولَ الجناح ، ودنا نهر  
البحر من الشكاري بالشخاتيت <sup>(٢)</sup> إلى أن كاد يدفعه من قام بالراح ، ونرجسُ البساتين وقد  
ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم .. والورد وقيل له مالك من آس ، وغُصن البان وقد قيل له  
طوبى لمن عابقتك ولا باس .

ونكتفي بهذه المقتطفات من الرسالة فإنها طويلة ، وهي رسالة بديعة في وصف فيضان النيل  
وسمو أمواجه وارتفاعها إلى أعلى الأعلى في شولطىء النيل حتى كادت أن تمتزج بالبحر في السماء  
كما يقول ابن مكنس ، فإذا الحادى للإيل يلتقى بالملاح ، وإذا الناس يدخلون إلى أسواق مصر  
والفسطاط على سفن ذات ألواح . فقد انسابت غدرانها وأمواجه إلى الطرقات والشوارع وتعال  
هضاب أمواجه إلى السماء حتى لكأنها قطع السحاب . ولم تعد هناك أرض وسماء ولا أفلاك  
ووهاد ، وحلا النيل وتظرف حتى عطر الليمون الأخضر ، واحمرت عينه إشارة إلى طميه  
الأحمر ، فأغرق الناس وأذاقهم الموت الزؤام . ويستمر ابن مكنس في هذه الاستعارات ،  
فينخلط بين النيل وبين وزن المديد الصعب في الشعر وبحره وكذلك بين جداوله والجعفر أى النهر  
الصغير . ويستعير الكلمة المأثورة عن عمر بن الخطاب وهو على المنبر حين هتف بقائده سارية وهو  
يحارب في الشام فقال له ياسارية الجبل أى الزمه ويقال أن الريح حملت الكلمة إلى سارية .  
وما أروع تصويره لهرم الجيزة وقد شمر ساقه للفيضان حين علا إلى جدرانها فقال متمثلاً بشطر من  
الشعر : أنا الغريق فما خوفي من البلبل . وقد ورى بكلمة ماوراء النهر فهو لا يريد ماوراء النيل من  
بلاد السودان وإنما يريد ماوراء خراسان في أوزبكستان الحالية وكانت تسمى بلاد ماوراء النهر .  
والمعشوق بستان ورباط عظيمان كانا بظاهر القاهرة . وقد اقتبس من الحديث عن الطوفان في  
القرآن الكريم : ( ياسماء أقلعي ) . وتلقانا في الرسالة آيات أخرى وأشعار كثيرة منثورة . وما أسرع  
ما جاء باقتباس من سورة يوسف عن أبيه وقد أسف عليه : ( وايضت عيناه من الحزن فهو  
كظيم ) . وورى في كلمة آس فهي تحمل معنيين : الآس زهر وردى أو أبيض ، والآسى الطيب  
المداوى . والاستعارات بديعة هي وما تتحلّى به من زخارف البديع وحلاه ومحسناته من جناس  
وطباقات ومراعاة نظير وحسن تعليل .

ووشى شخص قبروانى ضرير إلى أبى بكر بن العجمى أحد الكتاب النابهين في ديوان الإنشاء

(٢) الشخاتيت : لعلها القوارب .

(١) أقلعي : أمسى عن الماء .

بأن صديقه ابن مكناس يقول عنه إنه يستعين بكلام غيره ، فتأذى ابن العجمي من ذلك .  
وتأذى ابن مكناس من كذب الناقل فكتب إليه من رسالة :

« ( ليس على الأعمى حرج ) بلغني - ما بلغ سيدنا ومولانا الإمام العالم العلامة الأديب  
الشاعر الناظم الناثر المحقق الأمة الكاتب الحجّة زين الدنيا والدين ، قرة عين الكرام الكاتبين ،  
لازال زينة يحلّي به العاطل ، ويُظَلّ تحت جناح أديه القائل<sup>(١)</sup> - من غيبة ذلك الضرير ،  
مالاخشى الله فيه يظهر الغيب ، ونقل إلى المسامع الكريمة ما لا يحتاج للاعتذار عنه لما فيه من  
الرّيب ، ولكن لاغناء لسيف ذهن المملوك الكليل من التنصل ،<sup>(٢)</sup> ولا بد من نهلة اعتذار على  
سبيل التعلل .. ولو اختلف الأدياء على إمام لأهل هذه الصناعة مطهّر من الأرجاس<sup>(٣)</sup> ، لقال  
لهم لسان البلاغة مروا أبا بكر فليصل بالناس .. والمستول من إحسانه أمران : أحدهما الجواب فإنه  
يقوم عند المملوك مقام الفرج من هذه الشدة ، والآخر ردّ كل فاسق عن الباب العالی فن أبا بكر  
أول من تصلّب<sup>(٤)</sup> في الردة ، وبلغ المملوك أن هذا الضرير قصد بعض الأصحاب برمّية كهذه  
فأصمى<sup>(٥)</sup> ، وتردّد إليه مرة أخرى ف(عبسَ وتولّى أن جاءه الأعمى) ..

والسجعات خفيفة رشيقة مع مايزينها من الاستعارات والجناسات ، وفي كلمة « القائل »  
تورية واضحة ، إذ لا يريد أن ابن العجمي يُظَلّ تحت جناح أدبه الأديب المتكلم القائل ، وإنما  
يريد القائل من القيلولة وقتها الحار في الظهيرة ، فهو غوث العائدين وملاذ المعوزين المحتاجين .  
واستغل اسمه أبا بكر في التورية باسم أبي بكر الصديق متلطفًا بذكر حادث صلواته بالمسلمين نزولا  
على أمر الرسول ﷺ له حين اشتد به المرض إذ قال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » . وعاد ابن  
مكناس إلى التورية بأبي بكر الصديق حين طلب من ابن العجمي أن لايفتح بابه للواشي مقتديا في  
ذلك بالصديق حين تشدد في حروب الردة على نحو ما هو معروف . ولم يلبث أن اقتبس من الذكر  
الحكيم آية تصور ماينبغي على ابن العجمي من لقاء الواشي لقاء متجهها على نحو ماتصور ذلك  
الآية : ( عبسَ وتولّى أن جاءه الأعمى ) . ولعل في كل ماقدمت مايبصور خفة روح ابن مكناس  
وعذوبة سجعه ومايشيع فيه من سلاسة .

(١) القائل : التعب من القيلولة وهي وسط النهار

(٤) تصلب : تشدد

(٢) التنصل : التبره

(٥) أصمى السهم : أصاب إصابة نافذة

(٣) الأرجاس : جمع رجس وهو الإثم

## المقامات

معروف أن المقامة حديث قصصى قصير يصور كيف يحتال أديب متسول على سامعيه بسجعه وأساليبه الرشيقه ، فيستخرج الدراهم والدنانير من جيوبهم ، وهو جواب آفاق يظهر في بلدان كثيرة أديبا متسولا ينجلب الجماهير ببيانه وبلاغته ، وبديع الزمان الهمداني هو أول من ابتكر هذه الأحاديث القصصية ، على نحو ما هو معروف عن مقاماته ، ونسج على منواله الحريرى فى مقاماته المشهورة .

وأكبّ الناس على مقاماتها إكبابا شديدا مما دفع كثيرين من الأدباء فى الأقطار العربية المختلفة إلى محاكاتها ف هذا الفن البديع ، تارة يبنونه على الشحاذة الأديبة مثلها ، وتارة يستقلون عنها مكتفين فيه بضرب من الحديث القصصى الفكه . وقد يتكون القصص جانبا ، وبينون المقامة على الوعظ أو على عرض مسائل علمية ، أو على وصف الحيوانات ، أو وصف البساتين والحوار بين الأزهار ، وغير ذلك من موضوعات شتى . ولظافر الحداد الذى ترجمنا له بين الشعراء والذى توفى بعد الحريرى بنحو عشر سنوات مقامة (١) ، صوّر فيها نفسه وقد أصبح ذات يوم تائقا إلى لقاء بعض الأدباء ، ومطرته الح ، لم يلبث أن جاءته منهم رفقة ، فلتقاهم بالبشر والسرور وأخذ فى الحديث معهم ، حتى دن وقت الغداء فأسّر إليه غلام أن ليس عندهم للإنفاق إلا الإملاق ، وبينما هو يفكر فى وسيلة لإنقاذ الموقف إذا الباب يقرع وإذا رسول شواء كان قد خلصه من حبس الشرطة يرسل إليه بإناء كبير مليء بأرز ولحم وسكر . وبعد حوار مع غلامه هل يرجعه للشواء أو يقبله ، يقنعه بقبوله . ويشبع الضيفان ، ولا يجد عنده شيئا من فاخر الحلوى يقدمه لهم . ويقدم قصيدة يعتذر بها عن ضيق حاله ، ويستفزهم الضحك والطرب ، ويعودون إلى حديثهم العذب حتى غروب الشمس ، ويستهل ظافر مقامته على هذا النمط :

« أصبحت ذات يوم فى منزلى ، وقد كلّ جنانى وبتانى ولسانى وإنسانى (٢) ، من الذّاب فى الطلب ، والإكباب على الكتب ، ومتابعة المراجعة ، فى النسخ والمطالعة ، بين معنى أحكمه ، أو

(٢) إنسانى : يريد إنسان عينه

(١) انظر ديوان ظافر ص ٣٤٩

خطُّ أرقه<sup>(١)</sup> ، فتأقت النفس إلى الإحاض بمفاكهة أديب ، والارتياض بمذاكرة لبيب ، وإذا الغلام قد دخل وأسرع ، وقال : الباب يُقَرَّع . قلت له : ما الشأن ؟ فقال جماعة من الإخوان ، منهم فلان ، فذكر لي كل صديق صدوق ، ورفيق رفيق ، قلت : وبمك عَجَلٌ بفتح الباب ، وأدُنٌ للأحباب ، فهم نزهة النفس ، وثمرة الأنس .

وتمضى المقامة بهذا السجع الحقيف ، الذى يكاد يطير عن الأفواه طيرانا بعدوبته وقصره ، وحسن الاختيار للفظه . ويلقانا بأخرة من أيام الدولة الفاطمية الرشيد<sup>(٢)</sup> بن الزبير المتوفى سنة ٥٦٢ وهو أخو المهذب الذى ترجمنا له بين الشعراء وكان شاعرا مثله ، ويقول ابن خلكان له ديوان شعر ، وكان من أهل الفضل والنباهة والرياسة صتَّف كتاب جِنان الجَنان ورياض الأذهان فى شعراء عصره ، وكان تكلمة لكتاب اليتيمة للثعالبي وسقط من يد الزمن ، وقال العماد الأصبهاني عنه : « أوجد عصره فى علم الهندسة والرياضيات والعلوم الشرعية والآداب » ويقول ياقوت عنه : « كان كاتباً شاعراً ، فقيهاً نحوياً لغوياً عروضياً مؤرخاً منطقياً . مهندساً ، عارفاً بالطب والموسيقى والنجوم متفتناً » . ومن كتبه كتاب مئنة الأملعى وبلغة المدعى ، وهو موسوعة علمية . وصور معارفه الكثيرة فى مقامة تسمى المقامة الحصصية<sup>(٣)</sup> ، استعرض فيها جوانب من معارفه العلمية الواسعة ، وهو يدير فيها الحوار بينه وبين طائفة من العلماء بادنا بعالم نحوى مورداً عليه من النحو ومسائله ما يبهره . ويصنع نفس الصنيع بعالم بلاغى ، ويتوالى حواراه أو حديثه مع علماء العروض والفقه وأصوله والتفسير والتأويل والفلسفة والمنطق والهندسة والحساب والرياضة وعلم الفلك والهيئة والأجرام والكواكب العلوية وعلم الطب . حتى إذا أنهى المقامة تلاها بشرح لما جاء فيها من مسائل هذه العلوم ومصطلحاتها . والمقامة تموج بالسجع ، من ذلك قوله فى مطالع مقامته ناعياً على من لا يعرفون سوى علم أو علمين ويعمدون إلى التزئى بزى الزهاد والصوفية احتيالا على الناس ليسبغوا عليهم من أموالهم ، وهم لا يقدرّون العلوم حتى قدرها فضلا عن التغلغل إلى مسائلها ومشاكلها :

« أحسبم يا أعلام الضلال أن كل من نظر فى علم أو علمين وحفظ مسألة أو مسألتين ثم قصر سرباله<sup>(٤)</sup> ، وقصر سيباله<sup>(٥)</sup> ، مظهرًا للنسك والزهادة ، متعرضاً للاستفادة فى معرض

(١) أرقه : أكتبه  
(٢) انظر فى الرشيد وترجمته الخريدة ( قسم شعراء مصر )  
(٣) من هذه المقامة مخطوطة بدار الكتب المصرية ومخطوطتان بمكتبة الإسكندرية  
(٤) سرباله : ثوبه  
(٥) سيباله : شاربه  
٢٠٠/١ وابن خلكان ١٦٠/١ والشذرات ١٩٧/٤ ، ٢٠٣

الإفادة ، يستوهب بذلك الطعام ، ويستجلب الحُطام <sup>(١)</sup> ، ويحلب الحرام ، ويسمى بالشيخ الإمام ، قد صلح لأن يفصل بين العلوم ، ويميز بين المحمود منها والمذموم .

والمقامة كسابقها ليس فيها أديب شحاذ يروى حيله وما يحسن من الأساليب الأدبية ، فقد تحولت من بعض الوجوه إلى ما يشبه الرسائل إذ تناول موضوعا يحلُّ صاحبها فيه محل أبي الفتح الإسكندري عند بديع الزمان وأبي زيد السُّروجي عند الحريري .

ويعرض الأدفوى في الطالع السعيد طائفة من هذه المقامات أو الرسائل على السنة كتابها من أدباء الصعيد ، من ذلك مقامة <sup>(٢)</sup> أو رسالة لمحمد بن يوسف بن نحرير المتوفى بعد سنة ٦٦٥ يمنح فيها أميراً ويصف خروجه إلى الصيد ، من ذلك قوله فيها :

« خرج يوما مامع أناس ، وصل برهم بليناس ، كل منهم يهتز للأكرومة ، ويأوى إلى أشرف <sup>(٣)</sup> أرومة ، على خيل مسومة <sup>(٤)</sup> ، مثقفة مقومة ، ما بين جون أدهم <sup>(٥)</sup> ، أذكى من فارسه وأفهم ، إذا زاغ عن سينان ، أو انعطف لعنان ، وأشهب كرم ، له سالفه ريم <sup>(٦)</sup> ، كأنما خلق من عقيق أو تردى برداء شقيق ، إن أوردته الطراد ، أوردك المراد ، وهملاج <sup>(٧)</sup> إن زجرته ألب أديمه <sup>(٨)</sup> ، روضة بهار <sup>(٩)</sup> ، ينظر في ليل كالنهار ، ينساب انسياب الأيم <sup>(١٠)</sup> ، ويمر مرور الغيم ، لا ينبه النائم إذا عبر به ، ولا يحرك الهواء في سربه ، أخف وطأً من طيف ، وأوطأ من مهاده الصيف .. ولم يزل بنا المسير ، وكل منا في طاعة صاحبه أسير ، إلى أن قصدنا واديا ، كان لعيوننا باديا ، فما قطعنا منه عرضا ، حتى أتينا أرضا ، كأنما قرش قرارها زبرجد ، وصيغت ألوانها من لجبن وعسجد .. تُهدى للناشق ، أنفاس المعشوق للعاشق » .

والمقامة على هذا النحو قطع من الوصف المسجوع البارع للخيال وللكلاب الصيد .

(٦) ريم : ظبي أبيض . والفرس الأشهب : يخالط بياضه

سواد أو حمرة

(٧) الهملاج : الفرس في سيره بخنرة .

(٨) أديمه : جلده .

(٩) بهار : زهر أبيض .

(١٠) الأيم : الحية الذكركر .

(١) الحطام : متاع الحياة

(٢) الطالع السعيد للادفوى (طبع مطبعة الجمالية) ص

(٣) الأرومة : الأصل ، الأكرومة : إكرام

(٤) مسومة : مطعمة لأصالتها

(٥) جون أدهم : أسود

وتكثر المقامات في أيام الممالك ، وتأخذ طابع المناظرات والمفاخرات ، وكأنما تُنسى أصلها عند الهذاني والحريري نهائياً ، فلا بطلٌ صاحب حَيْلٍ ، ولا قصصٌ ، وإنما حجاج وجدال وتوليد لا يكاد ينتهي للأدلة والبراهين ، مع السفسة والمغالطة وقلب المحاسن مساوياً بفرض الإفحام وإظهار القدرة على القهر والغلبة ، ومع المبالغات والإفراط فيها بهدف الاستعلاء . ومن طريف هذه المقامات والمفاخرات المفاخرة بين السيف والقلم لابن نباتة <sup>(١)</sup> ، وفيها يستهل القلم مفاخرته بقوله تعالى : ( ن والقلم وما يسطرون ) وهي براعة استهلال واضحة ، وما يلبث أن يقول ابن نباتة عنه .

« إن القلم منار الدين والدنيا ، ونظام الشرف والعليا ، وزمام أمور الملك السائرة ، وقادمة <sup>(٢)</sup> أجنحة الطائفة ، ومطلق أرزاق عُقَاتِهِ <sup>(٣)</sup> المتواترة ، وأتملة الهدى المشيرة إلى ذخائر الدنيا والآخرة ، به رقم كتابُ الله الذي لا يأتیه الباطل وسنة نبيه ﷺ التي تهذب الخواطر الخواطل <sup>(٤)</sup> .. إن نظمتُ فرائد العلوم فلإنما هو سلكها ، وإن علتُ أسرة الكتب فلإنما هو ملكها .. وإن وعد أوفى يجلب النفع ، وإن أوعد أخاف كأنما يستمد من النفع <sup>(٥)</sup> . »

ويستمر القلم في هذه المفاخرة ، فهو الذي يأمر بالجهاد والسيف نائم في قرابه ، وهو الذي يأمر بالعدل والإحسان ، مع المحاماة عن الدين وما ينزل بالأعداء من الرعب . وكأن ابن نباتة يريد أن يُعَلِّ فضلَه على السيف حتى في الحرب وجهاد الأعداء . ويستغفر القلم من الشرف وخيلائه والخيلاء وكبرياته . وينبئ السيف مدافعاً عن حماه مستهلاً كلامه بقوله تعالى : ( وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناس وليعلم الله من ينصره ورُسله بالغيب إن الله قوي عزيز ) ويحمد الله الذي جعل الجنة تحت ظلال السيوف . ويفاخر القلم بعزيمه الثاقب وفتوحه ، مما جعل الناس يدخلون في دين الله أفواجا . ويتفض القلم في دواته ويضطرب على وجه القرطاس ، وينفجر قائلاً للسيف في حدة وعنف .

« أتفاخرني وأنا للوصل وأنت للقطع ، وأنا للعتاء وأنت للمنع ، وأنا للصلح وأنت للضراب ، وأنا للعمارة وأنت للخراب ، وأنا للمعمر ، وأنت المدمر .. وأنا ذو اللفظ المكين وأنت

(٤) الخواطل : الحائدة عن الصواب

(١) خزانة الأدب للمحمي ص ١٣٠ ، ٤٤٥

(٥) النقع : غبار الحرب . والوعد يكون في الخير والإيعاد

(٢) قائمة الأجنحة : ريشات أربع كبار في مقدمة

في الشر

الجناح

(٣) عقاته : طلاب معروفه .

من دخل تحت قوله تعالى ( أَوْ مَن يَنْشَأُ فِي الْحَيَّةِ ) وهو في الخصام غير مبين ) لقد تعدت حدك ، وطلبت ما لم تبلغ به جهدك ، هيات أنا المنتصب لمصالح الدول وأنت في الغمد طريح ، والمتعب في تمهيدها وأنت غافل مستريح .. أين بطشك من حلمي ، وجهلك من علمي .. وأين نذير الأعداء من رسول الأحباب .

ويرد عليه السيف مغيظاً محتقاً ، ويكيل له الكيل كيلين .. ويشعر القلم أخيراً بفضل السيف ، ويميلان إلى الصلح معترفين بأنها للملك كاليدين وفي آفاقه كالقمرين . وهي مقامة أو قل مناظرة بديعة دُبجت بأسلوب يتدفق بالسلاسة وخفة السجع ولطف مآخذه ودقة معانيه . وابن نباتة في نثره مثل شعره يمتاز بالصفاء مع الرصانة والرونق وجمال اللفظ وحسن اختياره . ولا ين مكانس الذي ترجمنا له بين كتاب الرسائل الشخصية مقامة في ديوانه المخطوط بدار الكتب المصرية بناها على الفكاهة والمجون إذ أدارها على الشراب . وقد جعلها حواراً بين عشرات من الأشخاص يمثلون ما كان بالقاهرة لزمه من المهن والصناعات .

وتظل المقامات حية في الفترة العثمانية، وينحوا بعضها نحو الفكاهة والمجون والدعابة أو نحو الهجاء كما سترى عند الشهاب الخفاجي ، وسنخصه بكلمة ، وكثير منها يتخذ المديح موضوعاً له ، من ذلك مقامتان <sup>(١)</sup> لمصطفى اللقيمي اللمياطي المتوفى سنة ١١٧١ مدح بها الأمير العثماني رضوان كئخدًا ، وإحداهما طويلة وتكثر فيها مقطوعات الشعر ونقرأ بها قصيدتين ومزدوجة في مديح الأمير . ولحسن شمه مقامة <sup>(٢)</sup> في مديح الشيخ محمد بن سالم الحفناوي الشافعي الحلوني ضمَّنها سائر الفنون الشعرية من النسيب والموشح والدوييت والزجل والكان وكان والقوما والمواليا مع العناية بالسجع في نثرها وحشد محسنات البديع ، وجددير بنا أن نترجم لبعض أصحاب المقامات والمفاخرات .

### ابن <sup>(٣)</sup> أنى حَجَلَة

هوشهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد أنى حجلة التلمساني الأصل . ولد بزواوية جدّه أنى حجلة بتلمسان سنة ٧٢٥ ورحل في بواكير حياته إلى الحج ودخل دمشق ، ثم

تفرى بردى ١٣١/١١ وحسن المحاضرة ٥٧١/١ وشذرات

الذهب لابن العماد ٢٤٠/٦ وصبح الاعشى ٢٧٦/١٤ .

والحجلة : طائر في حجم الحمام أحمر الرجلين والمقار .

(١) تاريخ الجبرتي ٢٢١/١ وما بعدها

(٢) تاريخ الجبرتي ٢٩٠/١

(٣) انظر في ابن أنى حجلة الدرر الكامنة لابن حجر

(نشر دار الكتب الحديثة) ٣٥٠/١ والنجوم الزاهرة لابن

استوطن مصر ، وأولع بالأدب حتى مهر فيه ، واعتنق المذهب الحنفي مع ميله إلى المذهب الحنبلي . ولم يلبث بمصر أن أصبح شاعرا بارعا فاضلا وكاتبنا ناثرا ، وولى مشيخة الصوفية بخانقاه منجك اليوسفي بظاهر القاهرة . وكان يكثر الإزراء على أهل الوحدة من الصوفية ، كما كان يحمل على ابن الفارض وأمتحن بسببه . وعارض جميع قصائده بقصائد نبوية . وما زال يتولى خانقاه منجك حتى توفي سنة ٧٧٦ للهجرة . ويقول ابن تغرى بردى : له مصنفات كثيرة تبلغ ستين مصنفا ، وأكثرها كتب أدبية ومن أشهرها : «سكر دان السلطان» و«ديوان الصباية» وهما مطبوعان .

ومعنى سيكردان إناء السكر وقد أهداه بعد سنة ٧٥٥ إلى سلطان مصر المملوكى السلطان حسن ابن محمد الناصر بن قلاوون ، وهو يدور فى معظمه حول العدد ٧ وأهميته فى تاريخ مصر وأحداثها . وقد جعله فى مقدمة وسبعة أبواب ، ويذكر فى الباب الأول خاصية العدد : ٧ . ويتحدث فى الباب الثانى عن السلطان حسن وأنه سابع السلاطين فى أسرته . ويعرض فى الباب الثالث لإقليم مصر وصلة العدد سبعة به . ويعود فى الباب الرابع إلى السلطان حسن مع أحداث فصيرة عن تقدمه من ملوك مصر . ويخص الباب الخامس بأسرة السلطان حسن وجده قلاوون ويمتد به الحديث عن الأسرة فى البابين السادس والسابع . ويثبّع ابن أبى حجلة هذه الأبواب بأبواب سبعة أخرى ، يتناول فى أولها قصة يوسف وتفسير سورته . ويجعل الثانى لقصة موسى وفرعون ، والثالث للملوك مصر وبعض أخبارهم ، والرابع لسيرة الحاكم الفاطمى ، والخامس لبعض الأحداث بمصر ، والسادس لأحداث القاهرة . والسابع للزهراء السبع . وما ذكره عن الحاكم الفاطمى ، أنه لبس الصوف سبع سنين وأمر بإيقاد الشمع ليلا ونهارا مدة سبع سنين ومنع النساء من الخروج سبع سنين وسبعة أشهر ، وكان يقرأ نسبه على المنبر كل جمعة أو كل سبعة أيام ، وقُتل وهو يلبس سبع جبّات بعضها فوق بعض . ولاريب فى أنه بالغ فى ربط الأحداث التاريخية بالعدد ٧ ، ومع ذلك فالكتاب يشتمل على أخبار تاريخية كثيرة ، تجعل له من حيث التاريخ لامن حيث العدد ٧ غير قليل من الأهمية .

وكتاب ديوان الصباية - كما يتضح من عنوانه - يتناول العشق وكل ما يتصل به من الوصف المادى للمرأة ومن الزيارة والعتاب واللقاء والهجران والاستعطاف وإنشاء السر والكتان والغيرة ومن أحب من أول نظرة وأشهر العشاق ، وهو فى ثلاثين باباً ويزخر باختارات الشعرية والنثرية فى الحب والصباية . ووضع بين يدي أبوابه عن العشق أسبابه وعلاماته ، ويذكر طائفة من أحداث

الأدباء والفلاسفة عنه . ويختمه بذكر من مات بسبب عشقه . والكتاب كسابقه طريف في بابه . وربما كان أهم من الكتابين السابقين لابن أبي حجلة مقاماته ، وكانت مشتهرة في زمنه ، ويقول ابن حجر : « أنشأ مقامات أجاد فيها » . ويعرض القلقشندي لإحدى مقاماته وهي المقامة الزعفرانية الخاصة بفيضان النيل ووفاته ، ويقتبس منها نحو خمس صفحات كبيرة مقلما لها بقوله عنه ، « الأديب الذي كان حجة العرب ، والنائر الذي كان بنسبته إلى الطيور <sup>(١)</sup> محرّك المناطق وإلى الشعر صنّاجة الأدب » ويستمر في الثناء عليه حتى يقول : من مقامته الزعفرانية عن أبي الرّياش ، وكان ابن أبي حجلة سمّى راويها أبا الرياش ، ومن قوله فيها :

« إن النيل تزايد دفعه فقد امتزج بالمعصيرات تَبْجَاجُهُ <sup>(٢)</sup> ، وأَعْيَى طيبَ الغِيْطَانِ <sup>(٣)</sup> علاجه :

وشرّق حتى ليس للشرّق مشرقٌ وغرب حتى ليس للغرب مغربٌ

قلت : فافعل التَّغْيِيرَ <sup>(٤)</sup> ، بجزيرة الطَّيْرِ؟ قال : لم يبق بها هاتف يبشّر بالصباح ، ولا ساع يَسْمَى بِرِجْلٍ (ولا طائر يطير) بجَنَاح ، إلا اتخذ (نققاً في الأرض أو سُلْمًا في السماء) أو آوى (إلى جبل يَعْصمه من الماء) فأذاق بها الحمامَ الحمام <sup>(٥)</sup> في المروج ، وترك أرضها كسماء مالهًا من فروج ، وتلا على الحمام : (أيّنا تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بُروج) وكم في سماء ماها من نَسْرٍ واقع ، وبُومَةٍ تصفّر على ديارها البلاقع <sup>(٦)</sup> :

ومتهلّ فيه الغرابُ ميّتٌ سَقَيْتُ منه القومَ واستقيتُ

قلت : فصر؟ قال : زحف عليها بعسكره الجرار ، ونفط مائه الطَّيَّار ، قلت فالجيزة؟ قال . طفى الماء حتى علا على قناطرها وتجمّس ، ووقع بها القصبُ من قامته حين علا عليه الماء وتكسّر ، فأصبح بعد اخضرار بَرْتَه <sup>(٧)</sup> شاحب الإهاب ، ناصل الخِضاب ، غارقاً في قعر بحر (يغشاه مرج من فوقه موج من فوقه سحب) وقطع طريق زاويتها على من بها من المنقطعين والفقراء ، وترك الطَّالِح كالألح يمشى على الماء (فتنادوا مُضِحِّين) : (أن لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين)

(٣) الغيطان : الحقول

(١) يشير إلى كنية جده أبي حجلة كما يشير بتحريك المناطق إلى كتاب له سماه منطق الطير .

(٤) التغير : طائر صغير كالصغور

(٢) المعصرات : السحاب المطر نعمصره الريح .

(٥) الحمام : الموت . والجناس بينه وبين الحمام واضح

(٦) البلاقع : الخالية

تجاجة : سيله أو سيوله المتدافعة . يبالغ في عنوه حتى صافح السحب .

(٧) بَرْتَه : شارته وثوبه .

وأدرکہم الفرق فأیسوا (١) من الخلاص (فَعَشِيَهُمْ من الیَمِّ ماغَشِيَهُمْ) (ولات حين مناص (٢) )  
 و (خرّ عليهم السّفْفُ من فوقهم) فهُدَّت قواہم ، واستغاثوا من كثرة الماء بالذین آمنوا وعملوا  
 الصالحات (وقليل ماہم) قلت : فالروضة ؟ قال : أحاط بها إحاطة الکيام (٣) بزهره ،  
 والکأس بحباب (٤) خمرة :

فكانها فيه بساطٌ أخضرٌ وكأنه فيها طرازٌ مُذهبٌ (٥)  
 فلم يكن لها بدفع أصابعه يدان ، وكم أنشد مرّجها حين (مرّج (٦) البحرين يلتقيان) :  
 أعينى كُفًّا عن فؤادی فإنه من البغى سعى اثنين في قتل واحد (٧)

قلت : فدار (٨) النّحاس ؟ قال : أنحس حالها ، وأفسد ما عليها وما لها ، فدخل من حمامها  
 الطُّهر ، وقطع الطريق بالجامع الطُّهر ، فألحق مجازَ بابِه بالحقيقة ، ورقي منه على درجتين في  
 دقيقة .. قلت فجزيرة أروى ؟ قال : قد أفسد جُلُّ ثمارها ، وأنى على مغانيها (٩) فلم يدع شيئا من  
 رديها وخيارها ، أخلق ديباجة روضها الأنف (١٠) ، وترك قُلُقاسها في الجروف (١١) على شفا  
 جُرف (١٢) :

بعيني رأيت الماء يوما وقد جرى على رأسه من شاهقٍ فتكسرا  
 طالما تضرّع بأصابعه إلى ربِّه ، ولطم برءوسه الحيطان مما جرى من الماء على قلبه ، وتمثّل بقول  
 الأول :

وإن سألوک عن قلبی وما قاسی فقلّ قاسی وقلّ قاسی وقلّ قاسی  
 لم يُفیده تحصُّنه من ورقه بالدَّرَق (١٣) والستائر ، ولاحنّ عليه حين تضرّع بأصابعه فصحّ أن

(١) أيسوا : يشوا

(٢) مناص : ملجأ ومفرّ

(٣) الكيام : جمع كم بكسر الكاف : غلاف الزهرة قبل

أن تتفتح

(٤) الحباب : الفقاقع على وجه الكأس

(٥) جعل لون النيل مذهبا إشارة إلى ما كان يصحبه في

فيضانه من الطمي

(٦) مرّج : شقوق المخرات ومجاريه

(٧) شفا جرف : شفا : حرف : جرف : المكان يجرفه

الماء

(٨) الدرق : جمع درقة : الترس

(٩) مرج البحرين : أرسلها في مجريها متجاورين

(١٠) يشير إلى أن البحرين بأخذان بخناق جزيرة الروضة

الماء سلطان جائر .

وهو وصف رائع لفيضان النيل وعلو أمواجه ، كأنما يريد أن يبلغ عنان السماء ، وحلقت الطير في أعلى عليين فرقا منه واعتصم الناس بالكثبان والجبال . ويصف ابن أبي حجلة زحفه على القسطنط أو كما يسميها مصر وطغيانه على الجزيرة حتى علا قناطرها وجرّد القصب من بزّته ، وطأ عليه حتى غرق في قاعه ، وقطع طريق الزاوية أو خانقاه الصوفية وأدرّكهم جميعا الفرق في عبابه ، وخرّ عليهم السقف من فوقهم ، ولا ملجأ ولا مناص ، وأحاط بجزيرة الروضة إحاطة السوار بالمعصم ، ولم تستطع دفع أصابعه التي يقاس بها عادة طوفان فيضانه ، ولاردّ مجرّبه أو كما يسميها ابن أبي حجلة بمجرّبه من حولها آخذين بنخاقها ، كأنما يريدان أن تصيح خاوية على عروشها . ويصف دار النحاس وما أصابها وأصاب جامعها من مياهه المتدفقة ، ويصف ما أنزله بجزيرة أروى ومغانيا وكيف عمّ ما بها من الخضراوات مثل « القلقاس » وقد تكسر ، وهو يتضرع بأصابعه إلى ربه إذ أصبح عاليه سافله . وتبّت فوقه فروع ذات ورق عريض ، ويتصورها ابن أبي حجلة ستائر له ودرقا أو تروسا غير أنها لم تفده إزاء أمواج النيل وطوفانه .

ومعنى ابن أبي حجلة فيصور ما أصاب بولاق وغير بولاق من النيل في هذه اللغة العذبة التي عرف كيف يصب فيها وصفه للنيل وفيضانه . وهو يكسوها بألوان البديع من جناس وغير جناس ، ولا نحس أى كلفة . وقدرته على بث التصاوير في لغته واضحة ، وهي تصاوير رسمها مصور ماهر . ومن تنمة براعته الأدبية قدرته على اقتباس الأشعار في موضعها الملائم ، وأهم من ذلك قدرته على اقتباس الآيات والكلم القرآنية ، فتزيد لغته عذوبة ونصاعة ، وهو تارة يأتي بالآيات تامة ، وتارة يأتي بكلم منها . ويكثر ذلك في المقامة ، وقد وضعنا الآيات بين قوسين هلالين تمييزا لها . وقد تمثل في القلقاس بيت يحمل شطره الثاني جناسا طريفاً مع اسمه . وفي المقامة روح الدعابة والفكاهة المصرية ، وكأنه تشرها في استيطانه بمصر حتى الثالثة . والتورية عنده واضحة في قوله عن النيل بدار النحاس : « قطع الطريق بالجامع الظهر فألحق مجاز بابه بالحقيقة » ولكلمة مجاز معنيان : معنى قريب وهو ما يخالف الحقيقة بدليل اقترانها به ، ومعنى بعيد وهو المعبّر الى الجامع . وهو لا يريد المعنى القريب للقلب أى قلب الإنسان مما قد يفهم مع ظاهر استعارته ، وإنما يريد ما حدث للقلقاس من القلب فأصبح أسفله أعلاه ، وهي تورية بديعة . ولعل فيما قدمت ما يصور براعة ابن أبي حجلة الأدبية .

هو شهاب الدين أحمد بن علي وُلد بقلقشنده بالقرب من قليوب سنة ٧٥٦ وإليها يُنسب ، وهو من أصل عربي صميم إذ ينتمي إلى عشائر فزارة التي استوطنت مصر عقب الفتح الإسلامي ويبدو أنه نشأ في القاهرة ، وأخذ فيها ينهل من حلقات علماء الشافعية وغيرهم في زمنه ، وهو مع ذلك يعنى بالأدب والعلوم اللغوية . وفي نحو العشرين من عمره بارحها إلى الإسكندرية ونرى العالم الشافعي الكبير المعروف بابن الملقن يجيزه فيها سنة ٧٧٨ بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي كما يجيزه برواية مؤلفاته في الفقه والحديث وكل ما كان يرويه من الصّحاح الستة ومسند الشافعي ومسند ابن حنبل . وسرعان ما تصدر للإفادة وهو في الحادية والعشرين من عمره ، وأقبل عليه كثير من التلاميذ يأخذون عنه الفقه والأصول وعلوم العربية . وظل في ذلك نحو ثلاثة عشر عاما ، ألف في أثناءها شرحا في الفقه الشافعي على كتاب جامع المختصرات ومختصرات الجوامع سمّاه الغيوث الهوامع . كما ألف في أنساب القبائل العربية كتابين هما : « نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب » و« قبائل الحمان في التعريف بقبائل عرب الزمان » . ونراه في سنة ٧٩١ يترك مهنة التدريس للعمل بديوان الإنشاء ، وكان يرأسه بدر الدين بن علاء الدين بن يحيى بن فضل الله العمري ، وهو آخر من وليه من هذا البيت كما مر في ترجمة عمه ابن فضل الله العمري . واعترافا بفضلله أنشأ القلقشندي مقامة طويلة في تقريبه صور فيها صناعة الإنشاء وأصولها وعكف تَوًّا على تأليف كتابه « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » . وهو موسوعة ضخمة في أربعة عشر مجلدا ظل يُعنى بتأليفها في نحو ربع قرن من الزمان حتى سنة ٨١٤ وظل يراجعها ويزيد عليها حتى حين وفاته سنة ٨٢١ للهجرة .

ويتدئ القلقشندي صبح الأعشى بمقدمة تتناول فضل الكتابة ومدلولها وتفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة وصفات الكتاب وآدابهم والتعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وقوانينه ووظائفه ، ثم تتوالى عشر مقالات أو أقسام كبيرة ، والمقالة الأولى تتحدث عما يحتاج إليه كاتب

مقامات القلقشندي ومفارحاته صبح الأعشى ١١٢/١٤ ،  
٢٠٤ ، ٢٣١ . وصبح الأعشى مطبوع من قديم بدار  
الكتب المصرية في ١٤ مجلدا .

(١) انظر في القلقشندي الضوء اللامع للسخاوي ٨/٢  
وشلوات الذهب ١٤٩/٧ والمنهل الصافي لابن تغري بردي .  
٣٣٠/١ ومقدمة الجزء الأول من صبح الأعشى وتاريخ  
الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي ٤١٦/١ . وراجع في

الإنشاء من المعارف والأدوات المتعلقة بصناعته كالخط واللغة والنحو والبلاغة وغير ذلك من مختلف العلوم ، يشغل ذلك من الكتاب الجزء الأول بعد المقدمة والجزء الثاني وشطرًا غير قليل من الجزء الثالث . والمقالة الثانية تبدأ بالمسالك والممالك وبمعلومات تاريخية عن الخلافة الأموية والعباسية وبمعلومات جغرافية وتاريخية مهمة عن مصر من أول دخولها في الإسلام إلى زمن القلقشندي ، ويترك مصر إلى الشام وجميع الدول التي كان لها أدنى صلة بمصر من أقصى الشرق إلى السودان وأقصى الغرب والبلدان الأوربية . ويمتد حديث القلقشندي في ذلك إلى الشطر الأكبر من الجزء الخامس . والمقالة الثالثة في أنواع المكاتب وأسماء الكنى وألقاب أرباب السيوف والأقلام وأصحاب الوظائف من النصارى واليهود والخلفاء العباسيين والأمويين في الأندلس والفاطميين والموحدين بالمغرب وألقاب الملوك الأقدمين في اليمن وإيران ومصر والروم والحبشة وملوك فرغانة وأوروبا والحبشة مع التفصيل في الألقاب الإسلامية . ويعود إلى الحديث عن الورق والكتابة ويشغل ذلك كله بقية الجزء الخامس والجزء السادس . ويتحدث القلقشندي في المقالة الرابعة عن المكاتب الصادرة عن ملوك مصر وغيرهم ومصطلحات الكتابة السلطانية والإخوانية ويمتد ذلك في الكتاب إلى شطر من الجزء التاسع ، والمقالة الخامسة يوضح فيها القلقشندي الولايات ووظائف الدولة الكبرى ويقدم طائفة كبيرة من البيعات والعهود والتقاليد والمراسم والتفاوض والتوقيع وخاصة مايتصل بزمن المالك . وتحمل هذه المقالة كثيرا من الوثائق التاريخية والاجتماعية المهمة ، وهي تشغل بقية الجزء التاسع حتى نهاية الجزء الثاني عشر . والمقالة السادسة في مجموعات من الوصايا الدينية والإطلاقات والمراسم السلطانية والإقطاعات والأيمان وعقود الصلح والأمانات والهدن . وتشغل هذه الوثائق الجزء الثالث عشر من الكتاب وشطرًا من الجزء الرابع عشر . وتعرض بقية هذا الجزء طرائف من المقامات والرسائل والمفاخرات والإجازات والتقریظات والتقاليد ، وتلحق بالجزء خاتمة عن البريد وشئون المواصلات والاتصالات بين مصر وغيرها من البلدان الإسلامية

ونعود إلى مقامته التي أشرنا إليها والتي وصف فيها صناعة الإنشاء وقرّط بها صاحب ديوانها بدر الدين العمرى وقد سماها : « الكواكب الدرّية في المناقب البدرية » وهي محكية أومروية على لسان الناثر بن نظام ويلقانا في فواتحها قوله :

« لم أزل من قبل أن يبلغ بريدُ عمرى مركزَ التكليف ، وبتفرق جَمْعُ خاطرى بالكلف بعد التأليف ، أنصبُ لاقتناص العلم أشراك التحصيل ، وأنزّه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل ..

أونسُ من شوارد العقول وَحَشِيَّهَا ، وَأَشْرَدُ عن روابض المنقول حُوشِيَّهَا ، وألتقط ضالَّةَ الحكمة حيث وجدتها ، وأقيدُ نادرة العلم حيث أصبْتُها ، مقدِّمًا من العلوم أشرفها ، ومؤثرا من الفنون ألطفها ، معتمدا من ذلك ماتألفه النَّفس ويقبله الطبع ، مقبلا منه على ما يستجلى حُسْنُه النظر ويستحلى ذكره السمع .. عارفا لكل عالم حقَّه ، وموفِّيا لكل علم مستحقَّه ، قد استغنيت بكتابي عن خَلِيٍّ ورفيقي ، وآثرت بيت خَلْوَتِي على شَفِيقِي وشقيق .. إلى أن أتيج لي من الفتح ما أفاضته النعمة وحصلتُ من الغنيمة على ما اقتضته القسمة .

وأكبر الظن أن قد اتضح لنا صوت القلقشندى وما يعمد إليه من حسن الجرس في انتخاب ألفاظه وقوافي أسجاعه ، بحيث لانكاد نشعر بتكلف عنده ، والجناس يرصع كلامه على نحو مانرى في التكليف والكلف ، وأشراك (حبالات) الصائد ، والإشراك ، وشوارد وأشرد ، والوحشى والحوشى ، ويستجلى ويستحلى ، وحقه ومستحقه ، ورفيق وشقيق وشقيقى ، وكل ذلك يمر على اللسان والسمع دون أى إحساس بنبو أو كلفة غير مستحبة ، وبالمثل يرصع كلامه بطباقات كثيرة من مثل التفروق والجمع والتوحيد والتعطيل وشوارد العقول وروابض المنقول . وفى أثناء ذلك يوشئى كلامه بالتورية إذ يقول : « أنزه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل » والتعطيل رفض التوحيد والشريعة ، وهو المعنى القريب لسبق التعطيل بالإشراك والتوحيد ، وهو لا يريد به ، وإنما يريد التعطل عن الاشتغال بالعلم والانصراف عنه . وبالمثل لا يريد بالإشراك الكفر الذى قد يفهم من اقترانه بالتعطيل إنما يريد الشركة أو المشاركة ، وأيضًا لا يريد بالتوحيد توحيد الله لاقرانه بالتنزيه وإنما يريد الوحدة . والتعبير لذلك كله ملئء بتوريات متعاقبة . وبالمثل قوله فى نهاية كلامه : « الفتح » وقد تلاه بالغنيمة والقسمة موزيا بذلك عن الفتوح العلمى لا كما يظن من السياق الفتح الحربى . وبالمثل كلمة القسمة فهو لا يريد بها المعنى القريب الملائم للغنيمة وهو القسمة فى الحرب وإنما يريد بها المعنى البعيد وهو الحظ من قولهم قسمة ونصيب .

ولعل خصائص صوت القلقشندى ولغته قد اتضحنا لنا تماما فهو كمعاصريه يستخدم السجع ويوشيه بمحسنات البديع وفى مقدمتها ، الجناس والطباق والتورية ، ونحس عنده بطواعية العبارات المسجوعة ومرانه على استخدام ألوان البديع دون أن نشعر بأى ثقل أو أى عبارة أو كلمة مستكرهه . وإذا مضينا فى قراءة المقامة وجدناه يذكر على لسان الناثرين نظام أنه لا يبد لكل إنسان من حرفه يكتبب بها معاشه . وأن الكتابة هى خير الحرف ، وأفضل أنواعها الديوانية كتابة الإنشاء ، إذ لها الذروة المثيفة والرتبة الشريفة ، وأصحابها - كما يقول - أسُّ المُلْك وعماده ،

وأركان الملك وأطواره . ولسان الملكة الناطق ، وسهمها الموقوق الراشق . وبحاور الناثر بن نظام في كتابة الإنشاء والحراج أيها أفضل ؟ وبجيبه أتى لكتّاب الأموال التأثير في قلّ الجيوش من غير قتال ، وفتح الحصون من غير نزال . وكأن القلم في يد كاتب الإنشاء ينال من الأعداء ما لا تناله السيوف والرماح . ويأخذ القلقشندى على لسان الناثر بن نظام في بيان ما يلزم كاتب الإنشاء من حفظ كتاب الله وأحاديث رسوله وجوامع كلمه والعلم بالأحكام السلطانية واستظهار أشعار العرب على مر الأزمنة وأمثالهم وأقوال فصحاءهم وخطبهم ورسائلهم مع سعة الباع في اللغة والنحو والتصريف وفي علوم المعاني والبيان والبديع ، ومع معرفة الخط وقوانينه وأصوله وقواعده ، ومع ماتم به الصناعة من الوقوف على علم الكلام وأصول الفقه والأحكام الشرعية والمنطق والجدل وأحوال الفرق والتحلّ وعلم العروض والقوافي والرياضيات والهندسة وعلم الطب والبيطرة وعلمى الأخلاق والسياسة وعلم تدبير المنزل والفراسة . وأيضا لا بد من المعرفة بكل ما ذكره القلقشندى بعد ذلك مفصلا في صبحه من شئون الولايات وألوان المكاتب والبيعات والعهود والتقاليد والمراسيم والتواقيع والمناشير والأيمان والهدن وطرق البلدان ومسالكها . ويتساءل القلقشندى عن من يضم هذه الرتبة الرئيسة والمقبة الشريفة ؟ وبجيبه الناثر بن نظام إن ذلك قاصر على آل فضل الله العمرى ومنحصر في سليله البدر ، الذى تدور عليه ، فهو ابن بجدتها الذى ترجع في علومها ورسومها وسائر أمورها إليه .

وللقلقشندى مقامة في المفاضلة بين العلوم . وهى تنزع متزع المقامة الحصيبية للرشيد بن الزبير التى ألمنا بها فيما مر من حديثنا وفيها يعقد القلقشندى مفاخرة بين نحو سبعين علما ابتدأها بعلم اللغة واختتمها بفن التاريخ ذاكرًا فخر كل علم على ما سبقه ، محتجا عليه بفضائل موجودة فيه دون سابقه . استهلها ببيان منافع العلوم بعامة ، وذكر أنها اجتمعت يوما فتجادلت وتفاخرت ، وكل منها ينتصر لنفسه بالحجج والبراهين الدامغة . وقد تلا فخر علم اللغة بفخر علم الصرف ثم بفخر علم النحو عليه قائلا :

« هل أنت إلا بضعه <sup>(١)</sup> منى ، تُسندُ إلىّ وتثقل عني ، لم يزل علمك بابا من أبوابي ، وجملتك داخلة في حسابي ، حتى ميزك المازني فأفردك بالتصنيف ، وتلاه ابن جنّي فتبعه في التأليف .. وأنت مع ذلك كله مطويّ ضمن كتي ، نَسبتك متصلة بنسبتي ، وحسبك لاحقٌ بحسبي . أنا ملجُ الكلام ، وميسكُ الحتام ، لا يستغنى عنى متكلم ، ولا يليق جهلى بعالم ولا متعلم ،

في تبيين أحوال الألفاظ المركبة في دلالتها على المقاصد ، ويرتفع اللبسُ عن سامعها فيرجع من فهمها بالصلة والعائد .

وهذه القطعة من مفاخرة علم النحو على علم الصرف فضلا عن تصويرها لبراعة القلقشندی البيانية ترينا جانبا من ثقافته بعلمى النحو والصرف ، وكانا مندجحين بعضها ببعض في كتاب سيبويه ، وظلا على ذلك بعده حتى أفرد أبو عثمان المازني علم الصرف بالتأليف وتبعه في ذلك ابن جني . ومضى المؤلفون في العلمين تارة يجمعون بينهما ، وتارة يفصلون ، مما جعل القلقشندی يصور ذلك مرارا على لسان علم النحو قائلاً إن علم الصرف باب من أبوابه يُنقلُ عنه ويُسند إليه وأنه مطوى في كتبه متصل بنسبه لاحق بحسبه . واستخدم في آخر ما اقتبسناه من تلك المفاخرة مصطلحي الصلة والعائد المعروفين في النحو وهما صلة الموصول وما تحمل من الضمير العائد في عبارتها على الموصول ، معبرا بها عن العطية وما يعود منها بالنفع . وللقلقشندی مفاخرة ثانية بين السيف والقلم ، ومن قول القلم فيها مفاخرا للسيف :

« مهلا أيها المساجل ، وعلى رسلك أيها المغالب والمناضل ، لقد أسأت مقالا ، وننقت محالا .. وإني - وإن صغر جرمي - فإني لكبير الفعال ، وإن نحف بدني فإني لشديد البأس عند النزال . وإن عرى جسمي فكم كسوت عاريا ، وإن جرى دمعي فكم أرويت ظاميا ، وإن ضاق ذرعي فإني بسعة المجال مشهور ، وإن قصر باعني فكم أطلقت أسيرا وأنا في سجن الدواة مأسور . » ويمضي القلقشندی بمثل هذه الصياغة المشوابة بالسجع ومحسنات البديع من تصوير وغير تصوير ، ودائما نشعر عنده بالطلاقة والسلاسة ونصاعة الكلم .

### السيوطي<sup>(١)</sup>

هو جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد ، من سلالة شيخ صوفي أسيوطي هو همام الدين السيوطي ، وكان لأسرته وجاهة ورياسة في أسيوط ، منهم من ولى الحكم فيها ،

ويروكلمان ( الطبعة الألمانية ١٤٣/٢ ) . وانظر في مقاماته مجموعة خطية بعنوان مقامات السيوطي بدار الكتب المصرية رقم ٣٢ مجاميع وطبع من مقاماته مجموعة بالآستانة . وانظر في نشاط السيوطي النحوي تأليفا وآراء كتابنا المدارس النحوية ص ٣٦٢ .

(١) انظر في السيوطي وترجمته حسن المحاضرة ١/٣٣٥ والضوء اللاحق للسخاوي ج ٤ رقم ٢٠٣ والكواكب السائرة للغزى ( نشر الجامعة الأمريكية ببيروت ) ١/٢٢٦ وتاريخ ابن إلياس في مواضع متفرقة وذيل الطبقات الكبرى للشعراني ص ٤ والبدر الطالع للشوكاني ١/٣٢٨ والنور السافر للعبدروسى ص ٥٤ ودائرة المعارف الإسلامية

ومنهم مَنْ ولى الحسبة ، ومنهم من كان تاجرا ثريا ، وأول من خدم العلم من أسرته أبوه ، وقد هاجر من بلده إلى القاهرة ونبه شأنه بين فقهاء الشافعية وأفتى ودرّس وناب في الحكم بالقاهرة ، وفي سنة ٨٤٩ ولد له عبدالرحمن ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفي الأب ، ويبدو أنه ترك له ثروة أعانتة على نشأة علمية طيبة ، وقد ترجم لنفسه في كتابه : « حسن المحاضرة » ترجمة ضافية ، ذكر فيها طائفة من شيوخه في مقدمتهم الشيخان : البلقيني والمناوي في الفقه الشافعي وتقى الدين الشبلي في الحديث والكافيّجى في التفسير والأصول والعربية وعلم المعاني وسيف الدين الحنفي في الكشاف للزمخشري وفي بعض المصنفات البلاغية للسكاكي والقزويني . ويقول إنه شرع في التصنيف سنة ٨٦٦ ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، كما يقول إنه أفتى في سنة ٨٧١ وعُقد له مجلس لإملاء الحديث سنة ٨٧٢ . ويذكر أن زار بلادًا كثيرة : الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور ، كما يذكر أنه تبخّر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع ، ويقول إنه يستثنى الفقه فأستاذه كان أعلم به منه . أما العلوم الستة الباقية فلم يكن أحد يجاربه فيها ، ودونها في التعمق العلمي أصول الفقه والجدل والصرف ، ودونها هي الأخرى الإنشاء والترسل وعلم الميراث والقراءات ثم الطب . ويذكر أن مشايخه في الرواية سماعا وإجازة كثيرون إذ تبلغ عدّتهم نحو مائة وخمسين .

ويمضى السيوطي في ترجمته لنفسه ، فيذكر مؤلفاته في العلوم والفنون المختلفة ، وقد بلغت أكثر من ثلاثمائة كتاب ورسالة ، منها في الحديث النبوي نحو تسعين مصنفًا وفي التفسير ومتعلقاته نحو عشرين وفي اللغة وعلوم العربية نحو خمسين وفي الأصول والبلاغة والتصوف نحو عشرين وفي الفقه نحو عشرين أيضا وفي التاريخ والأدب نحو خمسين . وعلى هذا النحو تلقانا لا مؤلفات بل سيول من المؤلفات في كل علم وفن . وبحق يُعدّ السيوطي أكثر علماء هذا العصر تأليفا وإحاطة بالعلوم العربية والشرعية الدينية . وله أكثر من كتاب طُبِع في العصر الحديث وطارت شهرته ، من ذلك في الحديث النبوي كتابه « جمع الجوامع » وهو معجم واف للأحاديث النبوية ، ومن ذلك في التفسير تفسير الجلالين ، ومرّ حديث عنه في الفصل الثاني ، وله لباب العقول في أسباب النزول ، وأيضا الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، وهو مطبوع في ستة مجلدات . وكتابه « الإتيان في علوم القرآن » كتاب رائع . ومن مصنفاته في التاريخ والتراجم تاريخ الخلفاء وهو مطبوع مرارا في الغرب والشرق . وقد عرضنا لنشاطه في هذا الجانب في حديثنا بالفصل الثاني عن التاريخ والمؤرخين . وكان نشاطه اللغوي والنحوي خصبا إلى أبعد غاية ، وصورنا ذلك من بعض الوجوه

في حديثنا عن اللغة واللغويين والنحاة والنحويين في الفصل الثالث .

وهذا النشاط العلمي الواسع اقترن به نشاط أدبي ، فقد كان السيوطي شاعرا ، كما كان كاتباً ناثراً ، وعُني عناية واسعة بفن المقامة على الطريقة المصرية التي وصفناها ، فالمقامة لاتدور على الصعلكة كما كانت عند الهمداني والحريري ، وإنما تدور على المنافرة والمفاخرة ، وأكثر من ذلك حتى لتبلغ مقاماته نحو الأربعين ، وربما كان أطرفها ما أداره منها حول مفاخرات الأزهار والفواكه والبقول والنقل والعمود ، وقد خص الأزهار بمقامته الوردية والفواكه بمقامته التفاحية والبقول الخضراء بمقامته الزمردية والثقل بمقامته الفستقية والعمود بمقامته المسكية ، وخص الأحجار الكريمة بمقامته البياقوتية . ونقف قليلا عند مقامته الوردية فعلى غرارها تلك المقامات جميعا ، وهي مفاخرة أو مناظرة بين الأزهار والرياحين ، استهلها الورد ببيان محاسنه وأنه ملك الرياحين منعش للأرواح ومتاع إلى حين ، وأنه ظاهر على أزهار البساتين منتصر منها بقوة الشوكة والصلوة . ووضح ما في كلمة الشوكة من تورية إذ لا يريد البأس بشهادة كلمة الصولة ، وإنما يريد الشوكة الحقيقية للورد واحدة أشواكه ، وما يلبث الورد أن يُدلّ بفوائده الطيبة ، ويرد عليه النرجس مفاخرا بمحاسنه محاولا أن بغض منه ، قائلا :

« لقد تجاوزت الحد ، ياورد ، وزعمت أنك جمع في فرد ، إن اعتقدت أنه لك بحمرتك فخر ، فإنه منك فُجّر .. فاحفظ بالصمت حُرمتك ، وإلا كسرت بقائم سني شوكتك . وإني القائم لله في الدياجي على ساق ، الساهر طول الليل في عبادة ربي فلا تطرف أحداق .. وأنا فريد الزمان في المحاسن والإحسان ، ولهذا قال في كسرى أنوشروان : النرجس ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر .. وأنا المشبه بى عيون الملاح ، والمقرون في مهات الأدوية بالصلاح . »  
واللسيوطي بجانب ذلك مقامات جعل محورها الذي تدور عليه مسائل علمية ، إذ يورد فيها أسئلة تحمل ألفاظا غريبة ملغزا بها ، ثم يذكر جوابها مفسرا لها . مزيلا عنها غرابتها ، محاكيا بذلك الحريري في مقامته الطيبية نسبة إلى طيبة أى المدينة وقد ضمها مائة مسألة فقهية وأجوبتها كأن يقول فيها : « أيستباح ماء الضرير؟ » ويحجب أبو زيد السروجي بطل المقامات الحريرية : نعم ويُجْتَنَّبُ ماء البصير » والضرير : حرف الوادى والبصير الكلب . ونرى السيوطي يستوحى هذه المقامة ، فيكتب على غرارها مقامته المكية ، ويستهلها على هذا النمط :

« حدثنا هاشم بن القاسم قال : ما زلت أقتحم المهامه <sup>(١)</sup> الخيفة ، وأدخل في المسالك العنيفة

إلى أن نزلت بمكة الشريفة ، فحططتُ الرِّحالَ بَعَثَها (١) ، وأرحت النفس من عنائها ، وظللت أجوب في مشاهدها وأجول في معاهدها .. وأتردد في الغدو والرَّواح ، وأترؤد من تلك الآثار في المساء والصباح ، وأتمنى أديبا يُسَلِّي بمسامرته العُربة ، وأديبا يُبَيِّنُ بمحاضرته الإربة (٢) ، فبينما أنا ذات ليلة في المطاف ، وقد تسرَّرتُ سحائب الألفاف ، إذا أنا بشعبة مؤتلفين ، وعصبة محتفين ، وهم بين سلام وترحيب ، وبكاء ونحيب . وفي صدر الحلقة ، شاب نحيف الحلقة ، قد تدرع بِيَّاب البهاء . قال هاشم بن القاسم : فتساميت إلى لقائه ، وتقدمت إلى تلقائه ، لأستنور بباطنه على ظاهره ، وأستظهر من كامنه على باهره ، وأتخذُه معاضداً ونصيراً ، ومحاضراً وسميراً ، فقلت : وَعَيْتُ مامنك رأيت ، وشِئْتُ (٣) ما عنك فهمت ، فانتِ على ما ادَّعيت ببرهان من الدلائل ، وأجب إلى ما أقترحه عليك من مسائل ، فقال : على الخبير سقطت ، ومن البحر لقطت ، فأوضح عن مسائلك ، وأوضح عن مقالك ، فقلت : ماتقول فيمن توضحاً ولم يمسح أمه ؟ فقال : لم يصحَّ يا أمَّه .

والأم الأولى الرأس والوضوء بدون مسحها باطل ، وقد ألغز السيوطي بها ، كما هو واضح . وتوالت الأسئلة على هذا النحو مثل هل يجوز بيع الحر؟ والجواب الجواز ، لأن المراد بالحر القرس الأصيل . ومثل هل تصح الصلاة على الفحل؟ والجواب تصح لأن المراد بالفحل الحصير المتخذ من فحل النخل .

وللسيوطي مقامة ثانية سماها المقامة الأسيوطية بناها على الغاز نحوية ، محاكاة لمقامة الحريري المسماة بالمقامة القطعية وهي المقامة الرابعة والعشرون بين مقاماته . وللسيوطي مقامة فكهة سماها « رشفة الزلال من السحر الحلال كتبها على لسان عشرين عالماً بينهم المقرئ والمفسر والأصولي والفقهاء واللغوي والنحوي ، وجعل كلا منهم يصف ليلة زفافه على عروسه بلغة علمه ومصطلحاته . ومن مقاماته مقامة تسمى الجيزية جعل موضوعها لغزا شعريا . وكأنه كان يرى المقامة صالحة لأن تعرض أي موضوع حتى لزاره يتخذ نجاة أبوي الرسول ﷺ من النار موضوعا لإحدى مقاماته ، وقد سماها المقامة السندسية ، وهي مطبوعة ، ونجاة أبوي الرسول من النار لايشوبها أي شك . إذ هما الطاهران الطيبان الذكيان النيران . ولعل فيما قدهنا مايدل على الخصائص الأدبية لمقامات السيوطي وبدون ريب كانت ملكاته العلمية أخصب من ملكاته الأدبية .

(١) عتاب : جمع عبة . (٢) الإربة : الأمانة . (٣) شام : نظر متظلا أو مؤملا شيا

## الشهاب <sup>(١)</sup> الحفاجي

هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الحفاجي المصري ، ولد لفقيه شافعي بسرياقوس قرب القاهرة سنة ٩٧٧ ونشأ في حجر أبيه يعلمه ، ثم اختلف إلى شيوخ الأزهر في زمنه ، فأخذ النحو وعلوم العربية عن خاله أبي بكر الشعراني والفقهاء الشافعي عن مفتي زمنه شمس الدين الرملي . ومضى ينهل من حلقات الشيوخ المختلفين الحديث والتفسير والأدب والمنطق وعلم الأصول ، ورحل مبكراً مع أبيه إلى حج بيت الله وأخذ عن شيوخ الحرمين لأيامه . ولم يعد إلى مصر بعد الحج ، بل رحل إلى القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية فأخذ عن شيوخها ، وفي طريقه إليها نهل من حلقات الشيوخ في بيت المقدس ودمشق . وعُرف فضله في القسطنطينية فعين قاضياً في الرومللي ثم في سلانيك . وعينه السلطان مراد قاضياً للعسكر بمصر ، فظل بها مدة ، وزار القسطنطينية فلقبه مفتياً يحيى بن زكريا لقاء سيثاً وأمر بعزله . وعاد إلى مصر وعين قاضياً في القاهرة وأخذ يصنف ويحاضر طلابه وأتوه من كل بلد عربي ، ومن أهمهم عبد القادر البغدادي صاحب الغزانه ، وظل على ذلك حتى وفاته سنة ١٠٦٩ للهجرة ، وكان ماحدث له في لقاء المفتي سيبا في أن يكتب رسالة في بيان فساد القضاء والحكم في القسطنطينية وأتبعها بخمس مقامات يصور فيها تفانم الأحوال بعاصمة الخلافة . وكان إلى ذلك علماً ومؤرخاً كبيراً ، صنف حاشية على تفسير البيضاوي طبعت بمصر في ثمانية مجلدات وحاشية على شفاء القاضي عياض طبعت في أربع مجلدات وله شفاء الغليل بما في كلام العرب من الدخيل وهو كتاب نفيس طُبع مرارا . وصنف في تراجم الأدباء لزمنه في جميع البلدان العربية كتابه «ريحانة الألبا» الذي نذكره كثيراً في هوامش الفترة العثمانية ومثله خبايا الزوايا ولا يزال مخطوطاً . وكان شاعراً مجيداً ، وتحفظ المكتبة التيمورية بديوانه مخطوطاً ، وقد أنشد من شعره كثيراً في الريحانة وبالمثل أنشد منه كثيراً المحيي في ترجمته له ، وهي في أكثر من مائة صفحة .

وقد دون الشهاب الحفاجي مقاماته التي أشرنا إليها في ترجمته التي عقدها لنفسه في نهاية كتابه الريحانة وسمى أولها المقامة الرومية وهو يستهلها بقوله : « أنبأنا النعمان بن ماء السماء عن شقيق وقد رحل من وادي العقيق في الحجاز إلى القسطنطينية ، ويصفها بأن البحر قد مدَّ لعناقها ساعديه

٤٧٧ وخلاصة الأثر ٣٣١/١ وسلافة العصر ص ٤٢٠

(١) انظر في الشهاب الحفاجي ترجمته لنفسه في نهاية ريحانة الألبا ٣٢٥/٢ وما بعدها ونفحة الريحانة ٣٩٥/٤ -

بينما تقبل الأمواج الأرض بين يديه ، ويصف من بها من الجوارى الحسان والفرسان الشجعان ، ثم يهاجم متصوفها وعلماها . ولا يلبث أن يكوى المفتى دون ذكر اسمه بسياط من الهجاء المقذع من مثل قوله

« لوقارنه السعد الأكبر إلى أعلى عليين ، حملته بنات نعش إلى أسفل سافلين ، أعمى البصيرة والبصر ، عار على آدم أبي البشر ، إنما خلق اعتذارا للإبليس في ترك السجود ، وأتى يقبل له عذر وهو كفور جحود .. وما أحسنه في زوال النعم ، وأقبحه إذا قضى له الدهر بدولة وحكم » .

ويحتم المقامة بمديح السلطان العثماني حينذاك . ويذكر بعدها مقامة الغربة راويا لها عن الربيع ابن ريان عن شقيق بن النعمان ، وفيها يصور فساد الأمور في القسطنطينية ، ويوجه إلى المفتى المذكور فيها قصيدة هجاء لاذعة . ويتلوها بالمقامة الساسانية ، وقد استعار اسمها من الحريري في مقامته التاسعة والأربعين ، وفيها صور الفقهاء والعلماء في القسطنطينية كأنهم جميعا أهل كذبة واستجداء يتقدمهم المفتى . ويقول قد فقد العلم لولا يقايا شرح الله بهم صدر الدين . ويدعو للدولة العثمانية بالازدهار . ويعارض بالمقامة الرابعة رسالة لرشيد الدين الطواط المترجم له في قسم إيران كتبها غيمن كان يزاحمه في أداته ودواته وعمله في ديوان الدولة الخوارزمية وفيها يزرى بصاحبه ويحط منه حطا شديدا ، ونسج الشهاب الحفاجي على منواله في صنع هذه المقامة قاصدا بها المفتى خصيئته مسميا له باسم الوزير ، وفيها يضع منه وينهجه هجاء مرا ، ويصور قصته معه وأنه سمع قول الوشاة ونفاه ويمثل به تمثيلا شديدا . والمقامة الخامسة سماها المقامة المغربية ، اقترض اسمها من لدن الحريري وتسميته لمقامته السادسة عشرة بالمقامة المغربية ، والشهاب الحفاجي يكثر في مقامته تلك من بعض الأمثال والأعلام والمقتطفات من الأشعار وبعض أقوال الحكماء والألغاز المغربية ، ولذلك أتبعها بشرح لما استظهره في المقامة من ذلك كله .

#### ٤

#### المواعظ والابتهالات

فرض الإسلام الوعظ في خطب صلاة الجمعة من كل أسبوع ، وفي خطب صلاة العيدين ، وكان يتولاها أئمة المساجد ، وأحيانا خلفاء الأمة ، واشتهر كثير من الوعاظ نسمع عنهم في كل بلدة ، غير أن المصادر قلما احتفظت بمجاميع من خطبهم إلا ما كان من خطب ابن نباتة خطيب

سيف الدولة الحمداني . وطبيعي أن يشتهر بمصر غير واعظ ، ويلقانا في مفتتح هذا العصر أبو الحسن <sup>(١)</sup> علي بن محمد البغدادي المتوفى سنة ٣٣٨ وقد استوطن القسطنطين ، وكان له بها مجلس وعظ عظيم . ويستولى المعز لدين الله الفاطمي على مصر ، ويؤسس بها الدولة الفاطمية التي ظلت نحو مائتي عام ، وكان خطيبا مفوها ، وكان يخطب الناس يوم الجمعة بالجامع الأزهر ، ولم تحتفظ كتب التاريخ بشيء من خطبه ومواظفه في القاهرة ، وقد احتفظت بخطبة <sup>(٢)</sup> خطبها عقب وفاة أبيه المنصور في بلدة المنصورة بالقرب من القيروان ، بدأها بأسجاع في بيان عظمة الله وتحميده وتمجيده . وكان ابنه العزيز يخطب مثله في الجامع الأزهر حتى إذا بنى الحاكم جامعه أخذ هو ومن جاءوا بعده يخطبون فيه <sup>(٣)</sup> . ويبدو أن الخطب والمواظف كانت تُعدُّ لهم - ولبن ينيونه عنهم من الوزراء - في ديوان الإنشاء . ويذكر الرواه لابن أبي الشخباء كاتب الدواوين في زمن المستنصر مجموعة من المواظف لعلها كانت خطبا أعدّها للخليفة ووزيره بدر الجلال ، وقد اشتهرت في أيامه ببلاغتها ، إذ كان - كما مر بنا في ترجمته - كاتباً بارعاً ، ونقتطف قطعة من إحدى خطبه ، إذ يقول <sup>(٤)</sup> :

« أيها الناس فكفوا أنفسكم من حلقات الآمال المتعبة ، وخففوا ظهوركم من الآصار المستحقة <sup>(٥)</sup> ، ولا تُنسيموا <sup>(٦)</sup> أطاعكم في رياض الأمانى المتشعبة ، ولا تُميلوا صَعُوكم <sup>(٧)</sup> إلى زيارج <sup>(٨)</sup> الدنيا المحببة .. أين الجبابرة الماضية المتقلبة ، والملوك المعظمة المرجبة <sup>(٩)</sup> أولو الحفدة <sup>(١٠)</sup> والحجبة ، والزخارف المعجبة ، والجيوش الجرارة اللجبة <sup>(١١)</sup> .. طرقت - والله - خيامهم غير منتهية ، وأصبحت أظفار المنية من مهجهم قانية <sup>(١٢)</sup> مختنضة ، وأكلت لحومهم هواماً الأرض السعبة <sup>(١٣)</sup> ، ثم إنهم مجموعون ليوم لا يُقبلُ فيه عُذرٌ ولا معتبة ، وتجازى كل نفس

- |   |  |
|---|--|
| (١) انظر فيه حسن المحاضرة للسيوطي ٥٥١/١ والعبر                    | والاستعارة واضحة                                 |
| ٢٤٧/٢   | (٧) الصفو: الشق والجانب                          |
| (٢) انظر سيرة الأستاذ جوهر (طبع دار الفكر العربي)                 | (٨) زيارج: جمع زبرج: الحلية والزينة              |
| ص ٧٦  | (٩) المرجبة: الموقرة المعظمة                     |
| (٣) النجوم الزاهرة ١٠٢/٤  | (١٠) الحفدة: الأعوان                             |
| (٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (طبع القاهرة سنة ١٩٢٩/١٠/٥٤٥) | (١١) الجرارة: الكثيفة. اللجة: ذات الحلية والوضاء |
| (٥) الآصار: الذنوب. المستحقة: المرتكبة                            | (١٢) قانية: حمراء. مختنضة: مصبوغة بالخصاب الأحمر |
| (٦) أسام الدابة في المرعى: خلاها ترعى فيه كما تشاء                | (١٣) السفبة: الجماعة                             |

بما كانت مكتسبة ، فلإما سعيدة مقرّبة ، تجرى من تحتها الأنهار مثوبة <sup>(١)</sup> ، وإما شقيّة معدّبة ، في النار مُكَبَّبة <sup>(٢)</sup> .

وقد التزم ابن أبي الشخاء في موعظته الباء والهاء في روى أسجاعه ، ليعطى للصوت في أول السجعة وما وراءه من الكلمات والمقاطع الفرصة كي يعلو ، ثم ينخفض فجأة آخر السجعة ، وكأنما لم تعد فيه بقية من شدة التأثر . وخصائص ابن أبي الشخاء الفنية التي عرضنا لها في حديثنا عنه واضحة أتم وضوح في هذه القطعة من الخطبة ، فهو يبغي بالتصاوير عناية شديدة ، إذ يطلب إلى الناس أن يفكوا أنفسهم من سلاسل الآمال المهزقة ومحطوا عن ظهورهم ذنوبهم المترفة ، ويصرفوا أطاعهم عن رياض الأمانى المتشعبة ، ولا تغرنهم زينة الحياة الدنيا . ويدعو الناس إلى العظة بالأُمم الخالية والملوك السالفة وما كانوا فيه من ترف ونعيم . كل ذلك زال إلى غير مآب ، وذاقوا كئوس الموت دهاقا ، وأكلت هوامّ الأرض وحشراتنا لحومهم . ويرفع أمام أعين الناس يوم القيامة ، يوم الجزاء الأكبر ، فلإما إلى النعيم وإما إلى الجحيم .

ونغصى إلى زمن الأيوبيين ، فيلقانا إبراهيم بن منصور المتوفى سنة ٥٩٦ إمام جامع عمرو بن العاص بالفسطاط وخطيبه ، وولى الخطابة بعده ابنه محمد يقول السبكي : « وله ديوان خطب مشهور <sup>(٣)</sup> » . وطبيعى أن الخطابة لزهن الأيوبيين وحروبهم مع الصليبيين كانت تحض بقوة على جهاد أعداء الله والإسلام وبذل المهج والأرواح في سبيل نصرته دينه الخفيف . ولم تكن خطب الجهاد تُلقى في أيام الجمع فحسب . بل كانت تلقى كلما أريد تجميع الشعب لحمل السيف والسلاح . ويروى المقرئ <sup>(٤)</sup> أنه حينما علم الفرنج بموت الملك نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧ تقدموا من دمياط تجاه المنصورة « فورد كتاب إلى القاهرة من المسكر أوله : ( انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهَلُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ) وكان في الكتاب مواظ بليغة في الحث على الجهاد ، فقرئ على منبر جامع القاهرة ، وقد جُمع الناس لسماعه ، فارتجت القاهرة والفسطاط وضواحيها وخرج الناس للقاء الصليبيين من المدينتين الكبيرتين ومن سائر الأعمال ، فاجتمع عالم عظيم سحق الصليبيين سحقاً ذريعاً كما مرّ بنا في غير هذا الموضع .

(٣) انظر ترجمة أبيه عند السبكي ٣٧/٧

(٤) المخطوط ٤١٣/١

(١) مثوبة : مكافأة

(٢) مكببة : مجتمعة

ونلتقى في زمن المالك بابت المنبر<sup>(١)</sup> الإسكندري المتوفى سنة ٦٨٣ المتولى قضاء الإسكندرية وخطابها مرتين ، ويقول صاحب فوات الوفيات : « له ديوان خطب » . وكان يعاضره أخطب الخطباء قاطبة أيام المالك ابن دقيق<sup>(٢)</sup> العيد المتوفى سنة ٧٠٢ علم الأعلام وشيخ الإسلام وقاضي القضاة في جميع ديار مصر منذ سنة ٦٩٥ إلى وفاته . ويشيد مترجموه بورعه وتقواه ، ويقول السبكي : « له ديوان خطب مفرد معروف » . وكان شاعراً ، وبطيل مترجموه في ذكر أشعاره ، ولا يعرضون شيئاً من خطبه ومواعظه إلا موعظة ذكر السيوطي أنه كتب بها إلى قاضي إخميم بالصعيد ، وفيها يقول<sup>(٣)</sup> :

« نحمد الله الذي ( يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور ) ، ويمهل حتى يلبس الإمهال بالإمهال على المغرور ، ونذكركه بأيام الله ( وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تُعدون ) ونحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه مغبون ، عسى الله أن يرشده بهذا التذكار . وتأخذ هذه النصائح بحجرتة عن النار ، والمقتضى لإصدارها ما انحاه من الغفلة المستحكمة على القلوب ، ومن تقاعد الهمم مما يجب للرب على المربوب ، .. ووالله إن الأمر عظيم ، والخطب جسيم ، ولا أرى .. إلا رجلاً نبت الآخرة وراءه ، واتخذ إله هواه ، وقصره همة وهمة على حظ نفسه ودنياه ، فضاية مطلبه حب الجاه .. فاتق الله الذي يراك حين تقوم ، واقصر أمك عليه فإن المحروم من فضله خير مرحوم .. واجعل أكثر همومك الاستعداد ليوم المعاد ، والتأهب لجواب الملك الجواد فإنه يقول : ( فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ) .

ولعل في هذه القطعة ما يصور وعظ ابن دقيق العيد في خطبه وأنه كان يتدفق فيه كالليل بالعذب . مما جعل معاصريه يشيدون طويلاً برفائق وعظه وكلمه التي كان يجلب بها وبما يضمنها من آتى الذكر الحكيم عقول مستمعيه ، فيملأ نفوسهم بالإجابة إلى الله . وكان دائماً يرفع أمام أعينهم أهوال يوم المحشر يوم تجزى كل نفس بما كسبت وعملت وقدمت ، فإذا هم يرتجفون ويكون بدموع غزار ، وقد خشعت قلوبهم وذابت نفوسهم وهلعوا إلى دعاء الله يستغفرونه ويتوبون إليه توبة نصوحاً .

(٢) راجع مصادر ترجمة ابن دقيق العيد

ص ١٤٦ .

(٣) حسن المحاضرة ١٦٨/٢

(١) انظر في ابن المنبر فوات الوفيات ١٣٢/١ والتجويد

الزاهرة ٣٦١/٧ وحسن المحاضرة ٣١٦/١ وشذرات الذهب

وما يزال السيوطي في حسن المحاضرة يسوق إلينا أسماء كبار الوعاظ وخاصة بين الصوفية ، ومُرَّ بنا في الفصل الأول حديث مفصل عن التصوف بمصر وكيف أخذ يزدهر بها منذ عنيت به الدولة في عهد صلاح الدين ، وإنشائه لخانقاه سعيد السعداء . واتسع بناء الخانقاهات بعده في أيام الماليك ، وكانت دورا كبيرة للنسك ودراسة العلوم الدينية على نحو ما يذكرون عن خانقاه سرياقوس التي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون ، ومُرَّ حديث مفصل عنها وعن غيرها من الخانقاهات المملوكية . وبنوا بجانبها للصوفية اثني عشر رباطا . كل ذلك عمل على ازدهار التصوف بمصر منذ القرن السادس الهجري . وكان كثير من الصوفية يتبعون الطريقتين العراقيتين : القادرية الجيلانية والرفاعية .

ولم تشع طريقة في العالم الإسلامي إلا كان لها فروع وأتباع في مصر ، وأخذت تؤسس بها طرق مشهورة في مقدمتها الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى مؤسسها أبي الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ وسنخسه بترجمة قصيرة . وتلتها سريعا الطريقة البرهامية نسبة إلى إبراهيم <sup>(١)</sup> الدسوقي المتوفى سنة ٦٧٢ بدسوق بالقرب من رشيد ، وهو من ذرية علي بن أبي طالب ، والطريقة الأحمدية نسبة إلى أحمد <sup>(٢)</sup> البدوي المتوفى سنة ٦٧٥ بطنطا وهو أيضا سليل علي بن أبي طالب . وكان لكل طريقة ورد خاص تردده ، كله ابتهالات إلى الله ومناجيات وأدعية ، وكثرت على السنة المتصوفة هذه الأدعية والمناجيات والابتهالات والأوراد ، وسنعرض لهذا الجانب عند أبي الحسن الشاذلي في ترجمته . ونسوق قطعة من ورد أو حزب إبراهيم الدسوقي ، يقول مناجيا ربه :

« بأسمائك يارب العالمين . بالسموات القائمة ، فهن بالقدره واقفات ، بالسبع المتطابقات ، بالحجب المترادفات ، بمواقف الأملاك ( الملائكة ) في مجارى الأفلاك . بالكبرى البسيط ، بالعرش المحيط .. اللهم احرسني من كيد الفاسق ، ومن سطوة المارق ، ومن لدغة المنافق » .  
وكان يعاصر الدسوقي والبدوي أبو العباس <sup>(٣)</sup> المرسي المتوفى سنة ٦٨٦ تلميذ أبي الحسن

(٣) انظر في ترجمة أبي العباس كتاب لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن وراجع الشعراي ١٤/٢ والنجوم الزاهرة ٣٧١/٧ وحسن المحاضرة ٥٢٣/١ والواق ٢٦٤/٧ وشذرات الذهب ٢٧٣/٥ .

(١) انظر الدسوقي في الطبقات الكبرى للشعراي (طبع القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ) ١٨٣/١ وخطط على مبارك ٧/١١  
(٢) راجع ترجمة البدوي في الشعراي ٢٠٢/١ والنجوم الزاهرة ٧٥٣/٧ وحسن المحاضرة ٥٢١/١ وشذرات الذهب

الشاذلي ، وهو أندلسي من مرسية ، ولد بها سنة ٦١٦ للهجرة ، وفي الرابعة والعشرين من سنه خرج إلى الحج ، وفي طريقه توقف بتونس ، وفيها تعرف على الصوفي الكبير أبي الحسن الشاذلي ، وأصبح أقرب أتباعه ومريديه إليه ، حتى إذا رحل إلى الإسكندرية سنة ٦٤٢ رحل معه . وكان لا يبرح مجلسه ، وزوجه ابنته ، وأعلن إلى أتباعه في جامع العطارين بالإسكندرية أنه خليفته ، وكان يتقن العلوم الشرعية ، ويدرسها هي وبعض كتب الصوفية ، وأقبل على دروسه الطلاب . واستأذن شيخه في السفر إلى القاهرة للتدريس بمساجدها ونشر طريقته بها ، فأذن له ، وكان يلقي دروسه في الجامع العتيق : جامع عمرو بن العاص وجامع المقس ويسمى الآن جامع أولاد عنان بالقرب من محطة باب الحديد . وكانت حلقاته في الجامعين تزدهم بالطلاب والعلماء . وتوفي أستاذه سنة ٦٥٦ فخلفه على الطريقة ، وكان أكثر مقامه بالإسكندرية ، ومن حين إلى حين ينزل القاهرة ، ناشرا هنا وهناك الطريقة الشاذلية ، ولتلميذه ابن عطاء الله كتاب قصره عليه وعلى أستاذه الشاذلي سماه « لطائف المتن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن » ويعد جامع اليوم أكبر جوامع الإسكندرية ، ويورد ابن عطاء الله كثيرا من أقواله ، كما يورد له وردا أو حزبا تقتطف من ابتهالاته وأدعيته قوله (١) :

« اللهم إنا نسألك الخوف منك والرجاء فيك ، والمحبة لك ، والشوق إليك ، والأنس بك ، والرضا منك ، والطاعة لأمرك ، على بساط مشاهدتك ، ناظرين منك إليك ، وناطقين بك عنك .. اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيننا وبين الصدق والنية والإخلاص والخشوع والهيبه والحياء والمراقبة ونور اليقين والعلم والمعرفة والحفظ والعصمة والنشاط والقوة والستر والمغفرة والفصاحة والبيان والفهم في القرآن وخُصنا منك بالمحبة .. وآتانا العلم اللدني والعمل الصالح والرزق الهنيء على بساط علم التوحيد والشرع .. وسخر لي الرزق واعصمني من تعلق الهمة به ومن الذل للخلق بسببه .. وهب لي لسانا لا يفتعن ذكرك وقلبا يسمع بالحق منك .. وبغض لنا الدنيا وحبب لنا الآخرة .. اللهم لاتعذبنا بإراداتنا وحب شهواتنا فنشتغل أو نُحجب أو نفرح بوجود مرادنا أو نُحزن أو نسخط .. وأنت أعلم بقلوبنا فارحنا بالنعيم الأكبر والمزيد الأفضل والنور الأكمل » .

(١) لطائف المتن لابن عطاء الله على هامش كتاب لطائف المتن والأخلاق للشعراني (طبع المطبعة الميمنية بمصر) ٣٧/٢

والورد طويل ويتخلله كثير من الآيات القرآنية ، وهو مناجاة روحية صافية للذات العلية . ويتضح فيه كيف تجمع الطريقة الشاذلية بين علم الشريعة وعلم الحقيقة الصوفية ، ولعل ذلك ما جعلها تشدّد على أتباعها في أن لا يلبسوا المرقعات وأن لا يسألوا الناس شيئا مما في أيديهم من مال أو غذاء مع الاعتماد على النفس في كسب القوت عن طريق التجارة والزراعة وغيرهما . وبذلك وصلت بين أتباعها والحياة والشريعة ، وسنخص ابن عطاء الله تلميذ أبي العباس المرسي بترجمة قصيرة . ومن متصوفة مصر المعاصرين لأبي العباس عبدالعزيز<sup>(١)</sup> الدّميرى الدّيرينى ، ولد بقرية دَميرة بالقرب من دمياط سنة ٦١٢ وتوفى بديرين في الصعيد سنة ٦٩٤ وكان يتجول في ريف مصر شمالا وجنوبا ، وكان فقيها شافعيًا ، ونظم كتاب التنبية لأبي إسحاق الشيرازى ، ونظم سيرة نبويّة ، وكان له تفسير في مجلدين . وكان متقشفاً محشوشنا ، وله في التصوف كتاب « طهارة القلوب في ذكر علام الغيوب » وهو يمتلئ بمناجيات إلهية بديعة من مثل قوله :

« إلهى ، عرّفنا بربوبيتك ، وعرّقتنا في بحار نعمتك ، ودعوتنا إلى دار قدّسك ، ونعمتنا بذكرك وأنسك .

إلهى ، إن ظلمة ظلّمنا لأنفسنا قد عمّت ، وبحار الغفلة على قلوبنا قد طمّت ، فالعجز شامل ، والحصر<sup>(٢)</sup> حاصل ، والتسليم أسلم ، وأنت بالحال أعلم .

إلهى ، ما عصيناك جهلا بعقابك ، ولا تعرّضنا لعذابك ، ولكن سوّلت<sup>(٣)</sup> لنا نفوسنا ، وأعاننا شقوتنا ، وعرّنا سترك علينا ، وأطمعنا في عفوك برك بنا ، فالآن من عذابك من يستيقّدنا ؟ وبِحبل من نعتصم إن قطع حبلك عنا ؟ واخجلّتنا من الوقوف غداً بين يديك ، وافضحتنا إذا عرّضت أعمالنا القبيحة عليك .

اللهم اغفر ما علمت ، ولا تهتك ماسترت .

إلهى ، إن كنا عصيناك بجهل فقد دعوناك بعقل ، حيث علمنا أن لنا رباً يغفر الذنوب ولأبيال .

وهي مناجاة لله بديعة صافية كل الصفاء نقية كل النقاء ، مناجاة تنبئ عن قصور العبد وتعلقه

(٢) الحصر : العى .

(٣) سوّلت : أغرت . وتقال في الشرور والسوء

(١) انظره في طبقات الشافعية للسبكي ١٩٩/٨ وحسن

المخاضة ٤٢١/١ والشعراني ٢٢٤/١ ومناجاته المذكورة في

بربه وطمعه في غفرانه وعفوه إذ يرى كل صلاته ونسكه وعبادته وكل ما قدم يقصر عن حق إلهه .  
ويروى السبكي مناجاة لصوصي شاذلي من صوفية القرن الثامن هو شمس <sup>(١)</sup> الدين بن اللبان محمد  
ابن أحمد المتوفى سنة ٧٤٩ وقد أخذ الطريقة الشاذلية عن ختنه (والد زوجته) ياقوت العرشي  
تلميذ أبي العباس المرسي ، ويقول السبكي إنه نقل مناجاته عن كتابه « المتشابه في الربانيات »  
وهي تطرد على هذا النمط .

« الهى ! جَلَّتْ عَظْمَتُكَ أَنْ يَعْصِيكَ عَاصٍ ، أَوْ يَنْسَاكَ نَاسٍ ، وَلَكِنْ أَوْحَيْتَ رُوحَ أَمْرِكَ  
فِي أَسْرَارِ الْكَائِنَاتِ ، فَذَكَرَكَ النَّاسِي بِنَسْيَانِهِ ، وَأَطَاعَكَ الْعَاصِي بَعْضِيَانِهِ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا  
يَسْبُحُ بِحَمْدِكَ ، إِنْ عَصَى دَاعِيَ إِيمَانِهِ فَقَدْ أَطَاعَ دَاعِيَ سُلْطَانِكَ ، وَلَكِنْ قَامَتْ عَلَيْهِ حُجَّتُكَ ،  
وَاللَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ : ( لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ) .

ويبدو أن كتاب المتشابه في الربانيات كان شطحات كثيرة على نحو ما نرى الآن من قوله : إن  
العاصي يطيع الله بعضيانه وإنه إن عصى داعي إيمانه فقد أطاع داعي سلطانه ، فكيف يُعد  
العاصي لله مطيعا له ؟ وإذن لا يكون في الدنيا عاص وعطيع . ولذلك يقول السبكي إن هذه  
المناجاة مما أخذ عليه . ويقول ابن حجر : ضُبِطَ عَلَيْهِ كَلِمَاتٌ عَلَى طَرِيقِ الْإِتِّحَادِيَةِ الْقَائِلِينَ  
بِالْحُلُولِ ، كَمَا يَقُولُ إِنْ لَهُ كِتَابًا عَلَى لِسَانِ الصُّوفِيَّةِ ، فِيهِ مَنَ إِشَارَاتُ الصُّوفِيَّةِ الْقَائِلِينَ بِالْوَحْدَةِ ،  
وَهُوَ فِي غَايَةِ الْحَلَاوَةِ لَفْظًا وَفِي الْمَعْنَى سَمِ قَاتِلٌ .

وكان يعاصره يوسف <sup>(٢)</sup> بن عبدالله العجمي الكردي المصري الدار المتوفى سنة ٧٦٨ وقد  
دفن بزوايته بقرافة مصر . ويقول ابن حجر : « له زوايا في عدة بلاد » . ويصفه ابن تغري بردي  
بقوله : « الإمام العالم المسلِّك الصوفي العارف بالله تعالى المعتقد .. وقبره يقصد للزيارة ، كان  
شيخا حقيقَةً ومُقْتَدِي طَرِيقَةٍ ، كان إمامَ الْمَسْلُكِينَ ( آخَذِي الْعَهودِ عَلَى الْمُرِيدِينَ ) فِي عَصْرِهِ وَهُوَ  
رِسَالَةٌ فِي التَّصَوُّفِ سَمَّاها « رِيحَانُ الْقُلُوبِ وَالتَّوَصُّلُ إِلَى الْحُبُوبِ » . ومن هذه الرسالة مخطوطتان  
بدار الكتب المصرية وقد ذكر فيها شرائط التوبة ولبس الخرقَة أو المرقعة الصوفية وتلقين  
الذكر .. ويقول ابن تغري بردي : انتفع بصحبته جماعة من العلماء والصلحاء والفقهاء ، وكان

(٢) انظر في يوسف العجمي النجوم الزاهرة ٩٤/١١

والدرر الكامنة لابن حجر ٢٣٨/٥ والشرايف ٧١/٢ وحسن

المحاضرة ٤٢٦/١

(١) انظر ابن اللبان في الدرر الكامنة ٤٢٠/٣ والسبكي

٩٤/٩ وحسن المحاضرة ٤٢٨/١ والوفاء بالوفيات للصفدي

١٦٨/٢ ومراة الحنان ٣٣٣/٤ وشذرات الذهب ١٦٣/٦

على قدم هائل ، كان غالب علماء عصره يقتدون به ، وكان له أوراد وأذكار هائلة ، وهذه الأذكار والأوراد سقطت من يد الزمن . وهو وأوراده رمز لمن جاء بعده من المتصوفة في أيام المالِك وما كان لهم من أوراد وأحزاب سقطت من يد الزمن .

ونخصي إلى أيام العثمانيين وولتقي في مطلعها بأبي السعود <sup>(١)</sup> الجارحي المتصوف المتوفى سنة ٩٣٠ ويشيد به الشمراني ، وأهم منه الشمراني <sup>(٢)</sup> نفسه المتوفى سنة ٩٧٣ وقد ألمنا به في حديثنا عن الزهد والتصوف في الفصل الأول ، وفي كتابه « لطائف المنز والأخلاق » بيان بالمؤلفات التي قرأها وبأساتذته ومراحل حياته الصوفية والأخلاق التي التزمها في حياته . ومع أنه صوفي سني نراه يدافع عن أستاذه الروحي : ابن عربي ، محاولاً تأويل عباراته على نحو ما يصور ذلك في كتابه « الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر » . وتظل الطرق التي عرضنا لها في غير هذا الموضوع ناشطة بمصر . ويعلو شأن الطريقة الخلوتية المنسوبة إلى الشيخ محمد الخلوتي منذ نزل القاهرة الشيخ مصطفى <sup>(٣)</sup> بن كمال الدين البكري الناشئ ببيت المقدس ، وقد طُوف في بلدان الشام والعراق وتركيا وحجج مرارا وسكن بأخرة القاهرة وتوفى بها سنة ١١٦٢ ويعرف به الجبرتي قائلا : شيخ الطريقة والحقيقة ، قدوة السالكين ، ومرقى المريدين الإمام المسلِّك ، تأليفه تقارب الماشين ، وأوراده أكثر من ستين وردا . وأجلها ورد السحر ، ونقتطف من مناجياته لربه فيه وابتهالاته قوله <sup>(٤)</sup> :

« إلهي ، أنت المدعو بكل لسان ، والمقصود في كل آن .

إلهي ، أنت قلت : ( اذعوني أستجب لكم ) فما نحن متجهون إليك بكليتنا فلا تردنا ، واستجب لنا كما وعدتنا .

إلهي ، ابن المفر منك وأنت المحيط بالأكوان ؟ وكيف الهراج عنك وأنت الذي قيَّدتنا بلطائف الإحسان .

والشمراني إمام التصوف في عصره لتوفيق الطويل .

(٣) انظر في ترجمة مصطفى البكري الصديق الخلوتي تاريخ الجبرتي ١٦٥/١ وسلك الدرر ١٩٠/٤ ودائرة المعارف الإسلامية في البكري .

(٤) انظر في ورد السحر للبكري مجموع الأوراد الكبير ( طبع مكتبة النصر ) ص ٧٨ - ١١٨

(١) راجع فيه الطبقات الكبرى للشمراني ١٤٣/٢

(٢) انظر في ترجمة الشمراني كتابه « لطائف المنز والأخلاق » في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، والكواكب السائرة ٢٥٩/٢ وطبقات المناوي الكبرى ٤٩٥/٢ والخطط التوفيقية ١٠٩/١٤ وكتاب الشمراني والتصوف الإسلامي لطفه عبد الباقي سرور ،

إلهي ، بحق جمالك الذي قَتَّ به أكبادَ المحبين ، وبجلالك الذي تحيرت في عظمته ألبابُ العارفين .

إلهي ، بالنور المحمدي الذي رفعت على كل رفيع مقامه ، وضربت فوق خزانة أسرار ألوهيتك أعلامه ، افتحْ لنا فتحة صَمَدَاتِيَا وَعِلْمًا رَبَانِيًا ، وَتَجَلِّيَا رَحَانِيَا ، وَفَيْضًا إِحْسَانِيَا .  
وعن هذا الشيخ أخذ الطريقة الخلوتية جمع من العلماء المصريين الأعلام في مقدمتهم الشيخ الحففي شيخ الجامع الأزهر وهو ملتي أسانيد الطريقة بعده ، ومن أخذها عنه الشيخ أحمد الدردير . وسنخصه بترجمة قصيرة بعد أبي الحسن الشاذلي وابن عطاء الله السكندري .

### أبو الحسن <sup>(١)</sup> الشاذلي

هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار ، من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب ، ولد سنة ٥٩٣ للهجرة بقرية تسمى غارة بالقرب من سيّنة في المغرب الأقصى ، وعلى عادة لداته في النشأة بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم وأكبَّ على العلوم الاسلامية واللغوية حتى أتقنها . ولم يكد يبلغ نحو العشرين من عمره حتى أحسَّ برغبة شديدة للنهل من معين الصوفية ، فرحل إلى المشرق ليلقى العلماء النساك ، ونزل تونس ، ولقى فيها وفي المدن المغربية قبلها حَمَلَةَ طريقة الصوفى المغربى أبى مدين . ولم يلبث أن عزم على أداء فريضة الحج فزار مصر ودخل الحجاز ، ثم زار فلسطين والشام والعراق ، وتعرف في بغداد على صوفى رفاعى هو أبو الفتح الواسطى ، وكأنا كان باب سلوكه الصوفى . وعاد إلى المغرب ، فكان من محاسن الصدق أن تعرف في فاس على صوفى هو عبد السلام بن مشيش ، فلزمه ، واتخذة إماما وشيخًا ، وقد دفعه دفعًا إلى أن يعيش للتصوف ومحبة الله ، إذ كان يكرر عليه قوله : « أذمّن على الشرب والمحبة وكأسهما مع السكر والصحو ، كلما أفتت أو تيقظت شربت ، حتى يكون سكرك به ، وحتى تغيب بجاله عن المحبة وعن الشرب والشراب والكأس ، بما يبدو لك من نور جاله ، وقدس كما له وجلاله » . ولم يلبث شيخه أن أمره

الشاذلي للدكتور عبد الحليم محمود ، وأعلام الاسكندرية في العصر الاسلامى للدكتور جمال الدين الشيال ص ١٦١ والأدب في التراث الصوفى للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ص ١٥٠ .

(١) راجع ترجمة الشاذلي في كتاب « لطائف المنن في مناقب أبى العباس المرسي وشيخه أبى الحسن » وحسن المحاضرة ٥٢٠/١ ونكت الهيمان ص ٣١٣ والشعرانى في الطبقات ٤/٢ والنجوم الزاهرة ٦٩/٧ وراجع المفاخر العلمية في الآثار الشاذلية لابن عياد وهو مطبوع ، وأبو الحسن

بالمهجرة إلى شاذلة بالقرب من تونس في إفريقية الوسطى ، فهاجر إليها ، وهناك أخذ ينشر في الناس الدعوة إلى التصوف ، ولصقت البلدة باسمه حتى اشتهر باسم الشاذلي وكان يتركها أحيانا إلى تونس وفيها تعرّف بتلميذه أبي العباس المرسي وتوثقت الصلة بينهما في الله ومحبه حتى قال له الشاذلي يوما : « ماصحبتك إلا لتكون أنت أنا »

وهاجر الشاذلي وتلميذه أبو العباس وجمع من مريديه إلى الاسكندرية في سنة ٦٤٢ وبها ألقى عصا تسياره ، وذاع صيته لافي الإسكندرية وحدها ، بل أيضا في القاهرة ، إذ كان يتردد عليها لنشر طريقته الصوفية ، وكان يحضر مجالسه في مدرسة الحديث الكاملية شيوخ الإسلام حينئذ وأكابر العلماء من الفقهاء والمحدثين والمفسرين .. وكان يلقى دروسه ومواعظه في الاسكندرية بجامع العطارين . وطار صيته فيها وفي القاهرة والمدن المصرية ، فانهال المصريون عليه ، يطلبون القرب من الله على يديه ، وفي هذه الأثناء أصاب عينيه رمد أفقده بصره . وكان يُعجب بأبي العباس المرسي منذ لقائه به فأعلن في أتباعه - كما مر بنا - أنه خليفته على طريقته ، وهي تقوم على التمسك بالكتاب والسنة والشريعة المحمدية بجانب النسك والعبادة وصدق القلب . والشعور الباطني الصوفي .

وهاجم الشاذلي بقوة حياة الخانقاهات والتسول التي كان يعيشها الدراويش الرُحَّل ، فعنده أن الصوفي الحقيقي لا يكون سائلا ولا طفيليا يمد يده للغير ، بل لا بد أن يعتمد على نفسه في كسب قوته ، فتصوّفه أو طريقته الصوفية كانت طريقة سنية . وكان يدعو مريديه لحمل السلاح ضد أعداء الإسلام الصليبيين ، وكان يرحل معهم إلى ميادين الحرب كما حدث في موقعة المنصورة المشهورة لعهد السلطان نجم الدين أيوب وابنه توران شاه حين اقتحم لويس التاسع ملك فرنسا دمياط وتقدم منها سنة ٦٤٧ بجيشه نحو المنصورة إذ نجده مع مريديه هناك ، ونجد معه شيوخ الدين وعلماء الكبار من مثل العزبن عبد السلام وابن دقيق العيد ومحيي الدين بن سراقه وغيرهم من جلة الشيوخ . وحدث أن تكلموا يوما واعظين ، وجاء الدور في الكلام والخطابة على أبي الحسن ، فنكلم - كما يقول الرواة - بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة ، وانهر الشيخ العزبن عد السلام ، فقام هاتفا منبرها قائلا : اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله . وأنزل الجيش المصري بالصليبيين هزيمة ساحقة ، واستسلم ملكهم لويس التاسع ذليلا كسيرا ، وارتحلوا عن دمياط خاسئين مدحورين إلى البحر المتوسط وماوراءه .

وعاد أبو الحسن الشاذلي إلى الاسكندرية والعلماء والناس يكتفون عليه للاستزادة من علمه وطريقته وتعالجه . حتى إذا كانت سنة ٦٥٦ خرج إلى الحج عن طريق القصير ومعه أبو العباس وبعض مريديه ، وفي صحراء عيذاب بين قنا والقصير أحسّ بدنو أجله فأعلن إلى أتباعه استخلافه عليهم أبا العباس المرسى ، ولم يلبث أن أسلم روحه إلى بارئه . وتدل أقواله وأدعيته وابتهالاته ومناجياته لربه في أوراده على أنه كان يملك ناصية العربية مصرفاً أزمته كيف شاء ، وله أوراد كثيرة ، وقد ساق ابن عطاء الله منها في كتابه لطائف المنن أربعة أوراد له أو أحزاب ، لعل أهمها الحزب المسمى بالحزب الكبير وهو يستهله ويتخلله بآيات قرآنية كثيرة ، ويناجي ربه فيه بمثل قوله :

« اللهم إنك تعلم أني بالجهالة معروف ، وأنت بالعلم موصوف ، وقد وسعت كل شيء من جهالتي بعلمك فسع ذلك برحمتك كما وسعته بعلمك واغفر لي إنك على كل شيء قدير .  
يارزاق يا قوى يا عزيز ! لك مقاليد السموات والأرض تبسط الرزق لمن تشاء وتقدر فابسط لنا من الرزق ما توصلنا به إلى رحمتك ، ومن رحمتك ما تحول به بيننا وبين نعمتك ، ومن حلمك ما يسعنا به عفوك ، واختم لنا بالسعادة التي ختمت بها لأولياك ، واجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائك ، وزحزحنا عن حب الدنيا وعن نار الشهوة وأدخلنا بفصلك في ميادين الرحمة ، واكسنا من نورك جلايب العصمة ، واجعل لنا ظهيرا من عقولنا ، ومهيما من أرواحنا ، ومسخرنا من أنفسنا (كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا) . »

اللهم إنا نسألك إيمانا دائما ، ونسألك قلبا خاشعا ، ونسألك علما نافعا ، ونسألك يقينا صادقا ، ونسألك دينا قيما ، ونسألك العافية من كل بليّة ، ونسألك الشكر على العافية ، ونسألك الغنى عن الناس . »

والمناجاة طويلة ، وهو يلم فيها - كما نرى - بطلب المغفرة والرحمة من ربه وأن يكون خير أيامه وأسعدها يوم لقائه وأن ينقره من حب الدنيا ويعصمه من شهواتها وأن يجعل حياته نسكا وعبادة له . وما يزال في الورد يتمنى أن يبه الله رضاه وحبّه وأن يدفعه عن كل ضر وأذى وأن يغنيه عن السؤال وأن ينعم عليه بعزّ الدنيا من الإيمان والمعرفة وبعز الآخرة من اللقاء والمشاهدة . ولم يكن يطلب إلى أصحابه أن يشقوا على أنفسهم في العبادة والتسك وأن يلبسوا الخرق والمرقعات بل كان يطلب إليهم الرفق بأنفسهم في التقوى والعبادة ، وأن يشتركوا في الحياة مع مجتمعهم تجارا وزراعا وأصحاب حرف ، فإن العمل نفسه يعد عبادة . وبذلك كان يدعو أتباعه أن لا يكونوا عالة على

الاجتماع بل يعملوا ويجدوا مع صفاء النفس وسمو الروح ، ومع التقوى والعمل الصالح . وشاعت طريقته في الديار المصرية وفي شمال أفريقيا وخاصة في الشمال الغربي ، وتفرعت منها أكثر من عشرة طرق من أهمها الطريقتان الوفائية والخلوتية .

### ابن عطاء <sup>(١)</sup> الله السكندري

هو تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري ، ولد بالإسكندرية في أواخر العقد السادس من القرن السابع ، واستهل حياته بحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يعكف على دراسة العلوم الدينية واللغوية حتى برع فيها ، يقول السيوطي : « كان جامعا لأنواع العلوم من تفسير وحديث ونحو وأصول وفقه على مذهب مالك » . ويبدو أنه جمع إلى مذهب مالك دراسة مذهب الشافعي مما جعل السبكي يترجم له في طبقات الشافعية ، وله في مذهب مالك مختصر تهذيب المدونة للبراعدي . وكان في أول أمره منصرفا عن التصوف والصوفية . بل كان ينكر عليهم طريقتهم ، حتى تصادف أن استمع إلى أبي العباس المرسي تلميذ أبي الحسن الشاذلي ، فأعجب به ، وأخذ يقتنع بطريقة القوم ، حتى أصبح أكبر مرید لأبي العباس وآثر تلاميذه عنده ، ولما توفي سنة ٦٨٥ خلفه على رياسة الطريقة الشاذلية . وله فضل كبير في نشرها ، فقد كان فقيها كبيرا ، كما كان صوفيا شاذليا لسيئا ، فجلس مجلس أستاذه يدرّس للناس الفقه والتفسير ويعظهم ، فيبلغ كل ما يريد من التأثير فيهم .

واستوطن ابن عطاء الله القاهرة ، واتخذ له حلقة في الجامع الأزهر تارة وفي المدرسة المنصورية تارة أخرى يعظ الناس ويرشدهم ، وأكب عليه الفقهاء وفي مقدمتهم تقي الدين السبكي ، وأكبت عليه العامة ، ودخل كثيرون في طريقته لروعة وعظه وحسن بيانه ، وخاصة أنه كان يمزج مواعظه بالقرآن الكريم والحديث النبوي وأقوال السلف . فكثرت أتباعه ، وأصبح لطريقته الشاذلية شأن عظيم ، وكان يكرر ويردد دائما مبدأها الأساسي وهو أن الصوفي الحقيقي من يجمع بين علوم الشريعة وعلوم الصوفية ، وأنه لا تصوف بدون أداء الفرائض والنوافل ، وأن على المتصوف أن يكتسب قوته وما يقيم به أوده ، وأما من يسألون للناس ويتضرعون إليهم طالبين ما يسدّون به رمقهم

(١٣٥١ هـ .) ص ٧٠ والواق ٥٧/٨ وشذرات الذهب ١٩/٦ وكتابا عنه للدكتور التفازاني وأعلام الاسكندرية للدكتور الشيبان ص ٢١٤ .

(١) انظر في ابن عطاء الله النجوم الزاهرة ٢٨٠/٨ وطبقات الشافعية ٢٣/٩ والدرر الكامنة ٢٩١/١ وحسن المحاضرة ٤٢٤/١ وطبقات الشمراني ١٤/٢ والبدر الطالع ١٠٧/١ والديباج المذهب لابن فرحون (طبع القاهرة

فليسوا من التصوف في شيء . فالصوفي يعمل ويجني ثمرة عمله ولا يسأل سوى ربه راضياً برزقه ونصيبه من دنياه ، ويقول ابن حجر : « كان المتكلم على لسان الصوفية في زمانه » وألف في مناقب شيخه أبي العباس المرسي وأبي الحسن الشاذلي كتابه « لطائف المنن » فأرسي به الطريقة وتعاليمها وكتب لها الذبوع . ويقول الذهبي : « كانت له جلالة عجيبة ووقع في النفوس ومشاركة في الفضائل » ويقول السبكي : « كان إماماً عارفاً صاحب إشارات وكرامات وقدم راسخ في التصوف » ويقول صاحب النجوم الزاهرة في التعريف به « الشيخ القدوة العارف بالله تعالى الصوفي الواعظ المذكر المسلك ، وكان يخطر حلقة وعظه خلق كثير ، وكان لوعظه تأثير في القلوب وكان له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطريق . وصنف ابن عطاء الله « لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن والتنوير في إسقاط التدبير ، والمرق إلى القدس الأتقي ، وتاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس ، ومفتاح <sup>(١)</sup> الفلاح ومصباح الأرواح . ووضح من عنوانات هذه المصنفات أنها كتب صوفية . وله أقوال وكلمات بليغة دونها أصحابه في كتاب باسم « حكم ابن عطاء الله السكندري » وهي منشورة . وله أشعار على طريقة الصوفية . أنشدنا منها مقطوعة في غير هذا الموضوع . وتوفى بالمدرسة المنصورية كهلاً سنة ٧٠٩ ودفن بجبانة <sup>(٢)</sup> آل أبي الوفا شرق جبانة الإمام الليث ، وكانت جنازته - كما يقول مترجموه - حيلة لكثرة أتباعه من الفقهاء والعلماء والعامّة

وكان ابن عطاء الله إذا وعظ استرسل في وعظه ، وقد يذكر آية قرآنية أو حديثاً نبوياً فتتوالى سيول القول ، من ذلك ما جاء في وصفه للرسول ﷺ في كتابه « لطائف المنن » إذ يقول : « مشرق الأنوار ومعدن الأسرار ، من له الفتح والختام ، والحائز للمقامات العلية بالتمام ، رسول رب العالمين ، وسيد الأولين والآخرين ، محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين . فهو نور الأنوار وسر الأسرار ، إليه تنزل الأسرار الربانية ، وعنه تؤخذ المعارف الإلهية . أخذ أهل الظاهر عنه ظاهرهم ، وأخذ أهل الباطن ( الصوفية ) منه باطنهم ، وقال ﷺ : العلماء ورثة الأنبياء ، وكل على قدر إرثه ، وإرثه على قدر نوره ، ونوره على قدر فتحه ، وفتحته على قدر صفاء قلبه ، وصفاء قلبه على قدر معرفته بربه ، ومعرفته بربه على حسب ما سبق له من حبه » .

(٢) في الإسكندرية مسجد منسوب إليه ، ولعله كان يلقى فيه أحياناً بعض مواظبه

(١) انظره مطبوعاً مع لطائف المنن على هامش كتاب لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بجملة الله على الإطلاق للشرفاني (طبع المطبعة الميمنية)

وتكثر عنده مثل هذه التفريعات والتوليدات في الكلام ، وكأنما يستمد من معين ذهني وروحي لا ينضب ، مع التنوع الدائم في الأفكار وتشعبها شعبا وفروعا لاتكاد تقف عند حد ، وكأنما يريد أن يشيد منها طبقات ، بعضها فوق بعض ، أو كأنما يريد أن يرفع منها صروحا شاهقة . وقد يستعين بال تكرار مع تلوين الأسلوب ألوانا مختلفة على شاكلة قوله واعظا :

« كيف يُتَصَوَّرُ أن يحجب الله شيء وهو الذي أظهر كل شيء ؟

كيف يتصوَّرُ أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء ؟

كيف يتصوَّرُ أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء ؟

كيف يتصوَّرُ أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء ؟

كيف يتصوَّرُ أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء ؟

كيف يتصوَّرُ أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء ؟

كيف يتصوَّرُ أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء ؟

يا عجباً كيف يظهر الوجود في العدم ، أم كيف يثبت الحادث مع مَنْ له وصف القدم ؟ «  
والعظة تدور على أن لاحجاب بين العبد ومولاه إذ هو مُظْهِر الكائنات جميعا وموجدها ،  
وجميعها تشهد بوجوده ، وإنه ليتجلى فيها جميعا . وقد ظهر لها عرفته وسببته ، وإن وجوده  
الأبدى أزليّ ، وإنه لواجب الوجود وحده دون سواه ، وإنه لأقرب إلى الإنسان من كل شيء ،  
أقرب إليه من جَبَل الورد . ويا عجباً كيف يحجبه الفاني الحادث ، وهو القديم الأزليّ ، وهو يُسْتَرُّ  
في العرض وروعة بيان وبلاغة . ويروى أن السلطان لاجين طلبه ليعظه ، وسأله في أثناء وعظه عن  
الشكر ، فأجابه توا :

« الشكر على ثلاثة أقسام : « شكر باللسان ، وشكر بالأركان ، وشكر بالجنان . فشكر

اللسان : التحدث بالنعمة ، قال تعالى : ( وأما بنعمة ربك فحدث ) . وشكر الأركان : العمل

بطاعة الله قال تعالى : ( اعملوا آل داود شكرا ) . وشكر الجنان : الاعتراف بأن الله وحده هو

المنعم قال تعالى : « وما بكم من نعمة فمن الله ) . وسأله لاجين : ما الذي يصير به الشاكر شاكرا ؟

فقال : إذا كان ذا علم فيالتبيين والإرشاد ، وإذا كان ذا غنى فبالهدل والإيثار للعباد ، وإذا كان

ذاجاه فبإظهار العدل فيهم ودفع الأضرار والأنكاد . « وبخى مقاله الشمراني من أن لكلامه حلالة

وجلالة .

أحمد <sup>(١)</sup> الدردير

هو أحمد بن محمد العدوي المالكي الأزهرى الشهير بالدردير ، ولد بينى عدى سنة ١١٢٧ للهجرة وحفظ القرآن الكريم وجوّده وشُغف بطلب العلم ، فورد القاهرة ، وأكبّ على حلقات العلماء يأخذ كل ما عندهم من حديث وفقه وتفسير وعلم كلام ولغة ونحو وبلاغة . وشغف بدروس الشيخ الحفنى شيخ الجامع الأزهر حينذاك ، وكان قد انتظم فى سلك الخلوتية - كما مرّ بنا - عن طريق الشيخ الخلقوى الكبير مصطفى بن كمال الدين البكرى ، فأخذ الدردير عنه الطريقة فيمن أخذوها عنه من العلماء والأجلاء وكان زاهدا غافيا تقيا ورعاسليم الباطن مهذبا كريم الخلق ، فقربه منه الشيخ الحفنى وشيوخه بعامّة . وسرعان ما أذنوا له بالإفتاء فى حضرتهم ، وأجازوا له التدريس ، فكان يدرس للطلاب المذهب المالكى ، وله فى شرح « مختصر خليل » اقتصر فيه على الراجح من أقوال أئمة المذهب المالكى . ولما توفى شيخ المالكية : الشيخ الصعيدى شغل مكانه فى المشيخة والإفتاء ، وعيّن ناظرا على وقف الصعايدة وشيخا لطائفته الخلوتية الصوفية .

وعدّد الجيرقى فى تاريخه مؤلفات الدردير فى الفقه المالكى وفى علم التوحيد وفى متشابهات القرآن وفى علوم البلاغة . وذكر له بجانب ذلك مؤلفات فى التصوف منها تحفة الإخوان فى آداب أهل العرفان ، وشرح على وِرد الشيخ كريم الدين الخلقوى ، وشرح على صلوات السيد أحمد البدوى وهى صلوات نبوية . ومازال الدردير يتولى مشيخة المالكية بالجامع الأزهر ومشيخة الطائفة الخلوتية الصوفية حتى توفى سنة ١٢٠١ للهجرة ، وصُلّي عليه بالأزهر فى مشهد عظيم ، ودُفن بزاويته التى بناها بحى الكعكيين . وله ورد أو حزب مشهور باسم المسبعات <sup>(٢)</sup> والصلوات ، والمسبعات أدعية وابتهالات عشر ، وتليها صلوات عطرة على الرسول ﷺ ، وله معها منظومة لأسماء الله الحسنى ، تشتمل فى نهايتها على صلوات وتسليمات على الرسول ﷺ وأدعية له ولشيوخه فى الطريقة الخلوتية ، وما يقول فى مسبعاته داعيا ربه متبتلا إليه .

« اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك ومن الذل إلا لك ومن الخوف إلا منك ، وأعوذ بك أن أقول زورا ، أو أغشى فجورا ، أو أكون بك مغرورا . وأعوذ بك من شاة الأعداء .

الكبير (طبع مكتبة النصر) ص ١٣

(١) انظر فى الدردير تاريخ الجيرقى ١٤٧/٢

(٢) انظر فى هذه المسبعات والصلوات مجموع الأوراد

وَعْضال الداء ، وخيبة الرجاء ، وزوال النعمة ، وُجْءة النعمة .

اللهم إني أعوذ بك من شر الخَلْق وهم الرُّزْق ، وسوء الخَلْق .

اللهم إني أعوذ بك من الزَّيْغ والخِزَع ، وأعوذ بك من الطمع في غير مطعم .

ويظل يستعيد من الهم والحزن ومن شر ما خلق الله ومن أن يظلم أو يُظلم أو يُبغى على إنسان أو يُبغى عليه ذو سلطان أو يُظنَى أو يُظنَى عليه . ويستعيد من الشرك الظاهر والخبئ ، ويتوسل إلى الله أن يكون دائما في حرز منيع من جميع خلقه ، وأن يظل معافى في بدنه ودينه ودنياه .

ونتقل معه إلى الصلوات على الرسول ، وتتضح فيها نظرية الحقيقة المحمدية التي مربنا حديث

عنها عند البوصيري ، إذ يقول :

« اللهم اجعل أفضل صلواتك أبداً ، وأتمى بركتك سرّمدًا ، وأزكى تحمّياتك فضلا وعددا ،

على أشرف الخلائق الإنسانية ، وجمع الحقائق الإيمانية .. شاهد أسرار الأزل ، وترجان لسان القدم .. وإنسان عين الوجود العلوى والسفلى ، روح جسد الكونين ، وعين حياة الدارين .

اللهم صلّ على مَنْ مِنْهُ انشَقَّت الأسرار ، وانفلقَت الأنوار ، وفيه ارتقت الحقائق ، ونزلت

علوم آدم فأعجز الخلائق ، وله تضاءلت الفهوم فلم يدرکه مناسبق ولا لاحق ، فرياض الملكوت بزهر جماله موقفة ، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة .

اللهم صلّ على الذات المحمدية ، اللطيفة الأحدية ، شمس سماء الأسرار ، ومظهر الأنوار .

ومركز مدار الجلال ، وقطب فلك الجمال . »

ونظرية الحقيقة المحمدية وما يطوى فيها من قدم الوجود المحمدى وأن وجود الكائنات مستعار

منه واضحة في قول الدردير عن الرسول عليه السلام إنه ترجان لسان القدم ، وإنسان عين الوجود

العلوى والسفلى وروح جسد الكونين وأن الأنوار منه انشقت ، فنوره هو المرئى في كل نور ،

ووجوده هو المشاهد في كل وجود . وكل ذلك يعنى أزلية النور المحمدى أو قل أزلية الحقيقة

المحمدية . ويوزع الدردير صلواته على الحروف الهجائية فلكل حرف سجعاته الخاصة ، ومع

الصلوات أدعية وإبتهالات شتى من مثل قوله في الصلوات على حرف الدال :

« اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وأسئلك بنا طريق الرشاد .

وصلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد واخضع علينا خلع الرضوان والوداد ،

وصلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وتوجنا بتاج القبول بين العباد .

وَصَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَأَرَأَيْتَ بِنَا رَأْفَةَ الْحَبِيبِ بِجَبِيهِهِ يَوْمَ التَّنَادِ (١) «  
وتتوالى مثل هذه الأدعية مع الصلوات على الرسول ﷺ وكان الدردير يستمد من معين  
لا ينضب ، وهو معين يسيل دائما سلاسة وعذوبة .

٥

## كتب النوادر والسير والقصص الشعبية

### (١) كتب النوادر

تطلق كلمة النوادر إطلاقين ، فهي تارة يراد بها الأقاصيص القصيرة التي تروّج عن النفس أو  
التي يُقصدُ بها إلى غرض خلقي نبيل ، وتارة يراد بها أقاصيص فكهة قصيرة سخرية بحاكم أو معلم  
أو قاض أو نجيل . وكتب الأدب العربي تمتلئ بهذين النوعين من كتب النوادر ، وهي كثيرة في  
مصر على مدار هذا العصر ، ونكتفي بالحديث عن كتاب من المجموعة الأولى وكتابين من المجموعة  
الثانية .

### كتاب المكافأة

مؤلف هذا الكتاب أحمد (٢) بن يوسف المعروف باسم ابن الداية كانت أم أبيه يوسف بن  
إبراهيم داية لإبراهيم بن المهدي عم المأمون فنسب إليها . وظل يوسف في خدمته حتى توفي ،  
ويبدو أنه كان مثقفا ثقافة متنوعة ، مما جعل بعض ولاة العباسيين بمصر يستكبه في ديوانها ،  
واستقر مقامه بها هو وأسرته منذ سنة ٢٢٦ للهجرة . ويروي أنه صنف كتابا في أخبار أصحاب  
الطب ، مما يؤكد أنه كان على صلة بعلوم الأوائل . ورزق بابنه أحمد ، وعُني بتثقيفه ، مما أهله  
ليعمل كاتباً في دواوين الدولة الطولونية وليكتب سيرة أحمد بن طولون وابنه خارويه وليس ذلك  
فحسب ، فإنه وصله بعلوم الأوائل وبرع فيها وخاصة في الطب والرياضة والفلك وأيضا في  
الفلسفة . ويسوق له مترجموه كتابا في أخبار الأطباء وكتابا في النسبة والتناسب وكتاباً في الأقواس

(١) يوم التناد : يوم القيامة واستوعب ابن سعيد في كتابه المغرب (قسم الفسطاط)

(٢) انظر في أحمد بن يوسف معجم الأدباء ١٥٤/٥ كتابه عن سيرة أحمد بن طولون وابنه خارويه . وكتاب  
المكافأة طبع مرارا .

(١) يوم التناد : يوم القيامة

(٢) انظر في أحمد بن يوسف معجم الأدباء ١٥٤/٥ كتابه عن سيرة أحمد بن طولون وابنه خارويه . وكتاب  
تاريخ الحكماء للقفطي (مختصر الزوزني) ص ٧٨

المثالة ، كما يسوقون له كتاب مختصر المنطق وكتاب السياسة لأفلاطون ، وشرح كتاب الثمرة في الفلك لبطليموس . وقد توفي سنة ٣٤٠ .

وتؤكد سيرة أحمد بن يوسف وسيرة أبيه أنها كانا من أصحاب المروءات ، وكانا يحسنان تسمير أموالها في التجارة والزراعة ، فأغدقا كثيرا على كل من رآياه تلم به كارثة أو ينزل به خطب من الخطوب . ولعل هذا الجانب في أحمد بن يوسف هو الذي جعله يؤلف كتابه « المكافأة » . وهو في ثلاثة أقسام : قسم يضم إحدى وثلاثين نادرة أو حكاية قصيرة تدور حول مكافأة الجميل بالجميل ليرغب في عون المنكوب ومد يد المساعدة إليه ، وحتى يكافئ الإنسان جميلا بجميل بمثله . ويعرض ذلك في النوادر عرضا جذابا بما يذكر من نوادر وقعت في أيامه وغير أيامه في مصر وغير مصر . ويتلو هذا القسم بقسم ثان يضم إحدى وعشرين نادرة أو حكاية قصيرة تصور كيف أن مكافأة القبيح تستتبع قبيحا مثله ، حتى يرتدع أهل الشر والسوء ، ويكفوا عن سوئهم وشهرهم لما يجران من أوحم العواقب . والقسم الثالث يضم تسع عشرة نادرة أو حكاية قصيرة وهي تصور حسن العقبي وكيف أن أناسا تورطوا في شر أو بلاء ونجوا منه . والكتاب بذلك دعوة حارة إلى عمل الخير بضرب أمثلة بديعة من النوادر والحكايات القصيرة . وهو مكتوب بفصحى جزلة ناصعة ، إذ كان أحمد بن يوسف من كتّاب زمنه البارعين . ويبدو أنه قصد به إلى أن يشيع في الشعب ، ولعل ذلك هو السبب في أننا نراه يقترب من لغته اليومية ، إذ تدور فيه صيغ وتعابير لاتزال تجرى على ألسنتنا في الحياة اليومية من مثل :

كاد والله يموت فرحا - كثر الله في الناس مثله - حصّلتني على الباب أي لحقني - اعتذرت إليه من تقصيري في حقه - امرأة تطلق (أي أصابها المخاض) - ست (أي سيدة) - امرأة مقربة (أي قربت ولادتها). واستخدم قليلا مدّ تاء المخاطبة بحيث تتولد من الكسرة ياء فقال على لسان تاجر يكافئ سيدة على جميل : « هذا جزء ماقد متيه » كما نقول في عاميتنا المصرية . واستخدم أيضا مطابقتنا في العامية بين الفعل والفاعل في الجمع فقال : « اشتهاو على صيباني حلواء في العيد » والفصحى أن يقال « اشتهى على صيباني » . ويكثر من الاستفهام في الجمل دون ذكر أداة من أدوات الاستفهام كما نصنع أيضا في عاميتنا . وكثير من نوادر الكتاب واسع الدلالة التاريخية على زمن المؤلف وجوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بجانب دلالاته القيمة على الأسلوب الأدبي في مصر حينئذ ، وما كان يستخدم فيه من عبارات لاتزال حية إلى اليوم .

## أخبار سيويه المصرى

ألف هذا الكتاب ابن<sup>(١)</sup> زولاق الحسن بن إبراهيم المولود سنة ٣٠٦ والمتوفى سنة ٣٨٧ وقد جمع فيه نوادر رفيق له في الدراسة هو محمد<sup>(٢)</sup> بن موسى الكندى المعروف باسم سيويه المصرى ، ولم يكن عالما بالنحو فحسب بل كان عالما أيضا بالقراءات والفقهاء وعلوم الحديث ورواية الشعر ، وكان عفيفا متسكيا اجتمعت فيه أدوات الأدباء والفقهاء والعباد ، وبلغ في ذلك - كما يقول ياقوت - مبلغا جالس به حكام مصر ، وكان ينقدهم نقدا يحمله كثيرا من السموم ، ولم يكن يخفيه بل كان يعلنه في الأسواق وعلى رؤوس الأشهاد ، وكان الناس يتبعونه يكتبون نقده ، ويروونه في المجالس العامة والمساجد والمتزهات . وما زال هذا دأبه حتى توفى سنة ٣٥٨ مع نهاية الدولة الإخشيدية . وكان ابن زولاق مؤرخا كبيرا ، ويقول ابن خلكان له كتاب في خطط مصر استقصى فيه ، وله كتاب أخبار قضاة مصر جعله ذبلا على كتاب الكندى : أخبار قضاة مصر ، وكان قد انتهى فيه إلى سنة ٢٤٦ ، فكله ابن زولاق إلى سنة ٣٨٦ ، وله كتاب في سيرة الإخشيد اعتمد عليه ابن سعيد في قسم القسطنطين من كتابه « المغرب » .

ويسوق ابن زولاق في كتابه أخبار سيويه مشاهد مختلفة لنقد سيويه للحكام وللناس في عصره ممزوجا بشيء من التباه ، ولم يكن يتقد أويذم بلفظ قبيح ، إنما كان يزرع وينهر بالفاظ غير قبيحة ولكنها تحز وخز الإبر ، من ذلك أن الإخشيد كان يركب في موكب لصلاة الجمعة ، تصدى له يوما في أثناء ركوبه إلى الصلاة والناس محتشدون لرؤيته فقال بأعلى صوته : « ماهذه الأشباح الواقفة ، والتماثيل العاكفة ؟ سلطت عليهم قاصفة (يوم ترجف الرأفة تتبعها الرأفة) قلوبهم (يومئذ واجفة) » فقال له رجل : « إنه الإخشيد يمر إلى الصلاة ، فلم يفرع ولم يسكت بل قال توا : « هذا الأصلع البطين » ، المسمن البدين ، قطع الله منه الوتين<sup>(٣)</sup> ، ولاسلك به ذات اليمين ، أما كان يكفيه صاحب ولا صاحبان ، ولا حاجب ولا حاجبان ، ولا تابع ولا تابعان ؟ لا قبل الله له صلاة ولا قبل له زكاة ، وعمر يجتته القلاة » .

(٢) راجع في سيويه المصرى معجم الأدباء ١٩/٦١

(٣) الوتين : الشريان الرئيس الخارج من القلب .

(١) انظر في ابن زولاق معجم الأدباء ٧/٢٢٥ وابن

خلكان ٢/٩١ ولسان الميزان لابن حجر ٢/١٩١ حيث يقول

إنه كان يتولى المظالم للفاطميين ويظهر التشيع لهم .

وكان سيبويه المصرى يستخدم السجع دائما في نقده أوقل في هجائه للحكام ، ويوشيه بآية أو آيات قرآنية على نحو ما مر بنا آنفا أو بحديث نبوى . وكان يسوق مثل هذا الهجاء في أثناء وعظه للناس ، إذ كان واعظا كبيرا . والناس يضحكون لتنفيسه عنهم ما كان يقع عليهم من ظلم الحكام لزمته فيضحكون ويفرقون في الضحك . وكان بعض الحكام والوزراء يقربه ويخالسه أملا في أن لا يكونهم أمام الشعب بسياطه . ورأى أبا الفضل جعفر بن الفرات يسير في موكب كبير وكان قد تولى الوزارة ، فقال : « ما بال أبى الفضل قد جمع كتابه ، ولفق أصحابه ، وحشد بين يديه حجابه ، وشمر أنفه ، وساق العساكر خلفه ؟ أبلغه أن الإسلام طرُق فخرج ينصره ، أو أن ركن الكعبة سُرق فخرج لهذا الأمر ينكره ؟ » . ومع أن سيبويه كان يصوغ نوادره في هذه الفصحى المسجوعة نجد عنده بعض ظواهر من عاميتنا أو لغتنا المتداولة ، من ذلك أنه كان يعيد الضمير لغير العاقل مع الفعل مجموعا في مثل : « فجاءت فراريج فلقطوا ما بين يديه » والفصحى فلقطت ما بين يديه . وكان أسلافنا سبقونا إلى ذلك في لغتهم اليومية منذ مئات السنين .

### كتاب الفاشوش في حكم قراقوش

ألف هذا الكتاب ابن ممانى الذى مرت ترجمته ، وقد قصَّ فيه طائفة من النوادر نسبها إلى قراقوش <sup>(١)</sup> التركى أحد قواد صلاح الدين الأيوبى . وكان قد أنابه عنه مدة بالديار المصرية وقوض أمورها إليه ، وهو الذى بنى السور الذى كان يحيط بالقاهرة ، وبنى قلعة الجبل والقناطر في طريق الأهرام . وكانت فيه شدة وقسوة ، كما كانت فيه غفلة وغير قليل من الحمق ، فانتبهز ابن ممانى ذلك فيه ، وألصق به طائفة من النوادر في أحكامه جمعها في كتابه « الفاشوش » <sup>(٢)</sup> في حكم قراقوش . ويدافع عنه ابن خلكان قائلا : في الكتاب أشياء يبعد وقوع مثلها منه ، والظاهر أنها موضوعة فإن صلاح الدين كان معتمدا في أحوال المملكة عليه ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما قوضها إليه .

ويبدو أن قراقوش قسا في تسخير المصريين في بناء السور والقلعة والقناطر المذكورة ، فانتقم لهم ابن ممانى منه بهذا الكتاب الذى وضعه عليه . وهو يستهله بقوله : « إننى لما رأيت عقيل بهاء الدين قراقوش حُرمة فاشوش ، قد أتلف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غمَّة ، لا يقتدى بعالم ،

(٢) راجع في تحليل هذا الكتاب مقالا لنا في مجلة الكاتب

المصرى عدد نوفمبر سنة ١٩٤٦ ص ٣٦١ -

(١) انظر في قراقوش ابن خلكان ٩١/٤ والنجوم الزاهرة

١٧٦/٦ وعبر الذهبى ٢٩٨/٤

ولا يعرف المظلوم من الظالم والشكية عنده لمن سبق ، ولا يبتدى لمن صدق ، ولا يقدر أحد من عظم منزلته أن يردّ كلمه ويشتط اشتطاط الشيطان ، ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان ، صنفت هذا الكتاب لصالح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين . ويأخذ ابن ممانى فى سرد أحكام قراقوش المضحكة . من ذلك أن سيدة سوداء شكت لقراقوش جارية مملوكة لها ، فعجب أن تكون امرأة بيضاء خادمة لسيدة سوداء ، فردّ شكواها مؤمنا بأنها ليست السيدة بل هى الجارية ، والجارية البيضاء هى السيدة ، وهمّ بجسها لولا أن شفت فيها جاريته فعا عنها . ومن ذلك أن رجلين من أصحاب اللحى الطويلة جاءه يشكوان إليه رجلا أجرد كان يعبث بلحيتيهما ، ونظر قراقوش إلى الرجل فلم يجد له لحية حينئذ ضرخ فى الرجلين قائلا : إنها اللذان اعتديا عليه بتف لحيته ، وصاح فى غلماه أن يزجوا بالرجلين فى غياهب السجون حتى ينبت الشعر فى ذقن الرجل وتطول لحيته . ومن ذلك أن الشرطة جاءته بجداد له قتل نفسا محرمة بغير حق ، فأمر بشقه فقيل له إنه حدادك الذى يتعلّ لك الفرس ، فنظر أمام باه فرأى رجلا قفاصا فقال : « اشتقوا القفاص وسيبوا ( اتركوا ) الحداد . وعلى هذا النحو يصور ابن ممانى قراقوش متصرفا فى القضايا بحمق مابعده حمق ، ونضحك للتضاد بين المقدمات والنتائج ، تباينا يضع فيه المنطق ، فسيدة تدخل شاكية لخادمتها ، فتخرج خادمة والخادمة تصبح سيدتها ، ورجل يدخل بدون لحية ، فيخرج وله لحية تُنفث ، أو قل يدخل جانبا ويخرج مجنبا عليه ، وقاتل يبرأ ويرى يقتل .

وما نظن أحدا فى مصر قديما بلغ من التشهير بحاكم ما بلغه ابن ممانى من التشهير بقراقوش وأحكامه بين الناس عن طريق هذه النوادر الشعبية التى اختار لها لغة المصريين الدارجة لزمه قاصدا بذلك أن تشيع بين العامة ، وهى فعلا شاعت أكبر شيوع وأوسع فى مدن مصر وريفها ، فكلما اشتكوا من حاكم وظلمه قالوا : « حكم ولا حكم قراقوش » .

وأضافت الحقب التالية إلى شخصية قراقوش نوادر مضحكة بجانب ما فى كتاب الفاشوش من نوادر كثيرة ، مما جعل السيوطى يؤلف كتابا يستعير له اسم كتاب ابن ممانى ، مضيفا فيه إلى قراقوش نوادر جديدة . وكأنما أصبحت شخصية قراقوش فى الأزمنة التالية شخصية خيالية لكل حاكم أحقق يخلط حمقه بظلمه . وأكبر الظن أن كلمة قراقوش التى تطلق فى تركيا والشام على خيال الظل وتصويره للحكام الظالمين الحمقى ترجع فى اشتقاقها إلى اسم قراقوش لا إلى ما يقال من أنها مؤلفة من لفظتين تركيتين هما « قره » أى أسود و« قوز » أى عين وبذلك يكون معناها العين

السوداء لأن من كانوا يعرضون هذه اللعبة بتركيا كانوا من الغجر الجوالين ، غير أنا نرجح الرأي الأول . وقد دخلت الكلمة ثانية إلى مصر باسم « أراجوز » .

### هز (١) القحوف

نمضى إلى زمن العثمانيين بمصر فنجد عالما واعظا يسمى يوسف الشربيني يصف حال سكان الريف المصرى وما نزل بهم لعهد العثمانيين من البؤس والفقر والضعف والجهل في قصيدة يسميها « قصيدة أبى شادوف » وشرح لها يسميه « هز القحوف » وقد ملأ الشرح بنوادير فكاهية عما كان يعانيه أهل الريف حينئذ من الأمية والجهل وبطش الكاشف أو حاكم الإقليم وظلمه وما كان يصلهم من السخرة وما كانوا يرزحون فيه من المسغبة فإن طعموا لم يطعموا إلا العدس وطعاما يتخذ من الفول يسمى اليسار والمش العتيق ، ومعاذ الله أن يطعموا شيئا وراء ذلك من لحم وغير لحم . ويقول عن أبى شادوف الثرى الريفى صاحب القصيدة إنذ لم يكن يملك سوى حمار أعرج وعزتين وحصه في ثور الساقية ونصف بقرة وعشر دجاجات وديك وأربع كيلات من نخال الشعير . ويفيض الكتاب بنوادير لاذعة تحمل في أطوائها كثيرا من الطعنات لحكم العثمانيين الغاشم وسوآته .

### ( ب ) كتب السير والقصص الشعبية

كثرت في مصر منذ أيام الفاطميين كتب قصص الأنبياء مجموعة أو مفردة : قصة لموسى وقصة ليوسف عليها السلام أو لغيرهما من الأنبياء وخاصة إبراهيم الخليل . ومرّ بنا في الحديث عن كتابة التاريخ في الفصل الثانى بيان لبعض ما كتب في السيرة النبوية ، ومنذ الحروب الصليبية كثرت الكتابة في ميلاد الرسول ﷺ وما اقترن به من خوارق وحياته وما رافقها من معجزات ، وكان ذلك يكتب نثرا وتخلله أشعار باسم « المولد النبوى » . وعادة كان هذا المولد يلقي في الاحتفال بذكرى ميلاد الرسول ، وكانت تلقى معه « قصة الإسراء والمعراج » الإسراء برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى والعروج به إلى السماء . وقد أصبح من الثابت أن دانتي تأثر تأثرا واضحا بهذه القصة الأخيرة في الكوميديا الإلهية (٢) ويجانب هذا القصص الدينى الذى لا يزال كثير منه مخطوطا

(١) انظر في تحليل كتاب هز القحوف مقالا لنا في مجلة

(٢) راجع تاريخ الفكر الأندلسى لبالنشيا ترجمة الدكتور

ومحفوظا برفوف دار الكتب المصرية قصص كثير محفوظ بتلك الرفوف عن العشاق العذريين .  
ونعرض الآن طائفة من السير والقصص الشعبية التي ألفت في مصر - أو أخذت بها شكلها  
النهائي - وهي سيرة عنتره والسيرة الهلالية والظاهر بيبرس وسيف بن ذى يزن وألف ليلة وليلة .

### سيرة (١) عنتره

أساس هذه السيرة أخبار عنتره في الجاهلية وما جاء فيها من أنه كان ابن أمة ومن أبناء فروسيته  
وحبه لبعلة ابنة عمه . ويتحول عنتره في السيرة بطلا عظيما للمحمة عريية تمتد فيها بطولاته من  
العصر الجاهلي حتى نهاية القرون الخمسة الأولى للإسلام . ويقال - طبقا لرواية في أول كتاب منية  
النفس في أشعار عنتره عبس - إن أول كتابة لهذه السيرة كانت في أيام العزيز الخليفة الفاطمي  
(٣٦٥-٣٨٦هـ) إذ حدثت ريبة في قصره جعلت أهل القاهرة يلهجون بالحديث عنها ، فأشار  
على شخص يسمى يوسف بن إسماعيل أن يشغل الناس بسيرة تلهيهم عن الكلام فيها ، فألف لهم  
سيرة عنتره وشُغفوا بها . غير أن هذه الرواية - إن صحت - إنما تشير إلى أول ما كان من وضع  
السيرة . إذ أخذت الأجيال تزيد فيها حتى أوائل القرن السادس الهجري ، وحتى أصبحت في اثنين  
وثلاثين جزءا ، وهي منشورة في أربع مجلدات . ولا تمتد فيها سيرة عنتره في الزمان فحسب ، بل  
تمتد أيضا في المكان ، إذ تشمل ساحات بطولات عنتره العالم القديم : الهند وفارس ومصر والشام  
وجنوب أوربا وشمال إفريقيا والحيشة والسودان . وهي موزعة بين نثر وأشعار ، مما أتاح لرواتها من  
قديم أن ينشدوها الناس على الرابة في حفلات كانت تعقد لها . وقد كتبت بلغة تدنو دنوا شديدا  
من اللغة اليومية ، وصيغت صياغة قصصية جذابة بحيث يقطع الكلام في كل جزء من أجزائها  
عند حادث مهم . وبذلك يشغف القارئ والسامع بمعرفة الجزء الذي يليه . وهكذا حتى نهايتها .  
وتتسع السيرة في عرض أخبار الجاهلية حتى نصل إلى زمن زهير ملك بنى عبس قبيلة البطل ، وتعرض  
السيرة مولد عنتره وبطولته في صباه وشبابه وحبه لابنة عمه وحمائه لقييلته ضد القبائل المنافسة  
لها وما فرضه عليه عمه لقاء زواجه ببعلة من أعمال شديدة الخطر جسّمته الرحلة إلى العراق وملازمة

(١) انظر في سيرة عنتره وترجماتها وما وضع فيها المستشرقون

من بحوث دائرة المعارف الإسلامية

ملوك الحيرة ووفوده على إيران وتعرفه بملوكها وفي مقدمتهم كسرى وما كان من طلبهم منه العون في منازلة بطل إغريق .

ويصبح عنتره حاكما للشام ويفد على القسطنطينية ويقود مع إمبراطورها حروبا ضد الفرنجة ويبلغ إسبانيا ويخترق شمال إفريقيا إلى مصر ويستعين به ملك روما ضد بوهمند ويقتله ، وهو أحد أمراء الحروب الصليبية الأولى وكان نورمانديا إيطاليا ، وكان المؤلف الأخير للسيرة كان يعرف أصله وموطنه . ومعروف أن الحملة المذكورة نزلت آسية الصغرى سنة ٤٩٠ للهجرة ولذلك نقول إن ميادين السيرة وساحاتها البطولية تمتد حتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، وليس بوهمند فقط الوحيد من أمراء الحملة الصليبية الذى يلقانا فى السيرة ، إذ يلقانا فيها أيضا زواج عنتره من أميرة إفريقية وإنجابه منها الجوفران وربما كان تحريفا لجودفرى صاحب بويون دوق اللورين الأدنى الذى استولى على بيت المقدس سنة ٤٩٢ ولم يلبث أن توفى وخلفه أخوه بلدوين . وبطولات عنتره فى السيرة تتسع لانتشمل ميادين الحروب الصليبية والبلاد الأوربية فحسب ، بل أيضا لتشمل الهند والسودان وبلاد النجاشى ، وعرف عنتره أنه جد أمه زيبية . وكل من يقرأ السيرة يرى أن أجيال المؤلفين التى تداولتها كانت أجيالا بصرية بتاريخ العرب فى الجاهلية وما اتصل بها من قصة إبراهيم الخليل وتاريخ العرب فى الإسلام وقصحاتهم العظيمة وتاريخ الفرس وملوكهم وبلاطهم وآدابهم وتاريخ الحروب الصليبية وطقوس النصارى وشعائيرهم وأعيادهم . والسيرة ملحمة رائعة للبطولة العربية التى مثلها عنتره أروع تمثيل فى أكثر من خمسمائة عام ومثل معها فضائلها النبيلة التى نقلها الصليبيون إلى ديارهم . وقد تخللت السيرة أحلام وروى وأساطير وخوارق عجيبة .

### السيرة (١) الملالية

تروم هذه السيرة حروب مستمرة بين بنى هلال ومن دخل معهم من قبائل زغبة وسليم ورياح وعدى وربيعة والأنجب إلى إقليمى طرابلس وتونس وشمالى إفريقيا ومن كان بهذه الاقليم من الصنهاجين وزناتة وغيرهم من القبائل المغربية المستوطنة . وكانت القبائل العربية المذكورة قد

لللهالية والزناينة ، وراجع دائرة المعارف الإسلامية وكتابا فى للسيرة الملالية لعبد الحميد يونس .

(١) انظر فى السيرة الملالية الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون (طبع بولاق) ص ٦٢ وكذلك الجزء السابع ص ٤٣ وأواخر مقدمة ابن خلدون حيث يروى بها أنشطاراً

حاربت مصر لعهد المعز أول الخلفاء الفاطميين سنة ٣٦٠ تحت لواء الأعصم القرمطي . وكان قد استولى على دمشق والرملة ودخل مصر والتقى بالجيش الفاطمي في عين شمس بالقرب من القاهرة وكاد يُكْتَبُ له النصر لولا خروج بعض قواده عليه وانضمام القبائل سالفة الذكر إلى الجيش المصرى . وبذلك دارت عليه الدوائر فعاد إلى الشام ومنها إلى البحرين موطنه . وأسكن المعز تلك القبائل القيسية الصعيد ، لعله يمكن الانتفاع بها في المستقبل . وحانت الفرصة لذلك في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) إذ خرج عليه المعز بن باديس الصنهاجى صاحب تونس والقيروان سنة ٤٤٣ وأعلن العودة إلى المذهب المالكي السنى وتبعيته للخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وانفصل بذلك الجناح الغربى للدولة الفاطمية ولم تقم للمذهب الشيعى الفاطمى قائمة في تلك الأنحاء منذ هذا التاريخ . واستشاط المستنصر غضبا ، وأشار عليه وزيره اليازورى أن يسلط عليه القبائل القيسية النازلة بالصعيد منذ أيام جده المعز ، فاتصل بشيوخهم ووعدهم أن تكون ديار طرابلس وتونس وكل ماتحت يد المعز إقطاعا لهم وأيضا كل ما يمتلكونه من بلاد المغرب وسرعان ما لبته جموعهم ، وخرجت إلى المغرب : إلى تونس وإفريقية ، واستولت في سنة ٤٤٣ على برقة بزعامة يحيى الرياحى وتملك بنوزغة في سنة ٤٤٦ طرابلس ، واتجهت هلال ورياح والأبيج وعدى إلى إفريقيا وأضرموها نارا بقيادة زعيمهم مؤنس بن يحيى الرياحى وحاول المعز بن باديس أن يقربه منه مجزلا له العطايا ولم يغن ذلك عنه شيئا . ونازل تلك الجموع ودحرته وأنزلت به هزائم متوالية ، مما اضطره أن يخلى لهم القيروان وأن يكتبنى بالمهدية وبلدان صغيرة حولها . واكتفى بها من بعده ابنه تميم الذى حكم بعده إلى نهاية القرن الخامس . وأخذت تتضعص الإمارات بينا تحول إقليم تونس والجزائر إلى إقطاعات صغيرة يحكمها هلاليون أو زناتيون إلى أن أعادت دولة الموحدين إلى شطر كبير من المغرب وحدته .

ويبدو أنه حين ارتضت هذه القبائل القيسية هجرتها إلى المغرب أرسلت إلى عشائرها في الجزيرة العربية أن تقدم عليها لتشاركها في هذه الهجرة الكبيرة وأن عشائر فعلا لبّت دعوتها ، يدل على ذلك أننا نجد القاصّ للسيرة أو قصاصها استغلّوا فيها قصة فتاة جميلة من بنى هلال هي الجازية بنت الحسن بن سرحان عشقها فتى من عشيرتها وأراد الزواج منها وتصادف أن أمير مكة شكر بن أبى الفتوح (٤٣٠-٤٥٣هـ) رآها وأعجب بها ، وطلب يدها من أبيها فأثره على عشيقها ، وزوّجها منه . ثم حدث أن أغضب شكر عشيرتها ، ورأوا الانتقام منه فاحتالوا عليه لأخذ الجازية وحرمانه منها ، فادعوا أنهم يريدونها لزيارة أوبيا في نجد ، حتى إذا قلمت معهم

مضوا مع أيها في الرحلة إلى إفريقيا ، وهناك زُوجها من ابن عمها ولكن قلبها ظل معلقا بزوجها الأول حتى ماتت من شدة هيامها وحبا له . وهي قصة صحيحة في أصلها المتصل بشكر أمير مكة وزوجته الجازية ، مما يدل على أن عشائر هلالية من الجزيرة قدمت على بني هلال بالصعيد أو بعد تركهم له مباشرة وواصلت بدورها الهجرة إلى المغرب .

والأساس في السيرة تاريخي صحيح وهو هجرة بني هلال ومن معهم من القبائل القيسية إلى المغرب واستيلائهم على بعض مدنه ، غير أن الأحداث بعد ذلك تمضى وكأنها أضغاث أحلام لتلك الهجرة الكبيرة إذ سُمِّي القصاص بطلها أبازيد الهلالي وسموا خصمه في قبيلة زناتة : الزناني خليفة . وبذلك غابت عن السيرة قبيلة صناجة وأميرها المعز بن باديس الصنهاجي ، كما غاب زعيم القبائل يحيى الرياحي وابنه مؤنس . وقد يرجع ذلك إلى أن القاص أو القصاص الذين وضعوها كانوا بمصر بعينين عن ساحة الأحداث أو ساحاتها فبدت وقائعها وكأنها أخلاط أحلام ، بما في ذلك اسم بطلها العريين الخياليين : أبي زيد الهلالي ودياب بن غانم الزغبى . وأغلب الظن أن ذلك يرجع إلى أنها تأخرت في وضعها طويلا عن زمن أحداثها ولذلك كنا نظن أنها أُلِّفت في القرن السابع الهجرى أو بعده في القرن الثامن وهي مكتوبة باللغة اليومية : شعرا ونثرا ، وقد تعلق بها الشعب المصرى في ريفه وحضره ، وعادة كان يلقيها على الناس منشدا على ربابة في المقاهى والحفلات ، يسمونه الشاعر . وللسيرة ثلاث مراحل : مرحلة الريادة إلى بلاد المغرب ، وفيها يرود الطريق بطلها الخيالى أبو زيد الهلالي وأبناء أخته يحيى ومرعى ويونس وفي تونس يُلقَى بهم في غياهب السجون ، ويستطيع أبو زيد الفرار من السجن ويستنفر القبيلة لتخليص أبنائها الثلاثة . والمرحلة الثانية تسمى التفرية وفيها تهاجر القبيلة إلى تونس وتمكنها سعدى ابنة ملكها الزناني خليفة من دخولها وتَفك القبيلة الأسرى الثلاثة . ويأخذ الحسن بن سرحان القيروان ودياب تونس وأبو زيد الأندلس ويستولون على قلاع كثيرة حتى يصلوا إلى أقصى المغرب . والمرحلة الثالثة خاصة بأبناء الأبطال ويسمون الأيتام ، وفيها يجمع زيدان بن أبي زيد الهلالي العرب من الشام والحجاز ويلتقى بهم في صعيد مصر ويرحل معهم إلى تونس ويشدد الحصار عليها وعلى أميرها دياب بن غانم الزغبى ويوافيه الهلالية من الأندلس ويفتحون جميعا المدينة ويقتلون دياب بن غانم . ويتنازل الهلالية عنها لابن الزناني خليفة ويتأمر على الهلالية ابن الحسن بن سرحان ، ويعود زيدان الهلالي إلى صعيد مصر ، كما يعود الهلالية الذين قدموا من الأندلس إليها . وبذلك تنتهى السيرة ، وهي تمتلئ بانطباعات مصرية كثيرة .

سيرة الظاهر بيبرس<sup>(١)</sup>

كان طبيعياً أن يضع المصريون سيرة شعبية طويلة للظاهر بيبرس بطل موقعة عين جالوت التي لم تقم بعدها للتار قائمة . بل لقد ولوا الأدبار إلى الشمال في الشام وبيبرس يلاحقهم حتى اتجهوا شرقاً إلى شمالي العراق . وبمجرد استيلائه على الحكم في مصر سنة ٦٥٨ أخذ يثبت حكمه باستقدامه أحد سلالة العباسيين ، وكان من أبناء الخليفة العباسي الظاهر ونجا من مذبحه المغول ببغداد ونزل دمشق ، فاستدعاه بيبرس إلى القاهرة ، وبايعه بالخلافة ، وبذلك أصبح بيبرس حامياً لها . وتبعه في حمايته سلاطين المماليك إلى أن أخذ السلطان سليم العثماني فاتح مصر الخليفة العباسي معه إلى القسطنطينية . وكان بيبرس سيوساحزماً وقائداً ماهراً فاتسع بدولته في الجنوب ببلاد النوبة ودانت له القبائل في ليبيا ، وهزم التتار على الفرات في غير معركة وأوقع بالأرمن خسائر فادحة ، وكان للصليبيين ضربات قاصمة ، واستولى على كثير من قلاعهم وحصونهم ، ودان له الحشاشون الفدائيون داخل الشام بالطاعة . وتعدُّ أيامه أزهى أيام مصر زمن المماليك وأعظمها ازدهاراً ، لذلك كان من الطبيعي أن تؤلَّف عنه سيرة شعبية ، وهو فيها بطل عربي يسمى « محمود بيبرس » وقد مثلوا فيه الفروسية العربية ومظاهرها الباسلة وخاصة في حروبه مع الصليبيين .

ولغة السيرة عامية والنثر يغلب فيها بالقياس إلى الشعر ، ولذلك لم تكن تُنشد ، بل كانت تُروى ، وتنسب إلى أربعة رواة أصليين هم ابن الدينارى وكاتم السراى كاتب السروناتر الجيش والصاحب والدويدارى ( تحريف للدودار ) وهو الأمين الخاص للسلطان . وتنداخل في السيرة قصص طويلة كقصّة إبراهيم الحوراني ورحلته إلى روما . وتحدث السيرة عن نشأة محمود بيبرس وعلاقته بالسلطان الأيوبي نجم الدين الملقب بالملك الصالح وما عهد إليه من الأعمال ، وصلته بشجرة الدر وأبيك وقطرز . وتصف جلوسه على عرش مصر وامتداد حروبه وساحات بطولته إلى أوروبا ، وتعرض أعماله وإخضاعه الفدائيين الحشاشين المشهورين بكثرة اغتيلاتهم منذ زعيمهم الحسن الصباح ، وتذكر من زعمائهم جمال الدين شيبه ، ولعله صاحب القبر المعروف باسمه في دمياط . ومن أبطال السيرة معروف زوج مريم الزنارية النصرانية وقد أنجبت منه ابناً حاربه قبل أن

(١) انظر هذه السيرة تحت كلمة بيبرس في دائرة المعارف الإسلامية ،

يعرفه . ويبدو أن هذه السيرة لم تكتب في عهد قريب من الظاهر ، لأن الأحداث التاريخية وأسماء الأبطال سوى الظاهر يشوبها كثير من الخيال وتحفل بأساطير وأعمال خارقة للعادة ، ونرجح كتابتها بعد القرن السابع وقد تكون كتابتها تأخرت إلى القرن التاسع الهجري .

### سيرة (١) سيف بن ذى يزن

قصة شعبية مصرية طويلة ، تعرض بطولة سيف بن ذى يزن سليل ملوك حمير ، وهي تصور الصراع بين العرب والأحباش في أواخر العصر الجاهلي . وكيف طردهم سيف بن ذى يزن من الجزيرة العربية بعد أن كانوا قد سيطروا على اليمن . وهي في ١٧ جزءا وتحمل كثيرا من الأساطير والعجائب ومغامرات سيف بن ذى يزن في سبيل استقلال بلاده ، وبذلك تأخذ السيرة مكانة في التاريخ القومي العربي ، إذ موضوعها حرب بين العرب وأمة الأحباش الأجنبية . وتحمل السيرة سيف بن ذى يزن حنيفا يقتحم معاقل الشرك وهو يقول انما لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله ، ويغلب أن تكون قد ألفت بمصر في القرن الثامن أو التاسع للهجرة .

### ألف (٢) ليلة وليلة

ذكر ابن النديم في كتابه « الفهرست » : من كتب الأسمار والخزافات التي نقلت عن الفرس كتاب هزار أفسانه أى ألف خرافة . والمعروف أنه يرجع إلى أصل هندي . ويغلب أن يكون قد نُقل إلى العربية في القرن الثالث الهجري ، ولا يعرف بالضبط متى أُضيفت إلى اسمه وهو ألف ليلة كلمة ليلة الثانية ، ويغلب أن يكون قد أُريد بها أن يحوى ليالى كثيرة تزيد عن الألف . وأخذت تضاف إلى الكتاب في بغداد أقاصيص كثيرة ، وبالمثل أضافت إليه مصر بدورها أقاصيص متنوعة . ويمكن أن تميز الأقاصيص الهندية الأصل فيه بتداخلها كحكاية الصعاليك الثلاثة . وتمييز الحكايات الفارسية فيه بحكايات الظرفاء وبعض الحكايات المفردة . وبه حكايات عربية خالصة كحكاية حاتم الطائي وإبراهيم المهدي . ويشيع في الحكايات البغدادية ذكر هرون الرشيد وتكرهه وتدينه البالغ وجهه لمباهج الحياة وللرعية وحب الرعية له ووصف بلاطه وقصوره . وتكثر

كتابه « أصول الأدب » ودائرة المعارف الإسلامية وما ذكرت من مراجع .

(١) راجع في هذه السيرة وما بها من تأثيرات مصرية مقال ياربه عنها في دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظر في ألف ليلة وليلة بحثا لأحمد حسن الزيات في

القصص المصرية فى الكتاب وحكايات الشطار بها وما تطبع به من المروءة والفكاهة كما فى حكايات علاء الدين أبى الشامات وأحمد الدنف ودليلة المحتالة وزينب النصابة ومعروف الإسكافى وعلى الزبيق ، ويشيع السحر فى هذه الحكايات كما تشيع عادات المصريين ، وتصوّر حياتهم فى الأسواق والحمامات وما يغلب عليهم من الإيمان بالطلاسم والرقى والتعاويذ . ونلتقى بجوانب من هذا كله فى حكايات مصرية أخرى كحكاية أبى قير وحكاية أبى صير ومثلها حكاية المصلح العجيب وأيضا حكاية مريم الزنارية وحكاية الصعيدى وزوجته الإفريقية وهما تعكسان الصراع بين المسلمين وحملة الصليب . وأهم من كل ما سبق لمصر فى الكتاب أنها هى التى صاغته بلغتها العامية وانتشر بها فى العالم العربى منذ القرن الثامن الهجرى ، وبالمثل انتشرت فيه بتلك العامية السِّير الشعبية: سِير عنتره والهلالية والظاهر بيبرس وسيف بن ذى يزن . وكان لذلك أثر واسع فى تعرف تلك البلدان على العامية المصرية من قديم . وكثيرون يظنون أن تعرف تلك البلدان على عاميتنا أو لغتنا اليومية حديث، وأن الإذاعة والسينما أتاحتا لها هذا التعرف فى عصرنا، وهو - كما قلنا - تعرف قديم .

## خاتمة

تحدثت في هذا الجزء عن تاريخ الأدب العربي بمصر في عصر الدول والإمارات، ورأيت أن أضم إلى العصر ما سبقه بها منذ الفتح العربي من مختلف شئونها التاريخية والأدبية والعلمية على مر الأزمنة الإسلامية. وأوضحت كيف أن قبض مصر رحبوا بالعرب لما كفلوا لهم من معتقداتهم الدينية وما رفعوا عنهم من ظلم الروم وضرائبهم الفادحة. وتولى أمرها فاتحها العظيم عمرو بن العاص، وتعاقب الولاة عليها في زمن الأمويين وأخذوا يفرضون على أهلها ضرائب استثنائية، وأمر الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز برفعها عن كواهلهم. وتتحول الخلافة إلى العباسيين ويرسلون إلى مصر بولاتهم حتى إذا انتصف القرن الثالث ولها أحمد بن طولون وأسس بها الدولة الطولونية، واستشعرت مصر في عهدها استقلالها، وبالمثل في عهد الدولة الإخشيدية. وما يكاد ينتصف القرن الرابع حتى تتولاها الدولة الفاطمية الإسماعيلية، ويظل المصريون منصرفين عنها وعن مبادئها الشيعية المتطرفة، وتضعف دولتهم وينزل الصليبيون الشام، ويؤسسون دولة لهم في بيت المقدس. ويدور الزمن دورات وتسقط الدولة الفاطمية، ويتولى مصر صلاح الدين الأيوبي، وينازل حملة الصليب ويسحق جموعهم سحقاً في حطين وغير حطين، ويسير سيرته خلفاؤه من حكام الدولة الأيوبية في ضربهم الضربات الماحقة، ويخلفهم الماليك فيسحقون جموع المغول في عين جالوت سحقاً ذريعاً، ويطردون حملة الصليب نهائياً من الشام إلى البحر المتوسط وما وراءه. ويستولى العثمانيون على مصر لمدة ثلاثة قرون وتصبح بعد أن كانت دولة عظيمة ولاية تابعة للدولة العثمانية.

وقد أتاحت الزروع والبساتين على ضفاف النيل رخاء واسعاً لسكان مصر من قديم. وأعطى هذا الرخاء لحكامها منذ ابن طولون الفرصة واسعة لبناء البيهارستانات والجوامع الكبيرة والقصور الفخمة. وأتاح ثراؤها الضخم للدولة الفاطمية حياة مترفة بالغة الترف كما أتاح لصلاح الدين أن يعد جيشه بل جيوشه لضرب حملة الصليب ضربات قاصمة. وأيضاً فإنه بنى بالقاهرة قلعته المشهورة ومارستاناً كبيراً سوى ما شيد من المدارس. وتزدهر الحياة

بمصر لعهد المالك وتتكاثر الأعياد بها تكاثراً واسعاً وتوسع موجات الغناء وفنون اللهو والتسلية، وارتقى حينئذ خيال الظل وأصبح مسرحاً شعبياً عاماً. وألمت بعد عرض المجتمع في مصر للدعوة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية وانصراف المصريين عنها، كما ألمت بالزهد وما كان بمصر من جماعات النساك وكيف أسس ذو النون المصري التصوف الإسلامي ومبادئه الروحية وما يتصل به من الأحوال والمقامات، ويزدهر التصوف منذ زمن الدولة الأيوبية، ويتضح فيه اتجاهان: اتجاه فلسفى يمثله ابن الفارض واتجاه سُنىّ شعبى تمثله الطرق الصوفية، ومن أهمها الطريقة الشاذلية التى أسسها أبو الحسن الشاذلى، وقد تعددت فروعها لعهد المالك تعدداً واسعاً، حتى بلغت أحد عشر فرعاً، ومن أهمها الطريقتان: الوفاية، والخلوتية.

ومعروف أن مصر أدت دوراً عالمياً عظيماً في تاريخ الحضارة الإنسانية، ولا تزال أهراماتها الشامخة تمثل هذا الدور تمثيلاً باهراً، ويدين لها العلم بمعناه العالمى ديناً كبيراً بما أدت له في الهندسة والمعمار والطب والرياضة، وتظل جذوتها العلمية متقدمة مهما اقتحم أسوارها من الجيوش المغيرة، على نحو ما هو معروف عنها في عهد البطالمة إذ لم تلبث في أيامهم أن استعادت نشاطها وأخذت ترسل أضواءها في الفلسفة وغير الفلسفة. وما إن يمضى على دخولها في الإسلام نحو قرن ونصف حتى تعود روحها العلمية إلى النشاط وإرسال أضوائها وشررها إلى العالم العربى، على نحو ما هو معروف عن ابنها ورث وحمل المغاربة والأندلسيين قراءته إلى أوطانهم، ولا تزال القراءة الشائعة في المغرب إلى اليوم، وما يلبث الأندلسيون والمغاربة أن يتعلموا لعبد الرحمن بن القاسم تلميذ مالك، ويحملون عنه المذهب المالكى في الفقه. وينزل مصر الإمام الشافعى ويعنى تلامذته المصريون بمذهبه الفقهى والمحاضرة فيه، ويأخذونه عنهم تلامذة من الشام والعراق وإيران وينشرونه في بلدانهم. ويكتب مؤرخها ابن عبد الحكم - لأول مرة - تاريخ الفتوح بمصر والمغرب، ويحمله عنه المغاربة وأهل الأندلس كما يكتب مؤرخها ابن هشام السيرة النبوية العطرة، ويحملها المؤرخون لها في العالم العربى جميعه مغرباً وغير مغرب.

ويعنى حكام مصر - منذ عهد ابن طولون - بالحركة العلمية وإثرائها ويؤسس فيها الفاطميون جامعة كبرى تسمى: «دار العلم» كما يبنون الجامع الأزهر ويظل جامعة إسلامية

كبرى إلى اليوم، وينشئ بها صلاح الدين الأيوبي خمس مدارس، ويتبارى خلفاؤه الأيوبيون والمماليك في إنشاء المدارس بها والإكثار منها حتى ليقول ابن بطوطة الذى زار مصر سنة ٧٢٦ إن أحدا لا يستطيع أن يحيط بحصرها لكثرتها، وكانت المساجد والجوامع - وخاصة الجامع الأزهر - تنافس المدارس في هذه الحركة العلمية، وكانت مصر قد ظلت ملاذًا لعلماء العالم العربى غربا وشرقا، وخاصة بعد استيلاء النورمان على صقلية والإسبان على مدن الأندلس وبعد غزو المغول لمدن إيران والعراق، وأيضا فإنها أصبحت الحامية للثقافة الإسلامية والعربية. وفي كل مجال يلقانا علماءها في الفلسفة وعلوم الأوائل من الرياضيات والطبيعات والطب والجغرافيا، وينهض فيها العلماء باللغة والنحو منذ أوائل القرن الرابع الهجرى وتصبح لها مدرسة نحوية يلمع فيها غير نحوى كبير منذ الدولة الأيوبية، ويكثر فيها علماء البلاغة والتقد منذ ابن وكيع التنيسى في القرن الرابع الهجرى، ويتكاثر بها علماء القراءات والتفسير والحديث النبوى والفقهاء بمختلف مذاهبه الكبرى وعلم الكلام، ويُؤرِّخ لكل علمائها الأعلام في العلوم جميعا تأريحا دقيقا. وتتشط الكتابات التاريخية نشاطا واسعا في السيرة النبوية العطرة والتاريخ العام وتاريخ مصر ودولها وتاريخ المدن وخاصة القاهرة والإسكندرية وتاريخ الرجال والعلماء من كل صنف وتاريخ الشعراء والأدباء.

وتأخذ مصر في التعرب منذ الفتح الإسلامى، ويدخل كثير من أبنائها في الدين الحنيف، وحتى القبط أو - بعبارة أدق - جميع من بقى منهم على دينه المسيحى يأخذون في التعرب ويتم تعريبهم في القرن الثالث الهجرى. ويتصل نشاط الشعر في مصر، ويظل محدودا زمن بنى أمية، وزارها في أيامهم بعض الشعراء من نجد والحجاز والعراق، ويتسع نشاط الشعر بمصر في زمن ولاة العباسيين أو يأخذ في النشاط، ويصبح لها شعراء نابهن مثل المعلّى الطائى، وينزلها أبو نواس لمديح الخصب والى الحجاج فيها، كما ينزلها أبو تمام لمديح ولاتها ويظل بها فترة. ومن شعرائها فى النصف الأول من القرن الثالث ذو النون المصرى الإخيمى مؤسس التصوف، ويشتهر بها فى بواكير أيام الدولة الطولونية الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام. ويبدو أن الشعراء تكاثروا فى عهد هذه الدولة، يدل على ذلك أنها حين انتهت فى أواخر القرن الثالث بكأها منهم كثيرون حتى ليقول المقرئى إنه رأى كتابا به اثنتا عشرة كراسة بأسماء الشعراء الذين بكوها، ويعلق على ذلك قائلا: إذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة فما مقدار شعرهم؟ ثم يقول إنه لا يوجد لأحدهم الآن ديوان واحد،

ومما يؤكد بوضوح ما كان بمصر من حركة شعرية خصبة أن نجد الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ للهجرة يؤلف كتابا في أخبار شعراء مصر.

وينزلها قبيل منتصف القرن الرابع المتنبى ويحدث نزوله بها حركة أدبية واسعة، ويظل الشعر بها نشيطا في عهد الفاطميين، ويدل على ذلك من بعض الوجوه ما يروى من أنه لما توفى ابن كلُّس وزير المعز وابنه العزيز رثاه مائة شاعر. وينثر الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم العطايا والأموال على الشعراء، مما جعلهم يلهجون بالثناء عليهم، ويؤلف بأخرة من العصر الفاطمى الرشيد بن الزبير كتابا في شعراء مصر سباه: «جنان الجنان ورياض الأذهان» سقط من يد الزمن، ويخص شعراءها في القرن السادس الهجرى العباد الأصبهاني وزير صلاح الدين الأيوبي بمجلدين في كتابه الخريدة، ترجم فيها لنحو مائة وأربعين شاعرا، ويفد عليها في أواخر أيام الدولة الأيوبية على بن سعيد الأندلسى صاحب كتاب المغرب ويخصها هى وشعراءها وكتّابها وحكّامها ووزراءها وقضاتها بستة مجلدات من كتابه ضاع أكثرها، وبقي منها القسمان الحاصان بالفسطاط والقاهرة، وحُققا ونُشرا. وتظل كتب التراجم في عصر الماليك تترجم لكثيرين من الشعراء النابهين بمصر. وتألقت حينئذ أسماء كثيرين منهم ونُشرت دواوينهم كما نُشرت طائفة من دواوين الشعراء في العهدين الفاطمى والأيوبي. وبقيت من هذا النشاط بقية أيام العثمانيين مما جعل شهاب الدين الخفاجى في القرن الحادى عشر الهجرى يؤلف كتابا في شعراء زمانه سباه: «ريحانة الألبأ» خص مصر بالقسم الثالث منه، وملتقى بتراجم كثيرين منهم بعد الخفاجى في كتب التراجم والتاريخ وخاصة تاريخ الجبرقى.

ويكثر الشعر الدورى بمصر وتكثر مزدوجاته ومسمّطاته ورباعياته. وتكثر الموشحات وكان شعراء مصر قد أخذوا يتعرفون عليها في أواخر أيام الدولة الفاطمية، ويتصدى لها الشاعر ابن سناء الملك في أيام صلاح الدين والدولة الأيوبية فيضع لها عروضها كما وضع الخليل بن أحمد قديما عروض الشعر العربى على نحو ما يوضح ذلك كتابه النفيس: «دار الطراز». وقد ألحق بدراسته له في الكتاب أربعا وثلاثين موشحة بديعة لكبار الوشاحين الأندلسيين، وأتبعها بخمس وثلاثين موشحة له، وبذلك أعد هذا الفن الأندلسى للذيع والانتشار، فأقبل عليه شعراء مصريون وغير مصريين ينظمون فيه موشحات لهم رائعة،

ونفس ابن سناء الملك مضى ينظم فيه عشرات جديدة من الموشحات حتى لنجد السخاوى فى كتابه «سجح الورق المنتخبة فى جمع الموشحات المنتخبة» ينشد له أربعا وثلاثين موشحة. وترجمت لوشاحين مصريين كبيرين هما العزازى وابن الوكيل. وشاعت الموشحات بمصر على ألسنة المتصوفة فى أذكارهم، ولعل بن وفاشيخ الطريقة الوفائية فى أواخر القرن الثامن الهجرى وأوائل التاسع ديوان جميعه موشحات صوفية. ويكثر القاضى الفاضل وزير صلاح الدين فى شعره من المحسنات البديعية، ويصبح له فى طريقة استخدامه لها وفى إكثاره من التورية مدرسة يتكاثر أتباعها فى أيام الدولتين الأيوبية والملوكية بمصر والشام.

ويكثر شعر المديح، ويظل يجرى على ألسنة زمن الولاة أيام الدولتين الأموية والعباسية، حتى إذا أظل مصر عهد الدولة الطولونية تبارى الشعراء فى مديح أحمد بن طولون وفى مقدمتهم الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام الذى مر ذكره آنفا، ومن شعراء تلك الدولة المرمى القاسم بن يحيى شاعر خمارويه. ويشتهر بعده فى زمن الإخشيد سعيد بن فاخر شاعره، ويترجم الثعالبي فى اليتيمة لكثيرين من شعراء الدولة الإخشيدية، وخاصة من التفوا حول المتنبي حين مقامه فى القاهرة مادحا لكافور، ويكثر المديح كثرة مفرطة منذ القرن السادس الهجرى ويكثر شعراؤه النابون، وقد ترجمت خمسة منهم عارضا روائع مدائخهم، وهم المهذب بن الزهير شاعر طلائع بن رزيك الوزير بأخرة من الدولة الفاطمية، وقد نوه طويلا ببعض انتصاراته على حملة الصليب، وابن قلاص الشاعر الاسكندرى المادح لشاور الوزير الفاطمى والمهاجر بشعره إلى صقلية واليمن مادحا رجالاتها مدحا رائعا، والشاعر المبدع ابن سناء الملك شاعر صلاح الدين ووزيره القاضى الفاضل، وهو أهم شعراء مصر قبل العصر الحديث ويتميز بفرائد بديعة من التصاوير الطريقة والألفاظ الحلوة العذبة، وابن نباتة شاعر المؤيد صاحب حماة والسلطان المملوكى حسن، ويتميز بلغة سهلة رشيقة مع كثرة التوريات، والشيخ عبدالله الشبراوى شيخ الأزهر فى أيام العثمانيين وله مدائح كثيرة فى ولاتهم.

وينشط الرثاء فى مصر للحكام وكبار الكتاب وأصحاب المناصب العليا فى الدول المتعاقبة، وتكثر الشكوى من الزمن وتقلباته ونوائبه، على نحو ما نجد عند على بن النضر الشاعر الفاطمى ومراثيه وشكواه من الزمن، وعند على بن عرام شاعر أسوان، وله مرثية

هديمة بل مناحة كان ينوح بها أهل أسوان على المقابر ناديين موتاهم، وابن النقيب الحسن بن شاور وله شكوى مرة من الظلم والخسف ومن العوز والبؤس، وعبداه الإدكاوي أيام العثمانيين، وله مرثية يرثى فيها نفسه ويبيكها وقد حملهُ النُعث إلى مثنوا. وكان للدعوة الفاطمية الإسماعيلية شعراء غلوا في مديح خلفائهم غلوا مقيتا، إذ جعلوهم فوق البشر والبشرية مسبغين عليهم بعض صفات الذات العلية، وأهم شعرائهم ابن هاني الأندلسي، وتموج أشعاره في المعز الفاطمي بضلال ما بعده ضلال، وكان شاعرا فذا غير أنه سخر ملكته الشعرية في مديح المعز بصفات إلهية قدسية، بهتان ما بعده بهتان. وعلى شاكلته المؤيد في الدين الشيرازي إذ يجعل الخلفاء الفاطميين في مديحه فوق الطبيعة البشرية ويسبغ عليهم الصفات الربانية. وثالث هؤلاء الشعراء ظافر الحداد وهو مصري من الإسكندرية، ويلتقط من ابن هاني - الذي صرح في بعض مديحه للأمر بأنه يحاول محاكاته - بعض معانيه مثل فكرة طاعة الخليفة الفاطمي وأنها فرض واجب، كما أخذ عنه فكرة أن الخليفة نور خالص، غير أنه ظل لا يسرف إسراف ابن هاني والمؤيد الشيرازي في إضفاء الصفات الإلهية على الخليفة، ومع ذلك يُعد شذوذا على المصريين في أيام الفاطميين، إذ انصرفوا انصرافا تاما عن العقيدة الفاطمية الإسماعيلية المنحرفة، وظلوا مثل آباؤهم سُنين.

ويكثر الغزل مصورا عاطفة الحب الإنسانية عند الشعراء المصريين وقد بثوا فيه حبا متقدا لا تخبو ناره أبدا بما يصور من اللوعات والصبابة والهيام والوله، ويموج شعر كثيرين يوجد لا حدود له على نحو ما يلاحظ في غزل ابن سناء الملك، ويعم الغزل الوجداني بعض أشعار الغزلين، وكأنا يتأثرون فيه الغزل الصوفي الملتاع المعاصر لهم، ومن أهم شعرائه وأروعهم ابن النبيه، وغزله يتسامى إلى مستوى وجداني رفيع، مما دفع المغنين إلى التغنى به لا في مصر وحدها بل أيضا في كثير من ديار العرب، وتغنت السيدة أم كلثوم ببعض غزله الوجداني المكتظ باللهفة واللوعة والرقة واللطف. ولا يقل عنه في الغزل الوجداني روعة البهاء زهير، وكأنا انطبع الوجد الصوفي وأشواقه في أعماق نفسه مما جعل بعض غزلياته تلتبس عند الأسلاف بغزليات ابن الفارض وما تحمل من مواجد صوفية. ولابن مطروح صديقه حظ من هذا الغزل المملوء بحرارة الوجد ولوعاته والذي يقطر رقة ودمائه وظرفا. ولبرهان الدين القيراطي غزل وجداني كثير يتمثل فيه هذه الطريقة الغرامية التي يذوب

فيها المخب لوعة وهياما، وتلتقى في أيام العثمانيين بالعسيلي وما يتميز به غزله من رهافة الحس ودقته.

ويتكاثر الفخر بدوره : الفخر بالأخلاق النبيلة وبالأس والشجاعة، ولا ين سناء الملك فيه منظومة رائعة جسّد فيها روحا قوية عاتية: روح بطولة صلاح الدين وجيشه. المصرى الباسل وما أذاقا حملة الصليب من دمار وتنكيل لا يماثله تنكيل. ومن قديم يسيل الهجاء في السنة الشعراء المصريين، وكثيرا ما سلطوا سهامه على الفاطميين ووزرائهم وقد ينحون به أحيانا نحو الدعاية. وتلتقى في الفخر بتميم بن المعز الفاطمي المفاخر بأسرته الفاطمية العلوية فخرا مضطرا بشرر كثير وجهه إلى ابن المعز الشاعر العباسي وأسرته العباسية، ولطلّاح بن رزّيك وزير الفاطميين بأخرة من أيامهم فخر كثير بانتصاراته على حملة الصليب. وكان ابن الذرّوى من كبار الهجائين، وله أهجية في أحدب مليئة بالسخرية الموجعة، ومثله أحمد بن عبد الدائم الشرمساحي، وكان يكثر من هجائه للناس حتى القضاة وعلماؤ الدين، وعلى شاكلته حسن البدرى الحجازي إذ لم يسلم من هجائه أحد حتى المتصوفة.

ويتعمق الشعور بجمال الطبيعة على ضفاف النيل وفي وديانه ورياضه وحدائقه نفوس الشعراء منذ المريمي شاعر خمارويه، وتكثر مجالس الأُنس واللّهو والغناء والطرب، ويمثل ذلك كله ابن وكيع المشغوف في أشعاره بالطبيعة والخمر، والشريف العقيلي شاعر الطبيعة المصرية غير مدافع، وابن قادوس وكان يشغف بوصف الخمر، ومثله عبد الباقي الإسحاقى أيام العثمانيين. وعُرفت مصر بالزهد والنسك من قديم، ويظل شعر الزهد فيها مزدهرا على مر الأزمنة، وكان ذو النون المصرى - كما مرّ بنا - قد وضع أسس التصوف الإسلامى في القرن الثالث الهجرى، غير أنه لم يزهده بمصر إلا منذ عصر صلاح الدين الأيوبي، وأخذ يتضح فيه - كما مرّ بنا - اتجاهان: اتجاه فلسفى مثله خير تمثيل ابن الفارض واتجاه سنى مثله أصحاب الطرق الصوفية وأتباعهم من مثل الطريقة الشاذلية، ومن أتباعها الشعراء أبو العباس المرسى، وقد ترجمت قبله لابن الكيزانى الصوفى المعاصر لصلاح الدين وله أشعار صوفية بديعة، وفصلت التزّاد في ابن الفارض ومجاهداته الروحية وعشقه الربانى، وفنائه وانمحاته في الذات الإلهية إنحاء كليا.

وكان الشعراء المصريون يتغنون بمدح الرسول ﷺ من قديم، وأخذ هذا المدح يزدهر في زمن الحروب الصليبية وأكبر مادح مصري للرسول البوصيرى ويشتهر بمدحه النبوية المسماة بالهمزية، وربما فاقتها روعة ميمته المسماة بالبردة، وظلت القصيدتان بتشدان - إلى اليوم - في حفلات الموالد وحلقات الذكر الصوفى. وولتقى في العصر العثماني بمحمد بن أبى الحسن البكرى، وله أشعار يصور فيها بعض مواجده الصوفية، وسؤاله الرسول الشفاعة له يوم القيامة. وألمت بشعراء الفكاهة وعرضت في ترجمات ابن مكسة والجزار والسراج الوراق طرائف من فكاهاتهم كما عرضت عند ابن دانيال مسرحياته الفكاهة وخاصة مسرحية «طيف الخيال» وهى عمل تمثيلى بديع. وألمت بعامر الأنبوطى في أيام العثمانيين ومعارضته الفكاهة لألفية ابن مالك وغيرها. وعرضت جوانب من الشعر الشعبى وثلاثة من أعلامه هم: إبراهيم المعمار وتورياته المستملحة، والغبارى وأزجاله المتنوعة وابن سودون وفكاهاته المضحكة سواء في وصفه لزوجته ليلة الدخلة أو في رثائه لأمه أو في حديثه عن عجائب الطبيعة، وفيها جميعاً يعتمد على المنطق اعتداء يجعل قارئه يستغرق في الضحك.

وينهض النثر وتزدهر الرسائل الديوانية فيه منذ أيام ابن عبدكان كاتب أحمد بن طولون، ومن أعلام الكتاب الديوانيين في عهد الفاطميين ابن الصيرفى، وتتميز لغة كتابته بالسجع والسهولة والتوشيح لها بالألفاظ القرآنية والمحسنات البديعة. وولتقى بالقاضى الفاضل أهم كتاب مصر، وهو رأس مدرسة ظلت حية في أيام الأيوبيين والمماليك، وهى تلتزم السجع مع صفاء التعبير ومع الإكثار من المحسنات البديعية والعناية بالتورية. ومن كبار الكتاب في أيام المماليك محمى الدين بن عبد الظاهر وابن فضل الله العمرى، وتطبع كتابتهما الديوانية بطوابع كتابة القاضى الفاضل.

وتكثر الرسائل الشخصية من تهنئة وشكر وعتاب وتعزية واعتذار منذ أيام الفاطميين وتعمها خصائص الكتابة الديوانية لأن أكثر كتابها كانوا من كتاب الدواوين، ومن أهمهم ابن أبى الشخياء في زمن الفاطميين، وسجعاته خفيفة رشيقة مع صفاء اللفظ ورسائته. ولابن ممانى كاتب الدواوين في عهد صلاح الدين رسائل شخصية يعنى فيها بالسجع ومحسنات البديع ومراعاة النظر وحسن التعليل. ويتميز ابن مكانس في أيام المماليك بالسجع الرشيق والاستعارات والتوريات والجناسات البديعة مع خفة الروح والعدوبة والسلاسة..

ويعنى غير كاتب بصنع مقامات منذ أواخر الدولة الفاطمية، ولا تدور على الشحادة الأدبية المعروفة في مقامات الهمذاني والحريري، بل تدور على المحاورات أو على عرض بعض مسائل علمية أو على المفاخرات أو على حديث قصصى أو على وعظ، ومن نلتقى بهم فيها ابن أبي حجلة المغربي، وله مقامة بديعة في وصف فيضان النيل، والقلقشندى وله مقامة في وصف صناعة الإنشاء وتقريظ صاحب ديوانها، وأخرى في المفاضلة بين العلوم، والسيوطى وله مقامات كثيرة، وأغلبها مفاخرات تدور بين الأزهار أو بين الفواكه أو بين البقول أو بين العطور، والشهاب الخفاجى أيام العثمانيين وله مقامات مختلفة، منها مقامة رومية في وصف القسطنطينية، وفيها يهاجم متصوفتها وعلماءها ومفتيها، ويختتمها بمديح السلطان العثمانى.

وتتكاثر المواعظ والابتهالات وقد ترجمت في عَرْضها لأبى الحسن الشاذلى إمام الطريقة الشاذلية، وذكرت قطعة من حزبه الكبير، كما ترجمت لابن عطاء الله السكندرى وذكرت بعض مواعظه، وبالمثل لأحمد الدردير أيام العثمانيين وذكرت قطعة من ورده أو حزبه المشهور. وعرضت كتب النوادر والسير الشعبية بادئا بكتاب المكافأة لابن الداية، وتلوته بأخبار سيبويه المصرى، وكان ينقد الحكام نقدا به كثير من السموم. وتحدثت عن كتاب الفاشوس في حكم قراقوش لابن مماتى، وكتاب هز القحوف ليوسف الشريبنى وما يحملان في نوادرهما من مسخرية لازعة بالحكام، كما تحدثت عن كتب السير والقصص الشعبية: سيرة عنتره والسيرة الهلالية وسيرة الظاهر بيبرس وسيرة سيف بن ذى يزن وعن ألف ليلة وليلة.

# الفهرس

| صفحة     |  |
|----------|--|
| ١٢ - ٥   | مقدمة .....                                    |
| ٦٨ - ١٣  | الفصل الأول : السياسة والمجتمع .....           |
| ١٣       | ١ - فتح العرب لمصر والحقب الأولى .....         |
|          | ( أ ) فتح العرب لمصر                           |
|          | ( ب ) زمن الولاة                               |
|          | ( جـ ) الطولونيون                              |
|          | ( د ) الإخشيديون                               |
| ٢١       | ٢ - الفاطميون - الأيوبيون .....                |
|          | ( أ ) الفاطميون                                |
|          | ( ب ) الأيوبيون ( صلاح الدين )                 |
| ٣٤       | ٣ - الماليك - العثمانيون .....                 |
|          | ( أ ) الماليك                                  |
|          | ( ب ) العثمانيون                               |
| ٤٤       | ٤ - المجتمع .....                              |
| ٥٦       | ٥ - التشيع : الدعوة الفاطمية الإسماعيلية ..... |
| ٦٠       | ٦ - الزهد والتصوف .....                        |
| ١٦٠ - ٦٩ | الفصل الثاني : الثقافة .....                   |
| ٦٩       | ١ - الحركة العلمية .....                       |
| ٨٨       | ٢ - علوم الأوائل - علم الجغرافيا .....         |
|          | ( أ ) علوم الأوائل                             |
|          | ( ب ) علم الجغرافيا                            |
| ١٠٨      | ٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد .....    |

## صفحة

- ٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام ..... ١٢٨
- ٥ - التاريخ ..... ١٥١
- الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء ..... ١٦١ - ٢٥٦
- ١ - تعرب مصر ..... ١٦١
- ٢ - كثرة الشعراء ..... ١٦٦
- ٣ - شعر دوري ورباعيات وموشحات وبديعيات ..... ١٧٢
- ( أ ) الشعر الدوري
- ( ب ) الرباعيات
- ( ج ) الموشحات : العزازی . ابن الوكيل
- ( د ) البديعيات
- ٤ - شعراء المديح : المهذب بن الزبير، ابن قلاقس، ابن سناء الملك ، ابن نباتة ، عبد الله الشبراوی ..... ١٨٥
- ٥ - شعراء المراثى والشكوى ..... ٢١٩
- على بن النضر . على بن عرام . ابن النقيب : الحسن بن شاور . عبد الله الإدكاوى
- ٦ - شعراء الدعوة الإسماعيلية ..... ٢٣٩
- ابن هانى . المؤيد فى الدين الشيرازى . ظافر الحداد .
- الفصل الرابع : طوائف من الشعراء ..... ٢٥٧ - ٣٩٩
- ١ - شعراء الغزل ..... ٢٥٧
- ابن النبيه . البهاء زهير . ابن مطروح . برهان الدين القيراطى . نور الدين على العسيلي .
- ٢ - شعراء الفخر والهجاء ..... ٢٩٧
- تيم بن المعز . طلائع بن رزّيك . ابن الذرورى . أحمد بن عبد الدائم . حسن البدرى الحجازى
- ٣ - شعراء الطبيعة ومجالس اللهو ..... ٣٢٢
- ابن وكيع التنيسى . الشريف العقيلي . ابن قادوس . عبد الباقي الإسحاقى

- ٤ - شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ..... ٣٤٢  
ابن الكيزاني . ابن الفارض . البوصيري . محمد بن أبي الحسن  
البكري
- ٥ - شعراء الفكاهة ..... ٣٦٧  
ابن مكنسة . الجزار . السراج الوراق . ابن دانيال . عامر  
الأنبوطي
- ٦ - شعراء شعبيون ..... ٣٨٦  
إبراهيم العمار . الغباري . ابن سودون
- الفصل الخامس : النثر وكتابه ..... ٤٠٠ - ٤٨٩
- ١ - الرسائل الديوانية : ابن الصيرفي . القاضي الفاضل . محيي  
الدين بن عبد الظاهر . ابن فضل الله العمري ..... ٤٠٠
- ٢ - الرسائل الشخصية ..... ٤٢٤  
ابن أبي الشخباء . ابن مماتي . فخر الدين بن مكاس
- ٣ - المقامات ..... ٤٤٢  
ابن أبي حجلة . القلقشندى . السيوطي . الشهاب الخفاجي
- ٤ - المواعظ والابتهالات ..... ٤٦٠  
أبو الحسن الشاذلي . ابن عطاء الله السكندري . أحمد الدردير
- ٥ - كتب النوادر والسير والقصص الشعبية ..... ٤٧٧  
( أ ) كتب النوادر  
كتاب المكافأة . أخبار سيويه المصري . كتاب  
الفاشوش في حكم قراقوش . هز القحوف .
- ( ب ) كتب السير والقصص الشعبية  
سيرة عنتره . السيرة الملالية . سيرة الظاهر بيبرس . سيرة سيف  
ابن ذي يزن . ألف ليلة وليلة
- خاتمة ..... ٤٩٠ - ٤٩٨